

منشورات الجامعة الأردنية
عمادة البحث العلمي

تحولات جذرية في فلسطين

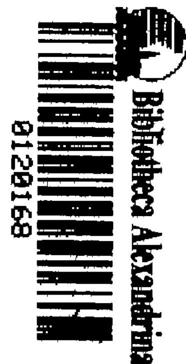
١٨٥٦ - ١٨٨٢

دراسات حول التطور الاقتصادي والاجتماعي والسياسي

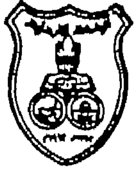
الطبعة الثانية (طبعة منقحة)

تأليف
الكزاندر شولش

ترجمة
د. كامل جميل العسلي



عمان - الأردن
١٤١٤هـ - ١٩٩٣م



منشورات الجامعة الأردنية
عمادة البحث العلمي

٩٣/٣

تحولات جذرية في فلسطين

١٨٥٦ - ١٨٨٢

دراسات حول التطور الاقتصادي والاجتماعي والسياسي

الطبعة الثانية (طبعة منقحة)

تأليف
الكزاندر شولش

ترجمة
د. كامل جميل العسلي
عمادة البحث العلمي

عمّان - الأردن
١٤١٤هـ - ١٩٩٣م



٣٣٠,٩٥٦٤

شول شولش، الكزنــدر

تحولات جذرية في فلسـطين/ تأليف الكـزندر شولش؛ ترجمة كامـل جميل العسلي.- ط ٢ .- عمّـان: الجامعة الأردنّية، عِمـادةُ البحثِ العلميّ، ١٩٩٣.

(٤١٦) ص. (منشورات الجامعة الأردنيّة، ٣/٩٣).

ر.أ (١٩٨٨/١٢/٦٧١٠)

١. فلسطين الأحوال الاقتصادية . ٢. فلسطين الأحوال الاجتماعية . ٣. فلسطين الأحوال السياسية .

أ ـ كامل جميل العسلي ، مترجم ب ـ العنــوان .

(تمت الفهرسة بمعرفة المكتبة الوطنية)

ALEXANDER SCHÖLCH

PALÄSTINA IM UMBRUCH 1856-1882

UNTERSUCHUNGEN ZUR WIRTSCHAFTLICHEN UND SOZIO-POLITISCHEN ENTWICKLUNG



FRANZ STEINER VERLAG WIESBADEN GMBH
STUTTGART 1986

تحوّلات جذريّة في فلسطين.
تأليف: الكزاندر شولش.
ترجمة. د. كامل جميل العسلي
صدرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب:
عام ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م.

صدرت الطبعة الثانية لهذا الكتاب:
في صفر ١٤١٤هـ/ تموز ١٩٩٣م.

منشورات الجامعة الأردنية
عمادة البحث العلمي

الإشراف العام

أ. د. همام بشارة غصيب
(عميد البحث العلمي)

التحرير

ابراهيم محمود الحسنات

محتويات الكتاب

مقدمة المترجم

(الطّبعة الأولى)

في صيف عام ١٩٨٦ كنت في زيارة للجامعات الألمانية بدعوة كريمة من الهيئة الألمانية للتبادل الأكاديمي مع الخارج، واتيحت لي فرصة الاجتماع بالعديد من الأساتذة الألمان ومن بينهم الأستاذ الكزاندر شولش الأستاذ (آنذاك) بجامعة ارلنغن. وقد أبلغني الاستاذ شولش حينئذٍ أنه قد انتهى على التو من تأليف كتاب عن تاريخ فلسطين في القرن التاسع عشر عنوانه:

Palästina im Umbruch 1856 – 1882

أي: «تحوّلات جذرية في فلسطين ١٨٥٦ ـ ١٨٨٢» وأنه دفع بالكتاب إلى المطبعة.

ولما كنت أعرف مكانة الأستاذ شولش العلمية وشيئاً من دراساته الموضوعية عن تاريخ فلسطين ومصر الحديث فقد تشوّفتُ إلى الاطلاع على الكتاب وحصلت على نسخة منه فور صدوره وعكفت على قراءته. وفي هذه الأثناء علمت بأسف عميق بوفاة الكزاندر شولش المفاجىء في أواخر صيف ١٩٨٦ (عن ٤٣ عاماً). وأحزنني النبأ جداً لأن شولش كان عالماً تحلى بأخلاق العلماء ولأنه كان متعاطفاً بصدق مع القضايا العربية، وخاصة قضية فلسطين، وكرس جهوده في السنوات الأخيرة لكشف الجذور التاريخية لهذه القضية وتفنيد المزاعم الاستعمارية والصهيونية بشأنها بشكل علمي رصين، وازداد إعجابي بالمؤلف بعد قراءة كتابه الأخير وباطلاعه الواسع ودقته وانصافه ولفت نظري أهمية المعلومات الواردة في الكتاب للقارىء العربي قبل سواه خصوصاً وأن كثيراً منها مستقاة من وثائق غير منشورة في خزائن المحفوظات في البلدان الأوروبية ولم يسبقه أحد إلى الاستفادة منها. وبناء على ذلك فكرت في ترجمة الكتاب إلى اللغة العربية.

وكان من الدوافع التي حدت بي إلى ذلك أيضاً اعتقادي الجازم بوجوب اطلاعنا نحن العرب على ما يكتب عن بلادنا من دراسات بأقلام أجنبيّة، يستوي في ذلك الدراسات الموضوعية والمؤيدة لنا والدراسات المناوئة، فالاطلاع على كلا النوعين مفيد لنا في تخطيط سيرنا على طريق مستقبل أفضل.

وما من شك في أن هذا الكتاب الذي بين يدي القراء الآن يقدم صورة حية لتاريخ فلسطين في شطر حاسم من القرن الماضي ـ صورة مفعمة بروح التأييد للفلسطينيين وبانصافهم، وتفنيد المزاعم والادعاءات والمطامع الاستعمارية فيها المتلبسة بلباس الدين، كما أنه يعرض تطور الحياة الاجتماعية والاقتصادية في فلسطين تحت تأثير التغلغل الأوروبي وسياسة التنظيمات العثمانية عرضاً موفّقاً جميلاً، استناداً إلى توثيق غني يشمل إضافة إلى الوثائق غير المنشورة التي أشرنا إليها مصادر ومراجع عديدة منشورة بلغات عديدة.

وقد وجدت نفسي في صف واحد مع المؤلف في أكثر ما كتب، وان كانت لي تحفظات قليلة لا تمسّ الطابع العام لهذا الكتاب العميق والطريف والمناصر للحق. ومع حرصي التام على أمانة الترجمة فقد رأيت من المناسب إغفال عبارات قليلة لا تتجاوز في مجموعها ٤٠ سطراً من الكتاب كله، ولا تخدم غرضاً مفيداً. وأشرت إليها بوضع نقاط في مكانها.

وبطبيعة الحال فإن الآراء الواردة في الكتاب تعبّر عن رأي المؤلف، وهي لا تعكس بالضرورة بكل تفاصيلها رأي المترجم ولا رأي الجامعة الأردنيّة.

ويطيب لي أخيراً أن أتقدم بالشكر إلى الجامعة الأردنية التي قامت بنشر الكتاب، وأخص بالشكر الدكتور عبد السلام المجالي رئيس الجامعة والدكتور عدنان البخيت عميد البحث العلمي، وإسأل الله أن ينفع بهذا العمل أبناء أمتنا العزيزة.

المترجم

١٤٠٩هـ/١٩٨٨م

مقدّمة الطّبعة الثّانية

لقد نفدت الطبعة الأولى التي صدرت عام ١٩٨٨م بسرعة منذ سنة ١٩٩١م. وما أن علم الأستاذ الدّكتور همام غصيب، عميد البحث العلميّ بذلك، وتقديراً منه لأهميّة الكتاب، حتى بادر مشكوراً إلى اتخاذ الترتيبات اللاّزمة بموافقة الأستاذ الدّكتور فوزي غرايبة رئيس الجامعة، لإعادة طباعة الكتاب. وها هي الطبعة الثّانية الآن تصدرُ منقّحة مصحّحة. . . آملاً أن تُعاد طباعة الكتاب مراتٍ في المستقبل.

المترجم

تموز ١٩٩٣

كلمة تمهيدية

ظهرت هذه الدراسة إلى الوجود في إطار أحد موضوعات البحث المركزية لمعهد العلوم الإسلامية في جامعة برلين الحرّة. وأود أن أتقدم إلى أعضاء هذا المعهد الذي أتيحت لي فرصة العمل فيه فترة من الزمن بشكري العميق للمساعدات المتعددة التي أوْلوني اياها، وأخص بالشكر منهم فريتس شتيبات Fritz Steppat الذي أمدني بالنصح والعون طيلة سنوات عديدة.

وقد كتبت هذا الكتاب جنباً إلى جنب مع مهام البحث والتدريس في قسم التاريخ بجامعة إسن Essen . وأنّى لي أن أنْسى جو التفتح والانتاج والزمالة الذي عشته مع هيئة القسم.

وقد تسنى لي القيام بالبحث بفضل التشجيع السخي الذي أولتني اياه مؤسسة فولكسفاجن Volkswagen Stiftung فاستحق العاملون فيها مني واجب الشكر، وأخيراً أود أن أزجي شكري إلى اولئك العاملين في المكتبات ومراكز الأرشيف في كل من برلين وبون واسنّ وفينا واكسفورد ولندن وباريس ومرسيليا واستانبول وانقرة وبيروت ودمشق وعمان والقدس، الذين ساعدوني في جمع مادة الكتاب.

وكنت قد طرحت بعض نتائج الأبحاث التي قمت بها للنقاش في مناسبات مختلفة في السنوات الأخيرة. ويجد القارىء ما نشرته من كتابات مدرجاً في فهرس المصادر والمراجع. وقد دمجت هذه المقالات، في صور مختصرة أو مطولة أو مكملة أو بعد إعادة صياغتها، في هذا الكتاب الذي بين أيديكم الآن.

خريف ١٩٨٣

أ. شولش

فهرس المختصرات

A.A	Politisches Archiv des Auswärtigen Amtes, Bonn (الارشيف السياسي لوزارة الخارجية في بون).
A.A.S	Asian and African Studies (الدراسات الاسيوية والافريقية)
HHSTA	Haus, Hof – und Staatsarchiv, Wien (ارشيف القصر والبلاط والدولة، فينا).
HL.	Das Heilige Land (الأرض المقدسة) (مجلة).
IJMES	International Journal of Middle East Studies (المجلة الدولية لدراسات الشرق الأوسط).
ISA	Israel State Archives, Jerusalem (أرشيف دولة اسرائيل، القدس).
JPOS	Journal of the Palestine Oriental Society (مجلة الجمعية الاستشراقية لفلسطين).
MEA	Archives du Ministère des Affaires Etrangères, Paris (أرشيف وزارة الخارجية، باريس).
MES	Middle Eastern Studies (الدراسات الشرق أوسطية).
NNM	Neueste Nachrichten aus dem Morgenlande (أحدث الأخبار من بلاد الشرق).
OMO	Oesterreichische Monatsschrift für den Orient (النشرة الشهرية النمساوية لبلاد الشرق).
PEF	Palestine Exploration Fund (صندوق استكشاف فلسطين).
PEFQS	Palestine Exploration Fund Quarterly Statement (البيان ربع السنوي لصندوق استكشاف فلسطين).
PP	Parliamentary Papers (الأوراق البرلمانية).
PRO	Public Record Office, London (مكتب المحفوظات العامة ـ لندن).
SWP	Survey of Western Palestine (مسح فلسطين الغربية).
TS	La Terre Sainte (الأرض المقدسة) (مجلة)
WI	Die Welt des Islams (عالم الإسلام).
ZDMG	Zeitschrift der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft (مجلة الجمعية الاستشراقية الألمانية).
ZDPV	Zeitschrift des Deutschen Palästina– Vereins (مجلة جمعية فلسطين الالمانية).

[قارن أيضاً : المصادر غير المنشورة] .

تَحَوّلَات جَذرِيّة
فِي فِلسطِيْن

المدخل

يترتب علينا قبل أن نوضح ماهية الأسئلة التي قامت عليها هذه الدراسة أن نبحث إلى أي مدى تمثّل السنوات من ١٨٥٦ إلى ١٨٨٢ مرحلة زمنية محددة في تاريخ فلسطين، بحيث يمكن أن تغدو بصورة معقولة موضوعاً لدراسة من هذا النوع، وأن نبيّن سبب اختيارنا هذه المرحلة بالذات موضوعاً لدراستنا.

إن المواجهة بين الشرق الأدنى وبين اوروبا التي أخذت بأسباب التصنيع وشرعت تتمدد اقتصادياً وعسكرياً، وكذلك ردّ الفعل على هذه التحديات في شكل الاصلاحات «التنظيمات»، أي عملية التحول الاجتماعي السياسي التي دشّنتها القسطنطينية وجرت جزئياً تحت الضغط الخارجي، قد سارا في القرن التاسع عشر في مراحل يمكن معرفتها بوضوح، سواء بالنظر إلى الدولة العثمانية بمجملها أوْ إلى ولاياتها العربيّة، أي الأقاليم الجغرافية. ولا شك في أن الظروف الخاصة بكل منطقة من هذه المناطق، في جبل لبنان أو مصر مثلا، قد أدّت إلى خصوصيات محلية فيما يتعلق بتعاقب هذه المراحل[1]. وهذا ينطبق على فلسطين أيضاً. إن مشكلة عدم وجود كيان إداري يحمل هذا الاسم في زمن العثمانيين على الإطلاق، وبعبارة أخرى قضية ما إذا كان من المشروع أن ندرس التطور الاقتصادي والاجتماعي السياسي في مرحلة معينة من القرن التاسع عشر لمنطقة جغرافية لم توضع لها سياسياً وادارياً حدود دولة إلا في القرن العشرين. . هذه المشكلة سنقوم بمناقشتها في الجزء الأول من هذه الدراسة.

وفيما يتعلق بتاريخ الدولة العثمانيةُ في القرن التاسع عشر يمكن تحديد الأحداث والتواريخ التالية، التي ختمت أو دشّنت فترات التطور المعيّنة[2].

- غزو نابليون لمصر (١٧٩٨) ولسوريا (١٧٩٩) ونتائجه. على أن هذا الغزو لا يُفهم هنا باعتباره بداية لـ «العصر الحديث» في الشرق الأدنى، بل مجرد مرحلة من مراحل «المسألة الشرقية» وَحَدَثٍ ساعد على قيام نظامٍ سياسي واقتصادي جديد في مصر.
- تسوية «الأزمة الشرقية» التي نشأت في الثلاثينات عن احتلال محمد علي حاكم مصر

---

(١) قارن تقسيمي تاريخ مصر في القرن التاسع عشر إلى فترات زمنية.
«Die europäische Expansion und die Transformation Ägyptens».

(٢) قارن: Hurewitz, I; Anderson, The Eastern Question; Kara; Shaw, History of the Ottoman Empire, II.

لسوريا وكيلكيا (١٨٣١ ـ ١٨٤٠)، بمقتضى معاهدتي لندن ١٨٤٠ و١٨٤١، وفي داخل الدولة كذلك صدور مرسوم الاصلاح لسنة ١٨٣٩، المعروف باسم «خطي شريف» الذي دشن الفترة الأولى للتنظيمات (١٨٣٩ ـ ١٨٥٦).

- إنهاء حرب القرم (١٨٥٣ ـ ١٨٥٦) بمقتضى معاهدة الصلح بباريس (١٨٥٦)، وفي الداخل صدور مرسوم الإصلاح المعروف بخطي همايون (١٨٥٦) الذي دشّن الفترة الثانية للتنظيمات (١٨٥٦ ـ ١٨٧٦).

- إفلاس الدولة العثمانية (١٨٧٥) وتشكيل إدارة دولية للدين (١٨٨١)، ووصول «المسألة الشرقية» إلى ذروة حربية في الحروب الروسية التركية لسنة ١٨٧٧/١٨٧٨، ومحاولة التوصل إلى «حل» في مؤتمر برلين (١٨٧٨)، واحتلال انجلترا لقبرص (١٨٧٨) ومصر (١٨٨٢) واحتلال فرنسا لتونس (١٨٨١) وكذلك في الداخل النجاح القصير الأمد للمساعي الدستورية (١٨٧٦ ـ ١٨٧٨) وهزيمتها السريعة.

- ثورة تركيا الفتاة سنة ١٩٠٨، وفي ركابها القومية العربية المشدودة العزم والمطالبة بحق الكلام. إنّ هذه الظروف المحيطة حددت مجرى التطور في فلسطين تحديداً مباشراً، ولذا سار هذا التطور في المراحل ذاتها، بالضبط تقريباً.

وبينما كانت حملة نابليون (١٧٩٩) حدثاً عابراً بالنسبة لفلسطين لم يكد يترك وراءه أيّ أثر، فان الحكم المصري (١٨٣١ ـ ١٨٤٠) شكل مرحلة جديدة. غير أن أهمية هذه المرحلة انحصرت في الدرجة الأولى، نظراً لقصرها، في التطورات الثانوية التي أحدثتها: وهي فتح البلاد أمام التغلغل الأوروبي في نهاية الثلاثينات، وسياسة الاصلاح العثمانية المنافسة له بعد استرداد العثمانيين لفلسطين. إن فترة التنظيمات الأولى (١٨٣٩ ـ ١٨٥٦) كانت تمثل بالنسبة لفلسطين أيضاً منذ سنة ١٨٤٠، مرحلة تاريخية جديدة، وهي مرحلة أعقبتها هذه المرحلة التي نريد دراستها.

إن السنوات من ١٨٥٦ إلى ١٨٨٢ يمكن النظر إليها كفترة ذات معالم محددة في تاريخ فلسطين سواء من حيث الظروف الدولية الإقليمية المحيطة بها أو من حيث التطورات المحلية النوعية التي حدثت فيها. فمع حرب القرم وصلح باريس بدأت مرحلة نوعية جديدة للتغلغل الاقتصادي في الدولة العثمانية، وهي مرحلة تجلّت في الدرجة الأولى في استثمار رؤوس الأموال وفي الوصاية السياسية للدُّول الأوروبية.[٣] ففي مصر فتح سعيد

(٣) قارن مقالتي:

«Wirtschaftliche Durchdringung und politische Kontrolle durch die europäische Mächte im Osmanischen Reich».

(١٨٥٤ ـ ١٨٦٣) أبواب البلاد أمام الأوروبيين، مما أدى فيها أدى إليه إلى بدء العمل في بناء قناة السويس سنة ١٨٥٩. وفي لبنان حطّت رحالها بعد «قلاقل» سنة ١٨٦٠، قوات فرنسية، وفي سنة ١٨٦١ شكلت وحدة إدارية في جبل لبنان «ترتبط بالدولة مباشرة» تحت ما يشبه الحماية الأوروبية. وفي فلسطين تسارع، بعد سنة ١٨٥٦ على الأخص، التغلغل السياسي والديني الثقافي الأوروبي، الذي كان قد بدأ في نهاية الثلاثينات. وفي الوقت نفسه اكتسبت سياسة الإصلاح العثمانية نوعية جديدة. فبينما لم تسفر السياسة العثمانية في فترة التنظيمات الأولى، أي لغاية حرب القرم، عن أي تحول جذري في الهياكل الاجتماعية السياسية، فانها غدت الآن أكثر نشاطاً وفاعلية وأصبح الهدف الآن هو السيطرة الادارية التي لا ينازع الدولة فيها منازع، وزيادة الفعّالية المالية والعسكرية في البلاد.

إن هذه التطورات استمرت في فلسطين بالطبع بعد سنة ١٨٨٢ أيضاً. ولكن أحداث النصف الثاني للسبعينات وبداية الثمانينات شأنها شأن أحداث أواسط الخمسينات كانت بمثابة صوًى واضحة المعالم على الطريق بالنسبة للدولة العثمانية بشكل عام ولفلسطين بشكل خاص. ان الدول الأوروبية الكبرى، التي كانت تتأهب لاقتسام العالم فيما بينها، أصبحت أشد عدوانية في البلدان المجاورة لفلسطين أيضاً (الاحتلال البريطاني لقبرص سنة ١٨٧٨ ولمصر ١٨٨٢)، وقد حصلت الدولة العثمانية بعد مضي ست سنوات على إعلان الإفلاس العام وبقيام إدارة الدين العام على إدارة مالية كان يتنافس فيها الأوروبيون ويسيطرون عليها. وفي سنة ١٨٧٨ تبددت آمال ساسة التنظيمات «الليبراليين» عندما أقدم السلطان على حل البرلمان الذي لم يعمر سوى فترة قصيرة. وقد شخصت القسطنطينية القلقة الغَلَيَان السياسي في مصر وشيئاً من الجلبة في سوريا بأنها مظاهر لقومية عربية ينبغي كبح جماحها أو يُقتضى وضع استراتيجيات مضادة لها.

ومع بدء ما أصبح يُسمى فيما بعد بـ «عاليه الأولى»، وهي موجَة الهجرة اليهودية الأولى، بدأ في فلسطين سنة ١٨٨٢ تطور من نوع خاص تماماً؛ ونشأ تحد خارجي جديد. ولكن لما كان تقدير أهمية هذا التطور أمراً متعذراً في ذلك الوقت المبكر فقد كان من العسير على سكان البلاد في سنة ١٨٨٢ أن يروا فيه حداً فاصلا بين مراحل تاريخية؛ بيد أن الاحتلال البريطاني لمصر وبداية الاستيطان اليهودي في فلسطين كانا يمثلان في الواقع خطينّ للتطور، لكل من الامبريالية البريطانية وللصهيونية، تحرَّك كل منهما في اتجاه الآخر والتقيا أخيراً إبّان الحرب العالمية الأولى. وأدى هذا الالتقاء إلى حكم بريطانيا لفلسطين وإلى بناء وطن قومي يهودي تحت الحماية البريطانية. ولم تكن المسألة بطبيعة الحال مسألة تطورات تاريخية لا مناص منها ولا مردّ لها. ومع ذلك ففي ضوء ما تلا ذلك من تاريخ فلسطين كانت

أحداث سنة ١٨٨٢ تعني من وجهة نظر التطلعات الإنجليزية واليهودية الصهيونية بداية لمرحلة جديدة.

ومعنى هذا أن السنوات من ١٨٥٦ إلى ١٨٨٢ التي يمكن اعتبارها فترة خاصة في تطور فلسطين كانت مرحلة تحولات حاسمة على الصعيدين الاجتماعي الاقتصادي والسياسي الاداري. ومع ذلك فهي لم تخضع حتى الآن للدراسة التاريخية. فهناك من جهة دراسات حول الحكم المصري وفترة التنظيمات الأولى في سوريا، بما في ذلك فلسطين[٤]، وهناك من جهة أخرى سلسلة من الدراسات حول تاريخ فلسطين من سنة ١٨٨٢ حتى الحرب العالمية الأولى، بيد أن أكثر هذه الدراسات تتناول آثار المساعي الصهيونية والسابقة للصهيونية[٥]. وبين هذين النوعين من الدراسات هناك فجوة. ولا تملأ هذه الفجوة دراسات عَوَض حول تطور متصرفية القدس من سنة ١٨٧٤ حتى سنة ١٩١٤ (انظر ثبت المصادر والمراجع) لا من النواحي الجغرافية ولا من النواحي التاريخية والموضوعية إلا إلى حد ما. إلا أن هذه الفجوة بدأت تضيق كما نتبيّنه في الأبحاث التي ألقيت في المؤتمر الدولي الذي عقد في حيفا سنة ١٩٧٩ حول «تراث العصر العثماني في فلسطين» وفي المؤتمر الدّولي الثالث لتاريخ بلاد الشام الذي عقد في عمان سنة ١٩٨٠ وكرّس بأكمله لتاريخ فلسطين. والدراسات التي يضمها هذا الكتاب تهدف أيضاً إلى الإسهام في هذا السبيل.. وموضوعها الأساسي هو التحولات الحاسمة، الاقتصادية والاجتماعية السياسية، في فترة التنظيمات الثانية.

إن قضية الآثار المترتبة على الضغط المزدوج للتغلغل الأوروبي ولسياسة المركزية العثمانية تحتل مقام الصدارة في الدراسة. أما فيما يتعلق بتحليل السياسة العثمانية نفسها فلم يكن في وسعنا أن نسهم في هذا المجال. فعلى الرغم من الجهود المتسمة بالصبر المتعددة الجوانب التي بذلتها رُفض السماح لي بالعمل في الأرشيفات العثمانية في كل من استانبول وأنقرة، دون أي بيان للأسباب. ونتيجة لهذا التصرف المؤسف للسلطات التركية فان تفاصيل سياسة القسطنطينية لم تطرح للبحث في الدراسة التالية. ومع ذلك ففي وسع المرء أن يرتكز في هذا الشأن على الأساس المتين الذي تهيئه كتب دافسون Davison وديفرو Devereaux (انظر ثبت المراجع والمصادر). ولا يتعلق الأمر هنا إلا بنتائج السياسية العثمانية

---

(٤) قارن أبير Abir؛ وهوفمان؛ وماعوز: Ma'oz, Ottoman Reform

(٥) مثلاً ماندل Mandel. قارن ايضاً: بحيري؛ بلدان، «الريف الفلسطيني»؛ موسى «نشوء وتطور»؛ رافق، غزّة؛ راميني؛ سليمان، «ملكية الارض». ومن جهة أخرى لا تقدم لنا دراسة عرابي السباة: Social – geschichte Palästinas (تاريخ فلسطين الاجتماعي) التي تتناول الفترة السابقة للانتداب سوى بعض الانطباعات التي تتخللها أخطاء خطيرة، والتي وضعت في اطار من التصورات والمصطلحات التي تثير الشك والبلبلة.

في فلسطين نفسها بالقدر الذي يمكن فيه إعادة بنائها اعتماداً على المصادر والأدبيات الأوروبية والعربية المحلية والمادة العثمانية المنشورة. وفيما يتعلق بتقارير القنصليات الأوروبية وضعت نصب عيني على الدوام لدى كتابة التاريخ التحذير الذي أطلقه يوسف ابراهيم يزبك: «احذروا القناصل»، فقد عنون يزبك إحدى مقالاته بما يلي: «أيها الدكاترة إحذروا تقارير القناصل»[٦].

وينقسم البحث إلى ثلاثة أجزاء: الجزء الأول يضم لمحة عن التقسيم الإداري والتطور السكاني. والجزء الثاني يتناول بالدراسة التغلغل الأوروبي وآثاره الاقتصادية، أما موضوع الجزء الثالث فهو التحول الاجتماعي السياسي الحاسم.

---

(٦) الطريق، نيسان ١٩٨٠.

الجزء الأوّل

الأرض والسّكان

فلسطين ككيان تاريخي جغرافي وإداري

«هناك فلسطين واحدة فقط . والكل يعرف أين تقع . ولهذا فقد نظن أن إيراد معطيات أدق حول موقع هذا الإقليم وحدوده هو من فضول القول. بيد أن الأمر ليس كذلك. فالواقع أنه لا مناص لنا من تقديم تعريف أدق لما نعنيه بـ «فلسطين» لأن تحديد هذا المدلول ليس واحداً في كل مكان مطلقاً.[٧] هذه المهمة التي صاغها شفيبل على هذا النحو سنة ١٩١٤ ما تزال مطروحة أمامنا هنا أيضاً. بيد أنه ليس في نيتي ولا هو بالمطلوب أن أعطي من جديد نبذة تاريخية حول تطور مدلول فلسطين كاسم لكيان تاريخي جغرافي أو ككيان سياسي إداري[٨]. فالأمر هنا لا يعدو أن نتفحص إلى أي مدى يعقل أن نكتب تاريخاً لفلسطين في فترة معينة من القرن التاسع عشر حين لم تكن هناك وحدة إدارية بهذا الاسم، وفي وقت كانت فيه «حدود» هذه الرقعة الجغرافية، أي هويتها التاريخية الجغرافية، موضعاً للأخذ والرد.

من الواضح أننا حين نتحدث عن فلسطين اليوم تطوف بمخيلتنا منطقة الانتداب البريطاني في الحدود التي كانت قائمة بين سنتي ١٩٢٣ و١٩٤٨، هذا الاسفين الواقع بين مصر على الجانب الافريقي، وشرق الأردن وسوريا ولبنان على الجانب الآسيوي، ومن المفهوم أن نجنح بناء على ذلك إلى التفكير في هذه الرقعة من الأرض، عندما ندرس تاريخ فلسطين العثمانية قبل الحرب العالمية الأولى. ومن المشروع تماماً أن ندرس تطور هذه المجموعة من المناطق التاريخية الجغرافية والادارية التي انبثقت عنها فيما بعد دولة واحدة بوجه التحديد لأن هذه المناطق نمت معاً وتجمّعت في كيان واحد، وإلى هذا المدى فان تاريخ منطقة أصبحت فيما بعد منطقة فلسطين الخاضعة للانتداب لا يحتاج إلى تبرير، على أنه يتوجب علينا بلا شك وبالنسبة للقرن التاسع عشر أن نتخلى عن اسم فلسطين تحت بعض الظروف، فالمسألة هنا تحتاج إلى تعليل للأسباب التي تجعل من المشروع ومن المعقول أن نشير إلى هذه الرقعة من الأرض، باستثناء الجزء الجنوبي من النقب، بمدلول فلسطين في القرن التاسع عشر أيضاً. عندما رسمت حدود منطقة الانتداب لم تكن حصيلة ذلك نتاجاً

---

(٧) Schwöbel, Die Landesnatur Palästinas, 1.5.

(٨) قارن بهذا الشأن الموسوعة الاسلامية [E.I.] ؛ المجلد الثاني، ص ٩١٠ - ٩١٤، مادة «فلسطين»، والمجلد الرابع، ص ١١١٥ وما تلاها، ومادة «الاردن». وكذلك : Lewis, «Palestine»; Aronsfeld; (فيما يتعلق بما كانت عليه «أرض اسرائيل» وما هي عليه الآن).

اعتباطياً مصطنعاً للوحة رسمتها القوى الاستعمارية، بل إنَّ فلسطين كانت قد اتخذت ببطء في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين شكلا محدداً في وعي سكانها ووعي الحكومة المركزية أيضاً.

كان جميع الأوروبيين تقريباً ـ وخصوصاً الصهيونيين في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ـ يفكرون تفكيراً توراتياً تاريخياً، وهم يحاولون تعيين حدود «الأرض المقدسة»، وبعبارة أخرى، فلسطين. وربما أحدث هؤلاء بذلك أصداءً مألوفة لدى مسيحيي البلاد العرب، غير أن الأكثرية الإسلامية والإدارة العثمانية ما كانت تعير الحدود التوراتية أيَّ قدْرٍ من الاهتمام. ومع هذا فان هذه التصورات الأوروبية كانت في سياق التغلغل العام في البلاد والوصاية السياسية على الدولة العثمانية قوة أكيدة لم تعدم أثرها.

وكان التصور الأعم والأكثر انتشاراً في هذا الشأن هو لبلادٍ تمتد «من دان» في الشمال «حتى بئر السبع» في الجنوب[9] ومن البحر المتوسط في الغرب حتى بادية الشام في الشرق، أيْ أنه كان يشمل قطعة من الأرض المسكونة على جانبي نهر الأردن. وهذا التصور هو الأساس الذي قامت عليه نشاطات صندوق استكشاف فلسطين [The Palestine Exploration Fund, PEF] في نهاية الستينات حتى أوائل الثمانينات من القرن التاسع عشر[10]. وعَبْرَ منشورات الصندوق وجَدَ هذا التصور طريقة أيضاً إلى المنشورات المحلية. وهكذا فان مجلة المقتطف المصرية نشرت سنة ١٨٧٨ مقالا تحت عنوان «خريطة فلسطين» وصفت فيه أعمال صندوق استكشاف فلسطين الذي يمسح البلاد «من دان إلى بئر السبع» ومن الأردن حتى البحر المتوسط[11]، كما أن المؤرخ اللبناني ينّي كتب سنة ١٨٨١ يقول: إن نابلس تعتبر أجمل مدينة «في فلسطين من دان إلى بئر السبع»[12].

وقد ظهر المفعول السياسي الكامل لهذا التصور بعد الحرب العالمية الأولى، عندما جرت في أعقاب مؤتمر الصلح في فرساي سنة ١٩١٩ مناقشة الحدود الممكنة لفلسطين بريطانية ـ صهيونية. وقد بعث لويد جورج ببرقية إلى لندن طلب فيها ارسال نسخة عبر القنال من كتاب جورج آدم سمث George Adam Smith

---

(٩) حول هذه الصيغة قارن بومر Boehmer.

(١٠) حول نشاطات صندوق استكشاف فلسطين انظر الان ايضاً، فضلاً عن التقارير والدراسات التي اصدرها الصندوق، خيرية قاسمية: «نشاطات صندوق استكشاف فلسطين».

(١١) المقتطف، مجلد ٣ (١٨٧٨)، ص ١٥٤.

(١٢) ينّي ١٥٢١؛ قارن ايضاً: مطر ١٥٠-١٥٢؛ حصر اللثام ١٤ طوطح وخوري، ٢.

المعنـون بـ Historical Geography of the Holy Land [١٣]. وكذلك الأطلس الملحق به إلى كل مشترك من المشتركين لكي يتسنى النظر في الحدود الدقيقة التي تترتب في الواقع على صيغة «من دان إلى بئر السبع». بل إن بيرتلو Berthelot السكرتير العام لوزارة الخارجية الفرنسية الذي درس أيضاً كتاب سميث، بناء على رجاء لويد جورج، استفاد من هذه الصيغة والتفسير الذي وضعه سميث لها فيما بعد لتفنيد الدعاوى الصهيونية الأبعد مدى، وخاصة تلك المتعلقة بجنوب لبنان (حدود الليطاني)[١٤].

ومع ذلك فان المناقشات التي دارت حول التعيين الدقيق لحدود فلسطين القديمة في الشمال[١٥] لا تهمنا هنا بشيء على الإطلاق. وكل ما يهمنا هنا هو أن نتبيّن تصور السكان المحليين والسلطات العثمانية للحدود الاقليمية وللانتماء في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، مما يمكن اعتباره بهذا المعنى «حدوداً لفلسطين».

إن الحدود الغربية، البحر المتوسط، لم تكن تمثل مشكلة في وقت لم يكن يدور فيه أي جدل حول المياه الإقليمية، وفيما يتعلق بالحدود الشرقية فان بعض الأوروبيين جعلوا نهاية «الأرض المقدسة» عند نهر الأردن. أما أكثرهم فقد جعلوا شرائط عريضة من الأرض في بلاد شرق الأردن، قلّت أو كثرت، تابعة لفلسطين. وقد أشاع التعريف القائل بأن نهر الأردن يقسم البلاد إلى فلسطين غربية وفلسطين شرقية، بشكل خاص، المؤلّف المعروف بـ The Survey of Western Palestine [مسح فلسطين الغربيّة] الذي صدر عن صندوق استكشاف فلسطين (PEF).

أما بالنسبة للسكان العرب وللإدارة العثمانية فان هذا لم يكن مشكلة، ولم يكن مسألة أساسية على الإطلاق، فان بلاد شرق الأردن كانت تتوجه من النواحي الاقتصادية والاجتماعية السياسية والادارية جزئياً نحو الغرب (القدس ونابلس والناصرة وحيفا وعكا) وجزئياً نحو الشمال (دمشق). وكانت التبعية الادارية بالنسبة للعثمانيين قضية عملية خالصة. فقد كانت مصلحتهم الأولى في بلاد شرق الأردن هي حماية طريق الحج من دمشق إلى مكة (انظر الخارطة ٥). ومنذ أواسط القرن التاسع عشر بدأ العثمانيون التغلغل الإداري في شرق الأردن متقدمين من الشمال إلى الجنوب، أي في إنشاء مناطق إدارية في نطاق تنظيمهم العام للولايات[١٦]. كان جنوب شرق الأردن يتبع نابلس بصورة عابرة، وفي

---

(١٣) لندن ١٨٩٤، وقد استعملت نسخةً اعيد طبعها في نيويورك سنة ١٩٦٦ عن الطبعة الخامسة والعشرين للكتاب التي صدرت سنة ١٩٣١.

(١٤) انظر: Frischwasser - Ra'anan, Ch. V; Ingram, 75–77.

(١٥) قارن مثلاً: Thomson, The Land and the Book, 175f, 195f, 238; Avi – Yonah; Mackay.

(١٦) قارن قرْيحا، ص ٨ وما بعدها

الدرجة الأولى» في نطاق سنجق البلقاء (انظر الخريطة ٢). بيد أن حماية طريق الحج كانت تعد على الدوام أبرز الواجبات التي يضطلع بها حاكم دمشق. ومن هنا كان الأمر يقتضي بالفعل الاشراف الاداري المباشر لدمشق على هذه المنطقة. وقد تم وضع ترتيب إداري نهائي كهذا في سنة ١٨٨٧. واتجهت شرق الأردن، بوصفها الجزء الجنوبي من ولاية الشام، تماماً نحو دمشق. أما المنطقة الواقعة بين نهر الأردن والبحر المتوسط فقد انقسمت منذ الآن إلى قسمين: الجنوب كان يتبع، بوصفه سنجق القدس «المستقل» منذ سنة ١٨٧٤، الباب العالي مباشرة، والشمال أصبح تابعاً لولاية بيروت منذ سنة ١٨٨٧. وبهذا المعنى الاداري أصبح نهر الأردن يشكل «الحد الشرقي» لفلسطين (انظر الخارطة ٣). وأما إلى أي مدى كان ينظر إلى المنطقة الواقعة غربي الأردن باعتبارها وحدة محتملة على الأقل فهذا ما سوف نناقشة لدى الحديث عن «الحدود الشمالية».

ولما كانت مصر جزءاً من الدولة العثمانية فان التثبيت الدقيق للحدود في الجنوب والجنوب الغربي لم يكن مسألة ملحّة. لكن هذه المشكلة أصبحت مشكلة حادة بعد الاحتلال البريطاني لمصر في سنة ١٨٨٢، وبعد سعي اللورد كرومر، الذي أصبح الحاكم الفعلي لمصر إلى خلق أوضاع واضحة في مناسبتين محددتين (سنة ١٨٩٢ وسنة ١٩٠٦)[١٧]. وفي الوقت الذي يهمنا كانت هناك حقيقتان لا جدال فيهما هما أن غزة كانت تدار من القدس، والعريش كانت تدار من القاهرة. وفي منتصف الطريق بين هاتين المدينتين كان يرتفع في السماء عامودان قديمان من الغرانيت: «عُمُد رفح». وإذ كنت ترى على هذين العامودين علامة الحدود بين مصر وفلسطين/سوريا، فما الذي كان أقرب منهما إذن إلى النقطة التي تلتقي عندها افريقيا وآسيا على شواطىء البحر الأبيض[١٨]؟ أما في داخل البلاد فكانت فلسطين جنوبي جبل الخليل تضيع في رمال النقب، أي أن سنجق القدس كان ينتهي هناك حيث كانت ذراع الحاكم تفقد تأثيرها. والى هذا الحد كانت بئر السبع تمثل من وجهة النظر العملية حدوداً واقعية بالفعل. إنّ النقب وسيناء كانتا ملكاً للبدو الذين ربما اعترفوا بالسلطان في استانبول أميراً للمؤمنين لكنهم ما كانوا يأبهون للحكّام المصريين والعثمانيين سواء بسواء؛ إذ إنّ حياتهم ونزاعاتهم كانت تحكمها قوانين أخرى.[١٩] لكن مصر كانت لها بالفعل مصلحة في حكم سيناء من حيث أن طريق الحج من السويس إلى مكة

---

(١٧) قارن بهذا الشأن: Frischwasser – Ra'anan, Ch.II; Khalidi, British Policy, Ch.I,II; Lewis, «Palestine», 8–11.
قاسمية، «قضية الحدود».

(١٨) قارن مثلاً:
Die Karawanen – Strasse von Aegypten nach Syrien وكذلك Sepp, II,531 .

(١٩) قارن شقير ١١٢ ـ ١٢٩ و٥٧٠ ـ ٥٨٧؛ العارف، كتاب القضاء؛ العارف، تاريخ بئر السبع؛ Bailey .

كان يمر من النخل والعقبة (الخارطة ٥)[٢٠]

أما مسألة «حدود فلسطين الشمالية» فنريد أن نعالجها، كما أشرنا من قبل، جنباً إلى جنب، مع مسألة أخرى هي إلى أي حد كانت هذه المنطقة تُعَدُّ وحدة مؤتلفة تتبع بعضها بعضاً. دعونا من أجل ذلك نرجع أولا إلى سنة ١٨٣٠. فعشية الاحتلال المصري لسوريا وحّد الباب العالي فلسطين بأكملها أي سناجق القدس ونابلس وعكا، تحت لواء حاكم عكا، لسبب ظاهر هو تعزيز الجبهة العسكرية السياسية في مواجهة أطماع محمد علي[٢١].

إن فكرة ضم السناجق الفلسطينية هذه ظهرت مجدداً بعد عقد من الزمان. ففي إجـراء منفصل من اجراءات مؤتمر لندن المنعقد في ١٧/٩/١٨٤٠ عرض السلطان على محمد علي أن يعينه حاكماً على عكا مدى الحياة وأن يعهد إليه بإدارة سوريا الجنوبية اذا أعلن في مدى عشرة أيام قبـوله لشروط المعاهدة. وما يهمنا هنا هو حدود المنطقة-التي كان من المفروض أن يديرها محمد علي نيابة عن السلطان وحتى وفاته.

[الحدود. . . سيجري تعييناً وفق خط الحدود التالي: هذا الخط الذي يبدأ عند رأس الناقورة، على شاطىء البحر الأبيض المتوسط، سيمتد مباشرة من هناك حتى مصب نهر سَيْسَبان في أقصى الطرف الشمالي لبحيرة طبريا. وسوف يمر على امتداد الشاطىء الغربي للبحيرة، ويتبع الضفة اليمنى لنهر الأردن والشاطىء الغربي للبحر الميت، ومن هناك سيمتد مستقيماً إلى البحر الأحمر حيث يلتقي معه عند النقطة الشمالية لخليج العقبة. ومن ثم سيتبع الشاطىء الغربي لخليج العقبة والشاطىء الشرقي لخليج السويس لغاية السويس[٢٢]].

وهكـذا فقـد كان محمد علي سيتولى بوصفه حاكماً لعكا إدارة فلسطين حتى رأس الناقورة في الشمال، وحتى نهر الأردن والبحر الميت في الشرق، إضافةً إلى النقب وسيناء. . بيد أن هذا الامتداد للحدود لم يتحقق في ظل حكم محمد علي ولا في ظل أي حاكم عثماني آخر.

ومن التطورات المهمّة التي أعقبت ذلك أنّ القدس احتلت مكاناً خاصاً منذ عودة سلطة الباب العالي على سوريا بوصفها المركز الإداري لفلسطين الجنوبية. وفي الأربعينات والخمسينات جرت تجارب مختلفة تتعلق بتوسيع المنطقة التي اتبعت لمتصرف القدس. بل

---

(٢٠) قارن Eckstein, 185.

(٢١) قارن Abu Manneh, «The Rise of the Sanjak of Jerusalem», 23.

(٢٢) Hurewitz, I, 117.

إن القدس وضعت أحياناً ولوقت قصير (١٨٤١ و١٨٥٤) تحت حكم الباب العالي مباشرة[٢٣].

إن خطط ضم سناجق فلسطين لعامي ١٨٣٠ و ١٨٤٠ تم الرجوع إليها مرة أخرى بعد ثلاثة عقود من الزمن. ففي شهر تموز سنة ١٨٧٢ أعلن القناصل الأوروبيون بارتياح كبير أن سناجق القدس ونابلس ـ البلقاء وعكا جرى توحيدها في ولاية القدس أو كما قالوا، في ولاية فلسطين. وقد تولى ثُريّا باشا، الذي كان حتى ذلك الحين والياً لحلب، مهام منصبه في القدس في منتصف الشهر، حاكماً على الولاية الجديدة. وحسب قول ممثل النّمسا تحققت بادخال النظام الإداري الجديد رغبة من أكثر الرغبات الحاحاً لدى سكان البلاد. ويقول تقرير لزميله الألماني إن انهاء تبعية فلسطين لوالي دمشق قوبل بترحيب واغتباط بالغين. وقد ازيلت بذلك عقبة كبرى أمام تطور البلاد. وعلق الناس على هذا الاجراء آمالاً كبيرة بالنسبة للقدس وللبلاد بأسرها.

أما إلى أي حدّ كانت هذه الأصوات القنصلية تعكس فعلاً آراء السكان العرب فهذا أمر لا نكاد نقطع فيه بقول. وعلى أية حال فإنّ الأوروبيين في البلاد قد هللوا فرحين. وكم كانت خيبة أملهم عندما وصلت برقية من القسطنطينية في ١٨٧٢/٧/٢٣ تعلن العدول عن الاجراء والغاء ولاية القدس مرة أخرى. واحتجّ القناصل بشدة وجاءوا بتخمينات شتى حول الأسباب التي دعت إلى ذلك، أو أنهم رددوا الشائعات التي كانت تدور حول أسباب الالغاء. وأبلغت البعثة الألمانية في القسطنطينية القنصلية في القدس بتاريخ ١٨٧٢/٨/٢٢ انعكاسات هذا الحدث في القسطنطينية: إن الصدر الأعظم السابق محمود نديم باشا قد أمر بانشاء ولاية القدس، لأن الولايات القائمة كانت في رأيه أكبر من أن تتيح إدارة جيدة لكنه عاد فألغى هذا الاجراء بعد أن لفت نظره إلى الأخطار التي قد يجرها توحيد جميع «الأماكن المقدسة» في ولاية واحدة على الحكومة العثمانية. وقد شاطره الصدر الأعظم الجديد مدحت باشا هذا الارتياب، ولذلك فانه أمر بعد تسلمه مهام منصبه مباشرة بجعل متصرفية القدس تابعة لدمشق[٢٤].

---

(٢٣) قارن: Abu Manneh, «The Rise of the sanjak of Jerusalem» Ma'oz, Ottoman Reform, 33؛ صبري، ص١ وما بعدها.

(٢٤) فيما يتعلق بهذه الاحداث انظر:

ISA – DKJ, AXXI. 1.1. (Jerusalem, 19, 24, 27.7.1872, Bujukdere, 22.8.1872) PRO–F.O. 78 vol. 2242 (Jerusalem 27-7-1872; HHSTA – Archiv Jer., Fasz 54 (Jerusalem, 17,24, 27.7.1872)

وفيما يتعلق بسياسة محمود نديم قارن ايضاً: Davison, 167–169; . وحول عزل محمود نديم وتعيين مدحت انظر المصدر نفسه ٢٨٧.

والمهم في هذا الحدث بالنسبة لما نحن بصدده أن الباب العالي قد فكّر أصلا في تجميع فلسطين، بما في ذلك منطقة صغيرة في جنوب شرق الأردن، في ولاية واحدة. وكان يراد للحد الشمالي، كما كان الأمر في سنة ١٨٤٠، أن يمتد في خط يصل بين رأس الناقورة و«دان»، أي خط الحدود الشمالي لسنجق عكا، وليس نهر الليطاني مثلا. (قارن الخريطة ٢). وقد بقي هذا الخط حتى نهاية الدولة العثمانية الحد الفاصل بين سنجقي عكا وبيروت، وأصبح بناء على ذلك الحد الشمالي لفلسطين الانتداب بصورة منطقية.

إن النظرة التي جعلت الأوروبيين يرحبون باقامة ولاية فلسطين (من حيث أنها الولاية التي شملت جميع «الأماكن المقدسة» المسيحية واليهودية، خصوصاً صفد وطبريا والناصرة والقدس وبيت لحم والخليل) كانت هي النظرة نفسها بالضبط التي دعت الباب العالي إلى الغاء الإجراء الذي اتخذه. كان الأوروبيون يرغبون في التعامل مع حاكم واحد فقط يتبع القسطنطينية مباشرة. أما الباب العالي فقد حاول في مواجهة ذلك أن يقيم تعقيدات إدارية أمام التغلغل الأوروبي في «الأرض المقدسة[٢٥]. » وسوف نرى فيما بعد أن الباب العالي كانت له أفكار مماثلة في مجال استغلال البنية التحتية لفلسطين، ولذلك اتسمت مواقفه في منح الامتيازات بالتحفظ.

بيد أن الاتصال المباشر بالقدس كان أمراً نافعاً بالنسبة للاشراف العثماني، ولذلك فان سنجق القدس وضع سنة ١٨٧٤ تحت حكم القسطنطينية المباشر[٢٦] وبقي حتى الاحتلال البريطاني لفلسطين في سنة ١٩١٧ «على اتصال مباشر بالدولة». وانشيء اتصال تلغرافي بالقدس منذ حزيران ١٨٦٥، وبيافا قبل ذلك في آب ١٨٦٤ (أنظر الخارطة رقم ٨)[٢٧].

وهكذا فإن الباب العالي قام من جهة، ومنذ سنة ١٨٣٠، بعدة محاولات لتوحيد فلسطين إدارياً، ولحكمها دون وساطة واليَيْ بيروت ودمشق، ولكنه من جهة أخرى تباطأ

---

(٢٥) بين سنتي ١٩٠٦ و١٩٠٩ ضمّ قضاء الناصرة البعيد إلى متصرفية القدس بصورة موقته لكي يتسنى للاوروبيين الرجوع إلى حاكم واحد في القضايا التي تتعلق بالحجاج المسيحيين! قارن: عوض: «متصرفية القدس اواخر العهد العثماني» ص ١٣٠.

(٢٦) Hartmann, «Die Ortschaftenliste des Liwa Jerusalem», 102, ؛ عوض، متصرفية القدس (رسالة جامعية)، ص ٢٤ وما بعدها.

(٢٧) حول نظام التلغراف الفلسطيني الذي كان ذا اهمية كبيرة للتجارة قارن:

PRO – F.O. 78, vol 1834 (Jaffa 6.9 1864), vol, 1875 (Jerusalem 22.6,1865); HL, VIII (1864), 129; Wolff, **Sieben Artikel**, 104f, Vidal, 386f; Luncz, 136f.

في ذلك لكي لا يسهل الأمور أمام التغلغل الأوروبي. إنّ وضع القدس تحت حكم القسطنطينية المباشر كان بمثابة حل وسط، ويمثل أبو مَنّة النظرية القائلة بأن أحد الأسباب المهمّة لسياسة التعزيز الإداري هذه كان رغبة الباب العالي في أن يجعل من فلسطين أو من سنجق القدس الواقع «تحت الإشراف المباشر للدولة» قوة لمواجهة الأطماع المصرية والنفوذ المصري في سوريا[٢٨]. ومهما يكن الأمر فان التجارب والحقائق الادارية التي ذكرناها هنا، وخصوصاً اعلاء مكانة سنجق القدس مدة نصف قرن تقريباً، أسهمت بلا شك في نشوء تصور لفلسطين، بوصفها كياناً إدارياً[٢٩].

ويؤكد بوراث Porath في هذا السياق فضلا عن ذلك دور الإدارة الكنسية والتقاليد الإسلامية المحلية وأخيراً دور الصهيونية[٣٠]؛ إذ إنّ دائرة اختصاص بطريركية الروم الأرثوذكس تشمل القدس بأسرها وبلاد شرق الأردن. ومن البديهي أن الأسقفية البروتستانتية في القدس أيضاً، التي أسست سنة ١٨٤١، والبطريركية اللاتينية التي أعيدت إلى الحياة سنة ١٨٤٧ (أنظر أدناه) قد شملتا فلسطين بكاملها و«الأرض المقدسة» بكاملها.

وكان من بين الأمور الفائقة الأهمية بالنسبة للمسلمين المحليين في هذا الصدد موسم النبي موسى السنوي. ففي هذه المناسبة كان المسلمون يحجون من فلسطين بأسرها إلى القبر المزعوم للنبي موسى في الشمال الغربي من البحر الميت، قرب أريحا. وكان اسبوع الحج★ إلى النبي موسى أهم حدث ديني وفولكلوري في العام كله. وقد أجمع المراقبون الأوروبيون المعاصرون على أن هذا الحج لقي تشجيعاً قوياً من السلطات العثمانية منذ أواسط القرن التاسع عشر لموازنة سيل الحجاج المسيحيين. صحيح أن الحجاج كانوا يفدون

---

(٢٨) Abu Manneh, «The Rise of the Sanjak of Jerusalem» 24f.

(٢٩) في سنة ١٨٨٢ وصف القنصل الألماني فلسطين «التاريخية» وفلسطين «السياسية» كمايلي:
«إن فلسطين التاريخية، التي تمتد في الشمال حتى سفح جبل لبنان وفي الجنوب حتى حافة الصحراء والتي يحدها من الغرب البحر المتوسط ومن الشرق طريق الحج الرئيس من دمشق إلى مكة والواقع على الجانب الأحمر من نهر الاردن، تشمل منطقة تبلغ مساحتها ٤٦٥ ميلاً مربعاً. وتختلف عن هذه حدود ولاية فلسطين السياسية، حدود لواء القدس، اختلافاً جوهرياً. إذ أن هذه الأخيرة تمتد شمالاً حتى بشالق نابلس، وغرباً حتى ساحل البحر المتوسط. وفي الجنوب تتخذ الحدود مع مصر شكل قوس كبير يمتد عبر وادي العريش حتى نقطة قريبة من خليج العقبة، بينما يشكل وادي عربة والبحر الميت ونهر الاردن الحد الفاصل من جهة الشرق. وتضم هذه الرقعة التي يبلغ طولها حوالي ٣٠٠ كيلومتر وعرضها ١٥٠ كيلو متراً ثمانية الاف كيلو متر مربع تقريباً من الاراضي القابلة للزراعة. وتمثل البرية التي تنصب فيها العشائر البدوية التي لا تعترف بسيادة دولة مضارب خيامها الأرض الباقية التي تضم ٣٧ الف كيلومتر مربع».
(Deutsches Handelsarchiv, 1883, 11, 416).

(٣٠) Porath, The Emergence 6–9.

★ الاصح أن يقال: «الزيارة» ـ المترجم.

إلى هذا الموسم من جميع أنحاء العالم الإسلامي، بيد أنه كان «حجاً فلسطينياً» في الدرجة الأولى. فمن جميع أنحاء البلاد كانت تتدفق أرتال الحجاج يصاحبها عزف الموسيقى ودق الطبول وتخفق فوقها الأعلام. وقدر عدد الحجاج سنة ١٨٧٥ بعشرة آلاف شخص بينهم ألفان من كل من الخليل ونابلس وضواحيها[٣١].

وبعد الوقت الذي هو موضوع دراستنا، وخاصة منذ بداية القرن العشرين، كانت الطموحات اليهودية الصهيونية إلى «أرض اسرائيل» هي التي عززت بعدئذ لدى السكان العرب، وهم يدافعون ضد هذه الادعاءات، صورة كيان فلسطيني. وبعد الحرب العالمية الأولى تشكلت الحركة الوطنية الفلسطينية في الدرجة الأولى، كحركة مضادة للصهيونية[٣٢].

وفي وسع المرء أن ينطلق باطمئنان من القول بأن تصور فلسطين كوحدة (كَـ «أرض مقدسة» أو «أرض اسرائيل») كان قد نما عند الأوروبيين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر على نحو أدق وأقوى مما كان الأمر عليه عند السكان المحليين أو عند الإدارة العثمانية. ومع هذا فقد كانت فكرة الانتماء ماثلة للعيان في هذه المنطقة تحت السطح المتقلب للحدود الإدارية منذ سنة ١٨٣٠ على الأقل، وهو انتماء أخذت ملامحه تتضح أكثر فأكثر منذ سنوات السبعين[٣٣]. وإلى هذا المدى فان إقليم فلسطين زمن الانتداب لم يكن كياناً مختلقاً من صنع الاستعمار[٣٤].

وأخيراً علينا أن نراجع بصورة مجملة التبعية الإدارية للألوية الفلسطينية / السناجق / المتصرفيات[٣٥] للإيالات / الولايات في الفترة الواقعة بين ١٨٥٦ و١٨٨٢ بالاستناد

---

(٣١) Die Warte, 3 6. 1875.

وقارن أيضاً: Finn, Stirring Times, 1, 204 f, II 222 f;

Ebers / Guthe, I, 35f.; Gatt, **Beschreibung über Jerusalem**, 243–245; Pierotti, **La Bible et la Palestine**, 281–286; Bliss, 268f.; Khalaf, 38–40.

(٣٢) قارن .Flores, Kap. 6, Wild

(٣٣) قارن أيضاً ,Mandel XX

(٣٤) على أنه في معرض الدفاع ضد الادعاءات البريطانية والصهيونية وخلال «مرحلة سوريا الجنوبية» جرى التأكيد على انتماء فلسطين لسوريا وبعبارة أخرى على وحدة سوريا. قارن صلاح، ١٦٧ ـ ١٨٦. يضاف الى ذلك أن فلسطين عرِّفت هنا بأنها المنطقة الممتدة من نهر القاسمية حتى العريش، ومن البحر المتوسط حتى سكة حديد الحجاز (المصدر نفسه، ١٦٧).

(٣٥) وحتى بعد سنة ١٨٦٤ كانت هذه الأسماء تستعمل بصورة متبادلة. قارن أيضاً:

Hartmann, "Die Ortschaftenliste des Liwa Jerusalem", 102.

للمعلومات الواردة في سالنامات الدولة العثمانية من رقم ١٠ لسنة ١٢٧٢ (١٨٥٥ - ٥٦) حتى رقم ٣٨ لسنة ١٣٠٠ (١٨٨٢ - ٨٣)[٣٦].

تشير سالنامات السنوات ١٨٥٥/٥٦ حتى ١٨٦٤/٥٥ باستمرار إلى الألوية الثلاثة لعكا ونابلس والقدس التي كانت تتبع ولاية صيدا. وبعد تشكيل ولاية سوريا الجديدة (١٨٦٤) كانت هذه الألوية في الكتاب السنوي لعام ١٨٦٥/٦٦ تابعة لدمشق. ووفق سالنامتي ١٨٦٦/٦٧ و ١٨٦٧/٦٨، نشأ في هاتين السنتين فاصل زمني إداري تغير فيه التسلسل الإداري. فلم تعد عكا ونابلس تابعتين لدمشق بصورة مباشرة، بل عن طريق بيروت أو القدس. وفي الكتب السنوية الممتدة من ١٨٦٨/٦٩ حتى ١٨٧٢/٧٣ أصبحت هذه الألوية الثلاثة عكا والقدس والبلقاء (نابلس) تتبع بدورها دمشق بصورة مباشرة مرة اخرى، بوصفها عاصمة لولاية سوريا. والجديد منذ ١٨٦٨/٦٩ (وبقي الأمر كذلك حتى نهاية الفترة التي نعالجها) أن لواء نابلس جرى توسيعه بحيث أخذ يضمُّ جنوبي شرق الأردن، وأصبح اسمه لهذا السبب لواء البلقاء. ووفقاً لسالنامات سنوات ١٨٧٣/٧٤ حتى ١٨٨٢/٨٣ بقي لواء عكا والبلقاء تابعين لدمشق. غير أن القدسَ أصبحت سنجقاً «مستقلاً» أو لواء/ متصرفية «مستقلا» (Mustaqillan idáre Olunmaqdadir) (أنظر الخارطة ٢).

وقد خضع شكل الأقضية ضمن كل سنجق أو شكل النواحي ضمن كل قضاء إلى تغييرات متعددة نجد معلومات عنها في سالنامات الولاية. لكن الكتب السنوية للولاية ليست في متناولنا لكل السنوات، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فاننا سنقدم على مغامرة لا معنى لها نوعاً ما أيضاً لو أننا تتبعنا هذه التقلبات على المستويات الإدارية الدنيا بجميع تفاصيلها. وسنورد في بداية الفصل التالي صورة للوضع في سنة ١٢٨٨ (١٨٧١/٧٢). وسالنامة سوريا لسنة ١٢٨٨ هي السالنامة الوحيدة التي تقدم لنا احصاءات شاملة عن الألوية الفلسطينية الثلاثة. وبعد تشكيل سنجق القدس المستقل لم يعد هذا يدخل في سالنامات دمشق.

---

(٣٦) قارن ايضاً: عوض، الادارة العثمانية، وعوض متصرفية القدس (رسالة جامعية)، ١-٥.

التطور السكاني (الديموغرافي)

لقد سبق لبعض المؤلفين أن وصفوا بالتفصيل المشكلات الحرجة التي يواجهها المرء وهو يحاول أن يتتبع التطور السكاني لفلسطين في القرن التاسع عشر[٣٧]. ولهذا ففي وسعنا أن نوفر على أنفسنا الندب والعويل ابتداء. وليست المشكلة أننا لا نملك احصاءات عثمانية في هذا الصدد[٣٨]، بل إن المشكلة بالأحرى هي في مصداقية هذه الاحصاءات، وموثوقيتها وفي صحتها الحسابية[٣٩].

إن الاحصاءات العثمانية الوحيدة التي تشمل كل فلسطين ترجع، كما أشرنا، إلى سنة ١٢٨٨ (١٨٧١ - ٧٢). وسنجعل هذه الاحصاءات في بؤرة اهتمامنا هنا، وندرس انطلاقاً منها تطور السكان رجوعاً إلى أواسط القرن، ثم نتقدم إلى الأمام حتى بداية الثمانينات. وسيعطينا هذا الجدول في الوقت ذاته لمحة عن هُزال البنية الادارية في فلسطين في بداية السبعينات.

الجدول رقم ١

التقسيمات الادارية لفلسطين وعدد الخانات (جمع خانة = أسرة)

في المدن والنواحي وفقاً لسالنامة ولاية سورية

لسنة ١٢٨٨ (١٨٧١ - ٧٢)[٤٠].

(ق = قرية، م = خانات المسلمين، غ = خانات غير المسلمين، ع = المجموع)

---

(٣٧) قارن مثلا Ben-Arieh, "The Population"; Gerber, "The Bopulation"; Gottheil, "The Populaltion"

(٣٨) Gottheil, "The Population", 311; . تجاهل هذا المؤلف المصادر العثمانية المنشورة والاحصاءات الأوروبية المعاصرة التي استندت اليها.

(٣٩) قارن "Hartmann, "Die Ortschaftenliste des Liwa Jerusalem

(٤٠) ان مجموع عدد الخانات الذي استخرجته لقرى ناحية من النواحي لا يتطابق في كثير من الأحيان والمجموع الذي تعطيه السالنامة. ومع انني لم استطع حل أسرار فن الحساب عند موظفي الولاية العثمانيين فقد ذكرت في كل مرة المجاميع الواردة في المصدر حرصاً على الاتساق. وقد حاول هارتمان في دراسته «Die Ortschaftenliste des Liwa Jerusalem" أن يصحح الأخطاء الحسابية. بيد أن اهتمامه الرئيسي كان منصباً على أسماء الأماكن. قارن سوسين: ;Socin: "Alphabetisches Verzeichniss", 138

لواء القدس

قضاء القدس

مدينة القدس	:	المسلمون	١٠٢٥
		الروم الأرثوذكس	٢٩٩
		اللاتين	١٧٩
		الأرمن	١٧٥
		الكاثوليك (الروم الكاثوليك)	١٨
		البروتستانت	١٦
		القبط	٤٤
		السريان	٧
		اليهود	٦٣٠
		المجموع	**٢٣٩٣**

ناحية بني زيد :	٢٤ ق	١٢٢٠م	٦٦غ	١٢٨٦ع
ناحية بني مرة وبني سليم :	١٢ ق	١١٢٧م	٩٦غ	١٢٢٣ع
ناحية بني مالك :	٢٣ ق	١٠٧٥م	(=ع)	
ناحية بني حسن :	٩ ق	٤٩٦م	١٢غ	٥٠٨ع
ناحية الوادية : (بما فيها بيت لحم)	١٠ ق	٣٨٤م	٧٦٠غ	١١٤٤ع
ناحية بني حارث الشمالية والقبلية :	ق١٧	٧٤٨م	١٤٨غ	٨٩٦ع
ناحية جبل القدس :	ق٢١	١٠٦٨م	١٢٠غ	١١٨٨ع

قضاء الخليل

مدينة الخليل	:	مسلمون	٢٨٠٠
		يهود	٢٠٠
		المجموع	**٣٠٠٠**

ناحية الخليل :	١٤ ق	١٠٧٨م (=ع)
ناحية عمامة :	٥ق	٣٥١م (=ع)
ناحية بيت جبرين :	١٢ق	٦٧٢م (=ع)
ناحية العرقوب :	٢١ق	٧١٩م (=ع)

قضاء غــزة

مدينة غــزة :	مسلمون	٢٦٩٠
	روم ارثوذكس	٦٥
	المجموع	**٢٧٥٥**

ناحية خان يونس :	١٤ ق	١٨٩٦م (=ع)
ناحية المجدل :	٧ق	١٤٧٤م (=ع)
ناحية غزّة :	٣٤ق	٣٠٤٧ (=ع)
ناحية العرقوب :	٢١ق	٧١٩م (=ع)

قضاء يافــا

مدينة يافـا :	مسلمون	٨٦٥
	روم ارثوذكس	١٣٥
	كاثوليك	٧٠
	لاتين	٥٠
	أرمن	٥
	موارنة	٦
	المجموع	**١١٣١**
ناحية يافـا :	١١ ق	٤٩٨م (=ع)
ناحية لـد		
مدينة لد :	مسلمون	٧٠٠
	روم ارثوذكس	٢٠٧
	المجموع	**٩٠٧**
آخرون	١٨ ق	١٤٦٤م (=ع)
ناحية الرملة :		
مدينة الرملة :	مسلمون	٦٧٥
	روم ارثوذكس	٢٥٠
	المجموع	**٩٢٥**
آخرون	٣٢ ق	١٤٧٧م (=ع)

(٤١) قارن أيضاً . Gatt, "Verzeichnis der bewohnten Ortschaften der Kaimakamije Gaza".

لواء البلقاء

قضاء نابلس

مدينة نابلس	:	مسلمون	١٣٥٦
		روم ارثوذكس	٧٠
		لاتين	١٣
		بروتستانت	١٣
		يهـود	١٤
		سامريون	١٢
		المجموع	**١٤٧٨**

ناحية مشارق نابلس	٢٠ ق	١١٨٥م	(=ع)	
ناحية مشارق الجرار	٢٨ ق	١٩٣٢م	٦٠غ	١٩٩٢ع
ناحية جماعين أول	٢٣ ق	١٥٠٠م	٤٠غ	١٥٤٠ع
ناحية جماعين ثاني	٢٥ق	١٢٥٩م	(=ع)	
ناحية وادي الشعير	٢٠ ق	١٧٠٧م	٢٠غ	١٧٢٧ع
ناحية الشعراوية الشرقية	٢٤ق	١٩٩٧م	٧٠غ	٢٠٦٧ع
ناحية الشعراوية الغربية	٨ق	١٣٥٨م	(=ع)	
ناحية بني صعب	٢٨ق	٢٠٨٤م	١٢غ	٢٠٩٦ع

قضاء جنين

مدينة جنيـــن	:	مسلمون	٦٥٦
		روم ارثوذكس	١١٦
		المجموع	**٦٧٢**

ناحية شفا قبلي	١٢ ق	٤٦٩م	٧غ	٤٧٦ع
ناحية شفا شمالي	١٣ق	٥١٣م	(=ع)	
ناحية شفا غربي	١٤ق	١١٣٨م	١٠غ	١١٤٨ع

قضاء عجلون

سبع نواحي فيها ما مجموعه	٩٧ ق	١٥٩٩م	١٣٧غ	١٧٣٦ع

قضاء الصّلت

مدينـة الصّلـت	:	مسلمون	٥٠٠
		روم ارثوذكس	١٧٥
		لاتين	٢٥
		بروتستانت	٥٠
		المجموع	**٧٥٠**
آخرون	:	١٢ ق	٦٨٥م (=ع)

لواء عكـــا

قضاء عكـــا

مدينة عكـــا	:	مسلمون	٥٤٧		
		روم أرثوذكس	٩٧		
		كاثوليك	٩٩		
		لاتين	٨		
		موارنة	٦		
		يهود	٦		
		المجموع	**٧٦٣**		
ناحية الساحل			١٩ ق	٧٧٥م	٩٥٨غ ١٣٧٣
ناحية الشاغور:			١٥ ق	٩٩٣م	٤٢٣

قضاء حيفـا

مسلمون	٢٢٤
روم أرثوذكس	٦٤
كاثوليك	١٣١
لاتين وموارنة	١٧
بروتستانت	١٦
يهـود	٨
المجموع	**٤٦٠**

ناحية روحة	١٩ ق ٩٣٩م	(=ع)
ناحية الساحل	١٥ ق ٨٩٦م	(=ع)
ناحية الجبل	٧ ق ١٧٦م	١٦٠غ ٣٣٦ع

قضاء الناصرة

مدينة الناصرة	: مسلمون	٢٧٥
	روم ارثوذكس	٥٣٣
	كاثوليك	١٦٦
	لاتيـن	٢٤٧
	موارنة	٦١
	بروتستانت	٦٦
	المجموع	**١٣٤٨**

ناحية الناصرة :	٢١ ق ٩٩٨م	١٨٥غ ١١٨٣ع
ناحية شفا عمرو:	١٧ ق ٦٠٨م	٣٥٩غ ٩٦٧ع

قضاء طبريا

مدينة طبريا	: مسلمون	١٥٩
	روم أرثوذكس	٦٦
	يهود	٤٠٠
	المجموع	**٦٢٥**

ناحية الشفا والغور	٧ ق ٥٠٧م	(=ع)

قضاء صفـد

مدينة صفــد	: مسلمون	١٢٩٥
	روم أرثوذكس	٣
	يهود	١١٩٧
	المجموع	**٢٤٩٥**

ناحية جيرة	٢٥ ق ٥٠٠م	١١٥غ ٦١٥ع
ناحية الجبل	١٣ ق ٦١٧م	٥٠١غ ١١١٨ع

الجدول ٢
وهو مجمل للجدول ١

اسم القضاء		عدد المدن والقرى	عدد الخانات			
			مسلمون	نصارى*	يهود	المجموع
القدس	القدس	١	١٠٢٥	٧٣٨	٦٣٠	٢٣٩٣
	الريف	١١٦	٦١١٨	١٢٠٢		٧٣٢٠
الخليل	الخليل	١	٢٨٠٠		٢٠٠	٣٠٠٠
	الريف	٥٢	٢٨٢٠			٢٨٢٠
غزة	غزة	١	٢٦٩٠	٦٥		٢٧٥٥
	الريف	٥٥	٦٤١٧			٦٤١٧
يافا	يافا		٨٦٥	٢٦٦		١١٣١
	لد	٣	٧٠٠	٢٠٧		٩٠٧
	رمله		٦٧٥	٢٥٠		٩٢٥
	الريف	٦١	٣٤٣٩			٣٤٣٩
نابلس	نابلس	١	١٣٥٦	١٠٨	١٤	١٤٧٨
	الريف	١٧٦	١٣٠٢٢	٢٠٢		١٣٢٢٤
جنين	جنين	١	٦٥٦	١٦		٦٧٢
	الريف	٣٩	٢١٢٠	١٧		٢١٣٧
عجلون	الريف	٩٧	١٥٩٩	١٣٧		١٧٣٦
الصلت	الصلت	١	٥٠٠		٢٥٠	٧٥٠
	الريف	١٢	٦٨٥			٦٨٥
عكا	عكا	١	٥٤٧	٢١٠	٦	٧٦٣
	الريف	٣٤	١٧٦٨	١٠٢١		٢٧٨٩
حيفا	حيفا	١	٢٢٤	٢٢٨	٨	٤٦٠
	الريف	٤١	٢٠١١	١٦٠		٢١٧١
الناصرة	الناصرة	١	٢٧٥	١٠٧٣		١٣٤٨
	الريف	٣٨	١٦٠٦	٥٤٤		٢١٥٠
طبريا	طبريا	١	١٥٩	٦٦	٤٠٠	٦٢٥
	الريف	٧	٥٠٧			٥٠٧
صفد	صفد	١	١٢٩٥	٣	١١٩٧	٢٤٩٥
	الريف	٣٨	١١١٧	٦١٦		١٧٣٣

★ في الريف : غير المسلمين؛ في نابلس : النصارى والسامريون .

إن الشك في إمكان الاعتماد على هذا الاحصاء العثماني تثيره بشكل خاص المعطيات التالية : العدد الاجمالي للأسر في القدس الذي يبدو منخفضاً جداً، عدد الخانات في الخليل الذي يظهر بوضوح أنه لا يعدو أن يكون تقديراً إجمالياً مبالغاً فيه للغاية ؛ المعطيات المبالغ فيها والخاصة باللد والرملة وجنين والناصرة، الأرقام الخاصة بصفد التي تبدو مرتفعة جداً (قارن أدناه الجدول ١٢). غير أنه يبدو لنا بشكل ما أن المعطيات المنخفضة جداً حيناً والمرتفعة حيناً آخر لهذه المدن تتعادل في المرّة الأخيرة في الاحصاء الاجمالي. لا يتضمن هذا الاحصاء أي معطيات عن السكان البدو. واذا استثنينا القضائين الكائنين في شرق الأردن فستظهر لنا الصورة التالية لفلسطين :

الجدول ٣
المدن والقرى والخانات حسب الألوية (١٢٨٨)

	عدد المدن والقرى	عدد الخانات
لواء القدس	٢٩٠	٣١١٠٧
لواء البلقاء (دون قضائي عجلون والصلت)	٢١٧	١٧٥١١
لواء عكا	١٦٣	٣١١٠٧
المجموع	**٦٧٠**	**٦٣٦٥٩**

المصدر : كما في الجدول السابق.

بلغ عدد الخانات في المدن الثلاث عشرة ١٨٩٥٢ خانة وفي الستمائة وسبع وخمسين قرية ٤٤٧٠٧ خانات.

لن نناقش هنا بالتفصيل عدد الأشخاص الذي نستطيع أن نقبله للخانة الواحدة. فقد تم هذا من قبل في العديد من المرّات. فجيربر Gerber مثلا يصل إلى نتيجة مؤداها أن العدد (٥) هو معامل الضرب المناسب[٤٢] أي أن عدد الأفراد في الأسرة المتوسطة هو خمسة. ويرى بن أريه Ben-Arieh أن أربعة أو خمسة أشخاص للأسرة الواحدة هو عدد منخفض نوعاً ما بالنسبة لسكان المدن في فلسطين في القرن التاسع عشر[٤٣]. وعلى أساس معطيات

(٤٢) Gerber, "The Population" 59–62. ونقصد بمعامل الضرب العدد المضروب فيه

(٤٣) Ben– Arieh, "The Population" 66, note 145

موازية للخانات والنفوس في احصاء رسمي لسنة ١٨٧٠ تقريباً (انظر الجدول ٤) نرى أن العدد ٦ هو أنسب[٤٤]. وينتج عن هذا أن عدد سكان فلسطين الاجمالي كان يبلغ ٣٨١٩٥٤ شخصاً (دون البدو). ومن هؤلاء كان يعيش في القرى ٢٦٨٢٤٢ شخصاً وفي المدن الثلاث عشرة المشار إليها ١١٣٧١٢ شخصاً.

ولنقارن بادىء ذي بدىء العدد الأخير الذي ذكرناه باحصاء بن اريه (الجدول ١٢) الـذي يستند إلى تقويم نقدي للمصادر الأوروبية: من المدن الثلاث عشرة المذكورة في سالنامة ١٢٨٨ ليس هنالك ذكر للّد وجنين في الجدول ١٢ ولكن أضيفت بدلا منهما بيت لحم. إن العدد الذي قدّره بن أريه لمجموع سكان المدن حوالي سنة ١٨٦٠ وهو ٩٠,٠٠٠ نفس يتفق كتقدير إجمالي ونتيجة الحساب وفق سالنامة ١٢٨٨ التي تعكس الوضع الذي كان قائماً بعد ذلك بخمس إلى عشر سنوات أي حوالي ١١٠٠٠٠ نفس.

ومن بين ال ٦٣٦٥٩ أسرة في سالنامة الولاية لسنة ١٢٨٨ كان هناك ٢٤٥٥ أسرة يهودية. وينتج من هذا أن عدد السكان اليهود كان ١٤٧٣٠ أي حوالي ٤٪ من مجموع السكان[٤٥] (حتى سنة ١٨٨٢ نما عدد اليهود في فلسطين فبلغ حوالي ٢٤٠٠٠)[٤٦]. وكان معظمهم يعيشون في القدس والخليل وصفد وطبريا. وكان هناك بعض العائلات في نابلس وعكا وحيفا أيضاً. وانطلاقاً من أن الخانات الباقية لغير المسلمين كانت تتألف في أكثريتها الساحقة من الأسر المسيحية نتوصل إلى أن عدد السكان المسيحيين كان ٦٩٩٢ خانة، أو ٤١٩٥٢ شخصاً، وهذا يعادل حوالي ١١٪ من مجموع السكان. وكان المسيحيون يتركزون في مدن القدس وبيت لحم ويافا واللد والرملة وعكا وحيفا والناصرة وكذلك في قرى الجبال المحيطة بالقدس وفي الجليل الأعلى والأدنى. ومعنى هذا أن المسلمين كانوا يشكلون حوالي ٨٥٪ من السكان.

ما هي الامكانات المتاحة لنا الآن لنقارن هذا الاحصاء بمعطيات أخرى ولنتتبّع التطور منذ منتصف القرن التاسع عشر من جهة وحتى بداية الثمانينيات من جهة أخرى

(٤٤) قارن أيضاً: HHSTA – Archiv Jaffa, Fasz 5, Quadro statistico del distretto di Jaffa, 27 8 1872. ذُكر هنا أن سكان يافا كان يبلغ ٧٠٠٠ (١١٣١ حانة). أما عدد سكان قضاء يافا فكان ٣٧,٠٠٠ (٦٤٠٢ حانة). أنظر الحاشية ٤٨، وكذلك اوين Owen، ٢١٨ [ستة اشخاص في المعدل للأسرة المصرية الواحدة].

(٤٥) يذكر فرانكل Frankl (٢ . ٥٠٠) أن عدد السكان اليهود في فلسطين في أواسط الخمسينات كان ١٠٦٣٩ نسمة. أما تومسون Thomson في كتابه **The Land and the Book** ص ١٦٧، فيرفع العدد في نهاية الخمسينات الى ١١,٠٠٠ يهودي (القدس ٧٠٠، صفد ٢٠٠٠، طبريا ١٥٠٠، الخليل ٦٠٠). ويحدد نيتر Netter في تقرير للاتحاد الاسرائيلي العام Alliance Israélite Universelle مؤرخ في ٢٥/١٢/١٩٦٨ عدد السكان اليهود في فلسطين بـ ١٣٠٠٠ كان يسكن تسعة أعشارهم في «المدن المقدسة» الأربعة. وكان ٢٥٠٠ من هؤلاء من الرجال البالغين: Chouraqi, 451.

(٤٦) Mandel, XXIV.

لقد نشر سوسين Socin سنة ١٨٧٩ «قائمة بالأماكن المأهولة في بشالق القدس» وعلق عليها قائلا : «قد يكون مضى عليها من حوالي ثمان إلى عشر سنوات . ومصدر القائمة هو سراي الحاكم بالقدس وقد كتبها أحد الأتراك . وربما كانت نسخة رديئة خطّها كاتب جاهل نوعاً ما، نقلاً عن وثيقة احصائية رسمية»[٤٧] . واذ كان الأمر يتعلق بوثيقة يرجع تاريخها إلى حوالي سنة ١٨٧٠ ، فلا بدَّ أن تكون المعطيات الواردة فيها قابلة للمقارنة مع تلك التي تتضمنها سالنامة ١٢٨٨ . بيد أن مصدر سوسين لا يشمل سوى القرى، ولا يتناول المدن الست في لواء القدس. وفضلا عن ذلك فان سوسين بنى تقديراته على أساس أن العمود

الجـدول ٤
سكان لواء القدس حوالي سنة ١٨٧٠

القضاء	سالنامة ١٢٨٨		مصدر سوسن (حوالي ١٨٧٠)			
	خانه	مجموع السكان المحسوب على على أساسها	خانه	مجموع السكان المحسوب على على أساسها	نفوس	مجموع السكان المحسوب على على أساسها
القدس	٧٣٢٠	٤٣٩٢٠	٧٥٩٩	٤٥٥٩٤	٢٧٣٣٠	٥٤٦٦٠
الخليل	٢٨٢٠	١٦٩٢٠	٢٨٥٤	١٧١٢٤	٨٧٧٧	١٧٥٥٤
يافا	٣٤٣٩	٢٠٦٣٤	٤٤٧٣	٢٦٨٣٨	١٤٥٥١	٢٩١٠٢
غـزة	٦٤١٧	٣٨٥٠٢	٥٥٩٤	٣٣٥٦٤	١٦٦٥٦	٣٣٣١٢
المجموع	١٩٩٩٦	١١٩٩٧٦	٢٠٥٢٠	١٢٣١٢٠	٦٧٣١٤	١٣٤٦٢٨
مدن						
القدس						
الخليل						
غزة						
يافا						
الرملة						
اللد	١١١١١	٦٦٦٦٦				٥٠٠٠٠
المجموع العام	٣١١٠٧	١٨٦٦٤٢				١٨٤٦٢٨

المصدر: سالنامة ولاية سورية ١٢٨٨ ؛ سوسن "Socin, "Alphab-ischen Verzeichniss

(٤٧) Socin, "Alphabetisches Verzeichniss," 135f

الخاص بالنفوس يشمل كل «النفوس»، أي يشمل سكان الريف بأجمعهم. بيد أن هذا استنتاج خاطىء. ولا بد أن الأمر كان يتعلق، كما في دفتر النفوس لسنة ١٨٤٩ الذي سنتطرق إليه فيما بعد (قارن الجدول ٦)، بجميع رعايا السلطان الذكور. وبمضاعفة الأرقام نحصل على المجموع التقريبي لعدد السكان[٤٨].

لنضع أولا معطيات سوسين إزاء معطيات سالنامة الولاية لسنة ١٢٨٨:

إن الرقم ٥٠,٠٠٠ لسكان المدن الست المذكورة هو من تقدير سوسين، ومن الجائز أنه منخفض أكثر من اللازم. ولما كانت تنقصنا معطيات عثمانية مقارنة حول سكان المدن فعلينا أن نوجه نظرنا إلى سكان الريف وحدهم. وكم يكون جميلا لو أن معامل الضرب ٢ (الذي يوصلنا من عدد الرجال إلى العدد الإجمالي للسكان) ومعامل الضرب ٦ (الذي يعرفنا عن طريق الخانات بالعدد الاجمالي للسكان) قد أسفرا عن نتيجة حسابية واحدة. وكلاهما لا يمكن أن يعطي إلا أرقاماً تقريبية. في ضوء النتائج التي توصل اليها جيربر Gerber فنحن لا نعتبر على أية حال معدل ستة أشخاص للخانة الواحدة أقل من اللازم.

ولو نظرنا إلى عدد الخانات لوجدنا أن عددها الاجمالي في سالنامة ١٢٨٨ / ١٨٧١ - ٧٠ هو أقل نوعاً مما هو عليه في القائمة التي ترجع إلى حوالي ١٨٧٠. ويلفت النظر الفرق الكبير في المعطيات الخاصة بقضائي يافا وغزة. هل يمكن تفسير هذا؟ من الطبيعي أن محاولة التفسير لن يكون لها معنى إلا إذا انطلقنا من أن المصدرين كليهما لهما نوع من الصلة بالواقع، ولو من بعيد، وأن الموظفين لم يختلقوا الأرقام اختلاقاً. واذا ما وجّهنا نظرنا إلى المصدرين نفسيهما فعلينا أن نفترض أن سالنامة ١٢٨٨ تعكس واقعاً أقدم نوعاً من قائمة سوسين، أي الواقع الذي كان قائماً في النصف الثاني من الستينات تقريباً. ولما كانت القائمتان تستندان إلى تقسيم إداري واحد في جوهره، فإن التغيرات السكانية خصوصاً بين قضائي يافا وغزة لا يمكن أن تكون قد نشأت في الدرجة الأولى إلا عن الهجرة إلى مناطق آمنة وأكثر نشاطاً من الوجهة الاقتصادية. ويبدو أن المناطق المجاورة ليافا والمنطقة المحيطة بالقدس قد انتفعت بشكل خاص[٤٩] من هذه الهجرة الداخلية.

---

(٤٨) قارن حول عدد سكان لواء القدس Schick, "Zur Einwohnerzahl des Bezirks Jerusalem", 121, 127
وكذلك معطيات روزن Rosen بشأن الجدول ٦ ويُظهر دفتران من دفاتر النفوس محفوظان في «ارشيف دولة اسرائيل» Israel State Archives مدى انعدام الوحدة والنقص في الطريقة التي كانت تُمسك بها سجلات النفوس هذه. فالدفتر ٧٧ لسنة ١٢٩٦ (١٨٧٨/ ٧٩) يشمل ١٧ موقعاً في جبل القدس، والدفتر ٣٦٠ لسنة ١٢٩٢ (١٨٧٥) يشمل سبع قرى قرب طبريا. وفي السبعة عشر موقعاً القريبة من القدس يشار الى ما مجموعه ٩٤٤ خانة و٢٨٩٧ نفساً. ويظهر لنا من هذه الأرقام أيضاً بصورة شبه دقيقة أن معامل الضرب هو ٣ اذا أردنا أن نتوصل من عدد الخانات الى عدد النفوس، وهو ٦ اذا اردنا أن نتوصل من عدد الخانات الى مجموع عدد السكان.

(٤٩) قارن أيضاً الجدول المفصل في: Hartmann, "Die Ortschaftenliste .," 146 f.

الجدول ٥
عدد السكان التقديري لبشالق القدس
(فلسطين الوسطى والجنوبية) في سنة ١٨٤٧

القضاء	مسلمون	مسيحيون	يهود	المجموع
القدس	٢٥ر٠٠٠	١٠ر٠٠٠	١٠ر٠٠٠	٤٥ر٠٠٠
نابلس	١٠٠ر٠٠٠	١ر٥٠٠	١٠٠	١٠١ر٦٠٠
غــزة	٤٠ر٠٠٠	٥٠٠	-	٤٠ر٠٠٠
الخليل	٢٥ر٠٠٠	١ر٠٠٠	٢ر٥٠٠	٢٨ر٥٠٠
يافا	١٥ر٥٠٠	٣ر٠٠٠	١ر٠٠٠	١٩ر٥٠٠
الرملة	٧ر٥٠٠	١ر٠٠٠	—	٨ر٧٠٠
اللـد	٦ر٢٠٠	٨٠٠	-	٧ر٠٠٠
المجموع	٢١٩ر٢٠٠	١٧ر٨٠٠	١٣ر٦٠٠	٢٥٠ر٦٠٠

المصدر : MAE—CCC Jér., t 2 (Jérusalem 1 7,1847)

الجدول ٦
عدد رعايا الباب العالي الذكور في بشالق القدس
وفق دفتر النفوس تعداد سنة ١٨٤٩

القضاء		مسلمون	مسيحيون	يهود	المجموع
القدس :	المدينة	٣٠٧٤	١٨٧٢	٨٩٥	٥٨٤١
	الريف	٢١١٠٣	٢٩٣٢	—	٢٤٠٣٥
	المجموع	٢٤١٧٧	٤٨٠٤	٨٩٥	٢٩٨٧٦
غـزة :	المدينة	٧٥٠٥	٢٧٦	—	٧٧٨١
	الريف	٢٢٧٧٤	—	—	٢٢٧٧٤
	المجموع	٣٠٢٧٩	٢٧٦	—	٣٠٥٥٥
الخليل :	المدينة	٤٠١٧	—	٥٤	٤٠٧١
	الريف	٣٢٥٢	—	—	٣٢٥٢
	المجموع	٢٧٢٦٩	—	٥٤	٧٣٢٣
الرملة :	المدينة	٢١٤٣	٤٩٧	٥	٢٦٤٥
	الريف	٢٦٣٢٨	—	—	٦٣٢٨
	المجموع	٨٤١٧١	٤٩٧	٥	٨٩٧٣
اللـد :	المدينة	٢٠٠٦	٣١٤	—	٢٣٢٠
	الريف	٣٠١٥	—	—	٣٠١٥
	المجموع	٥٠٢١	٣١٤	—	٥٣٣٥
يافـا :	المدينة	٢١٤٣	٨٩٦	٣٥	٣٠٧٤
	الريف	٢٤٢٨٤	—	—	٤٢٨٤
	المجموع	٦٤٢٧	٨٩٦	٣٥	٧٣٥٨
نابلس :	المدينه	٤٢٠٣	٢٢٠	٩٠	٤٥١٣
	الريف	٤٣٢٧٤	١٣٢٠	(سامريون)	٤٤٥٩٤
	المجموع	٤٧٤٧٧	١٥٤٠	٩٠	٤٩١٠٧
جنيـن :	المدينة	٧٠٧	٩٣	—	٨٠٠
	الريف	٢١١٠٣	٢٩٣٢	—	٢٤٠٣٥
	المجموع	٢٤١٧٧	٤٨٠٤	٨٩٥	٢٩٨٧٦
المجموع		١٣٧٠٠١	٨٤٦٢	١٠٧٩	١٤٦٥٤٢

المصدر : ISA–DKJ, A III, 4 (Jerusalem 10.9.1861)

الجـدول ٧

المواقع والسكان الذكور في لواء عكا سنة ١٨٥٢

	المواقع	المسلمون والدروز	المسيحيون واليهود
مدينة عكا	١	٢٣٧٨	٧٩٣
قضاء الشاغور		٢٧٩٥	٧٦٢
قضاء الساحل	٣٨	٢٠٧٧	٦٤٤
قضاء الجبل		٢٠٨١	٥٤٤
قضاء شفا عمرو	١٨	٢٧٦٧	٧٦٣
قضاء عتليت وحيفا	٤٢	٦١٨٤	٥٨٨
قضاء الناصرة	٢٥	٣٠١٣	١٩١٥
قضاء طبريا	٢٦	٥٣٢١	٦٩١
قضاء صفـد	١١	٣٦١٢	٩٤٢
المجموع	١٦١	٢٨٤٢٨	٧٦٤٢
المجموع العام		٣٦٠٧٠	

المصدر : Robinson, Biblical Researches, III, 629.

ولنقارن الآن إحصاء سالنامة ١٢٨٨ الذي يفترض فيه أن يعكس الواقع في النصف الثاني من الستينات بالاحصاءات السكانية في أواسط القرن، وتحت يدنا معطيات لوائي القدس ونابلس لسنتي ١٨٤٧ و١٨٤٩ (الجدولان ٥ و٦) ومعطيات لواء عكا لسنة ١٨٥٢ (الجدول ٧).

إن الجـدول ٥ يورد تقـديرات القنصلية الفرنسية، أما الجدول ٦ فهو مستخلص حصل عليه القنصل البروسي روزن Rosen من سجل التعداد الرسمي لسنة ١٨٤٩ . وقد ناقش روزن في تقـرير مفصل بعث به إلى القسطنطينية[٥٠] هذه الأرقام ووصل إلى نتيجة مؤداها أنها دقيقة نوعاً ما. والمعطيات المتعلقة بالطائفة المسيحية وحدها هي التي جاءت منخفضـة نوعاً ما. وقد شدد روزن على أن المعطيات لم تشمل المكلّفين بدفع الضرائب فحسب، بل شملت أيضاً جميع رعايا الباب العالي للذكور، بمن فيهم الأطفال الرّضع والعجائز. ولذلك فان الاحصاء يمثل نصف السكان تقريباً. ولذا فإن الجدول الذي ينقله لنا روزن أجدر بالثقة بلا شك من تقديرات القنصلية الفرنسية . أما التفاوت بين المعطيات

(٥٠) ISA–DKJ, A III. 4 (Jerusalem 10 9 1861). وهـذا الجدول وضعه ترجمان القنصلية البروسية تحت تصرف بيترمان أيضاً : Petermann, I, 232 f. . ومن الواضح أنه ارتكبت بعض الأخطاء أثناء النقل.

الخاصة بسكان الأقضية المنفدة فمرده الوحيد إلى أن الجامع الفرنسي لم يضع نصب عينيه حدود الأقضية نفسها التي استند إليها تعداد سنة ١٨٤٩ .

إن أرقام الجدول (٧) حصل عليها لروبنسون وكيل القنصل الأمريكي في عكا . ومن المفترض أنها ترجع إلى التعداد ذاته الذي تمخض عن الأرقام التي جاء بها روزن . ولذلك فاننا لو ضاعفنا هذه الأرقام لنتج معنا أن عدد سكان لواء عكا سنة ١٨٥٢ كان ٧٢١٤٠ نسمة .

وبـذلـك يتيسر لنا الآن أن نقارن بين معطيات رسمية للسكان للسنوات ١٨٤٩ و١٨٦٥ ـ ١٨٧٠ ، فيما يتعلق بفلسطين الوسطى والجنوبية على الأقل . وقد تضمنت المقارنة معطيات روبنسون (الجدول ٨) .

الجـدول ٨
سكان فلسطين الجنوبية والوسطى
للسنوات ١٨٤٧ ـ ١٨٧٠

	تقديــر	التعداد الرسمي	المعطيات الرسميـة
	سنة ١٨٤٧	١٨٤٩	حول ١٨٦٥ ـ ١٨٧٠
لواء القدس	١٤٩،٠٠٠	١٧٨،٨٤٠	١٨٦،٦٤٢
لواء نابلس	١٠١،٦٠٠	١١٤،٢٤٤	١٠٥،٠٦٦
مجموع موقت	٢٥٠،٦٠٠	٢٩٣،٠٨٤	٢٩١،٧٠٨
(لواء عكــا		٧٢١٤٠ (سنة ١٨٥٢)	٩٠،٢٤٦)
(المجموع		٣٦٥٢٢٤	٣٨١٩٥٤)

المصدر : الجداول ١ و ٥ و ٦ و ٧.

ومع كل الحذر المطلوب إزاء الأرقام التي تحت تصرفنا وازاء معاملات الضرب ا اعتمدناها فنحن نستطيع أن نتثبّت من معلم لافت للنظر من معالم التطور السكاني وهو الركود السكاني من منتصف القرن حتى نهاية الستينات . في فلسطين الوسطى والجنوبية على الأقـل . بل إن روزن الذي كتب تقريره سنة ١٨٦١ كان يرى أن السكان المسلمين قد نقصوا منذ عام ١٨٤٩ . وخصوصاً سكان القرى في سهل غزة وجبال الخليل .

وفضلا عن ذلك فإن فلسطين منيت سنة ١٨٦٥/٦٦ بخسائر فادحة في السكان بسبب انتشـار وباء الكوليرا . ومن العسير القول كم من الأشخاص ذهبوا ضحية الموت الجماعي . فليس لدينا بهذا الشأن إلا بعض المعطيات المنفردة : فقد ذكرت مجلة دي فارته

(Die Warte) حتى في شهر تشرين أول (اكتوبر) ١٨٦٥، أن عدد الوفيات تراوح بين ١٥٠٠ و٢٠٠٠ في يافا وبين ٩٠ إلى ١٠٠ في الرملة. وتحدثت القنصلية الفرنسية في أحد التقارير في تشرين ثاني (نوفمبر) عن ١٠٥٩ وفاة في يافا خلال ٣٢ يوماً وعن ١٧٦٠ وفاة في نابلس خلال ١٨ يوماً. وقد فقدت غزة من قبل من ضحايا الوباء ٤٣٢ شخصاً، والقدس ٨٠٠ شخص وهرب الناس من المدن (بمن فيهم موظفو القنصليات)، ومع ذلك أدركهم الوباء في القرى. وتفشى الوباء طوال الشتاء في شمال فلسطين. وفي حزيران ١٨٦٦ ذكر القنصل الفرنسي في تقرير له أن وباء الكوليرا قد خفّت حدته الآن في طبريا[٥١].

بيد أنه بدأ بعدئذ، كما سنرى، نمو سريع في سكان فلسطين، كأنه قفزة نوعية إلى الأمام وخصوصاً في السبعينات. ويتطابق هذا التطور السكاني غير المتماثل ونظيره في سوريا بمجملها. ويكتب جيربر عن تراجع في نسبة النمو (إلى ٣, ٠٪) وعن ركود سكاني نسبي بدءاً من الثلاثينات حتى الخمسينات، وكذلك عن قفزة إلى الأمام منذ الستينات بحيث أصبحت نسبة النمو (٥, ١٪)، أي أعلى مما كانت عليه في المجتمعات الأوروبية الصناعية في ذلك الوقت (أقل من ١٪)[٥٢]. وقد حسب (كلّه) المعدلات التالية لنسبة النمو السنوية لسكان سوريا كما يلي:

١٨٣٣ - ١٨٥٧: ٧, ٠
١٨٥٧ - ١٨٧٥: ٦, ١
١٨٧٥ - ١٨٩٥: ٩, ٠
١٨٩٥ - ١٩١٥: ٦, ٠[٥٣]

وعندما نلقي الآن نظرة على بداية الثمانينات أي على نهاية الفترة التي نبحث فيها هنا، تنشأ عندنا مشكلة عدم توفر أرقام رسمية مفصلة لجنوبي فلسطين (لواء القدس) بالنسبة لهذه الفترة في الوقت الحاضر. والمعطيات الاحصائية المتوفرة عن فلسطين الوسطى والشمالية في سالنامات الولاية (ملخص لها في الجدول ٩) هي إضافة إلى ذلك أبعد ما تكون عن الايحاء بالثقة. ومن جهة أخرى لدينا مصدر تكثر الإشارة إليه هو النتيجة المنشورة للتعداد الذي أجراه شوماخر (Schumacher) بتكليف من السلطات العثمانية للرجال القادرين على العمل (من ١٦ إلى ٦٠ سنة) في لواء عكا في سنة ١٨٨٦ (الجدول ١٠).

(٥١) قارن:

Die Warte, 26.11, 7.12.1865; MAE-CPC Jér, t.9 (Jerusalem 3 11.1865, 22.11. 1965, 13.6. 1866); PRO–F.O. 195, Vol. 808 (Jerusalem, 13. 11 1865); HHSTA– AR, F 8/49 (Bethlehem, 2.11.1865); Tobler, **Nazareth**, 303–307

(٥٢) Gerber, "The Population", 63, 76.

(٥٣) Kalla, 280

الجـدول ٩
سكان فلسطين الوسطى والشمالية ١٢٨٨ ـ ١٣٠٠هـ
وفق سالنامات ولاية سوريا

القضاء	السالنامة	النفوس		الخانات	القرى
		مسلمون	غير مسلمين		
عكا	١٢٨٨			٣٥٥٣	٣٤
	١٢٩٥	٩٥٣٦	٤٥٧٠	٣٤٧١	
	١٢٩٦	٩٥٣٦	٤٥٧٠	٣٤٧١	٤٧
	١٣٠٠ (أ)	٨١٣٢ (ب)	٤٢٥٣	٨١٨٧	٦٠
حيفا	١٢٨٨			٢٦٣١	٤١
	١٢٩٥	٤٥٠٠	١٢٧١	٣٦٤٢	٥٠
	١٢٩٦	٣٥٠٠ (ا)	١٢٧١	٣٦٤١	٣٧
	١٣٠٠ (أ)	٥٢٤٤ (ب)	١١٣٢	٤٦١٩	٦٧
الناصرة	١٢٨٨			٣٤٨٩٨	٣٨
	١٢٩٥	٢٠٠٠	١٩٠٠	١١٨٣	٧٣
	١٢٩٦	٢٥٠٠ (ا)	؟	١١٨٣	٢٥
	١٣٠٠ (أ)	٤٠١٢ (ب)	١٨٤٧	١٥٤٧	٢٥
طبريا	١٢٨٨			٨١٢	٧
	١٢٩٥	١٣٨٠	٢٠١	٣٨٥٣	٢٦
	١٢٩٦	١٩٠٠	٢١٠ (ا)	٦٥٣	١٨
	١٣٠٠ (أ)	٢١٧٢ (ب)	١٥٠	١٦١٧	٣٠
صفد	١٢٨٨			٤٢٢٨	٣٨
	١٢٩٥	٨٠٠٠	٧٥٥٨	١٧٨٣	٣٨
	١٢٩٦	٨٠٠٠	٧٠٠٨ (ا)	١٧٨٣	٥٨
	١٣٠٠ (أ)	٦٥٠٣ (ب)	١٧٠٣ (ا)	٣٨٧٦	٦٥
نابلس/ البلقاء	١٢٨٨			١٤٧٠٢	١٧٦
	١٢٩٥	٥١٢٩٧	١١٠١	١٧٩٤٣	١٦٩
	١٢٩٦	٥٢٠٠٠	٤٤٦	١٧٩٤٣	٢٢٠
	١٢٩٨	٥٢٣٥٧	١٠٠٨	٢١٣٤٩	٢٥٣
	١٣٠٠	٤٧١٧٨	٩٦١	١٧٨٢٣	١٩٥
جنين	١٢٨٨			٢٧٥٤	٣٩
	١٢٩٥ (جـ)				
	١٢٩٦ (جـ)				
	١٣٠٠	٥١٧٢	٤٧	٣٥٢٦	٥٨

(أ) الأرقام متطابقة تماماً مع أرقام سنة ١٢٨٨ .
(ب) بما في ذلك البدو .
(جـ) داخلة مع نابلس.

وعلى هـــذا الاحصاء أيضاً بَنَى جوتهايل Gottheil تقديره لاجمالي عـــدد سكان فلسطين. فاستناداً إلى أرقام شوماخر حَسَبَ جوتهايل معطيات متفرقة لعشر مدن واحدى

الجـدول ١٠
حساب سكان لواء عكا الذي اجراه شوماخر

القضـاء		عدد السكان
عكا	المدينة	٩٨٠٠
	الريف	٢٩٧٦٠
حيفا	المدينة	٧١٦٥
	الريف	١٨٩٢٥
الناصرة	المدينة	٦٥٧٥
	الريف	١٢١٤٠
طبريا	المدينة	٣٦٤٠
	الريف	١٣٧٠٠
صفد	المدينة	٢٤٦١٥
	الريف	٢٧٤٢٠
المجموع باستثناء موظفي الحكومة والعسكريين		١٥٣٧٤٠

المصدر : Schumacher, "Population List"

وثلاثين قرية في فلسطين الوسطى والجنوبية أخذها من كتاب The Survey of Western Palestine (مسح فلسطين الغربية) الذي أصدره صندوق استكشاف فلسطين ومن فهرس Palästina Literature [أدبيات فلسطين] فارتفع بالرقم حتى بلغ إجمالي عدد سكان البلاد عنده (حوالي ١٨٧٥) زهاء ٥٠٠,٠٠٠ نسمة(٥٤). لكن دراسته هذه تثير مشكلات. فهي من جهة تطمس اتجاهات التطور لأنها تخلط معطيات من عدة عقود بعضها ببعض. ويعني هذا بالنسبة لقضاء عكا على الأقل أن القضاء كان فيه من السكان حوالي سنة ١٨٧٥ بقدر ما كان فيه سنة ١٨٨٦، بوجه التقريب، بيد أن هذا، كما سنرى، خطأ. ومن جهة أخرى ينبغي أن نتفحص أولا ما اذا كان يمكننا قبول حسابات شوماخر على علاتها، واذا كان قد بولغ على أساسها بحساب بعض المعطيات العرضيّة المنفردة.

ونحن نتساءل ابتداء: ما هو شأن الأرقام الواردة في الجدول ١٠؟ ان جيربر يساوي خطأ بين تعداد الرجال القادرين على العمل من ١٦ إلى ٦٠ والمبني على أساس الاحصاء

(٥٤) Gotthell, "The Population", 318.

وبين تعداد الخانات. وهو يستشهد بمعامل الضرب الذي استخدمه شوماخر وهو (٥) (لكي يتوصل من عدد الرجال القادرين على العمل إلى عدد السكان) كأحد البراهين على صحة استنتاجه بأن الخانة (الأسرة) الواحدة كانت تتألف في المعدل من خمسة أشخاص[٥٥]. لكن الخانة كان يمكن أن تضمّ بلا ريب أكثر من رجل واحد بين السادسة عشرة والستين.

وبما أن تعداد الرجال القادرين على العمل، وليس الخانات، هو الأساس الذي يقوم عليه احصاء شوماخر، فإننا نعتبر معامل الضرب الذي وضعه عالياً أكثر مما ينبغي. وهو يقول إنه توصل إليه بالذهاب شخصياً من بيت إلى بيت عندما كان في طبريا وحيفا وبالتأكد بنفسه من عدد السكان وكذلك من عدد الرجال القادرين على العمل سواء بسواء[٥٦]. ولا يستبعد بلا ريب أن يكون قد تم التوصل في هذه الأثناء إلى معطيات اسيء فهمها والى نتائج فردية لا تمثل الواقع.

وقام شيك في قضاء القدس بدراسات مماثلة لما قام به شوماخر، لكنه استعمل معامل الضرب ٣. وقد حَصَل على إحصاء للرجال القادرين على العمل في القضاء، ممن كانوا يُشغلون سخرة في بناء الطرق، وكتب يقول: «كان ثلثا جميع السكان الذكور في مكان ما، في المعدل، يعتبرون قادرين على العمل.»[٥٧] أي أنه إذا كان علينا أن نرفع عدد الرجال القادرين على العمل إلى ٣/٣ لكي نظفر بعدد السكان الذكور، والى ٣/٦ لكي نحصل على عدد السكان الاجمالي فاننا نتوصل إلى معامل الضرب (٣)، وهو يبدو لنا أكثر واقعية من ذاك الذي استخدمه شوماخر[٥٨] وبذلك رفع شيك عدد سكان قرى قضاء القدس إلى ٧٦٥٢١ سخصاً. ووفقاً لقائمة سوسين التي ترجع إلى سنة ١٨٧٠ تقريباً، والتي يقارنها شيك باحصائه، كانت القرى نفسها تضم ٥٩٥٨٢ من السكان[٥٩]. ومع الأسف فان شيك لا يخبرنا عن السنة التي جرى فيها تعداد الرجال القادرين على العمل، (كتب هو مقاله سنة ١٨٩٢)، ولذلك فاننا لا نستطيع أن نتبين الفترة الزمنية التي حدث فيها النمو السكاني الذي كشف عنه على هذا الوجه والذي بلغ حوالي ٢٥٪ غير أن المجموع العام الذي أورده شوماخر لسكان لواء عكا (١٥٣٧٤٠) يبدو لنا مبالغاً فيه، ليس بسبب معامل الضرب الذي اعتمده فحسب بل بسبب عدد السكان الذي أورده لصفد أيضاً (٢٤٦١٥)، وهو العدد الذي يقول هو نفسه عنه إنه يستند إلى معطيات لموظفين لم يجر

(٥٥) Gerber, "The Population", 60 f.

(٥٦) Schumacher, "Population List," 170.

(٥٧) Schick, "Zur Einwohnerzahl des Berzirks Jerusalem", 120 f.

(٥٨) قارن أيضاً Gerber, "The Population", 60. وكذلك Erder, 298

(٥٩) Schick, "Zur Einwohnerzahl des Berzirks Jerusalem", 126.

تمحيصها.[٦٠] ويظهر سخف مجموع السكان هذا إذا ما قارناه بالجدول ١٢.

وحتى عندما نبدي شكنا في موثوقية المعطيات الواردة في الجدول ١٠، يبقى من المؤكد أن فلسطين الشمالية شهدت نمواً سريعاً في عدد السكان في النصف الأول من سنوات الثمانين. وقد حاول شفيبل Schwöbel أن يضع يده على هذا النمو عن طريق الاحصاء

الجدول ١١
سكان الجليل حتى الحدود الشمالية للواء عكا

الرقم على الخارطة ٤	المناطق الطبيعية	سنوات السبعين			سنوات الثمانين	
		عدد السكان			عدد السكان	
		دون مدن	مع المدن	عدد المستوطنات	دون مدن	مع المدن
II	سهل عكا	٥٠٦٠	١٧٣٧٠	٢ + ٢٣	٧٩٦٠	٢٤٥٢٥
III	مرج ابن عامر	١٥١٠	—	٩	٣٢٧٥	—
IV	جبل الدّحي	٢٣٠٠	—	١٤	٣١١٥	—
V	السهول المدرّجة الشمالية	٣٢٠٠	—	١٣	٧٦٤٥	١٠٣٧٥
VI	جبل الناصرة	٣٥٤٠	١١٧٠٠	٢ + ١٠	٥٦٣٠	١٥١٤٥
VII	التلال الغربية	٥٨٨٠	٨٣٨٠	١ + ١٤	٦٥١٥	٩٢٦٥
VIII	سهل طرعان والبطوف	١٠٢٠	—	٥	١٠٧٠	—
IX	هضبة الشاغور	٨٢٥٠	—	١٧	١٠٢٧٠	—
X	المنحدر الجنوبي الغربي للمرتفعات	٤٤٢٠	—	١١	٥٢٦٥	١٠١٢٠
XI	الهضبة الوسطى الغربية	٢٩٨٠	—	١٦	٦٥٥٥	—
XII	منطقة صفد	٤٩٣٠	٩٤٨٠	١ + ٢٢	١٤١٠٠	٣٨٧١٥
XXI	منحدر الهضبة الشرقية	صفر	—	صفر	صفر	—
XXII	سهل الحولة	٦٥٠	—	٩	صفر	—
XXIII	منطقة بحيرة طبريا	١٠٠٠	٣٥٠٠	١ + ٦	١٩١٠	٥٥٥٠
XXIV	سهل بيسان	٦٠٠	—	٢	١٢٢٠	—
	المجمــوع	٤٣٥١٥	٧٣٥٣٥	٧ + ١٥٥	٧٤٥٣٠	١٣٩٢٠٠

المصدر : Schwöbel, "Die Verkehrswege und Ansiedlungen Galiläas", Tafel III (Auszug) .

— اللوحة ٣ (مستل) .

(٦٠) Schumacher, "Population List", 70.

«الجـدولان ١١ و١٤ والخـارطـة ٤). وجعل قائمة السكان التي وضعها شوماخر أساساً لاحصائه بالنسبة لسنوات الثمانين. أما كيف توصل على هذا الأساس إلى المجموع الاجمالي ١٣٩٢٠٠ (أي أنه تجاهل معطيات شوماخر) فهذا ما لا يفسِّره لنا مع الأسف. وبالنسبة للسبعينات اتخذ Survey of Western Palestine (مسح فلسطين الغربية) أساساً له، وأكمله من كتاب غوران Description ومن أخبار شخصية أوردها شوماخر[٦١]. ووفق حسابات شفيبل شهدت فلسطين الشمالية نمواً في عدد سكانها بلغ الضعف تقريباً (من ٧٣٥٣٥ إلى ١٣٩٢٠٠). بيد أن التطور لا يمكن أن يسير بمثل هذه الصورة المثيرة. إننا من جهة نعتبر معطيات شوماخر مبالغاً فيها على وجه التأكيد، ومن جهة أخرى تبدو لنا الأرقام الخاصة بسنوات السبعين ضئيلة أكثر من اللازم. ووفقاً لسالنامة سنة ١٢٨٨ ينتج معنا أن عدد سكان لواء عكا بلغ ٩٠٢٤٦ (انظر الجدول ٨). وحتى لو احطنا احصاء شفيبل من نهايتيه بعلامة سؤال فمن الطبيعي أن نمضي في وصف نمو «لا يتجاوز» ٥٠٪ بأنه نمو مثير. وسوف نعود إلى هذه المشكلة فيها بعد (أنظر الجدولين ١٥ و١٦).

ويبقى علينا بادىء ذي بدء أن نوجّه نظرنا إلى حقيقة أن النمو لم يقتصر هنا على المدن كما لم يقتصر عليها في فلسطين بأسرها (انظر الجدول ١٢). فبفضل مؤلّف شفيبل، وعلى

الجدول ١٢

التطور السكاني لمدن فلسطين ١٨٠٠ ـ ١٩٢٢

	١٨٠٠	١٨٤٠	١٨٦٠	١٨٨٠	١٩٢٢
القدس	٩ ٠٠٠	١٣ ٠٠٠	١٩ ٠٠٠	٣٠ ٠٠٠	٦٢ ٠٠٠
عكا	٨ ٠٠٠	١٠ ٠٠٠	١٠ ٠٠٠	٨ ٥٠٠	٦ ٤٠٠
حيفا	١ ٠٠٠	٢ ٠٠٠	٣ ٠٠٠	٦ ٠٠٠	٢٤ ٦٠٠
يافا	٢ ٧٥٠	٤ ٧٥٠	٦ ٢٥٠	١٠ ٠٠٠	٤٧ ٠٠٠
الرملة	٢ ٠٠٠	٢ ٥٠٠	٣ ٠٠٠	٣ ٥٠٠	٧ ٤٠٠
غزة	٨ ٠٠٠	١٢ ٠٠٠	١٥ ٠٠٠	١٩ ٠٠٠	١٧ ٥٠٠
الخليل	٥ ٠٠٠	٦ ٥٠٠	٧ ٥٠٠	١٠ ٠٠٠	١٦ ٦٠٠
بيت لحم	١ ٥٠٠	٢ ٥٠٠	٣ ٧٥٠	٤ ٧٥٠	٦ ٦٠٠
نابلس	٧ ٥٠٠	٨ ٠٠٠	٩ ٥٠٠	١٢ ٥٠٠	١٦ ٠٠٠
الناصرة	١ ٢٥٠	٢ ٢٥٠	٤ ٠٠٠	٦ ٠٠٠	٧ ٥٠٠
طبريا	٢ ٠٠٠ (٣٥٠٠)*	٢ ٠٠٠	٢ ٥٠٠	٣ ٠٠٠	٧ ٠٠٠
صفد	٥ ٥٠٠ (٧٥٠٠)*	٤ ٥٠٠	٦ ٥٠٠	٧ ٥٠٠	٨ ٨٠٠
المجمــوع	٥٤ ٠٠٠	٧٠ ٠٠٠	٩٠ ٠٠٠	١٢٠ ٧٥٠	٢٢٨ ٦٠٠

★ قبل زلزلة ١٨٣٧

المصدر: Ben Arieh, "The Population of the Large Towns in Palestine", 68

(٦١) Schwöbel, «Die Verkehrswege und Ansiedlungen Galiläas», 48,98 f.

الجـدول ١٣

تقديرات سكان مدن فلسطين في النصف الأول من الثمانينات

	بن أريه (١٨٨٠)	جوتهايل (١٨٨٦/ ١٨٦٠ ـ ٨٥)	القنصل الألماني ١٨٨٢
القدس	٣٠ ٠٠٠	٢٠ ٠٠٠ (!)	٣٠ ٠٠٠
بيت لحم	٤ ٧٥٠	٣ ٠٠٠	٦ ٠٠٠
الخليل	١٠ ٠٠٠	٩ ٠٠٠	٩ ٠٠٠
غزة	١٩ ٧٥٠	١٨ ٠٠٠	١٦ ٠٠٠
يافا	١٠ ٠٠٠	١٠ ٠٠٠	٨ ٥٠٠
الرملة	٣ ٥٠٠	٣ ٠٠٠	٤ ٠٠٠
نابلس	١٢ ٥٠٠	١٣ ٠٠٠	
حيفا	٦ ٠٠٠	٦ ٤٠٠	
الناصرة	٦ ٠٠٠	٦ ٥٧٥	
طبريا	٣ ٠٠٠	٣ ٦٤٠	
صفد	٧ ٥٠٠	٢٤ ٦١٥ (!)	

المصادر : الجدول ١٢ ؛ Deutsches Handelsarchiv, 1883,II,416. Gottheil, "The Population", 315

الرغم من الحدود المذكورة أعلاه للمؤلف المشار إليه، بات في وسعنا أن نتبع نمو السكان في ريف شمال فلسطين أيضاً. وبغض النظر عن إنشاء بعض المستوطنات الجديدة (في مرج ابن عامر مثلا) فقد جرت قبل كل شيء عملية «ملء» بالسكان، كما جرى بصورة متفرقة نمو مشترك للقرى الكائنة في غربي الجليل الأعلى ومنطقة الساحل وشرقي الجليل الأدنى (الجدول ١٤ ، الخارطة ٤). ولعبت الهجرة من لبنان، من ضمن عوامل أخرى، دوراً مهماً في هذا النمو[٦٢].

وفيما يتعلق بتطور سكان المدن سوف نتخلى عن التقويم النقدي المنفرد للمعطيات المتوافرة لنا في فهرس Palästina–Literatur وعن عمل قوائم بها بعد أن قام بن اريه بمثل هذا التدريب، كما أن جوتهايل قام بعمل جدول مماثل بعد أن أخذ الأرقام الخاصة بلواء عكا من شوماخر؛ أما المعطيات الخاصة فهي معدلات للمعطيات المأخوذة من Palästina–Literatur . وفي الجدول ١٣ وضع الصفّان أحدهما إزاء الآخر، واكملت المعطيات بالنسبة لجنوبي فلسطين بمعطيات القنصل الألماني لسنة ١٨٨٢ .

---

(٦٢) المصدر نفسه، ٥٢، ٩٧، ١٠٤ .

لنحاول الآن أن نقوم بتقدير إجمالي لتطور السكان في فلسطين في الفترة ١٨٥٦ - ١٨٨٢. ولكننا لن نبسط الكلام هنا في المعطيات الرقمية المضحكة أحياناً والواردة في المصادر الأدبية[٦٣]. وسنأتي بمثال واحد فقط يتعلق بالغرابة اللافتة للنظر التي تتجلى حتى في معطيات مؤلفين جيدي الاطلاع عادة: فوفقاً للقنصل فن Finn كان عدد سكان فلسطين الوسطى، أي سكان جبل نابلس. في النصف الأول من الخمسينات يقدر بـ ٣٠٠٠٠ من الرجال المسلمين حملة السلاح، و٢٠٠٠ مسيحي و٤٠ سامرياً وبضعة يهود، عدا النساء والأطفال[٦٤]. ولو أننا استخدمنا بناء على ذلك معامل الضرب ذاته الذي استخدمناه في حالة

الجدول ١٤
سكان الجليل حتى الحدود الشمالية للواء عكا
حسب حجم المستوطنات

حجم المستوطنة	السبعينات		الثمانينات	
	عدد المستوطنات	حصة المستوطنة المئوية من مجموع السكان	عدد المستوطنات	حصة المستوطنة المئوية من مجموع السكان
٥٠ ساكناً تقريباً وأقل	١٢ ٦ر٠	٩	٤ر٠	
١٠٠ ساكن تقريباً	٣٠	٤	١٢	١
١٥٠ ساكن تقريباً	١٩	٤	١١	١
٢٠٠ ساكن تقريباً	٢٩	٨	١٦	٢
٣٠٠ ساكن تقريباً	٢٨	١١	٢٨	٧
٥٠٠ ساكن تقريباً	٢٢	١٣	٢٤	١٠
٧٥٠ ساكن تقريباً	٦	٦	١٩	١٠
١٠٠٠ ساكن تقريباً	٧	١٠	١٧	١٣
١٥٠٠ ساكن تقريباً	١	٢	٨	١٠
٢٥٠٠ - ٣٠٠٠ ساكن تقريباً	٣	١٠	٤	٩
٥٠٠٠ ساكن تقريباً	٤	٣٠	٥	٣٨
المجموع	١٦٢	١٠٠	١٥٧	١٠٠

المصدر: Schwöbel, "Die Verkehrswege und Ansiedlungen Galiläas", Tafel IV (Auszug).

(٦٣) قارن مثلاً الجدول في جوتهايل Gotthell, "The Population", 312

(٦٤) Finn, "Stirring Times", I,238

الجدول ١٥
تطور سكان فلسطين ١٨٥٠ - ١٩١٩

اللواء	نتيجة التحليل		أرقـــام مقارنـــة				
	١٨٥٠-١٨٦٥ (أ)	١٨٨٢ (ب)	١٨٨١-١٨٩٣ (جـ)	١٩١١-١٩١٢ (د)	١٩١٤ (هـ)	١٩١٥ (و)	١٩١٩ (ز)
القدس	١٨٠٠٠٠	٢٣٠٠٠٠	٢٣٤٧٧٠	٣٥٢٨١٣	٣٢٨٦٨	٣٤٣٣٦٢★	٤٢٥٠٠٠
نابلس / البلقاء	١٠٠٠٠٠	١٢٠٠٠٠-١٣٠٠٠٠	١١٥٣١٤	١٨٣٥٧٤	١٥٤٥٦٣	١٥٣٧٤٩	١٦٥٠٠٠
عكا	٧٠-٨٠٠٠٠	١١٠٠٠٠	٧٥٨٨٢	١٥٩٠٠٦	١٣٣٨٧٧	١٣٧١٦٤	١٥٠٠٠٠
المجمـــوع	٣٥٠-٣٦٠٠٠٠	٤٦٠-٤٧٠٠٠٠	٤٢٥٩٦٦	٦٩٥٣٩٣	٦١١٦٠٨	٦٣٤٢٧٥	٧٤٠٠٠٠

★ باستثناء قضاء بئر السبع .

المصادر : (أ) و (ب) ، انظر النص .

(جـ) Karpat. "Ottoman Population Records" 262, 271 .

يتعلق الأمر هنا بمعطيات تعداد السكان العثماني الذي جرى ابتداءً من سنة ١٨٨٢ ، والذي اعلنت نتائجه سنة ١٨٨٣ . وقد أكد كل من كاربات وشو Shaw في بحثه «The Ottoman Census System» بحماسةٍ مفرطة تقريباً موثوقية هذا التعداد. بيد أنه من الواضح أن نتائج التعداد بالنسبة للواء عكا لا يقبلها العقل ، لا في ضوء الأرقام اللاحقة فحسب ، بل أيضاً لأن التعداد بالاضافة الى اعتبارات أخرى ، لم يشمل الا جزءاً ضئيلا من السكان اليهود. وهكذا فانه لم يحص في صفد سوى ١٩٣ يهودياً . (Karpat, "Ottoman Population Records," 262) .

(د) Mc Carthy 21,28. ويتعلق الأمر هنا باحصاء عثماني يرجع الى سنة ١٣٣٠هـ، وقام ماكارثي بتصويب معطياته بزيادتها، لكي يعوض عن النقص في التسجيل.

(هـ) (احصاء عثماني) Zamir, 92, 98 .

(و) (انظر النص) Ruppin. 8f .

(ز) (تقديرات وزارة الخارجية البريطانية) Zamir. 105 .

الرجال القادرين على حمل السلاح، وهو (٣)، لتوصلنا إلى أن عدد سكان فلسطين الوسطى كان ٩٦,١٥٠ نسمة، وهذه النتيجة قد تتفق تمام الاتفاق والعدد الذي يناهز ال ١٠٥٠٠٠ نسمة في النصف الثاني من الستينات. (الجدول ٨) ومع ذلك فاننا نقرأ في مكان آخر في الكتاب نفسه أن فلسطين تضم حوالي مليون ونصف المليون من السكان![65] وكذلك فانواردن Warren نفسه الذي ترك لنا احصاء مفصلا حول الأعمال التي يتعاطاها سكان القدس تكهّن في سنة ١٨٧٦ بأن فلسطين «فيها الآن من السكان ما لا يكاد يتجاوز المليون ونصف المليون».[66]

وسأضع الآن ابتداءً نتيجة تحليلي في الجدول ١٥، لكي نناقش في النهاية المعطيات المنفردة.

ومن الأرقام المقارنة علينا أن نَشْرح عن كثب معطيات سنة ١٩١٥، إنها ترجع إلى روبين Ruppin الذي وضعها على أساس «معطيات رسمية». ولو أضاف المرء إليها السكان البدو - في الأساس - لقضاء بئر السبع (٥٥٠٠٠) لتوصل إلى الرقم الذي يتردد مراراً عن سكان فلسطين عشية الحرب العالمية الأولى ألا وهو ٦٨٩٠٠٠[67]. إن المعطيات العثمانية الرسمية لسنة ١٩١٥ تبدو موثوقة نسبياً: فإن إحصاء سنة ١٩٢٢ أسفر عن عدد للسكان يبلغ ٦٥٣٨٥١ (باستثناء السكان البدو)[68] وقد سبق هذا من جهة خسارة كبيرة في السكان جرّاء الحرب، ومن جهة أخرى نموّ جرّاء الهجرة اليهودية بعد الحرب مباشرة. ولذلك فيبدو لنا أن إحصاء ١٩١٥، يوفر لنا أرقام مقارنة صالحة للاستعمال.

الجدول ١٦

حسابات سكان فلسطين الوسطى والشمالية حوالي سنة ١٨٨٠

		لواء عكا (بما في ذلك البدو)	لواء البلقاء (باستثناء مناطق شرق الاردن)
١٨٧٨	الرجال فوق سنة واحدة	٣٦ ٥٢٨	٥٦ ٢٢٤
	مجموع السكان	٧٢ ٤٢٧	١١١٦٣٤
١٨٨٠	الرجال من ١٨ - ٥٠ سنة	٣٥ ٣٦٨	٥٣ ٣٥٩
	مجموع السكان	١٠٦ ١٠٤	١٦٠ ٠٧٧
١٨٨٢	العرس	٣٥ ١٤٥	٥٣ ٣٥٩
١٨٨٣	الخانات	١٩ ٨٤٦	٢١ ٣٤٩
	مجموع السكان	١١٩ ٠٧٦	١٢٨ ٠٩٤

(٦٥) المصدر نفسه، II، ص ١٨٨.

(٦٦) Warren, Underground Jerusalem, 468.

(٦٧) Ruppin, 8f; Karasapan, II, 19 ؛ الدباغ، بلادنا فلسطين، ١/١، ٢٣. وحول التطور السكاني لفلسطين بعد سنة ١٨٨٢ قارن: Schölch, «Araber und Juden in Palästina,» 15–18.

(٦٨) Bonne, 36

إن الأرقام الواردة في الصف الأول من الجدول ١٥، للسنوات ١٨٥٠ ـ ١٨٦٥، تستند إلى الجدولين ٣ و٨. وبناء على الأرقام المقارنة لسنتي ١٨٤٧ و١٨٤٩ وعلى معطيات فن Finn لجبل نابلس فاننا لم نخفض أعداد سكان لوائي القدس ونابلس الواردة في سالنامة ١٢٨٨ إلا قليلا. وبناء على حسابات شفيبل ومعطيات روبنسون (الجدولان ٧و١١) زاد التخفيض عن ذلك في لواء عكا.

إن أرقام العمود الثاني (السكان حوالي ١٨٨٢) ينبغي البرهنة على صحتها وتعليلها بقدر أكبر من التفصيل. فالمعطيات الخاصة بلواء القدس تستند إلى المصادر القنصلية. وقد نقل القنصل البريطاني سنة ١٨٨٠ احصاء بلغ المجموع الاجمالي لسكان هذا اللواء بموجبه ٢١٠,٠٠٠ نسمة[٦٩]. ووفق احصاء للقنصل الألماني خاص بسنة ١٨٨٢ كان لواء القدس يضم ٢٣٠,٠٠٠ من السكان[٧٠]. وهذا العدد يستند إلى معطيات عثمانية، ولذلك ادخلناه في الجدول ١٥.

وأصعب من هذا مشكلة اللوائين الفلسطينيين الآخرين. وفي الجدول ١٦ سنراجع بادىء ذي بدء المعطيات المتاحة لنا، وهي كلها تستند إلى مصادر رسمية.

إن الأرقام الخاصة بسنة ١٨٧٨ تسلمها موظف فرنسي من السلطات العثمانية. وذكر أنه أعطي عدد السكان الذكور الذين تجاوزوا السنة الواحدة من أعمارهم في أقضية فلسطين الوسطى والجنوبية. وحسب هو نفسه من ذلك، وبصورة معقولة تماماً، مجموع السكان[٧١].

أما أرقام سنة ١٨٨٠ فقد نقلها نائب القنصل البريطاني ياغو Jago في دمشق تحت عنوان:

Official Returns of the Male Population, between 18 and 50, of the Vilayet of Syria for the Year 1880.[٧٢]

وبما أن هذه الأرقام يجوز أن تنصرف إلى الرجال القادرين على العمل فقد ضربناه في ٣ لنتوصل إلى مجموع السكان. وقد أخذت أعداد سنة ١٨٨٢/٨٣ من سالنامة الولاية لسنة ١٣٠٠ (قارن الجدول ٩). وأما عدد الخانات، مهما كانت المعطيات مشكوكاً فيها، فقد ضربت في (٦) كما هو أعلاه لنظفر بمجموع السكان.

ومن الواضح الآن أن الصفوف الثلاثة تستند إلى الأرقام الأساسية ذاتها تقريباً، لكن هناك معطيات مختلفة حول دائرة الأشخاص الذين تشملهم الأرقام. ولذلك فلا بد

(٦٩) PP 1880, Vol. LXXXIV, 259 f.

(٧٠) Deutsches Handelsarchiv, 1883, II, 416.

(٧١) Notes et renseignements sur la Syrie et le Liban au point de vue de leur produits, des voies de communications, ports et échelles etc., decembre 1878, in: MAE — MD, t.123.

(٧٢) PP. 1881, vol. XC, 661.

لحسابات مجموع السكان أن تؤدي إلى نتائج مختلفة. كيف يمكننا أن نصل مع ذلك إلى تقدير واقعي لسكان هذين اللوائين في بداية الثمانينات؟ اننا نعير المصدر الفرنسي ابتداء أهمية أقل. فهو أولا يرجع إلى سنوات السبعين، وثانياً لأن تسجيل «الذكور فوق سنة واحدة»، أمرٌ غير مألوف.

أما المصدران الآخران فسنحاول تقويمهما في ضوء معطيات اضافية. وفيما يتعلق بلواء عكا بيّنا سابقاً السبب الذي من أجله نعتبر نتيجة شوماخر (١٥٣٧٣٠ ساكناً في سنة ١٨٨٦) عالية أكثر مما ينبغي. ولو كان حسابه صحيحاً لكان يعني هذا أن السكان قد تضاعفوا في عقد ونصف من السنين فقط ثم تراجع عددهم في العقود الثلاث التالية حتى الحرب العالمية الأولى. وفي ضوء الجدول ١٦ ومستوى السكان في سنة ١٩١٥ (الجدول ١٥) يكون أحرى بالمرء أن ينطلق من حوالي ١١٠٠٠٠ نفس في أوائل الثمانينات، وهذا افتراض لا يبدو أنه مبالغ فيه إذا تذكرنا بأن نمو السكان في الريف حتى الحرب العالمية الأولى قد تباطأ بصورة ملحوظة وبأنه قد لوحظت حتى هجرة من قرى الجليل المسيحية إلى ما وراء البحار[٧٣]. وبالنسبة للواء نابلس/ البلقاء نتوصل طبقاً لذلك إلى عدد من السكان يتراوح بين ١٢٠٠٠٠ و١٣٠٠٠٠[٧٤].

ومعنى هذا أن عدد سكان فلسطين في الخمسينات وفي النصف الأول من الستينات كان حوالي ٣٥٠٫٠٠٠ نسمة (وفي هذا الوقت ركد عدد السكان بدرجة تقل أو تكثر باستثناء سكان بعض المدن). وبعد نمو متسارع منذ نهاية الستينات ارتفع سكان البلاد حتى بداية الثمانينات إلى حوالي ٤٧٠٫٠٠٠ نفس (ولا يدخل بدو جنوب فلسطين في هذه الأرقام). ويعني هذا زيادة تقارب الثلث خلال النصف الثاني من الفترة التي ندرسها. ويتوافق مع هذا نمو المدن الاثنتي عشرة التي يشملها الجدول ١٢ بنسبة تقارب الثلث. وفي الجزئين الثاني والثالث من هذه الدراسة سوف نبحث في ماهية التغيرات الاقتصادية والاجتماعية التي جرى هذا النمو السكاني في إطارها.

ويترتب علينا أن نتلمس أسباب هذا النموذج للتطور السكاني في ضمان المزيد من الأمن لمعيشة الفلاحين (انهاء الصراعات في الجبال وهجمات البدو في السهول)، وفي ازدهار اقتصادي عام (زيادة في الانتاج الزراعي والتجارة)، وفي هجرة الى البلاد دفع اليها الوضع الاقتصادي، وربما في تحسن الظروف الصحية الطبيّة. بيد أن العامل الأخير لا يجوز المبالغة في أهميته قطعاً، فإن «طاعون» الحرب في سنة ١٨٧٧ / ١٨٧٨ ربما أودى بعدد من الضحايا يفوق عدد ضحايا وباء الكوليرا في سنة ١٨٦٥ / ٦٦.

---

(٧٣) Trietsch, 30.

(٧٤) قارن غرايبة ٩٤، والرامیني ١٦ وما بعدها.

الجزء الثاني

التغلغل الأوروبي والتطور الاقتصادي

الاهتمام الأوروبي بفلسطين
فتح الأرض المقدسة

قبل أن نبحث في تأثير التغلغل الأوروبي على تطور الزراعة والتجارة الخارجية وظروف ملكية الأراضي والمدن والبنية التحتية لفلسطين، علينا أن ندرس أولا مجموع ارتباطات المصالح الأوروبية السياسية الاستراتيجية والدينية والثقافية والاقتصادية - أن ندرس المطامح الأوروبية في «الأرض المقدسة». وسوف نبرز في هذا الصدد أيضاً الأسس التي وضعت في القرن التاسع عشر للتفاهم الأوروبي حول فلسطين وللسياسة الأوروبية إزاءها في أوائل القرن العشرين، وسوف نبيّن أي دور محدد أسند إلى «الأرض المقدسة» في سياق التوسع الأوروبي في منطقة شرقي البحر المتوسط. وبهذه الطريقة سوف نعرّي الجذور التاريخية للاستخفاف الذي اثقلت به اوروبا الشرق الأدنى بالنزاع حول فلسطين، وهو نزاع لم ينشأ في هذا الاقليم نفسه، وانما زرع فيه من الخارج.

إن المسألة تتعلق إذن ببيان تنوع المطامح الأوروبية في فلسطين، الأمر الذي جعل من «الأرض المقدسة» - كما كان موضع التأكيد دائماً حتى قيام الانتداب البريطاني - حالة خاصة في الشرق الأدنى، لا تسمح لأي دولة اوروبية بأن تستأثر بمفردها بالسيطرة وانما كانت تتطلب إشرافاً دولياً، نظام حكم دولياً الخ. أما الحلف الذي نشأ فيما بعد بين الامبريالية البريطانية والصهيونية وخروج المنافسين الأوروبيين الآخرين أو ازاحتهم فيستند إلى ظروف خاصة تماماً. إن كتابة التاريخ يمكن أن تصبح بسهولة كتابة تاريخ النجاح، أي تاريخ الحركات الناجحة. ولكننا هنا سنعالج تاريخ «الفاشلين» بصورة أكثف مما جرت عليه العادة. وبذلك يجرّد النجاح من مظهر الحتمية.

بناء على وصف المصالح الأوروبية في فلسطين، وهي المصالح التي نشأت بصورة خاصة بعد حرب القرم، أصبح من الواضح أيضاً أن الحركة الصهيونية لم تكن إلا حركة واحدة من جملة الحركات الأوروبية في القرن التاسع عشر التي كانت تهدف إلى إعادة الاستيلاء على فلسطين واستعمارها - بل إنها جاءت في شكلها المؤسسيّ متأخرة نسبياً عن سواها - كما أن انتصار هذه الحركة على ما عداها من المطامح التي كانت تنافسها لم يكن مؤكداً بشكل من الأشكال حتى قيام الانتداب البريطاني[٧٥]، ولم يكن نجاح الصهيونية في

---

(٧٥) للاطلاع على مثال على تقسيم الفترات التاريخية بالرجوع إلى الماضي نحيل القارىء إلى حمّاد (٨ - ١٣) الذي جعل قضية فلسطين تبدأ بزيارة مونتفيوري في سنة ١٨٤٩.

ذلك نتيجة لبراعة بضعة من ممثليها ولا لكرم عدد من الساسة البريطانيين المنفردين، بل انه جاء نتيجة لشكل التجمعات الدولية التي أوجدتها الحرب العالمية وللوحدة الجزئية في مصالح الامبريالية البريطانية والحركة الصهيونية، وهي الوحدة التي مهّد لها الطريق فكرياً الصهيونيون الانكليز من غير اليهود (Gentile Zionists) في القرن التاسع عشر، وهم روّاد الصيهونية من غير اليهود ومشجّعوها.

إن انطلاقة البحث ينبغي أن تكون فتح «الأرض المقدسة» أمام تغلغل اوروبا السياسي والديني الثقافي إبّان الحكم المصري على سوريا الطبيعية بما فيها فلسطين (١٨٣١ ـ ١٨٤٠)، وبتحديد أكثر سنة ١٨٣٨، وهي السنة التي حل فيها أول قنصل اوروبي في القدس، ألا وهو القنصل البريطاني، إن المصالح الأوروبية في فلسطين في العقود الأربعة التالية يمكن أن تشرح على مستويين: مستوى سياسة الحكومات الأوروبية، وفي مقدمتها حكومات انجلترا وروسيا وفرنسا وبروسيا أو ألمانيا، ومستوى المطامح والتيارات والحركات الاجتماعية غير التابعة للدول التي تشكلت في جوها السياسة الأوروبية تجاه فلسطين في القرن التاسع عشر.

ونذكر بشكل خاص ضمن هذه الأخيرة إلى جانب الاهتمام المسيحي واليهودي التقليدي بفلسطين، فكرة «إعادة اليهود» Restoration of the Jews الانجلكانية الألفية★، وفكرة «الحرب الصليبيّة السلمية» التي انتشرت بشكل رئيسي في القارة الأوروبية، وكذلك المطالب المرتبطة بها في كثير من الأحيان، والخاصة باستعمار فلسطين من الأوروبيين، وهي المطالب التي رُبطت بها مطامح اليهود الأوروبيين السابقة للصهيونية ثم مطامحهم الصهيونية آخر الأمر. وسنخصص لهذه المطامح العائدة للدول وللمطامح الاجتماعية المختلفة فصلاً خاصاً بكل منها.

إن أساس التغلغل الأوروبي في فلسطين في القرن التاسع عشر وعنصر مصالح الدول والمصالح الاجتماعية المرتبطة به هو الحقيقة التي مؤداها أن الإشراف على «الأرض المقدسة» الذي يقتصر على دولة واحدة من الدول الأوروبية دون سواها كان يبدو حتى نهاية الحرب العالمية الأولى من الأمور التي لا تعقل. ولكن كل دولة من هذه الدول كانت تطمع في بناء وجودها في فلسطين وتدعيمه، وخاصة بطرق التغلغل الديني والثقافي و«حماية»

(★) Chiliastisch.

الألفية Chiliasm (من الكلمة اليونانية خلياس بمعنى ألف): مذهب ديني صوفي يقول بعودة المسيح إلى الارض وقيام العهد الالفي السعيد الذي يحكم فيه المسيح الف عام تسودها العدالة والمساواة والبركة والخير. انبثقت عقائد هذا المذهب من المظالم والآلام التي كان يعاني منها العوام في عصور الرق والاقطاع وانتشرت انتشاراً واسعاً زمن المسيحية الباكرة ثم انبعثت على الدوام في تعاليم مختلف الشيع والملل في القرون الوسطى ـ المترجم.

الأقليات الدينية، ولهذا فانها قد شجعت بقوة النشاطات التبشيرية والخيرية والثقافية التي كان يقوم بها رعاياها.

ولكي نتفهم الوضع بصورة أفضل سوف نوجز أيضاً التطور الذي حصل منذ نهاية الثلاثينات حتى حرب القرم. في سنة ١٨٣١ حرّك حاكم مصر محمد علي الجيش المصري بقيادة ابنه ابراهم ضد سيده سلطان القسطنطينية، واستولى على سوريا الطبيعية بأسرها، بما فيها فلسطين. ولكي يكسب رضى الدول الأوروبية، وخاصة بريطانيا، على سياسته التوسعية أزال من جهته في المناطق المفتتحة أشكال التمييز الرسمي ضد أتباع الطوائف الدينية غير الاسلامية. وأصبح هؤلاء يعاملون على قدم المساواة مع سائر رعايا الحكم الجديد، بل انهم مُيِّزوا عن غيرهم في بعض الأحيان. ومن جهة أخرى سهل محمد علي للأوروبيين التغلغل السياسي والديني الثقافي بأن سمح لهم بفتح قنصليات في داخل البلاد وبتوسيع النشاطات الدينية التبشيرية والاعتراف بمؤسساتها.

وكان أهم الأحداث في فلسطين في هذا المجال حلول قنصل بريطاني في القدس سنة ١٨٣٨. وبما أنه كان يترتب على العثمانيين أن يواصلوا السير في سياسة محمد علي بعد طرد المصريين (١٨٤٠) فقد شهدت القدس في الأربعينات دخول المزيد من القناصل الأوروبيين[٧٦] وكبار رجال الدين. وبذلك اكتسب اهتمام الرأي العام الأوروبي بـ «الأرض المقدسة» قوة دفع ضخمة، ووقعت فلسطين بصورة مباشرة في دوّامة تضارب المصالح بين الدول الأوروبية الكبرى في إطار «المسألة الشرقية» للقرن التاسع عشر. واذ كانت الأنظار مسلطة على «الأرض المقدسة» على هذا الوجه، فقد تيقظت الأطماع، وحيكت الخطط واطلق العنان للرؤى، التي ما كان لها أن تجد طريقاً سياسياً إلى التنفيذ على أية حال، على الرغم من أن السلطان لم يكن في استطاعته اقصاء المصريين عن سوريا وفلسطين إلا بمساعدة اوروبية (بريطانية ونمساوية على الأخص).

كان التدخل الأوروبي نابعاً من ارادة الدول في الحفاظ على سلامة أراضي الدولة العثمانية. فقد ظلت المحافظة على نواة الدولة الأساسية الهدف الأول للسياسة البريطانية في الشرق بصورة خاصة. ونظراً لأنه لم تكد تتوافر لهذه الأسباب أية إمكانية للتوصل إلى اتفاق لتقسيم الدولة، قبل الحرب العالمية الأولى، فقد كان على جميع الدول أن تقبل، راضية أو مكرهة، بهذه المقدمة الأساسية لسياسة الدول الكبرى الأوروبية في الشرق الأدنى. إن

---

(٧٦) افتتاح قنصلية بروسية في القدس سنة ١٨٤٢، وقنصلية فرنسية وقنصلية سردينية ١٨٤٣، واميركية سنة ١٨٤٤ ونمساوية - مجرية - سنة ١٨٤٩.

«المسألة الشرقية» للقرن التاسع عشر كانت المشكلة الصعبة التي تتمثل فيما يلي : أي قدر من الدولة العثمانية كان لا بد من المحافظة عليه وبأي صورة يتم ذلك بها يكفل مصلحة الدول الأوروبية . . . إن فلسطين كانت على أية حال من ضمن النواة الأساسية ، ولذا فإن التغلغل الأوروبي فيها لم يكن يدور حول السيطرة الاقليمية ، بل حول النفوذ . ومن أهم الأشكال التي كان يُطمح في بسط النفوذ من خلالها «حماية» الأقليات غير الاسلامية في الدول العثمانية . وهذا العامل أصبح ذا أهمية حاسمة لتطور فلسطين المقبل حتى الحرب العالمية الأولى . وأي مكان غير «الأرض المقدسة» كان يمكن لزيادة النفوذ فيه عبْرَ التغلغل الديني الثقافي وعبر إنشاء «محمية دينية» أن تعد بنجاح أكبر؟

تأسيس الوجود الإنجليزيّ والبروسيّ

فيما يتعلق بالنفوذ عن طريق «حماية» الأقليات ، كان لروسيا وفرنسا ، بوصفهما «الدولتين الحاميتين» ، التقليديتين لكل من المسيحيين الأرثوذكس ، والمسيحيين الكاثوليك في فلسطين كما في الشرق كله ، كان لهما في نظر انجلترا سبق لا بد من تداركه . لقد كان على الدول البروتستانتية ، وفي مقدمتها انجلترا وبروسيا ، أن تجد أولاً أو أن تخلق محميّين يلوذون بها : اليهود والبروتستانت . وإذْ ادركت بريطانيا أنّ عليها أن تضع شيئاً ما في مواجهة القواعد «الطبيعية» لكلّ من روسيا وفرنسا في «الأرض المقدسة» اذا كان لها أن تثبت قدمها هناك على الاطلاق وأن يكون لها رأي في تسيير الأمور ، فقد أسفر ذلك عن تعيين قنصل بريطاني في القدس سنة ١٨٣٨ . وكان مفروضاً في هذا القنصل في المقام الأول أن يكوِّن قوة مضادة لموازنة التوسع الروسي المهيب الجانب[٧٧] ، أي أن الخطوة الأولى للتغلغل الأوروبي المنتظم في فلسطين جاءت في سياق التنافس الأوروبي في «المسألة الشرقية» . ويبقى هذا التنافس العامل الأهم في الفترة التي نعالجها هنا .

---

(٧٧) انظر بهذا الشأن بصورة خاصة :

. Verete, "Why was a British Consulate established", 316–345.

إن فيريتيه ينقض ما اكده الطيباوي (British Interests 2,27,34 f.) من أن تعيين قنصل بريطاني استند إلى مطالب المبشرين الانكليز ، كما ينقض ما يتردد في الادب الصهيوني من ربط مباشر لهذا الاجراء بالمساعي الانكليزية لـ«اعادة اليهود» تحت الحماية البريطانية .

ومع هذا فلم يكن للبروتستانتية بعد أي قاعدة مؤسسية في «الأرض المقدسة» تمكنها من مزاحمة المؤسسات الدينيّة للأرثوذكس والكاثوليك. وتم خلق هذه القاعدة بتأسيس أسقفية انجليزية بروسية في القدس (١٨٤١) وببناء كاتدرائية بروتستانتية (كنيسة المسيح ـ Christ Church ، دشنت سنة ١٨٤٩[٧٨]). وجاء تنصيب اسقف بروتستانتي نتيجة لنشاطات الجمعيات التبشيرية البريطانية (وعلى الأخص The Church Missionary Society التي أسست سنة ١٧٩٩، وكذلك The London Society for Promoting Christianity among the Jews المؤسسة سنة ١٨٠٩)[٧٩] كما جاء نتيجة للمصالح السياسية للحكومة البريطانية ولسياسة بروسيا تجاه الكنيسة في عهد فريدريك فيلهلم الرابع.

إن الملك البروسي كان يهدف، وهو في صدد بناء كنيسة دولة بروتسانتية موحدة، كنيسة عليا تتخذ لها مثالا انكليزياً تحْتذيه، إلى أن يَصْنَع لذلك بداية حافلة بالرمز بتأسيس أسقفية انجليكانية ـ انجيلية في القدس. وكان مبتكر هذه الفكرة والمفوض بتنفيذها هو المبعوث بنزن Bunsen [٨٠] الذي أجرى المفاوضات في لندن سنة ١٨٤١.

وقد كتب فريدريك فيلهيلم الرابع في تعليماته الموجهة إلى بنزن يقول:

إن الوضع الحالي للشؤون التركية، الذي من الواضح أنه لم يكن ليصل إلى ما وصل إليه دون الارشاد الإلهي، وعلى الأخص الموقف السياسي لانجلترا وبروسيا من هذا الوضع، قد أتاح للمسيحية الانجيلية للمرة الأولى أن تطالب بمركز لها في مهد المسيحية وفي الأرض الموعودة وجنباً إلى جنب مع كنائس الشرق العريقة في القدم وكنيسة روما، وكعضوٍ متساوٍ في كنيسة المسيح العامة، بحيث تضمن للانجيل كرازة حرة، وللذين يدينون بالحقيقة الانجيلية المجاهرة الحرة بعقيدتهم والحماية المتساوية. إن هذه اللحظة هي لحظة مهمة في التاريخ العالمي. وحسب الالتفات إليها والاستفادة منها أو التنكر لها والاستهانة بها سيكون حكم التاريخ وحكم الله على الكنيسة الانجيلية[٨١].

إن فكرة إنشاء أُسقفية بروتستانتية لم تكن فكرة جديدة في انجلترا. وقد دعا إليها بشكل خاص ايرل شافتسبري القوي النفوذ. ولذلك جاء الاتفاق مع بروسيا بسرعة

---

(٧٨) حول تأسيس الاسقفيه وحول النشاطات الانجلكانية والالمانية في فلسطين في القرن التاسع عشر قارن: Creaves; Tibawi, **British Interests**; Hajjar, **L'Europe**, Schmidt–Clausen; Hertzberg; Hanselmann, Sinno محافظة، العلاقات، ٤٠ـ٧٠.

(٧٩) قارن بهذا الشأن ايضاً: de la Roi, III, 172–203; Hammar 11.

(٨٠) قارن في هذا الشأن Höcker

(٨١) الاقتباس في: Roth, 53 .

خصـوصـاً وقد اعترف للكنيسة الانجليكانية بالنفوذ الأكبر. واتفق على أن يقوم التاجان الانجليزي والبروسي بتعيين الأساقفة بالتناوب، لكن هؤلاء كانوا يُرسمون دائماً من جانب رئيس أساقفة كانتربري. وكان على بروسيا وانجلترا أن تتكفلا بنفقاتهم على قدم المساواة.

وكان من الأمور الحاسمة في اختيار الأسقف الأول، وهو اليهودي المتنصرّ مايكل سولـومون الكزاندر[82]، وجود عامل آخر إلى جانب هدف خلق نواة تبلور بروتستانتية في فلسطين. وكان هذا العامل هو المسعى الرامي إلى تنصير اليهود واعادتهم "The restoration of the Jews"، وهو المسعى العزيز على قلب الإنجيلية البريطانية، الذي كان من المفروض اللندنية لنشر المسيحية بين اليهود» The London Soceity for Promoting Christianity among the Jews هم أهم ممثلي بريطانيا في «الأرض المقدسة». وعلى هذا فان المهمة الرئيسية للأسقف الكزاندر كانت تنصير اليهود. وترتب على الكزاندر أن يخلق أولا طائفة بروتستانت من اليهود المتنصرين. وكان ممثل الجمعية اللندنية المذكورة أعلاه هو أيضاً الذي بدأ منذ سنـة ١٨٣٩ ببناء كنيسة بروتستانتية دون إذن من السلطات. وكان يتعين انتظار فرمان السلطان، الذي منح الترخيص النهائي بالبناء، حتى عام ١٨٤٥؛ وأصبح في الامكان تدشين الكنيسة أخيراً سنة ١٨٤٩.

إن النجاحات التي تم إحرازها في تنصير اليهود لم تتجاوز في الواقع الحد الأدنى، وقد بدا أن مقـاومتهم لا يمكن التغلب عليهـا. ولـذلك فإن خليفة الكزاندر، وهو ساميول جوبـات،[84] الـذي عينته بروسيا وفقاً للدور المتفق عليه، والذي وصل إلى القدس سنة ١٨٤٦، قد نحّى الهدف الأصلي جانباً بصورة تامة ووجه حماسته التبشيرية إلى المسيحيين الأرثـوذكس المحليين في الدرجة الأولى.

---

(٨٢) قارن بهذا الشأن: Corey.

(٨٣) للاطلاع على موقف فريد رش فلهلم الرابع الذي كان له التوجه ذاته في هذه المسأله قارن: Sinno, 32–40.

(٨٤) انظر عنه Carmel, Christen als Pioniere im Heiligen Land, Kap III (وهذا الكتاب هو تاريخ لنشاطات ارسالية بازل Basel للحجاج في فلسطين).

وفي موازاة هذا التحول في التوجه السياسي وفي نشاطات الأسقفية في مجال الهداية وضع يهود فلسطين على أية حال تحت الحماية السياسية المعزّزة لانجلترا[٨٥].

وبعد أن تلقى القنصل البريطاني الأول يونغ Young تعليمات بأن يعدّ الحماية العامة لليهود، جزءاً مهماً من مهمّات وظيفته أصبحت هذه المهمة مرة أخرى من المهمّات العزيزة للغاية على قلب خلفه فن Finn (الذي تولى منصبه في ربيع سنة ١٨٤٦م). وكان عليه أن يأخذ جميع اليهود، سواء كانوا من الرعايا البريطانيين أمْ لا، تحت جناح حمايته. وفي سنة ١٨٣٩ كتب يونغ في تقرير بعث به إلى لندن يقول: هناك فريقان سيطالبان في المستقبل بلا شك بأن يكون لهما حق قوي في إبداء الرأي في شؤون فلسطين: وأحد هذين الفريقين هم اليهـود الذين أعطاهم الله في الأصل ملكية هذه البلاد، والفريق الآخر هم المسيحيون البروتستنت، أحفاهم (اليهود) الشرعيون. وبريطانيا العظمى هي الحامي الطبيعي لكلا الفريقين اللذين يريدان الآن أن يندرجا في صفوف الطامحين إلى فلسطين[٨٦].

وبعد أن حصل البروتستنت سنة ١٨٥٠ على الاعتراف بهم كطائفة دينية رسمية في الدول العثمانية وضع أساس قوي لممارسة وظيفة الحماية هذه: فبالاشتراك مع بروسيا تمّ تأسيس اسقفية بروتستنتية، وأصبـح للقدس «كاتدرائية» إنجيلية. وأخذت انجلترا على عاتقها حماية جميع اليهود في فلسطين، وخصوصاً اولئك الذين كانوا مغرمين بها. وكان على كل من تجاوز ذلك من الآمال والمطامح ذات الطبيعة السياسية أن يبقى في عداد الأماني.

وفي كل مكان في اوروبا كانت تبرز خلال «الأزمات الشرقية» في الثلاثينات وبداية الأربعينـات، وخـاصـة فيما يتعلق بدعم الدول الأوروبية للسكان في طرد المصريين من سوريا، مشروعاتٌ ومطالب بشأن «امتلاك» «الأرض المقدسة» أو الاشراف عليها.

ورداً على التماس اقترح فيه إقامة دولة القدس المسيحية المستقلة تحت حماية الدول الكـبرى أجـاب فريدريك فيلهلم الـرابـع في أمـر إداري لمجلس الـوزراء مؤرخ في ١٨٣٩/٨/٣١، قائلاً في استسلام:

---

(٨٥) قارن بهذا الشأن Hyamson, The British Consulate in Jerusalem. في سنة ١٨٥٦ كان في فلسطين ٦٩٧ شخصاً تحت الحماية البريطانية. وكان ١٩٢ من هؤلاء من الرعايا البريطانيين. وفيما يتعلق بالانتماء الديني كان ٤٤٨ شخصاً من هؤلاء الـ ٦٩٧ من اليهود و٥٦ فقط من البروتستنت:

ISA – BCJ (General Return of all Persons enjoying British Protection within the Jurisdiction of Her Majesty's Consulate at Jerusalem, July 21, 1856).

وفي سنة ١٨٧٩ كان عدد افراد الطائفة البروتستنتية المحلية في سنجق القدس ٦٠٣ اشخاص.

PRO–F.O.195, Vol.1264 (Jerusalem, 1.10.1879).

(٨٦) Hyamson, The British Consulate in Jerusalem, I,4.

«انني أشاطركم الرأي حقاً فيما أفصح عنه التماسكم . . من رغبة في رفع القدس إلى دولة مسيحية . وأرجو أن لا تخطئوا بهذا الصدد في تقدير الصعوبات التي تعترض هذه الرغبة وأن لا تخدعوا أنفسكم حول سهولة التنفيذ» . [٨٧] ومن أوساط المبشرين الانجليز انطلق سنة ١٨٤١ نداء يدعو إلى عدم ترك هذه اللحظة التي لا يمكن أن تعود تفوت دون أن تستغل، في وقت يجري فيه التفاوض بشأن الأقاليم التابعة لـ «دولة الأتراك المختلة النظام» . وعلى أوروبا أن تطالب الباب العالي بنقل ملكية فلسطين للمسيحية ، لكي يتسنى تحويلها برعاية امراء اوروبا المسيحيين إلى اقليم مسيحي مستقل يحكم نفسه بنفسه . وسينصّب عليها أمير ترضى به جميع الأمم المسيحية ، وتعترف بسلطته الملكية اعترافاً تاماً . والسلطان سيوافق بلا شك لأن هذه الإمارة المسيحية ستغدو بعدئذٍ جداراً واقياً ضد أطماع حاكم مصر التوسعية . [٨٨]

ومع ذلك فان «الفرصة» فاتت دون أن تستغل . وفي هذا الشأن كتب أحد دعاة «الحملة الصليبية السلمية» فيما بعد يقول : «لو كنا أفضل إطلاعاً على الأمور بعد إرجاع الأرض الموعودة إلى ملكية الأتراك ١٨٤٠ بفضل الحملة الصليبية المعكوسة للدول المسيحية ، لكانت المفاوضات حول تنظيم الممتلكات المسيحية قد حققت أهدافها . إن ملك بروسيا ، الكريم المحتد المسيحي النزعة فريدريك فيلهلم الرابع ، هو وحده الذي سعى إلى إثارة اهتمام الدول المتحالفة خدمة لقضية المسيحيين المشتركة ، بيد أنه لم يستطع أن يجمع أمرها على اتفاق» . [٨٩]

ولكن في الوقت نفسه جاء الصهيونيون من غير اليهود The Gentile Zionists في انجلترا بأفكارهم حول اعادة اليهود إلى شؤون السياسة اليومية ، أي أن هذه الأفكار أخذت تصاغ على مستوى السياسة الخارجية . وتحت نفوذ اللورد شافتسبري حاول بالمرستون سنة

---

(٨٧) تجد هذا في MAE – MD, t.127 .
وفيما يتعلق بخطة لتدويل القدس قارن ايضاً Hajjar, L'Europe ، وكذلك Vereté في مقاله :
«A Plan for the Internatiallzation of Jerusalem».

(٨٨) Circular of a Project for the Erection of Palestine into an Independent State, 1841.

(٨٩) Sepp, I, XX f. . حتى في سنة ١٩٦٤ كتب استاذ لاهوت الماني انجيلي، وقسيس سابق في القدس، يقول: لم يسبق أن كانت الارض المقدسة في يوم من الأيام في متناول ايدي الدول المسيحية، مثلما كانت في ذلك الوقت الذي ارغم فيه ابراهيم باشا على اعادة سوريا وفلسطين إلى السلطان . . . إن حلم الصليبيين كان يمكن أن يتحقق دون صعوبات . إن اليد التي امتدت بشأن القدس ما كانت تحتاج الا لمن يمسكها . ولم يكن السلطانُ ليعارض معارضه جدّية ، بغض النظر تماماً عن انه لم تكن لديه القوة لدعم هذه المعارضة . . . لكن شيئاً لم يحدث . . . ويستطيع المرء أن يفهم لو سرت في ذلك الوقت وبعده هزّة رأس عامة في شعوب اوروبا المسيحية حول هذا النوع من السياسة (Hertzberg, 6) .

١٨٤٠ أن يكسب السلطان إلى جانب تشجيع اليهـود على «العـودة» إلى فلسـطين أو الاستيطان فيهـا: فان السلطان والـدولـة سينتفعان من جهة من الثروة التي سيهبها إلى فلسطين «عدد كبير من الرأسماليين الأثرياء»، ومن جهة أخرى سيشكل اليهود هناك حاجزاً ضد أطماع محمـد علي في المستقبل. أما رجال الاكليروس والساسة وموظفو المستعمرات والضباط في الأربعينات فقد بزُّوا اولئك في التوجه إلى الهدف مباشرة: لقد طالب هؤلاء باقامة مستعمرات يهودية بهذا الشكل أو ذاك، أو حتى بدولة يهودية تحت الحماية البريطانية بهدف «اعادة اليهود "The restoration of the Jews" وحماية المصالح الاستراتيجية والتجارية البريطانية في هذه المنطقة[٩٠]. ولم ترتفع المطالبات بامتلاك بريطانيا المباشر لفلسطين أو إشرافها المباشر عليها، سواء لمصلحتها هي أو من أجل اعادة اليهود، بهذا الزخم مرة اخرى إلا في سنوات الأزمة حوالي ١٨٨٢، ثم بعدئذ خلال الحرب العالمية الأولى.

فرنسا وفلسطين

إن انجلترا وبروسيا قد افتتحتا اذن بتنصيب قنصلين بريطاني وبروسي (سنة ١٨٣٨ و١٨٤٢) واسقف بروتستنتي في القـدس حلبـة المنـافسـات الدينية السياسية بين الدول الأوروبية في فلسطين، لأن هذه الاجراءات تحدّت الفرنسيين والروس لانشاء مؤسسات جديدة تدعم الـوجـود الكاثوليكي الفرنسي والأرثوذكسي الروسي. إن الدور «التقليدي» لحامي مسيحيي الشرق لم يستتبـع حتى الآن بأي شكل من الأشكال قيام نفوذ سياسي خاص لروسيا وفرنسا في فلسطين. ولذلك فقد بدأ الآن في سنوات الأربعين، وبصورة أشد بعد حرب القرم (١٨٥٣ ـ ١٨٥٦)، سباق من أجل تأمين الامتيازات الأوروبية والوجود الديني والثقافي الأوروبي.

إن تأسيس الأسقفية الـبروتستنتية تلاه إحياء البطريركية اللاتينية التي تيتّمت منذ الحروب الصليبية. وبعد القنصل الفرنسي (١٨٤٣) دخل القدس في سنة ١٨٤٨ بطريرك لاتيني هو يوسف فاليرجا Joseph Valerga[٩١]. واعتبرت فرنسا تعزيز الوجود الكاثوليكي في

---

(٩٠) قارن Hyamson, British Projects, 5–21; Kobler, 58–81; Hajjar, L'Europe, 325–340; Sharif, 127–132

(٩١) انظر عنه Duvignau . وفق «جدول احصائي لبطريركية اللاتين في القدس في سنة ١٨٦٦»: "Tableau Statistique du Patriarcat Latin de Jérusalem en 1866" (في MAE–MD, t. 127) كان مجموع عدد السكان «اللاتين» في جميع ابرشيات فلسطين في ذلك الوقت ٧١٠٢ نفس. وذكر أن عدد «الكاثوليك الجدد في الارساليات الجديدة» كان ١٦٧٩.

فلسطين مهمتها المخصوصة، والواجب الأكثر الحاحا للسياسة الفرنسية في «الأرض المقدسة»[٩٢]

ومما يثير الدهشة حقاً تلك الغزارة الفائقة التي تُركِّز بها مواد الأرشيف الخاص بفلسطين في القرن التاسع عشر، وكذلك المراسلات بين القدس وباريس والمجلدات العديدة لمذكرات ووثائق (Mémoires et Documents) وزارة الخارجية الفرنسية، على حماية فرنساالدينية وعلى التغلغل الديني الثقافي، وعلى مشكلات «الأماكن المقدسة» وامتلاكها، وعلى قضايا فردية مثل إعادة ترميم قبة كنيسة القيامة الخ. وكان لا بد من بذل جهود دبلوماسية كبيرة لصد الخطر الذي تعرضت له حماية الكاثوليك في الشرق المقصورة على فرنسا من جانب ادعاءات ايطاليا واسبانيا والنمسا[٩٤]. وقد أرادت هذه الدول، وكذلك الرايخ الألماني فيما بعد، بطبيعة الحال أن تتولى بنفسها «حماية» الكاثوليك التابعين لها، وكذلك المؤسسات الكاثوليكية التي تعضدها، وبحثت فضلا عن ذلك عن محميين مسيحيين آخرين يلوذون بها.

ولم تكن سياسة الحماية الفرنسية شأنها شأن سياسات الدول الأخرى وخاصة بريطانيا تتوافق بالضرورة مع مبادئ العلاقات مع الدولة العثمانية. وتقول مذكرة لوزارة الخارجية الفرنسية مؤرخة في كانون ثان (يناير) سنة ١٨٧٣ إن العطف على السكان المسيحيين أخذ يسيطر على السياسة الفرنسية نحو الشرق، منذ حرب القرم على الأخص. وهذا بالمناسبة هو تقليد متبع. بيد أنه كان ينبغي العمل في الوقت نفسه على منع انهيار الدولة العثمانية قبل فوات الأوان. وهذا شيء متناقض حقاً، لكن هذا التناقض كان من قبل أيضاً تقليداً متبعاً.[٩٥]

وفي فلسطين نفسها لم يبدأ تركيز الأنظار على المحمية الدينية في التراخي إلا في نهاية السبعينات فقد تبدّت للعيان بشكل أظهر إمكانات أخرى للتغلغل. وكان من دواعي فخر القنصل الفرنسي سنة ١٨٧٩ أنه استطاع أن يرسل أول تقرير حول حركة التجارة من يافا

---

(٩٢) قارن بهذا الشأن : Eichmann, 78–114; Guérin, **Jerusalem**, 389 – 415, Verney/ Dambmann, 69–115; Lamy, Young II, 126–139; Hajj'ar, **L'Europe**; Hajj'ar, **Le Vatican**, 115–133, 264–324; Schlicht, 148–180, 237–248.

(٩٣) قارن MAE–MD. t. 98,107,127,128,129,133 .

(٩٤) بشأن الوجود الايطالي والنمساوي في فلسطين قارن: Breycha – Vauthier; Minerbi; Guarmani, 200–341 .

(٩٥) Note sur les affaires de l'Orient, Janvier 1863 في MAE–MD, t.116 .

إلى باريس، وضمّن تقريره رجاءً باطلاع غرفة التجارة في مارسليا بصورة سرية عليه[96]. وبعد ذلك ببضعة أشهر أسهبت القنصلية في وصف المزايا التي سيحققها تشغيل رأس المال الفرنسي في فلسطين، في بناء منشآت ميناء يافا مثلا: وليست مرسيليا وحدها هي التي ستستفيد من ذلك، بل إن النفوذ السياسي لفرنسا سينمو أيضاً. فسوف يتسنى لنا بالطرق السلمية أن نضمن «مركزاً جديداً وطيداً» في منطقة البحر المتوسط سواء من الناحية التجارية أو الناحية الاستراتيجية. وما على الحكومة إلا أن تدع هذا «الاستيلاء السلمي» من قبل رأس المال الفرنسي يأخذ مجراه حتى التمام، إلى أن يأتي اليوم الذي قد تتوصل فيه، ربما بناء على الظروف، الى استنتاج مؤدّاه بأنه بات من مصلحتها أن تؤمّن عسكرياً النتائج التي توصلت إليها[97].

. وفي السنوات التالية تكدست شكاوى القناصل من أن التجـــارة الفرنسية ورأس المال الفرنسي في الشرق عموماً وفي فلسطين خصوصاً لم يدخلا ميدان الأعمال بصورة كافية وانهما تركا الميدان تماماً للانجليز وللألمان. فالمحميَّـــة الدينية ينبغي أن يضاف إليها التغلغل الاقتصادي. وينبغي أن يتم «الاستيلاء» سلمياً على سوريا وفلسطين. ومن شأن الوجود الاقتصادي المناسب أن يضمن لفرنسا أن تؤخذ في الحسبان يوم يسوّى الحساب[98].
. (au jour de l'échéance finale)

ولهذا اليوم كانت الحكومة الفرنسية تهيء نفسها بلا شك. ففي سنتي ١٨٨٠ و١٨٨١ أرسلت بعثتين إلى سوريا وفلسطين لاستطلاع الوضع ولجمع المعلومات حول الطرق الاستراتيجية وخطوط السكك الحديدية وإمكانات استثمار رأس المال الخ. ويقول التقرير المفصل للبعثة الأولى: ومع ذلك فلا يجوز أن يمتد احتلال سوريا من القوات الفرنسية إلى أبعد من الجليل جنوباً لئلا نتورط في شبكة من التعقيدات الدينية والسياسية العويصة[99].

وبذلك أُعلنت المقدمة الأساسية لسياسة الدول الكبرى إزاء فلسطين في القرن التاسع عشر: قد تحاول دولة من الدول عن طريق «الاحتلال السلمي» أن تثبت قدمها قدر إمكان وأن تتبادل المراكز مع دول أخرى بيد أنّه ما كان في وسع أي منها أن تفكر حتى

(٩٦) MAE-CCC Jér t4 (Jerusalem, 31.7. 1879).

(٩٧) MAE-CPC Jér, t 14 (Jerusalem 24.10. 1979).

(٩٨) Ibid. (Jerusalem, 27.7.1881, 12.1.1881).

(٩٩) Rapport sur une Mission en Syrie (avril-juin 1880), in : MAE-MD, t 123, انظر أيضاً t. 124

الحرب العالمية الأولى بحكم أو إشراف مقصور عليها وحدها دون سواها. وعلى ذلك فإن سياسة حماية الأقليات بقيت الوسيلة الأنجع. وما أكدّه لامى Lamy في نهاية القرن بالنسبة إلى مركـز فرنسا في شرقي البحر المتوسط بأجمعه ينطبق على الأقل على فلسطين: «خلافاً لتفوقنا السياسي وصدارتنا التجارية فان حمايتنا الدينية لم تخيب توقعاتنا»[١٠٠] وأما فيما يتعلق بالفاتيكان فانه ما زال يُحسن سنعاً لو استمر في وضع ثقته الكاملة في «الرسالة الكاثوليكية» لفرنسا ـ الأكثر كاثوليكية بين جميع الأمم[١٠١].

صحيح أن فكرة فرنسا حول الحماية الدينية تعرضت لبعض الاهتزاز منذ بداية القرن العشرين (بسبب السياسة الداخلية المعادية للاكليريكية في فرنسا، وبسبب قطع العلاقات الدبلوماسية مع الفاتيكان سنة ١٩٠٤، وبسبب التقسيم المفروض للحماية مع إيطاليا)، إلا أنّ مركز فرنسا في سوريا بأسرها ظل غير منازع فيه حتى إن إنجلترا، في سياق التخطيط لما بعد الحرب أثناء الحرب العالمية الأولى، وجدت نفسها، كما كانت الحال من قبل، إزاء ادعاءات فرنسية كثيفة في فلسطين. وعلى نقيض دول أوروبية أخرى، وخصوصاً انجلترا، فإن فرنسـا لم تضـع أبـداً سياسة محددة. خاصة بفلسطين؛ إذ إنّ هذه نشأت بالأحرى وبصورة تامة في إطار سياستها نحو سوريا وحمايتها للكاثوليك. والى المدى الذي طوّرت فيه فرنسـا تطلعـات لإنشـاء رأس جسر اقليمي في الشرق يكـون مقصـوراً عليهـا فهي قد استهدفت لبنان الماروني، استهدفت عقد حلفٍ بين الأرْز والزّنبق.[١٠٢]

روسيا وفلسطين

بينـما كان دور الحماية بالنسبة للدول الغربية مفتاحاً واحداً من عدة مفاتيح لبسط السيطرة على الدولة العثمانية، وهو دور أثبت بالتأكيد فعالية خاصة في فلسطين، فإن حماية المسيحيين الأرثـوذكس، أي التغلغل الديني الثقافي، كانت الأداة الأهم في يد السياسة الروسية في شرقي البحر المتوسط، بل إنها كانت في فلسطين الأداة الوحيدة من حيث الأساس[١٠٣].

---

(١٠٠) Lamy, 164. انظر أيضاً الصفحتين ٢٣٩ و ٣٣٥.

(١٠١) المصدر نفسه، ٣٣٥ ـ ٣٨٥.

(١٠٢) أنظر : Schlicht في مواضع كثيرة.

(١٠٣) انظر بهذا الشأن قبل كل شيء هوبوود Hopwood . قارن أيضاً
Eichmann, 47—77; d'Alonzo; Stavrou, Russian interest in the Levant; Stavrou, Russian interests in Palestine.

إن وصف هوبوود Hopwood لمرتكزات هذه السياسة ينطبق أيضاً، بعد اجراء جميع التغييرات الضرورية، على سياسة الدول الأخرى تجاه فلسطين: «معظم (الساسة الروس) جعلوا من الدين، إذا كانت له عندهم أية أهمية على الاطلاق، خادماً مسخراً للسياسة. والقلق الصادق على مسيحيي الدولة العثمانية كان الدافع الرئيسي للسياسة بالنسبة لبعضهم الا أن ساسة آخرين ـ وهم عادة اولئك الذين لم يكونوا يحملون مسؤوليّة إدارة السياسة ـ كانوا يحملون بتحرير القسطنطينية الذي بات على الأبواب من أيدي المسلمين، كخطوة على طريق التحرير الأخير لجميع المسيحيين العثمانيين»[١٠٤].

ومع ذلك ففي وسعنا أن نؤكد بأن روسيا لم تؤسس وجوداً سياسياً لها في فلسطين إلا بناء على نشاطات الدول الأخرى. وليس معنى هذا أن حلم الحكم الروسي لم يراود الأذهان من قبل. فكما أن فريدريش فيلهلم الرابع قد أوضح رؤاه الشخصية في أمر مجلس الوزراء الذي أثبتناه أعلاه فإن القيصر نقولا الأول أفضى برأيه سنة ١٨٣٣ في الإجابة على مذكرة طالبت بأن تستولي روسيا على «الأرض المقدسة»، قائلا: «لقد حزرتم الرغبة التي هي مني في الصميم، بَيْدَ أنني أعرف أن تحقيقها صعب، وأنه سيصطدم بعقبات مهمّة».[١٠٥] إن الرغبة كانت غير قابلة للتحقيق. بل إن السياسة الروسية كانت حريصة حتى الحرب العالمية الأولى على تفادي كل ما من شأنه أن يتحدى الدول الغربية إلى القيام باجراءات مضادة في فلسطين، وحتى الحماية المشتركة للدول الكبرى على فلسطين بعد نهاية الحكم المصري لم تصادف لدى روسيا أي هوى.

ولكن عندما جاء القناصل الأوروبيون والأسقف البروتستنتي والبطريرك اللاتيني، وبدأت نشاطات الإرساليات البروتستنتية والكاثوليكية تضيّق الخناق على المسيحيين الأرثوذكس العرب، عند ذلك فقط رأت روسيا أنه لم يعد في وسعها أن تبقى مكتوفة اليدين، وبناءً على ذلك أوفدت إرسالية روسية إلى فلسطين برئاسة الاشمندريت بورفيري أوسبنكسي Porfiri Uspenski (١٨٤٣ ـ ١٨٤٤ و١٨٤٨ ـ ١٨٥٤)، كانت مهمتها أن تتفحص الوضع وأن تشد أزر العرب الأرثوذكس وأن تقيم مركزاً متواضعاً لروسيا في البلاد. واذا كان القنصل البريطاني قد أُرسل إلى القدس لصد ما كان يُخشى من توسع روسي، فإن النشاطات الانجليزية البروسية (إلى جانب نشاطات الفرنسيين) قد استدعت الروس الآن رأساً إلى الميدان.

---

(١٠٤) Hopwood, 1.

(١٠٥) استشهد بها في المصدر نفسه Hopwood, 7.

وبعد حرب القرم، التي انطلقت من عقالها لأسباب كان من بينها كما هو معروف مطالبة روسيا بالاعتراف بحمايتها على جميع رعايا السلطان الأرثوذكس، اتجه الرأي إلى تأسيس الوجود الروسي في فلسطين بصورة أكثر فعالية. ففي سنة ١٨٥٧ كتبت وزارة الخارجية في تقرير إلى القيصر تقول: «ينبغي علينا أن نبني وجودنا في الشرق لا عن طريق السياسة، بل عن طريق الكنيسة. فلا الأتراك ولا الأوروبيون، الذين لديهم بطارقتهم وأساقفتهم في المدينة المقدسة، بمقدورهم أن يمنعونا ذلك. . إن القدس هي مركز العالم، وارساليتنا ينبغي أن تكون هناك.»[١٠٦]

وقبل ذلك بقليل كانت قد أسست شركة الملاحة البخارية الروسية (١٨٥٦) التي كان من شأنها أن تزاحم خطوط البحر المتوسط الفرنسية والنمساوية وأن تنتزع منها بشكل خاص اشغال نقل الحجاج الروس إلى فلسطين. (كان الحجاج الروس يمثلون الفصيل الأقوى في سيل الحجاج السنوي إلى «الأرض المقدسة»، وقد بلغ عددهم حدّه الأعلى سنة ١٩٠٠، حينما وصل إلى ١١,٠٠٠) ولذلك فقد اقتُرح إرسال مبعوث إلى القدس يَجمعُ في شخصه بين صفة ممثل شركة الملاحة، وصفة قنصل روسيا. وعلق اوسبنسكي على المشروع بحماسةٍ قائلا: «إن الأرثوذكس سوف ينتصرون في النهاية. إن القسطنطينية ستصبح لنا، ينبغي أن يكون لنا ممثلون في كل مكان في المشرق العربي. ينبغي أن يكون لنا شركة ملاحة وقناصل ومبالغ كبيرة من المال. كل هذا ضروري من أجل دعم الأرثوذكسية ورفع شأنها[١٠٧]». وهكذا وصل إلى القدس سنة ١٨٥٨ في وقت واحد أسقف روسي وقنصل روسي/ وكيل شركة ملاحة. وفي السنة نفسها نقل بطريريك القدس الأرثوذكسي أيضاً، الذي كان يقيم حتى ذلك الوقت في القسطنطينية، كرسيّه إلى «المدينة المقدسة».

بيد أن الاكليروس اليوناني والممثلين الروس لم يعملوا يداً بيد بالفعل. بل بالعكس. ففي روسيا كان هناك اقتناع بأن اليونانيين لم تكن لديهم لا القدرة ولا الرغبة في حماية المسيحيين العرب الأرثوذكس من الأخطار التي تتهددهم وفي تدبر الأمور المتعلقة باشباع احتياجاتهم الثقافية والدينية. وترتب على الأسقف الروسي الجديد بناء على ذلك أن يشمل العرب بوجه خاص بمساعدته. ولهذا فقد أوجد الروس لأنفسهم زبائن من المسيحيين

---

(١٠٦) الاقتباس في المصدر نفسه، ٥١.

(١٠٧) الاقتباس في المصدر نفسه، ٦١.

الأرثوذكس المحليين. متجاوزين بذلك اكليروسهم اليوناني[١٠٧أ].

وبدأ في السنوات التالية نشاط روسي محمـــوم. شأن الـروس في ذلك شأن الأوروبيين الغربيين، فقـــد اشتريت الأراضي وبنيت الكنائس والنزل والمدارس الخ. وكان أكثر المجمعات البنائية مهابة، «المبنى الروسي»★ الذي قام على أبـــواب القدس ولم يكن له نظير في سائـر مشاريـــع البناء الأوروبية. وفي سنة ١٨٨٢ تلقت النشاطات الروسية دفعة جديدة مـــرة أخرى لدى تأسيس جمعية فلسطين الأرثوذكسية القيصرية التي وضعت نصب عينيهـا ثلاث مهمّـات رئيسية: مسـاعدة الحجاج، وتشجيع النشاطات العملية اقتداء بـ صندوق استكشاف فلسطـين PEF البريطاني أو جمعية فلسطين الألمانية: DPV (Deutscher Palästina Verein)، ورفع شأن الأرثوذكسية.

واذا كانت الحكـومة الروسية قد اتبعت أي شيء منذ نهاية الخمسينات اللهـم إلا سياسة متناسقة تجاه فلسطين، واذا كانت نشاطات ممثليها في «الأرض المقدسة» قد صادفت العراقيل بسبب النزاعات والانقسامات المتعددة حول التصورات المختلفة للهدف، فان الهدف رغم ذلك قد تحقق بالفعل في بداية القرن العشرين: لقد تم بناء وجود ضخم. ولم يكن يستطاع أو يراد بلوغ أكثر من ذلك أيضاً. وبعد سنة ١٩٠٥ أخذ النفوذ الروسي في فلسطين يتضاءل بسرعة، بسبب ضعف روسيا الداخلي والخارجي. ومع مجيء ثورة شباط/ فبراير تم التخلي عن جميع المطالب والادعاءات.

(١٠٧أ) كانت الطبقة العليا من الإكليروس في الكنيسة اليونانية بأكثريتها الساحقة من أصل يوناني، وكانت الطبقة الدنيا، بأكثريتها الساحقة من أصل عربي، ولذلك كان التوتر يسود العلاقات داخل الاكليروس الارثوذكسي أيضاً.

(★) وهو الذي يعرف عند اهل القدس باسم «المسكوبية» - المترجم.

السياسة الأوروبية تجاه فلسطين: نظرة إلى الوراء

حتى سنة ١٩١٧ لم يشهد الوضع الأساسي للتنافس بين الدول الأوروبية والطوائف الدينية في فلسطين، فيما يتعلق بسياسة كل منها نحو الشرق، أي تغيرات مبدئية. ولم يكن لحكومة من الحكومات أن تفكر جدياً في المطالبة بأن تكون «الأرض المقدسة» لها هي بالذات دون سواها، مهما بلغت شدة الدعاة والمتحمسين الدينيين المطالبين بذلك في بلادها. وحتى المراحل الجديدة ل «المسألة الشرقية» التي بدأت بحرب القرم ثم في نهاية السبعينات لم تأت بتبدل أساسي في نموذج الوجود في فلسطين. حقاً إن السياسة الأوروبية في الشرق الأدنى قد اكتسبت بالتغلغل الاقتصادي الذي شق طريقه بالقوة منذ بداية الخمسينات نوعية جديدة، ولكن التغلغل الديني الثقافي الذي أغذّ الخطى بعد سنة ١٨٥٦ ظل أهم من التغلغل الاقتصادي، الذي سنتناوله في الفصل الخاص بالتطور الاقتصادي في فلسطين، بالنسبة للسياسة الأوروبية في «الأرض المقدسة».

صحيح أن التعليمات الموجهة إلى القناصل الأوروبيين منذ حرب القرم، بأن يمتنعوا في مراكز عملهم عن كل ما من شأنه أن يسيء إلى الحفاظ على وحدة أراضي الدولة العثمانية والى الجهود التي تبذل لاحيائها ظلت سارية المفعول، إلا أنه انتشرت في هذا الوقت بالذات من جهة أخرى الدعوة بصورة مكشوفة وبصوت عال إلى «الحملة الصليبية السلميّة» وإلى «الامتلاك الفعلي للأرض المقدسة». وأخذت شركات الملاحة الكبرى في البحر المتوسط تعرّج الآن بانتظام على الموانىء الفلسطينية وتجلب جماعات من الحجاج والمسافرين إلى البلاد. وفي أيام الأعياد بدا أن أعداد الحجاج الذين ازدحمت بهم أزقة القدس كان يفوق عدد سكان المدينة أحياناً. وقامت اتحادات وطنية ذات أهداف مذهبية وعلمية وسياسية بتغذية الاهتمام الديني والتوراتي الآثاري في «الأرض المقدسة»، وكانت كل من هذه الاتحادات تملك أجهزة نشر خاصة بها. وقد أنتج المبشرون والحجاج و«الباحثون في شؤون فلسطين» كمية لا تقدر من الأدب حتى بات في وسع الناس في أوروبا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر أن يجدوا من المعلومات المفصلة عن فلسطين، أكثر مما كانوا يجدونه عن أي بلد آخر خارج اوروبا، وحتى بات الرأي العام الأوروبي مقتنعاً بـ «حق امتلاك» «الأرض المقدسة» قبل أي أرضٍ أخرى خارج أوروبا.

منذ بداية بناء الوجود الأوروبي في فلسطين امتزجت الحماسة الدينية الثقافية على الدوام بالادعاءات والمطالب السياسية الخاصة بـ «الاسترداد» أو الاستعمار. واكتسبت هذه

العناصر التي تألفت منها التأملات المنشورة حول مستقبل «الأرض المقدسة» وزناً أكبر في نهاية السعبينات وبداية الثمانينات من القرن التاسع عشر بعد أن أغذّت اوروبا سيرها المباشر إلى داخل المنطقة، وبعد نجاح الهيكليين السوابيين/الشفابيين* (Die Schwäbis-chen Templer) (منذ ١٨٦٨) في تثبيت مشروع بناء المستعمرات. لقد جعلت الادعاءات الاقليمية سارية المفعول، ووضعت حدودٌ مفترضة لمجالات الاهتمام. ومع ذلك فان تحقيق مطالب كهذه لم يكن بالامكان لا في الفترة التي تلت حرب القرم ولا في السنوات التي أعقبت الاحتلال البريطاني لمصر (سنة ١٨٨٢).

وحتى عندما تبدلت سياسة انجلترا تجاه الدولة العثمانية في أواخر القرن التاسع عشر، كان عليها أن تقنع في فلسطين بدورها كحامية للبروتستنت واليهود بصفة خاصة وبترويج تجارتها. وكان على فرنسا أن تكتفي في القدس بالتشجيع الفعال للمصالح الكاثوليكية في إطار ادعاءاتها بالحماية الدينية لجميع الكاثوليك في الشرق وكذلك في سياق سياستها تجاه سوريا، أما روسيا فكانت سياستها على أية حال سياسة دفاعية بالأحرى، أي أنها كانت موجهة نحو المحافظة على مادة الأرثوذكس. واهتمام روسيا الأوليّ لم يكن يتركز على فلسطين بل على القسطنطينية وعلى المضائق. أما ألمانيا فقصرت جهودا على تنمية العلاقات التجارية والوجود الألماني عن طريق «عمل المحبة المسيحي». وحتى «المستعمرات الألمانية» في «الأرض المقدسة» لم تغيّر هذه السياسة - فحماية المستعمرين الألمان لم تكن مثلاً أساساً لسياسة المانية عدوانية في فلسطين، لأن مشروعات كتلك لم يكن يسمح لها بأن تهدد نموّ العلاقات مع القسطنطينية خصوصاً منذ الثمانينات[١٠٨]. بل إن دولة الرايخ الألماني ورثت انجلترا بمعنى من المعاني بوصفها المدافع الأول عن وحدة أراضي الدولة العثمانية.

(★) نسبة إلى سوابيا او شفابيا وهو اقليم في جنوب غربي المانيا يشمل جنوب غربي بافاريا وبادن فورتمبرج وهوهن تسولرن.. ويضم الغابة السوداء. كان هذا الاقليم دوقية في العصور الوسطى - وهو اليوم أحد أقاليم بافاريا عاصمته اوجسبرج Augsburg - المترجم.

(١٠٨) حول السياسة الألمانية تجاه فلسطين لم يكن هناك من حيث الأساس وحتى وقت قريب، سوى مؤلفات روث Roth وكذلك كارمل Carmel : "Die deutsche Palästinapolitik (1871–1914)". وقد تناول كارمل القضية كأنموذج، والمحل مثالا على ذلك العلاقة بين حكومة الرايخ والعرسان الهيكليين: Die Templer. أما كتاب روث فهو عرض علمي مُبسط موجه إلى عامة الناس، وهو خال من ثبت دقيق للمصادر. وفضلا عن ذلك فان روث قد غلبته على أمره بصورة ما المادة التي جمعها، حتى إنه سمح لنفسه بأن ينزلق إلى ملاحظة بعيدة كل البعد عن جادة الصواب مفادها أنه في عصر القيصر فيلهلم الثاني «أصبحت فلسطين منذ وقت طويل البلد المركزيّ لنشاط الماني واسع ممتد كان يتركز على مصادر المواد الأولية، واستثمار رؤوس الأموال، والأسواق الاستهلاكية وعلى الأسهم وحصص الارباح، وعلى مراكز القوة السياسية، وحمايتها من الوجهة العسكرية» [٢٣٨]. فلسطين بلد مركزي بالنسبة للامبريالية الألمانية؟!. على أنه توجد بين أيدينا أيضاً دراستان لمؤرخين عربيَّيْن: محافظة، العلاقات، الفصل ١ و ٢؛ ولكن هناك في الدرجة الأولى سنّو. إن مؤلف سنو هو أكثر المؤلفات شمولاً وتنوعاً حتى الآن.

وهذا الوضع (الخاص بترتيب مواقف الدول) لم يُنقض إلا بفعل الحركة الصهيونية، وبحثها عن شريك بين الدول الكبرى، وإلاّ جرّاء الإمكانات التي فتحتها الحرب العالمية الأولى في هذا الشأن.

وسنقوم فيما يلي بوصف المطامح والتيارات والمطالب غير الرسمية التي تطوّرت في جوّها السياسة الأوروبية تجاه فلسطين، والتي عملت عمل المنبهات من جهة وخدمت من جهة أخرى ايديولوجية إثبات الشرعية سواء بسواء. بيد أنّ هذه المطامح لم تكن ذات طبيعة «سِلْيمة» إلا إلى حد ما. ففي أثناء الأزمات الشرقية في القرن التاسع عشر تحولت عدة مرات إلى مطالبة عدوانية بالاحتلال الأوروبي لفلسطين وبحكمها. لكن هذا كان لا بد أن يظل بلا نتيجة فعلية طالما أن بريطانيا لم تضع وجود الدولة العثمانية من حيث الأساس موضع التساؤل. وأوضاع الحرب العالمية فقط هي التي جعلت حلولاً كهذه في حيّز الإمكان.

إعَادَة اليَهُود

Restoration of the Jews

إن المركب التاريخي الفكري المحدد للاهتمام البريطاني في فلسطين كان الفكرة الألفية (Chiliastische) حول إعادة اليهود Restoration of the Jews ، التي طورتها عقيدة المخلّص المنتظر الانجليكانية والعقيدة الانجيلية. وفي بداية القرن التاسع عشر كان هذا المذهب جاهزاً تام الصياغة[109]، ولم تكد تضافُ إليه فكرة واحدة جديدة في الأدب المترامي الأطراف الذي وضع في السنوات المائة التالية. ولذلك فان تحقيق التنبؤات حول نهاية الزمان كان مرتبطاً ارتباطاً لا فكاك منه باعادة اليهود إلى أرض آبائهم، تلك الأرض التي يتمتعون فيها بحق غير قابل للتصرف.

إن الإعادة "Restoration" الجسدية والدينية، أي إنهاء التبعثر والتجميع في فلسطين وقبول الرسالة المسيحية، كانت تفهم على أنها جزء جوهري من خطة خلاص العالم الإلهية وشرطٌ لحلول مملكة المسيح. غير أنه بقي في هذا الصدد سؤال مفتوح هو: هل الهداية (إلى المسيحية) يجب أن تأتي قبل الاعادة أم أنها لن تتحقق إلا في فلسطين؟ وقد أدى تفسير علامات الساعة التي تعلن «الاعادة» وتعلن بذلك نهاية الزمان الفينة بعد الأخرى إلى «أخطاء» قابلة للتصحيح. وفي القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر فسِّرت كعلامات من هذا النوع في المقام الأول الاشارات التي تومىء إلى انهيار القوة البابوية والاسلامية (أي

---

(١٠٩) انظر بهذا الشأن بالاضافة إلى كوبلر Kobler ، وفي المقام الأول، فيريتيه: Vereté, "The Restoration of the Jews".

الدولة العثمانية). وكان على الناس بالضرورة أن يتوصلوا أيضاً، حسب تشكيلات القوى السياسية، إلى نتائج مختلفة حول أي أمة من الأمم أو أي حاكم من الحكام سيختار أداة للعناية الإلهية، فتكون «الإعادة» على يديه. وعندما هبط نابليون أرض مصر ثم زحف من بعد إلى فلسطين (١٧٩٨/ ٩٩) بدا وكأنه هو منفّذ الإرادة الإلهية؛ وفي الوقت التالي أخذ يتضح باضطراد في عيون ممثلي المذهب أن هذا الدور هو من نصيب انجلترا.

ومع حركة اليقظة الانجيلية في القرن التاسع عشر اتسع تأثير هذه الأفكار. وكل أزمة في الشرق كانت تثير موجة من هذه المواعظ والنشرات والكتب والمشروعات والمطالب السياسية الألفية: في سنوات الانعطاف من القرن الثامن عشر إلى القرن التاسع عشر، وفي نهاية الثلاثينات وبداية الأربعينات، وإبّان حرب القرم، وفي نهاية السبعينات وبداية الثمانينات. والاستنتاجات الفعلية التي كانت تستخلص من المعرفة الأساسية كانت تتباين في ذلك، أي أنه كانت تجري مواءمتها وظروف السياسة اليومية ومتطلباتها.

«هللي يا بريطانيا»، هكذا ورد في نشرة خلال حرب القرم، «فقد اختارك القدر لتعيدي أتباع جنس يهوذا المهمل، المشتت منذ أمد بعيد، إلى ديارهم الجميلة، وأن تطرحي عقبةً اخرى في طريق الدخيل المهدِّد (أي روسيا) بزرع مستعمرة في وطنهم الذي لا يمكن أن يحوم أي ارتياب حول ارتباطه بحماته.» أما أن هداية اليهود إلى المسيحية تمثل حقيقة سبق للانبياء أن أعلنوها بوحي إلهي، فهذا أمر بديهي لا يكاد يحتاج إلى من يؤكده من جديد. بيد أن هذه الهداية لا يشترط أن تأتي حتماً قبل الإعادة إلى «الأرض المقدسة»[١١٠].

وهناك مؤلف عاش في تلك السنوات في فلسطين كان أقل حماسةً منذ البداية: لقد تساءل في ارتياب: أين هو رجل الدولة الذي يستطيع أن ينهض ببعث الأمة اليهودية من جديد، بتأسيس «مملكة متجددة» مؤيدة بالسيوف والصولجانات المسيحية ضدّ الأصحاب الشرعيين الآن لتراث كان في سالف العصور بالغ القداسة؟ مؤيداً حقاً ضد نفسه، ما دامت القذارات التي أوجدها قائمة دون تغيير على أية حال؟ ومع ذلك فهو يُعزّي نفسه بأن هذا سيأتي «في موعدٍ كان مقدراً لذلك، بفعل تجلٍّ مكشوف للقوة الخالقة[١١١]».

والإفلاس الرسمي للدولة العثمانية سنة ١٨٧٥ وسنوات الأزمة التي تلته هو كذلك علامة من «علامات الساعة»، وبهذا الشأن وعظ هور Hoare قائلا: «على جميع المسيحيين... أن يهللوا لانهيار الدولة العثمانية لأن سقوط المسلمين هو أمل اليهود، وعودة

(١١٠) The Final Exodus, 14, 25.

(١١١) Dupuis, 156 f.

اليهود ستكون البشير السعيد بالوصول الظافر لملك القدس المجيد». إن فلسطين ستتحرر من أنفاس السموم التي ينفثها سوء الإدارة التركية «ولسوف تسلّم إلى أصحابها الشرعيين، نسل إبراهيم، الأمة التي أعطاهم إياها الله، لكي تصبح من جديد البلد الذي يفيض لبناً وعسلاً[١١٢]. بيد أنها «ستكون بركة يُرثى لها على (أبناء) اسرائيل لو أنهم اعيدوا إلى وطنهم دون أن يعودو إلى الله أيضاً». غير أن الهداية لن تجيء إلا بعد العودة[١١٣].

أما أن «علامات الساعة» كانت تشير إلى «الإعادة» الوشيكة فهذا ما أكده أيضاً جيمس نيل James Neil الذي عاش في فلسطين بين عامي ١٨٧١ و١٨٧٤. وقد أشار بصفة خاصة إلى زيادة عدد السكان اليهود في البلاد جرّاء العدد المتزايد لـ «العائدين». لكنه حذّر في الوقت نفسه من التوقعات المفرطة في قصر أمدها، خاصة وأن البابوية والكنيسة اليونانية قد ضرّبا بجرانهما في فلسطين، ولن يزايلا مكانهما بسرعة[١١٤].

إن مذهب «إعادة اليهود» لم يغدُ بطبيعة الحال موضع اعتقاد عام لدى سكان بريطانيا العظمى، ومع ذلك فان القول الأساسي فيه وهو أن فلسطين هي الوطن الحقيقي الذي أعطاه الله لليهود، والذي سيعودون إليه عاجلاً أم آجلا، كان له تأثير واسع. وبهذا المعنى المحدد أصبحت فكرة الإعادة Restoration أمراً مألوفاً عند الجميع. وتخللت هذه الفكرة أدب فلسطين الانجليزي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر،[١١٥]، شأنها شأن البديهيات التي لا تذكر إلا في معرض التأييد. بل إنه نودي فعلا بحملة صليبية تمهد الطريق أمام اليهود، استناداً إلى «الحملة الصليبية السلمية» التي كان يوعظ بها في القارة الأوروبية في ذلك الحين.

كتب ووكر Walker بعد إقامة في فلسطين يقول: «لو كانت البلاغة المقنعة موهبة من المواهب التي خُصصت بها لكنت قد دعوت في العالم المسيحي كله إلى حملة صليبية جديدة - للمحراث والمنجل - تقضي على كل أثر لوقع الحوافر الهدّامة للنهّابين المسلمين من أرض فلسطين المقدسة». بيد أن هؤلاء «العرب الأخسّة، الجهلاء، نصف المتوحشين، بقراهم القذرة وأكواخهم الحقيرة» لا يمكن أن يكونوا «الخلفاء الأصليين، والورثة الشرعيين لملايين الرعايا الأذكياء المهذبين، الراقين في مدارج الحضارة، والمتمتعين بالحكم الصالح، اولئك

---

(١١٢) Hoare, Rome, Turkey, and Jerusalem, 48, 103.

(١١٣) Hoare, Palestine and Russia, 22,27.

(١١٤) Neil, Palestine Re—Peopled, 8—11, 36f, 41, 73—77, 109.

(١١٥) حول (الألفية) ال (Millenarism) الموازية التي شاعت في حركة اليقظة الانجيلية البروتستنتية في الولايات المتحدة، وعلاقتها بفلسطين قارن: ليفين Levine.

الذين حكمهم داود وسليمان في أيام مجد اسرائيل!». ولو أن المرء دعا الآن إلى حملة صليبية جديدة قائمة على القوة لانتزاع فلسطين من أيدي الكفار فقد يتسنّى تماماً لهذه الحملة أن تؤدي إلى نتائج أفضل من تلك التي أدت إليها الحروب المقدسة في العصور الوسطى. لكن تلك الأوقات مضت، ولا يجوز للمرء أبداً أن يلجأ إلى هذه الوسائل بعد الآن، لأنه «أصبح الآن من الواجبات المعترف بها للأمم القوية والغنية أن تتدخل لحماية المضطهدين ولإقامة نظام جديد في البلدان التي تقوم فيها حكومات رديئة، سواء أكان ذلك بالطرق الدبلوماسية أم بـ «الضغط الخارج عن نطاق الدبلوماسية». وأكثر من ذلك غير مطلوب بالنسبة إلى فلسطين، لا أكثر مما يقرّه الرأي العام المسيحي. أما الحق الشرعي في فلسطين فهو لليهود لا غير. وعلى من يوطد النظام هناك أن يفعل هذا من أجل إعداد البلاد «لتوضع من جديد في أيدي أصحابها الشرعيين». وستنتهي مهمة «الدولة التي توطد النظام» بمجرد أن يصبح اليهود جاهزين كأمة لاستلام مقاليد بلدهم بأنفسهم. وحتى ذلك الحين سيكون في وسع المرء أن يحضرهم لمسؤوليات الوجود الوطني المستقل[١١٦]. إن هذه الأفكار صيغت بصورة متطرفة؛ إذ إنّ الربط بين بواعث الحملة الصليبية وفكرة «الاعادة» Restoration لم يكن بالأمر الشائع اليومي الحدوث. ومع ذلك فليس للمرء في ضوء وعد بلفور والانتداب أن يصرف النظر عنها كسخافة من السخافات.

وفي أواخر السبعينات من القرن التاسع عشر انزلقت فكرة ال Restoration أكثر فأكثر في تيار الاستعمار وباتت ترتبط بجميع أشكال المشروعات[١١٧]. ففي سنة ١٨٧٨ / ٧٩ طالب رجل الصناعة البريطاني إدوارد كازاليت Edward Cazalet باقامة محمية واقترح تشارلز وارن Charles Warren، وهو واحد من النشطاء المعروفين في «صندوق استكشاف فلسطين»، بأن تسلم «الأرض المقدسة»، نظراً لإفلاس الدولة العثمانية، لمدة عشرين سنة إلى شركة على غرار شركة الهند الشرقية تضمن لحكومة القسطنطينية إيرادات الضرائب المتحصلة من فلسطين في ذلك الوقت، وتدفع لدائنيها (أي دائني الدولة العثمانية) جزءاً من الفوائد المستحقة لهم. وستكون مهمة هذه الشركة توطين اليهود في البلاد بصورة تدريجية، بحيث تؤول البلاد آخر الأمر إلى ملكيتهم وتصبح تحت حكمهم. وفي هذا الصدد يمكن

---

(١١٦) Walker, 39, 255–267, 283–285, 293 f

(١١٧) قارن Hyamson, British Projects, 22–36; Sharif, 133.

(١١٨) Hyamson, British Projects, 33f; Kobler, 96.

أن يبرز السؤال: وماذا سيحدث لعرب فلسطين؟ يجيب وارن: «أنا اسأل في المقابل: أين هم العرب؟» هذه كانت كل مساهمته في حل هذه المشكلة[119]

أما كوندر Conder المدير الشعبي لـ "Survey of Western Palestine" فقد عرف نوعاً ما على الأقل أن يبدأ بسكان البلاد: لا أحد أنسب لاستلام زمام تجديد فلسطين ولتوجيه السكان الحاليين في ميدان الزراعة من أصحابها الشرعيين، اليهود الذين هم بطبعهم مجدون ومجتهدون وفطناء. إن الفلاحين المحليين هم بالفعل «جهلاء جهلا مدمراً ومتعصبون وكذابون مدمنون في الدرجة الأولى» ومع ذلك فان لديهم صفات «يمكن إذا طورت أن تجعل منهم سكاناً نافعين» ـ نافعين لأصحاب البلاد"[120]

واذ عُرّي مبدأ حق اليهود غير القابل للتصرف في فلسطين، وإعادتهم إليها، ودور الانجليز في هذا الشأن من قشرته الألفية فقد غدا صيغة لأزمة متكررة في أدب فلسطين الانجليزي وجزءاً لا يتجزأ من الفهم البريطاني لفلسطين. أما فكرة هداية اليهود إلى المسيحية فقد ضاعت تدريجياً. وبهذا الشكل كان المبدأ عند بداية الحرب العالمية الأولى ما يزال فعالا بصورة كاملة. وامتزج سحر المبدأ، في شكله العلماني، ان جاز التعبير، بالاعتبارات الحربية السياسية الاستراتيجية الامبريالية التي تمخضت سنة ١٩١٧ عن وعد بلفور. وعندما أعرب بلفور سنة ١٩١٩ عن اقتناعه بأن الصهيونية «لها أهمية أعمق بكثير» من «رغبات وأهواء ٧٠٠٠٠٠ عربي يقطنون الآن البلاد العريقة في القدم (فلسطين)»[121] فانه كان يتحدث إلى أكثرية الشعب الانجليزي من أعمق أعماقه. لقد وضع هدف إعادة اليهود "Restoration of the Jews" على قدم المساواة، بصورة غير ملحوظة مع أهداف الصهيونية، كما أن «المنادين بالاعادة/ The restorationists" اندمجوا في كل واحد في سياق السياسة الامبريالية مع الصهيونيين"[122].

---

(١١٩) .Warren, The Land of Promise, 5 f . بيد أن وارن يفكر في مكان آخر في اقامة حكم انجليزي في فلسطين، «أما أن الانجليزي سيجد من الضروري في خاتمة المطاف أن يثبت قدمه في البلاد، فهذا ما لا أشك فيه شخصياً بصورة من الصور»:
. Warren, Underground Jerusalem, 448

(١٢٠) Conder, "The Present Condition of Palestine", 8 f.

(١٢١) الاقتباس في سايكس : Sykes, 5:

(١٢٢) انظر مثلا : .Sidebotham, 173 ff

الحملة الصليبية السلمية

بينما كانت فكرة «إعادة اليهود» تمثل الجزء الانجليكاني الانجيلي المخصوص من فسيفساء المطامح الدينية الثقافية الأوروبية في فلسطين[١٢٣] انتشر بين كاثوليك القارة، وكذلك بين البروتستانت والألفيين Millenarien الألمان، الوعي باسترداد فلسطين ومواصلة عمل الحملات الصليبية بوسائل أخرى، أي فكرة الحملة الصليبية السلمية، وكان يُعنى بذلك في الدرجة الأولى «إعادة استيلاء» المسيحية على «الأرض المقدسة» عن طريق التغلغل الديني والثقافي والخيري. «لا ينبغي لنا أن نحيّي فلسطين بقعقعة السلاح بل بالبشائر الهادئة للمحبة المسيحية، بعيونْ الباحثين وثمار العمل السلمي. إنّ رُسُلَ الغرب عليهم أن يكونوا الآن مبشرين بالانجيل، أخوة وأخوات يقدمون الخدمات. معلمين ومعلمات، وأيضاً علماء. فعن طريق التعليم والعون، والخدمة والصبر تدخل الأرض المقدسة وسكانها تحت راية المسيح، لا عن طريق القوة وسفك الدماء[١٢٤]. وكانت هذه نظرة مثالية بعد فوات الأوان. وكثيراً ما كان مثال الحروب الصليبية يظهر أيضاً في صورة أقل سلمية أمام العيون؛ وحدث ذلك غالباً بأشكال متباينة تحمل الصبغة الطائفية أو القومية. وفي واقع الأمر لم تكن «قضية المسيحية» هي القضية التي يُدافع عنها إلا في القليل، بل إن الأمر كان يتعلق بالمصالح المتنافسة للأمم وللكنائس المسيحية.

ومنذ بداية حرب القرم ورحلات الحجاج المنتظمة من غرب أوروبا إلى «الأرض المقدسة»[١٢٥] بوجه خاص جرى تنشيط «تراث الحروب الصليبية» وبات يبشر بتاريخها في صورة مثالية. وانتفخ أدب الحروب الصليبية وأخذت مجلات مثل **La Terre Sainte** تكرّس جزءاً معتبراً من أعمدتها لهذا الموضوع. إنّ تاريخ الحروب الصليبية كان يراد منه أن يحفز ويحث، وأن يريَ «ما كان العالم المسيحي يستطيع أن يفعله عندما تتجسّد فيه فكرة سامية[١٢٦]». وكثيرٌ من الحجاج الكاثوليك استسلموا لمشاعر اقتفاء آثار الصليبيين.

---

(١٢٣) كان هناك أتباع مفردون للفكرة الالفية في المانيا أيضاً. انظر مثلا بوجيهولد
Boegehold, Die **Zunkunft Israels und des heiligen Landes.**
وتسمبل **Zimpel Mahnruf an die ganze Christenheit** .
وفي هذا «التنبيه» الذي ورعت منه فيها يقال ٠٠٠ر١٠٠٠ نسخة بعدة لغات ربطت فكرة عودة اليهود بفكرة الحملة الصليبية، كما فعل ووكر، دون بيان شكل الكيان الديني السياسي الذي سيقام بعد «تحرير» القدس.

(١٢٤) Guthe, "**Das Ende des friedlichen Kreuzzuges**, Sp. 119. ان عمل الارساليات في عرضنا هذا لم يعالج الا كوجه واحد من وجوه المطامح الأوروبية والتغلغل في فلسطين. ولما كان من الجائز أن يفتقد المرء فيه تقويم النشاطات والأعمال الفردية والجوانب الايجابية بالتفصيل، فاننا نحيل القارىء الى دراسة سنوّ التي تتناول المثال الألماني.

(١٢٥) منذ ١٨٥٣ من مرسليا، ومنذ ١٨٥٥ من تريستا.

كتب فرنسي معاصر لحرب القرم يقول: ما أسعد العيون التي سترى القدس بل الشرق كله خاضعاً مرة أخرى لدولة الصليب. وكما كان الأمر من قبل في زمن الحروب الصليبية المجيدة فها هي فرنسا تنال اليوم ثانيةً دور طليعة الشعوب. إن فرنسا ستغدو الآن أيضاً مرة ثانية أداة في يد الله لتنفيذ خططه[١٢٧]. وأعلن أحد فرسان القبر المقدس أن مصير مسيحيي الشرق لم يتحسن تحسناً جوهرياً بعد الحرب الأهلية في لبنان ومذبحة المسيحيين في دمشق سنة ١٨٦٠، وهي المذبحة التي أدت إلى تدخل فرنسا العسكري. وقال إن حملة فرنسية جديدة أصبحت ضرورية، إذا كان له أن يرى راية الحملة الصليبية وهي تخفق ثانية فوق أسوار القدس![١٢٨]

وممن جرفتهم الحماسة الفائقة في كتاباتهم مرشدٌ روحي للحجاج يحمل إسماً ذا دلالة هو دي داماس de Damas، وكانت كتاباته تصدر في فرنسا في طبعات عديدة. لقد هتف قائلا: «آه ما كان أسعد تلك الأيام، وكيف يحكمون على فتور هذا الزمان! انه لمن سوء الطالع أن عمل الحروب الصليبية لم يولد وفيه قابلية الحياة. إن الاستيلاء وحده لا يكفي.

فلكي تحافظ على ما تستولي عليه يجب أن تستعمر ـ أن تقيم مستعمرات. لكن أوروبا لم تكن قد فكرت في ذلك الوقت في الاستعمار[١٢٩]»، بيد أنه حانت الآن لحظة التمسك بتراث الحروب الصليبيّة. ان نيّر السلطان لن يجثم طويلا على «المدينة المقدسة». وربما يشهد المرء حتى في نهاية القرن التاسع عشر نصراً جديداً للصليب[١٣٠]. وأقام هذا المؤلف نفسه، مع فريق من الحجاج، احتفالاً دينياً في بقايا كنيسة صليبية قرب القدس «كان جديراً حقاً بالحروب الصليبية». وأنشد المحتفلون تسبيحة مريم العذراء (das Magnifikat): «وللمرة الأولى منذ سقوط مملكة القدس دوت في هذه الأقبية أناشيد الكنيسة المقدسة»[١٣١].

---

(١٢٦) «كيف يمكن اثارة الاهتمام بالأرض المقدسة بصورة أعم وأكثر حيوية، كيف يمكن ان تنمّى الموارد للقيام بأود الأماكن المقدسة والمعاهد الكنسية في فلسطين؟» في:
HL, XXII (1878), 88–93

(١٢٧) Poujoulat, La France et la Russie, 107, 127, 131, 134.
وانظر أيضاً Poujoula, Histoire de Jérusalem, II, 464–490.

(١٢٨) Solignac, 171.

(١٢٩) Damas, Voyages en Orient, Jérusalem, 421.

(١٣٠) Damas, En Orient, Voyage en Galileé, 142, 242

(١٣١) Damas, Voyages en Orient, Sinaï et Judée, 247.

بينما كانت الأمم والطوائف الأخرى تعزز وجودها في فلسطين وبينما بدأت مستعمرات الهيكليين تشهد تباشير ازدهارها، رأى بعض الفرنسيين «تراث الحروب الصليبية» يفلت من أيديهم، ولذلك طالب الباحث المعروف في شؤون فلسطين غوران Guérin بتأسيس مستعمرات كاثوليكية في «الأرض المقدسة». إن هذه قبل كل شيء هي رسالة فرنسا، التي سبق أن أسّست زمن الحروب الصليبية دولة قوية في فلسطين وحمت منذ ذلك الحين مصالح شعبها الكاثوليكي. وعلى المستوطنين الجدد أن يرفعوا مع العلم الفرنسي علم الكاثوليكية في الوقت نفسه، وهو العلم الذي دافع عنه أسلافهم هنا ذات يوم بثبات. واذا لم تكن فرنسا قد نسيت تماماً ماضيها المجيد ومركزها كالإبنة الكبرى للكنيسة، فعليها أن تصبح أكثر نشاطاً في فلسطين. إن فرنسا إذ تخدم مصالح السماء، فانما تخدم أيضاً مصالحها الخاصة التي ترتبط، خصوصاً في فلسطين، برباط وثيق بمصالح الكاثوليكية[١٣٢].

وإذا كان المستعمرون الكاثوليك الذين دعاهم غوران الى الاستيطان في فلسطين لم يجيئوا أيضاً، فإن الاكليروس الفرنسي قد نظم فعلا في ربيع سنة ١٨٨٢ رحلة حج كانت نداً من حيث الضخامة والتنظيم للحشد الجماهيري السنوي للحجاج الروس، ووضعت كل مواكب الحجاج الأوروبيين الغربيين السابقة في الظل. واشترك في رحلة الحج المذكورة أكثر من ألف شخص. و«استولوا» على القدس ونصف يافا وحيفا. وكان كل مشترك يحمل الصليب الأحمر الذي حمله الصليبيون على صدره أو كتفه. وإلى جانب الأعلام التي كان عليها شعار الزنبق البوربوني، حملت الرايات التي ألصق عليها نداء الصليبيين: «هذه مشيئة الله!» وكتب مراقب محلي قائلا: إن الحجّاج كانت لهم «مقاصد الصليبيين ذاتها، وإنما بمعنى أكثر شمولا، وبأسلحة غير دموية»[١٣٣].

«إن الحملة الصليبية السلميّة قد بدأت، وينبغي أن تكون القدس لنا». هذه الجملة التي فاه بها بحاثة فلسطين الجدير بالتقدير توبلر Tobler لاقت انتشاراً كبيراً في المنطقة الناطقة بالألمانية[١٣٤]. وفي الاجتماع العام العاشر للاتحادات الكاثوليكية في ألمانيا سنة ١٨٥٨

---

(١٣٢) Guérin, Description, VI, 405–407.

(١٣٣) انظر بهذا الشأن التقارير المنشورة في Die Warte, 8.6., 29.6, 20 7 1882.

(١٣٤) قارن.

Tobler, Nazareth, 322; Die Warte, 4.1 1866, Neumann, "Der friedliche Kreuzzug"; Wolf, "Zur neueren Geschichte Jerusalems", 15.

ردد المجتمعون «من الأعماق دعاء الصليبيين»: «أيها الرب، ساعد الأرض المقدسة، حرر القبر المقدس من أيدي الكفار»[135] «إن الزمن المسيحي الثالث بالنسبة للقدس سوف يبدأ»[136] . وهكذا كان الناس على اقتناع بأن «استرداد» فلسطين «وطن المسيحيّ الثاني»[137] بات على الأبواب. ان سب Sepp ، المقاتل اليقظ من أجل المصالح الكاثوليكية الألمانية والنمساوية في «الأرض المقدسة» لم يثر على «الحملة الصليبية المعكوسة» لسنة ١٨٤٠ فحسب بل على الفرص الضائعة فيما يتعلق بحرب القرم أيضاً:

«لا جدال في أن تفويت اللحظة المؤاتية التي أتيحت سنة ١٨٥٤ هو إثم ضد العالم المسيحي المعاصر والمقبل، لا بد أن ينتقم له عاجلاً أم آجلاً انتقاماً شديداً. والتأديب من أجل ذلك لا مفرّ منه، وربما كانت عصيّ العقاب قد حزمت الآن. إلّا إن علامات الساعة تنبهنا بلا ريب، ويبدو أن جميع الاستعدادات التاريخية قد اتخذت، إلى أن أهل الغرب، حتى في هذا القرن، سيمتلكون الأرض الموعودة ومصر مرة اخرى. . . إن القدس هي الآن في واقع الأمر تحت حماية الدول الكبرى الأوروبية، ويحكمها قناصلهم، وقريباً سنهتف قائلين: beati possidentes «طوبى للذين يملكون!»[138] .

أما أنّ «الحكم الروحي» على القدس سيكون من نصيب المسيحيين فهذا ما كان مقتنعاً به فولف Wolff [139] أيضاً، وهو الذي صاغ في تقاريره بشكل حاسم صورة فلسطين عند الرأي العام الألماني الجنوبي. فبامتلاك الأماكن المقدسة يشعر المرء بأن «الوعي يتملكه بأن الاستيلاء السلمي قد أنجز»[140]، وأنّ «خيط التاريخ، الذي انقطع سنة ١١٨٧، قد أعيد وصله[141]». أما غات Gatt ، الذي عمل في فلسطين مدة طويلة، فكان يعتقد بأن الكاثوليك سيخرجون من هذه المنافسة مكللين بالنصر: «إن العالم الكاثوليكي لن ينسى القبر المقدس ولن يتخلى أبداً عن الأماكن المقدسة، وينبغي لأزمان الحروب الصليبية أيضاً أن تعود. بل إنها عادت بالفعل، لأن المشروعات التي يقوم بها الكاثوليك في الأرض المقدسة ما هي في الوقت الحاضر إلا حملة صليبية غير دموية تخوضها جميع الشعوب الكاثوليكية لاسترداد الأرض المقدسة من الوجهة الأدبية». [142] . والمستعمرون الهيكليون أيضاً اصطفوا

(١٣٥) HL, II (1858), 120.

(١٣٦) Lorenzen, 298

(١٣٧) Sepp, Bd. I,S. IX, XX

(١٣٨) المصدر نفسه، ٧٥٣ .

(١٣٩) Wolff, "Zur neueren Geschichte Jerusalems.", 15

(١٤٠) Wolff, Flugblätter, 12.

(١٤١) Die Anwesenheit Sr. Königl. Hoheit des Kronprinzen von Preussen in Palästina, 36.

(١٤٢) Gatt, Beschreibung über Jerusalem, 296–298.

في جموع جيش «الحملة الصليبية السلميّة» وطالبوا حكومة الرايخ في بداية الثمانينات باتمام عمل فريدريش بربروسا Friedrich Barbarossa في فلسطين[١٤٣].

وقد سبقنا أن ألمحنا إلى أن حوافز الحملات الصليبية ربطت أيضاً بفكرة «إعادة اليهود» "Restoration of the Jews" . لقد تسللت هذه الفكرة إلى كل مكان. وصحيح أن القنصل البريطاني فن Finn يبدي دهشته في المذكرات التي نشرتها زوجته من إجراءات تنصيب البطريرك اللاتيني لفارس جديد للقبر المقدس في كنيسة القيامة: «وهي إحدى العجائب الكثيرة التي يأتي بها الأوروبيون في البلاد التي يحكمها السلطان»[١٤٤]. ومع ذلك فان صفحتي الغلاف في مجلدي المذكرات كليهما تزدانان بنداء مجمع كليرمون كشعار: Dieux el veult ! [هذه مشيئة الله].

كل شيء كان ينزل إلى ساحة «الحملة الصليبية». هكذا كانت سكة الحديد المزمع انشاؤها بين يافا والقدس[١٤٥]، أو تدبير رأس المال اللازم لمشروع بناء ميناء يافا وخط حديدي إلى القدس une croisade financiér – حملة صليبية مالية[١٤٦]. ودخلت في هذا السباق «لازمة» غريبة في أدب فلسطين. فإن «الصليبيين السلميين»، من رجال دين وعلمانيين، كانوا يرون ضرورة الإشادة بالجمال الفائق الذي تتمتع به نساء بيت لحم والناصرة. وسرعان ما عرف السبب. ففي عروقهن كان يجري دم نورماني، دم الصليبيين[١٤٧].

غير أن فكرة «الحملة الصليبية السلمية» تلاشى بريقها مع بداية القرن العشرين. فمن جهة أخذت الحماسة الدينية تصب بشكل متزايد في النشوة القومية والامبريالية؛ ومن جهة أخرى دخل مع بداية الاستعمار اليهودي ونشوء الحركة الصهيونية، عامل جديد كل الجدة. وعندما أعلن «فلسطيني» الماني، هو هيرمان جوته Hermann Guthe سنة ١٩١٨ نهاية «الحملة الصليبية السلمية» جعل سَعْيَ الدول الكبرى، وفي طليعتها انجلترا، إلى الحكم والسيطرة مسؤولا عن فشل الجهود التي بذلت من أجل إدخال «الأرض المقدسة» بالوسائل السلمية «تحت راية المسيح». أما «البرنامج المعروف لبضع جماعات من

(١٤٣) Carmel, Die Siedlungen, 94 . قارن أيضاً : Die Warte 23.9.1856, 9.12. 1899, 7.6. 1877.

(١٤٤) Finn, Stirring Times, II, 265

(١٤٥) Die Warte, 16.3.1865

(١٤٦) TS, 1875/6/7/8, 842–844

(١٤٧) ونقتصر على ذكر بعض المواضع :
Osborn, 356–380; Sepp I, 463; Besant / Palmer, 473; Conder, Tentwork I, 142; Morand, 75–77.

الصهيونيين . . . الـذين يريدون تأسيس دولـة يهودية جديدة في «الأرض المقـدسة» فلم يستطع أن يقيم له كبير اعتبار. «من هو الذي سينتزع لليهود حق السيادة على البلاد؟ وكيف يمكن التعويض عن الحقوق المكتسبة حقاً لغير اليهود (ويقصد المسيحيين الأوروبيين)؟ إن المقلوب في طريقة التفكير هذه هي أنها تعتبر حقوق طرف واحد سارية المفعول. أما حقوق الآخرين فلا. إن هذا لتعسف. إنه مجحف ومنقوض».[١٤٨] وبهذه الكلمات نطقت خيبة الأمل المريرة من تبدد العمل والأمل المسيحيين طوال قرون عديدة هباءً.

مشروعات الاستعمار (إنشاء المستعمرات)

أشرنا عدة مرات من قبل بصدد حديثنا عن المساعي والمطامح الدينية ـ السياسية في فلسطين إلى مقترحات وخطط لاستعمار «الأرض المقدسة». وقد ارتفعت الدعوة إلى استعمار أوروبي بشكـل خاص منذ منتصف الستينات. وتكثفت هذه الدعوة في عدة مشروعات واقعية بصـورة أقل أو أكثر وفي محاولات عملية[١٤٩]. إن «ضرورة» استعمار الأرض «لرفع مستوى البلاد» أصبحت عنصراً أساسياً في الفهم الأوروبي لفلسطين. «وكل من يعرف الأشياء على حقيقتها نوعاً ما ويجيل فكره بالطريقة التي يمكن بها مساعدة هذه البلاد على النهوض ثانية، يتوصل سريعاً إلى نتيجة مؤداها أن هذا لا يمكن أن يكون إلا بالثقافة التي تجلبهـا المسيحية معها، وأن الأمر يقتضي هجرة قوية من البلدان المسيحية المتمدنة لفتح الطريق أمام ظروف جديدة أفضل». هكذا صاغ شيك المسألة سنة ١٨٨١[١٥٠]. والى الحدّ الذي كان يدخل فيه سكان البلاد العرب مجال النظر بصورة من الصور، فان الدور الذي قُدر لهم أن يقوموا به كان مما لا يكاد يُحسد عليه.

لقد أوضحت صحيفة **das Heilige Land** لقرائها أنه سيكون «من الأمور المرغوب فيها للغاية» لو أن عدداً كبيراً من المستعمرين الغرباء استوطنوا البلاد. إن الخصوبة المشهورة

---

(١٤٨) Guthe, "Das Ende des Friedlichen Kreuzuges", Sp. 119–122, 132 135, 146–149. (الاقتباس من العمود ١٤٦ من مجلة **Die Christliche Welt**, Sp. 146).

(١٤٩) قارن اللمحة الواردة في شيك :
Schick, "Studien über Colonisirung", 37–39, 58–61, 80f., 90–100; Schick, "Zur Colonisation – Frage"; Schick, "Der gegenwärtige Stand der Colonisations– versuche".

(١٥٠) Schick, "Studien über Colonisirung," 37.

لواحة أريحا ولسهول شارون (سارونا) وإزدريلون Esdrelon * وكذلك أماكن كثيرة أخرى في فلسطين سوف تغدو من جديد بأيدي مستعمرين مجدّين أذكياء. . . بهجة لعين الحاج وقلبه كما أنها ستجزي المستوطنين بسخاء على عملهم[١٥١]». سوف تنشأ مستعمرات اوروبية صغيرة؛ والفلاحون سيبيعون أرضهم عن طيب خاطر للأوروبيين ولا يتوقعون منهم لقاء ذلك سوى «الخبز والحماية». وفي وسع المستعمرين حينئذ أن يستخدموا «السكان الأصليين» عمالا في الأرض[١٥٢]. وبالرغم من التجارب التي تنطوي على قليل من التشجيع لبعض العائلات والجماعات المنفردة التي حاولت الاستيطان في فلسطين فإن das Heilige Land أبت إلا أن تمضي قدماً في «إثارة الحماسة لبناء المستعمرات في فلسطين»، وكان الأمل يتجه في هذا الصدد إلى «المستعمرات الكاثوليكية» قبل كل شيء. وفي مستوطنات الهيكليين التي كتب لها وحدها حتى الآن حظ من النجاح رأى الناس «أداة غير مباشرة للعناية الالهية، وعاملا اجتماعياً ووسيلة لاثارة الهمم بصورة متبادلة تنفع كثيراً في فلسطين بوجه خاص»[١٥٣].

وفي سنة ١٨٦٦ دعا هنري دونان H. Dunant ، مؤسس الصليب الأحمر، إلى تأسيس جمعية دولية لتجديد الشرق، يكون هدفها الرئيسي ملء فلسطين بالمستعمرات تحت حماية نابليون الثالث. إلا أن المشروع كان سيحمل مع ذلك طابعاً دولياً ويؤدي إلى تحييد فلسطين. وفي هذا الشأن اتجه التفكير بشكل خاص إلى توطين اليهود، وهي مهمة سيأخذها عمالقة المال اليهود في أوروبا أيضاً على عاتقهم. وربّما يفكر الامبراطور الفرنسي فيما بعد في أن يضطلع بالرئاسة العليا لـ «دولة عبريّة صغيرة» في فلسطين تستند ـ على الرغم من كونها تحت الحماية الدولية ـ إلى فرنسا. ويستطيع اليهود أن يسيروا قدماً في مهمة فرنسا وانجلترا التمدينية في القارة الآسيوية. وسيكون من النتائج المهمة للاستعمار الأوروبي لفلسطين تحرير «الأرض المقدسة» من نير الأتراك، والإنهاء السِّلمي لحكم الإسلام[١٥٤]. وقد شغلت هذه الأفكار والجمعية الدولية التي انبثقت عنها أذهان الأوروبيين المهتمين بفلسطين

(*) مرج ابن عامر ـ المترجم .

(١٥١) HI X (1866), 162

(١٥٢) "Die Ackerbau in Palästina," HL, XVI (1872), 117f.

(١٥٣) "Gedanken über die politische, sociale und religiose Frage Palästina's" – HL, XIX (1875), 149–153.

(١٥٤) بشأن تعاون دونان مع الهيكليين الشوابيين انظر: Carmel, Die Siedlungen, 19–21,25; Brugger, 42 f.

حتى منتصف السبعينات[155] دون أن يؤدي ذلك إلى نتائج ملموسة.

وهناك أيضاً مشروع كاثوليكي خاص ببناء المستعمرات، أخرجه إلى حيز الوجود في فرنسا سنة ١٨٧٦ المهندس المعروف والمؤلف عن فلسطين بيروتي Pierotti، ونال المشروع بركة الباب بيوس التاسع، ولكن لم يكتب له نجاح كبير. وكان هدف المشروع تأسيس مستعمرات كاثوليكية في الأرض المقدسة وتشجيع رحلات الحجاج.[156]

وقبيل تأسيس مستعمرة الفرسان الهيكليين الأولى قرب حيفا دعا الجغرافي الفينّي* كولمان Kuhlmann[157]، الذي كان قد أجرى طوال سنتين دراسة استطلاعية لتضاريس الأرض في الشرق، إلى استعمار جرماني لفلسطين وذلك على أساس وعي برسالة يقوم على الشوفينية والعنصرية، ويعتبر الشرق كله ميدان عمل للجرمان. واتسم مشروعه، كمشروع دونان، بقدر ضئيل من المنطق المُغري. وعمد كولمان من جهة إلى خداع قرائه بأن صور فلسطين بلداً خالياً من البشر إلى حد بعيد وحذر المهاجرين من جهة أخرى بانه لا يجوز لهم أن ينزلوا في الأرض متفرقين، بل عليهم أن يستوطنوها «على الدوام في جماعات كبيرة لا يقل عدد الواحدة منها عن ألف رجل قادر على حمل السلاح» حتى يستطيعوا أن يفرضوا وجودهم ضد السكان المسلمين[158].

وفي الأدب الصهيوني يُوصَف مشروع الاستعمار الذي وضعه الدبلوماسي والناشط السياسي والمتصوف (المسيحي) أوليفانت Oliphant بشكل خاص بأنه «المشروع الصهيوني الأول من حيث الزمان» proto—zionistisch[159]. وقد تابع أوليفانت عشية موجة الهجرة اليهودية الأولى بتأييد من الحكومة البريطانية خطة إقامة مستعمرة يهودية في البلقاء، على

---

(١٥٥) قارن:

Roulliet; Die Warte, 17.2.1870; HL, XIX (1875), 147f — Gedanken über die politische, sociale und religiöse Frage Palastina's".

(١٥٦) TS, 1875/6/7/8, 261 f. وكذلك Supplément No. 1.

(*) نسبة الى مدينة فينا ـ المعرب.

(١٥٧) اجرى الهيكليون وهم في طريقهم الى فلسطين محادثات مع كولمان في فينا انظر: Brugger, 45.

(١٥٨) Palästina als Ziel und Boden germanischer Auswanderung und Kolonisation. القول المقتطف من الصفحة ٣٥

(١٥٩) إن وصف اوليفانت بأنه «الصهيوني الأول من حيث الزمان ـ Proto – zionist" ورد في: Israel Pocket Library, Immigration and Settlement, 14، الحاشية رقم ١٢.

الجانب الآخر من نهر الأردن، لكنّه فشل في جهوده بسبب موقف القسطنطينية[١٦٠].

وليس من الصحيح أبداً في هذا الصدد أن المتحمسين للاستعمار لم يأخذوا في الحسبان مشكلة وجود سكان محليين على الإطلاق. ففي حين اقترح كولمان ببساطة حلا عسكرياً، أراد اوليفانت أن يضع سكان شرق الأردن، إلى المدى الذين لم يتخلوافيه عن البداوة، في محميّات شأنهم شأن الهنود الحمر في أمريكا الشمالية. أما فيما يتعلق بالزراع المستقرين فإن هؤلاء «سيشكلون سكاناً عاملين ذوي قيمة يمكن للرأسماليين المهاجرين أن يشغلوهم[١٦١]». ويتضح موقفه الفكري أيضاً عندما يقول: إنه فيما يتعلق بسهل الحولة الخصب الذي ازدادت الرغبة فيه حقاً يحتذى حذو رجال «دان» الذين سبق لهم أن طردوا في الماضي الفلاحين الذين كانوا يعيشون هناك. بيد أنه ينبغي تناول المسألة «بشكل عصري»، إذ يمكن أن تؤسس شركة مساهمة تعوّض أصحاب الأرض، وتحتفظ بهم كعمال، وتنشيء في منطقة الحولة عملاً تجارياً رابحاً[١٦٢].

وكان من رأي كوندر أيضاً أنه في وسع المرء أن يستفيد تماماً من السكان المحليين، فيجعل منهم: Hewers of wood and drawers of water حطّابين وسقائين[١٦٣]. أما زميله تيروت دريك Tyrwhitt Drake من صندوق استكشاف فلسطين فقد كتب سنة ١٨٧٢ بلا مواربة قائلا: «لا استطيع إلا أن أقول إنه سيكون من الأمور الممتازة للغاية لو أن الحكومة (العثمانية) تغلبت على نفورها من بيع الأرض للأجانب. إن قسماً كبيراً من هذه البلاد (فلسطين) سيجد، لدى توافر ضمانات صحيحة، سوقاً مؤاتية، وبعدئذ فإما أن يبعد عنها الفلاحون الحاليون، أو يحولوا إلى أعضاء نافعين في المجتمع، في حين أن زيادة الدخل للحكومة العثمانية ستكون كبيرة جداً[١٦٤]».

ومن جهة أخرى فإن المرء ليقرأ في ارتياح مباشر أنّ رئيس جمعية الهيكليين، هوفمان قد توصل سنة ١٨٨٢ إلى معرفة مؤداها: «أن إقصاء العرب أمر غير مستطاع في الحقيقة، لأنهم يشكلون الأكثرية الساحقة، وهم أصحاب البلاد الشرعيون. وليسوا بالعُزّل أيضاً، بل أن قوة تركيا، المنظمة تنظيماً جيداً من الوجهة العسكرية، تستطيع أن تمنع أي عمل

(١٦٠) Oliphant, The land of Gilead, XIII – XXXVI 284–304, 502–538; Henderson, 203–212; PRO–F.O 195, Vol 1263 (Beirut, 14.5.1879).

(١٦١) Oliphant, The Land of Gilead, 286

(١٦٢) المصدر نفسه ص ١٩.

(١٦٣) Conder, "The Present Condition", 8 f; انظر أيضاً: Conder, Tent Work, II, 327 f.

(١٦٤) مقتبسة في: SWP, Samaria, 265.

عنيف ضد السكان الأصليين». أما بالنسبة للمستعمرين الأوروبيين فلا يستغنى في كل حال عن حماية دولة أوروبية[١٦٥].

على أن المستعمرين المحتملين لم يساورهم القلق حول السكان التقليديين. فإما أنهم كانوا يلجأون إلى مقولة فلسطين «الخالية من السكان» أو كانت لديهم حلول جاهزة. ولذلك فانه كان بالامكان أن تُشدّ قوسٌ واسعة تبدأ من تصورات الدّعاة الفرديين لفكرة "Restoration of the Jews" في الأربعينات، وتمتد فوق المتحمسين للاستعمار من مختلف الأصول في الثلث الأخير للقرن التاسع عشر إلى أن تصل إلى الأفكار الصهيونية في أوائل القرن العشرين. وكانت لدى «نصير الاعادة» متفورد Mitford سنة ١٨٤٥ فكرة تقول إنه يمكن إيجاد مكان للمهاجرين اليهود عن طريق ترحيل السكان المسلمين إلى آسيا الصغرى[١٦٦]. وكان بالود Ballod يعتقد حتى في سنة ١٩١٨: «إن أقل الصعوبات سيجدها المرء مع الفلاحين العرب فإن هؤلاء... سوف يتركون فلسطين بكل سرور لو توافرت لهم ظروفٌ أفضل في بلد آخر، كسوريا أو بابل مثلاً، لدى احيائه بالزراعة السخية.»[١٦٧] بيد أنه من بين خطط الاستعمار ومشروعاته الكثيرة لم يكلل الا اثنان بالنجاح، مستوطنات الهيكليين منذ سنة ١٨٦٨، ومستوطنات المهاجرين اليهود منذ سنة ١٨٨٢. ان الهيكليين، وهم طائفة تقويّة* من مدينة فورتمبرغ Württemberg، جعلوا هدفهم «جمع شعب الله» في القدس. وافترض هؤلاء في نداء وجّهوه سنة ١٨٦١ أن «فكر الأمة الألمانية يجب أن يُصرف إلى إقامة الهيكل في القدس وإلى احتلال فلسطين... ويجب أن يُسعى إلى إقامة سلطة ألمانية مركزية تتابع هذا الهدف[١٦٨]».

إن «شعب الله» (أي هم أنفسهم) كان لديهم حَسْبَ تصوراتهم حق لا يتزعزع بامتلاك «الأرض المقدسة». والطريق إلى تحقيق هذه الأهداف هو الهجرة إلى فلسطين. وبعد صعوبات طويلة المدى في البداية أسس شعب الله السوابي** بين سنتي ١٨٦٨ و١٨٧٣ أربع مستوطنات، أضيفت إليها بين سنتي ١٩٠٢ و١٩٠٧ ثلاث مستوطنات

---

(١٦٥) Die Warte, 11.5.1882.

(١٦٦) انظر Kohler, 77

(١٦٧) Ballod, 30

(*) التقويّة: (pietistisch): حركة دينية نشأت في المانيا في القرن السابع عشر واكدت على دراسة الكتاب المقدس والخبرة الدينية الشخصية ـ المترجم.

(١٦٨) الاقتباس في: Brugger, 39

** نسبة الى سوابيا (شفابيا).

أخرى. على أن الجماهير التي كان يراد لها أن تغيّر شكل «الأرض المقدسة» لم تجيء. ولم يتجاوز عدد الهيكليين الذين استوطنوا فلسطين في حده الأعلى الألفي نسمة بحال من الأحوال[١٦٩].

على أن حكومة الرايخ لم تجعل النشاطات الاستيطانية في فلسطين ترقى إلى مصافّ السياسة أبداً. ولذلك كانت تبدي تحفظاً نسبياً تجاه المستعمرين الألمان. ويبدو أن الهيكليين، بسبب منازعاتهم الدائمة مع السلطات المحلية، التي وصلت إلى حد رفض دفع الضرائب[١٧٠]، كانوا عنصراً مزعجاً للغاية للعلاقات الألمانية العثمانية. ومن الطبيعي أن الباب العالي أيضاً كانت لديه تحفظات جوهرية. فعلى الرغم من قانون سنة ١٨٦٧ الذي أقر للأجانب بحق امتلاك الأراضي في الدولة العثمانية عارض الباب العالي طويلا في منح سندات الملكية إلى الهيكليين، كما قال الممثل الألماني في القسطنطينية في تقرير إلى وزارة الخارجية، خوفاً من أن يستقل هؤلاء بأنفسهم عن سلطات البلاد. ولهذا السبب نفسه رفض ابتداءاً الاعتراف بوكيل القنصل الألماني في حيفا، كيلر، أيضاً. فقد كان يخشى أن يصبح نوعاً من حاكم لدولةٍ المانية صغيرة[١٧١]. وبناء على ذلك لم تنظر الحكومة الألمانية إلى الهيكليين باعتبارهم رأس جسر في الشرق الأدنى، كما كانوا يأملون بعد فتور الحماسة الدينية الأصلية على وجه الخصوص، ولم يحظوا لذلك بالرعاية والتشجيع. وكان أهم من ذلك بالنسبة لتعزيز المواقع الألمانية في فلسطين تشجيع المؤسسات البروتستانتية والكاثوليكية الألمانية وإقامة جماعة «ألمانية يهودية» من الزبائن. وهذا العامل الأخير لعب منذ سنوات السبعينات بشكل خاص دوراً مهمّاً[١٧٢]. وفيما يتعلق بـ «حماية» اليهود شكّل الرايخ الألماني منافساً جدياً لانكلترا، وهكذا انحصر الدور التاريخي للهيكليين في أنهم قدموا لمنافسيهم

---

(١٦٩) حول الهيكليين انظر في المقام الأول Carmel, Die Siedlungen وقارن أيضاً ; Imberger; Selbt; Brugger; Paulus

(١٧٠) إن الوثائق الخاصة بالمنازعات الدائمة حول الضرائب والرسوم تملأ مجلدات ارشيف القنصلية الألمانية في القدس. انظر بشكل خاص : ;ISA– DKJ, A. XIII. 1.S., Vol 1, A. XXII, 1. a.4; A. XXII. 1 d.; A.XXII. 1 c. Bd. 1, A. XXII. 10 a. A. XXXVI. 1.
وربما كان هذا أيضاً هو السبب في أن القنصل الألماني في القدس مونشهاورن Münschhausen لم يكن يذكر الهيكليين بالخير. فقد كتب الى كلر Keller في حيفا في ٢ / ٥ / ١٨٧٩ يقول : ان المستعمرة البائسة لن تتلقى اية مساعدة من وزارة الخارجية فالمهاجرون يؤذون الدولة الألمانية عن طريق سحب الثروة والقوى منها، وبناءً على ذلك فلا يجوز أن يتوقعوا مساعدة فوق ذلك. واقترح مونشها ورن نقل الهيكليين الى قبرص حيث يستطيعون أن يمارسوا زراعة العسب تحت الحماية البريطانية! (ISA–DKJ, A. XXXI.7.). وكان قد كتب من قبل في ٢٧/٧/١٨٧٤ إلى مراد في يافا يقول بفظاظة : لا يمكن أن نحتمل أن تحكم جماعة الهيكل نفسها كأنها دولة داخل الدولة. ISA – DKJ, A. XXX VI. 1

(١٧١) AA–1. A.B.q. :(Türkel) 126 (Pera, 29.11.1877) . وحول مسألة امتلاك الأراضي انظر أيضاً الملفات :
AA–Konst., GEN 76 K. 18.d.

(١٧٢) قارن : .Eliav, Die Juden Palästinas; Eliav, "German Interests"

وخلفائهم الأكثر نجاحاً ـ وهم المستوطنون اليهود ـ البرهان على أن الاستعمار الأوروبي في فلسطين قد يكلل من حيث الأصل بالنجاح. وقد حاول المستوطنون اليهود أن يتعلموا من تجارب الهيكليين.

وفي عشية موجة الهجرة اليهودية الأولى [عالية Alihah‘ الأولى] لم يكن يعيش في فلسطين سوى ٢٤,٠٠٠ يهودي تقريباً. وكانت أكثريتهم الساحقة تقيم بالفعل في «المدن المقدسة» القدس وصفد وطبريا والخليل (ولم يكن في الخليل سوى طائفة يهودية صغيرة نسبياً). إن المطامح الأوروبية المتعددة الأشكال في «الأرض المقدسة» وزيادة الاتصالات بفلسطين والمعرفة بها أمدت أيضاً التعلق اليهودي بصهيون بحافز جديد ونمّت اهتمام اليهود الأوروبيين بفلسطين وبوضع اليهود الذين يعيشون فيها، «اليشوف القديم». وجنباً إلى جنب مع مشروعات الاستعمار «المسيحية» كان هناك أيضاً مشروعات يهودية من هذا النوع. ومن ذلك مثلا ما يدعى بـ جمعية استعمار فلسطين ـ Colonisations – Verein für Palästina ـ التي أسسها شخص يدعى الدكتور لوريه (Dr Lorje) في مدينة فرانكفورت الواقعة على نهر الأودر (Oder) سنة ١٨٦٠، وهي الجمعية التي حازت على رضى القنصل العام النمساوي في القدس. وكان هدفها المباشر تأسيس «مستعمرة زراعية يهودية كبيرة في فلسطين». أما هدفها النهائي فكان «إقامة دولة يهودية جديدة»[١٧٣]. أما المحسنون من أمثال الانجليزي سير موزس مونتفيوري Moses Montefiore أو المنظمات مثل الاتحاد الاسرائيلي العام Alliance Israélite Universelle فقد عملوا على تحسين ظروف الحياة بالنسبة لرفاقهم في العقيدة في «أرض اسرائيل»، وخصوصاً عن طريق إيجاد حوافز للنشاط المنتج في ميدان الحرف والزراعة. وقد أدى ذلك إلى قيام أول محاولة يهودية كبيرة لتثبيت الأقدام في الأرض التي تم الحصول عليها حديثاً في فلسطين. فقد أسس الاتحاد الاسرائيلي العام سنة ١٨٧٠ مدرسة زراعية قرب يافا (مكفه اسرائيل). كما أسس يهود القدس سنة ١٨٧٨ أول مستعمرة زراعية (بتاخ تكفا) تمّ التخلي عنها بالفعل فيما بعد (سنة ١٨٨١)[١٧٤]. أما الاستعمار اليهودي الحقيقي منذ سنة ١٨٨٢ فلا يندرج تحت موضوعنا.

---

(١٧٣) الملف الخاص بذلك في : HHSTA – Archiv Jer., Fasz. 46 (1862/3).1.

(١٧٤) انظر : Chouraqui, 357–363, 456,494 f; Margalith, Le Baron, 42–4.

التطور الاقتصادي في فلسطين
طبيعة المشكلة

إن المساعي الأوروبية في «الأرض المقدسة» لم تكن ذات طبيعة اقتصادية في الدرجة الأولى. فلم تكن هناك مصالح اقتصادية خاصة وبارزة في فلسطين، فقد كانت هذه مندرجة في سياق التغلغل الاقتصادي العام في الشرق الأدنى. إلا أن التغلغل الأوروبي في فلسطين، وفي هذا الاطار حجم التجارة المتنامى أيضاً، كان لهما تأثيرات مهمّة على التطوّر الاقتصادي للبلاد، وبالتالي على الهيكل الاجتماعي فيها.

أمّا ماذا كانت فلسطين تستطيع أن تقدمه إلى اوروبا في الفترة التي نعالجها، وبعبارة أخرى، ما هي أهميتها بالنسبة للأوروبيين، فقد تجلى ذلك بصورة مجسّمة في المعرض العالمي الذي أقيم في فينا سنة ١٨٧٣. لم يكن هناك بطبيعة الحال جناح خاص بـ «الأرض المقدسة»؛ إذ كانت منتجات فلسطين مندرجة بالأحرى ضمن معروضات الدولة العثمانية. ومع ذلك فقد أفرد مكان خاص للحديث عن «فلسطين في المعرض العالمي» إلى الجمهور الناطق بالألمانية ـ وكان ذلك قد تم للمرة الأولى بالفعل منذ بداية تلك العروض التي اقامتها اوروبا الآخذة في التصنيع لنفسها في لندن سنة ١٨٥١، وذلك تلبية للاهتمام المتزايد على الدوام بـ «الأرض المقدسة»[١٧٥].

وفي واقع الأمر كان هنالك في فينا ثلاثة أصناف من المعروضات التي جاءت من فلسطين: المنتجات الزراعية، والتحف التذكارية، ونماذج «الأماكن المقدسة».

ويضم الصنف الأول القمح والشعير والسمسم والذرة[١٧٦] والبقول والتبغ والنبيذ والزيت، أما الصنف الثاني فكانت تتمثل فيه تشكيلة كاملة من خشب الزيتون والأواني الصدفية والزجاجية التي تصنع في القدس وبيت لحم والخليل. والصنف الثالث كان يشمل نموذجاً لمدينة القدس من الزنك (الخارصين)[١٧٦أ] وكذلك نماذج مصنوعة من الخشب لـ «الأماكن المقدسة» المسيحية واليهودية والاسلامية في القدس وما حولها.

---

(١٧٥) Zschokke, 4-8 . حول معروضات القدس في المعرض العالمي الذي اقيم بباريس سنة ١٨٦٧، انظر: Cuinet, 618

(١٧٦) انظر في وصفها : HL, XVI (1872), 118

(١٧٦أ) عرض هذا النموذج في جنيف من سنة ١٨٧٨ حتى سنة ١٩٢٠، وهو موجود منذ وقت قصير في القدس. انظر ايزابيل فشنياك Isabelle Vichniac: "L'etrange destin du "Relief de Jérusalem" في صحيفة لوموند Le Monde 21./22.10.1984 .

وقد دلّ ذلك من جهة على الدمج المتزايد لفلسطين، كجزء من الدولة العثمانية، في السـوق العـالمية، بوصفها مورِّدة للمنتجات الزراعية الخام؛ ومن جهة أخرى اتضح أن فلسطين باعتبارها «الأرض المقدّسة» كانت تحظى بمركز خاص. ولولا «الأماكن المقدسة» لكان الاهتمام الأوروبي بفلسطين اهتماماً هامشياً.

ومعنى هذا أننا عندما ندرس التطور الاقتصادي لفلسطين في فترة التوسع الأوروبي والتغلغل الاقتصادي الذي شق طريقه بقوة في أطراف البحر المتوسط الجنوبية والشرقية بعد حرب القرم، ينبغي أن نضع نصب أعيننا إلى جانب التغلغل الاقتصادي عاملاً آخر: هو عامل التغلغل الديني الثقافي، كما وصفناه أعلاه. على أننا سوف نبين أن الأمر في هذا الإطار لم يكن يقتصر بحـال من الأحـوال على أهـداف دينية وثقـافية خالصة. إن «الصليبيين السلميين» و«أنصار الاعادة» غدوا الآن بدورهم أعضاء في الجمعيات التوسعية التي نمت في كنفهـا الأفكار الاستعمارية. ولو أن أفكارهم وجدت طريقها إلى التحقيق لنشأ عندنا خليط غير متجانس من جيوب الاستيطان الأوروبية المختلفة. أي أن التغلغل السياسي والديني الثقافي في فلسطين لا يمكن رؤيته بصورة منفصلة عن وضع البلاد بصورة راسخة ضمن تركيبة اقتصادية وسياسية تخضع لسيطرة العواصم والمراكز الصناعية الأوروبية.

وهمّنا الآن أن ندرس كيف مسّت حركة التوسع هذه فلسطين وما هي ردود الفعل التي نشأت عنها، وعلى وجه التحديد في ميادين التجارة الخارجية والانتاج الزراعي وتغيير ظروف الملكية الزراعية وتطور المدن والتجارة والحرف في المدن. وسنناقش أولا تطور الانتاج الزراعي وتجارة الاستيراد والتصدير عن طريق الموانىء يافا وحيفا وعكا، وهنا تنشأ ثلاثة أسئلة فرعية. السؤال الأول هو عن مدى صحة الصيغة المتكررة التي ترددت في الكتب والقائلة بأن فلسطين كانت بلداً راكداً، مهملا بل وقاحلا قبل سنة ١٨٨٢، أي قبل بداية الاستعـمار اليهـودي[١٧٧]. والسؤال الثـاني يستهدف وضع فلسطين الاقتصادي في الإطار السوري العام، مع النظر إلى اختلال الميزان التجاري لسوريا مع أوروبا في القرن التاسع عشر[١٧٨] والسؤال الأخير هو حول التأثيرات التي طرأت على ظروف الملكية الزراعية وأشكال الانتاج.

---

(١٧٧) حول استغلال هذه الصيغة للدعاية انظر مثلا اومان Aumann في مواضع كثيرة. وحتى ديفد لاندس David Landes المؤرخ الاقتصـادي المعـروف لأوروبا، ساهم في تخليد هذه الخرافة السياسية في رحلة كتابية سطحية الى منطقة لا يعرفها: Landes, 48–50. للاطلاع على رد على أقواله انظر مثلا: كشتيني، مواضع كثيرة.

(١٧٨) Kalla, 30–40; Chevallier, XIII; Schatkowski–Schlicher, "Ein Modellfall", 482–505.

إن المصـدر الـرئيسي لهذا الجـزء من الـدراسـة هو التقارير التجارية والاقتصادية للقناصل الانجليز والألمان والنمساويين والفرنسيين في القدس ويافا وحيفا وعكا[١٧٩] . وكل من يعمـل في ميدان التـاريخ الاقتصـادي للشرق الأدنى في القـرن التاسع عشر يدرك المشكلات التي تطرحها هذه المصادر. فمعظم المعطيات الكمية فيها لا يمكن أن تفهم إلا على أنها قيم تقـريبية، سواء استنـدت إلى حسـابات القناصل أنفسهم أو وضعت تحت تصرفهم من جانب سلطات الجمارك المحلية أو بيوت التجارة الأوروبية. وهناك فضلاً عن ذلك تفاوت كبير بين احصاءات القنصليات المختلفة، لأن حساباتها لم تكن توضع دائماً على أسـاس المقـاييس نفسها[١٨٠] . والأمر هنا لا يتعلق إذن بالادراك الدقيق والأمين لما أمكن للكميات، بل يتعلق بمعرفة المعالم واتجاهات التطور.

وسنعرض أخيراً تطور المدن الفلسطينية وانتاج المدن في هذه الفترة للتغلغل الأوروبي الذي شق طريقه بقوة على أنه لا يجوز لنا أن نتوقع بالطبع نتائج مثيرة. فاذا غضضنا النظر حيناً عن صناعة الصابون وبعض فروع الحرف اليدوية المحلية المتخصصة فلم تكن هناك صناعات مزدهرة في المدن من شأنها أن تهدِّد جرّاء التغلغل الأوروبي أو تُرْغَمَ على تغيير هيكلتها. إننا سنحاول إذن القيام بعملية جرد ونتساءل عن التغيرات الممكنة.

وفي هذا الجزء أيضاً سنعتمد قبل كل شيء على المصادر الأوروبية فإضافة إلى الملفات القنصلية سوف نستند إلى أدب فلسطين Palästina Literatur المعاصر في الدرجة الأولى، وهو الأدب الغني في محتواه، بل الممتاز أحياناً. أما تاريخ المدن والتاريخ المحلي العـربي فلا يقـدم لموضوعنا هذا مع الأسف، بالنسبة للفترة التي نعالجها، إلا معلومات زهيدة. ويصدُق هذا أيضاً على موسوعة الدباغ الضخمة «بلادنا فلسطين» وعلى الكتب السنوية للولايات العثمانية.

---

(١٧٩) اما لماذا يزعم جيربر Gerber (Modernization, 257) بأن القناصل البريطانيين لم يبدأوا في وضع احصاءات تجارية ليافا الامنذ منتصف الثمانينات، فهو أمر غامض بالنسبة لي.

(١٨٠) يضاف الى ذلك اخطاء حسابية متعددة في التقارير الأصلية للقناصل البريطانيين في يافا، وكذلك اخطاء مطبعية في الاحصـاءات المنشورة في الأوراق البرلمانية Parliamentary Papers . ولذلك فان المجاميع النهائية في الجداول التي أعـددتهـا بالاستنـاد الى التقـارير القنصلية البريطانية، لا تتطابق دائماً مع المجاميع الكلية الواردة في وثائق مكتب المحفوظات العامة PRO أو الأوراق البرلمانية PP .

التجارة الخارجية والزراعة

توجيه الإنتاج الزراعي نحو التصدير

كانت فلسطين تنتج في الفترة التي نبحث فيها هنا فائضاً زراعياً كبيراً نسبياً كان يصدر إلى البلدان المجاورة مثل مصر ولبنان، وكذلك إلى اوروبا التي كانت الصادرات إليها تزداد باضطراد. وقد عمل وكلاء القناصل الأوروبيين (الذين كانوا هم أنفسهم وبأكثريتهم الساحقة تجاراً ورجال أعمال وملاكين وحتى ملتزمين بجمع الضرائب) وممثلو البيوت التجارية الأوروبية في الأساكل* (الموانىء) ووساطاؤهم أو شركاؤهم في داخل البلاد كوسطاء لتلبية الطلب الأوروبي، ولتكييف الانتاج وفق متطلبات السوق الأوروبية بعد سنة ١٨٥٠.

كانت تصدّر من يافا منتجات الجزء الجنوبي من البلاد، ومن حيفا وعكا منتجات فلسطين الشمالية. وليس في الوسع أن نحدد الحصة التي كانت تصدر من جبل نابلس من مختلف المنتجات عن طريق كل من حيفا ويافا، أما عكا فكانت ميناء التصدير الرئيسي لذلك الجزء من قمح حوران، الذي لم يكن يستهلك في سوريا نفسها.

وكانت أهم سلع التصدير من يافا[١٨١] طيلة الفترة من سنة ١٨٥٦ إلى سنة ١٨٨٢

(*) جمع أسكلة، وهي كلمة ايطالية يونانية الأصل (Scala)، كانت تطلق على موانىء البحر الأبيض المتوسط في العصور الوسطى - المترجم.

(١٨١) ان جميع المعطيات الخاصة بتجارة يافا اخذت من التقارير السنوية التالية للقناصل البريطانيين، الا اذا ذكر مصدر آخر:

1857: PRO-F.O. 78, vol. 1296 (Jaffa, 31.12.1857);
1858: PRO-F.O. 78, vol. 1287 (Jaffa, 31.12.1858);
1859: PRO-F.O. 78, vol. 1449 (Jaffa, 31.12.1859);
1860: PRO-F.O. 78, vol. 1537 (Jaffa, 31.12 1860);
1862: PP – 1863, vol. LXX (Jaffa, 27.1.1863);
1863: PP – 1864, vol. LXI (Jaffa, May 1864);
1873: PP – 1874, vol. LXVII (Jaffa, February 1874);
1874: PP – 1875, vol. LXXVII (Jaffa, April 1875),
1875: PP – 1876, vol. LXXV (Jaffa, February 1876);
1876: PP – 1877, vol. LXXXIII (Jaffa, March 877);
1877: PP – 1878, vol. LXXIV (Jaffa, May 1878);
1879: PP – 1880, vol. LXXIV (Jaffa, February 1880);
1880: PP – 1881, vol. XC (Jaffa, March, 1881);
1881. PP – 1882, vol. LXXI (Jaffa, May, 1882);
1882: PP – 1883, vol. LXXII (Jaffa, March, 1883);

هي القمح والشعير والذرة والسمسم وزيت الزيتون والصابون والبرتقال وغيره من الفواكه وكذلك الخضروات (ولو أنها وردت بترتيب مختلف للأولويات سنقوم بشرحه فيما بعد). والمستوردون الرئيسيون كانوا فرنسا التي كان يرسل إليها الجزء الأعظم من السمسم وجزء كبير من زيت الزيتون، وكذلك الحبوب وأحياناً القطن؛ ومصر التي استوردت الجزء الأكبر من الصابون وكذلك زيت الزيتون والفواكه والخضروات من فلسطين، وانجلترا التي كان يذهب إليها محصول الذرة بأكمله تقريباً وجزء كبير من صادرات القمح والشعير. وكانت الحبوب والفواكه والخضار والصابون تصدّر إلى سوريا الشمالية وآسيا الصغرى وكذلك إلى اليونان وايطاليا ومالطا.

أما أهم السلع التي كانت تصدر من حيفا وعكا[١٨٢] فهي القمح والشعير والذرة والسمسم وزيت الزيتون. كان القمح يذهب إلى إيطاليا (لصنع الباستا «العجينة») وفرنسا وانجلترا واليونان، وكذلك إلى لبنان وآسيا الصغرى. أما الشعير فكان يرسل في المقام الأول إلى لبنان ثم إلى إنجلترا وفرنسا، والذرة إلى انجلترا وفرنسا خصوصاً، والسمسم كله تقريباً إلى فرنسا، وزيت الزيتون إلى مصر وفرنسا وآسيا الصغرى. وإضافة إلى ذلك كان القطن يصدر لفترة عابرة إلى فرنسا. ولكن معظم القمح الذي كان يشحن من عكا كان من حوران. ففي سنة ١٨٦٧ صدر مثلا مليون كيلة من أصل ١,٦ مليون كيلة[١٨٢أ]. وفي سنة ١٨٧٩ حوالي مليون من أصل ١,٧٥ مليون، أما في سنة ١٨٨١ فلم يتجاوز ما صدر بالفعل ١٠,٠٠٠ من أصل ٢٥٠,٠٠٠ كيلة بسبب سوء الموسم في حوران؛ وفي سنة ١٨٨٢ صدر من عكا ٩٣٤٠٠٠ كيلة من قمح حوران و٤٢٠٠٠٠ كيلة من «قمح

---

(١٨٢) جميع المعطيات الخاصة بتجارة عكا وحيفا اخذت من التقارير السنوية التالية للقناصل الألمان في عكا وحيفا، الا اذا وردت اشارة صريحة بخلاف ذلك.

1872: ISA-DKJ, A.XXXIX.1 (Haifa, 5.3.1873);

1873 ISA-DKJ, A.XXXIX 2 (Haifa, 23 4 1874);

1874: ISA-DKJ, A.XXXIX.2 (Haifa, 27.1 1875),

1875: ISA-DKJ, A.XXXIX 2 (Akka, 24.2.1876),

1876. ISA-DKJ, A XXXIX.3 (Haifa, 25 1 1877);

1877: ISA-DKJ, A.XXXIX.3 (Haifa, 19 1 1878);

1878: ISA-DKJ, A.XXXIX.4 (Haifa, 20.1 1879),

1879: ISA-DKJ, A.XXXIX.4 (Haifa, 10 1 1880),

1880: ISA-DKJ, A.XXXIX.4 (Haifa, 7 1 1881);

بالنسبة لسنة ١٨٥٦ انظر الأوراق البرلمانية. PP– 1857, sess. 2, vol XXXVII (Jerusalem, 31 12.1856).

(١٨٢أ) استناداً الى باور Bauer, **Das Palästinisch Arabisch, 226** اعتمدت في هذه الدراسة المعادلات التالية للمكاييل والأوزان: ١ اقه = ٢٨ر١ كغم؛ ١ رطل = ٨٨ر٢ كغم؛ ١ ثمنية = ٢٥ر٢ لتر؛ ١ كيلة = ٣٦ لتراً.

البلاد»[١٨٣] . ويستطيع المرء أن يخرج من هذه الأرقام بأن حوالي ثلث القمح المصدر من عكا جاء من حوران والثلث من شمالي فلسطين (من مناطق عكا والناصرة وطبرية).

ويعطينا الجدول ١٧ انطباعاً عن أهمية الموانىء الثلاثة في تصدير المنتجات المختلفة ، بيد أن تنظيم هذا الجدول لا يسمح باجراء مقارنة دقيقة لأن فترة التصدير التي تمتد ٩ سنوات من يافا لا تغطي بالضبط سنوات التصدير من حيفا وعكا .

الجدول ١٧
معدل التصدير السنوي لسلع التصدير الرئيسية من يافا وحيفا وعكا ١٨٧٢ ـ ١٨٨٢
(بملايين الكيلات أو الأقّات أو الحبّات)

	يافا	حيفا	عكا
	١٨٧٣ ـ ٧٧، ٧٩ ـ ٨٢	١٨٧٢ ـ ٨٠	١٨٧٢ ـ ٨٠
القمح (كيلة)	٠ر٢٧٩	٠ر٤٢٩	١ر٢٩١
الشعير (كيلة)	٠ر١٠٢	٠ر١١١	٠ر٢٠٣
الذره (كيلة)	٠ر٠٦٢	٠ر٢٣٣	٠ر٦٢٥
السمسم (أقه)	٢ر٠٥٩	٠ر٨٠٠	١ر٠٠٠
زيت الزيتون (أقة)	١ر٠٢٧	٠ر٠٥٣	٠ر٢٦٠
الصابون (أقه)	٠ر٩٠٤		
صوف الغنم (أقة)	٠ر١١٥		
البرتقال (الحبّة)★	١٩ر٦٥٠		

★ معدّل السنوات ١٨٧٣ ـ ١٨٧٧ و ١٨٧٩ فقط، لأن المعطيات اعتباراً من سنة ١٨٨٠ كانت بالصندوق.

المصدر : حسابات المؤلف استناداً الى المصادر المذكورة في الحاشيتين ١٨١ و ١٨٢ .

(١٨٣) Deutsches Handelsarchiv, 1883, II, 258

وقد ظلت منتجات التصدير الرئيسية من فلسطين كما هي تقريباً طوال الفترة الواقعة بين سنتي ١٨٥٦ و١٨٨٢ . ويمكن رؤية التغيرات القصيرة الأمد والطويلة الأمد في أهمية السلع في هيكل التصدير في الجداول ١٨ و١٩ و٢٠ و٢١ . أما العوامل التي كانت وراء هذه التقلبات والتغيرات فهي :

١ ـ الظروف الطبيعية وخصوصاً سوء مواسم الحصاد نتيجة لقلة المطر أو انتشار وباء الجراد.[١٨٤]

٢ ـ ظروف السوق، وفي الدرجة الأولى تغير الطلب، وهبوط الأسعار أو صعودها، تبعاً لذلك.

٣ ـ الظروف السياسية كالحروب والقلاقل في المنطقة نفسها وفي اوروبا وأميركا، وهي الظروف المرتبطة أوثق ارتباط بظروف السوق.

سنقوم أولا بشرح الحوافز النابعة من الأسواق الخارجية بايراد زراعة القطن كمثال، ثم نشرح بعدئذ التقلبات في مجمل الصادرات من عكا وحيفا من جهة ومن يافا من جهة أخرى.

إن فلسطين الشمالية والوسطى، ومنطقتي عكا وجبل نابلس بصورة أدق، هي من المناطق التقليدية لزراعة القطن في سوريا بل من أهم هذه المناطق. والقطن الذي لم يكن يصنّع فيها في الموقع، أو يسوّق في سوريا الوسطى، وفي دمشق خاصة، كان يصدر كلّه تقريباً إلى فرنسا. غير أنه منذ سنة ١٨٥٢ أصبح الطلب الفرنسي على السمسم (لاستخراج الزيت) أكثر الحاحاً. ومن هنا فقد وجّه الانتاج الزراعي إلى هذا المحصول. وكان هذا التحول أسهل على الفلاحين، لأن زراعة السمسم كانت تحتاج إلى جهد أقل بكثير، كما أن بذوره كانت أقـل تأثراً بالطقس من القطن. يضاف إلى ذلك أن الطلب على القمح والشعير[١٨٥] ازداد بشكل مفاجىء وعاصف باندلاع حرب القرم وتوقف توريد الحبوب من روسيا الجنوبية، وبذلك تعطل تصدير القطن بشكل كامل تقريباً. (انظر الجدولين ٢٢ و٢٣).

---

(١٨٤) حول العلاقة بين نزول المطر وسعر الحبوب انظر في الدرجة الأولى: Chaplin, 99f, و Dalman, I/1, 132; I/2 300f وحول سنوات الجراد في فلسطين انظر:
Dalman, I/2, 393.

(١٨٥) لقد وصف فايرستون Firestone في بحثه : "Production and Trade", I, 191–195. مشاركة احدَى عائلات جبل نابلس المرموقة (التي كانت تستثمر أموالها عادة في أعمال الرهن والأراضي الزراعية وبساتين الزيتون ومعاصر الزيت) في الازدهار في تصدير الحبوب خلال حرب القرم وما بعدها مباشرة، وذلك عن طريق توظيف أموال العائلة في تجارة الحبوب (١٨٥٣ ـ ١٨٥٨).

الجدول ١٨ : أهم سلع التصدير من ميناء يافا
(الكميات بالكلية/ الأقة/الحبة أو الصندوق)

السنة	القمح (كيلة)	الشعير (كيلة)	الذرة (كيلة)	السمسم (اقة)	زيت الزيتون (اقة)	الصابون (اقة)	البرتقال (حبة)	صوف الغنم (اقة)	القطن (اقة)
١٨٥٧	٤٥٤٥٥٥	٢٤٥٠١١	٣٩٣٩٢	٥٠٣٠٠٠	٢٠٠٠٠	١٠٠٠٠٠٠	٦٠٠٠٠٠٠	١٠٠٠٠	–
١٨٥٨	١٨٠٠٠	١٤٣٤١٤	١٦٦٧١٢	٨٢٠٠٠٠	١٠٠٠٠٠	٨٠٠٠٠٠	٣٠٠٠٠٠٠	٤٠٠٠٠	–
١٨٥٩	٣٠٠٠٠	٣٠٠٠٠	٢٥٠٠٠	٤٠٠٠٠٠	١٠٠٠٠٠	٥٠٠٠٠٠	٦٠٠٠٠٠٠	–	–
١٨٦٠	–	–	–	١٠٠٠٠٠٠	٢٠٤٠٠٠٠	٥٠٠٠٠	٥٠٠٠٠٠٠	٥٥٠٠	٢٠٠٠٠
١٨٦٢	٧٩٩٢٨	١١٧٦٦١	٥٧٨١٠	١٨٥٦٠٧٨	١٦٧٣٦٩٦	١٠٠٠٠٠	٨٠٠٠٠٠	٢٠٠٠	٢٠٠٠٠
١٨٧٣	٣١٠٠٠٠	١١٠٠٠٠	٢٥٠٠٠	٣٠٠٠٠٠٠	٢٥٠٠٠٠	٦٠٠٠٠٠	٢٧٧٥٠٠٠٠	١٠٠٠٠٠	٤٠٠٠٠
١٨٧٤	٢١٢٠٠٠	١٢٠٠٠٠	١١٥٠٠٠	٢٠٠٠٠٠٠	١٣٠٠٠٠	١٠٠٠٠٠٠	٢٥٥٠٠٠٠٠	١٢٠٠٠٠	١٠٠٠٠
١٨٧٥	٤٤٨٠٠٠	٢٨٨٠٠٠	٧٠٥٠٠	٢٨٠٠٠٠٠	١٠٠٠٠٠	١٣٠٠٠٠٠	١٠٢٠٠٠٠٠	٥٠٠٠٠	٥٠٠٠
١٨٧٦	٤٣٠٠٠٠	٢٥٠٠	٨٠٠٠٠	٢٣٥٠٠٠٠٠	٣٥٠٠٠٠٠	٢٤٦٠٠٠	١٤٠٠٠٠٠	١٥٠٠٠٠	–
١٨٧٧	–	–	١٦٠٠٠	١٨٧٠٠٠٠	١٠٠٠٠٠٠	٢٢٠٠٠٠	١٤٢٠٠٠٠٠	١٢٠٠٠٠	–
١٨٨٠	١٨٩٥٠٠	١٠٠٥٠٠	٢٥٣٠٠	١٧٠٠٠٠٠	٨٠٠٠٠٠	١٤٥٠٠٠٠	١٤٥٠٠٠★	١٠٥٠٠٠	–
١٨٨١	٤٤٠٠٠٠	٢٥٥٠٠٠	٨٠٠٠٠	١٤٢٠٠٠٠	١٦٠٠٠٠	٨٥٠٠٠٠	١٧٠٥٠٠٠★	١٣٥٠٠٠	–
١٨٨٢	٤٨٢٩٠٥	١٨٢٧٠	١٤٣٣٠٢	٢٢٩٢٨٤٤	٤٠٦١١٥	١١٢٤٠٠٠	١١٦٣٥٠★	١٢٩٠٠٠	–

★ صندوق

المصدر : كما في الحاشية ١٨١.

الجدول ١٩

قيمة أهم ثلاث سلع من سلع التصدير من يافا في كل سنة من السنوات بالقروش، وحصتها المئوية من القيمة الكلية للسلع المصدرة

السنة	سلع التصدير	القيمة بالقروش	الحصة من مجموع التصدير
١٨٥٧	الصابون الشعير السمسم	٦ ٠٠٠ ٠٠٠ ٣ ٥١٥ ٩٠٨ ١ ٧٦٠ ٥٠٠	٧٢ر٤
١٨٥٨	الصابون السمسم الذرة	٤ ٤٨٠ ٠٠٠ ٢ ٢٥٥ ٠٠٠ ١ ٩٠٨ ٨٥٢	٧٠ر٦
١٨٥٩	الصابون البرتقال السمسم	٢ ٥٠٠ ٠٠٠ ١ ٢٠٠ ٠٠٠ ١ ٠٠٠ ٠٠٠	٦٣ر٣
١٨٦٠	زيت الزيتون السمسم البرتقال	١٠ ٢٠٠ ٠٠٠ ٣ ٠٠٠ ٠٠٠ ١ ٠٠٠ ٠٠٠	٩٤ر٩
١٨٦٢	زيت الزيتون السمسم القمح	١٠ ٨٧٩ ٠٢٤ ٥ ٥٦٨ ٢٣٤ ١ ٨٨٠ ٢٠٠	٨١ر٨
١٨٦٣	السمسم القمح القطن	٨ ٦٨٠ ٣٤٧ ٣ ٨٨٧ ٥٠٨ ٣ ٨١٣ ٥٦٠	٦٢ر٩
١٨٧٣	القمح السمسم البرتقال	٩ ٣٠٠ ٠٠٠ ٩ ٠٠٠ ٠٠٠ ٣٦ ٠٧٥ ٠٠٠	٦٩ر٨
١٨٧٤	الصابون السمسم القمح	٦ ٠٠٠ ٠٠٠ ٦ ٠٠٠ ٠٠٠ ٤ ٨٧٦ ٠٠٠	٦٣ر٥

تابع الجدول ١٩

قيمة أهم ثلاث سلع من سلع التصدير من يافا في كل سنة من السنوات بالقروش، وحصتها المئوية من القيمة الكلية للسلع المصدرة

السنة	سلع التصدير	القيمة بالقروش	الحصة من مجموع التصدير
١٨٧٥	القمح السمسم الصابون	٨ ٩٦٠ ٠٠٠ ٧ ٠٠٠ ٠٠٠ ٥ ٥٨٠ ٠٠٠	٦٥ر٢
١٨٧٦	زيت الزيتون الصابون القمح	٢ ٤٥٠٠ ٠٠٠ ١١ ٠٣٠ ٠٠٠ ٩ ٠٣٠ ٠٠٠	٧٩ر٢
١٨٧٧	السمسم زيت الزيتون البرتقال	٦ ٠٧٧ ٥٠٠ ٥ ٥٠٠ ٠٠٠ ١ ٢٣٠ ٦٦٦	٨١ر٣
١٨٧٩	زيت الزيتون الصابون البرتقال	١٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٧ ٤٢٥ ٠٠٠ ٣ ٣٨٠ ٠٠٠	٨٢ر٣
١٨٨٠	الصابون البرتقال القمح	٧ ٦١٢ ٥٠٠ ٥ ٨٠٠ ٠٠٠ ٥ ٦٨٥ ٠٠٠	٦٢ر٢
١٨٨١	القمح البرتقال الصابون	١١ ٠٠٠ ٠٠٠ ٦ ٨٢٠ ٠٠٠ ٥ ١٠٠ ٠٠٠	٦٨ر٣
١٨٨٢	القمح البرتقال الصابون	٩ ٨٩٩ ٥٥٢ ٨ ١٤٤ ٥٠٠ ٦ ١٨٢ ٠٠٠	٦٤ر١

الجـدول ٢٠

أهم سلع التصدير من عكــا ١٨٧٢ ـ ١٨٨٠

(الكمية بالكيلة أو الأقة)

السنة	القمح (كيلة)	الشعير (كيلة)	الذرة (كيلة)	السمسم (اقة)	زيت الزيتون (اقة)
١٨٧٢	١٥٠٠٠٠٠٠	٥٠٠٠٠٠٠	٦٠٠٠٠٠٠	٢٠٠٠٠٠٠٠	١٠٠٠٠٠٠٠
١٨٧٣	٤٠٠٠٠٠٠	٥٠٠٠٠٠	—	٥٠٠٠٠٠٠	—
١٨٧٤	٢٠٠٠٠٠٠٠	٥٠٠٠٠،١٠	٢٠٠٠٠٠٠٠	٢٠٠٠٠٠٠٠	٣٠٠٠٠٠٠
١٨٧٥	٣٥٠٠٠٠٠٠	٦٠٠٠٠٠٠	٢٥٠٠٠٠٠٠	٣٠٠٠٠٠٠٠	٦٠٠٠٠٠٠
١٨٧٦	١٥٠٠٠٠٠٠	—	٢٠٠٠٠٠	٤٠٠٠٠٠٠	٢٠٠٠٠٠٠
١٨٧٧	٥٠٠٠٠٠٠	١٠٠٠٠٠٠	٤٠٠٠٠٠٠	٣٠٠٠٠٠٠	٢٠٠٠٠٠٠
١٨٧٨	١٧٥٠٠٠٠٠	—	—	—	—
١٨٧٩	٢١١٢١٩	ـ٤٧٨٠	—	—	٤٠٣٠٧
١٨٨٠	٢٦٠٠٠٠٠	٨٠٠٠٠٠	١٠٠٠٠٠٠	٨٠٠٠٠٠٠	—

المصادر ، كما في الحاشية ١٨٢

الجـدول ٢١

أهم سلع التصدير من حيفــا ١٨٧٢ ـ ١٨٨٠

(الكمية بالكيلة أو الأقة)

السنة	القمح (كيلة)	الشعير (كيلة)	الذرة (كيلة)	السمسم (اقة)	زيت الزيتون (اقة)
١٨٧٢	٨٠٠٠٠٠٠	٣٠٠٠٠٠٠	٣٥٠٠٠٠٠	١٥٠٠٠٠٠٠	١٠٠٠٠٠٠
١٨٧٣	٤٠٠٠٠٠٠	١٠٠٠٠٠٠	—	٥٠٠٠٠٠٠	—
١٨٧٤	٨٠٠٠٠٠٠	١٥٠٠٠٠٠	٦٠٠٠٠٠٠	١٠٠٠٠٠٠٠	٥٠٠٠٠٠
١٨٧٥	١٠٠٠٠٠٠٠	٢٠٠٠٠٠٠	٧٠٠٠٠٠٠	٢٠٠٠٠٠٠٠	٣٠٠٠٠٠
١٨٧٦	١٠٠٠٠٠٠	٢٥٠٠	١٥٠٠٠٠٠	٥٠٠٠٠٠٠	١٥٠٠٠٠٠
١٨٧٧	٨٠٠٠٠٠	٢٠٠٠٠٠	١٥٠٠٠٠٠	٢٠٠٠٠٠٠	١٥٠٠٠٠٠
١٨٧٨	٢٠٠٠٠٠٠	١٠٠٠٠٠٠	—	—	—
١٨٧٩	٨١٣٢٠	—	—	—	—
١٨٨٠	٤٠٠٠٠٠٠	١٠٠٠٠٠٠	١٥٠٠٠٠٠	١٥٠٠٠٠٠٠	—

المصادر ، كما في الحاشية ١٨٢ .

الجـدول ٢٢

تصدير القطن من عكـا وحيفا ١٨٥٢ ـ ١٨٦٢

السنة	الأقـة
١٨٥٢	٤٤٦٥٤٥
١٨٥٣	٢٩٤٥٤٥
١٨٥٤	٣٧٠٩١
١٨٥٥	٣٨١٩
١٨٥٦	—
١٨٥٧	—
١٨٥٨	—
١٨٥٩	٥٢٣٧
١٨٦٠	٦٩٤٥٥
١٨٦١	٥٨٩٠٩
١٨٦٢	٥٥٢٧٣

المصدر : حسبت الأرقام على أساس .(PRO-F.O. 195, vol. 771 (Haifa, 24.7.1868

الجـدول ٢٣

معدل حصة المنتجات المصدرة

بالنسبة الى مجموع المساحة المزروعة في شمال فلسطين ١٨٥٨ ـ ١٨٦٢

القمح	٤٠٪
الشعير	٩٪
الذرة	٧٪
السمسم	١٣٪
القطن	٦٪
العدس ، الفاصوليا ، البازيلا	٥٪
التبغ	٢٪
البطيخ ، العنب ، التين	٤٪
الزيتون	١٤٪

المصدر : (PRO-F.O. 195, Vol. 771 (Haifa, 24.7.1863

وتلا ذلك تغير جديد في التوجه الزراعي عندما ارتفعت أسعار القطن الخام جرّاء زيادة الطلب الانجليزي في نهاية الخمسينات. وبعد اندلاع الحرب الأهلية الأمريكية بشكل خاص. ونظراً للتسعيرات التي وضعت في الأشهر الاثني عشر السابقة زرع في شمال فلسطين في ربيع عام ١٨٦٣ ثلاثة أضعاف الكمية التي زرعت في العام الذي قبله. بل إن الازدهار شمل حتى تلك الزاوية النائية المليئة بالمستنقعات حول بحيرة الحولة، التي وظف فيها يهود دمشقيون، كما يقول ترسترام Tristram ، رأس مال في زراعة القطن[١٨٦] . وهكذا استرد القطن في سنتي ١٨٦٣ و١٨٦٤ مكانته القديمة كمادة للزراعة والتصدير من الدرجة الأولى. غير أن الرّواج لم يعمّر طويلاً، لأن الطلب على القطن في أوروبا انحسر في النصف الثاني من الستينات ولم يعد شديداً كما كان من قبل. هذا من جهة ومن جهة أخرى فقد تعاقبت المواسم السيئة على شمال فلسطين في السنوات ١٨٦٥ - ١٨٧٢ . وسنة ١٨٦٩ هي وحدها التي عادت فشهدت رواجاً في تصدير القطن[١٨٧] . وفي السبعينات فقد هذا المحصول أهميته نهائياً. وفي سنة ١٨٧١ كان ما صدر من القطن من شمال فلسطين ما يزال يبلغ ١٨٤٥٤٥ أقة[١٨٨] . وذكر القنصل الألماني أن صادرات عكا من القطن لسنة ١٨٧٢ بلغت ١٠٠٠٠٠ أقة، في حين أن ما كان يصدر منه في السنوات الجيدة (حتى في سنة ١٨٦٩؟) كان مليون أقة[١٨٩] . وأخيراً فلم يُصدّر سنة ١٧٧٦ سوى ٣٢٤٨٩ أقة . [١٩٠]

وحدث تطور مشابه في منطقة يافا. إن الطلب الفرنسي على السمسم وارتفاع أسعار الحبوب أثناء حرب القرم وبداية التصدير المنتظم والجيد التنظيم للبرتقال بعد انتهاء تلك الحرب، هذه كلها أدت هنا أيضاً إلى تعطيل زراعة القطن تعطيلا تاماً. وبدلا من القطن تمّ توسيع بيارات البرتقال في الضواحي المجاورة ليافا مباشرة، كما زرعت الحبوب والسمسم في الدائرة الأوسع فيما وراء ذلك. وقد جرت فعلا محاولة من جانب الانجليز (وخصوصاً من جانب جمعية توريد القطن في مانشستر The Cotton Supply Associatin in Manchester والقنصلين فن في القدس وخياط في يافا) لانعاش زراعة القطن مرة أخرى بعد نهاية حرب

---

(١٨٦) Tristram, The Land of Israel, 577f; Karmon, "The Settlement", 11.

(١٨٧) لمعرفة تطور انتاج القطن في شمال فلسطين انظر قبل كل شيء:

PRO– F.O. 78, vol. 1384 (Haifa, 20 11 1857);
PRO– F O. 195, vol. 771 (Haifa, 24.7.1863);
PP– 1872, Vol LVIII (Beirut, March 1872),
Zwiedinek, 52–56.

(١٨٨) تم حساب ذلك على أساس
PP – 1872, Vol. LVIII (Beirut, March 1872).

(١٨٩) ISA – DKJ, A. XXXIX. 1 (Haifa, 3.5.1873).

(١٩٠) PP – 1878, vol. LXXIII (Beirut, 16.8. 1877)

القرم وزرعت على سبيل التجربة بذور مصرية وأميركية في أماكن مختلفة في جنوب فلسطين، وأسفر ذلك بالفعل عن نجاح باهر.

ومع ذلك فلم يتسنَّ لزراعة القطن وتصديره هنا أيضاً أن تنتعش من جديد إلا بفضل الحرب الأهلية الأمريكية. غير أن المزارعين ظلوا يستعملون البذور البلدية لأن السلطات العثمانية المحلية لم تقم بأية مبادرة في هذا المجال. ومن بين ٩٤ نموذجاً للقطن عُرضت في معرض سنة ١٨٦٣ في القسطنطينية كان هناك بالفعل اثنان من فلسطين[١٩١]. غير أن الناس في «الأرض المقدسة» لم يروا شيئاً من البذور الأكثر جودة، التي أمر الباب العالي بتوزيعها.

ومع هذا ففي سنة ١٨٦٣ بلغت مساحة الأرض المزروعة بالفعل في منطقة يافا أربعة أضعاف ما كانت عليه سنة ١٨٦٢. وذكر خيّاط في أحد تقاريره أن سبع قرى من قرى المنطقة خصّصت ثلث أراضيها، مما كان يزرع حتى الآن بالسمسم بصورة رئيسية، لزراعة القطن. وبناءً على ذلك تم في سنة ١٨٦٣ تصدير ما يقارب عشرة أضعاف الكمية التي صدّرت في السنة التي قبلها. وقد استورد التجار محالج القطن لأن هذه الكمية لم يكن في الامكان التصدّي لها بالأدوات المحلية البسيطة. ومن النادر أن تجد قرية من قرى المنطقة في سنة ١٨٦٤ لم تلجأ إلى زراعة جزء كبير من أرضها قطناً. وبوجه الاجمال زرع ستة أضعاف ما زرع سنة ١٨٦٣. وحتى البدو شاركوا في هذه المشروعات الرابحة. وبدأ الانعكاس هنا أيضاً بانهيار السعر بنسبة تتجاوز ٥٠٪ في خريف سنة ١٨٦٤ وانتهاء الحرب الأهلية الأمريكية في سنتي ١٨٦٥ و١٨٦٦[١٩٢]. وانتهى التصدير في بداية السبعينات (قارن أيضاً الجدول ١٨).

---

(١٩١) Dom, 88.

(١٩٢) حول هذا التطور قارن:

PP – 1857, Sess 2, vol. XXXVIII (Beirut, 21.5.1857)
PRO–F.O. 78, vol. 1384 (Jerusalem, 28.1.1857);
PRO-F.O. 78, vol. 1384 (Jerusalem, 28.1.1858);
PRO–F.O. 78, vol. 1537 (Jaffa, 2.2.1860)
PRO–F.O. 78, vol. 1605 (Jerusalem, 26.9.1861);
PP – 1875, Sess 2PP – 1863, vol. LXX (Jaffa, 27.1.1863);
PRO–F.O. 78, vol. 1775 (Jerusalem, 26.8.1863);
ISA-DKJ, A.III. 4 (Jerusalem, 25.11.1863);
PP – 1864, vol. LXI (Jaffa, May 1864);
PRO–F.O. 78, vol. 1834 (Jaffa, 15.4., 7.6, und 7.11.1864);
PRO–F.O. 78, vol. 1875 (Jaffa, 13.6.1865);
PRO–F.O. 78, vol. 1929 (Jerusalem, 11.6.1866);

وصحيح أن القمح ظل يزرع في لواء نابلس، ولكن ذلك لم يكن إلا لتلبية حاجات السوق المحلية وسوق سوريا الوسطى. وقدر المحصول السنوي في الفترة ما بين ١٨٦٦ و١٨٧٤ بين ٦٠٠٠٠٠ إلى ٧٠٠٠٠٠ أقة. وقد شكا القناصل البريطانيون عبثاً طوال عقدين من الزمان من عدم قيام الحكومة العثمانية باجراءات جدية لتشجيع هذا الفرع من فروع الزراعة لا في أثناء فترة الازدهار القصيرة الأمد للقطن ولا بعدها. وكان القنصل مور Moore في القدس يسرد شكواه من ذلك كل عام في رتابة مملة[١٩٣].

وعندما نلقي الآن نظرة على الجدولين المتعلقين بالكميات المصدرة من عكا وحيفا في السنوات التسع من ١٨٧٢ إلى ١٨٨٠ (الجدولان ٢٠ و٢١)، فاننا نستطيع أن نفسر التقلبات التي حدثت في هذه الفترة في ضوء الظروف الطبيعية والسياسية. كانت سنة ١٨٧٣ سنة غلة سيئة بصورة عامة في شمال فلسطين. أما سنة ١٨٧٦ فقد وصفت فيها الغلة بأنها متوسطة، لكن التصدير تراجع بشدة بسبب نشوب الحرب، وفي سنة ١٨٧٧ زادت طين الحرب بلة المحاصيل الهزيلة للغاية، خاصة في حوران. وفي سنة ١٨٧٨ تميّزت حوران بالفعل بغلة قمح ممتازة، لكن الغلة ١٨٧٨ في شمال فلسطين كانت ضعيفة، كما أن الجراد أباد غلّة الصيف من الذرة والسمسم[١٩٤]. وفي سنة ١٨٧٩ كانت الغلة سيئة للغاية بسبب قلة المطر. وفي سنة ١٨٨٠ كانت المحاصيل في شمال فلسطين جيدة جداً بالفعل، باستثناء الزيتون، لكن الموسم في حوران مني بالاخفاق التام. وعلى هذا فلا عجب أن اعتبرت السنوات من ١٨٧٧ الى ١٨٧٩ بصورة خاصة اسوأ السنوات التي وعتها ذاكرة الانسان، لاسيما اذا أضفت إلى الوضع الاقتصادي المتقلقل فيها التجنيد الذي طبقته الدولة على مقياس لم يعهده الناس من قبل.

ولا شك أنه لأجدى لنا أن ننظر إلى صادرات يافا (في الجدول ١٨) من أن ننظر إلى هذين الجدولين. فلدينا هنا مادة رقمية مترابطة نسبياً ومستقاة من مصدر واحد، ولذلك

---

(١٩٣) قارن:

PP – 1865, vol. LIII (Jerusalem, March 1865),

PP – 1866, vol LXX (Jerusalem, March 1866);

PP – 1867, vol. LXVII (Jerusalem, 16.1.1867);

PP – 1867/8, vol. LXVIII (Jerusalem, January 1868);

PP – 1872, vol. LVIII (Jerusalem, 25. 4. 1872);

PP – 1874, vol. LXVI (Jerusalem, 12.1873);

PP – 1874, vol. LXVII (Jerusalem, Febriaru 1874);

PP – 1880, vol. LXXIV (Damaskus, 13.3.1880);

(١٩٤) قارن أيضاً: Die Warte, 11.7.1878; PRO–F.O. 195, vol. 1202 (Akka, 12.9.1878);

فهي موضوعة وفق معايير موحدة، بالنسبة للجزئين الأول والثالث من الفترة التي تهمنا هنا. ولهذا فنحن نستطيع أن نعقد المقارنات ونترقب الاتجاهات.

لقد أثرت ابتداء ظروف طبيعية مماثلة لتلك التي تبيّناها بالنسبة لشمال فلسطين على تقلبات التصدير لمنتجات يافا المختلفة. وفي سنتي ١٨٥٩ و١٨٦٠ لم يكن هناك في جنوب فلسطين حبوب تحصد تقريباً، بسبب انقطاع المطر. وفي سنتي ١٨٦٥ و١٨٦٦ دمّر الجراد القطن والسمسم كما لحقت بأشجار الزيتون والفواكه أضرار كبيرة، بينما سلمت الحبوب، إما لأنها كانت قد حصدت من قبل أو لأنها كانت قد بلغت مرحلة من النضج لا يؤثر فيها الجراد[١٩٥]. ومن ١٨٧٧ إلى ١٨٧٩ جلبت الظروف الطبيعية والسياسية نفسها التي مرت بشمال البلاد البؤس والشقاء في جنوب فلسطين أيضاً. ودعت الحاجة في هذه السنوات حتى إلى استيراد الحبوب والدقيق.

إن التقلبات الكبيرة في تصدير زيت الزيتون والصابون كان لها سبب طبيعي يتمثل في أن كل سنة ثانية أو ثالثة فقط كانت تبشر كقاعدة بمحصول جيد أو ممتاز للزيتون. أما محصول السنوات الأخرى فكان يتراوح بين المعتدل والشديد السوء، بغض النظر تماماً عن الجفاف أو الجراد[١٩٦]. وحسب تقديرات معاصرة كان نصف الزيت المستخرج تقريباً يصنّع ويحوّل إلى صابون[١٩٧]. وكان الربع يستعمل للطعام والوقود، والربع يصدّر[١٩٨].

وكما يُرينا الجدول ١٩، الذي يضم قائمة بأهم سلع الاستيراد الثلاث من حيث القيمة، والتي تتراوح حصتها من مجموع التصدير السنوي ليافا بين ٦٢٪ و٩٥٪، كان من الممكن استناداً إلى طابع الزراعة (الذي كان أشد تنوعاً في الشمال منه في الجنوب) أن يعوّض محصول سيء أو معتدل لأحد المنتجات بمحاصيل جيدة أو ممتازة لمنتج آخر. وفي سنتي ١٨٥٩ و١٨٧٧ وحدهما منيت البلاد بفشل ذريع.

---

(١٩٥)

PR—F.O. 78, vol. 1537 (Jaffa 31,12,1860);
PR—F O. 78, vol 1605 (Jerusalem, 23.1.1.3., 12.4.1861);
PRO—F.O. 78, vol. 1874 (Jaffa, 13.6.1865);
PRO—F.O. 78, vol 1929 (Jerusalem, 11.6.1866);

(١٩٦) حول زراعة الزيتون قارن على الأخص:
Anderlind, "Die Fruchtbäume", 69—77; Klein," Mittheilungen 1881", 81f.

(١٩٧) حول عملية تصنيع الزيتون قارن:
Warren, **Underground Jerusalem**, 500—509; Gatt, "Industrielles aus Gaza", 77—79; Dalman , IV, 273—277;
نمر ٢، ٢٨٨ ـ ٢٩١.

(١٩٨) Conder, **Tent Work**, II, 325; Anderlind," Die ;Fruchtbäume", 76 f. Zwiedinek, 46.

الجـدول ٢٤

تصاعد الصادرات الرئيسية من يافا

(الكمية بالكيلة أو بالأقة أو بالحبّة)

	معدل التصدير السنوي للسنوات ١٨٥٧ ـ ١٨٦٠ و ١٨٦٢ ـ ١٨٦٣	معدل التصدير السنوي للسنوات ١٨٧٣ ـ ١٨٧٧ ـ ١٨٧٩ ـ ١٨٨٢	التصاعد (عدد المرات)
القمح (كيلة)	٥٨٣٣٣	٢٧٩١٥٦	٤٫٧٩
الشعير (كيلة)	١٢١٣٧١	١٠١٨٦٣	٠٫٨٤
الذرة (كيلة)	٦٧١١١	٦١٦٧٨	٠٫٩٢
السمسم (اقه)	١٢٤٥٤٢١	٢٠٥٩٢٤٩	١٫٦٥
زيت الزيتون (اقه)	٧٠٥٦٢٤	١٠٧٣٤٦	١٫٤٦
الصابون (اقه)	٤٢٠٠٠٠	٩٠٤٤٤٤	٢٫١٢
صوف الغنم (اقه)	١٠٠٠٣	١١٥٤٤٤	١١٫٥٤
البرتقال (حبة)*	٦٠٥٠٠٠٠	١٩٦٥٠٠٠٠	٣٫٢٥

* معدل السنوات ١٨٧٣ ـ ٧٧ و ١٨٧٩ فقط ، لأن المعطيات ابتداء من سنة ١٨٨٠ هي بالصندوق .

المصدر : حساباتي الخاصة ، على أساس المصادر المذكورة في الحاشية ١٨١ .

إن التغيرات الطويلة الأمد في هيكل التصدير من يافا، وهي التغييرات التي تتضح من الجدول ٢٤ ، نجمت في الدرجة الأولى عن تحوّلات في إلطلب الخارجي وعن الوضع الاجتماعي السياسي في فلسطين نفسها. ويرينا الجدول الزيادة الكميّة في تصدير المنتجات الرئيسية لجنوب فلسطين من الثلث الأول إلى الثلث الثالث للفترة التي ندرسها. ولا يرجع تصاعد التصدير بمجمله، كما نتبين بصورة خاصة من الجدول ٢٥ ، الا في جزء ضئيل منه، إلى تكثيف الزراعة أو تحسين الإنتاج أو تعزيز البنية التحية للزراعة (بما في ذلك الريّ). كما أن الزيادة في المنتجات المنفردة ما كانت تتم ، إلا جزئياً، على حساب منتجات أخرى جرى إهمالها. لقد كان العامل الرئيسي بالأحرى هو توسيع مساحة الأرض المزروعة، بما في ذلك إنشاء مزارع جديدة واسعة للزيتون والبرتقال[١٩٩] . وقد نشأ هذا سواء بسواء عن

---

(١٩٩) حول توسيع زراعة الزيتون انظر: (PP– 1868, vol LXX (Jaffa 27.1.1863 وكذلك :
PP – 1872, vol. LVIII (Beirut, March, 1872),
وقد حصل سفيدنك Zwiedinek . (ص ٤٦) على معلومات تفيد بأنه كان يزرع سنوياً في سوريا ٥٠٠٠٠٠ شجرة زيتون. وكانت الشتلة الجديدة تحتاج الى حوالي عشر سنوات قبل أن تثمر. (Anderlined, Die Fruchtbäume, 70) .
حول بيارات البرتقال انظر: ادناه .

وقف المنازعات والحروب في الجبال التي سنتحدث عنها أدناه (والتي كان قطع أشجار زيتون العدو فيها، على سبيل المثال، وسيلة محببة من وسائل «شن الحرب») وعن منع هجمات البدو، وعن زيادة إمكانات تصريف المنتجات الفلسطينية في الأسواق الخارجية.

الجدول ٢٥

التصدير والاستيراد من يافا

(قيمة البضاعة بالقروش)

السنة	التصدير	الاستيراد
١٨٥٧	١٥٥٨٣٣٥٠	
١٨٥٨	١٢٢٤٤٠٤٠	
١٨٥٩	٧٣٨٤٢٠٠	
١٨٧٠	١٤٩٦٨٥٠٠	
١٨٦١		
١٨٦٢	٢٢٤٠٨٣٤٨	
١٨٦٣	٢٦٠٣٩١٠٠	
١٨٧٣	٣١٣٦٩٠٠٠	
١٨٧٤	٢٦٥٦٢٠٠٠	١٤٥٧٥٥٠٠
١٨٧٥	٣٣٠٥٦٧٥٠	١٤١٦٦٥٠٠
١٨٧٦	٥٦٢٨٣٩٠٠	٢٩٧٧٦٥٧٥
١٨٧٧	١٥٧٤٩٩٦٦	٢٦٢٣٩٧٤٥
١٨٧٨		
١٨٧٩	٢٥٢٧٢٥٠٠	٣١٦٤٢٠٠٠
١٨٨٠	٣٠٧٢٥٦٠٠	٢٩٦٣٥٥٠٠
١٨٨١	٣٣٥٧٠٢٥٠	٣٢٥٣٤٠٠٠
١٨٨٢	٣٧٨٠٢٧٤٤	٣٦٩٦٤٦٦٣

معدل التصدير السنوي (قيمة البضاعة بالقروش) :

١٨٥٧ - ١٨٦٠ و ١٨٦٢ - ١٨٦٣ : ٩٢٣ ٤٣٧ ١٦

١٨٧٣ - ١٨٧٧ و ١٨٧٩ - ١٨٨٢ : ٨٥٥ ٢٦٥ ٣٢

المصادر : كما هي في الحاشية ١٨١ .

الجـدول ٢٦
العلاقة بين التصدير والاستيراد في يافا ١٨٧٦ ـ ١٨٨٢
حسب التقارير القنصلية غير الانجليزية (قيمة البضاعة)

	التصدير	الاستيراد
١ـ٣ـ١٨٧٦ ـ ١ ـ ٣ـ١٨٧٧ (أ)	١٠٥٤١٤٤٤ فرنك	٨٦٩٧٦٦٠ فرنك
١٨٧٦ (ب)	٤٣٥٠٠٠٠ جولدن	٢١٤٤٠٠٠ جولدن
١٨٧٩ (جـ)	٤٠٢٤٠٠٠ فرنك سويسري	٢٩٥٤٢٥٠ فرنك سويسري
١٨٨٠ (د)	٢٠١٥٠٠٠ جولدن	١٣٠٣٠٠٠ جولدن
١٨٨١ (هـ)	٣٠٦٩٠٠٠ جولدن	١٠٠٥٢٠٠ جولدن
١٨٨٢ (و)	٥٤٠٨٧٥٠ فرنك سويسري	٢٦٤٧٨٧٥ فرنك سويسري

المصادر : (أ) MAE–CCC Jér., t4 (Jerusalem 31.7.1879)

(ب) HHSTA – Archiv Jaffa, Fasz. 6 (Jaffa 12.1.1877)

(جـ) ISA – DKJ, A. XXXIX. 4 (Jaffa 31.3.1880)

(د) HHSTA – Archiv Jaffa, Fasz 7 (Jaffa 22.5.1881)

(هـ) المصدر نفسه (Jaffa 15.5.1882)6

(و) ISA – DKJ, A. III. Vol. 1 (Jaffa 7.3.1883)

ويمكن تفسير الزيادة في إنتاج القمح والسمسم وزيت الزيتون والصابون بالطلب المتزايد على هذه المنتجات في فرنسا ومصر بوجه خاص، وكذلك في بلاد البحر المتوسط وفي انجلترا. ومنـذ انتشار الطاعون البقري في مصر سنة ١٨٦٣ أصبحت المواشي من جميع الأنـواع مادة تصـدير مهمّة من فلسطين إلى مصر، خاصة في السنوات ١٨٦٤ و١٨٧٣ و١٨٧٧ . ولم يكن البدو آخر من انتفع بهذا. وكذلك كانت الزيادة غير العادية في تصدير صوف الغنم، الذي شكل في الثلث الأخير من الفترة قيد الدرس سلعة تصدير ليست قليلة الشأن، تشير إلى اشتراك متزايد للبدو في النشاطات الاقتصادية المتجهة إلى التصدير[٢٠٠] .

(٢٠٠) قـارن :

Conder, **Tent Work** II, 325; Tristram, **The Land of Israel**, 141; Zwiedinck, 47–51.26.8.

وأخيراً ما زال علينا أن نبدي بعض الملاحظات حول برتقال يافا. إن التصدير المنتظم لهذه السلعة بدأ بعد حرب القرم. وكان يتولاه بالدرجة الأولى الملاحة الساحلية اليونانية. وفي سنة ١٨٥٦ ذُكر أن المعدل السنوي لمحصول البرتقال بلغ ٢٠ مليون حبة[٢٠١]. وفي سنة ١٨٧٣ كانت قد انشئت في الضواحي المحيطة بيافا ٤٢٠ بيارة برتقال بلغ محصولها السنوي ٣٣,٣ مليون حبّة. وكان سدس هذا المحصول يغطي حاجة فلسطين، أما الباقي فكان يشحن على «ناقلات الفواكه» اليونانية إلى مصر وآسيا الصغرى[٢٠٢]. ومنذ سنة ١٨٧٥ كان برتقال يافا يصدر إلى أوروبا أيضاً (فرنسا والمانيا والنمسا وروسيا) بكميات وافرة. وشهدت هذه التجارة عبر مسافات بعيدة انتعاشاً جديداً عندما أصبح البرتقال يعبأ بصورة أفضل ويشحن في صناديق. ولكن البرتقال الشمّوطي البيضوي الشكل والغليظ القشرة هو وحده الذي كان يصلح للشحن إلى اوروبا. أما البرتقال البلدي المستدير والأصغر حجماً فكان يباع في الأسواق المحلية والأسواق الاقليمية. وقد بلغت غلة سنة ١٨٨٠ ٣٦ مليون حبة[٢٠٣]. ولاحظ القنصل البريطاني في تقريره لسنة ١٨٨١ أن بساتين البرتقال حينئذ كانت تعتبر أفضل الطرق لاستثمار رأس المال، إذ كان من الممكن توقع مردود سنوي صاف منها يعادل ١٠٪ من رأس المال المستثمر[٢٠٤]. وفي بداية الثمانينات قدرت السلطات القنصلية الأميركية البرتقال الموجود حول يافا بحوالي ٥٠٠ بستان، كل بستان كانت تتراوح مساحته بين فدانين وستة فدادين، وفيها حوالي ٨٠٠٠٠٠ شجرة[٢٠٥]. وقد حسب بوجه الاجمال أن مساحة البساتين في يافا تضاعفت أربع مرات في العقود الثلاثة من سنة ١٨٥٠ حتى سنة ١٨٨٠[٢٠٦].

---

(٢٠١) PRO – F.O, 78, vol. 1419 (Jaffa 17.5.1856 – Answers to Queries.

(٢٠٢) PP – 1874, vol. LXVII (Jerusalem, February 1874).

(٢٠٣) PP – 1881, vol. XC (Beirut, 19.3.1881).

(٢٠٤) PP – 1882, vol. LXXI (Jaffa, May 1882). ويجد المرء الحساب نفسه من قبل في تومسون: Thomson, The Land and the Book, 519.
وحول زراعة البرتقال قارن ايضاً: Anderlind, «Die Fruchtbäume» 84–88 وكذلك Die Warte, 18 6.1874.

(٢٠٥) Owen, 178.

(٢٠٦) Schick, «Fortschritte der Civilisation,» 64, Fischer, 27.

إيرادات التصدير

واذا اتجهنا بنظرنا الآن من التصاعد الكمي للانتاج الموجه للتصدير إلى النمو في صادرات يافا من حيث القيمة (الجدول ٢٥) فسنلاحظ أن قيمة هذه الصادرات قد تضاعفت في الثلث الأخير بالقياس عما كانت عليه في الثلث الأول من الفترة قيد الدرس. ولفضلا عن ذلك فاننا سنرى في هذا الجدول عاملاً لم يكن معروفاً حتى الآن، ولكنه عامل مهمّ للغاية في تصاعد التصدير، ألا وهو الطفرة في التصدير بعد خفض الرسوم العثمانية الجمركية عليه من ١٢٪ الى ٨٪ من قيمة البضاعة في سنة ١٨٦١. وفي غضون ذلك أخذت هذه النسبة بعدئذ تخفّض بمقدار واحد في المائة سنوياً، حتى ثبتت عند ١٪ ابتداء من سنة ١٨٦٩[٢٠٧]

الجدول ٢٧
معدل اسعار التصدير ربع السنوي / السنوي في يافا بالقروش

ربع السنة/ السنة	القمح للكيله	الشعير للكيله	الذرة للكيله	السمسم للآقة	زيت الزيتون للآقة	القطن للآقة
١٨٥٦/١	٣٤ر٥	٢٣ر٥	٢٣ر٥	٣ر١٢٥		
١٨٥٦/٣	٢٦ر٥	١٠ر٧٥	١٥ر٢٥	٢ر٧٥		
١٨٥٦/٤	٢٨ر٥	١٤ر٥	١٧ر٢٥	٢ر٨٧٥		
١٨٥٧/٣	٢٤	١٥ر٥	١٧			
١٨٥٧/٤	٢١ر٥	١٣ر٥	١٧	٣ر٢٥	٥ر٥	
١٨٥٨/١	٢٠	٩ر٥	١١	٣ر١٢٥	٥ر٢٥	
١٨٥٨/٢	١٦	٩	٩	٢ر٧٥	٤ر٢٥	
١٨٥٨/٣	١٣ر٧٥	٩ر٥	١٠ر٥	٢ر٥	٥ر٢٥	
١٨٥٨/٤	١٦ر٥	١٠ر٥	١١ر٥	٢ر٧٥	٥ر٢٥	
١٨٥٩/١	١٨ر٥	١١ر٥	١٢ر٥		٥ر١٢٥	
١٨٥٩/٢	٢٢	١٢ر٥	١٤		٥	
١٨٥٩/٣	٢٤ر٥	١٣ر٥	١٦	٢ر٦٢٥	٥	
١٨٥٩/٤	٣٧ر٥	١٧ر٥	٢٢ر٥	٢ر٨٧٥	٥	
١٨٦٠/١	٤٠	١٧ر٥	٢٧ر٥	٣ر١٢٥	٥ر٥	٧

(٢٠٧) حول سياسة الجمارك والتجارة العثمانية قارن: Kalla,91-111 .

تابع الجدول ٢٧

معدل اسعار التصدير ربع السنوي / السنوي في يافا بالقروش

ربع السنة/ السنة	القمح للكيله	الشعير للكيله	الذرة للكيله	السمسم للأقة	زيت الزيتون للأقة	القطن للأقة
١٨٦١/١	٣٨٫٧٥	١٦٫٥	٢٣٫٧٥	٣٫١٢٥	٦٫٧٥	٧
١٨٦١/٤	٢٥	١٢٫٥	١٣٫٢٥	٣٫٣٧٥	٦	٩٫٥
١٨٦٢	٢٥	١٠	١٢	٣	٦٫٥	١٥
١٨٦٣	٢٢	١٠	١٢	٣	٦	٢٠
١٨٧٣	٣٠	١٣	١٥	٣	٦	٧٫٥
١٨٧٤	٢٣	١٢٫٥	١٦	٣	٤٫٥	٨
١٨٧٥	٢٠	١١	١٣٫٥	٢٫٥	٥	٦٫٥
١٨٧٦	٢١	١٢	١١٫٥	٢٫٧٥	٤٫٧٥	
١٨٧٧			٣٥	٣٫٢٥	٥٫٥	
١٨٧٩				٣	٥	
١٨٨٠	٣٠	١٣	١٧	٣	٥	
١٨٨١	٢٥	١٢٫٥	١٦٫٥	٢٫٧٥	٥٫٥	
١٨٨٢	٢٠	١٢	١٦	٢٫٦٢٥	٥	

معدل المعطيات المتوافرة للسنوات .

١٨٥٦ ـ ٦٣	٢٥٫٢٥	١٣٫٠٤	١٥٫٨٦	٢٫٩٥	٥٫٤٦	
١٨٧٣ ـ ٨٢	٢٤٫١٤	١٢٫٢٩	١٧٫٥٦	٢٫٨٧٥	٥٫١٤	

المصادر : معطيات السنوات من ١٨٥٦ ـ ١٨٦١ حُسبت وفقاً لـ

PRO—F.O.78,vol. 1221 (Jaffa,31.3.,30.9.und 31.12.1856);

PRO—F.O.78,vol. 1296 (Jaffa,30.9.und 31.12.1857);

PRO—F.O.78,vol. 1387 (Jaffa,31.3.,30.6.30.9.und 31.12.1858);

PRO—F.O.78,vol. 1449 (Jaffa,31.3.,30.6 ,30.9.und 31.12.1859);

PRO—F.O 78,vol. 1537 (Jaffa,31.3.1860),

PRO—F.O.78,vol. 1605 (Jaffa,31.3.und 31.12.1861).

معطيات ١٨٦٢ ـ ١٨٨٢ اخذت من المصادر المذكورة في الحاشية ١٨١ ؛ حسابات المؤلف .

الجـدول ٢٨
معدل اسعار التصدير السنوية في عكا وحيفا ويافا
في السنوات ١٨٧٤ ـ ١٨٨٠ بالقروش

		القمح للكيلة	الشعير للكيلة	الذرة للكيلة	السمسم للاقة	زيت الزيتون للاقة
١٨٧٤	عكا	٢٧	١٤	١٨	٣	٥
	حيفا	٢٤	١٤	١٨	٣	
	يافا	٢٣	١٢ر٥	١٦	٣	٤ر٥
١٨٧٥	عكا	٢٥	١٢	١٧	٢ر٥	٥
	حيفا	٢٤	١٢	١٨	٢ر٢٥	
	يافا	٢٠	١١	١٣ر٥	٢ر٥	٥
١٨٧٦	عكا	٢٢		١١	٢ر١٢٥	٤ر٥
	حيفا					
	يافا	٢١	١٢	١١ر٥	٢ر٧٥	٤ر٧٥
١٨٧٧	عكا	٣٦	٢٠	٢٢	٣	٦
	حيفا	٣٤	٢٠	٢٢	٣	٦
	يافا			٣٥	٣ر٢٥	٥ر٥
١٨٧٨	عكا	٣٨				
	حيفا	٣٠	١٤			
	يافا					
١٨٧٩	عكا	٤٠		١٦		٥ر٥
	حيفا	٣٥				
	يافا				٣	٥
١٨٨٠	عكا	٣٠	١٢	١٦	٢ر٧٥	
	حيفا	٣٠	١٢	١٦	٢ر٧٥،	
	يافا	٣٠	١٣	١٧	٣	٥

المصدر : معطيات يافا من الجدول ٢٧ .

معطيات عكا وحيفا حسبت بناء على المصادر المذكورة في الحاشية ١٨٢ .

الجـدول ٢٩
سعر الاستهلاك في القدس
في سنة ١٨٥٨ - ١٨٨٠ بالقروش

	بداية ١٨٥٨	١٨٨٠
رطل جير	٠٫٥	٢/٥
حمل الجمل من الحطب	١٨ - ٢٥	٣٠
رطل اللحم	٣	١٫٥
رطل صابون	١٣ - ١٥	١٢
عبـــاءة	٩٠ - ١٠٠	٨٠
زوج أحذية عربي (نعال)	٢٢ - ٢٤	١٠
رأس قرنبيط	١ - ٢	١٫٥
رطل ملفوف	٣	٣
رطل جزر	٢	٢
رطل لفت	١٫٥	١٫٥
رطل خيار	٤	٢
رطل بصل	٣ - ٤	٣٫٥
رطل رمان	٠٫٥	٠٫٢٥
٨ حبات برتقال	١	١
رطل لوز	١٢ - ١٦	١٠
رطل زبيب	١٠ - ١٢	٦
رطل زيت زيتون	١٠	١٥
رطل سيرج	١٥	٢٢٫٥
رطل فاصوليا	٤ - ٦	٧
رطل عدس	٣	٨
رطل رز	٧ - ٩	٨ - ٩
ثمنية قمح	١٠ - ١٢	٥ - ١١٫٢٥
ثمنية شعير	٦٫٥	٣ - ٦٫٢٥
ثمنية ذرة	٧	٢٫٧٥ - ٦٫٧٥
رطل طحين	٥٫٥	٤ - ١٠

تابع الجـدول ٢٩
سعر الاستهلاك في القدس
في سنة ١٨٥٨ - ١٨٨٠ بالقروش

	بداية ١٨٥٨	١٨٨٠
رطل زبدة	٥٤	٣٦
رطل جبنة	١٦ - ٢٤	١٨
رطل لحمة خروف	١٥	١٢ - ١٨
دجاجة	٦ - ٧	٨
٤ بيضات	١	٥ر٠
حمامـة	٢	٢
رطل ملح	٢	٣
رطل خل	٦	٣
رطل عسل النحل	٣٠	٣٦
رطل سكر	٢٢ - ٢٣	١٦
رطل قهوة (بن)	٢,٤	٣٣
رطل نبيذ	١٠ - ١٣	٩
الايجار الشهري لغرفة واحدة	٢٠٠ - ٣٠٠	٤٠٠ - ٦٠٠)
الاجر اليومي للعامل	٥ - ٨	٤ - ٨)

المصادر · معطيات سنة ١٨٥٨ مأخوذة من :
Titus Toblers dritte Wanderung, 331 – 333. (= الجدول ٢٩ أ) ؛ ومعطيات سنة ١٨٨٠ مأخوذة من :
Lunes, 11 – 16. (= الجدول ٢٩ ب) لتحويل المقاييس والأوزان بناءً على
Bauer, Das Pälästinische Arabisch, 256. (قارن الحاشية : ١٨٢ أ)

الجـدول ١٢٩

من كتـاب: "Titus Toblers dritte Wanderung. 331—333" .

[[سوف أدرج هنا لمحة عن الأجور والأسعار كانت قد وضعت في القدس في شهري كانون الثّاني وشباط سنة ١٨٥٨ ، وسلمت لي بشكل مخطوط من باب المجاملة ، وهي تشمل الأجور وأسعار حاجات المعيشة ، ومواد البناء وأقمشة الملابس والمواد الغذائية ، بالقروش والبارات]] .

العامل بالمياومة ، ليوم واحد	٥ الى ٨
البنّاء ليوم واحد	١٥ الى ٢٠
الحجّـار ليوم واحد	١٢ الى ١٥
حمل الجمل من حجارة البناء	٨ و ٧
١٠٠ قطعة من الحجر الخفاف البركاني	٤٠
طوبة مفرغـة	٢٠ الى ٠ (باره)
رطـل جيـر	٢٠ (باره)
حمل الحمار من الرماد (السُّكَن)	٢٫٢٠
لوح سُمْك $\frac{1}{2}$ إنش بمساحة قدم مربعة	١
صفيح (تنك) انش مربع؟	٥٫٥
هيكل سريري حديدي	١٥٠
غطاء للسرير	١٦٠
حمل جمل من الحطب	٢٠
حمل جمل من جذور الأشجار	ـ ٢٠
رطـل فحـم	
الأجرة الشهرية للغرفة حسب كبرها	٢٠٠ ـ ٣٠٠
حصيرة من الأسل (السّمار)	١٢
حصيرة من البوص	١٢
طاحونة يدوية	٥٠
طاحونة حمار أو حصان	٥٣٠
معصرة زيتون	٤٥٠٠
جرّة سعة رطل	١٠ (باره)
رطل كتّان	٨

رطل قنّب	١٢
كيس قش	٧ الى ١٠
مكنسة من قش الأرز	٢٠ر٤
سلة من الأسل	٣
سلة من الجريد	٤
رطل شمع	٨٤
رطل من الشموع	٩٦
رطل من شموع الدهن	٢٦
رطل بصوف غنم	١٥ الى ٦٦
رطل حبال	٢٤
رطل خيوط قنب	٣٠
غربال	١٠
رطل صـابون	١٣ الى ١٥
رطل تبغ (تمباك)	٤٨
زوج أحذية عربية (نعال)	٢٢ إلى ٢٤
زوج أحذية افرنجية	٦٠ الى ٨٠
رأس قرنبيط	١ الى ٢
رطل ملفوف	٣
رطل جزر	٢
رطل لفت	٢٠ر١
ستة الى سبعة رؤوس فجل	١
رطل خيار	٤
رطل بصل	٣ الى ٤
٨ رؤوس ثوم	١
حبة رمان	٢٠ (بارة)
٨ حبات ليمون	١
٨ حبات برتقال	١
رطل سفرجل	١
رطل تين	٣ إلى ٤
رطل لوز	١٢ إلى ١٦

رطل زبيب	١٠ إلى ١٢
ثمنية زيتون طازج	١٦
ثمنبة زيتون مكبوس	٩ إلى ١٢
رطل زيت زيتون	١٠
رطل سيرج	١٥
رطل فاصوليا بيضاء	٥ إلى ٦
رطل فاصوليا خضراء	٤ إلى ٦
رطل بازلاء	٦
ثمنية قمح	١٠ إلى ١٢
رطل برغل	٦ إلى ٧
ثمنية ذرة	٧
رطل أرز	٧ إلى ٩
ثمنية شعير	٢٠ر٦
رطل عدس	٣
رطل جريش (فريكه)	٧
رطل طحين	٢٠ر٥
رطل خبز أسود	٣ إلى ٤
رطل معكرونه	١٥ إلى ١٧
ثمنية بطاطا	٥
رطل زبدة (سابقاً من ٢٤ الى ٣٠)	٥٤
رطل سمن (دهن)	٣٦
رطل جبنة بلدية	١٦ إلى ٢٤
رطل جبنة افرنجية	٣٦
رطل لحم غنم (فيما بعد ١٠ وأيضاً ٨)	١٥
رطل لحم ماعز	١٥
دجاجة	٦ إلى ٧
٤ بيضات	١
حمامة	٢
رطل سمك	٢٤
رطل ملح	٢

رطـل خـلّ	٦
رطل دبس	١٥
رطل عسل نحل	٣٠
رطل سكر	٢٢ إلى ٢٣
رطل بن	٢٤
رطل شاي	١٤٤
رطل نبيذ (١٨٥٧)	١٠ إلى ١٣
رطل نبيذ قبرصي	١٢ إلى ٢٤
زجاجة نبيذ بورتو	١٠

الجـدول ٢٩ب عن لونتش Luncz, 11–16

[أسعار المنتجات المحلية وغيرها من السلع ، وكذلك اجور العمل لسنة ١٨٨٠] .

القمح / للصاع	٦٠ ـ ٢٦ قرشاً
الشعير/ للصاع	٣٣ ـ ١٥ قرشاً
الذرة/ للصاع	٣٦ ـ ١٤ قرشاً
الأرز/ للرطل	٨ ـ ٩ قروش
البصل / للرطل	٥ر٣ قرش
الثوم / للرطل	٤ قروش
البطاطا / للرطل	٨ ـ ٤ قروش
الفاصوليا/ للرطل	٧ قروش
العدس / للرطل	٨ قروش
الجزر/ للرطل	قرشان
القرع الاستانبولي للرطل	٥ر١ قرش
اللفت للرطل	٥ر٢ قرش
القرنبيط للرأس	٥ر١ قرش
البندورة للرطل	٥ر١ قرش
العنب للرطل	٣ قروش

الزبيب للرطل	٦ قروش
التين الطازج للرطل	٥ر١ قرش
القطين للرطل	٣ قروش
الزيتون للسلة ذات الأربعة أرطال	٨ قروش
الزيتون المكبوس للأوقية	قرش
البطيخ للرطل	٥ر١ قرش
الشمام للرطل	قرشان
التفاح للرطل	٣ قروش
الاجاص للرطل	٣ قروش
البرقوق الطازج للرطل	٣ قروش
البرقوق المجفف للرطل	١٢ قرشاً
الرمان للحبة	ربع قرش
الخوخ للرطل	٥ر٣ قرش
المشمش للرطل	٣ قروش
الليمون للحبة	ربع قرش
النارنج للحبة	$\frac{١}{٨}$ قرش
البامية للرطل	قرشان
الباذنجان للرطل	٣ قروش
الخيار للرطل	قرشان
القرع ، للحبة	قرش
الاترج الكبير للحبة	$\frac{٣}{٤}$ ١ قرش
الاترج / غير ناضج لعيد العُرش	١ الى ٣٠ فرنكاً
التمر للأوقية	قرش
لوز حلو للرطل	١٠ قروش
الجوز للرطل	٩ قروش
البندق للرطل	١١ قرشاً
الكستناء للرطل	٣ قروش
الكرنب للرطل	٣ قروش
الطحين/ باب أول	١٠ ـ ٦ قروش
الطحين/ باب ثاني للرطل	٨ ـ ٥ قروش

الطحين / باب ثالث للرطل	٧ - ٤ قروش
النبيذ للرطل	٩ قروش
الكونياك للرطل	١٢ فرنكاً
خل النبيذ للرطل	٣ قروش
السبيرتو للرطل	١٨ قرشاً
عسل النحل للأوقية	٣ قروش
شراب التمر للأوقية	قرش
لحم الخروف للأوقية	قرش ونصف الى قرش
الدهـن	٥ر١ قرش
لحم البقر للاوقية	٥ر١ - ٢ قرش
الدجاجة	٨ قروش
البيض للمائة بيضة	٥ر١٢ قرش
الأوزة	٣٥ قرش
ديك الحبش (الديك الرومي)	٤٠ قرشاً
البطـة	١٢ قرش
الحمامـة	قرشان
الثور (القادر على الحراثة)	٥٠٠ قرش
الثور (غير القادر على الحراثة)	٣٠٠ قرش
العجـل	٥٠ قرشاً
الغنمـة	٥٥ قرشاً
الحمـار	٤٠٠ قرش
الجمـل	١٠٠٠ قرش
الحليب للأوقية	٥ر٢ قرش
الزبدة للأوقية	٣ قروش
الجبنة للأوقية	٥٠ر١ قرش
زيت الزيتون للأوقية	$\frac{١}{٤}$ ١ قرش
السيرج للأوقية	$\frac{٧}{٨}$ ١ قرش
الكاز للأوقية	٥ر٠ قرش
السكر للرطل	١٦ قرش
البن للرطل	٣٣ قرشاً

الخشب للقنطار	٤٥ قرشاً
الخشب لحمل الحمار	١٠ قروش
الخشب لحمل الجمل	٣٠ قرشاً
الفحم لحمل الجمل (كيسان كبيران وكيس صغير تزن كلها حوالي ٥٠ ـ ٦٠ رطلا)	٤٥ قرشاً
الفحم للرطل	٥ر١ قرش
الجير للقنطار	٤٠ قرشاً
الصابون للرطل	١٢ قرشاً
الملح للرطل	٣ قروش
الماء (في الصيف) لحمل الحمار	٥ر١ قرش
الماء في الصيف لحمل الرجل	$1\frac{1}{4}$ قرش
الايجار (داخل البلد) للغرفة المتوسطة (من ٧ ـ ٨ أذرع) مع مطبخ صغير وحصة في المرافق العامة	٦٠٠ قرش
الايجار خارج البلد	٤٠٠ قرش
قميص تحتاني جاهز من القطن المضغوط (للرجال)	٢٨ قرشاً
اجرة خياطة هذا القميص	٦ قروش
اجرة خياطة معطف قماش كبير	٧ قروش
معطف كبير للشتاء مصنوع من شعر الجمل	٨٠ قرشاً
زنار (حزام)	٢٠ قرشاً
جزمة حمراء	١٠ قروش
عمامة	١٥ قرشاً
قبقــاب (للنساء)	٣ قروش
الأجرة اليومية لعامل بالغ	٨ قروش
الأجرة اليومية لعامل صغير السن	٤ قروش
الدخل الاسبوعي للصبي (في الحرف)	٥٠ قرشاً

الجدول ٣٠

سعر الصرف في يافا ١٨٥٧ - ١٨٧٢ - ١٨٨٢ بالقروش

	الصرف لدى الجمارك ١٨٥٧	الصرف المحلي ١٨٥٧	الصرف المحلي ١٨٧٢	الصرف المحلي ١٨٨٢
الليرة العثمانية	١٠٨،٥	١٢٨	١١٥،٥	١٤٠
المجيدي العثماني	٢١،٢٥	٢٦		٢٦
البشلك العثماني	٥	٦		
قطعة العشرين فرانك	٩٣،٢٥	١١٢	١٠٠	١٢٢
الدينار الذهب الانجليزي Sovereign	١١٧،٥	١٤٠	١٢٦،٥	١٥٤
الامبريال الروسي (Imperial)	٩٥	١١٤	١٠٢	
الدوكات النمساوي (Ducat)	٥٥	٦٦	٥٩	
الكولوناد الاسباني (Colonnade)	٢٦	٣٣،٥		

المصادر :

1857 : HHSTA – Archiv Jaffa, Fasz.1 .

(قنصلية سردينيا في يافا ١٨٥٧)

1872 : HHSTA – Archiv Jaffa, Fasz 5 (Quadro statistico del distretto di Jaffa, 1872).

1882 : Deutsches Handelsarchiv, 1883,II,421.

ومع أننا قررنا من قبل حقيقة زيادة الانتاج، ففي وسع المرء أن يفترض أن الزيادة في ايرادات التصدير المبينة في الجدول ٢٥ لا تعني تصاعداً حقيقياً متوافقاً معها في دخل المصدرين والمنتجين أو لا تتماشى مع التصاعد الكمي في الصادرات، وذلك بسبب الغلاء العام أو انخفاض قيمة العملة. بيد أن الحال كانت كذلك كما نرى من الجداول ٢٧ و ٢٨ و٢٩.

إن أسعار سلع التصدير في فلسطين تقلبت في آماد قصيرة تبعاً لوضع السوق (نقص

الطلب أو زيادته في اوروبا، النقص وبالتالي ضآلة العرض في فلسطين)، ومع ذلك فإن معدل أسعار التصدير للسنوات من ١٨٥٦ إلى ١٨٦٣ من جهة والسنوات ١٨٧٣ إلى ١٨٨٢ من جهة أخرى لا يشير بمجمله الى اختلاف ذي شأن (الجدول ٢٧)؛ إذ إنّ اختلافات الأسعار بين عكا وحيفا ويافا (الجدول ٢٨) ترجع قبل كل شيء إلى اختلاف النوعية والى نفقات النقل (قمح حوران).

ويتفق وهذه النتيجة أيضاً المستوى الثابت الاجمالي لمستوى نفقات المعيشة في القدس الذي يطالعنا به الجدول ٢٩. ويتعلق الأمر هنا، فيما يتصل بالوضع الاجمالي الاجتماعي السياسي والاقتصادي، بالسنتين ١٨٥٨ و١٨٨٠، اللتين يمكن للمرء أن يقارن بينهما دون تأمل طويل (فكلتاهما جاءت بعد حرب، وفي كلتيهما لم يكن الموسم سيئاً). إن جدولي توبلر ولونتش قد ادرجا بتمامهما في الجدولين ٢٩أ و٢٩ب. بيد أن مستوى الحياة في القدس لم يكن يمثل فلسطين بأسرها. فقد كانت القدس بالأحرى اغلى مدن فلسطين أيضاً لأسباب ليس آخرها وجود السكان الأوروبيين والحجاج. وسنورد بضع مقارنات في الأسعار بينها وبين غزة في السنوات من ١٨٥٧ إلى ١٨٦١ (الأسعار التي بين قوسين هي الأسعار في القدس سنة ١٨٥٨): رطل زيت الزيتون ٧ قروش (١٠ قروش)، ثُمنية القمح قرشان (١٠ - ١٢ قرشاً)، ثُمنية الشعير ١,٥ قرش (٦,٥ قروش)، ثُمنية الذرة قرشان (٧ قروش)، رطل الزبدة ٢٥ قرشاً (٥٤ قرشاً)، رطل الزبيب ٨ قروش (١٠ - ١٢ قرشاً)، رطل اللوز ٥ قروش (١٢ - ١٦ قرشاً)، رطل العسل ٢٣ قرشاً (٣٠ قرشاً)، رطل الفاصوليا ٥ قروش (٤ - ٦ قروش)، معطف الصوف ٦٠ قرشاً (٩٠ - ١٠٠ قرش). وقد كان الأوروبيون الأقل يساراً يئنّون بصورة دائمة من أسعار القدس، وخصوصاً فيما يتعلق بالمساكن. وبينما كان على الأوروبيين أن يدفعوا من ٢٠٠ إلى ٣٠٠ قرش أجرة شهرية للغرفة الواحدة بلغ معدل ثمن شراء البيت في غزة، حسب التركات التي درسها رافق ٣١٠٠ قرش، وبلغ الايجار السنوي لنصف بيت من البيوت ٦٠ قرشاً[٢٠٨].

وكان لا بد لتطور أسعار صرف العملات أن يؤخذ في الاعتبار بايراد بيان مفصل كل التفصيل ومتنوع أشد التنوع بشأنه، وهي أسعار كانت تختلف في الواقع بين مدينة واخرى. وهذه الأسعار لم تقتصر أهميتها على مجال الاقتصاد الخارجي وحده. ففي فلسطين، كما في المنطقة بأسرها، كانت العملات الأوروبية، وخصوصاً النقد الذهبي والفضي، تستخدم

(٢٠٨) رافق، غزة، ٧٢، ٧٣، ٨٣، ٨٥. وهناك في صفحة ٧٣ ايضاً بيانات اسعار كثيرة ممتعة، ولكن ليس لدينا ارقام نقارنها بها من القدس.

بالأحرى كوسيلة للدفع أيضاً. ولم تكن القروش هي ما يدخر أو «يكنز» بل القطع الذهبية والفضية العثمانية والأجنبية. والجداول ٣٠ و٣١ و٣٢ من شأنها أن تعطينا فكرة عن تقلبات أسعار الصرف في المكان والزمان. ولما كانت لا تتوافر لدينا مادة رقمية كافية لأن أسعار الصرف كانت تعتمد اعتماداً كبيراً على الوضع السياسي والاقتصادي، وعلى المناورات النقدية المتعددة للحكومة العثمانية، ولما كانت هذه الأسعار تتفاوت من مكان إلى آخر فليس في الوسع أن نتبين بوجه التأكد تأثيرها على التصدير أو على إيرادات التصدير. والمؤكد هو أن الصرافين والمضاربين، وخزينة الدولة قبل اولئك وهؤلاء، حاولوا ما في وسعهم أن يجعلوا من تغيرات أسعار الصرف تجارة تحقق لهم الربح.

على أن الانتعاش الاقتصادي والرخاء المتزايد في فلسطين كانا حقيقة لا يمكن أن ينكرها أي مراقب نبيه. أما أن هذا الرخاء لم يكن يعود بالخير إلا على جزء ضئيل من المنتجين الفعليين، وهم الفلاحون، فهذه حقيقة أخرى. إن الذين انتفعوا بذلك في الدرجة الأولى هم التجار والوسطاء، وملاكو الأراضي المتوسطون والكبار، والمتلزمون بجمع الضرائب، وبالذات جميع اولئك الذين استثمروا رؤوس أموالهم في التجارة والزراعة، وعلى رأسهم جميعاً خزينة الدولة التي كانت تستنبط باستمرار، نظراً للضائقة المالية التي كانت تعانيها الحكومة المركزية ولتزايد نفقاتها العسكرية، وسائل وطرقاً جديدة لاستنفاد الفائض من المال عن طريق رفع الضرائب وفرض ضرائب خاصة، وكذلك عن طريق التلاعبات النقدية، والتلاعبات المالية الأخرى، دون أن يعود ذلك بخدمات مقابلة متناسبة لمصلحة الاقتصاد الفلسطيني[٢٠٩]. بيد أنه لوحظ أيضاً في أثناء رواج الحبوب في وسط الخمسينات ورواج القطن في النصف الأول من الستينات على الأقل، ظهور ثروات فردية عند الفلاحين. وبشأن الحبوب المصدرة كتب القنصل فن حول التطور الذي حدث سنة ١٨٥٦ يقول:

لقد تدفق النقد من الخارج للدفع، وأكد لي تاجر ايوني★ من حيفا هو (افسرينو Avicrino نائب قنصل روسيا واليونان) أن مبلغاً لا يقل عن نصف مليون جنيه استرليني قد تداولته يداه في السنة الماضية بين سفن ذلك الميناء وبين بدو حوران الذين لم يستوردوا من

---

(٢٠٩) حول استغلال الفلاحين قارن: Gotthell, Money and Product Flows in Mid-19th Century Palestine. ويبقى أن نضيف أن هذه الدراسة وضعت بشكل لا تاريخي شأنها في ذلك بالضبط شأن مقالة جوتهايل: «The Population of Palestine». فمن اجل وصف الوضع في اواسط القرن جرى الاستشهاد بالمصادر الاوروبية من النصف الثاني للقرن التاسع عشر باكمله، وقد جعل ذلك بيان خطوط التطور امراً متعذراً. وكان من شان هذا أن يعطي بصورة خفية انطباعاً بالجمود والركود.

★ نسبة إلى اقليم ايونيا Ionia في اليونان.

الجدول ٣١

سعر الصرف للعملات الذهبية والفضية في القدس ١٨٧٤ - ١٨٨٢ (بالقروش)

	١٨٧٤	١٨٧٥	١٨٧٦	١٨٧٧	١٨٧٨	١٨٧٩	١٨٨٠	١٨٨١[×]	١٨٨٢
الليرة العثمانية	١١٠		١١٨	١٢٩	١٣٠ - ١٣٣ر٥	١٢٣ - ١٣٣	١٢١ - ١٣٣	١٢١ (١٠٠)	١٢٢ر٥
المجيدي العثماني	٢١ر٧٥		٢٢ر٧٥	٢٤ر٢٥	٢٤ر٥	٢٣ - ٢٤	٢٢ر٧٥	٢٢ر٧٥ (١٩)	٢٢ر٧٥
البشلك العثماني	٥ر٢٥		٥ر٥	٥ر٥	٥ر٥	٥ر٥	٢ر٥ - ٢ر٧٥	٢ر٨٧٥ (٢)	
قطعة العشرين فرانك	٩٦		١٠٣	١١٢	١١٣ - ١١٦ر٥	١٠٥ - ١١٦	١٠٦ - ١١٦	١٠٦ (٩٠)	١٠٧
الدينار الذهبي الانجليزي Sovereign	١٢١		١٢٨ - ١٢٩	١٣٩	١٤٢ - ١٤٦			١٣٣ (١١٠)	١٣٥
الامبريال الروسي Impérial	٩٨			٢٠ر٥				١٠٨ (٩٢)	
الرويل الفضي الروسي	١٩							١٨ (١٦)	
الدوكات النمساوي Ducat	٥٦ر٥							٦٣ (٥٠)	
الكولوناد الاسباني Colonnade	٢٥		٢٥						

× السعر الرسمي لسنة ١٨٨١ بين قوسين .

المصادر : ١٨٧٤ ١٨٨٠ : ISA–DKJ, A. XXXIX. 2. (Jerusalem, 8.1.1875 und 5.1.1876);
ISA–DKJ, A. XXXIX. 3. (Jerusalem, 30.1.1877 und 16.1.1878);
ISA–DKJ, A. XXXIX. 4. (Jerusalem, 7.2.1879 und 20.1.1880 und 5.2.1881).

١٨٨١ : Luncz, 9.

١٨٨٢ : Deutsches Handelsarchiv, 1883, II, 421.

الجدول ٣٢
سعر الصرف في حيفا / عكا ١٨٧٨ - ١٨٨١ (بالقروش)

	بداية ١٨٧٨	بداية ١٨٧٩	بداية ١٨٨٠	بداية ١٨٨١
الليرة العثمانية	١٢٨	١٢٠	١٢١	٥ر٢١
المجيدي العثماني		٧٥ر٢٢	٧٥ر٢٢	٧٥ر٢٢
قطعة العشرين فرانك	١١١	١٠٥	١٠٥	٥ر١٠٦
السوفرين الانجليزي	١٤٠	١٣١	١٣١	١٣٤

المصدر :
ISA–DKJ, A. XXXIX. 3. (Haifa, 19.1.1879),
A. XXXIX. 4. (Haifa, 20.1.1879 10.1.1880, 7.1.1881).

جانبهم أي بضائع . والقول نفسه ينطبق على الفلاحين في القرى، فهم يصدرون الحبوب، ويقبضون بشراهة على النقود التي تدفع ثمناً لها ثم يخبئونها في الأرض؛ وكثيراً ما كانوا يموتون دون أن يفشوا سرّهم[٢١٠].

وبعد هذا التاريخ بسنتين كتب قائلا :

في الآونة الأخيرة فتح باب تجارة تصدير القمح من هذه البلاد إلى أوروبا، وقد جمع الفلاحون من هذه التجارة، على الرغم من الخسائر التي الحقتها بهم ابتزازات شيوخهم أنفسهم والملتزمين، ثروة لم يسبق لها مثيل - لكنهم يدفنون المال في الحُفر، ويشترون السلاح ويزيّنون نساءهم[٢١١].

ولاحظ القنصل خياط في فترة رواج القطن القصيرة أن الفلاحين الذين استفادوا منها اشتروا بضائع انجليزية وزينوا نساءهم بقطع النقود الذهبية والفضية[٢١٢] . وقد تم التنويه مراراً بانتعاش مدن ومناطق فلسطينية منفردة وبرخائها المتزايد، ولم يقتصر الأمر على القدس وحيفا . وهناك صوت واحد فقط نودّ أن نضيفه بهذا الشأن : فقد كتب نائب القنصل البريطاني في بيروت في تقريره الاقتصادي عن الشاطىء السوري لسنة ١٨٨٠ يقول : «من بين المناطق النائية يمكنني أن أقول إن الوضع في يافا هو أشدّ من سواه مدعاةً إلى الارتياح[٢١٣]» . وفي نطاق هذا التوسع الاقتصادي يمكن أن نرى أيضاً النمو السكاني الذي بيّناه أعلاه .

---

(٢١٠) PRO – F.O. 78, vol. 1294 (Jerusalem 1.1 1857).

(٢١١) PRO – F.O. 78, vol. 1383 (Jerusalem, 9.10.1858).

(٢١٢) PRO – F.O. 78, vol. 1834 (Jaffa, 15.3.1864).

(٢١٣) PP – 1881, vol XC (Beirut, 19.3.1881).

الواردات والميزان التجاري

لقد أسهمت فلسطين على هذا الوجه، وبفضل فائضها الزراعي، في تموين المناطق المجاورة، وخاصة مصر ولبنان وساحل آسيا الصغرى الغربي. وأكثر من ذلك فهي قد قامت بفضل صادراتها الى اوروبا والعجز الكبير في وارداتها بدور في تحقيق التوازن في الميزان التجاري لسوريا بأسرها. ويمثل عدم التناسب بين التصدير والاستيراد في مجمل تجارة فلسطين (أي من موانىء عكا وحيفا ويافا) ذلك الجانب من التطور الاقتصادي للبلاد الذي بدا لجميع القناصل طوال الفترة التي نعالجها بأنه الجانب الأجدر بالملاحظة. ومما زاد في الدهشة الناجمة عن عدم التناسب هذا أن قدراً متزايداً من الواردات كان الهدف منه تلبية احتياجات الأوروبيين والمؤسسات الأوروبية في البلاد التي لم تكن هي نفسها تسهم بشيء في زيادة الصادرات (بغض النظر عن الهيكليين الذين كان يبالغ غالباً بنصيبهم في ازدهار فلسطين الاقتصادي). لكن العجز في الاستيراد كان في جزء منه عجزاً ظاهرياً، لأن علينا أن نميز بين الواردات المباشرة وغير المباشرة.

لم تستورد تقريباً أية بضائع من اوروبا بشكل مباشر عَبْرَ عكا وحيفا حتى بعد بداية النصف الثاني من السبعينات، فكبار التجار العرب وممثلو بيوت التجارة الفرنسية والايطالية واليونانية كانوا منشغلين بصورة تامة تقريباً بتنظيم الاستيراد. بل إن كثيراً من التجار اليونانيين وكذلك الايطاليين كانوا يقومون بالأعمال التجارية دون وكلاء محليين، أي أن قباطنة السفن التجارية كانوا هم المشترين في الوقت ذاته.

وكانت كل السلع المستوردة من اوروبا تقريباً يأتي بها تجارٌ محليون صغار من البيوت التجارية الكبرى في بيروت، وكانت هذه الواردات تنقل براً وبكميات صغيرة. وكان هناك في حيفا في السبعينات متجر الماني واحد لا غير يتعاطى تجارة المصنوعات الحديدية ولوازم الخياطة باستيرادها مباشرة من الخارج (وفي الدرجة الأولى من المانيا). وفي سنة ١٨٧٨ استقر هناك بعض التجار الألمان الآخرين، بيد أنهم كانوا يشكون باستمرار من عدم وجود اتصال بحري مباشر مع المانيا.

وكان شمال فلسطين، وكذلك جنوبها، يستورد (بصورة غير مباشرة في الأساس): الأرز من ايطاليا ومصر، والسكر من فرنسا، والبنّ من أمريكا الجنوبية وبلاد العرب (عن طريق البر في الغالب)، والمصنوعات القطنية من انجلترا وسويسرا، والأقمشة من سويسرا والمانيا، والمصنوعات الحديدية ولوازم الخياطة من المانيا وانجلترا والنمسا وفرنسا، وكذلك

خشب البنـاء من آسيا الصغرى. ومع ذلك فإن القناصل كانوا على اتفاق على أن قيمة الواردات بمجملها، سواء منها غير المباشرة والمباشرة القليلة للغاية، لم تقترب ولا بشكل بعيد من قيمة الصادرات.

وفي يافـا لم يعط حتى القنـاصل البريطانيون الذين يسجّلون في هذا المكان أوفى اللمحات عن شؤون التجارة والاقتصاد أية إحصاءات تتعلق بالاستيراد قبل سنة ١٨٧٤، لأن السفن الواصلة كانت تدفع رسوم الجمارك عن حمولاتها قبل وصولها، وفي بيروت غالباً، وكانت تفرغ لدى ابراز شهادة الجمرك (رفتية) دون أية إجراءات شكلية أخرى، ثم يُشْحَن جزء منها على الفور إلى داخل البلاد. ومعنى هذا أن هذا الجزء من واردات فلسطين كان يسجل أيضاً في إحصاءات الجمارك العثمانية ببيروت، مع أنه لم يكن قد استورد عن طريقها.

إنّ هيكل الاستيراد من يافا لا يشير في الفترة ما بين ١٨٥٦ و١٨٨٢ إلى وجود أي تحول أساسي. ويتضمن الجدول ٣٣ عرضاً لأهم سلع الاستيراد من حيث القيمة للسنوات من ١٨٧٤ حتى ١٨٨٢. والتغـير الـذي طرأ في هذه الفـترة، مقـارنـة مع الخمسينات والستينات، تمثل في الدرجة الأولى في الأهمية التي اكتسبها الآن استيراد ما يدعى بالبضائع الكمالية وأدوات (الموضة) وكذلك البترول. وكانت الأولى تضـم الساعات والخزف الصيني (البـورسـلان) والعـطور وأدوات الـزينـة وما يسمى بلوازم الأزياء، وكان جزء من هذه المستـوردات يذهب بالـطبع لحساب الأوروبيين في البلاد، ولكنها كانت تدل أيضاً على الرخاء المتزايد والذوق المتغير للفئة العليا المحلية. وقد بدأت هذه الفئة تقتدي بالأوروبيين في الملابس والأحذية وطيّبات الحياة وحاجات الاستعمال اليومي ونمط السكن. ولم يكن التجـار والحـرفيون الأوروبيون الـذين استقـروا في فلسطين يلبّون الاحتياجات المتزايدة للأجانب فحسب، وإنّما احتياجات هذه الفئة العليا المحلية أيضاً[٢١٤].

الجدول ٣٣

واردات يافا (اهم سبع سلع مستوردة ، القيمة بالقروش)

السنة	السلعة	القيمة
١٨٧٤	البن	٣٩٢٠٠٠٠
	الارز	٣٣٩٧٥٠٠
	السكر	٢٤٠٠٠٠٠
	المصنوعات القطنة	٢٢٤٠٠٠٠
	خشب البناء	١٥٤٠٠٠٠
	النبيذ	٥٧٣٠٠٠
	القماش	٢٩٥٠٠٠

(٢١٤) قارن على سبيل المثال: HL, XVII (1873), 188; **Die Warte**, 2 4.1874, 11.6.1874; Schick «Fortschritte der Civilisation», 65; Wolff, «Zur Neueren Geschichte», 12f; Oliphant, **Haifa**, 143–150.

تابع الجدول ٣٣

واردات يافا (اهم سبع سلع مستوردة ، القيمة بالقروش)

١٨٧٥	البن	٤٠٤٠٠٠٠
	الارز	٢٤٤٧٥٠٠
	السكر	٢٩٩٠٠٠٠
	المصنوعات القطنية	١٩٢٠٠٠٠
	خشب البناء	١٨٦٩٥٠٠
	النبيذ	٥١٥٠٠٠
	القماش	٣٦٠٠٠٠
١٨٧٦	البن	١٠٨٠٢٠٠٠
	الارز	٣٥٧٤١٧٥
	السكر	٦٩٢٤٠٠٠
	المصنوعات القطنية	٣٩٣٤٥٠٠
	الادوات الكمالية وادوات الموضة	١١٥٦٢٥٠
	الكاز (البترول)	٨٥٠٠٠٠
	القماش	٧٠٩٤٠٠
١٨٧٧	البن	٥١٦٩٠٠٠
	الارز	٣٨٦٩٢٥٠
	السكر	٥٣٩٠٠٠٠
	المصنوعات القطنية	٣٣٦٢١٤٥
	الادوات الكمالية وادوات (الموضة)	٢١٣٠٠٠٠
	القمح	١٩٢٥٠٠٠
	الذرة	٨٧٥٠٠٠
١٨٧٩	البن	٣٧٦٠٠٠٠
	الارز	٣٩٩٢٥٠٠
	السكر	١٠٣٥٠٠٠٠
	المصنوعات القطنية	٢٨٠٠٠٠٠
	القمح والطحين	٣٨٦٨٠٠٠
	الادوات الكمالية وادوات (للموضة)	٢٢٩٥٠٠٠
	القماش	٩٣٩٠٠٠
١٨٨٠	البن	٤١٤٠٠٠٠
	الارز	٤٧٥٧٥٠٠
	السكر	١٠٥٠٠٠٠٠
	المصنوعات القطنية	٣٢٥٠٠٠٠
	الادوات الكمالية وادوات (الموضة)	٢٠٨٠٠٠٠
	الكار أو البترول	١٦٠٠٠٠٠
	القماش	١٠٦٧٠٠٠
١٨٨١	البن	٣١٦٢٥٠٠
	الارز	٤٠٩٩٥٠٠
	السكر	١٠١٢٥٠٠٠
	المصنوعات القطنية	٣٢٢٠٠٠٠
	خشب البناء	١٢١٥٠٠٠
	الادوات الكمالية وادوات (للموضة)	٥٩٨٥٠٠٠
	الكار (البترول)	١٩٨٠٠٠٠

تابع الجدول ٣٣

واردات يافا (اهم سبع سلع مستوردة ، القيمة بالقروش)

١٨٨٢	البن	٣٢٦١٠٠٠
	الارز	٦٦٨٣٣٥٠
	السكر	٩٤٢١٥٠٠
	المصنوعات القطنية	٣٥٣٦٠٠٠
	خشب البناء	١٦٨٠٠٠٠
	الابهوات الكمالية وادوات (الموضة)	٥٥٧٨٣٢٥
	الكاز (البترول)	٢٨٨٠٠٠٠

المصادر : كما في الحاشية ١٨١

وفيما يتعلق بمنشأ هذه الواردات، فان الأرز كان يأتي في الدرجة الأولى من مصر وايطاليا وفرنسا والهند، والسكر من فرنسا ومصر والنمسا وانجلترا، والبن من أمريكا الجنوبية عن طريق أوروبا، وكذلك من جزيرة العرب، والمصنوعات القطنية من انجلترا في الدرجة الأولى، وخشب البناء من آسيا الصغرى ورومانيا والخمْر من قبرص وفرنسا والبترول من أمريكا، والفحم من انجلترا. وجاءت البضائع الكمالية والقماش والأقمشة الحريرية، والأواني الحديدية والمنزلية والزجاج والورق والمشروبات الروحية من بلدان أوروبية مختلفة (فرنسا وانجلترا والمانيا والنمسا وسويسرا وايطاليا واليونان).

إن بيانات القناصل التي كانت تتطابق عادة حول فائض صادرات يافا (وهي ظاهرة بقيت ملحوظة حتى منعطف القرن) أصبحت تشير في الواقع إلى تفاوت كبير في الإحصاءات العائدة إلى السنوات من ١٨٧٩ إلى ١٨٨٢ (الجدولان ٢٥ و٢٦). وربما يكمن سبب من أسباب ذلك في الطرق المختلفة في تناول الواردات غير المباشرة.

علاقات ملكية الأراضي

إن ربحية الانتاج الزراعي الموجّه للتصدير وإمكانية توسيع الرقعة الزراعية في إطار مُجمل التطور الاجتماعي الاقتصادي لفلسطين بعد حرب القرم استتبعتا تقوياً جديداً للملكية الفردية في الأرض سواء من جانب الحكومة العثمانية المركزية أو من جانب الفئة العليا المحلية. وقد وضع الاطار القانوني للظروف التي كان من شأنها أن تضمن تدريجياً سلطة التصرف الخاصة الاقتصادية الفردية في الأرض في ثلاث موجات من القوانين، إن جاز التعبير، في نهاية الخمسينات ونهاية الستينات ومنتصف السبعينات، وتم ذلك جزئياً بضغط أوروبي مباشر أو غير مباشر. وأشهر هذه القوانين هي قانون الأراضي لسنة ١٨٥٨

وقانون سنة ١٨٦٧ الذي أقر للأجانب بحق امتلاك الأموال غير المنقولة في الدولة العثمانية .

على أنه لا بد من التأكيد بأن قانون ١٨٥٨ لم يخلق معايير أساسية جديدة خاصة بحقوق التصرف في الأرض، بل انه جمع ودوّن الحقوق القائمة بصورة شاملة . وكان من شأنه أن يخلق نوعاً ما أساساً واضحاً لتنفيذ النوايا الحقيقية للحكومة المركزية ألا وهي زيادة الفعالية المالية للسلطة، وخصوصاً فيما يتعلق بالأراضي الأميرية . وكان الهدف من ذلك هو التسجيل الفردي لجميع حقوق الملكية وتوسيع حق الارث وكسر أشكال الملكية المشتركة عن هذا السبيل، (وخصوصاً نظام المشاع)، وتلا ذلك قوانين وأوامر إدارية حول تسجيل سندات الملكية واصدارها الى أن تم في سنة ١٨٧٤ و١٨٧٦ وضع التشريعات القانونية أيضاً حول إصدار سندات ملكية جديدة لأراضي الملك والأراضي الوقفية[٢١٥] .

وكان في وسع الحكومة المركزية أن تأمل في جني أرباح مالية بصورة مباشرة وبصورة غير مباشرة : بصورة غير مباشرة لأن الانتاج يزداد، والضرائب تبعاً لذلك تزداد، عن طريق ضمان الملكية الفردية، وامكانية نقلها . أما الدخل المباشر فكان ينتظر من ثلاث نواح : عن طريق إصدار سندات الملكية، وعن طريق نقل أراضي الدولة إلى الملكية الخاصّة، وعن طريق مسك صاحب حق الملكية بجسمه وعينه، وهو الشخص الذي يمكن إرغامه في حالة العجز عن الدفع على التخلي عن ملكيته للأرض .

ونحن نعلم أن النتيجة في فلسطين لم تتمثل في توزع واسع لحقوق الملكية في أيدي الفلاحين الذين يفلحون الأراضي الأميرية فعلا . وقد جرى مراراً من قبل وصف الأسباب التي أفضت إلى تسجيل الأراضي بأسماء أعضاء الفئات الاجتماعية السائدة، وأفضت بالتالي

---

(٢١٥) ترد نصوص قوانين الاراضي المختلفة في هذه الفترة في:
Testa, VII, 729–755; Aristarchi, I, 19–26, 57–240, 254–266; Young, I, 334–345, VI 45–107; Fisher, 1–80.
وهناك عرض تفسيري لقانون ١٨٥٨ في:
HHSTA – P.A.XII, Kart. 64 (Konstantinopel, 27.8.1858 (٢٩ صفحة) .
وهناك ترجمة المانية وشرح لقانون ملكية الاراضي لسنة ١٨٧٤ في ISA – DKJ, A.XXII.4. (٢٤ صفحة)
وفي هذا الموضع نماذج لسندات الملكية لاراضي الملك والوقف .
دراسات :
ÖMO, I (1875), 154–156; Engelhardt, I 205 – 214, II, 124 – 128; Arslanian; Müllinen, "Beiträge zur Kenntniss des türkischen Grundbuchwesens"; Padel; Padel / Steeg; Granott; Klat, "The Origins of Landownership"; Baer, "The Evolution of Private landownership",
Davison, 99f., 256 – 262; Eisenman, 52–69, عبد العزيز عوض، متصرفية القدس (رسالة جامعية)، ١٢٥-١٣٩
صابر موسى، نظام ملكية الاراضي، ٧٩-٩٠ .
محمد سليمان، ملكية الارض، ٣٧-٤٧ .

إلى نشوء الملكية الكبيرة للأرض، ألا وهي : عجز الفلاحين عن إبراز الوثائق، والخوف من عواقب فرض الضرائب والتجنيد، والاحتماء بالشخصيات المتنفذة من الظلم التعسفي للمتلزمين وموظفي الضرائب والعسكريين والدائنين[٢١٦].

على أن نظام المشاع لم يُقضَ عليه بنشوء الملكية الكبيرة للأراضي بل إنه قد اتسع باتساع الرقعة الزراعية المستغلة في السهول الساحلية والداخلية[٢١٧]. لقد بقيت الأرض قانوناً وإلى حد بعيد أرضاً أميرية، ولكنها اقتربت في الواقع اقتراباً كبيراً من الأرض الملك.

ويهمنا هنا في الدرجة الأولى النتائج التي جرّها هذا التطور على الهيكل الاقتصادي، ألا وهي بدايات تحويل الأرض إلى سلعة تجارية والتغلغل الرأسمالي في الانتاج الزراعي، حتى لو لم يكن يستند هذا من وجهة قانونية، أو كان يستند إلى حد ضئيل فقط، إلى ملكية قانونية خاصة ومطلقة، مع استمرار الفلاحين جزئياً في الزراعة المشتركة للأرض. لقد أصبحت الأرض الآن قابلة للشراء. فتارة كانت الحكومة تعرض للبيع أراضي «غير مفتلحة» وتارة كان الفلاحون المثقلون بالدين، أو القرى الرازحة تحته، يبحثون عن مالك جديد يقوم بدفع الديون ومتأخرات الضرائب عنهم، ويُزيح عنهم عبء المسؤولية المالية المباشرة تجاه الحكومة.

وكانت الحكومة تقوم بانتظام في نهاية الستينات وبداية السبعينات باجراء مزادات لبيع الأراضي التي لا تزرع باستمرار في فلسطين كلها، وخصوصاً في شمال البلاد[٢١٨]. ولكن في جنوب البلاد أيضاً كانت توضع تحت تصرف المهتمين قوائم بالأراضي القابلة للبيع. وقد نشر مونتفيوري سنة ١٨٧٤ قائمة باثني عشر عقاراً كانت الحكومة ترغب في نقل ملكيتها وهي تشتمل بمجموعها على أكثر من ٢٥ ألف دونم، وكانت تقع في الأكثر على طريق

---

(٢١٦) قارن مثلاً:
Granott «Der Ackerbau in Palästina», HL, XVI (1872), 44–47, 116–119; ، الفصل الثالث

(٢١٧) فيما يتعلق بنظام المشاع في فلسطين قارن:
Schick, «Landwirthschaftliche Verhaltnisse», 51f., Klein, «Mittheilungen 1881», 74–76, Neil, «Land Tenure», 155–162 und 192f, Post, 105f.; Berghelm, 191–199; Lees, 85f.; Baldensperger, «The Immovable East», PEFQS 1906, 192f., Auhagen, 34 und 49–51 Schulman, 63–66; Dalman, II, 38–41; Granott, 174–179 und 213–248; Firestone, **Faddān and Musha**; Owen, 256–259 und 269.
ويقول باير Baer [في كتابه **Fellah and Townsman** ، ص ١٣٦]: كانت اراضي المشاع تشكل عشية الحرب العالمية الأولى ٧٠٪ من مساحة فلسطين.

(٢١٨) AA–Konst., Gen 76, K.18.d (Beirut, 12.4 1868); **Translations of a Letter... by Sir Moses Montefiore**, 15, 29, 31f., 34, 38f., 45, 53, 63–65, 79; Jessup, II, 423.

القدس ـ الرملة ـ يافا[٢١٩]. وفي نهاية السبعينات تمخض الوضع البائس للفلاحين، الناجم عن الحرب والحصاد السيء، عن موجة لنقل الأرض من نوع آخر انتفع بها بشكل خاص التجار والمقرضون[٢٢٠].

من الذي استحوذ على الأرض الآن؟ نستطيع أن نتبيّن قبل كل شيء ثلا ث فئات: لقد نجحت الفئة العليا المحلية الموطدة الأركان في امتلاك الأراضي المتوسطة والكبيرة عن طريق إقراض المال (التبعية المالية) أو عن طريق مجرد التسجيل، أي إصدار سندات ملكية على أساس القوانين والأوامر التي صدرت من سنة ١٨٥٨ إلى ١٨٦٠ ومن ١٨٧٤ و١٨٧٦. وأمّنت العائلات صاحبة الكلمة في الجبال والأفندية في المدن لنفسها حقوق ملكية في الأراضي الواقعة في المنطقة الجبلية وفي سفوح الجبال وحول المدن في الساحل، وهي الأراضي التي كانت تحت سيطرتهم من قبل على أية حال، وانتقلوا جزئياً إلى الزراعة المكثفة، حول يافا وغزة مثلا (أنظر أدناه أيضاً ص ٢٠٠ و٢٠١). وقيل عن عائلة عبد الهادي في ذلك الوقت إنهم «شرعوا في زراعة البساتين على غرار الألمان في حيفا ويافا»[٢٢١]، على سفح جبل يقع بين عرّابة وجنين. وفي بداية عهد الانتداب كان يدور الحديث حول أملاكهم الواسعة قرب جنين، وحول امتلاكهم ٢٠٠,٠٠٠ دونم قرب عرّابة[٢٢٢].

أما الفئة الثانية فكانت تتألف من ممثلي البورجوازية التجارية والمالية التي كانت تنشأ ببطء في المدن الساحلية (بما فيها بيروت) وفي القدس، وعلى رأسها الأوروبيون، والمتمتعون بالحماية الأوروبية واليهود، والمسيحيون الفلسطينيون واللبنانيون، وهي البورجوازية التي استحوذت منذ سنة ١٨٦٧ بطريق الشراء أو «الربا» على الأرض المحيطة بالمدن، بل وعلى رقع كاملة من الأرض في السهول أيضاً. وفي الوسع ايراد أمثلة وأسماء كثيرة. (وسنستعرض في الختام أشهر حالتين من هذه الحالات وهما سُرسق وبيرجهايم Bergheim). ويضم أحد ملفات القنصلية الألمانية في القدس وثائق تختص بأربع وعشرين معاملة من معاملات الأراضي فيما حول القدس في سنة ١٨٧٢/١٨٧٣، وهي تتعلق بتجار وأصحاب حرف

(٢١٩) Translation of a Letter.. by Sir Moses Montefiore, 32; Rosenberg. «The Condition of Palestine», 125.

(٢٢٠) انظر: Conder, Heth and Moab, 366f. ولم يكن في هذا جديد بالطبع فان المقرضين كانوا يعولون على الدوام كيف يضعون ايديهم على الارض. ويصف القنصل الانجليزي مثلاً الاساليب التي كان يلجأ اليها يهودي من القدس يتمتع بالحماية البريطانية للاستحواذ على الارض بصورة واقعية، قبل صدور قانون سنة ١٨٦٧.
(PRO – F.O. 195, vol 195 (Jerusalem 9.6.1893)

(٢٢١) Ebers / Guthe, I, 271

(٢٢٢) Jaussen, 132

ورجال بنوك ألمان (بيرجهايم Bergheim ، وفروتجر Frutiger ، وشبتلر Spittler ، وفرانك Frank)، وكـذلك بيهود متمتعين بالحماية[٢٢٣] . ويورد لوهنس Loehnis ، وشيك Schick سلسلة كاملة من تجار مقدسيين آخرين استثمروا رؤوس أموال في الأرض[٢٢٤] . وذكر لنا أيضاً اسما تاجرين من عكا امتلكا أرضاً قرب طبريا[٢٢٥] . وحسب ما يقول كوندر فان السهل الساحلي المحيط بيافا اشتراه «رأسماليون» يهود ويونانيون وموارنة[٢٢٦] . لقد بدأ رأس المال التجاري والمصرفي يتغلغل في الزراعة الفلسطينية.

وأمـا الفئة الثالثة التي اهتمت بالحصول على الأرض فكانت تتألف من رأسماليين أجانب، وخصوصاً من الهيكليين واليهود. وسوف نتحدث عن مستعمرات الهيكليين أدناه باختصار. أما الاستعمار اليهودي فلم يكتسب أهمية إلا بعد سنة ١٨٨٢ ، ولذلك فلا داعي للحديث عن هذه المشكلة هنا.

ولكن هناك نتيجة أخرى لهذا التطور منذ نهاية الخمسينات لا بد من الاشارة إليها، هي ارتفاع سعر الأرض لا في المدن وضواحيها حسب بل في كل أنحاء البلاد، وان كانت الأسعار تتفاوت تبعاً للزمان والمكان. ولو غضضنا النظر عن أراضي المدن فقد كانت الأسعار في نظر الأوروبيين في بداية الثمانينات أيضاً «أسعار بخسة»، ومع ذلك فإن ارتفاع الأسعار عكس الأهمية المتزايدة لهذه البضاعة الجديدة[٢٢٧] .

ونذكر بهذا الشأن أخيراً أن جزءاً من الأرض المستغلة للزراعة، خاصة في جنوب فلسطين، كان أراضي وقفية يستخدم عُشرها للانفاق على «الأماكن المقدسة» الاسلامية في الخليل والقدس. بيد أننا لا نملك معطيات رقمية شاملة الا لعهد الانتداب: وقد قدرت مساحة الأراضي التي كان يذهب عشرنا إلى صندوق الوقف بين ٦٠ , ٠٠٠ دونم ومليون دونم. وكانت أراضي ١٠٠ قرية بكاملها من هذا الصنف. وفي سنة ١٩٢١ - ١٩٢٢ مثلث أعشار الوقف ١٢,٧٥٪ من مجموع قيمة الأعشار في فلسطين، وكان ٥٥٪ من مجموع دخل

---

(٢٢٣) ISA – DKJ, A. XXXVII. 3.a (Grundstücks – Erwerbung und Umschreibung von Besitztiteln 1872–1873).
وقارن ايضاً: Loewe, 11, 180. 274f. وكذلك An Open Letter addressed to Sir Moses Montefiore, 63f.

(٢٢٤) Loehnis, Die Wichtigsten Ergebnisse, 254, Schick, «Studien zur Colonisierung», 61.

(٢٢٥) PRO – F.O 195, vol. 1369 (Beirut 23.7. 1880). قارن ايضاً: PP–1880, vol. LXXIV (Damaskus 13 3.1880).

(٢٢٦) Conder, Heth and Moab, 368.

(٢٢٧) يورد اندرلند Anderlind «Aekerbau», 32–34 بعض المعطيات الرقمية للسبعينات والنصف الأول من الثمانينات.
قارن ايضاً: PRO – F.O 195, vol. 1202 (Jerusalem, 23.11.1878); Neil, Palestine Re–Peopled, 13–16.

الوقف يتألف من هذه الأعشار، ويضاف إلى ذلك الأوقاف الذرية[٢٢٨].

سبق أن تحدثنا عن تكدُّس سندات الملكية بأيدي الملاكين الكبار. وحسب تقديرات أوهاجن Auhagen لم يكن قد تبقى بأيدي الفلاحين في بداية هذا القرن في منطقة الجليل سوى ٢٠٪ من الأرض وفي منطقة القدس سوى ٥٠٪[٢٢٩]. وليست لدينا معطيات دقيقة بهذا الشأن، وكل ما لدينا هو بضعة أرقام تشير إلى أحجام بعض الممتلكات في نهاية الفترة العثمانية: فحسب المعطيات الرسمية لسنة ١٩٠٩ كانت ١٦٩١٠ عائلات تعمل في فلاحة ٧٨٥٠٠٠ دونم، أي بمعدل ٤٦ دونماً للعائلة. ووفقاً لسجل يرجع إلى العقد الثاني من هذا القرن كان ١٤٤ مالكاً من الملاكين الكبار في فلسطين يملكون ٣١٣٠٠٠٠ دونم من الأرض، أي ٢٢٠٠٠ دونم في المعدل[٢٣٠]. وليست لدينا أرقام كهذه للفترة التي نعالجها. وكل ما نستطيعه هو أن نقدم صورة مفصلة نوعاً ما لملاكيْن كبيريْن كانا معروفيْن جداً في فلسطين في السبعينات.

في سنة ١٨٦٩ نقلت الحكومة ملكية أراضي ١٧ قرية وبلدة في مرج ابن عامر، بما فيها الناصرة، إلى رجال الأعمال البيروتيين حبيب بسترس، ونقولا سرسق. وتويني، وفرح. وضمن سرسق بعد أن أخذ حصة بسترس لنفسه نصيب الأسد. وقد استعد أهالي الناصرة

(٢٢٨) قارن بارون Baron خاصة الصفحات: 18, 47, 52–54 وكذلك Dalman, II, 37f; Granott 139–145, 151–155, Khayat, 42f, Laylah, 54. وبشأن اوقاف القدس والخليل قارن ايضاً: مجير الدين ٢/ ٤٣١ - ٤٤٦، وماسنيون (Massignon). وبشأن اوقاف الخليل وما حولها قارن:

Rosen, «Ueber das Thal», 489f;

Titus Toblers dritte Wanderung, 52, Sepp, I, 42,

وانظر كذلك:

عرفات حجازي، مدينة الخليل والصهيونية، ص ٩٩ وما بعدها وأيضاً: Karmon, **Changes**, 76

وحول الاوقاف في القدس وما حولها قارن:

HL, VIII (1864), 43; Neumann, **Die Heilige Stadt**, 220; SWP, **Judaea**, 13; Arderlind, «Ackerbau», 52; Baer, «The Dismemberment»; Baer, **Jerusalem's- Families.**

وكانت حارة اليهود في القدس بأكثريتها الساحقة وقفاً، بنسبة ٩٠٪، كما يقول عارف العارف النكبة ٢/ ٤٩٠ حاشية ٣، وبنسبة ٨٥٪، كما يقول العامري، القدس، ١٢.

حول مصبنتين موقوفتين في الرملة وغزة قارن:

ISA – DKJ, A.XXII, l.c. (Jerusalem 2.5.1883); Gatt, «Industrielles aus Gaza», 77.

(٢٢٩) Auhagen, 52

(٢٣٠) Granott, 38f. حول ملكية الاراضي والملاكين الكبار في فلسطين في بداية القرن العشرين قارن ايضاً سليمان، «ملكية الارض»، ٥٢ - ٥٥؛ «نشوء وتطور» رقم ٢٦؛ ٤٠ وما بعدها ورقم ٢٨، ١٧-٢٠؛ العامري، التطور ٥٩-٦٨.

ـ الذين سبق لهم أن احتجوا سنة ١٨٦٨ ضد مستوطنة الهيكليين قرب السمونية[٢٣١] . ★ التي سرعان ما منيت بالفشل ـ استعداداً قوياً للدفاع عن أنفسهم ونجحوا: ففي سنة ١٨٧٠ أعيد لهم قسم من الأرض، وعوِّض تجار بيروت عن ذلك تعويضاً مناسباً. ونفترض أن حملة لواء الاحتجاج كانوا يمثلون تلك الطبقة «الوجيهة» من كبار الملاكين وتجار الحبوب في الناصرة، وهي الطبقة التي سنلتقي بها فيما بعد (الجدول ٤٣). وفي سنة ١٨٧٢ باعت الحكومة أراضي خمس قرى اخرى، ذهب معظمها أيضاً إلى سرسق وسالم الخوري[٢٣٢] . وكانت هذه بداية مشروع سرسق في فلسطين، وهو المثل الأول الذي سنتحدث عنه[٢٣٣] .

كان الأخوة سرسق في بيروت، وهم مسيحيون من طائفة الروم الأرثوذكس، أصحاب أحد أكبر مجمّعات المشروعات في سوريا. كانوا رجال بنوك، وأصحاب مصنع حديث لغزل الحرير يدار بالبخار، وأصحاب مؤسسة من أكبر المؤسسات التجارية على الشاطىء السوري كانت تتعاطى فيها تتعاطاه تصدير الحبوب والصوف والقطن[٢٣٤] . كانت أرض سرسق قرب الناصرة وفي مرج ابن عامر تضم ٢٣٠,٠٠٠ دونم وتم الحصول عليها لقاء مبلغ ٢٠,٠٠٠ استرليني[٢٣٥] . لكن هذا الاستثمار سددت أمواله بسرعة بسبب الأرباح العالية. وقد استخدم الملاك الجدد فلاحين من مناطق أخرى وأعادوا بناء القرى المهجورة، وزودوا الفلاحين بأدوات عمل محسّنة، وعينوا مدراء ووكلاء محليين في قراهم، وتولوا أمر الالتزام بأنفسهم. وبقي الفلاحون في أرض سرسق كمستأجرين، وكان السراسقة بالنسبة لهم بمثابة الملاك والمتلزمين ومقرضي المال ـ والحماة.

---

(٢٣١) A.A– Konst , GEN. 76 K.18 d (Beirut 12.4.1868) . على أن تأسيس هذه المستعمرة فشل في الدرجة الأولى لأن الأمراض اختطفت اعضاءها منها. وقد وضع هوفمان (Hoffmann) هؤلاء على قدم المساواة مع الذين يسقطون في ميدان القتال: «وهم ايضاً ماتوا من اجل الهيكل في القدس. (Hoffmann, Nachricht, 3, 18–22.
قارن ايضاً: A A.– Konst., GEN 76.K.18 d (Beirut 4.8.1868, Nazareth 5.8.1868).

★ خربة تقع غربي مدينة الناصرة. بنيت عليها الآن مستعمرة شمرون اليهودية ـ المترجم.

(٢٣٢) رئيس عائلة متنفذة من التجار. انظر القول المقتبس ص ، وكذلك Granott, 81; Carmel, **Geschichte Haifas,** 131.

(٢٣٣) جميع التفصيلات عن اسعد منصور، تاريخ الناصرة، ٩٨ وما بعدها و٢٨٧ وما بعدها.
قارن ايضاً: الدباع، بلادنا فلسطين ٢/٧ ٤٩ و٥٧٧. في سنة ١٩١٦ ذكر كملاكين كبار في مرج ابن عامر: سرسق وتويني من بيروت، وخوري ورئيس من حيفا Schulaman, 53 . بشأن ملاكين لبنانيين آخرين انظر: سليمان، «ملكية الارض»، ٤٥٥ موسى، ٨٨.

(٢٣٤) Swiedinek, 25, 51, 56, 67f, Fawaz, 91–94

(٢٣٥) بشأن مشروع سرسق هذا قارن:
Personal Recollections, 14; Conder, **Tent Work,** I, 165f, II, 328; Conder, «The Present Condition of Palestine», 10, 13; Oliphant, **The Land of Gilead,** 328–32; SWP, **Galilee,** 273, 356; SWP, **Samaria,** 46; Loehnis, **Die Wichtigsten Ergebnisse,** 253, Wright, 133; Arderlind, «Ackerbau», 53; Bonne, 144f; Granott, 39, 80f, 83.

وقد شكا كوندر سنة ١٨٧٢ من أن السلطات لم تتخذ اجراءات ضد أناس قاموا في منطقة سرسق بالاعتداء على جماعة من المنتسبين لصندوق استكشاف فلسطين، لأنها كانت تخشى هذه العائلة القويّة[٢٣٦].

وكتب اوليفانت في بداية ١٨٨٣ :

[إن سهل ازدريلون* كله . . . وكذلك جزءاً من التلال وراءه تمتلكها الآن جميعاً مؤسسة غنية من رجال البنوك السوريين، الذين يجنون منه دخلا سنوياً يقدّر بـ ٢٠٠,٠٠٠ دولار. وهم يملكون عملياً أيضاً حوالي خمسة آلاف من البشر الذين يكوّنون سكان ثلاثين قرية. ولم أجد طلسماً لاغراء الوطنيين بالاستجابة لطلبي أقوى من أن أذكر اسم «سرسق» وأن أقول ضمناً إنه كان لي شرف معرفته. ما من طاغية يمارس سلطة استبدادية على حريات رعاياه وحياتهم أقوى من تلك التي يمارسها هذا المليونير الملاك الذي يدأب كل عام على ضمّ الجديد إلى أراضيه، حتى بدا كأن الجليل بأسره بات في خطر الوقوع في يديه[٢٣٧]].

واتخذ السراسقة خطوات أخرى لزيادة قيمة أرضهم. فكلفوا المهندس الألماني شوماخر Schumacher منذ سنة ١٨٧١ بدراسة تضاريس المنطقة، لأنهم كانوا يريدون تعبيد طريق إلى حيفا[٢٣٨]. ولكن يبدو أن ذلك لم يسفر عن شيء، لأن الهيكليين زعموا فيما بعد أنهم قاموا بتعبيد الطريق من حيفا إلى الناصرة على حسابهم الخاص. وفي سنة ١٨٨٢ حصل السراسقة على امتياز لبناء خط حديدي من عكا إلى حيفا إلى دمشق يمر في «منطقتهم». بيد أنهم لم يستطيعوا تدبير رأس المال اللازم (في انجلترا كما كان يتوقع)، وهكذا سقط الامتياز[٢٣٩]. إلا أن المشروع درّ على عائلة سرسق في الفترة التي ندرسها الربح الوفير، وغيّر وجه مرج ابن عامر[٢٤٠]. ومن الواضح أن السلطان عبد الحميد أراد أن يكون

---

(٢٣٦) PRO – F.O. 78, vol. 2282 (Haifa, 28.12.1872)

(★) الاسم التوراتي لمرج ابن عامر.

(٢٣٧) Oliphant, **Haifa**, 52f.

(٢٣٨) **Die Warte**, 29.6.1871

(٢٣٩) قارن:

Schumacher, "Das Eisenbahnproject"; Neumann, "Palästinas zukünftige Eisenbahnen"; Hartmann, "Das Bahnnetz Mittelsyriens", 57, Verney / Dambmann, 272; Young, IV, 242, Carmel, **Geschichte Haifas**, 112

(٢٤٠) قارن مثلاً.

Thomson, **The Land and the Book**, 478f; Conder, **Tent Work**, I, 112f; Hellwald, Beck, II, 256; Ebers / Guthe, I, 276; Oliphant, **Haifa**, 73f.

له نصيب من هذا النجاح. وفي سنة ١٨٨٢ أصبح الجزء الشرقي من مرج ابن عامر، والغور الشمالي (بيسان) ملكاً خاصاً له[٢٤١]. واهتم السلطان شخصياً اهتماماً واضحاً ببناء الخط الحديدي المشار إليه لخفض نفقات نقل الحبوب[٢٤٢].

والمثل الثاني هو مثل المصرفي اليهودي والتاجر وصاحب المعامل والملاك الكبير، والمتمتع بالحماية الألمانية، بيرجهايم Bergheim في القدس. كانت مؤسسة بيرجهايم تمارس عمل البنك الحقيقي الوحيد في البلاد؛ ومثلت البنك العثماني (Banque Impériale Ottomane) وبعض البنوك اللندنية وامتلكت، فضلا عن ذلك، أراضي حتى في نهاية الأربعينات قرب يافا، وفي المقام الأول، قرب القدس. وكانت تمتلك أيضاً معمل صابون في الرملة. وفي سنة ١٨٧٧ قدر القنصل الألماني رأس مال المؤسسة بـ ٤٠٠٠٠٠ مارك، استثمر نصفها في ضيعة أبو شوشة إلى الجنوب الشرقي من الرملة[٢٤٣].

وورد في المصادر الألمانية أن مساحة الضيعة بلغت ٥٠٠٠ مورجن Morgen (حوالي ١٢٧٥ هكتاراً)، وفي المصادر الانجليزية ٥٠٠ ايكر Acre (فدان) (أي حوالي ٢١٠٠ هكتار). وقد حصل ميلفل بيرجمان على الضيعة في سنة ١٨٧٢ لقاء مبلغ ٤٦,٠٠٠ قرش، كان يمثل مجموع الضرائب المتأخرة التي ترتب على حوالي ٤٠٠ شخص من أهالي قرية أبو شوشة أن يدفعوها للحكومة. وبلغ عدد الفلاحين ذوي العلاقة بالمعاملة ٥١ شخصاً، وانتقل ١٥٣ سند ملكية إلى يدي بيرجمان. وبقي الفلاحون في الأرض بصفة مستأجرين وتمسكوا أيضاً بزراعة الأرض حسب نظام المشاع، كما كانوا يفعلون من قبل، أي دون تقسيمها إلى قطع منفردة. وفيما عدا ذلك أصبحت عائلة بيرجهايم تستغل الضيعة بصورة مباشرة. فأقامت فيها مباني جديدة، وركّبت مضخة ماء واقتنت آلات وطبقت وسائل محسّنة في الزراعة. ووصف لنا المشروع بأنه كان ناجحاً ورابحاً على نحو فائق[٢٤٤].

---

(٢٤١) قارن : NNM, 27 (1883), 131; NNM, 37 (1893), 146—155, Owen, 267.

(٢٤٢) Oliphant, **Haifa**, 74f. 78.

(٢٤٣) قارن. Baldensperger — Tagebuch, 30.9.1850; PRO-F.O. 78, vol. 1605 (Jerusalem, 13.1.1861); **Die Warte**, 8.11.1866; ISA-DKJ, A.XXXVII.5. a. (Jerusalem, 6.11.1872, 25.7.1873), ISA-DKJ, A.XXXIX.3 (Jerusalem, 20.3.1877); ISA-DKJ, A.XXII, 1.c. (Jerusalem, 2.5.1883· Gouverneur an Konsul)

(٢٤٤) **Die Warte**, 2.12.1875; HL, XX (1876), 82f.; Conder, **Tent Work**, II, 256 und 328f.f, TS, 1879 / 80/81, 147f; Schick, «**Landwirthschaftliche Verhältnisse**», 134f., SWP, **Samaria**, 407 und 444; ISA—DKJ, A.XXXIX 4. (Jerusalem, 24.3.1881); Thomson, **Southern Palestine**, 115; Oliphant, **Haifa**, 373; Neil, «Land Tenure.» Granott, 84, 287f.

وإذْ لم يكن أفراد عائلة بيرجهايم من الرعايا المحليين أو العثمانيين، فقد كان عليهم، خلافاً لعائلة سرسق، أن يدافعوا عن أملاكهم الجديدة باستمرار من الوجهتين الاجتماعية السياسية والقانونية، وحتى الحرب العالمية الأولى، ضدَّ جهتين: ضد الفئة العليا المحلية وضد فلاحي القرية. وقد بدأت السلسلة الطويلة من الخصومات القضائية، التي لا داعي لايجازها هنا، برفض دفع الإكرامية (البخشيش) التي طلبها موظف الطابو (تسجيل الأراضي) في القدس عمر أفندي الحسيني، لدى تسجيل العقارات لأول مرة. وبدأ الخصام مع الفلاحين عندما أدرك هؤلاء بأن مصيرهم سيغدو كمصير عمال الأرض التابعين لملاك أوروبي كبير، ووصلت الخصومة الأولى أوجها سنة ١٨٨٤، عندما قتل سكان القرية بيتر بيرجمان[٢٤٥]. وجدير بالمرء أن ينظر إلى هذه الخصومات في سياق الاحتجاجات السابقة ضد الاستعمار الأوروبي، شأنها في ذلك مثلا شأن احتجاجات أهالي يازور (إلى الجنوب الشرقي من يافا)، الذين نُقلت أرضهم سنة ١٨٧٠ الى مؤسسي مدرسة «مكفه اسرائيل» الزراعية[٢٤٦].

ويقدر ما تسمح لنا المصادر بأن نخرج بنتائج عامة ففي وسع المرء أن يؤكد بأن جزءاً من ملاكي الأرض الكبار الجدد على الأقل لم يكونوا ينظرون إلى الأرض بوصفها موضوعاً للمضاربة لا غير، بل إنهم وظفوا فيها استثمارات منتجة لكي ينتفعوا بالإمكانات الاقتصادية الجديدة. وبذلك فانهم أسهموا بلا ريب في ازدهار الانتاج الزراعي في فلسطين.

---

(٢٤٥) ISA – DKJ, A.XXXIX, (Jerusalem, 3.5.1876); ISA – DKJ, B.I.82.c (Jerusalem, 28.8.1909 : (مذكرة خاصة بابو شوشة)؛ Die Warte, 2.12.1875.

(٢٤٦) قارن بهذا الشأن : Chourqui, 357–363, 494f.; SWP, Samaria, 256; Die Warte, 29.9.1870.

تطور المدن والاقتصاد المديني

كلمة تمهيدية

في الوقت الذي استطعنا فيه أن ندرك، من وجهة احصائية أيضاً، الاتجاهات العامة لتطور الإنتاج الزراعي بايراد احصاءات خاصة بالتصدير، وأن نبرز هذه الاتجاهات للعيان فانه تعوزنا مصادر مقابلة حول الانتاج في المدن. لقد كان هذا الانتاج موجهاً بشكل مطلق تقريباً نحو السوق المحلية والاقليمية. وتناوله المراقبون الأوروبيون المهتمون بالاقتصاد الفلسطيني من وجهة وصفية ليس إلا. وكل ما لدينا هو استطلاعات في هذا الصدد. وحتى السالنامات لا تحتوي إلا على معلومات في غاية الضآلة. وسالنامة ١٢٨٨ هي وحدها التي تقدم لنا بعض المعطيات المنتظمة التي أوردناها في الجدول ٣٤. أمّا أنه يترتب علينا أن نتلقى هذه المعطيات بأشد الحذر فهذا ما يتضح بجلاء من أن نابلس مثلا، من بين كل المدن، وهي مركز إنتاج الصابون في فلسطين، لا يُشار إلى وجود مصبنة فيها. ومع ذلك فنأمل أن يكون في الوسع اعتبار البيانات العامة التي سنصل اليها مغطاة تغطية كافية رغم حالة المصادر هذه.

فيما يلي سوف نلقي الضوء بالتوالي على تلك المواقع الاحد عشر التي تظهر في المصادر المعاصرة عموماً كمدن فلسطين، وذلك بقدر ما تسمح به المادة التي تحت تصرفنا، وذلك من حيث تطور البناء في كل منها، وهيكل وسائل الكسب، والانتاج الحرفي، والانغماس في التجارة المحلية والاقليمية. وأما فيما يتعلق بتطور السكّان فَيرْجع في ذلك الى الجدول ١٢.

ولدى النظر إلى هذه المدن يغدو تصنيفها تصنيفاً معيناً أمراً لا بد منه. وسوف نتولى ذلك من زاوية السؤال الذي طرحناه حول آثار التغلغل الأوروبي، ونتناول ابتداءً تلك المدن التي تغير وجهها بشكل مباشر أكثر من سواها بتأثير الهجمة الأوروبية: القدس وبيت لحم والناصرة، مع «أماكنها المقدسة» المسيحية، وثَغْرَيْ يافا وحيفا اللذيْن تطورا تحت ظروف «الحملة الصليبية السلمية» والتوجه إلى التصدير. ثم نتّجهُ إلى مدن فلسطين الشمالية عكا وصفد وطبريا التي كانت تقع في سُفالة الريح(★) من هذا التطور. وفيما يتعلق بعكا علينا أن نسأل لماذا كان على هذه المدينة أن تمنى حتى بخسارةٍ في السكان، رغم أنها بقيت بالفعل، كما رأيناه، مكان التصدير الرئيسي لحبوب حوران.

★ سُفالة الريح: ضد علاوتها حين تهب، والمعنى في الجهة المحجوب عنها الريح ـ المترجم.

الجدول ٣٤

معطيات سالنامة ولاية سورية لسنة ١٢٨٨ / ١٨٧١ ـ ٧٢

حول « البنية الاقتصادية التحتية » للمدن الفلسطينية .

	الدكاكين	المخازن	الخانات	المطاحن	الافران	المصابن	معاصر الزيت
القدس	٩١٠	١٤١	٢	١٤	٢٢	٢٠	٩
الخليل	٢٥٠		٤		١٨	١	
يافا	٣٣٢	١٨٨	٦	٣	١٠	١١	٧
الرملة	٩٦		١	١	٨	٧	٧
اللد	١٠٦		١		٦	١٠	١٦
غزة	٧٨٥	٣٥	٦	١	٩	٦	١٩
نابلس	٤٥٠		٤	٢٠			
جنين	٤			٢	١		
الناصرة	١٧٦		٢	١٠	٤		
حيفا	١٦٠	٧٠		٦	٥		
عكا	٤٩١	١٨٥	٥	٧	٣		
صفد	٢٢٧			١٥			٤
طبريا	١٣٠				٨		

والمجموعة الثالثة والأخيرة التي سننظر فيها هي مراكز سكان المدن والاقتصاد المحلي والتجارة نابلس والخليل وغزة وهي المدن التي غسلها الطوفان الأوروبي، شأنها في ذلك شأن عكا، ولكنه لم يكتسحها كما اكتسح مدن المجموعة الأولى. بيد أنه على نقيض المجموعة الثانية يلاحظ هنا اتجاه صاعدٌ واضح. ومن المناسب تماماً أن نبدأ بالقدس.

لم يكن للقدس في هذه العقود التي ندرسها بالنسبة للاقتصاد الفلسطيني أهمية كبيرة لا كموقع تجاري ولا كمركز للانتاج الحرفي. فقد كانت المدينة تعيش في المقام الأول من أو من أجل «الأماكن المقدسة» للمسلمين والمسيحيين واليهود، ومن المؤسسات التي قامت أو انشئت بسبب هذه الأماكن، ومن الحجاج والزوار الذين كانوا يقصدونها.

إن تيار الحجاج والسياح و«الباحثين بشؤون فلسطين» وأخيراً المستعمرين قد قوي باستمرار منذ نهاية حرب القرم. وكانت الاتحادات الطائفية، التي أسست في العديد من البلدان الأوروبية، تنظم أفواجاً للحجاج تتمتع بالرعاية الروحية (من مرسيليا منذ ١٨٥٣ ومن تريستا منذ ١٨٥٥)[٢٤٧]. ومنذ السبعينات بدأت المؤسسات السياحية تهتم باولئك المسافرين الذين لا يرغبون في السفر وحدهم إلى فلسطين ولا يرغبون أيضاً في الانضمام إلى قطعات جيش «الحملة الصليبية السلمية».

ولما كان الحجاج ينزلون كلهم تقريباً في الأديرة أو في الأنزال (جمع نُزُل «الهوسبيسات») التي كانت ترعاها المؤسسات الدينية وتمسك دفاتر في هذا الشأن، فقد وصلت إلينا أرقام دقيقة لسنوات منفردة أو لمؤسسات: ففي حين زار الأرض المقدسة سنة ١٨٤٥ زهاء ٥٠٠٠ حاج ارتفع عدد الحجاج في شهر شباط سنة ١٨٥٨ إلى ٩٨٥٤ حاجاً، وفي آذار من السنة نفسها إلى ١٣٤٧٥ حاجاً.[٢٤٨].

وسجل الفرنسيسيون (الفرانسسكان) في السنوات العشر من ١٨٥٠ إلى ١٨٥٩ في منازلهم في فلسطين ٥٥٧٦٣ حاجاً (سنة ١٨٥٠: ٣٦١١ وسنة ١٨٥٩: ٧١١٦) ويبلغ مجموع ليالي المبيت ٢٢٩٣٤٦ ليلة[٢٤٩].. وفي السبعينات كان على القدس أن تتدبر في

---

(٢٤٧) Sepp, Bd, I, SXXV. Titus Toblers dritte Wanderung, 361.

(٢٤٨) Sepp, Bd, I, S.XXV. Titus Toblers dritte Wanderung, 369.
وانظر ايضاً:
MAE-CPC Jér, t.5. (Jerusalem, 14.4.1857); MAE–CPC Jér., t.8 (Jerusalem, 1.5.1864); PRO–F.O. 78, Vol 1383 (Jerusalem, 13.4.1858); PRO–F.O. 78, vol. 1448 (Jerusalem, 27.41859); HHSTA – Archiv Jer., Fasz. 47 (Jerusalem, 11.5.1865).

(٢٤٩) Pierotti, Jerusalem Explored, I, 275.

«الموسم» كل عام أمر عدد من الحجاج يتراوح ما بين ١٠,٠٠٠ و٢٠,٠٠٠ حاج[٢٥٠].

بيد أنه لا يجوز لنا أن نفترض أن الحجاج من حيث هم كانوا منذئذ عاملا اقتصادياً مهمًا يمكن مقارنته بسيّاح هذه الأيام. فالأغلبية العظمى منهم كانوا من المسيحيين الأوروبيين الشرقيين، ومن مسيحيي المشرق، وأكبر فصائلهم كانت من الحجاج الروس الذين يمكن أن يوصفوا بأي شيء اللهم إلا باليسار[٢٥١]. إن أفواج الحجاج لم تكن إلا شكلا خاصاً من أشكال التعبير عن «الحملة الصليبية السلمية»، عن «امتلاك» القدس من الأرثوذكس والكاثوليك والبروتستنت من غرب أوروبا وشرقها، لكن الامتلاك الحقيقي حدث خصوصاً منذ بداية السبعينات من اليهود الذين جاءوا إلى القدس ليبقوا هناك أيضاً.

ولا تتوافر لنا احصاءات يركن إليها عن عدد الأوروبيين الذين حلوا بفلسطين بعد حرب القرم زيادة عن الذين كانوا فيها من قبل من المقيمين في الأديرة وعن القلّة من المبشرين والتجار وموظفي القنصليات، ممن لم يصبحوا من رعايا السلطان. لقد تحدثت صحيفة **La Terre Sainte** ذات مرة عن ٤٠,٠٠٠ شخص ثم عن ٣٠,٠٠٠ للفترة الواقعة بين منتصف الخمسينات ومنتصف الستينات[٢٥٢] وحدّد نويمان Neumann (سنة ١٨٧٧) العدد بالنسبة للقدس بـ ٥٠٠٠ من الأجانب والأشخاص المتمتعين بالحماية[٢٥٣]، وكان الأخيرون من اليهود طبعاً في المقام الأول. ووفق المصادر النمساوية كان في القدس سنة ١٨٥٦ حوالي ١٨٠٠ شخص من النمساويين والأشخاص المتمتعين بالحماية النمساوية، وكان في صفد وطبريا من هؤلاء في سنة ١٨٥٨ من ٤٠٠ إلى ٥٠٠ أسرة، كلها تقريباً من اليهود. ووفقاً لاحصاء يرجع إلى سنة ١٨٧٧ كان في القدس والخليل ويافا في ذلك الوقت ما مجموعه ١٤١٦ من الرعايا النمساويين ـ الهنغاريين؛ أكثريتهم الساحقة من اليهود[٢٥٤] وحددت القنصلية الألمانية عدد «المتمتعين بالحماية الألمانية فعلاً» على الوجه التالي:

---

(٢٥٠) **Die Warte**, 13.6.1872, 22.5.1873. **Neumann, Die Heilige Stadt**, 216; HL, XXIV (1880), 201. ويرودنا لونتش Luncz (ص ١٣٨ ـ ١٤١) بلمحة جزئية ولكن مفصلة عن الحجاج الذين حلوا في مختلف اديرة القدس وأنزالها وفنادقها في موسم سنة ١٨٧٠ ـ ١٨٨٠.

(٢٥١) حول الحجاج الروس انظر هوبورد Hopwood في مواضع متفرقة، خصوصاً ص ١٠٣ و١١٦، الحاشية ٥.

(٢٥٢) TS, 1875/6/7/8, 240–242, 830 f

(٢٥٣) **Neumann, Die Heilige Stadt**, 217. وكان القنصل البريطاني قد تحدث في بداية ١٨٧٤ عن ٣٠٠٠ من الاجانب والاشخاص المتمتعين بالحماية في مدينة القدس:
PRO–F.O. 195, vol 1047 (Jerusalem, 21.2.1874).

(٢٥٤) HHSTA – Archiv Jer., Fasz. 38 (Jerusalem, 30.9 1856), HHSTA – AR. F8/19 (Beirut, 28.2.1858); HHSTA – Archiv Jaffa, Fasz. 6 (Jerusalem, 26.9.1877).

في نهاية ١٨٦٨ : ٢٣١ ؛ في نهاية ١٨٧٣ : ١٣٦٢ ؛ في نهاية ١٨٧٤ : ١٥٥٤ ؛ ١٨٧٧ : ١٤٩٥ . وفي سنة ١٨٨٢ كان عدد رعايا الرايخ الألماني في دائرة اختصاص قنصليتي القدس ويافا ٥٨٧ ، وعدد أولئك الذين كانوا «رعايا في الواقع ـ de facto » ٣٧٥[٢٥٥] .

وقد لعب الأوروبيون والمتمتعون بحمايتهم ، جنباً إلى جنب مع الرعايا العثمانيين غير الفلسطينيين (اليونانيون واليهود واللبنانيون والأرمن الخ) الذين استقروا مثلهم في فلسطين ، دوراً يتراوح بين الدور المهم والدور الحاسم في مجال البنوك والاقراض ، وفي تجارة الاستيراد والتصدير ، وكملتزمين للضرائب وسماسرة عقارات وأخيراً كملاكي أراضي كبار . وقد غير هؤلاء اقتصاد القدس (ومنطقة حدود المدينة) في الدرجة الأولى عن طريق النشاط العمراني الذي أطلقوه من عقاله ، والعدد الكبير من مؤسسات الحرف ومؤسسات الخدمات التي أنشأوها ، وكذلك عن طريق الواردات من أوروبا التي تسببوا فيها .

ولا داعي هنا لأن نلخّص تاريخ البناء في القدس بعد حرب القرم . فهناك دراسات بين أيدينا في هذا الشأن[٢٥٦] . بيد أنّه علينا أن نشير إلى تلك الطفرة الضخمة في اقتصاد البناء التي أحدثها بناء تلك الشواهد الحجرية لهذا الشكل الخاص من أشكال التغلغل الأوروبي ، وخصوصاً في القدس وبيت لحم والناصرة ويافا وحيفا .

في أواسط القرن التاسع عشر كان سور المدينة ما يزال يشكل حدود مدينة القدس . وبداخل هذا المسطح كانت ما تزال هناك مساحات خالية من الأرض تستغل للزراعة ، وتلال من الأنقاض ، ودور نصف متهدّمة غير مسكونة . وفي الأربعينات أنشأ البروتستانت الإنجليز والألمان أول مبانٍ جديدة داخل السور ، ومن بينها كنيسة المسيح – Christ Church – التي دشّنت سنة ١٨٤٩ . وفي أثناء حرب القرم جرؤوا على القيام بأولى الخطوات العمرانية في الضواحي المحيطة بالمدينة مباشرة . على أن الازدهار الحقيقي للبناء بدأ في سنة ١٨٥٦ . وفي السنوات العشر التالية تم تنفيذ ٢٤ مشروعاً عمرانياً كبيراً داخل أسوار المدينة وخارجها ، وكذلك بُنيَ المجمّع الروسي (المسكوبيّة ـ المترجم) ،

---

(٢٥٥) ISA – DKJ, A.XXXIX. 2 (Jerusalem, 14.7.1875); ISA–DKJ, A.XXXIX.3. (Jerusalem, 20.3.1877); **Deutsches Handelsarchiv**, 1883,II,416.

(٢٥٦) Ben–Arieh, «The Growth of Jerusalem», und Ben-Arieh, «Patterns of Christian Activity»; . ولكن قارن ايضاً Wolff, **Sieben Artikel**, 51–54, 93–100; Wolff, **Flugblätter**, 20–27; Wolff, **Jerusalem**; Wolff, «Zur neueren Geschichte Jerusalems», Schick, «Die Baugeschichte der Stadt Jerusalem»; Bauer, **Volksleben**, 329–342 (Jerusalem im 19. Jahrhundert;) ؛ سركيس ، ١٩٥ـ١٩٨ ؛ العارف ، المفصل ، ٣٠٣ وما بعدها .

الذي حطّم بضخامته كل المقاييس السابقة، في منطقة الميدان التي كانت تستخدم لتدريب الحامية العثمانية غربي المدينة، وهو المجمع الذي قال عنه المؤلف Wolff في استهانة بأنه «يبدو للغرباء من بعيد كأنه محطة مركزية للقطارات». [٢٥٧] لكن إقامة المباني الجديدة للكنائس والأديرة والانزال (الهوسبيسات) والمدارس والمستشفيات والفنادق والقنصليات وتغييرها وتوسيعها استمرت فيها بعد دون نقصان. ومنذ نهاية الستينات حدث اندفاع في بناء دور سكن جديدة أو زيادة طوابق على الدور القائمة داخل المدينة وكذلك في إنشاء المستعمرات السكنية اليهودية في خارجها. وقد انشئت لهذا الغرض في الستينات جمعيات يهودية عديدة لبناء المساكن، وهي جمعيات أقامت - كما أحسَّ مراقب معاصر - صفوفاً من البيوت الموحدة الشكل أو مربعات «شبيهة بالمعسكرات»، لكي تزود اليهود المتدفقين إلى البلاد بسقوف فوق رؤوسهم[٢٥٨]. وفي شمال المدينة بدأت العائلات الاسلامية المرموقة أيضاً ومنذ السبعينات ببناء دور سكن «عصرية»[٢٥٩].

وبالنسبة للقدس والأماكن المجاورة لها، كان هذا الازدهار العمراني عاملاً اقتصادياً لا يمكن التقليل من شأنه. لقد انهالت الأموال، بكثرتها الساحقة، من أوروبا على البلاد، وأفاد السكان المحليون بشكل متزايد من الإنفاق على أثمان المواد والأجور. وراجت أشغال الكلّاسين (صناع الجير) والحجارين رواجاً شديداً ومستديماً. «وفي كل يوم كانت تتحرك قوافل كاملة من الجمال، وهي محملة بالحبوب والخشب أو الكلس أو الحجارة، إلى القدس[٢٦٠]».

وكان الأمر يقتضي في البداية جَلْبَ البنائين ودقاقي الحجارة من خارج فلسطين، كما حدث عند بناء كنيسة المسيح مثلا عندما جلب هؤلاء من مالطة. ولكن ما إن بدأ رواج البناء في أوائل الستينات، حتى أصبح في الإمكان تغطية الحاجة إلى القوى الفنية محلياً[٢٦١]، لكن ليس من القدس نفسها. ففي بيت لحم وبيت جالا والناصرة بشكل خاص نشأ تخصص حرفي لتلبية متطلبات مهنة البناء، خاصة وأن العاملين في مهنة البناء كانوا يتقاضون أجوراً جيدة. فعند بناء [بيت الحجاج والفقراء الاسرائيليين في صهيون] الذي

(٢٥٧) Wolff, «Zur neueren Geschichle Jerusalems» 7.

(٢٥٨) HL, XX (1876), 83f; Neil, **Palestine Re-Peopled**, 28–31; Luncz, 192; Schick, «Die Baugeschichte», 268.

(٢٥٩) Kark / Landmann, 119 ff.

(٢٦٠) Gatt, **Beschreibung über Jerusalem**, 304.

(٢٦١) **Titus Toblers dritte Wanderung**, 112, Klein, "Mittheilungen 1880", 108; Schick, "Die Baugeschichte", 267; Hanauer, 125f.

جرى تحت الاشراف النمساوي كانت تدفع على سبيل المثال الأجور التالية:[٢٦٢].

الجدول ٣٥. الاجور اليومية
في مهنة البناء في القدس ١٨٦١ ـ ١٨٦٣

	البناؤون	الحجّارون	العمـال
تشرين الأوّل	٢٤ قرشاً	١١ ـ ١٦ قرشاً	٢ ـ ٥ قروش
أيار ١٩٦٢	٢٥ قرشاً	١٣ قرشاً	٣ ـ ٦ قروش
آب ١٨٦٣	٢٨ قرشاً	١٨ قرشاً	$\frac{1}{2}$ ٣ ـ ٦ قروش

المصدر: انظر الحاشية ٢٦٢.

وعند بناء النزل النمساوي (هوسبيس النمسا) جنّد للعمل يومياً مدة شهور ٢٠٠ شخص و٥٠ دابّة نقل وبضع عربات نقل جُلبت خصيصاً من الاسكندرية[٢٦٣].

إن أهـالي بيت لحم قبل سواهم هم الذين بنوا القدس الجديدة. ومن بين ٧٩٢ شخصاً من عمال بيت لحم اليدويين وتجارها ومتعهديها الصغار الذين كانوا يعملون لحسابهم الخاص أحصي في بداية التسعينات ٣٠ بناءً و٢٥٠ دقاقاً للحجارة (دقيقة) و٥٠ حجاراً و٦ ملّاطين (قصيّرة) و٤٠ جمّالاً لنقل الجير والحجارة والبضائع، أي أن النصف تقريباً كانوا يعملون في مهنة البناء (انظر الجدول ٤٢). أما في القدس نفسها فلم يكن هناك من جهة أخرى سوى ثمانية دقاقين وبنائينْ اثنين، ومعلّميْ بناء محليّين، ومهندسَينْ اوروبيّين، وسبعة متعهدين من اليهود (انظر الجدول ٣٧).

ومن المـواد التي كان ينبغي استيرادهـا بشكل خاص خشب البناء (انظر الجدول ٣٣)[٢٦٤] والقـرميد المثنّي (من مرسليليا)[٢٦٥]. بل إنـه دخـل البـلاد نمط جديد من البناء الأوروبي بعد تعبيد الطريق من يافا إلى القدس في نهاية السبعينات بصورة تيسّر معها نقل

(٢٦٢) يجد المرء كشف الحسابات الكامل الخاص ببناء هذا المشروع في:
HHSTA – ArchivJer., n 16 (Dossier, «Neweh Scholom, Israelitische Pilger und Armenhaus a auf Zion»).

(٢٦٣) Die Warte, 29.1.1857, 29.10.1857; Finn, Stirring Times, II, 385.

(٢٦٤) حول انتعاش تجارة الخشب قارن: Die, Warte, 2.4.1874.

(٢٦٥) تحدث لونتش (Luncz, 1951) سنة ١٨٨١ عن يهودي عاد من فينا بعد أن تعلّم هناك انتاج قرميد الاسطحة. وقد منحه صندوق مونتفيوري التقديري (Montefiore Testimonial Fund) قرضاً لإنشاء معمل لهذا الغرض.

مواد البناء هذه بالعربات دون صعوبات بالغة: فمنذ سنة ١٨٨٠ أصبحت جدران المباني الجديدة التي تقام خارج المدينة أقل سمكاً وصارت الغرف تغطى بأعمدة خشبية وبأرضيات من الخشب، ثم بأعمدة حديدية وبلاط حجري، وصار خشب الأسطحة يُلبَّس بالقرميد[٢٦٦]. وأخذت تقوم في غرب المدينة وشرقها بشكل خاص مدينة أوروبية ظريفة جنباً إلى جنب مع القدس الشرقية.

ولما انتهت مهمة سور المدينة أخذت أبواب المدينة منذ السبعينات تبقى مفتوحة ليلا، ولم تعد تغلق وقت صلاة الظهر عند المسلمين.

وقد سار التطور السكاني في القدس حسب ما يقوله بن اريه Ben Arieh على الوجه التالي:

الجدول ٣٦ : تطور سكان القدس بين سنتي ١٨٤٠ و١٨٩٠

السنة	المسلمون	المسيحيون	اليهود	المجموع
١٨٤٠	٤٦٥٠	٣٣٥٠	٥٠٠٠	١٣٠٠٠
١٨٥٠	٥٣٥٠	٣٦٥٠	٦٠٠٠	١٥٠٠٠
١٨٦٠	٦٠٠٠	٤٠٠٠	٨٠٠٠	١٨٠٠٠
١٨٧٠	٦٥٠٠	٤٥٠٠	١١٠٠٠	٢٢٠٠٠
١٨٨٠	٨٠٠٠	٦٠٠٠	١٧٠٠٠	٣١٠٠٠
١٨٩٠	٩٠٠٠	٨٠٠٠	٢٥٠٠٠	٤٢٠٠٠★

المصدر: Ben–Arieh, "The Growth of Jerusalem, 262

وهكذا كانت القدس بلا شك مدينة نابضة بالحياة أخذ وجهها يتغير بسرعة، ولكنها لم تكن مدينة نشيطة من الوجهة الاقتصادية، فهي لم تكن ذات أهمية بالنسبة لسوق أكبر لا في مجال انتاج السلع ولا في مجال توزيعها. بل إن المدينة كانت تزود بالبضائع التي كان يشكل بيعها واعدادها ـ إضافة إلى عدة خدمات أخرى ـ النشاط الرئيسي لسكانها. ويتضح

---

(٢٦٦) Schick, «Die Baugeschichte», 270f.

★ ليس هذا مكان مناقشة هذه الارقام، خاصة فيما يتعلق بعدد السكان اليهود الذي يبدو أن بن أريه قد بالغ فيه جداً ـ المترجم.

هذا من الجدول (٣٧) الذي وضع بناء على المعطيات المفصَّلة، ولكن غير الموحدة وغير المنتظمة، التي جاء بها لونتش[٢٦٧] حول المهن والأشغال التي كان يزاولها أهل القدس سنة ١٨٧٧.

إلا أن المعطيات المستعملة في الجدول ٣٧ ليست بمعطيات تامة وموثوقة نوعاً ما إلا بالنسبة لسكان المدينة اليهود.[٢٦٨] وأما بالنسبة للمسلمين والمسيحيين فتظهر فيها فجوات واضحة في مجال الخدمات، وكذلك في مجال الأعمال اليدوية: لقد أحصى لونتش ما مجموعه ٢١٩٠ شخصاً ممن يمارسون الحرف والخدمات (دون العرفاء والاجراء)، فكان هناك ٦٣١ من اليهود السافرديين (السفارديم)، و ٧٩٤ من الاشكناز و٣٨٢ من المسلمين و ٣٨٣ من المسيحيين (بينهم ٨١ أوروبياً). ونشر وارن سنة ١٨٧٦ احصاء مماثلا (الجدول ٣٨) لاحصاء لونتش؛ ولكنه لم يذكر مع الأسف السنة التي أجري فيها الإحصاء. ومع ذلك فقد يكون احصاؤه قد أجري في نهاية الستينات أو في النصف الأول من السبعينات. فقد أحصى في ١٣٢٠ محلا تجارياً ما مجموعه ١٩٣٢ تاجراً وحرفياً من الذكور البالغين، ومنهم حوالي ٥٠٠ من اليهود، و٦٠٠ من المسيحيين و٨٣٠ من المسلمين (الأرقام في الجدول الذي وضعه لا تصحّ تماماً من الوجهة الحسابية). ومن الواضح أنه لم يسجل العاملين اليهود إلا تسجيلاً ناقصاً تماماً، لكنه سجّل المسلمين والمسيحيين بصورة أتم مما فعله لونتش. ووفق احصاء وارن كان هنالك بين المسلمين على سبيل المثال ٢٠٦ أشخاص من البقالين وصغار التجار و١١ تاجراً من تجار الحبوب و٥٢ فراناً و٣٣ لحاماً و٢٤ طحّاناً للبن، و١٨ طحّاناً و٢٧ صباغاً، و٥١ حذّاءً (كندرجياً)، و ٥٠ صبّاناً و٢٩ منتجاً للسيرج و٢٩ صانعاً للحلويّات و٣٧ حمامياً و ٦٦ صانعاً للنعوش. وبين المسيحيين ٧٧ بقّالاً وتاجراً صغيراً، و٢٢ بائع خبز، و٤٧ تاجر خمر و٢٨ خياطاً و٩٦ حذّاءً و٢٦ صبّاناً، و٨٣ حدّاداً من جميع الأنواع و٢٣ نجاراً و٣٥ حلاقاً.

---

(٢٦٧) Luncz, 33–60. : قارن الوصف غير الاحصائي للمهن في المدينة في اواسط القرن، الوارد في : Tobler, Denkblätter 228–276.

(٢٦٨) قارن ايضاً المسح الدقيق لهيكل المهن عند اليهود في القدس، ممن كانوا ينتمون إلى رابطة الرعايا النمساويين - المنغاريين (١٢٠٧ اشخاص) في : HHSTA – Archiv Jaffa, Fasz. 6 (Jerusalem, 26.9.1877).

الجدول ٣٧
هيكل المهن والاشغال لسكان القدس في سنة ١٨٧٧

المهنة	اليهود السفارد	اليهود الاشكناز	المسلمون	المسيحيون المحليون	المسيحيون الاوروبيون
بقالون			٤١	٤٨	
عطارون	٤٩	٤٧			
تجار خضار	٥		٣٩	١١	
تجار دجاج وبيض	٧				
بائعو حليب		١٦			
تجار طحين		٢٠			
تجار حبوب		٧			
تجار خمور	٥	٢١			
باعة لحوم	١٧	١٠	١٧		١
فرانون[أ] ١٢ (٢٣)	٢٣	٦	٦	٢	
طحانون	١ (٣)	١٢ (١٨)	٢	٤	
صانعو حلويات			٨		
محمصون/طحانون وبرغل	٢	٩	٦	١	
تجار تبغ	٤	١٠	٣٦	٣٨	
صانعو تبغ	١			٦	
أصحاب معاصر السيرج			٧		
صبّانون				٢	
تجار المنسوجات	٥٨	٣			
تجار الملابس			٥٤		
تجار لوازم الخياطة	١٨	٩	٨		
تجار الفرش والوسائد وعُدّد الخيل	٦	٢	٧	٧	
تجار الفحم[ب]	٦	٢	٨		
تجار الجلود ومصدروها		٩			
الباعة المتجولون وباعة الأشياء القديمة	٢٦	٤			
تجار الكتب	٣	٤			١

(أ) العرفاء والاجراء بين قوسين .

(ب) المقصود هو الفحم النباتي .

تابع الجدول ٣٧
هيكل المهن والاشغال لسكان القدس في سنة ١٨٧٧

المهنة	اليهود السفارد	اليهود الاشكناز	المسلمون	المسيحيون المحليون	المسيحيون الاوروبيون
تجار القطن	٢		٢		
تجار الحديد		١			
تجار الزجاج المزخرف(جـ)			٤		
تجار إلشموع				٦	
تجار المصنوعات الصوفية				٨	
تجار الجملة				٢	٥
خياطون	٢٧	٤٦ (٨)		٨	٤
صانعو الأحذية والاسكافية	٤٨	٤٥ (١٧)	٢١	٥٤	٢
صانعو القبعات ومرقعوها	٣	٣			١
فراؤون		٥			
منجدون	٨				
نجارون وخراطون	٣	٧٧ (٥٣)		١٢	٤
سمكرية	٢١	١١		٢	
صانعو أقفــال	٢				
صانعو علب	١			٢	
حدادون .		٦		٦	٢
صاغــة	٩	١٤ (٤)		١٤	
نحاسون	٤	٣		١٠	
نقاشون		٦			
صانعو فخار (فواخيرية)		٢			
زجّـاجون		٥			
صانعو مرايا		١			
مجلدو كتب	٣	١١ (٤)			
صافّو حروف	٤	١٢			
طابعون		١٠			
صباغون		٣	١١		
نساجون		٢			

(جـ) وخصوصاً الأواني الزجاجية المصنوعة في الخليل .

تابع الجدول ٣٧
هيكل المهن والاشغال لسكان القدس في سنة ١٨٧٧

المهنة	اليهود السفارد	اليهود الاشكناز	المسلمون	المسيحيون المحليون	المسيحيون الاوروبيون
سرّاجون (سروجية)		١			١
صانعو مظلات (شماسي)		٤			
صانعو غلايين			٢		
مرقعو خراطيم			٤		
صانعو مكانس	١				
الصفّارون (صانعو النحاس)	٣	٢			
دَهّانون		٢			
مورقو (مبطنو) الجدران		٢			
طراشون (طرّيشه)	٥	١٠			
نقاشو حجارة	١	٣		٤	
بناؤون	١				١
معلمو بناء/معماريون			٢		٢
متعهدو بناء		٧			
ساعاتية		١١ (٣)			
عمال ماكنات خياطة		٥			
مصورون				٢	
صيادلة		١٢		٥	٤
حلاقون	٣	٨	٩	١٤	
دلالون	٣		٣		
سماسرة		١٠			
تراجمة	٣	٢			
كتبة	١٠	٢٢	١٠		
صرافون	٢٤	٣			
رجال بنوك	٢	٢			٢
أصحاب مقاهي	٢		٢٣	٦	
أصحاب مطاعم وخانات	١٣		١٧	٢١	
أصحاب فنادق					٣
خدم بيوت	١٢	٦			
عمال يوميون ومستخدمون		١٥٧			

تابع الجدول ٣٧
هيكل المهن والاشغال لسكان القدس في سنة ١٨٧٧

المهنة	اليهود السفارد	اليهود الاشكناز	المسلمون	المسيحيون المحليون	المسيحيون الاوروبيون
حمالون (عتالة)	٥١	٦			
سقاؤون	٦				
كناسو طرق	٥				
بغّالون وحوذيّة	٥				
موسيقيون (آلاتية)	٣				
مستخدمو الطائفة اليهودية[د]	٨٨	٢٥٥			
حاخامون	٢٩٠				
شحاذون	١٢٠	٢٥			

المصدر : Luncz, 33 – 60.

الجدول ٣٨
المهن في القدس

(Warren, Underground Jerusalem, 491 f)

المهنـــــــــة	يهود	مسلمون	روم	لاتين	برونستانت	أرمن	المجموع
فرانون	١٠	٥٢	١٥	—	—	—	٧٧
مصرفيون	٤	—	—	—	٢	—	٦
حلاقون	٩	١٢	٥	٢٢	—	٨	٥٦
حاميون	—	٢٢	—	—	—	—	٢٢
وقادون	—	١٥	—	—	—	—	١٥
تجار بطانيات	٢	١	—	—	—	—	٣
مجلدو كتب	٦	١	—	—	—	—	٧
مكتبات عادية	١	—	—	—	—	١	٢
مدارس ذكور	—	—	—	—	—	—	—

(د) ومن بينهم ١٧ بائع لحم من اليهود السفارديين .

تابع الجدول ٣٨

المهنـــــــة	يهود	مسلمون	روم	لاتين	بروتستانت	أرمن	المجموع
تجار خبز	—	٢	١٠	١٢	—	—	٢٤
لحامون	٧	٢٩	—	—	—	—	٣٦
أصحاب مقاصف	—	٢	—	—	—	—	٢
نجارون	١١	٢	١٢	١٠	١	—	٣٦
تجار لحم نباتي	٩	١	١	—	—	—	١١
تجار دجاج	٦	٢	١	—	١	—	١٠
تجار خزف صيني	٦	—	٣	—	—	—	٩
فحّامون (صانعو فحم)	—	—	٢	—	—	—	٢
تجار فحم (؟)	—	٧	١	—	—	—	٨
طحانو بُن	٥	٢٤	١	—	—	—	٣٠
صانعو نعوش (حانوتيون)	٦٦	٨	٩	—	—	٣	٨٦
طهاة	—	١	٤	—	—	—	٥
تجار حبوب	—	١١	—	—	—	—	١١
تجار قطن	—	٢	١	—	—	—	٣
رجال جمارك	١	٩	١	١	—	٢	١٤
صيادلة	٥	—	—	٣	—	—	٨
صباغون	١	٢٧	—	—	—	—	٢٨
بياطرة	١	—	٣	—	—	٢	٦
طحانون	٣	١٨	—	—	—	—	٢١
أصحاب دكاكين عمومية	٦٩	٥٣	٨	٥	٧	١	١٤٣
مدارس إناث	—	—	—	—	—	—	—
تجار زجاج	٢	١٦	١	—	—	—	١٩
تجار خضروات	١٧	٦٧	٣	—	١	—	١٩
بقّالون	٥١	٨٦	٢٨	١٣	٧	٤	١٨٩
صناع أسلحة	—	—	٣	—	—	—	٣
أصحاب خانات (خانيون)	—	٥	—	—	—	—	٥
صانعو قِرَب	—	٦	—	—	—	—	٦
تجار عدس	—	١	—	—	—	—	١
تجار كلس	—	—	١	—	—	—	١
أصحاب منازل مفروشة	—	٨	٨	—	—	—	١٦
باعة طعام	٣	—	—	—	—	—	٣

تابع الجدول ٣٨

المهنـــــة	يهود	مسلمون	روم	لاتين	بروتستانت	أرمن	المجموع
قصّابون	—	٤	—	—	—	—	٤
شواؤون	—	٥	—	—	—	—	٥
أصحاب مطاحن	١	—	٩	—	—	—	١٠
صرّافون	١٧	—	—	٣	—	٢	٢٢
صانعو أحواض	—	١	—	—	—	—	١
تجار ملابس قديمة	٥	٢	—	—	—	—	٧
تجار مواقد	—	٣	—	—	—	—	٣
باعة متجولون	٢	٥	٣	—	—	—	١٠
مصورون	—	—	٣	—	١	—	٤
صانعو غلايين	٣	—	—	—	—	—	٣
رجال شرطة	—	٢٢	—	—	—	—	٢٢
موظفو بريد	—	—	—	—	١	—	١
باعة فخار	—	١١	—	—	—	—	١١
سراجون (سروجية)	—	٧	—	—	—	—	٧
حذاؤون (صانعو أحذية)	٨٣	٥١	٤١	٢٢	٦	٢٧	٢٣٠
تجار حرير	١٩	—	—	—	—	١	٢٠
عصارو سمسم	—	٢٩	٣	—	—	—	٣٢
باعة جلود	—	٢	—	—	—	—	٢
حدادون	٧	—	٣	١٨	—	—	٢٨
صاغة	١٥	—	٣	—	—	—	٣٢
سمكرية	٣٤	—	٢	—	—	—	٣٦
مبيضون	٢	١٠	١٦	—	—	٢	٣٠
باعة مقصّات الفتائل	٣	—	١	—	—	—	٣
باعة السعوط	—	٣	—	—	—	—	٣
صبّانون	—	٥٠	٢٤	—	٢	—	٧٦
باعة صابون	—	١	٧	—	—	—	٨
أصحاب اسطبلات	—	١٣	٦	—	—	١	٢٠
نقاشون	٢	—	—	—	—	—	٢
باعة أنابيب الفخار	—	—	٢	٤	—	—	٦
تجار حجارة	—	—	٦	—	—	—	٦
باعة سكّر	٩	—	١	—	—	—	١٠

تابع الجدول ٣٨

المهنـــــــة	يهود	مسلمون	روم	لاتين	بروتستانت	أرمن	المجموع
صانعو حلويات	—	٢٩	٣	—	—	—	٣٢
خياطون	٣٤	—	١٠	١٠	٢	٦	٦٢
عمال تلغراف	١	—	—	—	—	٢	٣
باعة تبغ	٥	١٤	١٦	—	١	١	٣٧
بائعو مزهريات	١	—	—	—	—	—	١
ساعاتية	١٩	—	—	—	٢	٢	٢٣
باعة شمع	١	—	٩	—	—	—	١٠
أصحاب مخازن القمح	—	—	—	٣	—	—	٣
تجار خمور	١١	—	٤٣	٢	—	٢	٥٨
تجار خشب	٣	—	٣	—	—	—	٦
تجار صوف	—	٨	—	—	—	—	٨
كتاب رسائل (عرضحالجية)	—	٧	—	—	—	—	٧
المجموع	٥٠٣	٨٢٨	٣٦٠	١٤٦	٣٤	٧١	١٩٣٢

واذا دققنا النظر في المعطيات التي أوردها لونتس فنجد أن حصتي التجار والحرفيين عنـد السـافـرديين والمسيحيين كانتا متعادلتين نوعاً ما بينما كان يطغى عدد الحرفيين عند الاشكناز وعدد التجار عند المسلمين. وكان الاشكناز والمسيحيون يمارسون، بالمقارنة مع السـافرديين والمسلمين، الأعمال الأكثر عصرية والأكثر تعقيداً. وكان القطاع الحرفي هو السائد بوجه الاجمال عند الاشكناز حيث لوحظت زيادة في العرض في هذا المجال.

على أن العمـــل اليدوي ما كان يعيش على أرض من ذهب إلا نادراً، لأن زيادة العرض هذه جعلت الأجور منخفضة أو جعلت المكاسب ضئيلة[٢٦٩]. وبين الحرفيين اليهود على الأقـل لم تُصب النجاح إلا فئة قليلة، وحتى الحرفيين الاشكناز المؤهلين نسبياً وجد بعضهم نفسه عاجزاً عن إعالة عائلته، فهاجر إلى مصر ليزاول حرفته هناك[٢٧٠].

وبالمقارنة كان وضع التجار اليهود أفضل[٢٧١]. وقد كتب لونتش عن اليهود السفارديين يقـــول :

(٢٦٩) Gatt, **Beschreibung über Jerusalem**, 303–305.

(٢٧٠) Luncz, 84. : قارن ايضاً : Neumann, **Die Heilige Stadt**, 377

(٢٧١) انظر ايضاً : HHSTA – PA XXXVIII, Kart, 242 (Jerusalem 23.7.1882).

وبما أنهم يعرفون لغة البلاد وعاداتها، فان تجارة المنسوجات كلها تقريباً في أيديهم. وهم يجلبون بضاعتهم في الغالب من القسطنطينية والاسكندرية وبيروت وبعض الثغور التركية الأخرى. ولا يستطيع أن يزاحمهم إلا القليل من المنشآت التجارية الأوروبية وبعض التجار المسلمين الذين يتاجرون بالأقمشة المرغوبة لدى أهل البلاد. وبالمثل فان تجارة الصيرفة كلها تقريباً بأيديهم، وهي ليست بالتجارة التي لا شأن لها في هذه البلاد، لأن السياح يأتون اليها بعملات جميع الأمم. . . أما الباقون فيتاجرون غالباً بمنتجات البلاد. ويقوم أغنى الأغنياء منهم بتسليف الفلاحين النقود ليتسلموا منهم مقابل ذلك غلة الحصاد عند أوانها. ويقوم آخرون بتوريدات للحكومة[٢٧٢].

وفيما يتعلق بالتجار الاشكناز قال هذا المصدر:

إنهم يتاجرون بشكل عام بلوازم الحياة اليومية التي يشترونها في الأكثر من هنا، وقليلون منهم يجلبون بضائعهم من بيروت والقسطنطينية. وعدد أقل من هؤلاء يستوردون بضائع من فرنسا أو النمسا ويصدرون بعض المواد إلى هذه البلدان الأوروبية. . . والأشخاص الذين ينتمون إلى هذه الطبقة كلهم في وضع اقتصادي جيد[٢٧٣].

لكن تجارة الاستيراد (من اوروبا) كانت في الدرجة الأولى بأيدي قلة من الأوروبيين والمسيحيين المحليين. ولم يكن هناك في القدس تجارة جملة محلية حقيقية. وكان من طبيعة الأشياء أن جزءاً هاماً ـ وهو مع توسع القدس أصبح جزءاً متزايداً ـ من مجموع واردات يافا كانت وجهته «المدينة المقدسة». بيد أن المعطيات التي تحت أيدينا، خصوصاً بالنسبة للسبعينات، لا تمكننا من وضع جدول خاص بذلك، لأن هذه المعطيات غير دقيقة وغير موحدة إلى حدٍ بعيد[٢٧٤].

وبغض النظر عن أنّ منتجات بيت لحم والخليل، وكذلك المواد التي كانت تنتج داخل أسوار القدس نفسها، وخصوصاً الصابون، كان يشتريها السياح في القدس، فقد كان الهم الأول للتجارة المحلية والاقليمية أيضاً هو تموين المدينة. كانت القدس تحصل على

(٢٧٢) Luncz, 40 f.

(٢٧٣) المصدر نفسه، ٥٢.

(٢٧٤) قارن تقارير القنصل البريطاني في:
PP– 1874, vol. LXVI (Jerusalem, 12,9.1873); PP– 1874, vol LXVII (Jerusalem, February 1874); PP– 1880, vol. LXXIV (Jerusalem, March 1880).
وكذلك الجداول التي وضعتها مؤسستا دوزبرج Duisberg وبيرجهايم للقنصل الألماني في
ISA– DKJ, A.XXXIX.2 (Jerusalem, 11.1.1875, 2.4.1875, 19.1.1876) ISA–DKJ, A.XXXIX. 3 (Jerusalem, 13.2.1877, 18.1.1878).

الخضـار والدجاج والبيض والحليب والسمسم والتبغ والخشب الخ من القرى المجاورة: الخشب من منطقة الخليل في الدرجة الأولى؛ والفواكه من بساتين يافا؛ والملح وكربونات الصوديوم والزفت (الاسفلت) من البحر الميت؛ والمعاطف البسيطة المصنوعة من صوف الغنم وشعر الجمال من بيت لحم مثلا، والمعاطف الصوفيّة الأجود نوعاً من دمشق وبغداد؛ والأقمشة الحريرية من دمشق وحلب، وأما الحبوب ومواشي الذبح وصوف الغنم فكانت تأتي في المقام الأول من الجانب الآخر من نهر الأردن، وكثيراً ما كان الغنم يأتي من أمكنة أبعد[٢٧٥].

وكـان الشريك التجـاري الرئيسي للقدس (وكذلك لنابلس) في شرق الأردن هو السلط[٢٧٦]. ومن الواضح أن البضائع كانت تشترى مباشرة من هناك. ويعطي بالدنشبيرجر Baldensperger تقريراً مفصلا عن قافلة اجتمعت في السلط لشراء القمح انضم هو اليها في آب ١٨٥٨[٢٧٧]. وحتى بعد ازدهار انتاج الحبوب في السهل الساحلي لم تبق القدس النامية بسرعة سوقاً مهمّة للأغنام حسب بل وللحبوب الآتية من شرق الأردن أيضاً[٢٧٨]. بل انه أخذت تسير على النهر شماليّ البحر الميت معدّيةٌ منذ بداية السبعينات تحسيناً للاتصال بين ضفتي الأردن؛ «قارب كبير ذو قعر مستو يقطع مسافة لا يتجاوز طولها لو قيست بالحبل من الشاطىء إلى الشاطىء عبر هذه النقطة الستين ياردة[٢٧٩]». وكان الطريق المباشر من نابلس إلى السلط يمر عبر مخاضة دامية. والجسر الوحيد على نهر الأردن جنوبي بحيرة طبريا كان جسر المجامع. كما كان جنوبي بحيرة الحولة جسر بنات يعقوب[٢٨٠].

(٢٧٥) Tobler, **Denkblätter**, 151–153; Rogers, **La Vie Domestique**, Kap II; PRO–F.O. 78, vol. 1294 (Jerusalem 24.11.1857); HL, XI (1867), 89; Finn, **Byeways**, 41, 45 f; Zwiedinek, 52; Neumann, **Die Heilige Stadt**, 223; Gatt, **Beschreibung uber Jerusalem**, 303; Tristram, **Pathways**, I, 116; «The Belka Arabs», 173;
وصف بازارات القدس في Ebers / Guthe, I, 34–42.

(٢٧٦) حول اهمية السلط كمركز تجاري في شرق الاردن قارن:
Tristram, **The Land of Israel**, 141, 544, Hergt, 152–157; Oliphant, **The Land of Gilead**, 200–205; NNM, 23 (1879), 160f.
وكذلك الكرك كانت ذات اهمية بالنسبة لتجارة شرق الاردن، خاصة مع القدس والخليل
قارن: Hergt, 184–192.

(٢٧٧) Baldensperger – Tagebuch, 9–16.8.1858 وانظر ايضاً: Graul, 224

(٢٧٨) Klein, "Mittheilungen 1881", 78; **Die Warte**, 9.8. 1877.

(٢٧٩) Tristram, **The Land of Moab**, 360 f.; Merrill, 220.

(٢٨٠) Lynch, 115f, 157; Thomon, **The Land and the Book**, 260, 393; Tristram, **The Land, of Israel**, 444, 446; Tristram, **Pathways**, II, 64.

وكان الانتاج الحرفي في القدس متواضعاً للغاية. صحيح أن الصابون كان يصنع هنا أيضاً (كما كان يصنع في نابلس ويافا والرملة واللد وغزة)، ولكن يبدو أن انتاج الصابون قد تراجع في الفترة التي نقوم بدراستها. وفي سنة ١٨٤٧ كان هناك عشر مصابن في القدس[٢٨١]. وفي ذلك الوقت (١٨٤٦) كان جميع انتاج الزيتون في بيت جالا، حسب وصف اليزابيث فن، مرهوناً عند بعض وجهاء القدس، وهي تسمي ستة أسماء، من بينهم سليمان العسلي وموسى العسلي وعبدالله الخالدي[٢٨٢]. وتتحدث المؤلفة أيضاً عن وجيه أراد أن يؤجر بيتاً لمدة ١٥ سنة، ويقبض مجموع الايجار (٤٥٠٠٠ قرش) مقدماً، لأنه كان يحتاج إلى رأس مال لاقامة مصنع صابون[٢٨٣].

وحسب ما يقول نويمان كان ما يزال في القدس تسع أو عشر مصابن في منتصف القرن الماضي تنتج كل سنة من الصابون ما تبلغ قيمة نصف مليون قرش. وكانت تباع هذه بكميات كبيرة في عيد الفصح بوجه خاص. واتخذت قطع الصابون «عادة شكل القُرص أو نصف الكرة، وكان يرسم على سطحها غالباً الهلال أو جبل الزيتون أو قبة راحيل؛ وكان يمزج الصنف الأجود منها بالمسك والعنبر.»[٢٨٤] أي أن الصابون اتخذ طابع التحف التذكارية أيضاً. ولكن من المشكوك فيه أن هذه المصانع كانت كلها تشتغل[٢٨٥]. وعلى أية حال فان غات Gatt الذي عاش في فلسطين سنوات كثيرة والذي تبدو معطياته دقيقة وموثوقة كتب في الوقت نفسه (١٨٧٧) أن إنتاج الصابون في القدس قد تراجع تراجعاً شديداً وأن بعض المعامل أصبحت خالية الآن[٢٨٦] وطبقاً لقول وارن كان هناك سبعة معامل صابون بلغ العدد الاجمالي للمستخدمين فيها ٦٧ شخصاً، خمسة منها في أيدي المسلمين واثنان في أيدي المسيحيين[٢٨٧] وتتفق مع هذا أيضاً معطيات القنصل البريطاني التي صدّرت القدس من

---

(٢٨١) MAE – CCCJef., t.2 (Jerusalem 1.7.1847); والرقم نفسه في فرانكل: Frankl, II, 146.

(٢٨٢) ...... انظر. Finn, Home in the Holy Land, 350–353.

(٢٨٣) المصدر نفسه، ٩٣ وقد تحدث زوجها في تقرير قنصلي عن تاجر صابون غني في المدينة كان مرتبطاً عن طريق الزواج بعشيرة سمحان من عشائر جبل القدس:
PRO–F.O. 78, vol 1032, (Jerusalem, 24.11.1854).

(٢٨٤) Neumann, Die Heilige Stadt, 222.

(٢٨٥) ومما يشكك في صحة قول نويمان أن النبذة المعنية تذكرنا بقوة بفقرة وردت في روبنسون. (Biblical Researches, I, 428).

(٢٨٦) Gatt, Beschreibung über Jerusalem, 302.

(٢٨٧) Warren, Underground Jerusalem, 501. وبناءً على هذا فإن عدد معامل الصابون في القدس ويافا، كما ورد في الجدول ٣٤، يبدو مبالغاً فيه. وربما كان هذا الاحصاء يشمل المصابن الخالية.

الصابون بموجبها سنة ١٨٧٤ ما قيمته ٦٠٠٠ جنيه استرليني، لكن التصدير نقص إلى ١٥٠٠ جنيه استرليني فقط سنة ١٨٧٩[٢٨٨].

على أنه ازدادت مقابل ذلك بصورة مضطردة أهمية سلعة أخرى من سلع التصدير في المدينة في السبعينات، ألا وهي الأدوات الخاصّة بالتعبّد من كل الأشكال والأنواع (كانت قيمة الصادرات سنة ١٨٧٤ ٣٣٠٠ جنيه استرليني، ووصلت سنة ١٨٧٧ إلى ١١,٠٠٠ ج. س[٢٨٩]). ومع ذلك فان جزءاً ضئيلا من هذه الأدوات كان يُصنع في المدينة نفسها. فأكثريتها الساحقة كانت تأتي من بيت لحم. وكما كانت الحال مع زجاج الخليل لم تكن القدس سوى مكان للبيع.

وفي السبعينات كان إنتاج السيرج لأغراض الطعام يحظى بشيء من الأهمية (يذكر الجدول (٣٧) سبعة من أصحاب المعاصر المسلمين، ويتحدث نويمان عن ١٥ معصرة[٢٩٠]، كما يذكر وارن «الجدول ٣٨» أن ٣٢ شخصاً كانوا يعملون في هذا الفرع) وذلك لأن زيت الزيتون أصبح أغلى وأندر.

وقد حل الكاز (البترول) المستورد من الولايات المتحدة محل زيت الزيتون كوقود في المدن في الدرجة الأولى بل وعند الفلاحين أيضاً (قارن الجدول ٣٣)[٢٩١]. وفي الأربعينات وبداية الخمسينات بدا أن صناعة الحرير أرادت أن تثبّت قدمها في القدس. ومن الواضح أنه انشئت بمبادرة لبنانية مزارع كبيرة لأشجار التوت قرب القدس، وفي الدرجة الأولى قرب يافا[٢٩٢]. وقد ذكر أحد المعارف المحليين للمصرفي المقدسي بيرجهايم، وكان يسكن الرملة، أنـه كان يملك ١٤٠٠٠ شجرة توت؛ وكان يبحث سنة ١٨٥٠ عن شريك لتربية دودة القز[٢٩٣]. وكان المحصول الخام يشحن بادىء ذي بدء إلى بيروت ودمشق لتصنيعه، غير أنه اقيم في سنـة ١٨٥٤ معمـل للغـزْل قرب القدس: «ان معمل الغزل... هو مؤسسة

---

(٢٨٨) PP – 1875, vol. LXXVI (Jerusalem, February, 1875); PP – 1880,vol. LXXIV (Jerusalem, March, 1880.)

(٢٨٩) قارن تقارير المؤسسات التجارية في ISA – DKJ, A.XXXIX.2 (Jerusalem 11.1.1876) . وايضاً: A.XXXIX.3 (Jerusalem 13.2.1877, 18.1.1878); . وقارن ايضاً التقارير الانجليزية الواردة في الحاشية ٢٨٨.

(٢٩٠) Neumann, Die Heilige Stadt, 222.

(٢٩١) "Klein, Mittheilungen 1881",82.

(٢٩٢) Lynch, 289; Die Warte, 29.12.1853; Finn, Stirring Times, I, 391; Thomson, The Land and the Book, 515, 524; Tolkowsky, 160.

(٢٩٣) Baldensprenger – Tagebuch, 30.9.1850. قارن ايضاً: Die Warte, 29.12.1853.

ضخمة، وهو يدار من سكان البلاد[٢٩٤]». بيد أن مؤلف تقرير فرنسي رسمي كان قد قوّم هذه الصناعة خالجه الشك في إمكان حشد طاقة كافية لتنمية هذا الفرع من الانتاج. وفي واقع الأمر انتهت الجهود التي بذلت لادخال تربية دودة القزّ وصناعة الحرير في بداية الستينات. والأسباب غير معروفة. وقد عزا أحد المؤلفين أسباب ذلك إلى أحد الأوبئة وإلى المناخ غير المناسب[٢٩٥]. ولعله لم يتوافر أيضاً اهتمام كاف بذلك في القدس، في حين أن الطاقات في يافا انهمكت منذ منتصف الخمسينات في إنتاج الحبوب والقطن والبرتقال.

يافا وارتباطها بالقدس

إن يافا، بوصفها الثغر الوحيد في جنوبي فلسطين، وبوصفها ميناء القدس بشكل خاص، كانت إلى جانب القدس نفسها أكثر الأماكن عرضةً للإصابة في الهجمة الأوروبية على «الأرض المقدسة». وقد كانت يافا وظلت في الفترة التي ندرسها أهم مكان للتجارة الخارجية ولنزول الحجاج والسياح. ولهذا فإن تطوير هذه المدينة نال اهتماماً خاصاً لدى جميع الأوروبيين الذين رددوا بعد حرب القرم ثلاث مرات نغمة متصلة مفعمة بالشكوى من عدم وجود ميناء حقيقي فيها ومن أسوار المدينة وأبوابها التي كانت تعرقل التوسع ومن عدم توافر مواصلات مرضية بينها وبين القدس. وصحيح أنه تم في العقود التالية تعبيد طريق إلى القدس وأنه انشئت مواصلات منتظمة بالعربات في منتصف السبعينات وأن أسوار المدينة كان عليها أن تتنحّى جانباً أمام تطور المدينة، ومع ذلك فما من مشروع من المشروعات العديدة الخاصة بالميناء وسكة الحديد قدر له أن يرى النور حتى سنة ١٨٨٢[٢٩٦]. (الخط الحديدي بين يافا والقدس بدأ تشغيله في سنة ١٨٩٢). هذه النقاط نود أن نناقشها الآن بشكل أوفى.

---

(٢٩٤) Gaudry, 295. تحدث القنصل الفرنسي في القدس في تقرير مؤرخ في ١٨٤٧/٧/١ عن بعض الاوروبين الذين كانوا يعملون في تربية دودة القز MAE – CCC Jef. t. 2.

(٢٩٥) Anderlind, «Die Fruchtbäume», 83.

(٢٩٦) إلى جانب ذلك كان هنالك مشروع آخر شغل الاوروبيين خلال الفترة التي ندرسها هنا بكاملها، وناقشوه مناقشة حامية انقسموا فيها بين مؤيد ومعارض، الا وهو وصل البحر المتوسط والبحر الاحمر بقناة تمتد من حيفا إلى نهر الاردن واغراق الغور والبحر الميت أو «ملؤهما» بالماء، وبقناة أخرى عبر وادي عربة إلى العقبة. وبذلك ينشأ بحر داخلي في فلسطين، وتغرق طبريا وعدة قرى في مرج ابن عامر والغور تحت الماء، وتصبح القدس كانها ثغر من الثغور. ولحسن الحظ فإن هذا المشروع لم يؤخذ مأخذ الجد. قارن بهذا الشأن:
Saulcy, «Note sur le Projet»; Thomson, The Land and the Book, 478; Sepp, I, 653f.; Hornung; Neil, Palestine
=

إن نقـل البضائع والأشخاص بالسفن إلى يافا ومنها[٢٩٧] كان كل مرة، اذا تمّ على الإطلاق، مغامرة من المغامرات: فأمام المدينة كانت ترتفع في الماء شعاب صخرية في اتجاه الشمال الشرقي. وكان أكبر شِعْب منها يشكل حاجزاً طبيعياً لكسر الأمواج طوله ٣٠٠ متر. وكان هناك ممرّ ضيق عند رأس الحاجز الشمالي يشكل المدخل إلى «ميناء» يافا، وهو مدخل لا يمكن أن يُبحر فيه، نظراً لضحالة الماء، إلا القوارب الشراعية الصغيرة والزوارق. وكان على جميع السفن الأكبر أن تلقى مراسيها وهي على بعد نصف ميل على الأقل من الأحواض الصخرية. وعند هياج البحر لم تكن السفن تستطيع أن تفرغ حمولتها أو تأخذها، بل كان عليها أن تواصل سفرها بخفي حنين. وحتى عند مجرد حدوث حركة في البحر كان الأمر يقتضي بذل جهود شاقة من الزوارق المجهزة بثمانية مجدّفين إلى اثني عشر مجذّفاً، والتي كانت تعنى بحركة المرور بين السفن في مراسيها والمرفأ، كيلا تضل طريقها في الدخول، وكي تتفادى التحطم على الشعاب الصخرية. وعلى هذا فإن تاريخ مرفأ يافا كان تاريخ كوارث صغـيرة وكبـيرة. وعلى سبيل المثال فقد غرق في شهر أيار سنة ١٨٧٣ ثمانية حجاج عند عبورهم إلى السفينة البخارية؛ وفي سنة ١٨٧٥ غرقت قرب يافا ثماني سفن عند جنوحها في البحر[٢٩٨].

يضاف إلى ذلك عدم وجود جسور للنزول إلى الشاطىء ومسطحات لخزن البضائع يمكن أن تدخلهـا العـربات. وعند انخفاض مستوى الماء كان لا بد من حمل البضائع

= **Re-Peopled**, 121f.; Thomson, **Southern Palestine**, 296; TS, 1875/7/8, 448–450; TS, 1882/3/4, 841f.; Burton, «The Proposed Jordan Canal», Schick, «Der Jordan–Canal» NNM, 28 (1884), 40–48; Conder, **Heth and Moab**, 417, 420; Conder, **Palestine**, 77; Oliphant, **Haifa**, 261–265, Verney / Dambmann, 452f.

كرد علي، ج٥، ١٦٣ وما بعدها.

وقد حاولت الحكومة الاسرائيلية في بداية الثمانينات أن تحقق «الحلم» القديم بحفر قناة بين البحر المتوسط والبحر الميت. وبشأن النقاش حول هذا الموضوع قارن:

Paul Hirschhorn: «Dead Sea Canal; A Viable Plan?», in. **Israel Economist**, 36 (1980), 19–21; **Le Monde**, 29.8.1980, 7, Dan Darin «The Mediterranean to Dead Sea Channel», In: **New Outlook**, January 1981; **DIE ZEIT**, 19.6.1981, 22 («Ein Traum wird verwirklicht»).

حركة التحرير الوطني الفلسطيني (ناشر): **المشروع الصهيوني التوسعي لربط البحر المتوسط بالميت**، دون مكان، سنة ١٩٨١؛ سمير ايوب: قناة البحرين المتوسط والميت في «صامد الاقتصادي»، رقم ٣٥ (١٩٨١)؛ سمير جبور وبولا البطل ورنده حيدر، **قناة البحرين المتوسط والميت**، بيروت ١٩٨١.

(٢٩٧) قارن بشكل خاص HHSTA – Archiv Jaffa, Fasz. 5 (Quadro statistico del distretto di Jaffa, 27.8.1872); Thomson, **The Land and the Book**, 515f.; Guérin, **Description**, I, 2f.; Schwarz, 44f.; Bömches, 42–46 (mit Skizze); Ebers/Guthe, II, 147–149; Pierotti, **La Bible et la Palestine**, 97,99; Verney / Dambmann, 351–357. وايضاً كرد علي، ٢٥، ١٦٥ وما بعدها.

(٢٩٨) ISA – DKJ, A.XXXIX 1(Jaffa, 30.6.1873), A.XXXIX. 2(Jaffa, 31.12.1875).

والأشخـاص على ظهـور الحمّالين من الزوارق إلى البر. وكانت البضائع تحمل إلى مخزن الجمرك الضيّق للغاية، حيث كانت تكدس في البداية، على الأقل في السبعينات. «إن دار الجمرك هي كوخ حقير من ألواح الخشب. . . ومخزن الجمرك هو قبو رطب معتم في الطابق السفلي لدير رومي وله فتحة نافذة واحدة.[٢٩٩]» وكان مدخل المدينة شأنه شأن الرصيف الضيّق مسدوداً في «أيام السفن» بقطع العفش وصناديق البرتقال وبراميل الزيت وأكياس الحبوب الخ.

ومع النمو السريع في شحن البضائع وتفريغها في الستينات والسبعينات، وكذلك في حركة سفر الأشخاص (قارن الجدول ٣٩) التي قدرت في بداية السبعينات بثمانين ألف مسافر[٣٠٠] كان لا بدّ للدعوة إلى بناء منشآت الميناء أن تشتد باستمرار. وفي سنة ١٨٦٤ أقامت شركة فرنسية منارة بالفعل، وقامت السلطات العثمانية بتحسينات في المرفأ[٣٠١]. بيد أن هذه الاجراءات لم تعد كافية. لكن الحكومات العثمانية لم تكن تفكر قبل نهاية السبعينات

الجدول ٣٧

عدد السفن القادمة إلى يافا ١٨٥٦ – ١٨٨٢

(بين قوسين الحمولة بالاطنان)

السنة	السفن الشراعية	السفن البخارية	السفن الساحلية
١٨٥٦	٣٩ (٦١١٠)	٧٢ (٣٣٦٠٠)	٩٧ (٥١٣٥)
١٨٥٧	٤٩ (١٣٠٣١)		١٦١ (٣٥٣٤٤)
١٨٥٨	٣٤ (٩٣٤٦)		٣٢٦ (٦٢٠٨٦)
١٨٥٩	١٤ (٢٤٧٧)	١٤٤	٤٣١ (١١١١٩٢)
١٨٦٠	٢١ (٤١١١)	١٤٤	٢٠٠ (١٥٠٠٠)
١٨٦٢	١٧٦ (١٣٥٥٥)	١٤٣ (٥٩٥٠٠)	
١٨٧٣	٢٢ (٣٧٩٩)	١٧١ (١٠٤٧٦٦)	١٠٣٤ (٢٩٩٤٥)
١٨٧٤	٣١ (٤٤٥١)	١٨٤ (١٦٤٧٠٠)	١٢٩٣ (١٥٩٩٧)
١٨٧٥	٧٦ (١٨٥٧٤)	١٦٨ (١٤٩٤٢٢)	١٢١٥ (٢٣٨١٢)
١٨٧٦	٣٢ (٥٩٤٢)	١٦٩ (١٧٠٢٧٢)	١٤٥٠ (٢٥٤٦٠)
١٨٧٧	٢٨ (٥٧٢٩)	١٣٣ (١٥٠٨٠٠)	١٢٠٠ (٢١٧٥٠)
١٨٧٩	٥٨ (٧٥٤٩)	١٨٤ (١٨٨٠١٦)	٧٥٣ (١٨٢٧٢)
١٨٨٠	٣٠ (٣٣٨٦)	٢٤٩ (٢١١٠٢٩)	٩٤١ (٢٩٥٥٤)
١٨٨١	٢٢ (٤١٢٠)	٢٢٧ (١٩٥٧٩٨)	٨٤٦ (٢٥٢١٧)
١٨٨٢	٢٣ (٣٧١٣)	٢٤٢ (٢٨٨٤٩١)	٤٣٦ (١٣٥٨٩)

المصادر

PRO–F.O 78,vols. 1221, 1296, 1367, 1440, 1537; PP – 1863, vol LXX; 1864, vol LXI; 1874, vol LXVII; 1875, vol LXXVII; 1876, vol. LXXV; 1877, vol. LXXXVI; 1878, vol LXXIV; 1880, vol LXXIV; 1881, vol. LXC; 1882, LXXI; 1883, vol. LXXII

(٢٩٩) Schwarz, 45.

(٣٠٠) Bómsches, 44; Lochnis, Die Wichtigsten Ergebnisse, 240.

(٣٠١) PP – 1864, vol. LXI (Jaffa, May 1864); PRo–F.O. 78, vol. 1834 (9.11.1864); Die Warte, 23.3,1865.

بوضع خطط تنمية لولاياتها. ومع ذلك فإن تقرير حسن فهمي المعروف، المؤرخ في سنة ١٨٨٠، والذي طالب رأس المال الأوروبي بالاشتراك على نطاق واسع في استغلال البنية التحتية لتركيا وبلاد الهلال الخصيب، قد تضمن بالفعل مشروع بناء حاجز لكسر الأمواج في يافا. وخصص لذلك مبلغ ١٧٤٨٨٨ ليرة تركية من أصل ٥٢٤٦٣٦٠٢ ليرة تركية، هي مجموع النفقات التي كانت تتوخاها «الخطة»[٣٠٢].

وعندما نسأل: لماذا لم يجد مشروع واحدٌ من مشروعات الميناء وسكة الحديد الكثيرة طريقه إلى التنفيذ قبل سنة ١٨٨٢، على الرغم من أن امتيازات عديدة كانت تمنح في القسطنطينية، فان أسباب ذلك كانت على نوعين. فمن جهة لم تكن الحكومات العثمانية تتبع سياسة مستقلة خاصة بالاقتصاد والبنية التحتية تستحق هذا الاسم. وفضلا عن ذلك فلم يكن لديها سبب لتشجيع الوصول إلى القدس في قرن «الحملة الصليبية السلمية» هذا بالذات من بين سائر القرون، فهي بذلك لن تكون قد فعلت شيئاً اللهم إلا تسهيل سبل التغلغل الأوروبي. ومن جهة أخرى كانت هذه المشاريع تتطلب بالطبع رؤوس أموال. والمستثمرون الأوروبيون المحتملون لم يكونوا يسألون في الدرجة الأولى عما إذا كانوا سيسهلون سفر الحجاج أو سيسدون خدمة الى المسيحية. بل انهم كانوا يسألون عن الربح. وعندما اجريت حسابات الجدوى لم تبدُ النتائج مشجعة. وهكذا اجتمع على سبيل المثال عدد من تجار يافا، الذين نفد صبرهم لأن بناء الميناء لم يتحرك إلى الأمام، وأسسوا شركة منهم وبدأوا في شهر تشرين الثاني ١٨٧٥ باستخدام سفينة قَطْر بخارية صغيرة (Re-morqueur) اشتريت من مرسيليا للسير بين المرفأ ومكان رسو السفن. على أن الاستثمار لم يدرّ ربحاً، وما لبثت الشركة أن حلت نفسها وباعت السفينة[٣٠٣]

وفي آب سنة ١٨٧٨ حصلت شركة فرنسية على امتياز بناء ميناء في يافا. وفي أيلول سنة ١٨٨٠ توجه دي سوسي Die Saulcey، رئيس الهيئة التأسيسية، إلى غرفة التجارة في مرسيليا ساعياً إلى كسب تأييدها. وكان من الصعوبة بمكان، ان لم يكن من المستحيل، جمع الخمسة عشر مليوناً من الفرنكات اللازمة للمشروع من الأموال الخاصة، دون مساعدة

---

(٣٠٢) Rapport Adresse a S.A. le Premier Ministre, 51.
بشأن السياق قارن: Schölch, «Wirtschaftliche Durchdringung», خصوصاً الصفحتين ٤٣٧ و٤٤٣ وما تلاهما.

(٣٠٣) Die Warte, 8.4.1875 und 21.10.1875; HL, XX (1876), 81; ISA-DKJK, A XXXIX 2 (Jaffa, 31.12.1875) und A. XXXIX.3 (Jaffa, 31.12.1876); PP–1876 vol. LXXV (Jaffa, February 1876); PP–1878, vol. LXXIV (Jafia, May 1878).

مباشرة من الدولة. ولذلك فان الجمعية أرادت أن تعرض على الحكومة الفرنسية إقامة قاعدة بحرية: «إن بحرية الدولة ينبغي أن يوضع تحت تصرفها مكان يخصص لسفنها، وكذلك ساحة واسعة لخزن الوقود وقطع الغيار، وينبغي أن يتمتع العلم الفرنسي بالمثل بتخفيض في تعرفة الميناء، على الوجه الذي تحدّده مراسيم الامتيان»[٣٠٤]. وأرادت غرفة تجارة مارسيليا أن تعضد هذا المشروع «المفيد»[٣٠٥]. ولا يستطيع المرء أن يتهم الحكومة العثمانية لأنها لم تكن متحمّسة لمشروع من هذا النوع.

وحتى منذ بداية الستينات بدأت الجهود لبناء طريق إلى القدس. ويبدو أن أول امتياز بهذا الشأن ناله الكونت بيتسا مانو Pizzamano القنصل النمساوي في القدس (١٨٤٧ - ١٨٦١). وقد حاول أن يكسب مونتفيوري لمشروعه، بيد أن ذلك لم يتحقق[٣٠٦]. وبينما كان الطامحون في نيل الامتياز من الأوروبيين يتنافسون فيما بينهم بلا نتيجة، بدأت السلطات العثمانية في تعبيد الطريق بنفسها في سنة ١٨٦٧. عن طريق أعمال السخرة وتحت اشراف المهندس الايطالي بيروتي Pierotti، وفتح الطريق للسير سنة ١٨٦٨[٣٠٧] وحتى منذ الخمسينات تمت اقامة مبان مجمعة على أبعاد منتظمة لحماية المسافرين على الطريق إلى القدس. ومن الواضح أن هذه المراكز العسكرية التي كانت تتألف من «عدد من الأبراج المطلية باللون الأسود ذات الكوى (الطلاّقيات) الضيقة، والمحاطة بالشرفات المسننة»[٣٠٨] كانت تجدد بين وقت وآخر في نطاق التحسينات التي كانت تجري على الطريق. ويقول يوسف الخالدي، رئيس بلدية القدس، في سيرته الذاتية إنه قامت حتى خدمة للعربات على هذا الطريق طوال ثلاثة أشهر، ولكنه اضطر بعدئذ، بناء على إلحاح المتصرف الجديد

---

(٣٠٤) Archives de la Chambre de Commerce, Marseille: Dossier Jaffa, An XII– 1880 (رسالة دي سومي المؤرخة في ١٨٨٠/٩/٣).

(٣٠٥) Chambre de Commerce de Marseille, Compte-Rendu des Travaux pendant L'Année 199, 58–61.

(٣٠٦) PRO-F O. 78, vol 1521 (Jerusalem, 5.1.1860); «Die Eisenbahn nach Jerusalem», HL,IX (1865), 48; Loewe, II, 110.

(٣٠٧) MAE-CPC Jér., t 9 (Jerusalem, 8.10., 22.10. und 22.11.1867); PRO-F.O. 78, vol. 1991 (Jerusalem, 28 11.1867); PP – 8, vol, LXVIII (Jerusalem, January 1868); Wolff, «Zur neueren Geschichte Jerusalems», 5f.

(٣٠٨) Wolff, «Zur neueren Geschichte Jerusalems»,.
قارن ايضاً:
PRO – F.O. 78, vol. 1449 (Jaffa 15.9.1859); Die Warte, 10.5.1860; ISA–DKJ, A III. 4 (Jerusalem, 24.10.1861); HL, VIII (1864), 150

كامل باشا (منذ خريف ١٨٦٩)، إلى بيع العربات ودواب الجرّ مرة أخرى[٣٠٩]. ومعنى هذا أن الهيكليين لم يكونوا هم أول من أدخل خدمة للعربات، كما كانوا يزعمون دائماً! ونحن نسمع أيضاً عن استخدام عربة على هذا الطريق من جانب الكونت كابوغا Caboga ، القنصل النمساوي في القدس (١٨٧٦ - ١٨٨٢)، وكذلك عن خدمة للعربات أدخلها أميركيّ كان يقيم في يافا.

ومع هذا فإن الهيكليين قد أسسوا سنة ١٨٧٥ أول شركة نقل لتسيير رحلات يومية منتظمة، بناء على اقتراح المتصرف، وبعد تحسين الطريق في سنة ١٨٧٤ . وسرعان ما لقي متعهدو السّفر السوابيون مزاحمة من العرب واليهود. وفضلا عن ذلك فسرعان ما اقتضت حالة الطريق السيئة وقف الخدمة المنتظمة مرة أخرى. وبعد التحسينات التي كانت تجرى على الطريق كل مرة قبل «زيارات الشخصيات الرفيعة»، تمّ توسيع الطريق عدة مرات باشراف معلمي بناء ألمان مختلفين (١٨٧٦ - ١٨٧٩)، كما جرى وضع علامات جديدة على أجزاء منها. وقد حاولت الآن ثلاث مجموعات الحصول على امتياز نقل رسمي: الهيكليون، ومجموعة بيروتية ومجموعة فرنسية. وبمساعدة يوسف الخالدي حصل الهيكليون وحدهم على عقد (١٨٧٩). لكن العرب واليهود كانوا يتولون النقل على الطريق إلى جانب هؤلاء. وبعد تعمير الطريق مرة أخرى سنة ١٨٨١ أخذت تسير عليها بانتظام سنة ١٨٨٢ حوالي ثلاثين إلى أربعين عربة. على أن الهيكليين اضطروا فيما بعد إلى ترك الميدان لمزاحميهم العرب واليهود الذين كانوا أرخص منهم[٣١٠].

لقد أشار الهيكليون باستمرار إلى عرباتهم باعتبارها أدلة ظاهرة للعيان على «رسالتهم التمدينية» في فلسطين، متجاهلين في هذا السياق المبادرات التي قام بها يوسف الخالدي من قبل. ولذلك فلا بد أن تقال كلمة عن الروح التي كانوا ينفذون بها «رسالتهم»: في النصف

---

(٣٠٩) الخالدي، صورة مسوّدة.
هذا العرض للموضوع يجد تأكيداً له في مصادر اخرى. انظر **HHSTA - Archiv Jaffa, Fasz. 5(Quadro Statistico del distretto di Jaffa, 27.8.1872.** وبموجب هذا المصدر استمرت خدمة العربات حتى اكثر من سنة!)؛ – **HHSTA Archiv Jer., Fasz 54 (Bericht über Produktion und Kommunikationen anlässlich der Wiener Weltausstellung);** قارن ايضاً **Ebers / Guthe, II, 164** وكذلك جهود يوسف الخالدي التالية لادخال خدمة عربات في: **Die Warte, 18.9.1879, 18.12.1879**

(٣١٠) Wolff, **Sieben Artikel**, 108, **Die Warte**, 5.2., 16.4., 19.5. und 12.11.1874; 3.6., 17.6., 21.10.1875; 13.4, 25.5.1876; 21.11.1878; 17.4., 18.9., 13.11, 18.12.1879; 12.2., 13.5.1880; 21.4., 1.9., 8.9.1881; ISA-DKJ, A.XXXIX.2 (Jaffa, 30.6.1875, Jerusalem, 3.5.1876); ISA-DKJ, A.XXXIX.3 (Jaffa, 31.3.1876); MAE-CPC Jér., t. 14 (Jerusalem, 24.10.1879); **An Open Letter Addressed to Sir Moses Montefiore**, 65; Paulus, 40; Wolff, «Zur neueren Geschichte Jerusalems», 6; Bauer, **Volksleben**, 334; Carmel, **Die Siedlungen**, 39f und 43f.

الأول من السبعينـات نشـأت بينهم وبـين السلطات المحلية في يافا خصومات لأن هذه السلطات لم تشـاطـرهـم وجهـة النظر القائلة بأنه سيكون من مصلحة الجمهور لو تنقّل الهيكليون في عرباتهم عبر طرق يافا الضيقة والمليئة بالناس نزولا إلى الميناء. وبالنسبة لرئيس الهيكليين هوفـمان كان التشخيص والعلاج الضروري واضحين. فقد كتب إلى القنصل الألماني في القدس يقول: «إنها ببساطة مقاومة الهمجية ضد تقدم الثقافة. ولذلك فلا بد أن الجأ إلى قوة الرايخ الألماني»[٣١١]. وبعد وساطة القنصل تمَّ الوصول إلى حلٍ وسط في شهر تشرين الثاني ١٨٧٤، سمح بموجبه للهيكليين بأن يمروا عبر الطريق الرئيسي طوال ثلاث ساعات يومياً إلى أن يتم مدّ طريق إلى المرفأ حول المدينة.

إن أول مشروع بوشر به بصفة جدية لربط يافا بالقدس بسكة حديدية، بعد نهاية حربِ القـرم رأساً، كان يتصل اتصالا مباشراً بالمشروع البريطاني لتسيير قطار من البحر المتوسط عبر سوريا ووادي الفرات إلى الخليج الفارسي[٣١٢]. وأخيراً أسست سنة ١٨٦٢ شركة خاصة لمد سكة حديد يافا ـ القدس برز بين مديريها لورد دفرين Dufferin والجنرال شزْني Chesney وسيريل جراهام Cyril Graham [٣١٣]. غير أن الحكومة العثمانية رفضت منح الامتياز[٣١٤]. وكان الخبراء الإنجليز في شؤون تركيا قد نصحوا بالفعل من قبل بعدم متابعة المشروع. وأبدى لورد سترانفورد دي ردكلف Stratford de Redcliffe شكه في جدوى الخطّ من الناحية المالية، وأشار آرثر سلايد Arthur Slade، الأميرال في خدمة الحكومة العثمانية، إلى أن خطاً كهذا لن يكون في مصلحة الإنجليز ولا مصلحة العثمانيين: «سيكون هناك تكرار للحروب الصليبية بصورة ملطفة، وستلي ذلك مطالبات بحقوق خارج نطاق الحدود الاقليمية. وسيكون الحجاج بصفة رئيسية، كما هم الآن، من أتباع كنيسة روما الكاثوليكية والكنائس الشرقية، مع رُشاشة من اليهود. أما البروتستانت فسيكونون من القلة بحيث لا يكون لهم تأثير في الرأي المطروح حول هذا الموضوع»[٣١٥].

---

(٣١١) ISA – DKJ, A.XXXVI.1 (Jaffa, 25.7.1874). قارن بالنسبة لهذه المجادلات ايضاً:
ISA DKJ, A XXXIX.1 (Jaffa, 29.6.1872) وكذلك: A. XXXVI.1 (Jaffa 28.7.1874, Jerusalem, 30.7.1874, 23.11.1874).

(٣١٢) قارن: Chesney; Elath, 415–422.

(٣١٣) حسب قول ايلات (Elath, 420) كان مونتفيوري رئيساً لهذه الشركة. إلا أنه طبقاً ليوميات مونتفيوري فإن اسمه ادرج خطأً بين اسماء المدراء المذكورين في دليل الشركة Loewe, II, 133f

(٣١٤) حول الموقف الرافض لمسلمي فلسطين قارن:
PRO – F O. 78,vol. 1294 (Jerusalem, 1.1.1857);
PRO – F.O. 78,vol. 1383 (Jerusalem, 9 10 1858);
PRO – F.O. 78,vol. 1692 (Jaffa, 25.8 1862);
قارن ايضاً Die Warte, 15.10.1857, 29.10.1857; Finn, Stirrıng Times, II, 191.

(٣١٥) القول المقتبس وارد في: Elath, 421

والمصير نفسه ألــمّ سنة ١٨٦٤ بمشروع مهندس السكة الحديديـــة و «الألفي» [Millenarier] النمساوي تسمبل Zimpel [٣١٦]. لقد نشأت شكوك حول الجدوى المالية لهذا المشروع ولذلك لم تكن هناك آفاق لجمع رأس المال اللازم له، هذا من جهة ومن جهة أخرى وقف انعدام الرغبة لدى العثمانيين فيه حائلا دونه. وفي القسطنطينية أفهم مؤسس الشركة بأن الباب العالي يرغب في مد طريق بين يافا والقدس على حسابه الخاص. وقد وضـع تسمبـل على لسـان الصـدر الأعـظم فؤاد باشـا القول التالي: «لن أوافق مطلقاً للمسيحيين المجانين على أي تسهيل للطرق في فلسطين، لأنهم بذلك سيحوّلون القدس كلها إلى مستشفى مسيحي للمجاذيب» [٣١٧]. إنه في الواقع لأمر يدعو إلى العجب أن يطالب اولئـك الأشخـاص أنفسهم الـذين ملأوا الـدنيا بالتبشير بـ «الحملة الصليبية السلمية» القسطنطينية بأن تؤازر مشروعاتهم بعد هذا كله!

وكذلك مُني باخفـــاق سريع صاحـــب امتياز فرنسي بـــدأ تحدوه حماسة شديدة سنة ١٨٧٣ [٣١٨] ففي أواسط السبعينات تأسست شركة فرنسية لبنـــاء ميناء في يافا وسكة حديد إلى القدس، وقد حصـــل مهندسها ومنشؤها بيروتي Pierotti بهـذا الصـــدد على مبـاركة البابا أيضاً للمشروع. وقدّر رأس المـــال المؤقت اللازم بـ ٣٠ مليون فرانك. . وكتبت **das Heilige Land** تقول: «في مدة ثلاث سنوات على الأكثر سيحط أول حصان بخاري رَحْله، وهو يطلق الشخير، عند أسوار المدينة المقدسة» ـ أمل ضائع آخر. والحملة الصليبية المالية «Croisade financiére» التي أرادت La Terre Sainte أن تسعّرها من أجل المشروع، بعد أن صدر الامتياز لبناء سكة الحديد (ولكن ليس لبناء الميناء)، ضاعت وشيكاً في الرمال. وذلك أن شركات التمويل والبناء التي كان من المفترض أن يعهد اليها أمرُ التنفيذ (وهي Comptoir d'Escompte, Sociéte des Batignolles, Gouin et Cie., وكلها معروفة بما فيه الكفاية من أعمال المضاربة في شمال افريقيا) لم ترَ بالفعل أي سبب يدفعها إلى اقتحام

---

(٣١٦) قارن:

Zimpel, StraBen-Verbindung, 26–47; «Die Eisenbahn nach Jerusalem», HL, IX (1865); **Die Warte**, 16.3.1865, 1.6.1865 und 4.10.1866; Schick, «Studien über Strassen und Eisenbahn–Anlagen zwischen Jaffa und Jerusalem».

(٣١٧) «Die Eisenbalm nach Jerusalem», HL., IX (1865), 56; PP – 1864, vol LXI (Jerusalem, May 1864); **Die Warte**, 4.1.1866.

(٣١٨) **Die Warte**, 6.2., 27.2., 13.3.1873; 5.2., 16.4.1874; ÖMO, 1 (1875), 104–106; **Deutsches Handelsarchiv**, 1883,II,417.

المشروع تلقائياً[٣١٩].

وقد سبق أن أظهرت الحسابات مراراً أنه ليس للمرء أن يتوقع جني الأرباح من هذا الخط الحديدي. وطبقاً لاحصاء فرنسي لحركة مرور البضائع والأشخاص بين يافا والقدس[٣٢٠] كان هنالك في سنة ١٨٧٧ حوالي ١٠٠٠٠ حاج و٤٠٠٠ طن من البضائع المستوردة و١٥٠٠ طن من البضائع المصدرة وكذلك ١٥٠٠ طن من الفواكه والخضار يُقتضى نقلها لتموين «المدينة المقدسة». ويوجز الجدول ٤٠ وسائل النقل ورسوم الطرق في سنة ١٨٧٧، كما يُبين الجدول ٤١ الدخل السنوي من تجارة النقل في سنة ١٨٨١.

الجدول ٤٠ : حركة النقل بين القدس ويافا سنة ١٨٧٧

	مع حمولة	دون حمولة	رسوم الطرق
العربـــات	١٥٥٠	٨٥٠	٢٦٥٥٠ قرشاً
الخيل والبغال	٢٢٠٠٠	١١٠٠٠	٢٧٥٠٠ قرش
الجمـــال	٢١٠٠٠٠	٨٣٠٠	٣٧٧٢٥ قرشاً
الحمـــير	٢٥٢٠٠	٢٣٥٠٠	١٨٤٧٥ قرشاً
			١١٠٢٥٠ قرشاً[٣٢١]

المصدر : MAC—CCC Jér, t 4 (Jerusalem 24.10 1879)

الجدول ٤١ : الدخل السنوي من تجارة النقل بين يافا والقدس سنة ١٨٨١

عربات الركاب والنقل	٦٦٤٠ ليرة تركية
نقل البضائع على الجمـال	١٠٦٦٠ ليرة تركية
خيل الركوب والبغال	٣٥٠٠ ليرة تركية
نقل البضائع والأشخاص على الحمير	٣١٥٠ ليرة تركية
	٢٣٩٥٠

المصدر : Loehnis, Die Wichtigsten Ergebnisse, 242.

(٣١٩) Jaffa – Jerusalem (وهو نوع من كتيبات الدعاية)
NNM, 19 (1875), 272–275, HL., XX (1876), 81, Neil, **Palestine Re-Peopled,** (A Papal Railway in Palestine); «Le Chemin de Fer de Jaffa a Jerusalem», TS, 1875/6/7/8, 36–38, 830f., 842–844; MAE-CPC Jer., t 14 (Jerusalem, 5.11 1878); **Die Warte,** 9.1.1879; PP - 1880, vol. LXXIV (Jaffa, February 1880).

(٣٢٠) MAC—CCC Jér, t 4 (Jerusalem 24 10.1879).

(٣٢١) هذا المبلغ يتفق والخبر الذي اورده باولوس Paulus (١٨٨٢) من أن ايرادات مجلس بلدية القدس من اموال الطرق قد زادت نتيجة لزيادة التردد عليها في السنوات العشر الأخيرة من ٥٠٠ ليرة تركية إلى ١٢٠٠ ليرة - ص٤٠ -.
قارن ايضاً : **Die Warte** 1881; **Deutsches Hardelsarchiv,** 1883,II, 417.

صحيح أنه كان يقال في معرض الحجاج بوجاهة تامة إن إيجاد البنية التحتية الملائمة أولا هو الذي يشجع على زيادة حركة النقل، على أن هذا الأمر كان من الأمور غير المؤكدة والطويلة الأمد. والمستثمرون الأوروبيون لم يكونوا يهتمون من جهتهم بالدولة العثمانية في تلك الفترة إلا بالأشياء القصيرة الأمد التي تحمل طابع المضاربة[٣٢٢].

الميناء، تسيير العربات والقطار: كانت هذه المشكلات الثلاث ملحة للغاية بالنسبة ليافا، لأن الحياة الاقتصادية للمدينة كانت موجهة بأكثريتها الساحقة نحو تجارة التصدير والاستيراد والأشغال المتعلقة بالحجاج. وهذه النشاطات التي ازدادت أهميتها باضطراد في الفترة التي ندرسها كانت تحت سيطرة الأوروبيين و«الليفانتيين» (سكان شرق البحر المتوسط) والمسيحيين المحليين إلى حد كبير جداً[٣٢٣].

ولكن الانتاج الزراعي في الضواحي المجاورة مباشرة كان من الأهمية بمكان أيضاً بالنسبة للمدينة، خصوصاً مزارع الحمضيات واعداد المنتجات للتصدير (حلج القطن في فترة ازدهار القطن، وتعبئة البرتقال في صناديق الخ). وطبقاً لما قاله القنصل البريطاني كان هنالك ٥٥٠٠ شخص يعملون في قطف البرتقال وتعبئته خلال موسم القطاف سنة ١٨٧٩. وعلى أية حال فإن أكثرية سكان يافا كانوا يعيشون من أعمال التصدير والاستيراد[٣٢٤].

وأخيراً فان يافا كانت تشكل مع الرملة واللد إلى جانب نابلس مركزاً ثانياً لانتاج الصابون والزيت (زيت الزيتون والسيرج). وكانت الرملة واللد تقعان وسط بساتين واسعة للزيتون[٣٢٥]. ولكن يبدو أن صناعة الصابون كانت فرع الانتاج الحرفي الوحيد المهم في هذه الأمكنة الثلاثة[٣٢٦]. ففي يافا كان هنالك سنة ١٨٧٢ خمسة معامل للصابون[٣٢٧]. وكان في

---

(٣٢٢) في سنة ١٨٨٨ حصل شخص يدعى نافون افندي على امتياز جديد تخلى عنه فيما بعد إلى شركة فرنسية. وقد بدأت هذه في سنة ١٨٩٠ ببناء سكة حديدية من يافا إلى القدس. ودشنت هذه السكة سنة ١٨٩٢.
قارن: E. Toutain, Notes sur les chemins de fer de la Turquie d'Asie (1900) MAE—MD,t, 134,
وكذلك Verney/ Dambmann, 259—260; Pech; Cuinet, 605—609; والمفصل للعارف، ٣٠٤.

(٣٢٣) قارن. PRO-F.O. 78, vol. 1419 (Jaffa, 17.5.1856 — Answers to Queries); Die Warte, 16.3. 1867, HHSTA — Atchiv Jer., Fasz 137 (Jaffa. 20.4.1877); Bömches, 44.

(٣٢٤) PP — 1880 vol. LXXIV (jaffa, February 1880); HHSTA — Archiv Jaffa, Fasz. 6 (Jaffa, 12 1 1877).

(٣٢٥) «Situation économique de la Palestine»; Thomson, The Land and the Book, 515; SWP, Samaria, 252f.

(٣٢٦) قارن ايضاً الجدول ٣٤ والحاشية ٢٨٧.

(٣٢٧) HHSTA — Archiv Jaffa, Fasz. 5 (Quadro statistico del distretto di Jaffa, 27.8 1872).

اللد على حد قول غوران Guérin حوالي ١٠٠ شخص يشتغلون في صناعة الصابون[٣٢٨]. إن تل الرماد الكبير في الرملة، وهو من مخلفات هذه الصناعة، قد دخل في أدب فلسطين، لأن رياح الصيف كانت تذرو الغبار الدقيق القارص في عيون المسافرين الأوروبيين أيضاً، وهم في طريقهم إلى القدس، الأمر الذي سبب كثيراً من التعب للسكان المحليين[٣٢٩].

لقد جلبت التجارة وبيارات الحمضيات إلى يافا الرخاء والاتساع. وقبل أن تنفجر يافـا شكـلا إلى خارج القشرة المحيطة بها في السبعينات[٣٣٠]، كانت المدينة تشبه المسارح المدرّجة تماماً: مدرجات صاعدة من البحر هلالية الشكل يحيط بها سور تحف به الخنادق وتُتـوِّجهـُ قلعة. ولم يكن هناك سوى باب واحد يؤدي إلى المدينة، التي أحاط بها حزام عريض من البساتين يمتد عدة كيلو مترات. وكان المسافرون الأوروبيون الذين تجولوا فيه يشعرون بأنهم في جنة عدن[٣٣١]

إن التحصينات، التي كان أبو نبّوت (١٨٠٧ ـ ١٨١٨) أول من أعاد بناءها، كان لا بد لها الآن أن تتراجع خطوة فخطوة أمام توسع المدينة، إلى أن سويّت الأسوار بالأرض تماماً وملئت الخنادق[٣٣٢]. وحتى من قبل أن يبدأ هذا التطور في الستينات كانت القصور قد بنيت في البساتين بل كانت قد نشأت ضواح ريفية. ومع ذلك فإن نشاطات المدينة اقتضت الآن المزيد من التوسع. ففي سنة ١٨٦٤ فتح باب جديد، وفي سنة ١٨٦٩ هدمت قطعة من السور في الجنوب الشرقي، في اتجاه بناية المحجر الصحّي (الكارانتينا) ودير الروم.

---

(٣٢٨) Guérin, **Description**, I, 323

(٣٢٩) قارن: Thomson, **The Land and the Book**, 531f.

(٣٣٠) حول تطور مدينة يافا قارن:
HL., VIII (1864), 130, PRO-F.O. 78, vol. 1834 (Jaffa, 9.11.1864); Furrer, 6–10; **An Open Letter Adressed to Sir Moses Montefiore**, 64; Wolff, **Jerusalem**, 3–6; Schwarz; SWP, **Samaria**, 254–s58; Guérin, **Description**, I, 6f; Ebers Guthe, II, 15,f, **Die Warte**, 23 3.1865, 15.12.1865, 15.12.1870. 16.7.1874; ISA-DKJ,. A.XXXIX.1 (Jaffa, 30.3.1872), A.XXXIX.2 (Jaffa, 30 6., 30.9. und 31 12 1874), A.XXXIX.3 (Jaffa,31.3.1876 und 31 3.1877).
وتشكل التقارير ربع السنوية للقصل الألماني نوعاً من السجلّ التاريخي لمدينة يافا في تلك السنوات؛ PP – 1876, vol. LXXV (Jaffa, February 1876), PP – 1877, vol. LXXXIII (Jaffa, March 1877); PP–1878, vol. LXXIV (Jaffa, May 1878); HHSTA – Archiv Jer., Fasz. 137 (Jaffa, 20.4.1877; 37 Seiterl);
الدباغ، بلادنا فلسطين ٤/ ٢، ١٩٠-١٩٢.

(٣٣١) قارن الوصف الحماسي في: Guérin **Description**, I, 9–11

(٣٣٢) طبقاً لتولكوفسكي Tolkowsky (ص١٦٢) انتهى هذا العمل سنة ١٨٨٨ (وكان قد بوشر بذلك فعلاً في سنة ١٨٧٩، كما قال، بل عشر سنوات قبل هذا التاريخ).

وحتى في سنة ١٨٧٢ ذكر القنصل الألماني في يافا أنّ التحصينات في اتجاه البحر انهارت في بعض المواقع، وبيعت كأنها مقلع سهل للحجارة، وأنّ الذخائر التي كانت محفوظة منذ أيام ابراهيم في برج البارود في القلعة نقلت إلى عكا. وفي سنة ١٨٧٤ نقل مخزن البارود بعدئذٍ إلى عكا، وفي بداية سنة ١٨٧٦ بيعت القلعة إلى دير اللاتين.

وفي شهر أيار وحزيران سنة ١٨٧٤ حصلت المدينة بهدم السور على أربعة مخارج أخرى، وبوشر الآن فعلاً ببيع سور المدينة وتحصيناتها قطعة قطعة. وبنيت بالحجارة التي أزيلت منها الدكاكين والبيوت التي أقيمت في الغالب خارج السور الذي كان. وفي نهاية سنة ١٨٧٥ بوشر في رصف الشارع الرئيسي في المدينة، وهو في الواقع شارع البازار بيافا[٣٣٣]. واستمر هذا العمل أكثر من عام. ووسعت ساحة السوق حول الساحة التي كان يقوم عليها باب المدينة القديم وجزء من التحصينات. واتسعت يافا الآن خارج المدينة الفعلية، وعلى امتداد طريقي نابلس والقدس، لتشمل سوق الخضار والفواكه والحبوب والواقع أن صورة يافا تحوّلت تحولاً سريعاً في سنوات معدودة، على الأقل من جهة البر.

بيت لحم[٣٣٤]

رأينا من قبل لدى دراستنا تطور القدس أن أهالي بيت لحم كان لهم نصيب مباشر في ذلك التطور. أما بلدتهم نفسها فكانت ما تزال في أواسط القرن في الدرجة الأولى قرية كبيرة وسط بساتين الزيتون وجبال الكرمة وأشجار اللوز والتين وكذلك وسط حقول الحبوب. ومن بين مواد الأكل المتخصصة اشتهرت بيت لحم بالخمر والعسل، كما كانت تربية الماشية ذات شأن فيها وكانت البلدة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بعرب التعامرة الذين كانت منطقتهم تتصل بها من الجنوب، والذين كانت بيت لحم بمثابة محور حياتهم الاقتصادية.

وفي بداية التسعينات أيضاً كان أكثر من ربع سكان بيت لحم ما يزالون يعيشون على الزراعة. إلا أن بيت لحم نَمَت منذ منتصف القرن فأصبحت مدينة صغيرة حَباها بازدهار

---

(٣٣٣) نجد وصفاً لبازارات يافا في : Lortet, 365–470.

(٣٣٤) Tobler, **Bethlehem**, 55–69; Furrer, 200–210; Ludwig, 26f.; Hergt, 284–287; Delpuget, 65f.; HL, XI, (1867), 90; HHSTA – Arhiv Jer., Fasz. 54.

(تقرير من ٥٨ صفحة حول الانتاج في منطقة اختصاص قنصلية القدس بمناسبة المعرض العالمي لسنة ١٨٧٣).

Thomson, **Southern Palestine**, 549; Guérin, **Description**, I, 120–128; NNM, XX (1876), 38; SWP, **Judaea**, 28f.; Ebers / Guthe, I, 136–150; Vaux, 295; Lortet, 342–353; Pierotti, **La Bible et la Palestine**, 289–303; Palmer.

الدباغ، بلادنا فلسطين ٨/٢، ٤٢٥ـ٤٢٨.

نسبي ذلك الجزء من سكانها على الأقل الذي انتفع بالتغلغل الأوروبي عن طريق الاتجار الرابح بـ «بضائع بيت لحم» وبرواج حركة البناء. وكانت المباني تقام أيضاً في المدينة نفسها وفي جارتها بيت جالا، بيد أن الأشغال الفعلية ازدهرت في القدس.

وإلى جانب الزراعة والاشتغال بالبناء كان أهم وسائل كسب العيش لأهالي بيت لحم صنع تحف التعبد والتذكارات السياحية. وكانت الصلبان والمسابيح تصنع من مواد مختلفة، وعلى الأخص من خشب الزيتون ومن نوى شجر الدوم التي كانت تأتي من شبه جزيرة العرب. ومن البحر الأحمر كانت تجلب كميات كبيرة من الصدف، الذي كانت تصنع منه أيضاً الصلبان والمسابح وكذلك المداليات الكبيرة الخ. ومن البحر الميت كان يُؤتى بما يدعى بـ «حجر موسى»★ وهو حجر جيري قطراني لامع لونه رمادي أسود، وله رائحة فريدة، وتصنع منه الأقداح وصحاف الطعام ودوايات الحبر. وكان بيع هذه الأواني يروّج بالزعم بأن السوائل التي تشرب منها تُسْبغ على الجسم العافية والشفاء. وقد تحدث توبلر في نهاية الأربعينات عن ٤٠٠ من «الحرفين»، والمقصود طبعاً المستخدمون، في هذا الفرع من فروع التكسب[٣٣٥]، بينما تحدث لورتت Lortet عن حوالي ٥٠٠ عامل[٣٣٦]. وفي سنة ١٨٩٠ احصي من أصحاب المحال التجارية ١٢٩ شخصاً (الجدول ٤٢).

الجدول ٤٢. هيكل العمالة في بيت لحم
(المعلمون المستقلون أو أصحاب المحلّات التجارية) حوالي سنة ١٨٩٠

الفلاحون ومربو الأغنام	٣٠٠
البناؤون	٣٠
دقاقو الحجارة	٢٥٠
الحجّارة	٥٠
(القصارون)	٦
الجمّالون العاملون في نقل الجير والحجارة والبضائع	٤٠
الحوذية (العربجية) وأصحاب العربات	٨
منتجو وبائعو البضائع المصنوعة من الصدف وخشب الزيتون وحجر موسى	١٢٩
تجار الشحوم والزيت والجبنة	٦٩

★ كان هذا الحجر يجلب من المنطقة المحيطة بمقام النبي موسى، ومن هنا اسمه. (المترجم)

(٣٣٥) Tobler, Bethlehem,60.

(٣٣٦) Lortet, 347.

أصحاب معامل الجبن (الجبانون)	١٠
تجار الغنم	١٦
تجار القمح	٨
تجار الخمور	٦
تجار الخضروات	٥
الطحانون (وبينهم صاحب مطحنة بخارية)	٤١
الفرانون وبائعو الخبز	٨
اللحامون	٧
تجار البضائع التي تباع بالذراع	
تجار الحرير والملابس	٨
الحاكـة	٤
الصباغون	٤
الحذّاؤون (الكندرجية والاسكافية)	٢١
الجلّادون (العاملون بالجلود)	٦
صناع الخراطيم	٣
صناع السلال	٢
النجارون	٥
صناع العربات الخشبية	٥
صناع الصناديق	٦
السمكرية	٢
صانعو المبارد	٥
الحدّادون	٧
الصاغة	٤
البستانية	٢
رجل البريد وحمال الطرود	١
الحلاقون	٥
أصحاب المقاهي	٥
أصحاب الفنادق	١
الصرافون	٣
الأطباء	٢

المصدر : Palmer, 91 – 94.

وكان قسم من هذه الأدوات يباع إلى الحجاج في فلسطين نفسها، وقسم آخر يصدر إلى أوروبا، وخصوصاً إلى روسيا. وكانت تصل عن طريق أديرة اللاتين إلى البلدان الكاثوليكية في جنوب أوروبا وفي أمريكا الجنوبية. وقام المهرة من تجار بيت لحم، منذ السبعينات على الأقل، برحلات تجارية كبيرة إلى أوروبا وأميركا لبيع منتجات المدينة مباشرة، ولملء حقائبهم عند عودتهم ببضاعة أخرى[٣٣٧]. وحتى في المعرض العالمي في فينا الذي أقيم سنة ١٨٧٣ أقام هؤلاء لأنفسهم ركناً خاصاً لبيع منتجاتهم[٣٣٨]. وحدّد القنصل الفرنسي الحصيلة السنوية لصناعة تحف التعبُّد في بيت لحم والقدس في سنة ١٨٨٧ بـ ٦٠٠,٠٠٠ فرنك[٣٣٩].

ونجد في الجدول ٤٢ بياناً بمعطيات (بالمر) حول هيكل العمالة في بيت لحم في بداية التسعينات. لكننا نستطيع أن نفترض أن احصاء كهذا لبيت لحم في بداية الثمانينات لن يختلف اختلافاً جوهرياً عن احصاء بالمر.

الناصرة وخان التجار

إن تطور الناصرة منذ الخمسينات كانت تحدّده ثلاثة عوامل: العامل الأول نمو السكان بسبب نزوح الفلاحين من السهول، سعياً وراء استبدال الأمن النسبي في الناصرة (كما في غيرها من المدن) بمعيشتهم القلقة. صحيح أن الناصرة لم يكن لها أسوار، الا أن موقع المدينة الجبلي وفّر لها شيئاً من الأمن. وفضلا عن ذلك فان الناصرة كانت تحت «الحماية» المستترة لأوروبا المسيحية، وفي المقام الأول تحت جناح فرنسا الكاثوليكية[٣٤٠]

أما العامل الثاني فكان التعبير المباشر عن هذا الاهتمام الأوروبي بالناصرة: فمثلما كانت الحال في القدس بدأت هنا أيضاً بعد حرب القرم أعمال بناءٍ نشيطة غيرت وجه

---

(٣٣٧) قارن: Gatt, **Beschreibung über Jerusalem**, 304; Palmer 91.

(٣٣٨) Zschokke, 5.

(٣٣٩) "Situation économique de la Palestine".

(٣٤٠) **Thomson, The Land and the Book**, 429; Tristram, **The Land of Israel**,117f; Tristram, **Pathways**, II, 56.
ويقول اسعد منصور (ص ٢٨٦ وما بعدها) نقلا عن تاريخ يعقوب فرح انه حدثت هجرة جماعية للحرفيين والتجار المسيحيين من الناصرة (متى؟) لأنهم ارغموا على دفع خراج الأرض، دون تحقيق ربح منها. وبعد أن تخلصوا من ذلك بتوسط القنصل الفرنسي سنة ١٨٥٥ عاد الى الناصرة خلال ثلاث سنوات أكثر من مائة عائلة مسيحية.

البلد[٣٤١]. وسرعان ما اختفت آثار الدمار التي أحدثها زلزال سنة ١٨٣٧[٣٤٢].

والعامل الثالث كان ازدهار التجارة مع اوروبا، الذي فتح للناصريين المسيحيين قبل غيرهم مجال عمل جديد. وفضلا عن ذلك فإن قوافل الحبوب القادمة من حوران، التي كانت تمر سنوياً أمام عيون الناصريين تقريباً وهي في طريقها من جسر المجامع إلى حيفا وعكا، كانت بمثابة إغراء للناصريين بالدخول في معترك التجارة مع بلاد شرق الأردن. ولذلك فاننا لا نفاجأ إذا علمنا أن من بين المباني المهمّة في المدينة كانت تبرز خمسة خانات هي خان الباشا وخان دير اللاتين وخان الكاثوليك وخان عازر حبيب وخان طنوس قعوار[٣٤٣].

ونود أن نورد هنا وصف تومسون الشيّق ليوم من أيام السوق التي كانت تعقد هناك بنصه الكامل:

في يوم الاثنين من كل اسبوع تقام سوق عظيمة عند الخانين* ، عندما يكون المنظر لساعات قليلة نابضاً بالحيوية البالغة وجديراً بأن يكون موضوعاً لصورة رائعة. وتقدم هذه التجمعات فرصة ممتازة لمراقبة تصرفات السوريين وعاداتهم وملابسهم، والتعرف على طبيعة المنتجات السورية ونوعيتها. آلاف الناس يحتشدون من جميع أنحاء البلاد، إما ليبيعوا أو يتاجروا أو يشتروا. القطن يجلب في بالات من نابلس، والشعير والقمح والسمسم والذرة من الحولة وحوران وازد ريلون (مرج ابن عامر). ومن جلعاد وبيسان والمناطق المحيطة تأتي الخيول والحمير والمواشي والأغنام، مع الجبنة واللبن والسمن والعسل والمواد المشابهة. ثم هناك أشياء متنوعة مثل الدجاج والبيض والتين والزبيب والتفاح والبطيخ والعنب وجميع أنواع الفواكه والخضروات في مواسمها. الباعة المتجولون يفتحون رُزمهم ذات الأقمشة المغرية؛ والجوهري يأتي هناك بحُليّه؛ والخياط بأثوابه الجاهزة؛ والحذّاء بمخزونه من الأحذية من صنادل خشبية يغطيها الشعر إلى أحذية مغربيّة حمراء؛ والبيطار يأتي إلى هناك

---

(٣٤١) Conder, **Tent Work**, I, 138–140; SWP, **Galilee**, 275–278; Guérin, **Description**, IV, 87–92; **Die Warte**, 24 9 1874; Ebers/Guthe, I, 302.

(٣٤٢) الدباغ، بلادنا فلسطين، ٢/٧، ٤٩.

(٣٤٣) Schumacher,. "Das Jetzige Nazareth," 243.

(٣٤٤) Robinson, II, 36.; Guérin, **Description**, VI, 381f, ونبـذة في SWP, **Galilee**, 394–396. (وخـلافاً لما تقوله مصادرنا الأخرى جاء في هذا المصدر أن السوق كانت تعقد كل خميس).

(*) أشار تومسون قبل ذلك بقليل الى وجود خانين متجاورين (المترجم)

بعدّته ومساميره وحذواته الحديدية المستوية، .ويقوم بعمل تجاري مزدهر لساعات قلائل؛ وكذلك يفعل السرّاج بأكياسه الخشنة وأقمشته المزدانة بالألوان الزاهية. وهكذا الأمر مع جميع الصنائع والمهن المعروفة لهؤلاء الناس... ولكن قبل غياب الشمس بمدة طويلة لا تبقى نفس واحدة من هذا الحشد المتصل الحركة في هذه البقعة. الجميع يعودون إلى بيوتهم، أو يلجأون إلى قرية من القرى المجاورة[٣٤٥].

وحتى حوالي سنة ١٨٨٠ كانت السوق التي تقام عند خان التجار أهم سوق في فلسطين. وكان يعرض فيها من ضمن ما يعرض لغاية ٢٠٠ رأس من الماشية[٣٤٦]

وقد استفاد التجار المسيحيون في الناصرة من الموقع المتوسط للمدينة؛ إذ كانوا يتجهون ببصرهم نحو الشرق، كما كانوا يتجهون نحو الساحل، وما بعده نحو أوروبا[٣٤٧]. وما كان لـ «التقدم» أن يتخلف بعد هذا عن الحضور وشيكاً: لقد وصفت ماري روجرز زيارتها إلى ثري من أثرياء الناصرة بنى بيتاً من الحجر المدقوق (المسمسم) وسافر إلى مارسيليا (وكان هذا حتى في نهاية الخمسينات ليشتري أثاثاً أوروبياً وتجهيزات أخرى. وأثث قبل كل شيء صالوناً فرنسياً وجهّزه بالمرايا وأحجار المرمر التي تمتع ببريقها أمام عيون مواطنيه الذين كانوا يرون فيه نبياً من الأنبياء[٣٤٨]. وبعد ذلك بثلاثة عقود كتب خبير بارز بأحوال شمال فلسطين يقول: إن «الطبقة الوسطى المتملكة» في الناصرة هي أكثر عدداً بكثير من مثيلتها في حيفا وعكا مثلاً[٣٤٩].

ولكن إلى جانب التجارة والحجاج والمؤسسات المسيحية كانت الزراعة أيضاً ذات أهمية كبرى للناصرة، بصورة مباشرة وغير مباشرة. فمن ناحية كان جزء من سكانها العاملين من الفلاحين، ومن ناحية أخرى كانت المدينة مركزاً لتزويد السكان بالأدوات الزراعية.

ويفترض أن هذا الفرع المهني انتعش بوجه خاص في السبعينات. ويوضح الجدول

---

(٣٤٥) Thomson, The Land and the Book, 442 f.; قارن أيضاً Furrer, 354 f.

(٣٤٦) Luncz, 6. قارن أيضاً: Ebers/ Guthe, I, 298; Rückert, 341.

(٣٤٧) Tristram, The Land of Israel, 117 f; Furrer, 308f.

(٣٤٨) Rogers, La Vie Domestique, 157 f.

(٣٤٩) Schumacher, "Das jetzige Nazareth", 245.

٤٣ هيكل العمال في مدينة الناصرة[٣٥٠]. ونحن نعرض هنا هذه المعطيات التي ترجع إلى سنة ١٨٩٠، لأنه لا شيء يحول دون الافتراض بأن الوضع في أوائل الثمانينات لم يختلف عن ذلك اختلافاً بيّناً.

الجدول ٤٣ . هيكل العمالة في مدينة الناصرة (١٨٩٠)

الفلاحون	٣٠٠
تجار الحبوب، وملاكو أراضي كبار في آن واحد[٣٥١]	٢٤
تجار التوابل والبهارات، وكذلك السمن والزيت والجبنة	٥٦
تجار الخضار	١٥
بائعو الخبز وأصحاب المطاعم ومحلّات الحلويات	٦
تجار البضائع التي تباع بالذراع	٤٣
تجار الحديد والزجاج والخزف الصيني	١٠
اللحامون	٨
الطحانون (ومن هؤلاء خمسة من أصحاب المطاحن البخارية)	٩
نجارو الأثاث	١٥
صانعو العربات الخشبية	٨
البياطرة	١٢
صانعو السكاكين	١٨
النحاسون	٧
الصاغة	٦
السرّاجون (السروجية)	٩
صانعو اللباد (اللبابيدية)	٨
خياطو الجلود	٨
صانعو العلب	٨
صانعو رؤوس الغلايين (القطع المجوفة منها)	٧
صانعو الغرابيل (الغرابيلية)	٣
السمكرية	٨

(٣٥٠) طبقاً لشوماخر; Schumacher,. "Das jetzige Nazareth", 243–245
قارن أيضاً :
Tobler, Nazareth, , 77–80 ومنصور، ٢٨٥ وما بعدها .

(٣٥١) وصفها شوماخر ب «الطبقة الوجيهة». قارن اعلاه ص ١٣٩ .

النساجون (الحاكة)	١٠
الخياطون	٦
الصباغون	١٠
الدباغون	١٢
الحذاؤون	٣٩
الصبانون	١
معلمو البناء	١٦
معلمو النقش (الدقاقة)	٥٣
الحجارة	٢٢
الكلّاسون	٦
القصّارون (الملاطون)	١٥
المكاريّة (مؤجر الدواب)	٨ ـ ١٠
البستانية	٢٤
الحلاقون	١٦
أصحاب المقاهي	٣
أصحاب الخانات	١٠
أصحاب الفنادق	٢

المصدر : انظر الحاشية ٣٥٠

ومعنى هذا أن ثلث السكان كانوا يعيشون على الزراعة، وثلثيهم على التجارة والحرف. ومن بين ٥٥٠ معلماً كانوا يشتغلون لحسابهم الخاص في ميادين التجارة والمهن اليدوية والخدمات كان هناك ١٥٤ تاجراً (أي حوالي الربع) و١١٢ مستخدماً في مهنة البناء (الخُمس)، وكان جزءٌ ليس بالصغير من الحرفيين يعملون بأكثريتهم الساحقة لتلبية مطالب القطاع الزراعي، هكذا كان الحدادون وصانعو العربات الخشبية (كانوا يصنعون المحارث والأنيار، وهي حرفة يدوية اختص بها أهل الناصرة)، والسرّاجون وصانعو اللُّباد (اللبابيدية) وخياطو الجلود (وكانوا يصنعون السروج والأرسنة ورِحَال اللُّباد. الخ).

حيفا ومستعمرات الهيكليين

حيفا هي المدينة الأخيرة من المدن الخمس التي ينبغي علينا أن نبحث تطورها في ارتباط مباشر بالطفرة التجارية والتغلغل الأوروبي في فلسطين. لكنّ صعود حيفا منذ منتصف القرن التاسع عشر[٣٥٢] كان انحدار عكا، وكانت لكلتا البلدتين ميزات خاصة ـ

(٣٥٢) اعتمدنا هنا في الدرجة الأولى على : Carmel, Geschichte Haifas قارن أيضاً :
Rogers, La Vie Domestique, passim; Finn, Stirring Times, II, 10f; Neale, I, 154–171; Hergt, 65, NNM, XX
=

حيفا الميناء الأصلح وعكا الإمكانية الأفضل للدفاع عن المدينة ـ وقد انقلبت الآن مرتبتاهما في الأهمية. فإضافة إلى التدمير الذي لحق بعكا جرّاء احتلال المصريين للبلاد ثم طردهم (١٨٣٢ ـ ١٨٤٠) أصبحت لنوعية الميناء أهمية حاسمة في هذه الفترة نفسها، نهاية الثلاثينات، مع تزايد الاهتمام الأوروبي بفلسطين، واقامة خطوط للسفن البُخارية إلى «أساكل» شرقي البحر المتوسط، إن حيفا التي كانتت تقبع حتى اليوم في ظل عكا أخذت بدورها تلقي بظلها على قلعة عكا.

وحتى في سنة ١٨٥٠ دخلت ميناء حيفا، عدا الزوارق الساحلية، ١٦٢ سفينة بخارية وشراعية (٨٢ يونانية و٢٤ فرنسية و١٧ تركية و١٦ انجليزية و١١ سردينية)[٣٥٣]. ومنذ بداية الخمسينات أخذت تعرج على حيفا بانتظام سفن ركاب تابعة لشركات الملاحة أيضاً. وفي نهاية الخمسينات موّلت الحكومة الروسية انشاء حاجز لصد الأمواج طوله ٣٠ متراً في ميناء حيفا لصالح حجاجها الذين كانوا يأتون من الناصرة، أو كانوا يريدون الانتقال إلى القدس عن طريق الناصرة.

والحق أن المسافرين كانوا يصفون حيفا داخل الأسوار، حتى بداية السبعينات، بأنها عش مليء بالأقذار[٣٥٤]. ولكن بدأت فيها حتى الخمسينات حركة بناء نشيطة وامتدت منذ ١٨٥٨ خارج أسوار المدينة أيضاً. فحول نواة دير الكرمليين الجديد وتحت حماية القناصل الأوروبيين، الذين كانوا ينزلون هنا، نشأت سلسلة من الكنائس المسيحية والمؤسسات الأخرى.

ومنذ منتصف القرن وحتى سنة ١٨٨٢ تضاعف عدد السكان ثلاث مرات حتى بلغ حوالي ٦٠٠٠ نسمة. ونشأ هذا قبل كل شيء عن هجرة المسيحيين واليهود من تركيا ومن شمال افريقيا، وأصبح المسلمون بالنسبة إلى مجموع غير المسلمين أقلية[٣٥٥]. وفي سنة ١٨٦٩ أسس الهيكليون أول مستوطنة لهم قرب حيفا وهي التي سنتحدث عنها بعد قليل. وفي السبعينات استقبلت حيفا أيضاً مهاجرين من مدن شمال فلسطين التي كانت أقل منها نشاطاً

= (1876), 172; Guérin, **Description**, V, 251f., VI, 403f, SWP, **Galilee**, 282—285, Oliphant, **Haifa**, passim, ؛ Ebers/Guthe, II, 106—110; Lortet, 170f.

الكرملي، ٦٨ ـ ٧٣؛ البحري، ٩ ـ ١٦.

(٣٥٣) Carmel, **Geschichte Haifas**, 65.

(٣٥٤) قارن Lynch, 61; Sepp, II, 455; Tristram, **The Land of Israel**, 92—94.

(٣٥٥) Carmel, **Geschichte Haifas**, 71f. 127f.

من الوجهة الاقتصادية (وهي عكا وصفد وطبريا)، وكان هؤلاء من المسيحيين واليهود بشكل خــاص.

إن الخـطوط الأساسية لهذا التطور الصاعد الذي تسارع بصفة جوهرية بعد سنة ١٨٨٢ واضحة لدينا وضوح أسبابها: ازدهار نشاطات التصدير، والاقامة والسكن في المدينة في إطار «الحملة الصليبية السلمية» وتأسيس مستعمرة الهيكليين. وذلك الجزء من سكان المـدينـة الذي لم يحصل على قوته في هذه المجالات اعتاش على الزراعة والحرف اليدوية والتجارة بالمفرق. بيد أنه لا تتوافر لدينا معطيات بهذا الشأن الا حول التصدير من ميناء حيفا وحول مستعمرة الهيكليين التي أقيمت هناك.

ومن وجهـة نظر الهيكليين أنفسهم، وكـذلـك الأوروبيين المعاصرين الذين كانوا يفكرون تفكيرهم، فان المستعمرين السوابيين هم الذين شقوا الطريق إلى «التقدم» في حيفا كما في فلسـطين بأسرهـا. ولذلك نرى من الواجب أن نقول في هذا المقام كلمةً ما عن النشاطات «التمدينيّة» للهيكليين.

ومهما يكن حكم المرء على مثل هذا المشروع الاستعماري الذي قام على أساس الدين في عصر التوسع الامبريالي[٣٥٦] فسيكون من العبث أن ننكر في حالة حيفا أن الهيكليين كانوا يمثلون بالفعل عاملا مهمّاً في تطور المدينة المادي. بيد أن الحرب الصغيرة التي كان على المستوطنين أن يشنوها ضد السلطات العثمانية والسكان العرب ترينا بأكثر من الوضوح أن الناس في فلسطين لم يكونوا على اقتناع بأنهم كانوا في حاجة إلى البركات الاستعمارية الآتية من سوابيا. الا أن الهيكليين جنحوا جنوحاً تاماً إلى المغالاة في تقدير الذات، فيما يتعلق بقسطهم في «رفع شأن البلاد». وهكذا فان باولوس Paulus مثلا كتب في سنة ١٨٨٢ حول الحـرفيين الثـمانية والعشرين في المستعمرة التي أسست قرب القدس سنة ١٨٧٣ يقول: «لهؤلاء العـمال اليدويين المـدربـين على الـطراز الألمـاني تدين المـدينة المقدسة بازدهارها الصناعي»[٣٥٧]. وبالقدر ذاته يفصح زايبت Seibt عن جهلهِ العجيب بأحوال فلسطين عندما يزعم «أن أوّل من مارَس النقش على الأدوات المصنوعة من خشب الزيتون كان واحداً من الهيكليين في حيفـا. ونشـأ عن ذلـك واحـد من أهم فروع صنـاعـة التحف التذكارية

---

(٣٥٦) حول مستعمرات الهيكليين قارن:
Carmel, Die Siedlungen; Paulus; Brugger; Seibt, Imberger;
محافظة، العلاقات ١٠٠ ـ ١٣٣. وانظر أيضاً رفيق وبهجت ١/ ٢٣٨ ـ ٢٤٠ و٢٥٣ ـ ٢٥٧.

(٣٥٧) Paulus, 41.

الفلسطينية»[٣٥٨]. ومع ذلك فلسنا نستطيع أن نركن في حكمنا على دور هذه المستعمرة الاقتصادي التكنولوجي إلى أقوال أولئك الألمان والانجليز المعاصرين الذين نشطوا في الدعاية شأنهم شأن الهيكليين إلى استعمار فلسطين أكثر مما نركن إلى كتابات الهيكليين أنفسهم[٣٥٩]. هل قامت هذه العصبة الصغيرة التي عزلت نفسها عمداً عن السكان المحليين في الجيوب السوابية التقوية التي أقامتها والتي أرادت - رغم حاجتها إلى القوى العاملة المحلية - أن تستقلّ بنفسها اقتصادياً - هل قامت في ذلك الحين بتدريب فلسطين مسبقاً على أكثر مما كانت تفهمه بـ «النظام والنظافة الألمانيين»؟

في الفترة التي ندرسها أسست أربع مستعمرات في حيفا (١٨٦٩) ويافا (١٨٦٩) وسارونا شمال يافا (١٨٧١) والقدس (١٨٧٣). واستقر عدد من الهيكليين بصورة فردية أيضاً في بيروت والناصرة والرملة وبيت لحم. وكان الهيكل الاجتماعي الاقتصادي لهذه المستعمرات يبدو سنة ١٨٨٢ كما يلي[٣٦٠]:

كانت مستعمرة حيفا تضم ٣٥٠ شخصاً. كان فيها ١٧ فلاحاً و١٢ بستاني عنب و٢١ شخصاً يعملون إلى جانبهم بالزراعة و٢٠ من «أصحاب المهن» (حوذيّة وحدادون وسروجيّة وخياطون وحذاؤون وصانعو أقفال ونجارون). وكان للمستعمرة طاحونة هواء ومعمل صابون وثلاثة متاجر (أحدها لتجارة الجملة) وحانة وفندق وطبيب.

أما مستعمرة يافا/ الرملة فكانت تضم ٢٠٥ أشخاص معظمهم من «أصحاب المهن» (خياطان وأربعة طحانين، وثلاثة نجارين وفرّانان وحذّاءان وسرّاج (سروجي) ولحام وساعاتي وميكانيكي وبناء وبستانيّان وفلاحان). وكان فيها متجران كبيران (مؤسستا برايش Breisch وفريدل Friedel)، وثلاث مطاحن، وصيدلي وطبيب، وحانة وفندق.

وضمّت سارونا، وهي «المستعمرة الزراعية» الوحيدة بالفعل، ١٩٤ شخصاً. وكان فيها إلى جانب الفلاحين تاجران للخمور وبقال ولحام ونجار ونجارا أثاث (موبيليا)، وبناءان وحداد وحذّاء.

وتألفت المستعمرة القريبة من القدس (٢٥٧ شخصاً) بأكثريتها الساحقة من أرباب الحرف: أربعة بنائين وثلاثة نجارين وتاجر أخشاب وحدادان وطحانان وفرّان ولحامان وثلاثة

---

(٣٥٨) Seibt, I, 120.

(٣٥٩) أنظر مثلاً: Conder, Tent Work, II, 301–315 و Oliphant, Haifa, 22–33.

(٣٦٠) Paulus 37–41. واللمحة التي يوردها كارمل (Carmel, Die Siedlungen, 52–54) بهذا الصدد عن سنة ١٨٨٩ لا تشير إلى اي تغييرات جوهرية في هذا الهيكل.

حذائين وخياط وسرّاج وسمكري وصانع سكاكين (سكاكيني) ونحّات وصيدلي ومهندس معماري وصاحب مطعم وصاحب حانة وبستاني وكذلك طبيبان.

وقدر هوفمان (١٨٧٧) قيمة الممتلكات غير المنقولة التي تملكها هذه المستعمرات كما يلي: حيفا ١١٨٤٠٠ فرنك ويافا ٤٧٣٠٠٠ فرنك وسارونا ٤٤٠٢٠٠ فرنك والقدس ٢٦٧٠٠٠ فرنك، والممتلكات المنفردة في الناصرة والرملة ٤٠٠٠٠ فرنك، والمجموع ٢٤٠٢٦٠٠ فرنك، وأما قيمة الأموال المنقولة فقد قدرها بـ ٥٤٠٠٠٠ فرنك[٣٦١].

أما فيما يتعلق بالآثار التي تركها هذا المشروع الاستعماري فنستطيع أن نضع أيدينا منها على ثلاثة: الأول هو أن الهيكليين أثبتوا لمقلديهم المحتملين أن المستعمرات الأوروبية يُمكن إقامتها فعلا في فلسطين اذا توافر قدر كافٍ من الثبات. وغدوا بذلك مثالا يحتذى لليهود الذين كانوا يرغبون في الاستعمار، وهو الأمر الذي لم يكد يكون فيه ما يبعث الارتياح في نفوس السكان المحليين. والثاني هو أن الهيكليين قد عززوا فئة الحرفيين المؤهلين الذين كانت خبرتهم في المدن الثلاث التي نزلوا فيها موقوفة في الدرجة الأولى على تلبية مطالب الأوروبيين والفئة العليا المحلية. وأما ما استوردوه من آلات زراعية وحرفية عصرية فانها لم تعد الا عليهم هم بالنفع؛ ولم يكن لهذا أي شأن على الإطلاق بـ «حافز فطري إلى التطوير». أخيراً نشير إلى استخدام العربات في المواصلات الذي أُطنب في وصفه والاشادة به عشرات المرات، وهي العربات التي جهزها الهيكليون لنقل الأشخاص والحمولات على طرق حيفا ـ عكا وحيفا ـ الناصرة ويافا ـ القدس، وزعموا في هذا الصدد أنهم حسنوا طريق حيفا ـ الناصرة على حسابهم الخاص. إلا أنه يترتب علينا أن نضيف فيما يتعلق باسهام الهيكليين هذا في المساعدة على تقدم «الحضارة» في فلسطين في السبعينات أن الهيكليين لم يستطيعوا الصمود طويلا في وجه منافسيهم العرب واليهود[٣٦٢].

عكا

عكا هي المدينة الوحيدة في فلسطين التي سُجل فيها تراجع في عدد السكان في فترتنا هذه. إلا أن هذه العملية لا يمكن إيضاحها من وجهة اقتصادية إحصائية، نظراً للنقص في المصادر. صحيح أنه تتوافر لدينا إحصاءات حول التصدير عن طريق عكا، لكن ليست لدينا إلا معطيات طفيفة للغاية حول الهيكل الاقتصادي للمدينة نفسها.

---

(٣٦١) ISA–DKJ, A.XXXIX.3 (Jaffa, 17.3.1877).

(٣٦٢) Carmel, Die Siedlungen, 55, 244.

كانت عكا مدينة الادارة والقلعة والحامية العكسرية والمساجين، وكان فيها «باستيل الشرق الأدنى»[٣٦٣]. ومع ذلك، أو بسبب ذلك، كانت تخلق لدى زوارها في الخمسينات والستينات والسبعينات انطباعاً يبعث الكآبة المؤكدة في النفوس. كان هنالك باب للمدينة من جهة البر وباب آخر عند الميناء. ولم يكن يُسمح بالبناء خارج أسوار المدينة، ولم يكن هناك من حاجة لذلك أيضاً على أية حال. وما من أحد بذل جهداً لإزالة آثار القصف المدفعي لسنة ١٨٤٠ من داخل أسوار المدينة بصورة تامة. وكان هنالك العديد من البيوت التي لم يعد بناؤها بَعْدُ، في الخمسينات والستينات على الأقل. كانت منشآت القلعة تترك بالفعل انطباعاً قوياً في النفس إلا أنها كانت مهدمة جزئياً كما كانت مدافعها بالية بصورة لا رجاء فيها[٣٦٤]. وكانت الحامية العثمانية تسيطر على الحياة في المدينة، ولو أن ادّعاء اوليفانت بأن ثلاثة أرباع المدينة عبارة عن ثكنات ومبان حكومية[٣٦٥] ادعاءٌ مبالغ فيه بوجه التأكيد. وقد كتب كوندر عن عكا السبعينات يقول: «إن تجارتها الآن ضعفت كثيراً، والأسواق مهجورة. . . ووجدت أن كثيراً من الأسواق قد حولت إلى اسطبلات للفرسان وأن دكاناً واحداً فقط من بين كل عشرة دكاكين تقريباً كان قيد الاستعمال[٣٦٦]».

ومن جهة أخرى رأينا أن عكا بقيت في هذه الفترة مكاناً هاماً للتصدير، خصوصاً لحبوب حوران، وفي وقت الحصاد كانت تصل الآلاف من أحمال الجمال من الحبوب إلى عكا. وكان الشاطىء بين عكا ونهر النعامين يصبح حينئذٍ مربضاً هائلاً للجمال[٣٦٧].

إن التناقض الذي يتمثل في أن عكا كانت العنبر الرئيسي للحبوب على ساحل سوريا في السبعينات من جهة، وفي أنها كانت من السقوط قاب قوسين أو أدنى من جهة أخرى، هذا التناقض لم يحاول أحدٌ حله عادة. إننا لا نعرف سوى الأقوال العامة التي تذهب إلى أن التجارة والحرف لم تكن لتنطلق في ظل الحامية العثمانية، وأن حيفا، جارة عكا، انتزعت من عكا قصب السبق، كان هذا عاملاً هاماً بوجه التأكيد. إن ميناء عكا القديم كان ممتلئاً

---

(٣٦٣) الكردي، ١٢٤

(٣٦٤) Robinson, **Biblical Researches**, III, 91; Thomson, **The Land and the Book**, 309f.; Furrer, 331–333; Tristram, **The Land of Israel**, 88f., Conder, **Tent Work**, I, 188, 190, 192; SWP, **Galilee**, 145, 164–167; Guérin, **Description**, VI, 502–509, 525; Lortet, 159–167.

(٣٦٥) Oliphant, **The Land of Gilead**, 338.

(٣٦٦) Conder, **Tent work**, I, 188f.

(٣٦٧) Finn, **Stirring Times**, II, 347; Oliphant, **The Land of Gilead**, 338; Conder, **Tent Work**, I, 188f., Furrer, 336f

بالرمال كما كان خليج حيفا أكثر عمقاً وأمناً[٣٦٨]. وقد شكا أحد سكان عكا من أن السفن البخارية كانت «بداية النهاية» للمدينة[٣٦٩]. لكن هذه النهاية لم تأت فجأة؛ فقد بقي ميناء عكا حتى نهاية القرن الأكثر نشاطاً من حيث حركة السفن (حتى لو أن حمولة السفن كانت أقل)[٣٧٠]، وقد قسمت شركات السفن البخارية الموانىء فيما بينها: ففي النصف الأول من السبعينات كان النمساويون يفدون إلى يافا وحيفا، والروس إلى يافا وعكا، والفرنسيون إلى يافا وحدها (قارن الخرائط ٥و٦و٧)[٣٧١]. ولذلك فاننا لا نستطيع أن نبحث عن العلة على هذا الصعيد وحده.

ولا بد لنا بالأحرى أن نؤكد الحقيقة المتمثلة في أنَّ معاملات عكا التجارية والمالية الأكثر أهمية انتقلت إلى أيدي بورجوازية بيروت التجارية والمالية النشيطة، أي إلى المجموعة نفسها التي بدأت في السيطرة أيضاً على جانب كبير من الانتاج الزراعي لشمال فلسطين. وقد سبق أن أشرنا إلى أن الجزء الأعظم من واردات الساحل السوري بأكمله كان يأتي عن طريق بيوت بيروت التجارية الكبرى. لقد أخذت بيروت مكان الصدارة[٣٧٢]. بل إن تجار بيروت سيطروا أيضاً على تصدير أهم سلع التصدير العكيَّة، القمح، وكذلك القطن إلى ما بعد بداية السبعينات.

كانت أهم مؤسسات التصـدير في بيروت، التي تمارس تجارة الحبوب في الموانىء السورية وتترأسها، هي سرسق اخوان وبسترس وأبناء أخيه وتويني وطاسو وحسن الحصّ، وسغـرندي Sagrandi وسكريني Scrini ومساوتي Massauti ، وبارودي . . . ومعظم بيوت القطن في عكا (St.Jean d'Acre) واللاذقية هي فروع من بيوت بيروت: أ. بيرون E. Peyron ، وسغرندي، وأسّد وملحم وسرسق اخوان وتويني وبسترس وأبناء أخيه. ومما هو جدير بالاشارة إليه من البيوت المستقلة في عكا وحيفا: داتودي Datodi ، وبتروكوشينو وشيروبينا

---

(٣٦٨) Ebers/ Guthe, II, 90.

(٣٦٩) الكردي، ١٢٣ وما بعدها.

(٣٧٠) قارن: ISA-DKJ, A.XXXIX.2 (Akka, 24.2.1876) und A XXXIX 3 (Haifa, 25.1 1877); Cuinet, 98, 105, 108.

(٣٧١) **Annuaire Diplomatique de l'Empire Ottoman**, LIII; Zwiedinek, 78–80, **Information for Passengers by the Austro-Hungarian Lloyd's Steam Navigation Company Trieste**, 1874 (In: ISA-DKJ, A.XXXIV.10); **Paquebots-Poste Francais**, Compagnie des Messageries Maritimes, Livret d'Itinéraires et Tarifs des Lignes de la Méditerranée et de la Mer Noire, 1874 (In: ISA-DKJ, A.XXXIV. 10).

(٣٧٢) قارن أيضاً Neale, I, 189f; Zwiedinek, 12f.

Petrocochino, Schiropina وافيمينو خريستو Avimino Christo [٣٧٣] وم. أ. سروبينش M. A. Sropinich [٣٧٤]. وسليم خوري[٣٧٥].

كما أن التزام الضرائب في لواء عكا كان في أيدي البيروتيين. صحيح أن الملتزم كان إسمياً شخصاً يدعى يوسف المملوك من صور، بيد أنه لم يكن في الواقع سوى وكيل لبعض بيوت بيروت المسيحية التي وَضَعَت تحت تصرفه في سنة ١٨٧٨ مثلا، كما ذُكر، مبلغاً يتراوح بين ٣٠٠٠٠ و٤٠٠٠٠ ليرة استرلينية لكي يرسو عليه المزاد[٣٧٦]. وهكذا فإن الأرباح الكبيرة من تجارة التصدير، ومن الالتزام، كانت تنساب إلى بيروت.

وإذا أخذنا في الحسبان الوضع العام في سوريا ودور القناصل الأوروبيين في تلك العقود من السنين، فان تقدير تومسون مثلا بأن الطابع العسكري للمدينة قد أنقض ظهرها يكتسب قيمة توضيحية مكملة[٣٧٧]. وبعد حَرْب القرم تركز الاهتمام الأوروبي في شمال فلسطين على حيفا (الكرمليون، قرب الناصرة، الهيكليون). وقد نزل القناصل الأوروبيون في حيفا مع أنه كان عليهم أن يذهبوا إلى عكا، حيث داومت الادارة العثمانية على البقاء، لقضاء كل الأعمال الرسمية المهمّة[٣٧٨]. وظل هناك في أحسن الأحوال الوكلاء المحليون للقناصل. وبغض النظر عن مصالح المستوطنين والمؤسسات الدينية، فإن متابعة المصالح التجارية للأوروبيين والمتمتعين بالحماية الأوروبية كانت تتم بصورة أفضل تحت عيون القناصل الأوروبيين في بيروت وحيفا مما كانت تتم تحت عيون القائد العسكري لعكا ومتصرفها. وبذلك يكون الماء قد حُوِّل عن عكا من جهتين، من بيروت ومن حيفا.

صفد وطبريا

كانت صفد وطبريا[٣٧٩] - إلى جانب القدس والخليل - مدينتين من «المدن المقدسة» الأربع عند اليهود في فلسطين. وفيما يتعلق بتطور المدينتين فقد اتسمت صورتها في فترتنا

---

(٣٧٣) هذا بالضبط هو الشخص نفسه الذي مرّ ذكره في صفحة ١٢٧ باسم نائب القنصل أفسرينو Avicrino .

(٣٧٤) اسمه الصحيح سكوبينش Scopinich ، وكان وكيلاً لقنصل النمسا.

(٣٧٥) Zwiedinek, 25,56 . قارن هذه القوائم بالأسماء الواردة في ص ١٣٧ وما بعدها.

(٣٧٦) قارن: PRO-F.O. 195, vol. 1202 (Akka, 11.7.1878, 12.9.1878, Aleih, 15.9.1879).

(٣٧٧) Thomson, **The Land and the Book**, 310.

(٣٧٨) حول «التنافس الاداري» بين عكا وحيفا قارن. رفيق وبهجت، ١/ ٢٨٠ وما بعدها.

(٣٧٩) حول صفد قارن ليفسون: Lewysohn 1-37 (عن حياة اليهود هناك) وايضاً:

Frankl, II, 336-342; Burton, **The Inner Life**, 509; Thomson, **The Land and the Book**, 272-276; Furrer,

=

هذه بالركود. وفي القرن الثامن عشر كانتا إلى جانب عكا مركزين لحكم الزيادنة (عائلة ظاهر العمر). وكانت تتوّجهما قلعتان، كما كان يحيط بطبريا سور. غير أن المدينتين تحولتا بفعل زلزال ١٨٣٧ إلى أنقاض؛ ولم يُعَد بناؤهما بصورة منتظمة بعد ذلك. وفي طبريا استعمل الناس والدواب درباً للمشاة يؤدي إلى البلدة ويتنكب أنقاض الباب الجنوبي بدلا من استعمال طريق هذا الباب.

وفيما يتعلق بالنشاطات الاقتصادية فليس هنالك من شيء يمكن الحديث عنه في هذه الفترة بالنسبة لطبريا. وأما صفد فلا يتجاوز ما لدينا عنها إشارات طفيفة حول تصنيع الزيتون والعنب والقطن (محلّات الحياكة والصّباغة). وبناءً على المعطيات المتعلقة بعدد السكان، والتي تتناقض تناقضاً عجيباً فيما بينها، فانه يتعذر علينا حتى أن نتأكد مما إذا كان اليهود المقيمون في المدينة قد شكلوا أغلبية السكان، ومتى كان ذلك[٣٨٠]. ولكن مما لا شك فيه أن المدينتين نَمَتا ثانية بعد الزلزال بسبب الهجرة اليهودية وأن السكان اليهود قد طبعوهما بطابعهم الخاص. وكان هؤلاء يعيشون على الصدقات والحرف الصغيرة، وعلى البدالة (البيع بالتجول) والأعمال المالية الصغيرة. وكان قسم كبير منهم تحت الحماية البريطانية. ولما كان في طبريا وصفد من ٤٠٠ ـ ٥٠٠ عائلة من رعايا النمسا (وخصوصاً من غاليسيا وبوكوفينا)، فقد عينٌ لهاتين المدينتين في سنة ١٨٥٨ وكيل قنصل نمساوي. وكان مقرّه صفد [ميكلاسييفتش Miklasiewicz][٣٨١]. وذكر أنه كان في صفد وطبريا ٣٠٠٠ شخص يتمتعون بحماية فرنسا. وفي سنة ١٨٧٤ أصبح شخص يدعى صموئيل أبو، وهو جزائري متجنس بالجنسية الفرنسية، كبيراً لحاخامات صفد ثم وكيلا للقنصل الفرنسي في الجليل كذلك[٣٨١].

= 377—384, Hergt, 43—46, Porter, 263f., Vogüé, 106—112; **SWP, Galilee,** 199f und 248—250; Guérin, **Description,** VII, 419—421; Ebers/Guthe, I, 338—341, Vaux, 372; Oliphant, **Haifa,** 85f.

وفيما يتعلق بطبريا قارن:

Lynch, 88f., 93, Frankl II, 347—362, Bovet, 356—360; Sepp, II, 142f., 146; Furrer, 358—363; Thomson, **The Land and the Book,** 399f., Hergt, 80—82; Macgregor, 355—357; Vogüe. 112—116; SWP, **Galilee,** 361f, Guérin, **Description,** VI, 250—252, Ebers/Guthe, I, 318—322; Rückert, 350—354; Vaux, 351, 354; Livingstone, 29f., 40—52.

(٣٨٠) ففي كتاب SWP, **Galilee,** 199 جاء أن عدد سكان صفد بلغ ٣٠٠٠ مسلم و١٥٠٠ يهودي و٥٠ مسيحياً. وتحت ذلك مباشرة ذكرت معطيات حورين دون تعليق: ٧٠٠٠ يهودي و ٦٠٠٠ ملسم و١٥٠ مسيحياً!.

(٣٨١) HHSTA-AR, F8/19 (Beirut, 28.2.58). وقد بقيت هذه الوظيفة في هذه العائلة (المسيحية) بصفد حتى سنة ١٩١٨. Breycha – Vauthier, 125. ولم يكن ميكلا سيفتش، كغيره من القناصل النمساويين، سعيداً باليهود المتمتعين بحمايته. وما لم يكن مونتفيوري يريد حتى أن يصدقه [Loewe, II, 178f]، نقرأه بالتفصيل في الملفات النمساوية: فقد شكا ميكلا سيفتش مراراً في بيروت، وبلا موارية، من الاحوال غير اللائقة، في رأيه، ليهود صفد، وقد وجّه ضدهم اتهامات شديدة بسبب تصرفاتهم المخالفة للقانون حسب رأيه.

HHSTA-AR, F8/38 (Safad, 20.12 1864, 23.12.1864, 9.11.1865).

وبخلاف ذلك فإن أوروبا لم تهتم كثيراً بهذا الجزء من فلسطين.

وفي مقابل ذلك حاولت السلطات العثمانية توطين «المهاجرين» هناك: جزائريون وكذلك، ابتداءً من سنة ١٨٧٨، شراكسة وتتار من بلغاريا والروميلي. وكان يكمن وراء ذلك في الحقيقة رغبة مزدوجة في إيجاد ثقل إسلامي لمواجهة اليهود الذين كانوا يتمتعون بأكثريتهم الساحقة بالحماية الأوروبية، وكذلك دفع التطور في هذه المناطق إلى الأمام. وتمّ توطين جماعة من الجزائريين، الذين تبعوا عبد القادر إلى المنفى، في نهاية الخمسينات شمال بحيرة الحولة على مقربة من طبريا وفي صفد[٣٨٢]. وفي هذه المدينة شكل هؤلاء في السبعينات نصف المسلمين[٣٨٣]. وإلى جانب القرى الدفاعية الشركسية في مرتفعات الجولان وفي شرق الأردن (عمان)[٣٨٤]، نشأت أيضاً مستوطنات للشركس حول طبريا وصفد. لكن هذا المشروع مني بالفشل. وكثير من أولئك الذين لم يسقطوا ضحية للمناخ على أية حال رحلوا من هناك. أما الآخرون فقد وصفوا بأنهم «مصدر رعب للفلاحين». وقد نزلت العائلات «الوجيهة» في هاتين المدينتين، حيث كانت تتلقى المساعدات من الحكومة. ووفقاً لـ «الاستفتاء» الذي أورده ميكلا سيفتش كان هؤلاء يعيشون على النهب الذي جلبوه معهم من بلغاريا.[٣٨٥] وعلى أية حال فلم يكن يتوقع من هذه المحاولات العثمانية للتوطين أية مساهمة في تطوير صفد وطبريا اقتصادياً. وهكذا بقيت المدينتان في فترتنا هذه على الهامش، سواء من الناحية الاقتصادية أو الناحية السياسية. بيد أن لورتت أكد وجود طفرة ملحوظة في طبريا حوالي سنة ١٨٨٠[٣٨٦].

---

(٣٨١) Slousch, 247.

(٣٨٢) PRO-F.O 78, vol. 1448 (Jerusalem, 19.12.1959); Thomson, **The Land and the Book**, 261, Karmon, «The Settlement», 11; Bardin, 15–17

(٣٨٣) SWP, **Galilee**, 199

(٣٨٤) Oliphant, **The Land of Gilead**, 44–54, 251–255; HL, XXIII (1879), 18; Schumacher, **The Jaulan**, 57–59; Wirth.

(٣٨٥) HHSTA-P.A. XXXVIII, Kart. 228 (Safad, 13.11.1879, Beirut, 6.12 1879). قارن ايضاً تهجّمات الميكليين على الشركس («علق مصاص للدماء»، «عصابات لصوص»، «وباء الارض» الخ...) في: **Die Warte**, 25.4., 9.5., 30.5., 13.6.1878 وكذلك Lortet, 156. ومنيت بفشل ذريع كذلك محاولة اسكان الشركس في نابلس وما حولها: AA-I.A.B. q. (Türkei) 126 (Jerusalem, 4.4.1878); ISA-DKJ, A.III.8 (Jaffa, 1 4.1878), ISA-DKJ, A.XXXIX.4 (Jaffa, 31.12 1878, Jerusalem, 28.2.1880), PRO-F.O 195, vol. 1202 (Akka, 11.7 1878); **Die Warte**, 9.5 1878, 23.10.1879.

النمر، ٣/ ٣٥-٣٩؛ الراميني، ١٥١ وما بعدها. وبشكل عام انظر بهذا الشأن:
Karpat, "The Status of the Muslim "

(٣٨٦) Lortet, 498–500.

نابلــس[٣٨٧]

إن نابلس التي تتوسّد بين جبلين عند مخرج وادٍ خصبٍ غني بالمياه بَدَت للأوروبيين في فترتنا هذه كالجوهرة بين مدن فلسطين. وعلى النقيض من صفد وطبريا مثلا فقد ازيلت منها تماماً في منتصف الخمسينات جميع آثار زلزال ١٨٣٧ . وكانت المدينة محاطة بسور ليس بمنيع كل المناعة له بابان. وأمنع من هذا السور وأفخم كانت قصور العائلات صاحبة السطوة في المدينة، «الأبراج الدفاعية المجهزة بالأبواب الحديدية[٣٨٨]»، التي «يمكن مقارنتهابقصور العائلات التي ترجع للعصور الوسطى في المدن الايطالية[٣٨٩]». وقد ذكر أن أكبر مجمع بنائي في نابلس، وهو قصر آل طوقان، كان يتسع لايواء ألف جندي[٣٩٠]. وبدا القصر الجديد للحاكم، الذي صمّمه محمود عبد الهادي بنفسه، لماري روجرز في بداية الستينات بأنه «أجمل بيت سكن رأيته في فلسطين: وهو مبني بالحجارة الجميلة المقصوصة قصاً جيداً، ومزدان بأرصفة المرمر، وبالأعمدة والأروقة المقنطرة» .[٣٩١]

مباني المدينة الفَخمة، والكثير منها كان يتألف من طابقين وحتى ثلاثة؛ والمساجد ومآذنها (خمسة كبيرة وعدد من المساجد وأماكن العبادة الأصغر)؛ والبازار المقبب البديع؛ وعدد كبير من الآبار والينابيع التي تدفقت مياهها داخل المدينة وخارجها؛ وكذلك الغُدران التي تدير الطواحين؛ والموقع وسط حقول الخضروات المرعة ومزارع الفواكه والزيتون: كل هذه فتنت الأوروبيين: نابلس «لا ينافسها منافس في فلسطين من حيث الجمال والترف[٣٩٢]».

---

(٣٨٧) قارن.: Rosen, «Ueber Nablus»; Petermann, 1, 264–269; Busch, 388–390; Mills, 87–90; Rogers, **La Vie Domestique**, 334–337; Thomson, **The Land and the Book**, 470; Tristram, **The Land of Israel**, 137–139, 400f.; Guérin, **Description**, IV, 390–403, 423; SWP, **Samaria**, 166–168, 203–210; Ebers / Guthe, I, 255–262; Rückert, 221f.; Lortet, 194–197; Vaux.311. ؛ النمر، ٢/٢٧٢ـ٢٧٤ و٢٨٤ـ٢٩٨؛ الرامبي، ١١٠ـ١١٩

(٣٨٨) Sepp, II,45.

(٣٨٩) Rosen, «Über Nablus», 635.

(٣٩٠) SWP, **Samaria**, 204

(٣٩١) Rogers. **La Vie Domestique**, 334f., 338–340; Ebers / Guthe, I. 262. وانظر ايضاً الصور والوصف في: النمر، ٢/٤٤١ـ٣٦٢.

(٣٩٢) SWP, **Samaria**, 204.

«لا نكاد نستطيع المبالغة في جمالها . . . عناقيد من البيوت ذات الأسطحة البيضاء تعشش في حضن أجمةٍ من الشجر، الزيتون والنخيل والبرتقال والمشمش وغيرها كثير تنوّع البسـاط بكل درجة من درجات الاخضرار . . . كل شيء ناضر، أخضر ناعم وفاتن مع خضرة وظل وماء في كل مكان . هناك نعومة في التلوين، وضباب أزرق غنيّ، بفعل الينابيع الكثيرة والجداول، يُونع كل تخم ٍ جاف[٣٩٣] .»

إن رخاء نابلس البادي للعيان يقوم على تجارة المدينة والحرف القائمة فيها . فقد كانت نابلس، وبقيت، خلال الفترة التي نعالجها أهم مكان للتجارة المحلية والاقليمية والإنتاج الحـرفي للصـابـون والزيت وتصنيع الصابون، وبغض النظر عن أن نابلس كانت البلد المركزي ومدينة السوق لمنطقة ظلت إلى ما بعد بداية السبعينات أهم مناطق فلسطين من الناحية الاقتصادية، فان المدينة كانت أيضاً عقدة الاتصال للتجارة والوسيط فيها في اتجاه شمالي جنوبي وغربي شرقي، من دمشق وشمال فلسطين إلى القدس وجنوب فلسطين ومن الساحل إلى بلاد شرق الأردن (وفي هذا الصدد نشأ للمدينة منافس هو الناصرة، كما سبق أن رأينـا، فيما يتعلق بالتجارة بين حيفا/عكا وبين بلاد شرق الأردن) . وكثيراً ما بلغت ايرادات جمرك المدينة في النصف الأول من الستينات ١٠٠٠٠ قرش يومياً، وتجاوزت ذلك أحياناً إلى ٢٠٠٠٠ قرش[٣٩٤] .

وعلى مقربة من خانات نابلس كانت تقوم قاعة البازار الكبرى التي ارتفعت وسط طريق البازار الرائع الذي يقطع المدينة من أولها إلى آخرها . وقد وصفت ماري روجرز البازار الرئيسي بأنه «أجمل رواق مقنطر في فلسطين : إنه أعرض وأعلى بكثير من رواق لوذر (Lowther) في لنـدن وأطـول منه خمس أو ست مرات . وفيه تعرض البضائع الأوروبية، وكـذلـك الهندية المطبوعة في مانشستر، والسكاكين من شيفيلد، والجواهر وأدوات الزينة الفـرنسية، والمـرايا الصغيرة وزجاجات النرجيلة المصنوعة من الزجاج البوهيمي والمناديل السويسرية، التي تحاكي مناديل القسطنطينية، والفناجين المصنوعة من القاشاني والخزف . لكن أبـرز التجـارات هي تجارة الحرير المشغول في دمشق وحلب، والصدريات المطرزة والطرابيش من استانبول، والمسابح المصنوعة من الكهرمان والأساور من الخليل»[٣٩٥] .

وإلى جانب وظيفة نابلس كسوق محلية ومركز تجارة اقليمي كانت المدينة تتميز بأهم

(٣٩٣) Tristram, Pathways, II, 31f.

(٣٩٤) Mills, 87.

(٣٩٥) Rogers, La Vie Domestique, 336

انتاج حرفي في فلسطين موجه نحو السوق الاقليمية[٣٩٦]. وقد اشتهر قطن نابلس بأنه أجود أنواع القطن في سوريا[٣٩٧]. فلا عجب أن كانت نابلس في فترة رواج القطن[٣٩٨] مركزاً للاعداد للتصدير: «إن الطّنين المتصل لمحالج القطن كان يحيِّينا من جميع الجهات. وكانت أكوام من قشر القطن ملقاة في الشوارع. . . ومع أننا كنا نرى في كل مكان علامات تجارة قطن ناشئة، إلا أنها لم تكن متطورة في أي مكان تطورها هنا.[٣٩٩]». ولقي القطن النابلسي بسبب نوعيته، وكذلك المنسوجات القطنية والصوفية والمصنوعة من شعر الجمال وأشغال كُلَف الملابس أيضاً، نفاقاً في الأسواق الفلسطينية وأسواق شرق الأردن ووسط سوريا، كما سبق أن رأينا، حتى بعد انتهاء الازدهار، طوال الفترة التي ندرسها هنا. وإلى جانب الحاكة والصبّاغين نذكر الحذائين وصاغة الذهب والفضة، الذين كانوا يبيعون بضاعتهم في هذا الجانب وذاك لنهر الأردن، كما نذكر منتجي زيت الزيتون الذي حظي بالتقدير في كل مكان نظراً لنوعيته.

لكن الحرفة الأكثر ربحاً كانت انتاج الصابون الذي كان - إلى المدى الذي لم يستهلك فيه في سوريا - يصدر بصورة رئيسية إلى مصر وبلاد الأناضول. وكان الصابون النابلسي يُعَدُّ حتى في بداية القرن العشرين أجود أنواع الصابون في سوريا[٤٠٠]. وفي سنة ١٨٥٢ ذكر بيترمان Petermann أن نابلس تصدر سنوياً صابوناً تتجاوز قيمته ٤ ملايين قرش، وأن الدخل الاجمالي للجمرك من صادرات نابلس كان ٢,٥ مليون قرش سنوياً، بينما بلغ الدخل من ضريبة الميري في اللواء مليونيْ قرش[٤٠١]. وتحدث روزن Rosen سنة ١٨٦٠ عن ١٥ مصبنة كانت تنتج حوالي ٤٥٠٠ قنطار سنوياً[٤٠٢]. أما غوران فذكر أن المدينة كانت تصدر بين ٤٠٠٠ و٥٠٠٠ قنطار من الصابون[٤٠٣]. ويتحدث التقرير التجاري البريطاني لسنة ١٨٨٢ عن زهاء ٣٠ معملاً للصابون في نابلس[٤٠٤]. ويورد الدبّاغ الرقم نفسه

(٣٩٦) لا يورد النمر (ج٢) مع الاسف في هذا الشأن الا معطيات عامة جداً، أو معطيات غير محددة بزمان. وفي صفحة ٢٨٦ يورد ارقاما عن المعامل الحرفية ثانية دون أن يشير إلى الوقت الذي يتحدث عنه. وفي الصفحتين ٢٩٢ و٢٩٥ يورد فقط بضعة اسماء لاصحاب معامل الصابون والتجار دون الاشارة في الصفحة الأخيرة إلى رمان.

(٣٩٧) Zwiedinek, 54

(٣٩٨) في سنة ١٨٦٣ انتج لواء نابلس من القطن أربعة أضعاف ما أنتجه في السنوات السابقة:
PRO—F.O.195, vol. 771 (Jerusalem, 28.8.1863).

(٣٩٩) Tristram, **The Land of Israel**, 137f.

(٤٠٠) Ruppin, 151

(٤٠١) Petermann, I, 266 f.

(٤٠٢) Rosen, "Uber .Nablus", 638. القنطار (الكنتال quintal) = حوالي ٤٩ كيلو غراماً.

(٤٠٣) Guérin, **Description**, IV, 399.

(٤٠٤) PP— 1883, vol. .LXXII (Jaffa, March 1883).

للسنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر[٤٠٥]. وكانت كثير من المصابن ملكاً للاشراف، وكان من بين أصحابها أيضاً نقيب الاشراف في المدينة[٤٠٦].

ومعنى ذلك فيما يبدو أن نابلس ضمّت ثلاثة أرباع المصابن الأربعين التي كانت قائمة في نابلس والقدس والرملة واللد ويافا في منتصف الثمانينات، وذكر أن الانتاج الكلي بلغ في ذلك الوقت ٤٠٠٠٠ قنطار سنوياً[٤٠٧] ويتفق تضاعف معامل الصابون في نابلس خلال ١٨٥٦ ـ ١٨٨٢ وتضاعف تصدير الصابون من يافا (انظر الجدول ٣٤) في هذه الفترة، ويفترض أن نابلس انتفعت من ذلك أكثر من سواها. وعلى سبيل المثال فان قيمة شحنة تتألف من ٣٠٠ كيس من الصابون النابلسي المصدر إلى مصر سنة ١٨٧٧ بلغت ٢٢٢٧٥٠ قرشاً كما بلغت قيمة طبخة معينة في تلك السنة ١٢٧,٠٠٠ قرش. ويروى أن اثنين من التجار أسسا شركة لشراء القلي والجير لمعامل الصابون برأس مال قدره ٢٨٠٠٠ قرش[٤٠٨].

وانعكس انتعاش نابلس الاقتصادي على النشاطات العمرانية أيضاً.

«إنها تنم عن الطراز الغربي. . . تلك الرؤوس المدببة الثلاثة أو الأربعة، لأسطحة القرميد الحمراء، التي تشمخ على الأسطحة البيضاء وقبابها الصغيرة في مواضع متفرقة من المدينة. ومن المباني الجديدة التي انشئت في السنوات العشرين الأخيرة نشير إلى الترسانة العسكرية ودير اللاتين وتوسيع المدرسة الانجيلية والبناء الجديد للكنيسة الانجيلية الصغيرة التي لا ينقصها الا البرج. . وفضلا عن هذا خان كبير ودور سكن عديدة وكلها تشهد برخاء المدينة المتزايد[٤٠٩].»

وفي سنة ١٨٧٥ فتح شارع جديد إلى مركز المدينة[٤١٠]. وتتبدى لنا بالاجمال صورةً لتطور يمضي قدماً بثبات، وإن لم يكن تطوراً مثيراً بالفعل، لأن نابلس استطاعت أن تؤكد

---

(٤٠٥) الدباغ، بلادنا فلسطين ٢/٢، ١٩٩. ويحدد رفيق وبهجت، اللذان صدر كتابهما خلال الحرب العالمية الأولى، عدد معامل الصابون ب ٢٩ معملا (ج ١، ١١٩). وتحدث كينيه Cuinet عن ١٥ معمل صابون (ص ١٨٢ و١٩١)، لكنّه اعتمد على سالنامات عثمانية قديمة العهد.

(٤٠٦) الراميني، ١١٢؛ النمر، ٢٩٢/٢ (ويقول غيث، ١٩٨١، ٢١٢، ان النمر كتب نقداً لكتاب الراميني، ولكني لم اقف عليه: احسان النمر، «نقد رسالة الراميني عن نابلس» نابلس، ١٩٧٩).

(٤٠٧) "Situation économique de la Palestine".

(٤٠٨) الراميني، ١١٤، ١١٧، ١٣٩

(٤٠٩) Ebers/Guthe, I, 262. قارن أيضاً: Oliphant, **Haifa**, 441–444; SWP, **Samaria**, 203.

(٤١٠) **Samaria**, 203

منـزلتهـا كمـركـز محلي واقليمي للتجـارة والحرف وتدعمها، ولأن تجار المدينة أسهموا في النشاطات الموجهة إلى التصدير.

الخليـــل :

كانت الخليل أعلى المدن موقعاً في فلسطين، وكانت احياؤها الأربعة يقع كل اثنين منها على جانب واحد من جانبي وادٍ فيواجهان بعضهما بعضاً[٤١١]. ولما لم يكن هناك سور للمدينة وكانت واجهات البيوت المتطرِّفة في الأحياء تؤدي عملياً وظيفة السور، وكان في الإمكان إقفال مداخل الطرق المهمّة بوضع الأبواب عليها، فان الخليل كانت ما تزال تبدو في أواسط القرن كأنها مدينة رُباعية. وفي نهاية الخمسينات بدأت المدينة تسترد عافيتها، بعد النكبـات التي تعرضت لها في العقدين الفائتين من السنين[٤١٢]. والخليل، التي وقفت في الصفـوف الأولى في الثورة ضد المصريين، تعرضت للنّهب والتدمير الجزئي بأيدي جنود ابـراهيم، وقتـل جزء من سكانها وجُنّد مئات الرجال قسراً في الجيش. وفي سنة ١٨٣٧ الحقت الهزّة الأرضية هنا أيضاً أضراراً بالمدينة. وفي الأربعينات وبداية الخمسينات جُرَّت المدينة المرة تلو الأخرى إلى الصراعات والثورات المحلية في جبال الخليل، ونهبت في سنة ١٨٤٦، على سبيل المثـال، بأيدي الجنـود العثمانيين. ويقول روزن إن القلاقل في هذا النصف الأول من الخمسينات قد «أنقصت عدد المواشي هناك بشكل هائل، حتى باتت المدينة لا تملك الآن سوى قطيع واحد من الماعز»[٤١٣]. وبعد حرب القرم وانتهاء الاشتباكات المحلية لم يبدأ في الحقيقة ازدهار اقتصادي ذو بال، إلا أن سكان المدينة استطاعوا أن ينطلقوا في نشاطاتهم التقليدية، وبشكل خاص في زراعة العنب، وصناعة الزجاج وكذلك في إنتاج خراطيم الماء[٤١٤].

وفضلا عن أن الخليل كانت معروفة للحجاج والسياح الأوروبيين عن طريق الحرم، فقد كانت معروفة لديهم أيضاً بأوانيها الزجاجية، وخاصة بالقناديل الملونة وأدوات الزينة

---

(٤١١) انظر الخارطة في روزن Rosen, "Uèber das Thal," ، وأنظر أيضا Sepp, I,489

(٤١٢) قارن بهذا الشأن

Robinson, Biblical Researches, II, 80,88, 93f., Guérin, **Description**, III, 218, 256; Spyridon, 113 f; Ma'oz, **Ottoman Reform**,118–123.

(٤١٣) Rosen, "Ueber das Thal," 497.118–123.

(٤١٤) قارن:

Die Warte, 13.3.1856, Robinson, **Biblical Researches**, 1, 213, II, 79–81, 88, Rosen, "Ueber das Thal"; Hergt, 248–255; Thomson, **The Land and the Book**, 583–585, 596–599; Tristram, **The Land of Israel**, 387; Furrer, 104–115, Guérin, **Description**, III, 245; NNM, 22 (1878), 127f.; Ebers/Guthe, II, 214f; Rückert, 65; Vaux, 119f.; Lortet, 317–333.

مثـل الأسـاور والحُلقـان والقـلائد. ومن الصحيح تماماً أن صناعة الزجاج لم تعد لها في الستينات والسبعينات تلك الأهمية التي كانت تتمتع بها في بداية القرن عندما تحدث زيتسن Seetzen عن ١٥٠ مستخـدمـاً في هذا الفـرع من الصنائع[٤١٥]، وذلك لأن أهالي الخليل تعرضوا لمزاحمة الصادرات الأوروبية إلى مصر وسوريا. ففي المحال التجارية في القدس ونابلس كانت تعرض، في السبعينات مثلا، أوان زجاجية مصنوعة في بوهيميا جنباً إلى جنب مع أواني الخليل. ومع ذلك فان ما يقوله كارمون من أن «صناعة الزجاج قد اختفت تماماً تقريباً»[٤١٦] في أواسط القرن ليس بصحيح. فان منتجات الخليل كانت تباع في مدن فلسطين وقراها، وخصوصاً بين الناس الفقراء، بكميات كبيرة، كما كانت عليه الحال من قبل، ولم يكن التجار اليهود (الباعة المتجولون منهم) آخر من يقوم بذلك في خارج المدينة[٤١٧]. وكانت هذه المنتجات تباع أيضاً في السوق الاقليمية وكذلك إلى البدو، كما كانت تباع إلى الحجاج الشرقيين والحجاج القادمين من شرق أوروبا بكميات كبيرة، وخاصة في القدس. وكانت الخليل ممثلة أيضاً في المعرض العالمي الذي أقيم في فينا سنة ١٨٧٣ بما عرض فيه من أدوات الزينة المصنوعة من الزجاج الملون[٤١٨]. ويشير تقرير وضعه القنصل الفرنسي سنة ١٨٨٦ إلى أن صناعة الزجاج بقيت مصدراً هاماً للدخل بالنسبة للخليل، حتى ولو أن هذا الفرع الحرفي لم يعد يتطور إلى الأمام: فوفقاً لتقرير القنصل كانت هناك أربع معامل تدرُ سنوياً ٦٠٠٠٠ فرنك. [ولم ترد أي معطيات حول عدد أفران الصهر أو عدد المستخدمين[٤١٩]].

بيد أن الخليل كانت تعيش في الـدرجة الأولى على الزراعة، على زراعة الكرمة، وتـربية الغنم والمـاعز وعلى التجارة مع البدو الذين كانوا يقيمون في المنطقة المتاخمة لجبل الخليل من الجنوب والشرق، والذين كانوا يأتون بمنتجاتهم (الغنم وصوف الغنم والجلود) إلى الخليل لتسويقها[٤٢٠]، كما كانت تعيش على تصنيع هذه المنتجات.

---

(٤١٥) اورد كارمون Karmon هذا في "Changes," 81.

(٤١٦) المصدر نفسه، ص ٨٣.

(٤١٧) Delpuget, 26. كانت الخليل واحدة من «المدن المقدسة» الأربع عند اليهود، وكان أعضاء الطائفة اليهودية في المدينة يتمتعون بشكل رئيسي بالحماية البريطانية والنمساوية.

(٤١٨) Zschokke, 5. قارن أيضاً: التقرير الذي وضع بمناسبة المعرض العالمي حول الانتاج في منطقة الاختصاص القنصلي للقدس، في:
HHSTA – Archiv Jer, Fasz. 54. أما مصدر أدوات الزينة الزجاجية في معرض القسطنطينية لسنة ١٨٦٣ فلا يمكن معرفته من ملاحظات واضع التقرير.

(٤١٩) "Situation économique de la Palestine".

(٤٢٠) Conder, Tent Work, II, 80; Morand, II, 66 f.

ونظراً لاختلاف مواقع المنحدرات والوديان فان قطف العنب في المناطق المحيطة بالخليل كان يمتد نصف سنة تقريباً[٤٢١]. وفي هذه المدة كان يمكن إحضار العنب الطازج دائماً من السوق. أما الجزء غير المستهلك من المحصول فكان يجفف أو يعصر، ويباع في شكل زبيب او دِبْس حتى خارج حدود فلسطين. غير أن مسلمي الخليل، بعكس مسيحيي بيت لحم وبيت جالا، لم يكونوا ينتجون النبيذ. وقد ورد في التقرير القنصلي الفرنسي الذي سبقت الاشارة إليه أن المساحة الاجمالية للكروم المحيطة بالخليل بلغت ٨٠٠ هكتار (ومساحة تلك التي حول القدس وبيت لحم ٥٠٠ هكتار[٤٢٢]).

وفضلا عن ذلك فإن الدباغة وانتاج خراطيم الماء كانتا من الأهمية بمكان بالنسبة للخليل. أما باقي النشاطات الحرفية التي تحمل اسماءً مختلفة (الصباغة والحياكة وصناعة الفخار) فكانت أقل أهمية.

أما أن تطور المدينة في الستينات والسبعينات لم يكن يعتريه الركود فهذا ما يشهد به النمو الكبير الذي طرأ على أحياء المدينة الأربعة في بداية الثمانينات، بحيث أخذت تُشكِّل الآن من الوجهة العمرانية وحدة واحدة[٤٢٣].

غـــــزة

إنَّ نشاطات غزة الاقتصادية، وهي المدينة الثانية في الكبر في فلسطين، كان يُحدِّدها ـ شأنها في ذلك شأن المدن الأخرى ـ الموقع الجغرافي والانتاج الزراعي للأراضي المحيطة والتخصص الحرفي للسكان.

وكانت غزة، مثل يافا، تقع وسط مناظر طبيعية خلّابة وبساتين ترويها المياه وتسودها أشجار الزيتون. كان قسم من المدينة يقع على تل، بينما امتدت احياؤها الأخرى، التي كانت هي وقرى الفلاحين سواء بسواء، عند سفحه إلى داخل الحدائق ومزارع النخيل والفواكه والزيتون، التي كانت تترامى في جميع الاتجاهات لعدة كيلو مترات. أما أسوار

---

(٤٢١) Karmon, "Changes", 71 f.118–123.

(٤٢٢) "Situation économique de la Palestine".

(٤٢٣) SWP, **Judaea**, 306.

المدينة القديمة وأبوابها فقد تهدمت منذ وقت بعيد[٤٢٤] . ونظراً لطوبوغرافية غزة وطريقة البناء السائدة فيها وهيكل العمالة عند سكانها، اتخذت المدينة طابعاً ريفياً بيّناً . ومع ذلك كان في غزة في نهاية الخمسينات حوالي ٥٠ مسجداً، أي بواقع مسجد واحد لكل ٢٠٠ شخص من السكان المسلمين البالغين[٤٢٥] .

وكان الجزء الأكبر من السكان يعيش على الزراعة . أما مصدرا الكسب الرئيسيان الآخران فهما حِرَفُ المدينة وتجارتها . كانت غزة مركزاً لسوق اقليمية وقاعدة مهمة للتجارة بين مصر والهلال الخصيب من جهة، ومع بلاد العرب (البن والصوف ضمن أشياء أخرى) من الجهة الثانية . وارتبطت المدينة ارتباطاً مباشراً كذلك بالنشاطات الاقتصادية التي كانت تحدثها قوافل الحجيج السنوية من دمشق إلى مكة، كما كانت هنالك على الدوام قوافل تجارية، وقد استفادت غزة من جهة من التجارة التي كانت تشجعها هذه القوافل مع بلاد العرب، ومن جهة أخرى زوّدت صوامع الحبوب التي أنشأتها الحكومة قوافل الحجاج بالمؤن التي كان ينقلها البدو إلى معان (في سنة ١٨٥٧ مثلا ١٨٦٤٠ كيلة شعير وفي سنة ١٨٥٩ حوالي ١١٠٠٠ كيلة قمح و٢٣٠٠٠ كيلة شعير) . فلا عجب إذن أن كان بين مالكي أكبر بيوت غزة عدد من شيوخ البدو أيضاً! ومما يدل على مكانة غزة التجارية وجود كثير من المصريين وكذلك المغاربة فيها . وكانت أسماء الخانات الكبيرة غنية بالدلالة : خان الزيت، وخان الكتان وخان القهوة وخان الجلّة (الحبوب)[×] وخان زاوية الهنود . ومما له دلالة أيضاً أن بعض الخانات كانت تحمل الاسم المصري (الوكالة) : وكالة أبو شعبان وأبو خضرة وعلى ساق الله[٤٢٦] .

ولما بدأ تصدير الحبوب في الازدهار في الخمسينات أصبحت منطقة غزة كذلك منطقة هامة لزراعة الحبوب الموجهة للتصدير . وسرعان ما اشترك البدو في هذه النشاطات . وقد هتف تومسون قرب غزة قائلا : «قمح، قمح، بحرٌ من القمح»[٤٢٧] . وأصبحت المدينة

---

(٤٢٤) قارن :

Porter, 204.; Sepp, II 528; Furrer, 139–147; Wallace 164; Tristram, **Pathways, I**, 5; Conder, **Palestine**, 51f.; Conder, **Tent Work**, II, 169f.; SWP, **Judaea**, 234f; Guerin, **Description**, II, 178–194, Ebers/Guthe, II, 183f.

رافق، غزة، ١٠، ٣٦ و٧٤، ٧٦

(٤٢٥) رافق، غزة، ٢٥ وما بعدها، ٢٨ ـ ٣٠، ٣٦

(×) هكذا في الأصل، في حين أن الجلة (بتثليث الجيم) تعني بعر الدواب ـ المترجم .

(٤٢٦) المصدر نفسه، ٢٨، ٣٦، ٤٧ ـ ٥٤، ٦٠، ٧٤، ٧٧، ٨٠
قارن أيضاً

Gatt, "Legende," 153.

(٤٢٧) Thomson, **The Land and the Book**, 556.

بالفعل مخزناً مهمًّا للحبوب مجهزاً بصوامع عديدة كما أصبحت سوقاً مهمّة للحبوب. ولكن لما كانت المدينة تفتقر إلى ميناء وكانت السفن التجارية لا ترسو في بحر غزة على الإطلاق والسفن الشراعية الأجنبية لا ترسو فيه الا نادراً، فقد كان تصدير القمح يتم في الدرجة الأولى عن طريق يافا والمصدِّرين هناك. ومن هناك أيضاً كانت تجلب البضائع المستوردة من منطقة البحر الأبيض. وفي سنة ١٨٧٢ مثلا لم تعرج على غزة سوى ٢٠ سفينة شراعية أوروبية وخمس سفن شراعية تركية، وكذلك ٩٦ قارباً من قوارب السواحل؛ وفي ١٨٧٣ لم يكن هناك، نظراً لضعف محصول الحبوب، سوى ١٢٨ قارباً[٤٢٨]. لكن التصدير المباشر تصاعد في الفترة اللاحقة. إلا أن التجار المحليين بقوا في هذا الشأن، بأكثريتهم الساحقة، وسطاء، والتجار الكبار والمصدرون استقروا، قبل كل شيء، في يافا[٤٢٩].

ومع تعزيز الاتصالات البحرية بين الموانىء المصرية والسورية وبعد فتح قناة السويس (١٨٦٩) تراجعت حركة القوافل من مصر واليها عبر غزة تراجعاً كبيراً بالفعل[٤٣٠]. لكن المدينة بقيت مع ذلك سوقاً ومركزاً تجارياً مهمًّا، ولم يكن بدو سيناء والنقب آخر من تعامل معه[٤٣١]. وقد وُصِفتْ أسواق غزة، كما كان عليه الأمر قبلاً، بأنها غنية في بضائعها المتعددة الأشكال بصورة تلفت النظر.

وتدل أسماء الأسواق على النشاطات الحرفية والتوزيعية المحلية: (سوق الفخار وسوق الاسكافية وسوق السرّاجين وسوق النجارين وسوق الحدادين وسوق الغزل وسوق الصوافين والنحاسين والعطارين والخضر واللحامين وسوق الحمير وسوق الجمال وسوق الحجّارة). وفضلا عن ذلك ذكرت في الوثائق التي درسها رافق المصانع والمصابن والمعاصر[٤٣٢].

أما أهم الحرف[٤٣٣] فكانت الحياكة وصناعة الفخار والصبانة. وقد وجدت منتجات الحرفتين الأوليين، التي كانت تنحصر صناعتها في معامل عائلية، سوقاً في فلسطين وعند البدو. أما الصابون فكان يسوّق في مصر قبل أي مكان آخر.

---

(٤٢٨) PP– 1874, vol. LXVII, 925

(٤٢٩) Vidal, 387; Gatt, "Die Getreidemarkt von Gaza".

(٤٣٠) **Die Karawanenstrasse von Aegypten nach Syrien, 40.**

(٤٣١) الدباغ، بلادنا فلسطين، ١/٢، ٩٧ وما بعدها و١٠٠.

(٤٣٢) رافق، غزة ٥٤ ـ ٥٩؛ Gatt, "Legende", 153f.

(٤٣٣) لا يعطي معلومات مطوّلة عن ذلك الا مؤلفات غات خاصة. "Industrielles aus Gaza", "Legende zum Plane von Gaza". وكذلك رافق، غزة: أما كتب ماير Meyer ودولنج Dowling فليست لها فائدة مطلقاً بالنسبة لفترتنا ومجال اهتمامنا. قارن أيضاً **The Land and the Book, 547, 550; SWP, Judaea, 235**؛ الدباغ، بلادنا فلسطين ١/٢، ٩٩ ـ ١٠٣؛ سكيك، ٤٤ ـ ٤٩.

وكانت صناعة الفخار أبرز النشاطات للعيان، لأن الفخاريين (الفواخيرية) كان لهم حيهم الخاص في المدينة الفوقانية. وقد أحصى غات في بداية الثمانينات ١٦ مشغلا (فاخورة) كان كل منها مجهزاً بثلاثة أفران وأربع عجلات. وكانت مشاغل الفخار تصنع بشكل خاص الجرار والأحواض من مختلف الأنواع والقناديل الصغيرة وأنابيب الفخار المختلفة الأشكال. وكانت الأخيرة تستعمل في غزة نفسها وفي غيرها من المدن الفلسطينية في بناء الدور وحواجز الشرفات (الدرابزينات) وقباب الأسطحة. أما الاختصاص الذي تميز به (فواخيرية) غزة فهو استعمال روث الجمال والأغنام كوقود. وبهذا الاسلوب تغدو الأواني سوداء رمادية وأكثر احتمالا؛ وكانت هذه مطلوبة في جميع أنحاء فلسطين وعند البدو. وكتب غات يقول: «إن القوارب التي كانت تجلب البضائع إلى غزة كانت تأخذ هي نفسها عادةً حمولة من الأواني». وذكر أيضاً أن أحد تجار الأواني جمع ثروة تقدّر بـ ٣٠٠٠٠ فرنك[٤٣٤].

واذا كانت «الجرار السوداء» هي اختصاص المدينة فان الحياكة لم تكن بأقل شأناً: «ان عدد معامل النسيج يبلغ بمجمله ١٠٠ معمل على الأقل تضم ٢٠٠ ـ ٣٠٠ نول، ومعظمها تصنع القماش للمعاطف المقلّمة، وحوالي ثلث المعامل تنتج الأقمشة الكتانية ولا ينتج إلا القليل منها الأقمشة القطنية[٤٣٥]». وكان البدو يوردون الصوف، أما الكتان والقطن فكانا يُجلبان من مصر.

وأخيراً كان هناك في غزة ثلاث مصابن كبيرة اثنتان منها كان يديرهما مسيحيّان (وكيل القنصل النمساوي السابق بصلة ووكيل القنصل الروسي السابق مدبك). أما الثالثة فكان يديرها التاجر المسلم أبو شعبان. وكان الزيت يأتي من غزة وقرى المنطقة والقليْ (البوتاس، كربونات البوتاسيوم) كان يورده البدو والجير فلاحو جبل الخليل. ولم تكن المصابن الثلاث تعمل الا في الشتاء، أما في أشهر الصيف فكانت تستعمل كمخازن للحبوب. وكان في وسعها، إذا كان محصول الزيتون جيداً، أن تنتج حوالي ٢٠٠٠٠٠ كيلوغرام من الصابون تبلغ قميتها زهاء ١٠٠٠٠٠ فرنك[٤٣٦].

ولا يوضح غات إذا كان هذا يتفق والانتاج الفعلي. ولم يكن التصدير إلى مصر بأكثريته الساحقة يتم في الوقت الذي كتب فيه غات تقريره عن طريق البر كما كان الأمر

---

(٤٣٤) Gatt, "Industrielles aus Gaza," 72.

(٤٣٥) المصدر نفسه، ٧٥.

(٤٣٦) المصدر نفسه، ٧٩.

دائماً في السابق، بل عن طريق البحر عبر يافا. ويورد غات أخباراً طريفة عن تنظيم الانتاج نقتبسها هنا:

في البداية يقوم صاحب المصبنة بتصنيع مخزونه هو من الزيت بطبيعة الحال. ثم يلبي حاجة زبائنه بعد ذلك. وهو يقوم في هذا الصدد بتوريد الجير والقلي ويشرف على العمل، لكن الزبائن عليهم أن يوردوا الزيت. ويحصل صاحب المصبنة على نسبةٍ مئوية من الصابون مكافأة له. أما الباقي فيسلمه للزبائن. ومن يعجز عن تهيئة طبخة بنفسه يستطيع أن يشرك بها غيره. أما العمل نفسه فيقوم به جماعات طيّارة من الخبراء برئاسة معلم يدعى (ريّس). وهؤلاء ينتقلون من مصبنة إلى أخرى حسب توافر العمل بالطبع؛ وهم من المسلمين، ولا يتسلمون أجرهم نقداً، بل يأخذون نسبة مئوية من الصابون ثم يقومون ببيعها[٤٣٧].

بيد أن أكثر الثروات كان يتم جمعها في غزة، كما يظهر من التركات التي درسها رافق لسنوات ١٨٥٧ ـ ١٨٦١، عن طريق التجارة (خاصة تجارة القماش) وإقراض النقود (إلى ابناء المدن بصورة فردية أو إلى قرويين مدينين بصورة جماعية)، وعن طريق الاستثمار في الانتاج الزراعي. وقد تثبّت رافق من تغلغل رأسمالي واضح واستغلال المناطق المجاورة من جانب بورجوازية غزة القليلة العدد نسبياً[٤٣٨].

الخلاصة

إن التطور الاقتصادي لفلسطين في فترة التنظيمات الثانية يجب أن يُنظر إليه في إطار جهود الدولة العثمانية لاقامة إشراف فعال على ولاياتها السورية، والاهتمام الأوروبي بـ«الأرض المقدسة»، والتغلغل الاقتصادي الأوروبي في أطراف البحر المتوسط الجنوبية والشرقية. صحيح أنه لم تكد تجري بالنسبة لفلسطين ولا بالنسبة لغيرها من المناطق العربية محاولة لتحقيق شيء ما يمكن أن يطلقْ عليه اسم «السياسة الاقتصادية العثمانية»، إلا أن «سياسة القانون والنظام» العثمانية تجاه المشايخ المحليين والبدو وكذلك الاصلاحات الادارية المركزية كانت تمثل تحسينات هامة في الظروف التي يجري في إطارها التطور الاقتصادي الصاعد.

لقد شهدت فلسطين بالفعل في فترة العقدين ونصف العقد التي تلت حرب القرم نهوضاً اقتصادياً ملحوظاً[٤٣٩]. واذا غضضنا النظر عن اقتصاديات البناء وانتاج الصابون

(٤٣٧) المصدر نفسه، ٧٨ وما بعدها.

(٤٣٨) رافق، غزة، ٦٥ وما بعدها، ٦٨.

(٤٣٩) بالنسبة للفترة من ١٨٦٥ ـ ١٩١٤ قارن أيضاً غلبار Gilbar،

وصنع أدوات التعبُّد فان المرتبة الأولى قد احتلها على أية حال قطاعاً الزراعة والتجارة، اللّذان اتّسعا. وقد استجابت الزراعة الفلسطينية حتى حرب القرم للتطورات في الأسواق الخارجية، على أنها أصبحت تتجه بشكل متزايد منذ الخمسينات نحو التصدير، واتسعت الأرض الزراعية اتساعاً كبيراً[٤٤٠]. وأصبحت الفوائض الزراعية تنتج للأسواق الاقليمية والأوروبية، وبقي الانتاج الزراعي في هذه الأثناء مرناً ومتنوعاً. ونجت فلسطين من الاعتماد على محصول واحد، الأمر الذي كان سينطوي على كارثة بالنسبة لها، بالنظر إلى الظروف الطبيعية (وخصوصاً المناخية).

وهكذا فان فلسطين لم تسهم في امداد سوريا الوسطى والشمالية بالمواد التموينية فحسب، بل أسهمت أيضاً في التوصل إلى تعادل «غير مرئي» في الميزان التجاري لسوريا بأسرها. واتسمت التجارة عبر موانىء عكا وحيفا ويافا بارتفاع فائض التصدير.

إن المدن التي كانت مراكز للنشاطات الموجهة نحو التصدير والاستيراد وللتغلغل الديني الثقافي الأوروبي (القدس وبيت لحم والناصرة ويافا وحيفا) نمت وازدهرت. إلا أن المدن الأخرى التي لم يُبد الأوروبيون اهتماماً مباشراً بها (نابلس والخليل وغزة) كان لها أيضاً نصيبٌ في التطور الصاعد. وذلك على أساس التجارة المحلية الاقليمية والانتاج المتخصِّص للسوق المحلية والاقليمية[٤٤١]: صنع الفخار والحياكة في غزة، وانتاج العنب وصنع خراطيم الماء والأواني الزجاجية في الخليل، وصنع الصابون وتصنيع القطن في نابلس. ومن الجدير بأن نشير إليه مرة أخرى في هذا السياق التخصص في تلبية حاجات اقتصاديات البناء وفي صنع أدوات التعبُّد في بيت لحم، وكذلك في الأعمال اليدوية المتعلقة بالبناء وفي انتاج الأدوات المستعملة في الزراعة في الناصرة.[٤٤٢].

ومعنى هذا أننا نستطيع أن نؤكد حدوث زيادة عامة في الانتاج للأسواق المحلية والاقليمية والأوروبية، وتحولٌ يتفق وتغيرات السوق في الاهتمام بانتاج سلع زراعية معينة. ومع ذلك فلم تظهر في الفترة التي درسناها، لا في القطاع الزراعي ولا القطاع الحرفي، منتجات لم تكن معروفة حتى الآن في فلسطين، كما لم تطبق أساليب أساسية جديدة في

---

(٤٤٠) وفقاً لتقرير قنصلي أميركي يرجع الى سنة ١٨٨٢ زادت الأرض التي تزرع فيها الحبوب في العقد السابق في مناطق القدس والخليل ويافا وغزة زيادة تتراوح بين ١٥٠٠٠٠ و٢٠٠٠٠٠ فدان (اوين: Owen,176) ويعتقد اوين أن هذا التوسع مسّ لواء غزة بالدرجة الأولى.

(٤٤١) قارن أيضاً نشوء وتطور. . . » رقم ٢٧، ٣٤ ـ ٤٨.

(٤٤٢) كان هذا في العادة من شأن الصنّاع اليدويين في القرى، الذين كانوا يتنقلون من مكان الى آخر. قارن:
Schumacher, "Der Arabische Pflug," 165f. وكذلك Klein, "Mittheilungen" 1881, 68f.

الانتاج. والآلات القليلة التي استخدمت في هذه العقود كان عددها ضئيلاً لا يعتدُّ به. وكذلك فإن استخراج الثروات الكامنة في باطن الأرض[٤٤٣] والتي كان وجودها معروفاً واستغلال هذه الثروات وتصديرها لم يتمّا على نطاق يُؤبه له.

ومعنى ذلك انه لم تجر في المجال الاقتصادي الضيِّق في فترتنا هذه أية إعادة هيكلة أو أي تغيرات جذرية في الشكل في سياق التغلغل الأوروبي. صحيح أن استيراد المصنوعات القطنية البريطانية بشكل خاص (انظر الجدول ٣٣) كان لا بد أن يؤثر على صناعة الحياكة المحلية[٤٤٤]، في نابلس مثلاً، كما كانت الحال عليه في سائر أنحاء الشرق الأدنى. بيْدَ أن هذه لم تكن مشكلة تمس الكيان الاقتصادي لفلسطين. فأولا لم يكن هناك في فلسطين في القرن التاسع عشر أي مركز إقليمي كبير لانتاج المنسوجات، بل كانت البلاد تعتمد بصورة دائمة على «الاستيراد» من المدن السورية. وثانياً كانت حاجة سكان الريف إلى المنسوجات تُلبّى ضمن نطاق معين، وكما كانت عليه الحال من قبل، عن طريق الحياكة المنزلية في القرى[٤٤٥]. وثالثاً ظلت الحياكة حتى في نابلس وغزة والمجدل، مصدراً هاماً للرزق، لأن الاتجاه تركز كلياً على تلبية الاحتياجات المحلية.

ومع ذلك فان دمج فلسطين المتزايد في الاقتصاد العالمي كان له أثران اجتماعيان اقتصاديان هامان على التطور المقبل. الأثر الأول كان التغير في علاقات الملكية الزراعية، وخصوصاً نشوء الملكية الكبيرة للأرض، والأثر الآخر كان نشوء بورجوازية تجارية ومالية بدأ رأسمالها يتغلغل أيضاً في الأرض الزراعية في الريف. أي أنه تم بذلك إلى هذا الحد وضع الأسس لربط فلسطين بالمحيط الخارجي، لأن الفئات الاجتماعية المؤلفة من ملاكين كبار وتجار تصدير واستيراد هي التي كانت تشجع قبل الجميع، بدافع مصالحها الخاصة، شكلاً من أشكال توجيه الاقتصاد إلى الارتباط بالمحيط الخارجي. وفي هذا الاتجاه كان يكمنُ ربط مصير البلاد بالقرار الذي يأتي من الخارج.

---

(٤٤٣) وخصوصاً الملح والكبريت والقطران والقلي والبوتاس والجبس والنحاس والأحجار الكريمة, قارن بهذا الشأن:
MAE-CCC Jér, t. 2 (Jerusalem, 1 7.1847), PRO-F O 78, vol. 1419 (Jerusalem, 30.8.1856 – Answers to Queries), PRo-F.O 78, vol. 1675 (Jerusalem, 3 3 1865), HHSTA – Archiv Jer, Fasz. 54, Esposizione 1873; ISA-DKJ, A.XXII.1. c. (Jerusalem, 5. und 7.9 1877), MAE-CPC Jér., t. 14 (Jerusalem, 24.10 1879); Thomson, **The Land and the Book**, 223; Zwiedinck, 35; **Die Warte**, 4.4.1879, Fraas, Schick, "Landesproducte Palästinas", 162–165; Oliphant, **The Land of Gilead**, 295; Tristram, **The Land of Israel**, 221, 224, 240–242, 316f., Azoury, 16f.; Musil, I, 18f. und II/1,21.

(٤٤٤) قارن أيضاً:
Avitsur, 486; Baer, "The impact of Economic Change," 495

(٤٤٥) قارن: HL, XI (1867), 90; Klein, Mitthellungen, 1881," 68f.

إلا أن التنوع النسبي في الانتاج الزراعي وتكييف الانتاج الحرفي وفق الاحتياجات المحلية والاقليمية بقيا قائمين في فترتنا هذه، رغم توجيه التصدير إلى الخارج. وبقيت آثار الربط بالمحيط الخارجي ضمن حدود أيضاً لأن فلسطين، بوصفها مورداً للمنتجات الأولية وسوقاً للبيع، لم تستطع من وجهةٍ كميةٍ أن تشد إليها الاهتمام الذي أثارته مصر أو لبنان أو وسط سوريا أو شمالها، حيث كانت دمشق وحلب، أو الأناضول مثلا. وقد اعتبر مستثمرو رأس المال الأوروبيون المحتملون فرص الأرباح القصيرة الأمد في «الأرض المقدسة» ضئيلة للغاية، وكان اهتمام الدول الأوروبية بالتغلغل الاقتصادي المكثف أقل بكثير من اهتمامها بالمشاركة «المعتدلة» في الاشراف السياسي على البلاد. وكانت فلسطين حالة خاصة أيضاً من حيث تدفّق مبالغ غير قليلة من المال إليها في إطار «الحملة الصليبية السلمية» لتمويل أعمال البناء ومنشآت التعليم والأعمال الخيرية الدينية، وهي المبالغ التي كسانت تمثل في أحسن الأحوال «استثمارات سياسية»[٤٤٦]. إن هذه النشاطات الأوروبية لم تجلب معها في بداية الأمر تغييراً جذرياً في الهيكل الاجتماعي. بيد أن ادعاءات السيطرة للدول الأوروبية من جهةٍ والمساعي الأوروبية لاستعمار البلاد من جهةٍ أخرى كانتا نقطة الانطلاق نحو تطورات سرعان ما داهمت المجتمع الفلسطيني بصورة مثيرة.

---

(٤٤٦) قارن مثلا : .Oliphant, Haifa, 397 f . قدرت قيمة الممتلكات الألمانية في فلسطين سنة ١٨٧٧ كما يلي: الممتلكات المنقولة وغير المنقولة الخاصة بالأفراد الألمان في القدس ٢ر١ مليون مارك، وتلك الخاصة بالمستعمرات الألمانية ٤ر٣ مليون مارك، وأملاك الدولة والمنشآت في القدس ٢ مليون مارك، ورأس المال المستثمر في البيوت التجارية الألمانية ٢ر٢ مليون مارك. والمجموع ٨و٨ مليون مارك:
ISA–DKJ, A XXXIX. 3 (Jerusalem, 20.3.1877).

الجزء الثالث
التطور الاجتماعي السياسي

تشكيل المجتمع
حتى منتصف القرن التاسع عشر
المشكلة

قبل أن نتناول التحول الاجتماعي السياسي في فلسطين تحت الضغط المزدوج لسياسة المركزية العثمانية وللتغلغل الاوروبي علينا أن نوضح هيكل المجتمع وطابعه الذي يشكّل التحول الذي طرأ عليه موضوع هذه الدراسة. وكنت قد ناقشت هذه المشكلة في مكان آخر ضمن سياق اوسع. ولنشر إلى هذه الدراسات هنا[٤٤٧]. وهي تقوم في اطار الجدل حول الاقطاع أو النقاش حول تشكيل المجتمع ونمط الانتاج في الدولة العثمانية.

إن مدى اهمية تحديد طابع الظروف الاقتصادية والاجتماعية والادارية لفلسطين قبل بداية سياسة التنظيمات العثمانية والتغلغل الاوروبي يتجلى من كتاب Sozialgeschichte Palästinas (تاريخ فلسطين الاجتماعي)، الذي اشرنا إليه في بداية كتابنا هذا. إن المؤلّف تخلّص من مهمته التعريفية بأن حاول تكوين مزيج من ماركس وفيبر وفتفوجل Wittfogel وماندل ومونتسكيو وغيرهم من المنظرين[٤٤٨]. فمن اجل تحديد طابع المجتمع العربي أو العثماني بوجه عام والمجتمع الفلسطيني في العهد العثماني بوجه خاص صنع فوق ذلك تشكيلة مشحونة بالاخطاء الموضوعية[٤٤٩] من التصورات والمصطلحات تحبس الأنفاس رأساً: استبداد اقطاعي يحمل سمات رأسمالية الربح الفائض، نمط انتاج اسيوي أو شرقي يقوم على اساس زراعة النباتات بالماء*، هيكل شبه اقطاعي مع قسمات تجارة رأسمالية، نمط انتاج اقطاعي مبكر مع ظروف انتاج رأسمالية مبكرة في بداية نشوئها، اقطاعية دارة للربح ذات طابع سلطاني، سلطنة شرقية مع ارستقراطية اقطاعية، نظام اقطاع عسكري مع عناصر مختلطة من الالتزام والارهاب (الأخير يأتي من مونتسكيو)، حكم ثيوقراطي، فوضى اقطاعية، وهكذا وهكذا. وبالنظر لهذا التشوش في المصطلحات تنشأ

---

(٤٤٧) "Was There a Feudal System in Ottoman Lebanon and Palestine?"
وكذلك
"Zum Problem eines außereuropäischen Feudalismus".

(٤٤٨) Irabi, 7–15, 30–42.

(٤٤٩) فهو يخلط مثلا بين الانكشارية واصحاب التيمار!

(*) زراعة النباتات في ماء اذيبت فيه بعض المواد المغذية، وهي طريقة حديثة طبعاً ـ المترجم.

ضرورة ملحة لتبيين النوع الصحيح للنظام الاجتماعي الاقتصادي والسياسي القانوني الذي نتعامل معه بالفعل.

يترتب علينا في المقام الأول أن نُناقش وصف المجتمع الفلسطيني في العهد العثماني بانه مجتمع اقطاعي. بل إن مفهوم الاقطاع قد وظف عدة مرات حتى لتحديد الحقائق الاجتماعية السياسية والحقائق الاقتصادية لغاية سنة ١٩٤٨. وهكذا فان هولشتاين Hollstein وصف الطبقة السائدة العربية في فلسطين الانتداب بانها اقطاعية (اقطاعيون و طبقة اقطاعية، زعماء اقطاعيون، عشائر اقطاعية، فئة اقطاعية حاكمة[٤٥٠]). و يؤكد أن «تخلف العرب الاجتماعي السياسي في درجة التطور إزاء اليهود هو الذي حسم الصراع الوطني على السلطة في فلسطين. فقد جلب اليهود الاوروبيون إلى بلاد[٤٥١] ذات تركيب اقطاعي ظروف انتاج رأسمالية».

وفضلاً عن ذلك تواجهنا مشكلة مؤداها أنه كثيراً ما يفترض دون ما روية وجود تشكيلة مجتمعية موحدة أو نمط واحد في الانتاج في جميع بلدان الشرق في الفترة السابقة للاستعمار.

علينا أن نؤكد إزاء ذلك اننا لا نتعامل هنا في هذه المنطقة الجغرافية الواسعة التي كانت تكون الدولة العثمانية مع تركيبة مجتمعية واقتصادية موحدة، تركيبةٍ ثابتة لا تتغير مدى القرون، بوجه من الوجوه. فنحن نواجه بالاحرى ظروفاً محددةً اقليمياً وتتفاوت فيما بينها ادارياً واجتماعياً واقتصادياً، كان يضعها التنظيم الاداري للدولة أيضاً في الاعتبار. إن مجتمعات بلدان البلقان و بلاد الاناضول وجبل لبنان ومناطق المدن المتاخمة لبادية الشام ووادي النيل والدلتا وشبه جزيرة العرب الخ كانت تختلف فيما بينها اختلافاً جوهرياً بحيث يتعذر علينا ببساطة أن نعمّم عليها الحكم ونزنها بميزان تحليلي واحد. كانت المجتمعات البدوية والفلاحية ومجتمعات المدن العالية التطور تقوم جنباً إلى جنب. وقد دل تركيب المجتمعات الفلاحية على وجود اختلافات اقليمية كبيرة فيما بينها.

كان التنوع الجغرافي والانثروبولوجي الجغرافي يتناسب وتنوع التنظيم العسكري والسياسي الاداري والاقتصادي المالي للدولة. فإلى جانب السباهي ـ مجموعات الفرسان ـ الذين كان عليهم أن يعيّنوا اصحاب ما يدعى بالاقطاعات العسكرية المعروفين بالتيماريين، كان هناك الانكشارية وهم صفوة الجنود المشاة الذين كانوا يجندون كعبيد

(٤٥٠) Hollstein, 141—143, 146.

(٤٥١) المصدر نفسه، ١٤٤.

و يتمّ ايواؤهم في ثكنات في المدن وكذلك فصائل المرتزقة والجنود المحليين[٤٥٢] . وإلى جانب نظام التيمار، وهو منح ما يُدعى بالاقطاعات العسكرية، كان هناك نظام الالتزام، والجمع المباشر للضرائب والفرائض من جانب الادارة[٤٥٣] . وكان ارباب السلطة في الولايات، إلى جانب التيماريين، هم الحكام الذين ترسلهم القسطنطينية أو تعيّنهم، وكذلك الاعيان المحليون في الريف والمدن. وعندما قال هنتزه Hintze : «أما الاقطاع بمعناه التام، كنظام، فلا اجده حتى الآن (فيما خلا اوروبا الغربية والوسطى)، ولو مع انحرافات قوية واشكال خصوصية، الا في ثلاثة اماكن في الدنيا، هي روسيا والدول الإسلامية واليابان»[٤٥٤] فقد كان يعوزه ببساطة الاطلاع الكافي، أو انه كان يتجه ببصره فقط إلى نظام التيمار العثماني الذي كان يعتوره الانحلال حتى منذ نهاية القرن السّادس عشر. فلم يكن هناك اقطاع عربي عام[٤٥٥] ولا اقطاع عثماني عام ولا اقطاع ايراني[٤٥٦] .

إن منطلق تفكيرنا ينبغي أن يكون بالاحرى الحقيقة التي تشير إلى أن بعض مناطق الدولة العثمانية كانت مندمجة بصورة اشد في رابطة الدولة من المناطق الأخرى. و بعضها كان ضعيف الاندماج فيها فقط. ونقصد بالاندماج التغلغل الاداري من جانب القسطنطينية في هذه المناطق. ومن بين هذه المناطق الأخيرة كان جبل لبنان في المقدمة، وفي القرنين السابع عشر والثامن عشر منطقة الجبال الفلسطينية أيضاً. ولاعتبارات متعددة ليس آخرها الظروف الطبيعية امكن هنا لأشكال التنظيم الاجتماعي والاداري أن تحافظ على استقلالها الذاتي نسبياً أو أن تتطور، خصوصاً وأن عملية لامركزية الدولة كانت قد بدأت حتى منذ نهاية القرن السادس عشر، ولم تصل إلى ذروتها إلا في القرن الثامن عشر[٤٥٧] . هذه الحقائق تستلزم النظر إلى اقاليم الدولة المختلفة كلا على انفراد. ومن السخف أن نتوقع أنّ ما يقال عن التركيب الاجتماعي في الجبال الفلسطينية ينبغي أن

---

(٤٥٢) فيما يتعلق بسوريا خاصة انظر :
Rafeq, "The Local Forces".

(٤٥٣) قارن · "Lewis, "Ottoman Land Tennre والمصادر التي وردت في بحث شولش .
Schölch, "Was There a Feudal System?"

(٤٥٤) Hintze, 27.

(٤٥٥) قارن بهذا الشأن :
Cahen; Robinson, 91-104

(٤٥٦) قارن بهذا الشأن
وأيضاً Müller (الفصلان الثاني والثالث).

(٤٥٧) قارن :
Rafeq, "Changes in the Relationship"; Hourani, "The Fretile Crescent in the Eighteenth Century".

ينطبق أيضاً على المجتمع الفلاحي في وادي النيل أو المجتمع العشائري في بلاد ما بين النهرين. ومع ذلك فان الحديث يتكرر دائماً عن التركيب الاجتماعي، عن نمط الانتاج في الدولةالعثمانية أو في الشرق قبل عهد الاستعمار.

وعندما نطرح السؤال الآن عما إذا كان الوصف الذائع الانتشار للمجتمع الفلسطيني بأنه مجتمع اقطاعي هو وصف صائب ينبغي قبل ذلك ايضاح مفهوم الاقطاعية الذي تستند إليه هذه التصورات. ليس في وسع المرء أن ينطلق من وجود مفهوم علمي للاقطاع يحظى بالقبول الإجماعي، بمعنى أن يعني الجميع الشيء نفسه عندما يتحدثون عن الاقطاع، عن المجتمع الاقطاعي، عن النظام الاقطاعي. إلا أنه قد نشأ تفهم يستند إلى قاعدة عريضة نسبياً، و يهدف إلى التوصل إلى تركيب يندمج فيه «ثالوث الاقطاع» الذي ساد حتى الآن في مفهوم واحد شامل و بوصفها مفاهيم للاقطاع «باعتباره بنية (قانو ية) تتصل بالنبلاء، ونموذجاً من نماذج المجتمعات، ونظاماً اجتماعياً اقتصادياً عاماً (نمط انتاج)[٤٥٨]». وهذا الدرب هو الذي نسلكه هنا، اي اننا سنستنير باعمال مؤرخي اورو با وغير اورو با المهتمين بالنظريات مثل اندرسون Anderson وكوخنبوخ Kuchenbuch وكاهن Cahen ونخرج من ذلك بالتفهم التالي للاقطاع معروضاً بايجاز[٤٥٩].

إن الانتاج الزراعي و«الاقتصاد الفلاحي» هما الاساس الاقتصادي للمجتمع الاقطاعي. وفي هذا المجتمع تكون وسائل الانتاج عملياً بايدي الفلاحين الذين ينظمون استغلال الارض بصورة مستقلة. و«السيد الاقطاعي» الذي يتبعونه يحصل على فائض المحصول في شكل ريع عمل، وريع طبيعي، وريع نقديّ عن طريق ما يسمى بـ«الإلزام غير الاقتصادي»، وهو الزام لا يقوم على اساس اقتصادي بَحت، بل على اساس علاقات إلزام سياسية قانونية أو، بعبارة أخرى، علاقات تبعيّة. وهذه الريوع يتمّ الاتّجاه الى استخدامها في الأغراض الاستهلاكيّة. والعوض الذي يقدمه «السيد الاقطاعي» مقابل ذلك يتمثل في حماية الفلاحين. اما ذلك الجزء من الأرض الذي يقع تحت اشرافه فيستغله بالصورة التي يريد، اي يستغله لنفسه بصورة مباشرة.

إن تقييد السلطة السياسية القانونية والاشراف الاقتصادي هو محتوى تنظيم الحكم ونتيجته. والعنصر الاساسي فيه هو تجزئة الحكم. فالكيان الواحد الكبير لا يستمدّ تماسكه

---

(٤٥٨) Kuchenbuch/Michael, 18.

(٤٥٩) قارن

Anderson, **Passages**; Anderson, **Lineages**; Bloch; Brunner; Cahen; C.E.R.M.; Dobb; Hintze, Kuchenbuch/Michael; Sweezy; Wunder.

من إدارة مركزية، بيروقراطية دولة، بل من شبكة من الولاءات. كذلك فان صلاحيات الحكم لا تنقسم حسب الوظائف بل حسب الأشخاص. وممارستها مرتبطة من حيث الجوهر بالاشراف الاقتصادي على الاقطاعات المنفردة. وكان صاحب «اقطاعة» كهذه يدين بالولاء للسيد الأعلى في تسنم مركزه الموروث أو المغتصب وفي اكسابه صفة الشرعية، وخاصة فيما يتعلق بتبعيته العسكرية له. وفيما عدا ذلك فهو موجود في مقر سيطرته، وسلطانُه يستند إلى ما يقعُ تحت تصرفه شخصياً من وسائل الإلزام (الفرسان المسلحون) وإلى سلطته القضائية، بوصفها الشكل المركزي لممارسة السلطة السياسية.

إن المجتمع الاقطاعي هو «مجموعة من الطبقات ذات المراتب»[٤٦٠] و يعني ذلك أن هيكله الاجتماعي لا يمكن تفسيره بالاستناد إلى الاشراف على وسائل الانتاج حسب، بل ان التمايز الاجتماعي فيه تحدده بالأحرى اعتبارات اقتصادية وسياسية وقضائية. في المركز يقوم التجاور بين طبقة ذات مراتب من النبلاء حاملي السلاح تسبغ على وضعها صفة الشرعية بوظائفها العسكرية، وطبقة فلاحين. ومبدأ العلاقات الاجتماعية هو الولاء والتبعية الشخصية، والحماية الشخصية والخضوع الشخصي؛ وفي هذا الصدد تتجه العلاقات الاجتماعية فيما فوق مستوى ما يدعى بالمنتجين المباشرين إلى التكافؤ، بينما هي تتجه إلى اللاتكافؤ بين الفلاحين والسادة. و يتمثل منطق اللاتكافؤ على هذا المستوى في أن الفلاحين مربوطون بالأرض التي يقومون باستغلالها..

أإقطاعيّة في فلسطين؟

أوردت في البحثين المذكورين أعلاه[٤٦١] حجة مفادها أننا فيما يتعلق بجبل لبنان حتى منتصف القرن التاسع عشر نجد أنفسنا حقاً إزاء نوع من أنواع الاقطاع. كان لبنان امارة خاضعة للإتاوة ذات استقلال ذاتي، و يتوجب تحديد هيكل الحكم فيها في المقام الأول من داخلها لا عن طريق القسطنطينية. وكانت المنطقة التي يمثلها الأمير تجاه العالم الخارجي تتألف من مقاطعات كان الاشراف السياسي القانوني والاجتماعي الاقتصادي عليها في أيدي عشائر كبيرة ذات نفوذ (القرابة فيها من جهة الأب). وكان على رأس هذه المقاطعات مقاطعجية، أي زعماء اقطاعيون، يدينون للأمير بالولاء والتبعية العسكرية

---

(٤٦٠) Kuchenbuch / Michael, 732.

(٤٦١) انظر الحاشية (٤٤٧).

وعليهم أن يجمعوا له الا تاوة المترتبة عليه . وكان المقاطعجية يمارسون في «اقطاعاتهم»، بمساعدة أتباعهم الشخصيين المسلّحين الاشراف الذاتي القضائي والاجتماعي والاقتصادي على الفلاحين الخاضعين لهم شخصياً . وكان الأساس الاقتصادي يقوم على الانتاج الزراعي المخصص للاحتياج الذاتي وللتبادل الاقليمي الضيق وعلى العمل اليدوي المحلي . ولم يكن للفلاحين اتصال بادارة الضرائب العثمانية . لكنهم كانوا يتعرضون بالأحرى إلى الاستيلاء على المنتجات الزائدة التي حصّلوها بعملهم في شكل ضرائب طبيعية ، أو «رسوم» أو خدمات سخرة . وكان هذا الاستيلاء متعدد الأشكال و يتم حيناً بصورة غير منتظمة ، وكثيراً ما كان يتجاوز الحدود ، كما كانوا يتعرضون للابتزاز العام من الإتاوات المفروضة من المقاطعجي . وكانت العلاقات الاجتماعية الأساسية هي انتماء الفلاحين أو ولاؤهم إلى بيت سيدهم الاقطاعي الذي يترتب عليه تجاههم واجب الحماية .

وفيما يتعلق بفلسطين[٤٦٢] فان هناك كثيراً من الشواهد التي تؤيد ابتداءً ما ذهب إليه بوراث من وجود شبه بين النظام الاجتماعي في المناطق الجبلية في كل من فلسطين ولبنان[٤٦٣] حين ينصرف ذهننا إلى تجزئة الحكم ، أي إلى تحديد مناطق الإشراف الاجتماعي السياسي والاقتصادي من جانب العشائر المسيطرة ، وإلى ظروف التبعية الاجتماعية الاقتصادية والسياسية القانونية بين الفلاحين و بين الزعماء المحليين ، وإلى المسلمات القائمة عند العائلات الوجيهة (النبيلة)[٤٦٤] واشكال حياتها ومنافساتها . ومع ذلك فان الفوارق تبدأ حتى في شكل الدمج الأصلي في الدولة العثمانية المتمددة . فان فلسطين بناءً على اهميتها الاستراتيجية والتجارية (طرق عسكرية وطرق تجارية بين دمشق والقاهرة)، خلافاً للبنان ، قد دمجت ابتداء بعد الفتح دمجاً ادارياً كاملاً بالدولة وغُطّيت بالتيمارات (حصيلتها السنوية ٣٠٠٠ ــ ٢٠٠٠٠ اقجة) والزعامات (تيمارات كبيرة تتراوح حصيلتها بين ٢٠,٠٠٠ و١٠٠,٠٠٠ اقجة) .

على اننا نود أن نؤكد ، خلافاً للمفهوم الذي ما زال واسع الانتشار حتى الآن ، أن هذه التي تدعى بالاقطاعات العسكرية لا يجمعها جامع بالنظام الاقطاعي ، لانها كانت

---

(٤٦٢) قارن بهذا الشأن :

Abir; Baer, **Fellah and Townsman**, 82–88; Barguthy, "Traces"; Cohen; Cohen / Lewis; Hoexter; Hütteroth / Abdulfattah; Macalister/ Masterman; Mantran / Sauvaget; Sharon.

البرغوثي وطوطح ، تاريخ فلسطين ؛ دروزة ؛ النمر ١[١]/ ٨١-٣٤٢ و٢ / ١٧٤-٢٧١ و٣٦٠-٥٥٣ .

(٤٦٣) إن النظام الاجتماعي في فلسطين في العهد العثماني وحتى قبل ذلك يشبه النظام الذي كان سائداً في امارة جبل لبنان ، لكن دون أمير: Porath, **The Emergence**, 9.

(٤٦٤) قارن مثلاً : Klein, «Mittheilungen 1883», 65, Canaan, «Vom arabisch – palestinischen Familienleben,» 13,17.

تخدم الاهداف العسكرية والمالية المباشرة للسلطة المركزية. فلم تقم عن طريقها «اقطاعات» مستقلة بذاتها على اساس نظام التبعية الشخصية. إن التيماريين قاموا جنباً إلى جنب مع الحكام، ولكنهم لم يقوموا مقامهم. كانت هناك مهمّات خاصة يضطلعون بها في دولة مركزية، ولكنهم لم يمارسوا اختصاصات سيادة قضائية، ولم يلعبوا دوراً مباشراً في الميدان الزراعي. وبطبيعة الخصائص التي تميز بها هذا النظام فانه سقط بادخال اللامركزية في الدولة. وهكذا فقد كان في جبل نابلس في بداية الحكم العثماني ٧ زعامات و٤٢٧ تيماراً، وفي بداية القرن التاسع عشر لم يبق منها سوى ٥ زعامات وحوالي ٥٢ تيماراً. (وكان اصحاب الزعامات الخمس سنة ١٨٣٣ هم: الشيخ محمد القاسم والشيخ حسين عبدالهادي واحمد آغا النمر، وعائلة طوقان ومحمد بك عسقلان). اما في حكم ابراهيم باشا فلم يبق سوى ١١ تيماراً[٤٦٥].

وعندما بدأ نظام التيمار في الانهيار في نهاية القرن السادس عشر ــ وقد بقيت منه بقايا في فلسطين إلى ما بعد بداية القرن التاسع عشر ــ وعندما تضاءل باستمرار أيضاً نفوذ الحكام على الاحداث في منطقة فلسطين الجبلية، عندئذٍ فقط بدأ تطور يمكن أن ندعوه بشيء من التحفظ تحولاً إلى الاقطاع. إلا أن الهياكل الاجتماعية السياسية القائمة كانت تستند جزئياً إلى اساس قبلي، لأن كثيراً من الزعماء المحليين الجدد الذين كانت عشائرهم قد هاجرت في القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر من الجنوب والشرق، كانوا من اصلٍ بدوي[٤٦٦]. إلا أن اشكال الاشراف المحلي السياسي القانوني والاجتماعي والاقتصادي التي ترسخت في المنطقة الجبلية الفلسطينية المجزأة بصورة شبيهة بلبنان، يمكن مقارنتها بصورة من الصور بالظروف التي سادت لبنان. ومع ذلك ــ وهذا هو الفرق الأساسي الثاني ــ فانه لم ينشأ في فلسطين نظام عام متكامل نسبياً يتخذ شكلاً رسمياً وله رأس يقف في أعلى سلسلة متدرِّجة من المراتب. وبذلك فان السلطان أو الحكام العثمانيين ظلوا المرجع المباشر لجميع الزعماء المحليين. لم يكن هناك اميريقوم بدفع إتاوة بل إن والي دمشق هو الذي كان يجمع الضرائب في (دورة) سنويّة أو كان يحاول ذلك على الأقل. (وكانت عائدات الميري للمنطقة الجبلية في فلسطين تُنفق كُلُّها على تمويل قافلة الحج)[٤٦٧]. وبهذه المناسبة كان الشيوخ وحكام الألوية أيضاً يعينون أو يثبّتون أو يعزلون.

---

(٤٦٥) النمر، ٢/٢٢١-٢٢٣؛ الراميني، ١٠٢-١٠٤.

(٤٦٦) الملاحظة ٣ في Poliak; Hoexter, 251 ، يتحدث اوبنهايم عن «اخذ الارض من قبل البدو» Oppenheim II,11.

(٤٦٧) قارن: Barbir, 122–125; ، الراميني ، ١٢٠ وما بعدها؛ والنمر ٢/٢٧٠ وما بعدها و٣٧٦ وما بعدها.

ونجد في فلسطين أيضاً رؤساء العائلات المتنفذة الذين كانوا يشرفون من ابراجهم (قلاعهم) على مناطقهم (وفي هذا الشأن كان الاشراف على قرى أو مناطق معينة اقل ثباتاً منه في جبل لبنان)، والذين كانوا يستولون على الانتاج الزائد الذي حصله الفلاحون بعملهم وكان عليهم أن يسلموا جزءاً منه إلى الحكام بصفة ضرائب؛ والذين كانوا بناءً على الاعراف والعادات المحلية يصدرون الاحكام و يسوّون الخصومات[٤٦٨]، والذين كانوا يقاتلون بعضهم بعضاً من اجل الاشراف على الموارد البشرية والمادية، واخيراً الذين كانوا ينهضون بالواجبات العسكرية التي أسهمت خصوصاً بمشاركة اتباعهم والجنود الفلاحين في حماية قوافل الحج السنوية من دمشق إلى مكة[٤٦٩]، بيد انهم كانوا ينهضون بهذه الواجبات بوصفهم شيوخاً لمناطقهم، اي حكام مناطق عثمانيين.

ومعنى ذلك اننا عندما نتحدث عن تحول إلى الاقطاع نحن لا نريد أن نصف نظاماً، بل نحن نصف عملية ادت إلى نشوء هيكل مجزأ للحكم، إلى اغتصاب وظائف للحكم يرتبط باشراف اجتماعي اقتصادي مباشر على جمهور الفلاحين الخاضع للتبعية. وكانت الكفة الراجحة في هذا الصدد هي للعنصر الشخصي غير البيروقراطي الذي كان يشكل وجه الاختلاف عن اشكال اللامركزية الادارية الخالصة والاستقلال الذاتي الاقليمي. إنّ «حكم الشيوخ» في المنطقة الجبلية بفلسطين كان يختلف اذن عن حكم المقاطعجية في جبل لبنان وعن حكم ظاهر العمر وحكم الجزار باشا على حد سواء، بينما يمكن مقارنته على الاقل بمراكز جزء من الاعيان وزعماء الوديان (الديريبيات Derebeys) في الروميلي والاناضول.

وفيما يتعلق بالعلاقات الاجتماعية بين الشيوخ والفلاحين فان الهيكل القبلي ونموذج السلوك القبلي كان أظهر في جبال فلسطين مما كان عليه في جبل لبنان، ففي فلسطين كانت المسألة تدور بالاحرى حول العصبية القبلية اكثر مما تدور حول الحماية الاقطاعية وروابط الولاء. ولذلك فإن المراقبين من المناطق المجاورة اندهشوا احياناً من

---

(٤٦٨) PRO-R.O. 78, vol. 1454 (Jerusalem, 1.1.1859), Pierotti, **Customs and Traditions**, 208–211; Finn, **Stirring Times**, I, 216; SWP, **Special Papers**, 336–338; Finn, **Palestine Peasantry**, 20–23; **Barghuthi**, «Judicial Courts», 42, والنمر، ٢ / ٤٩٤-٥٠٤.

(٤٦٩) قارن باربير (Barbir)، الفصل الثالث؛ وبشأن الحج في القرن التاسع عشر انظر: Grant, 219–234. ونحن نسمع عن الدفعة الأخيرة من الجنود الفلاحين الذين قاموا بالخدمة العسكرية تحت قيادة زعمائهم خارج فلسطين سنة ١٨٥٢: لقد اشترك ٤٠٠٠ رجل من منطقة الجبال الفلسطينية في تلك السنة في الحملة التي قام بها سر عسكر دمشق ضد الدروز في حوران. قارن قبل كل شيء: Finn, **Stirring Times**, I,260–263.

طاعة الفلاحين العمياء لشيوخهم[٤٧٠]. لكن المسألة هنا ليست الا في الاقل مسألة فروق اساسية، وإنما هي بالأحرى مسألة حدة هذه العصبية القبلية. وقد كانت اهميتها في فلسطين مرتبطة بالاصل القبلي الحديث لكثير من العشائر وبالاتصالات الكثيرة المباشرة بالقبائل البدوية التي كانت تواجههم مواجهة الاعداء، والتي كانت العشائر تبحث في صفوفها (اي القبائل البدوية) عن حلفاء في أثناء نزاعاتها، أو التي كان يلجأ إليها الفلاحون أيضاً في بعض الاحيان طالبين الحماية.

ومن الجهة الأخرى كانت الملكية الكبيرة للارض اقل تطوراً في الجبال الفلسطينية منها في جبل لبنان. بيد أن هذه المسألة بدورها أيضاً لم تكن إلا مسألة فرق في الدرجة. ولكن تبعية الفلاحين الاقتصادية للشيوخ في اجزاء كبيرة من منطقة الجبال كانت بالاحرى ذات طبيعة «إتاوية»[٤٧١]، أي أن الفلاحين لم يكونوا يعملون بصورة مباشرة من اجل الشيوخ.

وفي مجال الانتاج هناك مشكلة أخرى. فإذا كانت اشكال الملكية المشتركة للارض واستغلالها تشكل معلماً تأسيسياً من معالم نمط الانتاج الاسيوي فلا بد أن يطرح السؤال حول اهمية نظام المشاع وانتشاره في منطقة الجبال الفلسطينية، وهو النظام الذي سنحاول تصنيف هيكله الاجتماعي الاقتصادي والسياسي الاداري. في علاقة ملكية الأرض واستغلالها هذا الأمر يتعلق بشكل من أشكال المزج: كانت الملكية مشتركة بمعنى انه في داخل مجموعة سكان القرية كان يجري تقسيم دوري جديد لأجزاء الأرض قائم على العُرف حسب القدرة على الاستغلال بحيث يكون استغلال الأرض وفلاحتها بعد ذلك على أساس فردي أو عائلي. ولكن هذا الشكل من أشكال استغلال الأرض، كما اكد فويلرسه Weulersse بالنسبة لسوريا بصورة عامة، لم يكن متغلغلاً في المناطق الجبلية[٤٧٢] كما أنه لم يكن مألوفاً في الفترة العثمانية على الاقل إلا على نطاق ضيق للغاية. وهذا يصدق أيضاً على منطقة الجبال في فلسطين. وعلى اية حال فان مزارع الزيتون والعنب كانت قلما تقسم شأنها في ذلك شأن اشجار التوت. ولذلك فاننا يمكن أن ننطلق من سيادة شكل الملكية والاستغلال الفردي العائلي في المنطقة الجبلية. اما اهمية نظام المشاع في السهول الفلسطينية في الفترة العثمانية المتأخرة وفي زمن الانتداب فهذه قضية أخرى لا داعي لأن تشغلنا هنا.

---

(٤٧٠) انظر دروزة ٢٢٤؛ والنمر ٢/٣٧١؛ وقارن ايضاً دروزة، ١٢٦، ١٣١، ١٣٥، ١٤٠، ١٤١، ٢٣١، ٢٥١، ٢٥٣، ٢٦٩، و ٢٨١

(٤٧١) هذا المفهوم استعير من سمير امين، Amin, 115–131

(٤٧٢) قارن ايضاً: Baldensperger, «The Immovable East», PEFQS 1906, 192f.; Granott, 174–179, 213–248; Klat, «Musha Holdings», Firestone, Faddan and Musha. (انظر أيضاً الحاشية ٢١٧).

ومعنى هذا أننا نجد عناصر اقطاعية في الهيكل الاجتماعي الاقتصادي والسياسي القانوني لمنطقة الجبال في فلسطين في العهد العثماني، لكنّنا لا نجد نظاماً متطوراً بصورة كاملة يسمح لنا بأن نتحدث عن لون من الوان الاقطاع. من وجهة ادارية اتخذت الألوية الفلسطينية مكانها إلى حد كبير نسبياً في المحيط العثماني؛ العلاقات الاجتماعية كانت تحمل طابع الهيكل ونمط السلوك القبليَّيْن؛ والاستيلاء على الناتج الزائد كان له إلى حد كبير طابع ضريبي مالي. وعلى هذا فان شيوخ منطقة الجبال في فلسطين لا يمكن أن يوصفوا بانهم اسياد اقطاعيون بل زعماء محليون[٤٧٣]. لقد كانوا منغرسين في الهيكل الضريبي للحكم العثماني في المناطق العربية، وكانوا في داخل هذا الهيكل يؤدون وظيفة المفصلة. وبالنسبة للحكومة العثمانية أو لحاكم دمشق كانت المسألة التي تحتل الدرجة الأولى من الأهمية هي المساهمة المالية والعسكرية لمنطقة الجبال الفلسطينية في أداء الحج. وكان الأمر الذي يهم الزعماء المحليين قبل أي شيء آخر في اطار وظائفهم الادارية هو اغناء انفسهم على حساب الفلاحين، وأن يكون لهم اتباع في نزاعاتهم المحلية. اما أنهم عاشوا على حسابهم (الفلاحين) فيتضح ذلك على سبيل المثال من أن الشيخ محمد القاسم قد خلف وراءه عندما سقط في القتال ضد المصريين سنة ١٨٣٤ : ٨٠٠٣٠٠ قرش وممتلكات عينية قيمتها ١٤٧٦٣ قرشاً[٤٧٤]. (وفي المقابل فان اكبر ثروتين نقديتين وعينيتين وجدهما رافق بين تركات غزة لسنوات ١٨٥٧ — ١٨٦١، وكانتا تعودان للتاجرَيْن ومقرضي المال والملاكَيْن حسن الدباغ وعبدالقادر الشوا، بلغت قيمتاهما على التوالي، بعد خصم الالتزامات، ٦١٣٠٦ قروش و٣٦٣٩٣ قرشاً[٤٧٥]).

وقبل أن نبحث في ضرب الحكومة العثمانية لهياكل السلطة المحلية ينبغي أن نلقي نظرة على المناطق المختلفة وزعمائها المحليين في اواسط القرن التاسع عشر. وستساعدنا في ذلك الخارطة رقم ١.

---

(٤٧٣) من قبل شغل القنصل فن نفسه بهذه المسألة ، فقد كتب عن السكان الريفيين في جبال فلسطين يقول : « انهم ملاك احرار لاراضيهم ودورهم. الحيازة الاقطاعية للارض والمسئولية الإقطاعية غير معروفتين خارج لبنان ، حتى لو كانت هذه المصطلحات قابلة للتطبيق بصورة صحيحة هنا العلاقات الريفية عندنا في الجنوب علاقات عشائرية ؛ النظام يفرض على الشباب وعلى كبار السن أن يكونوا جاهزين ، دون روية أو تفكير ، للقتال ، بناءً على اوامر قادتهم ، الشيوخ. وليست لديهم الحرية في الرفض أو التأخر اكثر مما لدى الـ Highlanders (اهل المرتفعات في سكوتلندة) عندما يدعوهم صليب رودريك دو Roderick Dhu الناري أو لدى العشائر الايرلندية لدى تنقل قشرة التربة العشبية المشتعلة بالنار من مكان إلى آخر ». Stirring Times, II, 184.

(٤٧٤) الراميني ٣١ و ١٣٨. قارن ايضاً وصف الداخل المتلألي لقصر الحكم الخاص بآل عبدالهادي في عرابة ونابلس ١٨٥٦ في روجرز . Rogers, La Vie Domestique, 281—305, 338—340 .

(٤٧٥) رافق ، غزة ، ٦٥ وما بعدها .

الزعماء المحليّون ومناطقهم[٤٧٦]

الجليل

كانت العائلتان المحليتان المتنفذتان في جبل صفد في القرن الثامن عشر هما عائلتا بني حُسين وبني نافع. وكان مركز بني حسين قلعة جدّين التي سيطروا منها على الجزء الغربي من الجبل بشكل خاص. اما بنو نافع فكانوا يقيمون في البرج في صفد نفسها. وكان مجال نفوذهم يضم قرى الضواحي. واقام عضو من اعضاء هذه العائلة إضافة إلى ذلك في برج البعنة[٤٧٧]. الا أن مركز هاتين العشيرتين اصابه الوهن في حكم ظاهر العمر (١٧٤٦ ـ ١٧٧٥) وحكم احمد باشا الجزار (١٧٧٥ ـ ١٨٠٤). وفي القرن التاسع عشر لم نعد نسمع شيئاً عن زعماء متنفذين في جبل صفد. وكانت للاحتلال المصري بلا شك يدٌ في منع قيام مراكز القوة المحلية من جديد. وكان «الزعماء المحليون» الجدد في الجليل الأدنى بعد اخراج المصريين من أصل آخر، كما سنرى.

اما العائلة الاكبر نفوذاً في جنوب الجليل والساحل في القرن الثامن عشر وفي النصف الاول من القرن التاسع عشر فكانت عائلة بني ماضي[٤٧٨]، وكانت هذه العائلة من اصل بدوي، من منطقة بئر السبع. وامتد نفوذها في القرن الثامن عشر إلى الناصرة وضواحيها ومرج ابن عامر وحيفا والشريط الساحلي جنوب جبل الكرمل وكذلك إلى المنحدرات الغربية لجبل نابلس. و يبدو أن عصرها الذهبي يقع بين نهاية حكم الجزار والاحتلال المصري. وقد بنى مسعود الماضي دارة فخمة في عكا، وكان عشية دخول المصريين إلى البلاد حاكماً على غزة. إلا انه يبدو أنه لم يكن محبوباً هناك : فقد ذكر أن

(٤٧٦) إن تجميع هذه المادة قد تم بصعوبة كبيرة لإنعدام الدقة في المصادر. وقد اتخذت الخرائط والكتابات التالية اساساً لذلك :

C.W.M. van de Velde, **Map of the Holy Land** (1:315000), Gotha, 1858; C.R. Conder and H.H Kitchener, **Map of Western Palestine** (1:168960), London, 1881;

مجلدات SWP والخرائط الست والعشرون الملحقة بها (إنش واحد لكل ميل بريطاني ، Statute mile) ؛ مطر ، ١٥٢-١٦٢ ؛ Finn, **Stirring Times** I,Ch. IX وكذلك كتاب :

Macalister / Masterman, 1905, 352–356. (يستند الكتاب الأخير إلى مخطوطات عربية محلية معاصرة) ؛ برغوثي/طوطح، ٢٦٥ ـ ٢٦٧ ؛ النمر ٢/١٨٣ وما بعدها ؛ دروزة. قارن ايضاً بدران ، التعليم ، ٢٤-٣٣ ؛ Abir; Hoexter ، ص ٢٨٧ ـ ٢٨٩ .

(٤٧٧) دروزة، ٣٣٤؛ العابدي، صفد، ٧٢، ٧٨؛ ومعمّر، ٥٧-٥٩.

(٤٧٨) بشأن هذه العائلة قارن : Rogers, **Notices**, 31; Rustum, **The Royal Archives**, 21, 70 ؛ النمر ٢/٤١١ وما بعدها؛ دروزة ، ٣٣٥-٣٤٣؛ الدباغ، بلادنا فلسطين ٢/٧ ، ٦٥٦ وما بعدها؛ العودات، ٥٦٤ .

قاضي المدينة قال عنه إنه لا ينفك عن العطش كرمال الصحراء. وكانت ثروة البلاد تنساب إلى خزنته كما تنساب مياه الانهار إلى البحر[٤٧٩]. اما «المنطقة الاصلية» لبني ماضي فهي المنطقة الساحلية جنوبي جبل الكرمل والمنحدرات الغربية لجبل نابلس، وكان مركزهم الرئيسي في إجزم، وهي اكبر بلدة في هذه المنطقة[٤٨٠].

وقد فقد مسعود ماضي حياته بسبب اشتراكه في الانتفاضة ضد المصريين سنة ١٨٣٤[٤٨١]، والقي القبض على آخرين من رجال العشيرة، بينما استطاع بعضهم الهرب إلى القسطنطينية. وبعد عودة العثمانيين عين اعضاء العائلة شيوخاً أو حكاماً في إجزم وحيفا وصفد[٤٨٢]. إلا أن آل ماضي لم يعودوا يشكلون في الخمسينات عاملاً من عوامل السلطة المحلية بالمقارنة مع عائلات جبل نابلس أو جبل الخليل. فقد حل محلهم عقيل أغا.

ومعنى هذا أن مراكز السلطة المحلية في الجليل وعلى الساحل في شمال فلسطين ووسطها قد امتصّها حكما ظاهر العمر والجزار، أو أن الحكم المصري دمّرها تدميراً أو منع تطورها بصورة اشد مما كانت عليه الحال في جبال فلسطين الوسطى حيث بقيت هذه المراكز سليمة أو أنها استطاعت بعد انسحاب المصريين أن تعود إلى الحياة. واحد اسباب ذلك بالطبع هو الموقع الجغرافي. فالمنطقة الجبلية الوسطى كان الوصول إليها اشد عسراً من الجليل والساحل، كما انها كانت ابعد منهما عن الاذرع القوية لممثلي السلطة المركزية.

إن النواحي التي كانت قائمة في الربع الرابع من القرن التاسع عشر ستكون فيما يلي من البحث بمثابة السقالة التي نستطيع من فوقها ان نلقي نظرة عامة على علاقات السلطة المحلية في جبال فلسطين الوسطى والجنوبية في اواسط القرن. وسوف نتحرك في هذا الصدد خطوة فخطوة من الشمال الى الجنوب.

جبل نابلس

لقد احصى الـ Survey of Western Palestine ٤٦ موقعاً مأهولاً في منطقة الحارثة الشمالية (بلاد حارثة). وكان الزعيم المحلي هنا في الأصل هو الأمير الحارثي. وبعد أن

---

(٤٧٩) دروزة، ٣٤٢.

(٤٨٠) قدّر القنصل روجرز عدد سكان اجزم سنة ١٨٥٩ بألف نفس : SWP, Samaria, 41; . وهناك وصف للبرج وصورة له في Mülinen, «Beitrräge zur Kenntnis des Karmels», 1908, 202f.

(٤٨١) Rustum, «New Light», 11–15.

(٤٨٢) وحتى في سنة ١٨٥٥ نصادف محمد الماضي حاكماً في حيفا : PRO-F.O. 78,vol. 1120 (Saida, 29.9.1855).

انقرضت عائلته تنافس آل جرار وآل طوقان في السيطرة على هذه المنطقة. وخلال الحكم المصري اصبحت اليد العليا لآل عبدالهادي[٤٨٣]، ثم وقعت المنطقة في أيدي آل جرار[٤٨٤].

اما العشيرتان السائدتان في الشعراويتين (الشعراوية الغربية والشعراوية الشرقية) فكانتا عشيرة عبدالهادي[٤٨٥] التي كان مركزها الأصلي في عرابة وعشيرة جرار[٤٨٦] التي كانت ابراجها في جبع وصانور. وكانت العشيرتان من اصل قبلي واحد[٤٨٧]، وقد نزحتا من بلاد شرق الاردن إلى فلسطين في القرن السابع عشر[٤٨٨]. وقد اتصفت عرّابة شأنها شأن جميع المراكز الاصلية للعشائر الكبيرة بموقع عسكري استراتيجي متميّز. وكانت الابار العامة القائمة داخل البلدة تضمن تزويدها بالماء، واحاط بـ(كرسي) آل عبدالهادي سورٌ ذو ابراج صغيرة ومجهزٌ بأبواب مصفحة بالحديد[٤٨٩]. وكانت جبع وصانور كرسيّي فرعين من عشيرة جرار. وقد حولت صانور الواقعة فوق تل منعزل نسبياً، إلى قلعة مهيبة المنظر[٤٩٠] وحُفِرت في التل مداخل سريّة واحيطت الدور العالية الضخمة البناء بسور ذي ابراج. وقد حاصر الجزار الحصن عبثاً، ولم يكن بمقدوره أن يستولي عليه. وكان عبدالله باشا (١٨١٨ ـ ١٨٣١) اول من نجح في قهره سنة ١٨٣٠ بمساعدة الأمير بشير. ولم تستطع صانور أن تصمد كذلك امام ابراهيم باشا المصري[٤٩١]. ووفقاً لـ SWP كانت الشعراوية الغربية تضم تسعة عشر موقعاً والشعراوية الشرقية أربعة عشر. ووفقاً لمكالستر وماسترمان كانت الشعراويتان ومنطقة الحارثة القبلية تضم معاً ٥٨ قرية.

وتتبع منطقة الحارثة القبلية أو مشارق الجرّار وفقاً لـ SWP ٢٧ بلدة. وكما يتبيّن

---

(٤٨٣) البرغوثي وطوطح، ٢٦٧.

(٤٨٤) دروزة، ٢٤٣.

(٤٨٥) دروزة، ٢٥٢ـ٢٦٣؛ الدباغ، بلادنا فلسطين ٢/٣، ٧٥ـ٨٠.

(٤٨٦) دروزة، ٢٣٠ـ٢٥١، الدباغ، بلادنا فلسطين ٢/٣، ١١٧ـ١٢٦.

(٤٨٧) دروزة، ٢٥٨.

(٤٨٨) الا ان معظم عائلات الاعيان في نابلس اصرّت في حديثها إلى جوس Jaussen على أنها جاءت إلى البلاد قديماً مع صلاح الدين. وابرزت بعض العائلات شجرة نسب «تثبت» بها انها تنتسب إلى صحابة النبي .(Jaussen, 131–42)

(٤٨٩) Rogers, Notices, 13, Finn, Byeways, 217–219; Guérin, Description, V, 218f., SWP, Samaria, 154; Rogers, La Vie Domestique, 281. (وهي تصف في الصفحات ٢٨١ـ٣٠٥ الداخل المتلألىء لقصر آل عبدالهادي والحياة الاستقراطية في حريم القصر سنة ١٨٥٦).

(٤٩٠) وما تزال منشآت حصن صانور وبرجها تترك اثراً قوياً في النفس حتى اليوم (زرتها سنة ١٩٨١). وفي صانور كما في غيرها من كراسي العائلات هناك ضرورة ملحة لعمل شيء ما من اجل صيانة هذه الآثار التاريخية!.

(٤٩١) Rogest, La Vie Domestique, 307–311; Matar, 160f.; Finn, Stirring Times, II, 155f.; Furrer, 293; Guérin, Description, V, 344f.; SWP, Samaria, 155–158; Macalister/Masterman, 1906, 36; Tibawi, A Modern History, 62.

من الاسم الثاني للمنطقة كانت تحت سيطرة آل جرار.

اما زعماء وادي الشعير فكانوا آل البرقاوي الذين كانوا ينتمون إلى آل سيف والذين كانوا يسيطرون من شوفة ودنابة[٤٩٢] على غربي الوادي، وكذلك الإحفاة الذين كانوا ينافسونهم في برقة، والذين كانوا يسيطرون على الجزء الشرقي من المنطقة. وقد قدم آل سيف في القرن الحادي عشر الهجري من طرابلس الشام مهاجرين إلى فلسطين. اما الإحفاة فأصلهم من الحجاز[٤٩٣]. وقد ضمت المنطقة ٢٠ بلدة (SWP).

والعشيرة الحاكمة في منطقة بني صعب كانت عشيرة الجيوسي التي كان برجها في كور. وكانت تحت سيطرتها ٢٤ قرية[٤٩٤]. وكان في المنطقة، كما جاء في SWP ٣٠ بلدة. بل إنه كانت هنا ذات يوم شيخة: فبعد وفاة الشيخ حسن «حَكَمَتْ» اخته صالحة الجيوسي منطقة بني صعب[٤٩٥].

وكانت منطقة بلاد جماعين أوْ جورة مَرْدا تنقسم إلى نصفين متساويين. (٢٢) قرية في الجزء الشرقي من المنطقة كانت تحت اشراف قاسم الأحمد الذي كان مركزاه الأصليان في بيت وزن ودير استيا؛ و(٢٢) قرية في النصف الغربي كان يشرف عليها آل ريّان من برجهم في مجدل يابا[٤٩٦]. وكلتا العشيرتين كانت فرعاً من بني غازي الذين هاجروا من شرق الأردن في القرن السابع عشر[٤٩٧]. أي أن هذه المنطقة كانت تضم، كما يقول دروزة، ٤٤ موقعاً، بينما كانت تضم ٤٧ حسب فن[٤٩٨] و٥٨ حسب ماكالستر وماسترمان و٣٧ حسبما جاء في الـSWP. والتفاوت بين المصدرين الأخيرين نجد له تفسيراً في أن

---

(٤٩٢) ما زال برجهم في دنابه (أو ذنابة) يترك اثراً قوياً في نفوس مشاهديه حتى اليوم (زرته سنة ١٩٨١)

(٤٩٣) Finn, **Stirring Times**, I, 242؛ دروزة، ٢٨١-٢٨٥ و٢٨٩-٢٩٠؛ النمر ١[٢]، ١٦٢-١٦٤؛ الدباغ، بلادنا فلسطين ٢/٢، ٤١٦ وما بعدها و٣/٢، ٢٩٤ وما بعدها و٣١٠.
(بالنسبة للنمر تعنى الاشارة ١[١]: الطبعة الأولى من الجزء الأول و١[٢]، الطبعة الثانية من الجزء الأول) الخ... (المترجم).

(٤٩٤) SWP, **Samaria**, 165f.؛ دروزة، ١٤٩-١٥٦؛ النمر ١[١]، ٢٨٥، و١[٢]، ١٥٧؛ الخالدي، اهل العلم، ٨٥ وما بعدها؛ الدباغ، بلادنا فلسطين ٣/٢، ٣٧٤.

(٤٩٥) النمر ٢/٣٣٦.

(٤٩٦) Robinson, **Biblical Researches**, III, 140; Guérin, **Description**, V, 131f.; SWP, **Samaria**, 286,379. (في SWP دعيت العائلة باسم بيت الجماعيني)؛ الدباغ، بلادنا فلسطين، ٤/٢، ٥٤٩. وفي سنة ١٨٥٠ وجد من «القرية والقلعة متهدمتين للغاية» (Byeways, 128)

(٤٩٧) دروزة، ٢٦٤-٢٨٠؛ النمر ١[١]، ٢٨٥ و١[٢]، ١٦١ وما بعدها؛ الدباغ، بلادنا فلسطين، ٢/٢، ٣٤٠.

(٤٩٨) Finn, **Stirring Times**, I,240

مـاكـالستر وماسترمان قد ادخلا في معطياتهما منطقة جورة عمرا التي ضمّت، كما جاء في SWP، ١٥ قرية.

امـا منطقة مشارق البيتاوي فقد ضمت حسب ما جاء في SWP (٥) مواقع ومنطقة مـشارق نـابلـس (١٦) موقعاً. وتدعى «العائلة الحاكمة» في المنطقة الأخيرة في ماكاليستر ومـاسـترمان الدويكات من قرية بيتا، و«العائلة الحاكمة» في المنطقة الأولى، التي تدعى هنا مشارق دار الحاج محمد، هي عائلة المنصور في جالود. بيْدَ أن هذه لم تكن سوى فرع من آل الحـاج محـمـد. والمصادر الأخرى التي تحت تصرفنا تذكر بعدئذ أيضاً آل الحاج محمد في بـيـت فـوريك وبني شمسة في بيتا بوصفهما العشيرتين السائدتين اللتين تنافستا في السيطرة على هاتين المنطقتين[٤٩٩].

إن الاسـمـاء الـتـي ذكرناها هنا لزعماء جبل نابلس في اواسط القرن التاسع عشر ينقصها اسمان لعبا دوراً كبيراً في مجرى التطور الذي علينا أن نصفه، أو انهما معروفتان في المـصـادر الأدبية، وهما طوقان والنمر[٥٠٠]. وسبب ذلك بسيط، وهو أنهما لم تكونا عشيرتين لهـمـا قـاعدة ثابتة دائمة في الريف. ويؤكد دروزة عن حق من حيث المبدأ فيما يتعلق بآل الـنـمـر خـاصـة، وكذلك بآل طوقان، بانهم لم يكونوا زعماء محليين تستند مراكز قوتهم إلى اسـاس راسـخ في مـنـطـقـة من المـنـاطـق وإلى الـعـصـبـية العشائرية، وإنما كانوا «موظفين حـكـومـيين»[٥٠١]. جـاء آل الـنـمـر إلى نـابلس حوالي سنة ١٠٦٨ هجرية (١٦٥٧/١٦٥٨) بـوصـفـهـم عسكريين عثمانين (لحماية الحج و«اعادة النظام» في منطقة الجبال الفلسطينية) بـل كـانـت تربطهم حسب قول احسان النمر رابطة القرابة بالعائلة الحاكمة العثمانية[٥٠٢]. وقد استندت قوتهم في الفترة التالية قبل كل شيء إلى قيادة قوات السباهي التي يفهم النمر دورها فهماً فريداً حقاً في بابه عند ما يقول عنها على التوالي إنها أساس «الاستقلال الذاتي لجـبـل نـابلس» و«قطعة من جيوش الدولة... لها كل الفضل في ايجاد روح الفتوة وصفات الـفـروسـيـة[٥٠٣]». اما آل طوقان فلم يكونوا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر وحتى

---

(٤٩٩) دروزة، ٢٠٠ و ٢٨٦-٢٨٨؛ النمر ١[(١)] ٢٨٥ و١[(٢)] ١٦٥ وما بعدها؛ البرغوثي وطوطح؛ الدباغ بلادنا فلسطين ٢/٢، ٣١٠ و٣٢٢ وما بعدها؛ Hoexter, 271

(٥٠٠) دروزة، ١٦٠ - ٢٢٩؛ الدباغ، بلادنا فلسطين ٢/٢، ١٥٧-١٦٣.

(٥٠١) دروزة، ١٦٣-١٦٥، ١٧١، ١٨٨ و٢٠٥. وجواب النمر في ٢/٤٢٧-٤٢٩.

(٥٠٢) النمر، ٢/١٩٩-٢٠٣.

(٥٠٣) النمر ٢/٢٠٧ وما بعدها و٢١٠؛ قارن ايضاً: ٢/٥٢٠-٥٥٣.

بداية العشرينات من القرن التاسع عشر شيوخاً لمنطقة بني صعب خلا مرة واحدة[٥٠٤]. وبخلاف ذلك كان اساس قوتهم، شأنهم في ذلك شأن آل النمر، مركزهم في نابلس، حيث كانوا يتسابقون في تسنُّم أعلى المناصب العسكرية الإدارية. وقد جاءت العائلتان كلتاهما إلى فلسطين في القرن الحادي عشر الهجري، واقامتا في نابلس قصوراً حصينة. وفي المصادر المحلية التي يوردها ماكالستر وماسترمان، وهي مصادر أُلّفت، كما هو واضح، في أثناء حرب القرم، نجد الحكومة المحلية الثالثة عشرة والأخيرة بين الحكومات المحلية لمدينة نابلس في أيدي آل طوقان. واما فيما يتعلق بآل النمر فعلينا أن نضيف ايضاً أن احسان النمر يبالغ مبالغة كبيرة في اهمية اسلافه وفي دورهم، كما يثبت دروزة بصورة مقنعة لدى المقابلة بين ما كتبه النمر وبين المصادر الأخرى. وفي القرن الثاني عشر والنصف الأول من القرن الثالث عشر الهجري كان آل جرار منافسين اكثر اهمية بكثير لآل طوقان على منصب الحاكم في نابلس[٥٠٥]. ومنذ الحكم المصري تنافس آل عبدالهادي وآل طوقان على هذه الوظيفة الادارية العليا في الجبل.

جبل القدس

الزعماء المحليون لمنطقة بني زيد كانوا البراغثة، ومركزهم في دير غسانة. وبناءً على ما يقوله البرغوثي (الذي يورد دروزة اخباراً متوافقة معه) شملت سيطرتهم حتى منتصف القرن الثالث عشر الهجري، أي حتى الاحتلال المصري على اقل تقدير، مناطق بني مرة وبني سالم وبني حارث. واصل البراغثة من الحجاز، ويفترض انهم جاءوا إلى فلسطين زمن الحروب الصليبية[٥٠٦]. ويذكر SWP (٢٠) موقعاً في هذه المنطقة. ووفقاً لما يقوله غوران كان شيخ دير غسانة يمارس «نوعاً من حق السيادة على حوالي خمس عشرة قرية او قرية صغيرة مجاورة»[٥٠٧]. وينازع احسان النمر في الدور الهام للبراغثة ويتّهم البرغوثي بمبالغات بعيدة عن الواقع. وهو يبرز في مقابل ذلك دور عائلة سحويل في بني زيد، مما دفع

---

(٥٠٤) دروزة، ١٥٢-١٥٤ و٢١١؛ النمر ١[٢] ٢٣٩ و٢٨٦ وما بعدها؛ ٢/٤٠٠-٤٠٢ و٤١٥.

(٥٠٥) دروزة، ٢٥١؛ الراميني، ١٨٠.

(٥٠٦) الخالدي، اهل العلم، ١٣٢ وما بعدها؛ الدباغ، بلادنا فلسطين ٨/٢، ٢٦٨؛ دروزة، ١٣٢-١٣٥. وعدد القرى الذي يرد عند دروزة وهو ٤٨ يتطابق إلى حد كبير والرقم الوارد في الـSWP: بني زيد ١٩ [SWP: ٢٠]، بني مرة ٨ [SWP: ٧]، بني سالم ٤ [SWP: ٤]، بني حارث ١٧ [SWP: ١٨].

(٥٠٧) Guérin, Description, V,150

احد شيوخ هذه العائلة إلى نظم قصيدة في مدحه سنة ١٩٦١[٥٠٨]. وهكذا استمرت المنافسات العشائرية القديمة في الادب التاريخي للقرن العشرين!

وكانت تتبع منطقة بني مرة سبع قرى (SWP). وحسب المصدر الذي يستند إليه ماكالستر وماسترمان كان احمد ابوعبدالله من المزرعة الشرقية شيخ هذه الناحية حتى الاحتلال المصري. وقد قسم ابراهيم المنطقة وعين عليها شيخين: عبدالعزيز الأنسوية؟ في المزرعة الشرقية ومحمد أبومبارك في سلواد[٥٠٩].

وجاء في ماكالستر وماسترمان أن شيوخ منطقة بني سالم، التي ضمَّت اربعة مواقع فقط (SWP)، كانوا «الديكة» في كفر مالك وعبدالحميد أبو ابراهيم في دير جرير[٥١٠].

ولم يرد ذكر لمنطقة بني حمار في ماكالستر وماسترمان. واشتملت هذه المنطقة على ما جاء في SWP على ٢٥ موقعاً. أما شيوخها فكانوا آل الخواجة واصلهم من العراق؛ وكان برجهم في نعلين[٥١١].

وكانت تتبع منطقة بني حارث الشمالية ١٣ قرية (SWP) وبني حارث القبلية ٥ قرى فقط (SWP). وكان مركز زعماء بني حارث الشمالية آل سمحان في الجانية ورأس كركر (أو الرأس)؛ وفي وسط هذه القرية كان برجهم[٥١٢]. واصلهم من الحجاز[٥١٣]. ويقول ماكالستر وماسترمان إن شيوخ بني حارث القبلية كانوا الكراجا في دير إيزيع.

أما زعماء منطقة بني مالك فكانوا آل أبوغوش، وكان كرسيهم قرية العنب*. واصلهم من الشركس. وتبعاً لما يقوله البرغوثي (في كتاب دروزة) شمل نفوذهم ايضاً

(٥٠٨) النمر ١[٢]/ ١٦٩-١٧٢؛ ٢/٤٠٧-٤١٠ و٦٠٣ (نص القصيدة).

(٥٠٩) في SWP, Samaria, 291 ، وردت سلواد بين قرى منطقة بني زيد

(٥١٠) تظهر قرية دير (اودار) جرير في (SWP, Samaria, 291) بين قرى بني مرّة، ولكن مع ملاحظة مفادها أن القرية تتبع في قائمة أخرى منطقة بني سالم.

(٥١١) دروزة، ١٤٢؛ النمر ١[٢]، ١٧٢-١٧٤؛ الدباغ، بلادنا فلسطين، ٢/٤، ٥٥٧.

(٥١٢) ما زال برج رأس كركر (وقد زرته سنة ١٩٨١) يترك انطباعاً عميقاً في النفس حتى الان. ويحكي في القرية أن كلمة «كركر» تشير برنينها إلى صوت الحجارة التي كانوا يجعلونها تكرّ إلى اسفل على المنحدر الصخرى ضد الاعداء المهاجمين!

(٥١٣) Finn, Byeways, 135—143; SWP, Samaria, 291.; وحسب ما يقوله غورين (Description, V,83) كان «هذا الشيخ يحكم خمس عشرة قرية». اما البرغوثي فيقول إنهم انتزعوا هذه المنطقة من البراغثة: (دروزة ١٤٢)؛ النمر ١[٢]، ١٦٧-١٦٩ و٢، ٤٠٤-٤٠٧؛ الدباغ، بلادنا فلسطين، ٢/٨، ٣٤٤.

★ قرية أبو غوش حالياً ـ المترجم.

مناطق بني حسن وجبل القدس والوادية التي كان شيوخها تابعين لهم[٥١٤]. على أننا سوف نرى أن «سيادتهم» على منطقة بني حسن لم تكن خالصة لا ينازعهم فيها منازع بصورة من الصور. وتتميز قرية العنب ببيوتها الحجرية المنيعة وبقايا كنيسة صليبية مصونة صوناً جيداً، استعملت كإسطبل[٥١٥]. ويبدو أنه كان الاسطبل الخاص لخيول آل أبوغوش. لكن ما يشد العين هو البرج، مقر العائلة، «قصر حقيقي... كأنه حصن دفاعي»[٥١٦]. وطبقاً لما يقوله ماكالستر وماسترمان كان يتبع منطقة بني مالك زهاء ٢٠ قرية. اما الـ SWP فذكر فيها ٢٢ موقعاً. ويذكر ماكالستر وماسترمان أن شيوخ منطقة بني حسن، التي تضم حوالي ١٠ قرى، هم آل درويش في الولجة[٥١٧]. ويذكر الـ SWP أحد عشر موقعاً في هذه المنطقة.

أما منطقة العرقوب، التي كانت تتبعها ٢٤ قرية (SWP)، فكان يشرف عليها آل اللحّام ومركزهم بيت عطاب. وتقع هذه القرية على تلّ صخري أجرد، ترتفع في وسطه إلى السماء بناية شاهقة من الحجر هي البرج. ويذكر انه كان هناك فيما مضى نفق تحت الارض يصل ما بين البرج ونبع عند سفح التل. كما كانت هناك مغارة صخرية كبيرة تصلح كملجأ[٥١٨].

إن منطقة جبل القدس ضمت ٢١ موقعاً (SWP). وكانت تنقسم، حسب المصدر الذي اورده ماكالستر وماسترمان، إلى اربعة اقضية. وكان شيوخها، حسب هذا المصدر، هم عبداللطيف سمحان الكسواني في بيت إكسا[٥١٩] واحمد علي في دير دبوان[٥٢٠] وعبدالله حسن في بيتونيا وعمرو الشمّاع في البيرة[٥٢١]. اما البرغوثي فيذكر من ناحية أخرى عائلات الشيوخ التالية: آل الخطيب في بيت اكسا، وآل الحشاش في دير دبوان، وآل عبدالله الحسن وآل البيتوني في بيتونيا، وآل القرعان وآل الطويل في البيرة[٥٢٢].

---

(٥١٤) Finn, Stirring Times, I,230; دروزة، ١٣٥-١٣٧؛ النمر ١[٣]، ١٦٨، الحاشية ١؛ الدباغ، بلادنا فلسطين، ٨/٢، ١١٤-١١٧

(٥١٥) SWP, Judaea, 18, 132-134; Guérin, Description, I, 62-71, 279f

(٥١٦). Sepp, I,150، هناك صورة على صفحة ٤٥؛ انظر ايضاً تشندورف: Tischendorf, 165f.

(٥١٧) بين العائلات المتنفذة في جبل القدس يذكر البرغوثي آل الشيخة في المالحة، «وزعماؤهم اليوم آل درويش»: دروزة، ١٤٢؛ البرغوثي وطوطح، ٢٦٦.

(٥١٨) SWP, Judaea, 22-24, Guérin, Description, II, 381-383, ؛ دروزة، ١٤٢.

(٥١٩) هنا يذكر البرغوثي آل الخطيب الذين ينتمون إلى الزيادنة: البرغوثي وطوطح، ٢٦٦؛ دروزة، ١٤٢.

(٥٢٠) البرغوثي· آل الحشاش (دروزة، ١٤٢)

(٥٢١) البرغوثي. آل القرعان وآل الطويل (البرغوثي وطوطح، ٢٦٦؛ دروزة، ١٤٢).

(٥٢٢) أنظر الحواشي ٥١٩-٥٢١.

وكـان شيـوخ منطقة الوادية[٥٢٣] هم آل عريقات في أبو ديس. واصلهم من البدو، وقـد جـاءوا مـن الجـانب الآخر للأردن[٥٢٤]. وحسبما يقول ماكالستر وماسترمان كان يتبع هذه المنطقة ٨ مواقع وحسب SWP ٩ مواقع.

جبل الخليل

إن المـواقـع الاثـنين والـثلاثين في جبل الخليل (SWP) كانت تشرف عليها ثلاث عشائر. واهم هذه العشائر هي: آل عمرو التي تولت زعامة منطقة القيسية الفوقا، ومركزها دورة. وقـد هاجرت إلى فلسطين من الكرك، اما اصلها فمن الحجاز[٥٢٥]. وقد امتازت دورة بموقـع اسـتـراتيجي ملائم للغاية. وقد وصف غوران «ثكنتين» هناك، والمقصود طبعاً داران حصينتان كبيرتان[٥٢٦].

ومن بيت جبرين كان آل العزّة يشرفون على منطقة القيسية التحتا. وقد جاءوا منذ وقـت طـويـل إلى فـلـسطين من مديرية الشرقية بمصر[٥٢٧]. وكانت بيت جبرين تقع منزوية ومحـمـية عند حافة جبل الخليل. وكان في جوارها عدد من المغاور الواسعة. وفي وسط البلدة كـانـت تـقوم دار الشيخ الحجرية المؤلفة من طابقين. وما زالت بقايا حصن صليبي تستخدم حـتى اليوم لاغراض الدفاع[٥٢٨]. وقد ترك القصر انطباعاً عميقاً لدى فورر Furrer، كما ترك مـثـل هذا الانطباع شيخ بيت جبرين الذي كان مطالباً وملزماً، حسب معطياته، بأن يقدم إلى الحكومة عن ١٦ قرية «لغاية ٢٠٠٠ رجل عند الضرورة»[٥٢٩].

وكان منافسو آل العزة هم آل العَمْلة ومركزهم بيت اولا، ولكن لم يكونوا يشرفون الا على خـمـس قرى[٥٣٠]. وكان محمد عبدالنبي العملة معروفاً بفضل قوته ودقته في التصويب

(٥٢٣) في (SWP, **Judaea**, 27) دُعيت خطأً. القرادية. (قرئت «و» (الواو] «قر»).

(٥٢٤) البرغوثي وطوطح، ٢٦٦؛ الدباغ، بلادنا فلسطين، ٨/٢، ١٤٨.

(٥٢٥) Morand, 140–143؛ دروزة، ١٤٠ وما بعدها؛ الدباغ، بلادنا فلسطين، ٥/٢، ١٩٧ وما بعدها.

(٥٢٦) Guérin, **Description**, III, 353–355, SWP, **Judaea**, 304f, 328.

(٥٢٧) دروزة، ١٣٨-١٤٠.

(٥٢٨) Van de Velde, II, 157; SWP, **Judaea**, 257f., 266–274; Guérin, **Description**, II, 307–309.

(٥٢٩) Furrer, 188–125.

(٥٣٠) دروزة، ١٤٢.

بعزرائيل جبل الخليل[٥٣١].

ويتضح أنه كانت هناك نواح ضعيفة للغاية فيما يتعلق بعدد قراها ومتانة هيكل السلطة المحلّيّة فيها. فالمناطق الشرقية لجبل نابلس وجبل القدس (مشارق البيتاوي ومشارق نابلس وبني مرة وبني سالم وجبل القدس والوادية) بوجه خاص كانت بمثابة توابع تدور في فلك المناطق الغربية. وتختلف المصادر اختلافاً بيناً في تحديد العائلات المتنفذة في هذه النواحي، لأنه لم يكن هناك زعماء أقوياء موطدو الأركان على مدى طويل من الزمن.

ويتبين معنا مما سبق أن اهم الزعماء المحليين في جبل نابلس في اواسط القرن التاسع عشر كانوا: آل جرار وعبدالهادي والبرقاوي والجيوسي وقاسم الأحمد والريّان والحاج محمد، وبمعنى آخر من المعاني آل طوقان. وفي جبل القدس كانوا آل البرغوثي وسمحان وأبو غوش واللحام، وفي جبل الخليل آل عمرو والعزة.

قيس ويمن

كانت تقوم بين العشائر السائدة منافسات مستمرة للحصول على مراكز سلطة محلية في المناطق وللمحافظة عليها وتعزيزها، ولكسب الانصار فيها وللسيطرة على مواردها المالية. وكثيراً ما كانت هذه المنافسات تؤدي إلى نزاعات دموية، وتنبثق عنها احياناً حروب محلية حقيقية. وكان الفرقاء في الخصومات بين الحمائل المتنافسة في البلدة الواحدة، وفي المنازعات بين القرى أو المناطق المتجاورة، وكذلك في المصادمات التي تقع في الجبل، خصوصاً في المناطق الواقعة شمال القدس وجنوبها، كثيراً ما يواجهون بعضهم بعضاً تحت رايتي قيس ويمن. ولذلك فلا بد لنا أن نقدم هنا بعض الملاحظات حول الأهمية الحقيقية لهذا الانقسام، مع ملاحظة أن جوانب هذه الظاهرة المتصلة بعلمي الانساب والأنثروبولوجيا لا تهمنا كثيراً هنا.

إن جذور الحزبية تكمن فيما توارثته العرب من أصْلٍ ثنائي مجسّد في اشخاص. فعرب الشمال (قيس) وعرب الجنوب (يمن) يردون اصلهم إلى جدّين أولَيْن مختلفين، الاولون إلى عدنان، والأخيرون إلى قحطان. بيد أن التنظيم النّسبي لهذا الأصل المصنوع جرَى من باب استرجاع الماضي، بعد أن انقسمت القبائل العربية التي ازداد عددها إلى

(٥٣١) Finn, Stirring Times, I, 235, 265; Macalister/Masterman, 1905, 353.

حزبين على اساس «رموز مشتركة نصف مفقودة وجديدة»[٥٣٢] . وفي ظل هذا التقسيم الممعن في بعده عن الواقع إلى عرب شمال وعرب جنوب جرت خصومات طويلة ومدمّرة للذات في القرنين الأولين من التاريخ العربي الاسلامي، ثم فقدت هذه العصبية الحزبية اهميتها السياسية العسكرية المباشرة[٥٣٣] «ولم يعد هناك إلا مكانان»، كما يقول كاسكل، «ظل فيهما التناقض بين قيس ويمن قائماً بحدّته الكاملة وبتشبث لا يصدق، حتى مشارف العصر الحاضر، هما لبنان وفلسطين»[٥٣٤]، ولكننا إذا اردنا أن نفهمَ المشكلة فنحن لا نستطيع أن نتمسك بالتسميات وحدها. فبالنسبة لباتاي Patae يمثل «التنظيم الثنائي» الذي يتجذّر في هذا التقسيم الأول بين قيس ويمن مقولة أنثروبولوجية اساسية لفهم الهياكل الاجتماعية والعلاقات في الشرق العربي والاسلامي. إن التنظيم الثنائي، التقسيم السياسي المبني على اساس النسب، هو خاصية عامة «لثقافة الشرق الادنى»[٥٣٥] . وعلى نحو مماثل يشتق شلهود الهيكل الاساسي الثنائي للمجتمع البدوي من «ثنائية حزبية ضخمة لتاريخية مشكوك فيها»[٥٣٦] .

بيد أن فينومينولوجية (ظواهرية) باتاي لا تساعدنا أبعد من ذلك اذا كنا نريد ان نفهم الأهمية الذاتية والموضوعية لهذه العصبية الحزبية في فلسطين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وقد تتبع المؤلفون الفلسطينيون والأوروبيون في القرنين التاسع عشر والعشرين المرة تلو الأخرى جذور هذا التناقض بين قيس ويمن إلى العصر السابق للاسلام. ولكنهم عندما كانوا يسألون في البلاد نفسها اولئك الذين ما زالوا يعيشون تقاليد هذه الحزبية ويعايشون مظاهرها المتشدّدة في نزعتها القتالية ومظاهرها التي لا ضرر منها في شكل عادات واعراف، فإن الاشخاص المسؤولين إما انهم كانوا يتخبطون في إجاباتهم أو انهم كانوا يرددون اساطير وخرافات مختلفة حول اصل الثنائية، مرتبطة باحداث التاريخ الاسلامي او بصورة البطل عنترة أيضاً[٥٣٧] .

---

(٥٣٢) Caskel, 12

(٥٣٣) قارن: الموسوعة الاسلامية: (2) EI : عدنان وقحطان؛ البرغوثي وطوطح، ٢٦٣-٢٦٨؛ الحسيني، التطور، ٨٠ وما بعدها، ;Oppenheim, I, 280f., II, 7; Caskel, 12-18; Patai, 181-186 ؛ النمر ١[1]، ٥٥-٦٢ و٢، ٤٣٠-٤٣٢؛ الدباغ، بلادنا فلسطين، ٢/٢، ٥٩-٦٢.

(٥٣٤) Caskel, 18 . بالنسبة للبنان قارن:
. Polk, 11f. 17f. Harik, 30f.; Touma, I, 61-75 (Les deux plus anciens partis politiques: Les Qaysi et Les Yamani).

(٥٣٥) . Patai, 177-250 (Dual Organization)

(٥٣٦) Chelhod, خصوصاً الصفحات: .27f; 43-52, 369-384, 406f . العبارة المقتبسة من ص٤٣.

(٥٣٧) Pierotti, Customs and Traditions, 264-267; Haddad, 210.

إن التخبط في تفسير هذه الظاهرة يستند بناء على ذلك إلى أن التحزُّب بين قيس ويمن كان يعلو فوق جميع اشكال الوجود الاجتماعي والتكتلات الاجتماعية الأخرى. ففي الجانبين كان هنالك فلاحون وسكان و بدو وكذلك مسلمون ومسيحيون ودروز. وكانت الحزبية تمر أفقياً كذلك عبْرَ المناطق والمواقع، بل إنها كانت تقسم العشيرة الواحدة. أي أن الأمر كان يتعلق بمبدأ للانتماء والتحلل الاجتماعي في الوقت ذاته. وعند هذه النقطة يحاول نيوفنهويتسه Nieuwenhuijze تفسير الوظيفة الاجتماعية لحزبيات كهذه: فيؤكد وجود تكامل في التنظيم الاجتماعي الثنائي، تكامل بين الحوافز الرابطة والحوافز العدائية لكل من القرابة والحزب. «إن الحزب المزدوج يمكن اعتباره كمصحِّح لمبدأ القرابة بوصفه العامل المقرِّر في النظام الاجتماعي. انه يعالج الانتشار الزائد عن الحد في وضوح التعبير... بالسماح لوحدات منعزلة نسبياً في الدخول في علاقات بشروط تختلف عن صلة القرابة». بيد أن الأمر لا يتعلق بصورة من الصور بتكامل لا مشكلات له، كما تشهد بذلك نزاعات الولاء[٥٣٨]. ومع نشوء علاقات ولاء جديدة (الجامعة الاسلامية، القومية، والأحزاب العصرية) ترتب على هذه الحزبية القديمة أن تفقد بالضرورة اهميتها الاجتماعية السياسية. لكن هذا هو مجرد تفسير جزئي في سياق التنظيم الاجتماعي. ومع ذلك فماذا كانت الأهمية الاجتماعية السياسية الملموسة لهذه الحزبية في القرن التاسع عشر في فلسطين؟.

يبدو لنا أن الحزبية كانت قد اصبحت في نهاية القرن التاسع عشر وإلى حد كبير جزءاً من التراث الشعبي ــ الفولكلور ــ. لقد هان شأنها بحيث غدت عادات واعرافاً متوارثة «لا معنى لها» من وجهة وظيفية، تشبه تلك التي يتمسك بها المرء بدافع من الوعي بالتقاليد، ربما لأنها كانت تُشْرِك الألعاب والألوان في نشاطات الحياة اليومية الرتيبة. ومفهوم اللون هنا ينبغي أن نفهمه حتى بمعناه الحرفي: الأحمر كان شعار قيس والأبيض شعار يمن. ففي الحروب وفي مواكب الأعراس الخ... كانت تُحمل الاعلام بالوانها الملائمة. وفي الملابس ايضاً كان الناس ينحون هذا المنحى. وعلى سبيل المثال كانت العمامة القيسية «الأصيلة» مقلمة باللونين الأحمر الغامق والأصفر والعمامة اليمنية باللونين الأبيض والوردي[٥٣٩]. وقد تناهت الينا اختلافات محلية متنوعة في عادات العرس بين اليمنيين والقيسيين (أو بالعكس): فإذا تزوجت مثلاً قيسية من يمني من قرية أخرى «فإنها كانت تلف في قريتها بثوب ظاهره أحمر، وتُساق على جمل. وحالما تدخل حدود بلدها

(٥٣٨) Nieuwenhuijze, 668–671 (Dual Factions). القول المقتبس من صفحة ٦٧٠.

(٥٣٩) Finn, Stirring Times, I,227

المقبل، كان العريس، الذي ينتظرها هنا، يترك لأهله أن يقوموا بخلع الثوب باستعمال القوة ظاهرياً ثم قلْبه على الوجه الأخر حتى يبدو اللون الأ بيض الذي بداخله أو كان يعطيها ثوباً أبيض»[٥٤٠].

وإذا حل يمني ضيفاً على قيسي وقدّمت الميطلية فان القيسي كان يصب العسل أو الدبس عليها لكي يغطي اللون الأ بيض اليمني[٥٤١]. ولم يعد الأمر مجرد فولكور عندما كانت النساء اليمنيات يعمدن في خصومة بين «الحزبين» في البيرة إلى ضرب ديك أحمر على مرأى من النساء القيسيات فتقوم الأخيرات بإمساك ديك ابيض، و يضربنه بدورهن : رمزاً للتحقير والإهانة المتبادلة[٥٤٢].

إن الطابع المتفسّخ للحزبية يتضح في مثل آخر من «الحياة اليومية» : أراد القنصل الفرنسي في نهاية الخمسينات أن يبيت في الرملة مع مرافق قيسي من اهل البلاد. وكانت الرملة «يمنية» ولذلك فإن الرجل فضل أن ينام في اللد المجاورة، وقال : ليس هذا كرهاً، ولكن هذه الحزبية هي تقليد وضعه الله وعريق في القدم[٥٤٣].

ولكن لماذا ظلت هذه الحزبية ذات اهمية اجتماعية سياسية مباشرة في فلسطين في الخمسينات والستينات من القرن التاسع عشر على الأقل، ولماذا فقدت هذه الأهمية في العقود التالية؟ إن الإجابة عن هذين السؤالين يجب أن نبحث عنها في سياق الخصومات التي دارت للسيطرة على مناطق الجبال. لقد استعملت الحزبية الخرافية ورموزها من الألوان والأعلام كأدوات في النزاعات المحلية في المنطقة الجبلية، في نواح منفردة وفي قرى منفردة[٥٤٤]. وبما أن التقسيم إلى قيس ويمن كان أداة لهذه النزاعات وليس جوهراً لها فإن العشائر المنفردة أو اقساماً منها كانت تبدّل الأعلام حالما كانت تتوسّم جَنْي مغانم مباشرة من وراء ذلك. وكمثال على هذه فعندما ثارت فئة من عشيرة اللحام القيسية في الخمسينات في العرقوب ضد عثمان اللحام بقيادة شخص يدعى عطاالله، لم يستطع عطاالله أن يجد انصاراً وتأييداً من الخارج الا بالانتقال إلى صفوف اليمنيين[٥٤٥]. وإنه لمن الأ رجح بكثير أنْ

(٥٤٠) Bauer, Volksleben, 98f. . بشأن عادات مماثلة قارن ايضاً : Saintine, 33f; Pierotti, Customs and Traditions, 268f; Haddad, 213f

(٥٤١) Haddad, 214.

(٥٤٢) المصدر نفسه.

(٥٤٣) Saintine, 21–23.

(٥٤٤) قارن ايضاً : Shamir, «Belligerency», 80–83; Tamari, 181–185.

(٥٤٥) ISA-DKJ, A.III. 4 (Jerusalem, 15.3.1858).

آل النمر انحازوا إلى القيسيين وآل طوقان انحازوا إلى اليمنيين ليستطيعوا حشد انصار لهم في البلاد، وليس لأن الحزبية، كما يرى دروزة، قد لعبت دوراً في التنافس بينهما[٥٤٦].
وبالنسبة لبدو فلسطين ايضاً يؤكد أوبينهايم أن «الانقسام بين قيس ويمن... لم يكن موروثاً الا في حالات قليلة... فقد كان يطعّم بالأحرى على اساس علاقات الجوار أو الصداقة. ولذلك فإن الانتماء إلى نسب معين لم يكن يتطابق في بعض الأحيان والانتماء الحزبي، وكانت قبائل من أصلٍ واحد موزعة بين كلا الحزبين.»[٥٤٧]

صحيح أن رايات قيس ويمن وحّدت بين المسلمين والمسيحيين وكذلك بين البدو وسكان المدن والفلاحين، لكنها قسمت العشائر والقرى والمناطق خدمة لمصالح الزعماء المتنافسين. إن الفلاحين الذين كان زعماء العشائر المسيطرة يدعونهم إلى القتال لم يستفيدوا في اغلب الظن من «انتمائهم الحزبي». أما المستفيدون فكانوا العشائر المنتصرة، والبدو المتحالفين معها الذين استطاعوا على هذا الوجه أن يشاركوا في النهب والسلب بطريقة «مشروعة». وكان المستفيدون في جبل القدس وجهاء القدس المتحالفين مع الزعماء المحليين. إن ثنائية قيس ويمن اتاحت الإمكانية لتشكيل [عصبية عُليا] شاملة خرافية اسطورية تعلو على عصبيّة العشائر، حتى ولو أن هذه كانت كثيراً ما تصل بتبديل الجبهات إلى حدود السخف والبطلان[٥٤٨].

وبناء على ذلك فإنه عندما انتهى «حكم الشيوخ» في الستينات، وعندما اندمجت مراكز السلطة المحلية في الهياكل الادارية الجديدة، فقدت حزبية قيس ويمن اهمتها السياسية وشبه العسكرية، وقل شأنها اكثر واكثر حتى هبطت إلى مستوى عناصرها الفولكلورية. صحيح أنّه ظلت تجري اشتباكات بين القرى أو في داخل القرى كان يقف فيها القيسيون واليمنيون وجهاً لوجه كما كان عليه الأمر من قبل[٥٤٩]، الا أن النزاعات لم تعد تتسع، والحزبية لم تعد تسخّر لخدمة الصراعات المحلية على السلطة.

وفي وسعنا إن نتخلى هنا عن ذكر انتماء القرى أو العشائر المختلفة إلى حزب من «الحزبين» وعن تفصيلات خصوماتها وتبديلها الجبهات لأن مريام هوكستر (Hoexter) قد انجزت من جمع المعلومات المتناثرة المتعلقة بهذا الأمر. ولكن ما زال علينا أن نشير إلى

---

(٥٤٦) دروزة، ١٦٩ و ٢٢١. قارن ايضاً النمر، ٢، ٤١٥ وما بعدها و Hoexter, 279f.

(٥٤٧) Oppenheim, II, 13.

(٥٤٨) حول وظيفة العصبية في الشرق الأدنى عموماً قارن: دودين، حسن: (رسالة جامعية بالالمانية) **Dudin, Asabiyya**

(٥٤٩) انظر، على سبيل المثال، لطفية: Lutfiyya 36f. (حوالي سنة ١٨٨٠)

الأهمية الإقليمية المتباينة للحزبية. ليست لدينا عن الجليل والسهول الساحلية، بصرف النظر عن الرملة واللد، أي معلومات تذكر. وهذا يشير من جديد إلى أن ثنائية قيس ويمن لم تلعب دوراً الا حيث كانت هناك خصومات بين الزعماء إلى ما بعد بداية عقد الستينات، وفي المنطقة الجبلية الوسطى بالذات. وقد رأى بعض المعاصرين في الحزبية مشكلة نوعية خاصة بجنوب فلسطين[٥٥٠].

وكانت ثنائية قيس ويمن في جبل نابلس وجبل الخليل اقل اهمية، ولو كان ذلك لأسباب مختلفة ايضاً. وازدادت أهميتها في جبل القدس[٥٥١]. في جبل الخليل كان هنالك فعلاً هذا التحديد الموروث للهوية، إلا أن المنافسات والصراعات المحلية لم تدر على جبهة قيس ويمن لأن سكان جبل الخليل كانوا كلهم بلا استثناء تقريباً قيسيين[٥٥٢]. (دعيت الناحيتان اللتان كان يُسعى إلى السيطرة عليهما في ماكالستر وماسترمان بالقيسية التحتا والقيسية الفوقا). بيد أن الحزبية لعبت دوراً هنا في النزاعات مع العشائر التي كانت تسكن في النواحي المتاخمة من الشمال.

وكانت هياكل السلطة المحلية في جبل نابلس تختلف عن نظيرتها في جبل القدس من حيث أن الصراعات هناك (نابلس) لم تكن تدور في الغالب حول السيطرة على منطقة أو أخرى فقط، بل كانت تدور ايضاً حول مركز السيطرة في الجبل كله، وبعبارة أخرى حول منصب الحاكم في نابلس. ولذلك فإن المتنافسين الأقوياء كآل جرار وعبدالهادي وطوقان كانت حاجتهم إلى إخفاء اعوانهم وراء الرايات الحمراء أو البيضاء تقل باضطراد، بل انهم لم يكونوا في حاجة إلى ذلك ايضاً. لقد كانوا من القوة بحيث استطاعوا أن يشكلوا حزبيات اكثر شمولاً تحت اسمائهم هم. (في لبنان لم يعد يدعى الحزبان حتى منذ سنة ١٧١١ بقيس ويمن بل بيزبك وجنبلاط). الا أن الفلاحين في جبل نابلس كانوا يُعبَّأون أيضاً باسم قيس ويمن، لأن هذا التحزّب كان ما يزال حاضراً في اذهان جزء من سكان الريف على الأقل[٥٥٣].

---

(٥٥٠) قارن: Robinson, Biblical Researches, II, 17£; Finn, Stirring Times, I, 407; Conder, Heth and Moab, 377.

(٥٥١) كتب شخص معاصر مجهول تقريراً حول الصراعات بين القيسية واليمانية خصوصاً في جبل القدس في النصف الأول من القرن التاسع عشر. وقد صيغت اقواله بعبارات أخرى في ماكالستر وماسترمان، ١٩٠٦، ٣٣-٥٠. أنظر ايضاً: قد ورة، ٣٠-٣٣.

(٥٥٢) قارن: Haddad, 213, Morand, II, 64; ، البرغوثي وطوطح، ٢٦٦؛ الحسيني، التطور، ٨١.

(٥٥٣) قارن أيضاً:
Hoexter, 283.

أمـا في جبل القدس فلم يكن الأمر يتعلق بالسيطرة على المنطقة الجبلية بأسرها، بل على القـدس. كـان وجـهاء القدس ينتمون إلى شريحة اجتماعية تختلف عن شريحة الزعماء المحـليين في الريف، لكنهم حاولوا أن يجنوا مغانم من وراء ارتباطاتهم بالعشائر والكتل في المنـاطـق المحيطة بهم. وعلى هذا النحو كان الوجهاء يعكسون الانحيازات الحزبية أو انهم استفادوا منها على الأقل. وهكذا اعتبر آل الخالدي قيسيين وآل الحسيني يمنيين[٥٥٤]. أما في المنـطـقـة الجـبـلـيـة حول القدس فالامر كان يتعلق في الدرجة الأولى بتعزيز المراكز المحلية الـضـيـقـة لا بـ(حـكومة) الجبل ومدينته المركزية. ولذلك فقد كان من الضروري أن يعوّل بازدياد على ثنائية قيس ويمن لتقام الأحلاف و يعبأ الفلاحون[٥٥٥].

ومـن الجـائـز أن عـامـلاً آخـر لـعب دوراً كذلك وهو أن سكان جبل نابلس وجبل الخـلـيل كانوا في كثرتهم الساحقة من المسلمين. أما جبل القدس فكان فيه قسم لا يستهان بـه مـن المـسـيـحـيين الـذين لم يكن يسمح لهم في الواقع بحمل السلاح. على أن الفرق بين المسيحيين والمسلمين لم يكن ذا شأن تحت رايات القيسية واليمنية. و بهذا المعنى المحدود ادت الحزبية حتى وظيفة اجتماعية في الدمج بين فئات السكان. اما القناصل الاوروبيون الـذيـن كـانـت تـصبو نفوسهم إلى تعزيز العصبية الدينية فنظروا إلى هذا طبعاً بانزعاج. وقد لاحـظ ممـثـل فـرنـسـا غـاضـبـاً أن «الانـتـماء الحزبي» الذي يفصل بين السكان كان عند كاثوليك بيت جالا اقوى من الانتماء إلى العقيدة المشتركة[٥٥٦].

---

(٥٥٤) MAE–CCC Jér., t 3 (Jerusalem, 5.8.1857); PRO–F.O. 78, vol. 962 (Jerusalem 11.8.1853); PRO-F.O. 78 vol. 1032 (Jerusalem, 24.11 1854); PRO-F.O. 78, vol. 1294 (Jerusalem, 30 7.1857); HHSTA – Archiv Jer., **Fasz.** 40 (Jerusalem, 28.4.1858); ISA–DKJ A. III.4 (Jerusalem, 29.4 1858); Finn, **Stirring Times**, II, 146, 196f.; Haddad,213.

وهذه المصادر تعزز ما رمى هوكستر (من ٣٠٤، الحاشية ٢٧٢) إلى إضعافه، إلا وهو أن الانحياز الحربي كان قائماً في القدس تماماً، أو أنه انتقل إلى المدينة

(٥٥٥) قارن ايضاً النتائج المستخلصة في هوكستر، ٣٠٩-٣١١.

(٥٥٦) MAE,CPC Jér., t.4 (Jerusalem, 12.12.1853).

تجريد الزعماء المحليين من السلطة

توطئة

كان سقوط مراكز السلطة المحلية أو بمعنى آخر تجريد الزعماء المحليين ودمجهم في الهياكل الإدارية الجديدة التي خلقت في فترة التنظيمات الثانية واحداً من اهم جوانب التحول الاجتماعي السياسي في فلسطين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وقد تم الأخذ بهذه السياسة بحزم خلال العقد الذي تلا حرب القرم. فقد كان ينظر إلى الزعماء في الولايات العربية بشكل عام وإلى شيوخ الجبال الفلسطينية بشكل خاص باعتبارهم عوائق في تنفيذ الاصلاحات التي صُمِّمت ووجهت من المركز ينبغي ازالتها من الطريق. وكان المسؤولون في القسطنطينية على اقتناع بأن «خطي همايون» الصادر سنة ١٨٥٦ والتنظيم الاداري والاجتماعي السياسي الجديد للدولة، الذي كان «خطي همايون» القاعدة التي يقوم عليها، لا يمكن تنفيذهما الا من حكومة مركزية قويّة وحازمة. وقد اتضحت للباب العالي ضرورة اقامة اشراف سياسي وعسكري لا ثغرة فيه مرة آخرى في أثناء «الأزمة السورية» لسنة ١٨٦٠. ولذلك كان من اهم اهداف السياسة العثمانية في سوريا بعد سنة ١٨٦٠، تقويض نفوذ «العائلات الراسخة» وتحطيم سلطتها الاجتماعية السياسية[٥٥٧]. لكن سياسة كهذه في الولايات الأخرى وكذلك في فلسطين كانت تعتمد على تعزيز وسائل سلطة الدولة، إذا كان يراد لها أن تكون فعالة وأن تكون لها نتائج باقية. وإذا كان الحكام قد تصرفوا حقاً، كما كان الأمر في السابق، وفق مبدأ «فرق تسد» وإذا هم مارسوا السياسة وهم يحملون ذهب المعز بيد وسيفه باليد الأخرى فما كان ذلك الا لأنه لم تكن تحت تصرفهم على الدوام قوات عسكرية بالقدر المطلوب.

وفي الفترة التي تلت سنة ١٨٥٦، وهي الفترة التي كانت لدى قناصل الدول الغربيّة فيها تعليمات سارية بأن يقفوا إلى جانب السلطة المركزية في النزاعات المحلية [وما كان في وسعهم أن ينجحوا في ذلك حقاً الا إذا كانت مصالح السلطة المركزية لا تتعارض مع مصالح المسيحيين واليهود والاقليات الأخرى التي تتمتع بالحماية]، في هذه الفترة كان الحكام على يقين من رضى الأوروبيين وتأييد القناصل في مساعيهم الرامية إلى إقرار «الهدوء والنظام» و«إحلال السلام» في فلسطين، هذا إذا لم يكونوا يتصرفون على اية حال

---

(٥٥٧) قارن.

Abu-Manneh, Some Aspects, 148.

وهم تحت الضغط الاجنبي. بل ان عدداً منهم سعى بصورة مكشوفة إلى كسب ثناء القناصل وتصفيقهم، فقد كان هؤلاء على علم باهمية التقارير التي كان القناصل يرسلونها إلى القسطنطينية بالنسبة لوظائفهم. وهكذا فإن كامل باشا دعا الهيئة القنصلية في القدس، حتى في صيف ١٨٥٥، إلى «نزهة عسكرية» في جبل الخليل. وعلى مرأى من «ممثلي اوروبا» جرى قصف قرية ادنا، التي لجأ إليها أحد الزعماء المحليين الثائرين، بالمدافع كما تم نهبها (انظر ادناه). وعندما تمّ الاستيلاء على عرابة، مركز آل عبدالهادي الذي تحصنوا فيه حينئذ، بمساعدة مدفعين من مدافع الميدان، وتم تخريب البلدة ابلغ القنصل البريطاني فن الخبر، في لهجة المقر بالفضل؛ إذ قال إن الإدارة العثمانية لم يسبق أن لجأت إلى اجراء قوي كهذا منذ سنة ١٨٤٠ (انظر ادناه).

ومع هذا بقي موقف الأوروبيين يتسم بالازدواجية. فهم من جهة أيّدوا الحكام العثمانيين والحوا عليهم في اعادة اقرار «القانون والنظام». ولكنهم من جهة أخرى تقرّبوا إلى الزعماء المحليين على انفراد، بل انهم حموا ظهورهم ضدّ الحكام عندما كان الأمر يتعلق بتعزيز المصالح الاوروبية المباشرة أو مصالح الذين يتمتعون بالحماية الأوروبية. وفي نهاية السبعينات، وعندما تحوّلت مصالح الدول الأوروبية الكبرى في فلسطين وأخذت تهدف إلى السيطرة المباشرة بدأت الشكوى من الأمر الذي كان يجد التأييد الرسمي بعد سنة ١٨٥٦، الا وهو ضرب مراكز السلطة المحلية. وقد رسم كوندر رؤيا لنسخة فلسطينية مطابقة لجبل لبنان ــ فلسطين تحت حكم العائلات المستقرة قديماً في البلاد وتحت الحماية البريطانية: «إن سياسة الاتراك قد اتجهت إلى تحطيم كل القوة الوطنية لسوريا. العائلات القديمة دمّرت أو حُط من شأنها؛... والهدوء والسلام يسودان البلاد لأنَّ جنساً قوياً، كان أبناؤه في هذا القرن الحاضر سادة انفسهم عملياً، قد روّعوا ودمروا بحيث لم تعد فيهم نسمة روح». لكن هؤلاء بالضبط هم الذين ينبغي أن تسلم اليهم حكومة البلاد ثانية: «ليس هنالك نقص في الرجال الذين يحظون بالتكريم والاحترام من جانب الناس، مع أن الاتراك ضربوا عليهم الفاقة والعجز. من هؤلاء البيك التقي والمحترم من آل طوقان في نابلس، ومنهم شيوخ بني جرار والجيوسي واللحام وغيرها من العائلات القديمة، والباقون على قيد الحياة في الجليل من سلالة ظاهر العمر، وغيرهم كثيرون». فَتحْتَ نظر الدول الأوروبية (أي انجلترا) وبضمانتها ينبغي أن يؤخذ بيدهم إلى الحكم الذاتي. لماذا؟ لأن رسالة انجلترا هي ايجاد «دولة قوية من اهل البلاد بين القناة (قناة السويس) والخطر

الشمالي»![٥٥٨] . لقد كانت هذه رؤيا مبكرة للانتداب البريطاني ــ لم تختلف الا في أن العناصر المتعاونة التي استند اليها الحكم البريطاني في القرن العشرين لم تكن فيما بعد «البيكاوات والشيوخ المحترمين» الذين طافوا في مخيلة كوندر. ومن «السلالة الابيّة» لظاهر العمر، التي تطلع بخياله اليها، لم يبق في شمال فلسطين، منذ وقت طويل، ما يؤخذ في الاعتبار.

عقيل أغا في الجليل الأدنى

لم يعد هناك في الجليل في اواسط القرن التاسع عشر، كما رأينا، زعماء محليون متنفذون مثل اولئك الذين كانوا في الجبال الوسطى. إن حكم ظاهر العمر والجزار باشا واخيراً ابراهيم باشا قد خلّفت هنا ما يشبه الفراغ في السلطة، وهو فراغ لم تكن الادارة العثمانية في فترة التنظيمات الأولى، اي الفترة ما بين استرداد فلسطين وحرب القرم، بقادرة بعد على ملئه.

لقد كان عقيل اغا، الذي سنعرض الان لصعوده وسقوطه، هو الشخص الذي اصبح هنا الزعيم المحلي لعقدين من الزمان تقريباً (١٨٤٧ ــ ١٨٦٤)، وحاول بشكل من الاشكال السير على خطى ظاهر العمر.

كان عقيل (أو عقيلة)[٥٥٩] بدوياً من قبيلة هنادي. وابوه، موسى الحاسي، ترك الاراضي المصرية سنة ١٨١٤، وعاش بعد ذلك بجوار غزة، حيث توفي سنة ١٨٣٠. وقد دخل عقيل، كأبيه من قبله، هو وانصاره، في خدمات متنوعة أشدّ التنوع، ومن بينها خدمات ابراهيم باشا. وفي سنة ١٨٤٣ تولّى عقيل منصب قائد لقوات غير نظامية في شمال فلسطين. وفي سنة ١٨٤٥ انحاز الى جانب لاتين الناصرة في قتال محلي ضد قائمقام عكا. وفي أثناء هذا القتال ترك هو وأتباعه الناصرة والتحق ببني صخر في شرق الأردن.

ويمكن تأريخ بداية نفوذه العسكري السياسي، ومركز سلطته المحلية في الجليل، في

(٥٥٨) Conder, Heth and Moab, 375f., 396f., 399.
وانظر أيضاً . Conder, Tent Work, I, 104 f.
وتجد كذلك ندباً فرنسيا مبكراً حول ضرب الحكم المحلي على يد العثمانيين في برجولا Poujoulat, La Vérité 279—294

(٥٥٩) إن المادة التي يمكن العثور عليها حول عقيل في الأدب الأحدث عهداً تعود في الدرجة الأولى الى صورة منقولة عن الاصل لمرجع، هو تاريخ لعقيل، عُثر عليه بين أوراق رجل الدين الناصري ميخائيل قعوار، ويشكل هذا المرجع أساس النبذ المتعلقة به في كتاب أسعد منصور، تاريخ الناصرة، (٧٣ ـ ٨٠ و٩١ـ٩٣). قارن بالاضافة الى ذلك: Finn, Stirring Times, I, 424 - 432; Macalister, Masterman, 1906, 221-225, 286-291. (وعرض ماكالستر يستند استناداً تاماً إلى المخطوط نفسه الذي في حوزة منصور)؛ العارف، تاريخ غزة، ١٨٧ وما بعدها؛ Oppenheim, II, 30-32, Ma'oz, Ottoman Reform, 138—140; Zenner; محول (٢)، ١٥ ـ ١٧. والعرض التالي وضع أيضاً في ضوء ما كتبه منصور. ولهذا السبب فلم نُشر الا الى مصادر اضافية، وفي الدرجة الأولى الى التقارير المعاصرة للقناصل الاوروبيين.

سنة ١٨٤٧[٥٦٠]. وذلك عندما استدعي لتولي قيادة ٨٧٥ جندياً من الباش بوزك (الجنود المساعدين غير النظاميين) الذين كان ميدان عملهم الجليل الأدنى، من حيفا وعكا في الغرب حتى غور بيسان وطبريا في الشرق، ومركزهم الناصرة. وجعل عقيل من عبلّين، وهي حصن جبلي سابق من حصون الزيادنة، ذو موقع مثالي، مقره الرئيسي، وهي تقع على بعد واحدٍ من كل من عكا وحيفا والناصرة.

لقد نقل ظاهر العمر عبلين التي كانت تشرف هي وشفا عمرو وتمرة في بداية القرن الثامن عشر على اهم مناطق زراعة القطن في لواء عكا، إلى عهدة اخيه يوسف. وبنى هذا هنا مسجداً مرموقاً كان يُرى من مأذنته سهل عكا الساحلي وجبل الكرمل ومنطقة الناصرة، كما انه احاط عبلين كذلك بسور تحف به الأبراج. وكان عدد سكان القرية في زمن عقيل يتراوح بين ٦٠٠ و٨٠٠ شخص اكثرهم مسلمون وروم ارثوذكس (وقد دشن الأخيرون هنا كنيسة للقديس جورج)[٥٦١].

بيد أن عبلين لم تُصبح «المقرّ» الدائم لعقيل أغا. فقد كان عقيل ينصب مخيمه بالاحرى في اماكن متغيِّرة في الجليل احتياطاً على سلامته من مطاردات الولاة العثمانيين. وكان له بيت في الناصرة ايضاً[٥٦٢]. ومع ذلك فإن الحصن الجبليّ كان بمثابة رمز لادعاءاته بالسلطة. وهنا تفاوض سنة ١٨٤٨ مع لينش، رئيس بعثة الاردن الأميركية، حول عقد معاهدة الحماية التي جعلته معروفاً لأول مرة في الولايات المتحدة واوروبا[٥٦٣]. وفي سياق نزاعاته التي سنعرض لها بعدُ مع الادارة العثمانية سنة ١٨٦٣ رفض الامتثال لطلب الادارة بأن يذهب إلى عكا؛ وبدلاً من ذلك طالب غرماءه بأن يتفاوضوا معه في عبلين. وفي هذا المكان أيضاً ووري التراب بعد موته في سنة ١٨٧٠[٥٦٤]. وكان احد احفاد عقيل ما يزال

---

(٥٦٠) Lynch, 710. رافق عقيل بعثة لنش. وراقب لنش شخصه ووضعه في سنة ١٨٤٨، ووصفهما بدقة، وقد داخل ذلك بالتأكيد شيء من التصوير الرومانسي أيضاً. واعتبر لنش عقيلا «متوحشاً ـ رائعاً» [ص ٦٨]، وجعله، وعلى غير وعي منه تماماً، رئيساً نبيلا وحكيماً من رؤساء الهنود الحمر.

(٥٦١) Robinson, Biblical Researches, III, 103-105, 110; Guérin, Description, VI, 420f; SWP, Galilee, 269f., Cohen, 12,85, co الحاشية ١٢٥؛ مخول (٢)، ١١ ـ ١٥؛ معمر، ٢٩١ وما بعدها.

(٥٦٢) ان الزعيم البدوي المهاب الجانب في الناصرة، والذي تورد له الأميرة دي بلجيو يوسو Belgiojoso (253-255) تاريخاً عابراً، هو بالتأكيد عقيل آغا.

(٥٦٣) Lynch, 77-80

(٥٦٤) منصور، ٧٨ ـ ٨٠. كانت الخيل مريضة تساق الى قبر عقيل حيث كان يمنّى أصحابها بشفائها من زيارته. لقد ازيلت تحصينات عبلين السابقة مع الأسف في السنوات الأخيرة (اشكر السيد عزت داود الذي صحبني في شهر ايلول سنة ١٩٨١ في جولة في البلدة ولي زيارة للمقبرة).

على قيد الحياة في عبلين سنة ١٩٧٩[٥٦٥].

إن عبلين، والذكريات التي كانت ما تزال حية لحكم ظاهر العمر في الجليل لم تعدم اثرها على عقيل اغا. ألم تقم عائلات بدوية مهاجرة إلى فلسطين الشمالية باغتصاب السلطة في هذه المنطقة مرتين من قبل، ونجحت في تثبيت سلطتها ضد العثمانين لعقود طويلة من السنين: آل طرباي[٥٦٦] في القرن السابع عشر والزيادنة[٥٦٧] في القرن الثامن عشر، او لم يكن بنو ماضي ايضاً من اصل بدوي؟. إن لينش كان يعتقد بأن عقيلاً كانت لديه اطماع مشابهة، وافترض أن قائد الباش بوزك حلم بأن يقوم على رأس تحالف بدوي بازاحة النيّر العثماني، وأنه اراد أن يعرف إنْ كان يستطيع أن يعوّل على مساعدة من الخارج بهذا الشأن[٥٦٨].

على أنه يحق لنا أن نشك فيما ذهب اليه اوبنهايم[٥٦٩] من أن عقيل كان ممكناً ان يغدو بالفعل ظاهر العمر ثانياً في ظروف زمنية أخرى. وذلك انه بينما كان والد ظاهر العمر قد انتقل من قبل إلى حياة الاستقرار، فإن عقيلاً لم يرد أن يسمع شيئاً عن خطورة كهذه. إن ملكية الارض والانتاج الزراعي والتجارة وحياة المدن لم تكن تعني اي شيء بالنسبة له. وعندما طرح على عقيل هذا السؤال ذات مرة اجاب بسؤال مقابل: «هل تريدون مني أن افضح نفسي واحرث الارض كما يفعل الفلاح؟»[٥٧٠] وهو لم يطمح كذلك من بعد إلى بناء مراكز قوة ونفوذ في مدن اللواء. صحيح أن واحداً من اقارب عقيل كان على رأس الادارة في طبريا ردحاً من الزمان[٥٧١]، وصحيح أن أخاه صالح[٥٧٢] قد مارس نفوذاً كبيراً في حيفا، إلا أن عقيل ما كان يعتمد إلا على رفاقه في العشيرة وعلى التحالفات مع العشائر البدوية الأخرى في هذا الجانب وذاك لنهر الأردن.

وفي جانب من الجوانب ادرك عقيل حقاً إمكانات العصر من حيث انه كان يتطلع

---

(٥٦٥) مخول، ج (٢)، ص ١٧.

(٥٦٦) قارن بهذا الشأن .
Sharon, 26–30 ؛ ١٣٨ - ١٤٣ ، دروزة، ؛ Carmel Geschichte Haifas, 18f; Oppenheim, II, 51-54;

(٥٦٧) انظر بهذا الشأن قبل كل شيء كوهين ومعمّر.

(٥٦٨) Lynch, 238

(٥٦٩) Oppenheim, II, 32

(٥٧٠) Lynch, 177

(٥٧١) Lynch, 89 . في سنة ١٨٦٣ كان حمو عقيل حاكماً في الخليل: Saulcy, Voyage en Terre Sainte, I,159. .

(٥٧٢) هناك وصف لزيارة الى معسكر صالح آغا في: Farley, Two Years in Syria, 317–326.، ووصفت ماري روجر ببلاغة فائقة وليمة في شفا عمرو دعيت اليها هي واخوها نائب القنصل روجرز مع صالح آغا، كما وصفت صيداً للغزلان دعا اليه صالح آغا بدوره. (Rogers, La Vie Domestique, 229–240.

إلى حُماة أوروبيين للحفاظ على مركزه وتعزيزه. وقد ظهر بعد سنة ١٨٦٠ بوجه خاص بمظهر الحليف لفرنسا وتوهم أن بإمكانه أن يتلقى تأييداً فعالاً منها. وتباهى إزاء القنصل الانجليزي فن ذات مرة بقوله: «انا فرنسي»[٥٧٣]. وقد ارسل إلى «قيصره» عن طريق القنصل الفرنسي في بيروت نمراً هديه منه[٥٧٤]. وفي بداية الستينات انتشرت شائعات جديدة حول أطماعه السياسية. فقد قيل انه كان ينتهز كل فرصة لاقناع مشايخ البدو الآخرين بأن «الارض ارضهم وأن الاتراك يحرمونهم حقهم، وأنهم قد يستردونها ثانية من هؤلاء الفاتحين... و يتخيل البعض أن الغاية التي قد يرنو اليها هي أن يشكل تحالفاً من القبائل العربية تحت حماية فرنسا»[٥٧٥]. ومع ذلك فقد ترتب عليه أن يقوم بالدفاع عن ادعاءاته في السلطة تجاه الادارة العثمانية، بالاعتماد على نفسه دون غيرها. ومشى آخر الأمر من اقصر الطرق.

إن النفوذ بل السلطة التي احرزها عقيل أغا في السنوات التي تلت سنة ١٨٤٧ في الجليل اثارت الشبهات المتزايدة لدى الحكام العثمانيين. وفي سنة ١٨٥٢ بعثوا به ضد الدروز الثائرين عبر الأردن، ربما ليتخلصوا منه. وإذا كانت هذه حقاً هي نية سلطات الولاية، فقد باءت المناورة بالفشل. فقد عاد عقيل ظافراً إلى الجليل، واخذ التهديد بزيادة قوته الان يتعاظم. ولذلك فإن الادارة العثمانية لجأت إلى اسلوب قديم مجرّب: لقد تم استدراج عقيل إلى مصيدة، واتهم بالاشتراك مع المتمردين الدروز وسجن في قلعة ودين Widin على نهر الدانوب.

الا أن عقيل نجح بعد عام من الزمن في الافلات وفي العودة إلى سوريا. وذكر أن اسقفاً مسيحياً قد ساعده في هذا الشأن، وهو الامر الذي لم ينسه عقيل ابداً[٥٧٦]. وبقي عقيل اولاً في منطقة حلب. وعندما علم اخوه صالح بعودته، لحق به مع ٥٠٠ خيّال، كان يفترض أنه سيمضي معهم إلى الحرب ضد روسيا. وفي بلاد جُرّدت من الجند إلى حدٍ بعيد بسبب الحرب وجدت تحت تصرفه الآن قوة محاربة لا يستهان بها. وللمرة الثانية بعد سنة ١٨٤٧ آثرت السلطات أن تعهد اليه بوظيفة رسمية على أن تعيش في عداء معه، لقد حاولت

---

(٥٧٣) Finn, **Stirring Times**, I,452

(٥٧٤) Thomson, **The Land and the Book**, 444f.

(٥٧٥) Dixon, I, 184

(٥٧٦) Finn, **Stirring Times**, I,427 (اسقف يوناني)؛ Macalister, Masterman, 1906, 288 (أسقف لاتيني)

أن تتقي شره : وعين عقيل ثانية في سنة ١٨٥٤ قائداً لقوات الباش بوزك في لواء عكا[٥٧٧]. وبدأ القناصل الاوروبيون الآن في التقرب اليه مباشرة. وفي سنة ١٨٥٤ ارسل له فِنْ رسالةً نبّهه فيها إلى «أن يتجنب الظلم» فيما يتعلّق بالمسيحيين واليهود. وزار القنصل العام الفرنسي في بيروت، دي لسبسس، de Lesseps، عقيلاً في حيفا. وكان الفرنسيون يشعرون بالقلق على سلامة ديري اللاتين في الناصرة وعلى جبل الكرمل، والانجليز على رفاه اليهود المتمتعين بحمايتهم في صفد وطبريا وبروتستانت الناصرة[٥٧٨].

وبعد حرب القرم التي اجتازتها السلطات العثمانية بنجاح بمساعدة الدول الغربية استطاعت هذه السلطات أن تفكر مجدداً في تجريد عقيل من السلطة. وحشدت الان ضد عقيل وحدات كردية غيرنظامية تحت إمرة محمد سعيد، ابن الزعيم الكردي المعروف شمدين اغا[٥٧٩]. ونزلت هذه الوحدات في منطقته بقضاء طبريا، وعُهد إلى حسن أغا، أخي محمد سعيد، بادارة القضاء. وكان عقيل قد صدّ من قبل في ربيع سنة ١٨٥٦ اعتداءات قام بها آل عبدالهادي على منطقته اثر اشتباك دموي[٥٨٠]. وقبل هذا التحدي أيضاً. وفي ٣٠ آذار ١٨٥٧ حاصر الاكراد بقواته غيرالنظامية واحلافه من البدو في ساحة معركة حطين الصليبية[٥٨١]. وخرج عقيل من هذا القتال منتصراً. وذكر أنه بقي في ساحة المعركة حوالي ١٥٠ قتيلاً من بينهم حسن اغا. وبات مركزعقيل في فلسطين الشمالية الان اوطد مما كان عليه في اي وقت مضى. وبدا الحاكم الفعلي للجليل. وكان يهمه أن يُثبت سلطته الفينة بعد الأخرى أمام الاوروبيين والذين يتمتعون بحمايتهم[٥٨٢]. وكان اكثر تعهداته اثارة في هذا الصدد الحماية التي عرضها على اليهود والمسيحيين ابان ازمة ١٨٦٠، وبوجه خاص التزامه بحماية المسيحيين في مدينة الناصرة. وللمرء أن يشك في هذا الصدد، وله ملء الحق، في ان المسيحيين كانوا يحتاجون بالفعل إلى هذه الحماية؛ إذ إنه لم يكن يقصد في هذا الشأن الحماية العامة من هجمات البدو والأخطار المشابهة بل حماية المسيحيين من المسلمين. بيد أن فلسطين كان يسودها الهدوء التام في أثناء الحرب الأهلية في جبل لبنان والمذبحة في دمشق؛ ولم تمسّ شعرة في مفرق أي مسيحي فيها.

---

(٥٧٧) PRO-F.O. 78, vol. 1032 (Jersalem, 27.7 1854)، أي لبس في سنة ١٨٥٥ كما جاء في منصور، ٧٥.

(٥٧٨) Finn, Stirring Times, I, 421–427,430–432

(٥٧٩) حول عائلة شمدين انظر : Schatkowski – Schilcher, The Dechine of Syrian Localism, 209–212.

(٥٨٠) PRO-F.O. 78, Vol. 1217 (Jerusalem, 2.5.1856).

(٥٨١) تقارير مفصلة في : HHSTA – Archiv Jer., Fasz 39 (Akka – Haifa 3.4.1857, 10.4. 1857) باللغة الايطالية PRO-F.O. 78, vol 1294 (Jerusalem 8.4. 1857), Macalister/Masterman, 1906, 289, 291. (ويذكرماكلستر وماسترمان خطأ أن تاريخ المعركة هو ٣٠ آذار ١٨٥٨).

(٥٨٢) أنظر على سبيل المثال : PRO–F.O. 78, vol. 1521 (Nazareth, 10.8.1860); Damas et le Liban,35–38.

إلا أنه لا سبيل إلى نكران أنّ اعضاء الاقليات الدينية في شمال فلسطين قد استولى عليهم القلق بل الذعر لمجرد قربهم المباشر من مسارح الاحداث الدموية. فقد هربت العائلات المسيحية واليهودية من داخل البلاد إلى المدن الساحلية، وبعضها ابحر من هناك إلى الاسكندرية أو اثينا. ويبدو أن خوفهم استغل هنا وهناك. فقد كانت هناك تقارير حول تَرْويع المسيحيين واليهود في عكا وصفد: فقد علقت على بوابة كنيسة الروم الكاثوليك في عكا يافطة تنطوي على تحقير المسيحيين وتهديدهم. وكان على يهود صفد أن يقبلوا «حماية» شيخ الشباب في المدينة[٨٢] واتباعه؛ واقام كبير الحاخامين على سبيل الاحتياط وليمة لاربعين من الشباب المسلمين[٨٣]. واوردت الروايات الشفوية امثلة أخرى عن الخطر الذي احدق بالمسيحيين في الجليل وعكا، وهو الخطر الذي ذكر أن عقيل كان اول من صدّه[٨٤].

كذلك استبد القلق بمسيحيي الناصرة، وذهب طنوس قعوار، وهو من طائفة الروم الارثوذكس، باسمهم إلى عقيل اغا لكي يتأكد اولاً من أنه لا خطر هناك من جهة عقيل هذا نفسه، ثم لكي يكسبه بعد ذلك كحام لهم. والمح قعوار له ايضاً، في هذا الصدد، بأنّ اوروبا ستنتقم «لدم المسيحيين المسفوك». ووعد عقيل على اية حال بحمايته. وبعث له القنصل فن كذلك برسالة قال فيها إنه سيكون سعيداً للغاية في وقت قصير بأنْ قدم الحماية للمسيحيين، لأنه سيسمع أي منقلب سينقلب القتلة[٨٥].

وكانت الناصرة من زاوية معينة في حاجة فعلاً إلى الحماية بشكل خاص. فلم تكن للمدينة اسوار، وكانت تقع خارج مجال سلطة الزعماء المحليين، الذي كان يبدأ عند الحافة الجنوبية لمرج ابن عامر. ومن المؤكد انه لم يكن من قبيل الصدفة أن سكان المدينة (وكان ثلاثة ارباعهم من المسيحيين) قد انضموا سنة ١٨٥٤ بالذات إلى العهد الذي حلّله شتيبات Steppat باعتباره حلفاً للدفاع والحماية[٨٦]، في وقت لم تكن فيه فلسطين مجرّدة من

---

(٥٨٢) في جبل لبنان، وفي جبال الجليل ايضاً كما هو واضح، شيخ الشباب هو «الرجل القوي» في القرية أو البلدة، الذي يقود جماعة من الشباب المسلحين. قارن بهذا الشأن: Havemann, 245–247

(٥٨٣) ISA– BCJ, J22, 15 (Akka, 22.6, 11.8, 31.8.1860); PRO–F.O. 78, vol. 1521 (Jerusalem, 31.8.1860), Macalister / Masterman, 1906, 289.

وقد الحف وكيل القنصل النمساوي السياح فيما بعد بقصيدة عنترية عصماء تروي كيف انه حمى صفد وضواحيها كما زعم بسبعمائة مُسلّح من الاعداء الخناقين النهابين! وانظر ايضاً Furrer, 381. Rückert, 404

(٥٨٤) مخول، ج١، ٥٩ (عن صورة لرسالة) وج٢، ١٦.

(٥٨٥) PRO–F.O. 78, vol. 1521 (Nazareth, 108.1860).

(٥٨٦) Steppat, «Ein Contrat Social».

الجنود النظاميين فقط بل كان فيه عقيل اغا ايضاً معزولاً من منصبه (١٨٥٣ ــ ٥٤). ومن الواضح تمام الوضوح أن الحلف بين الطوائف الذي تم التوصل اليه سنة ١٨٥٤ قد صمد في ازمة ١٨٦٠ ايضاً. ولما بدا أن المدينة كانت مهددة بهجوم من بني صخر في شهر تموز من تلك السنة وقف السكان انفسهم، المسلمون والمسيحيون، جنباً لجنب و يداً بيد، على اهبة الاستعداد للدفاع عن الناصرة[٥٨٧]، ثم ثبت لحسن الحظ أن الهجوم البدوي الذي تخوفوا منه كان انذاراً كاذباً. والظاهر أن توجه طنوس قعوار بالرجاء إلى عقيل قد أثار ايضاً انتقاد مسلمي المدينة. فقد حدّث رجل عجوز من بير المكسور سنة ١٩٦٨ عالماً من علماء الانثروبولوجيا كيف أن احد افراد عائلة الفاهوم (وهي كبرى العائلات الاسلامية في المدينة) اراد أن يثني طنوس قعوار، كما تقول الروايات الشفوية المتوارثة، عن الذهاب إلى عقيل: «يا طنوس لماذا انت ذاهب لعقيلة؟ انت، لماذا؟ لقد سمعت كلباً ينبح وتذهب أنت. الله يعلم من أين يأتي هو (عقيلة). الا تظن إنه إذا هاجم أي مسيحي، أي مسيحي صغير، فكأنه هاجم لفّتي (عمامتي) التي فوق رأسي. سوف اترك كل عائلة في هذه البلاد؛ سأجمع كل المسلمين ضده. لماذا تريد أن تعطيه هديةً؟ إذا سمعت كلباً ينبح فهل تجيب؟ اليس ذلك من العار. ومن اين انت؟ انت من الناصرة ونحن من الناصرة. وإذا سلمت انا فانت سالم»[٥٨٨].

وبغض النظر عن أن «حماية» الاقليات الدينية كانت بالنسبة لعقيل تجارة رابحة[٥٨٩]. فإنه حاز اعجاب الاوروبيين بعد سنة ١٨٦٠، وحاول الاستفادة من صفة «منقذ المسيحيين» لتعزيز مركزه[٥٩٠]. وفي فرنسا ساد الاعتقاد باديء ذي بدء انه تم العثور في سوريا على نوع من عبدالقادر ثانٍ (وخصوصاً لأنه ذاع على نطاق واسع أن عقيلاً كان من اصل جزائري). وقرر نابوليون الثالث منح عقيل وسام جوقة الشرف على ظهر سفينة حربية فرنسية راسية امام حيفا، وامر بتسليمه كذلك اسلحة رائعة وملابس فاخرة[٥٩١]. وفي سنة ١٨٦٢ قصد أمير و يلز عقيلاً وقدم له هدايا كذلك[٥٩٢].

(٥٨٧) منصور، ٩٣. قارن أيضاً: PRO–F.O 78, vol. 1521 (Jerusalem, 19.6.1860).

(٥٨٨) Zenner, 176

(٥٨٩) PRO–F O 78, vol. 1521 (Jerusalem, 2 8.1960); PRO–F.O.78, vol. 1588 (Jerusalem 2.7.1861).

(٥٩٠) قارن: HL, IV (1860), 97, 137; HL, V (1861), 46; Tobler, **Nazareth**, 98; Guérin, **Description**, VI, 102.

(٥٩١) PRO–F.O. 78, vol. 1588 (Jaffa, 12.4. 1861; Jerusalem, 2.7. 1861); Tobler, **Nazareth**, 98; Hardy, 227–229 مخول، (٢)، ١٦؛ Schlicht, (حاشية ص١٣١ وما بعدها).

(٥٩٢) Macalister / Masterman, 1906, 289; مخول، (٢)، ١٦.

ومع ذلك فإن عقيلاً، شأنه شأن عبدالقادر، ما كان له أن يعول تعويلاً ذا بال في هذه السنوات على تأييد فرنسا الفعّال لمطامعه السياسية البعيدة المدى. و يضاف إلى ذلك أن السياسة الفرنسية كانت «سياسة لجميع الاحوال» مع ميل إلى التناقضات الداخلية، كما ظهر ذلك ايضاً في ورقة العمل التي وضعتها وزارة الخارجية في كانون الثاني ١٨٦٣ التي اشرنا اليها اعلاه (انظر ص٦٨).

وكان على عقيل أن يدرك وشيكاً ضآلة العون الذي قدمته له الحماية الفرنسية. وجاء الانعطاف الحاسم، نهاية سلطته في شمال فلسطين، في سنتي ١٨٦٣ / ١٨٦٤[٥٩٣]. إن محافظ عكا الجديد (حاكم لواء عكا)، حسن افندي، لم يعد يَرْضى بأن تقتصر سلطته على مدينة عكا وأن يترك باقي اللواء لعقيل. (و بالمقابل فإن عقيلاً منذ هربه من المنفى سنة ١٨٥٤ لم يعد يجرؤ على الذهاب إلى عكا، بل احتفظ بممثل دائم له هناك). يضاف إلى ذلك أن وضع عقيل أغا المريب، كشخص يتمتع بحماية خاصة من جانب القنصل الفرنسي، كان كالشوكة في العين بالنسبة للسلطات العثمانية. وكان عقيل يقوم لقاء مبالغ مناسبة يأخذها من المسيحيين واليهود بصورة عامة بحماية التجار والحجاج والمسافرين والاديرة، لكن الفلاحين (الذين لا يدفعون) كانوا يرتجفون منه و يتعرضون لاستغلال حاشيته وهجمات قادتهم المساعدين وخصوصاً شقيق عقيل صالح. وشكا المحافظ بحق إلى المشير (الوالي) في بيروت من أن الباش بوزك يحدثون من الضرر بقدر ما يحدثه البدو على الأقل، الذين يفترض في الباش بوزك أن يحموا سكان اللواء منهم. يضاف إلى ذلك ــ وقد بات هذا عاملاً حاسماً الان ــ أن عقيلاً لم يكن يقدر، او لم يكن يريد على الاطلاق، أن يدافع عن البدو بصورة دائمة. وذكر أنه في شهر ايلول سنة ١٨٥٨ تقريباً بقي مكتوف

---

(٥٩٣) إن العرض الذي يلي لهذا التطور يختلف اختلافاً كبيراً عن رواية منصور. وانا استند في المقام الأول الى التوثيق الغني في الأرشيفات النمساوية والبريطانية، وهي: HHSTA، ارشيف القسطنطينية، التقارير القنصلية لسنة ١٨٦٣ (التقارير في اللغات الألمانية والايطالية والفرنسية، وتشكل معاً ٨١ صفحة، من صفد بتاريخ ٢٦/٧/ و٣٠/٧ و٢٧/٩/١٨٦٣؛ من بيروت تاريخ ٩/٨ و٢٣/٨ و٤/١٠/١٨٦٣، من القدس تاريخ ١٢/٨/١٨٦٣، من حيفا تاريخ ١٨/٩/ و٢٧/٩ و ٢٩/٩/١٨٦٣؛ من الساصرة تاريخ ٢٣/٩/١٨٧٣؛ من طبريا تاريخ ٢٥/٩ و٢٨/٩/١٨٦٣) وكذلك

PRO—F.O, 78, vol 1752 (Jerusalem, 7.7.1863, 16 9.1863, 29.9.1863, 28.10.1863; Haifa, 25.9.1863, 22.10.1863); PRO—F.O. 78, vol. 1816 (Haifa, 8.1.1864, 15.12.1864; Beirut, 27.12 1864); PRO—F O. 78, vol. 1872 (Haifa, 30.12 1864).

قارن أيضاً:

HL, VII (1863), 102, 125;

HL, VIII (1864), 114; Dixon, I, 32, 42f., 170—186; Tristram, **The Land of Israel**, 108f.,123f., 407f., 442—444,478, 563f (1863—1864)

اليدين بينما كان القتال يحتدم بين القبائل المختلفة[٥٩٤].

وفي صيف ١٨٦٣ هجم بدو شرق الاردن في منطقة طبريا واحدثوا دماراً كبيراً. ولم يستطع عقيل أن يقوم بشيء ضدهم، ولكنّه تذكر النجاح الباهر الذي احرزته السلطات العثمانية مؤخراً في منطقة الجبال بسلاح لم يكن بين يديه، الا وهو مدفعية الميدان. إن القتال في معركة حطين (١٨٥٧) كان ما يزال يجري إلى حد كبير بالحراب والسيوف! وطالب عقيل حسن افندي الآن بجنود نظاميين ومدافع. وتم بالفعل حشد قوة مقاتلة نظامية تتألف من ألفي رجل من عكا ودمشق، قرب طبريا. وما لبثت أنباء اقتراب مدفعية الميدان التي تثير اقصى درجات الهلع أن دفعت بحدّ ذاتها البدو إلى الانسحاب. بيد أن عقيل ادرك سريعاً أن هذه الاجراءات كانت موجهة ضدّه ايضاً. ورأى أن الخطر لم يكن يحيق بمركزه فقط بل بشخصه كذلك، وقدم استقالته إلى بيروت. وكان يخالجه الأمل وهو يفعل ذلك في أنّ طلب الاستقالة لن يقبل، بل إن مركزه تجاه محافظ عكا سيتعزز. وأرسل وفداً من يهود طبريا إلى المشير يطالب بتثبيته في وظيفته[٥٩٥]. وكان يقف إلى جانبه في الدرجة الأولى القنصلان الفرنسيان في كل من حيفا و بيروت. الا أن قبولي باشا، المشير، قبل استقالته. فقد كان يشاطر محافظ عكا افكاره وخططه بشأن تأمين سلامة الجليل وحمايته من هجمات البدو بوضع قوات نظامية داخل البلاد وخصوصاً على نهر الأردن، حيث كان يمكن اقامة مراكز عسكرية حصينة. كان الهدف أن يستغنى عن عقيل اغا.

بيد أن هناك عاملين كانا ما زالا يحولان دون نجاح سياسة سنة ١٨٦٣ هذه. العامل الأول هو الاجراءات المتهوّرة المصحوبة بالفظائع التي اتخذتها سلطات عكا ضد البدو، وهي الاجراءات التي اثارت حفيظة القبائل المستقرة في اللواء ايضاً والمسالمة تقريباً، فلم يَبْقَ لهذه القبائل بالتأكيد، بعد أن نهبت مواشيها ومقتنياتها الأخرى، من طريق إلا أن تعمل يداً بيد مع قبائل شرق الأردنّ، التي قامت معها الآن سويةً بمهاجمة قرى الفلاحين. وتوغل الجند تحت امرة شقيق عقيل، صالح، حتى الناصرة. أما عقيل نفسه فانسحب إلى منطقة غزة حيث كانت احدى بناته متزوجة من احد شيوخ البدو البارزين (و يذكر في هذا

---

(٥٩٤) PRO—F O. 768, vol. 1383 (Jerusalem, 29.9 1858);
انظر ايضاً الشكاوى في:
Rambles in the Deserts, 220.

(٥٩٥) من الواضح أنه كانت هنالك وحدة في المصالح المادية بين يهود طبريا وبين عقيل. انظر (PRO—F.O 78, vol. 1294 (Jerusalem, 8.4.1857); وان المتمتعين بالحماية البريطانية من سكان طبريا، وكلهم من اليهود، كانوا يتمنّون لقضية عقيل اغا كل نجاح بدافع الخوف ـ فقد كان في السنوات الأخيرة يحميهم في التزامهم بجمع الضرائب لدى اخذ حصة من أرباحهم».

الشأن أن عقيلاً قدم أغلى جهاز للعروس سجّل في غزة في السنوات التي درسها رافق ــ ١٨٥٧ ــ ١٨٦١، وقد بلغت قيمته ١١٠٠٠ قرش!)[٥٩٦]. أما العامل الثاني فهو اجراءات التجنيد التي كانت تجرى في ذلك الوقت بالذات في فلسطين. وقد بادر الكثيرون من الملتزمين بالخدمة في مدينة طبريا ومنطقتها لا إلى الانضواء تحت الراية العثمانية، بل إلى الالتجاء للبدو.

وبما أن التجار والقناصل ايضاً في جميع انحاء البلاد خافوا من الخسائر الاقتصادية الكبيرة التي تنجم عن القلاقل في هذا الوقت بالذات الذي يجري فيه تصدير حبوب حوران والقطن الفلسطيني، وهاجموا السلطات فإن قبولي توجه من جديد بصحبة تعزيزات عسكرية إلى فلسطين الشمالية، حيث كان قد حل في شهر آب، بينما تحرك السر عسكر من دمشق مع وحدة من الفرسان إلى وسط فلسطين وجنوبها. ولذلك ساد الهدوء الجليل في تشرين الأول ١٨٦٣. ومع هذا فإن قبولي باشا أخذ يساوره الشك تجاه سياسة حسن افندي، أي من وجود وحدات عسكرية كبيرة جاهزة للعمل على الدوام لتأمين سلامة المنطقة. يضاف إلى ذلك أنه كان يتعرض لضغط القناصل الفرنسيين الذين انضم اليهم ايضاً القنصل البريطاني في حيفا ساندوذ Sandwith في المطالبة باعادة تعيين عقيل، لكي يتسنى وضع حد سريع للقلاقل. وفي نهاية سنة ١٨٦٣ قام قبولي بهذه الخطوة[٥٩٧]، ولكن وهو عاقد العزم على التخلص من عقيل اغا في أقرب فرصة ممكنة، وبصورة نهائية.

وكان تنفيذ هذه المهمة من نصيب خلف قبولي، خورشيد باشا، الذي واصل السياسة المعادية للبدو حتى بعزيمة اشد واراد أن ينشيء في الجليل الشرقي، على سبيل المثال، اربعة حصون مجهزة بالمدفعية. وادرك عقيل مصيره. وبناء على رجائه أعلن ساندوذ استعداده للتوسط بينه وبين المشير، إلا أن عقيل عزل سنة ١٨٦٤. ووصل الى طبريا مائتا كردي لحماية المنطقة من البدو وحشدت في الجليل وحدات عسكرية قوية جاءت من بيروت وعكا. واستطاع عقيل أن ينجو بجلده في آخر لحظة بعبور نهو الاردن. لقد انتهى دوره، وازيل عامل من عوامل السلطة المحلية من شمال فلسطيني بصورة نهائية.

وقصد عقيل بعد ابعاده الى مصر. وبوساطة حاكم مصر ووساطة عبدالقادر سمح له بالفعل سنة ١٨٦٦ بأن يعود إلى الجليل[٥٩٨]. لكنه لم يسترد بذلك سلطانه القديم ولم يعد

(٥٩٦) رافق، غزة، ٥١ وما بعدها.

(٥٩٧) وفي فترة النزاع هذه بالذات قام عقيل سنة ١٨٦٣، بعد اخذ ضمانات مشددة من القنصل الفرنسي (منصور، ٧٨)، هو وحشد من انصاره، بزيارة الى بيروت. «جاء ليقدم احترأماته للباشا، ولكن كانت عليه سيماء السلاطين»
Jessup, I, 273 f.

(٥٩٨) PRO—F.O. 78 vol. 1927 (Beirut, 7.2.1866);
إن الحاكم المصري المقصود لم يكن على هذا الأساس سعيد باشا (منصور، ٨٠)، بل كان اسماعيل باشا دون غيره.

له اطماع من هذا القبيل. وكذلك فقد منحه الباب العالي معاشاً من باب الشفقة حتى وفاته سنة ١٨٧٠[٥٩٩]. وفي نهاية ١٨٦٩ وفي أثناء زيارة القيصر النمساوي لـ«الارض المقدسة» انعم عليه مرة أخرى بوسام اوروبي هو «وسام الاستحقاق الذهبي المقرون بالتاج» لدولة آل هابسبورغ[٦٠٠].

كان عقيل عامل قوة مهمًّا في الجليل على مدى عقدين من الزمان تقريباً. وعندما عاد إلى شمال فلسطين في سنة ١٨٦٦ كانت الحكومة العثمانية قد حققت إلى حد بعيد هدفها في اقامة ادارة مباشرة لا ينازعها فيها منازع في فلسطين باسرها. وكذلك انطبع تطور الجليل منذ الان فصاعداً بطابع قُوى أخرى: فالقسم الاكثر خصوبةً في هذه المنطقة، التي سيطر عليها عقيل ذات مرة، انتقل إلى حوزة تجار من حيفا ومن بيروت. وبدلاً من قائد الباش بوزك البدوي الاصل اصبح المصر في سرسق «السيد» الجديد لمرج ابن عامر. ولا شيء يوضح التحول الحاسم الذي جَرَى في فلسطين في هذه الحقبة اكثر من هذه الحقيقة.

في وسعنا أن ننطلق من الحقيقة القائلة إن هدف عقيل كان اقامة مركز قوة ذي استقلال ذاتي نسبي في فلسطين الشمالية. وقد كان الجليل في ذلك الوقت بالفعل هو المنطقة الوحيدة في فلسطين التي كانت تبشر فيها محاولة كهذه بالنجاح. إن جبل نابلس وجبل القدس وجبل الخليل كانت «محتلة». اما تلال الجليل الادنى وسهوله فقد بدت منذ سقوط الجزار باشا كأنها تنتظر سيداً جديداً. الا أن عقيل كان ابعد بمراحل عن الوصول إلى حجم سلفه كـ«حاكم» على فلسطين الشمالية. ولم تكد تتوافر له فرصة ايضاً لتحقيق مآربه. فلا هو كان على استعداد لتغيير نمط حياته ولا كان في مقدوره أن يقف في وجه السياسة العثمانية التي تدعمها اوروبا. والأمل في وقوف اوروبا إلى جانبه كان سراباً.

إن عقيلاً لم تتوافر له فرصة لأن المعيشة غير البدوية كانت خارج افق تفكيره. انه لم يرد أن يتحول إلى نمط حياة المدينة، ولا أن ينتقل بالاحرى وباي شكل من الاشكال إلى نمط الحياة «الفلاحية». وكان بذلك يقف في طريق الباب العالي الذي عقد العزم على تأسيس إدارة «عصرية» موجهة من المركز. ولم يكن بمقدور عقيل أن يندمج في الهياكل الجديدة لأن أحد العناصر الاساسية في سياسة الحكومة كان دفع الحياة البدوية إلى الوراء ودفع حدود الاستيطان إلى الامام[٦٠١]. لقد كان هذا وقت «اعادة فتح» **Reconquista** يقوم

(٥٩٩) وليس في سنة ١٨٦٦ أو ١٨٦٧ كما ورد في ماكالستر/ماسترمان (١٩٠٦، ص ٢٩٠ وما بعدها)

(٦٠٠) HHSTA ارشيف القدس، رقم ١٦، ملف «رحلة صاحب الجلالة القيصر، ٨-١٤/١١/١٨٦٩».

(٦٠١) قارن
Lewis, "The Frontier of Settlement".

به الفلاحون تحت اشراف المدن. ولم يستطع عقيل أن يجد ابداً رابطة تربطه بهذا التطور بحيث يقدر على توجيهه في منطقة معينة إلى ما فيه مصلحته، ولم يكن بمقدوره أن يوقف هذا التطور أيضاً. فهو من جهة لم يعد يستطيع أن يجاري التوسع المتزايد ابداً في اجهزة سلطة الدولة في هذا الجانب وذاك من نهر الأردن؛ ومن الجهة الأخرى، جعلته السياسة المعادية للبدو التي انتهجتها الحكومة العثمانية نافلة من النوافل.

وإذا اردنا اخيراً أن نشخص دور عقيل في تاريخ فلسطين في القرن التاسع عشر فسوف يكون من الصعب علينا أن نكتشف له انجازات خاصة سواء بالنسبة لتطور البلاد الاجتماعي الاقتصادي، وهي البلاد التي قضى حياته كلها تقريباً فيها، أو بالنسبة لرخاء السكان في «اقليمه». إن الباش بوزك لم يكونوا معروفين بانهم فاعلو خير بالنسبة للفلاحين في اي مكان[٦٠٢]. ومع ذلك فإن دور عقيل يلقى حكماً إيجابياً نوعاً ما سواء في المصادر المعاصرة او في الروايات المتوارثة. بيد أن شواهدنا المكتوبة تعود في اصلها إلى اقلام رجال الدين في الناصرة والقناصل الاوروبين، وهؤلاء كانوا متحيّزين لعقيل، نظراً لدوره كـ«حام للمسيحيين». ويبدو أن هذه هي صورة عقيل لدى مسيحيي الجليل حتى يومنا هذا[٦٠٣] وربما تلعب دوراً كذلك في الروايات الشفهية المتوارثة حقيقة أن عقيل، وهو عربي، حاول أن يقف في وجه السلطات العثمانية وأنه نجح في ذلك ايضاً المرة تلو الأخرى طوال عقدين من الزمان.

جبل نابلس

إن الاهتمام الاوروبي بعقيل والصورة التي كان الاوروبيون يتقربون بها اليه انبثقا من وضع له خصائص محددة. ففي نوع من انواع الفراغ في السلطة بدا أن عقيل كان يحمي في وقت اتسم بالاضطراب مصالح المسيحيين من سكان البلاد ومصالح المتمتعين بالحماية الاوروبية في الجليل. ولم يكن للزعماء المحليين في جبال فلسطين الوسطى أنْ يتوقعوا عواطف مشابهة. وكما أن الدبلوماسيين الاوروبيين رأوا في «نير الاقطاع» الذي كان يرين على سكان جبل لبنان منطلق احداث سنة ١٨٦٠ واعلنوا بناءً على ذلك أن «إلغاء النظام الاقطاعي» هو شرط لقيام نظام جديد[٦٠٤] فكذلك ساد الاعتقاد بأن السلام

---

(٦٠٢) قارن على سبيل المثال.
Pierotti, Customs and Traditions, 257–263.

(٦٠٣) قارن مخول ١، ٥٥ و٢، ١٥ وما بعدها؛ الدباغ، بلادنا فلسطين ٢/٧، ٥٦٤.

(٦٠٤) قارن.
Repport de la Commission Internationale sur la Réorganisation du Liban, in HHSTA–PA XXXVIII, Kart 139

لن يستتب في الجبال الفلسطينية إلا إذا استأصل الباب العالي شأفة الاقطاعية القائمة هناك» واقام سلطته الخاصة مكانها»[٦٠٥]. فطالما أن «الزعماء الاقطاعيين القدامى» أو «الدريبيات [زعماء الوديان] القدامى»، كما كان القناصل الفرنسيون يسمونهم مراراً[٦٠٦]، لم تنزع سلطتهم فإن البلاد لن تكون قابلة لأن تحكم ايضاً. إن الاصلاحات يجب أن تبتدىء بهذا الشيء الذي بدا كأنه «نوع من النظام الاقطاعي غير المحدد»[٦٠٧].

إن الخمسينات واوائل الستينات لم تكن حافلةً بالنزاعات الدائمة فحسب بل بحملات الاخضاع التي كان يقوم بها الحكام أيضاً. ودارت المنافسات من أجل السيطرة على نواحي جبل نابلس بين آل عبدالهادي وآل طوقان في الدرجة الأولى، وفي جبل القدس بين آل ابوغوش وآل اللحام وفي جبل الخليل بين فئتين من آل عمرو. ووقف ازاءهم من الجانب الآخر الحكام العثمانيون الذين كانوا يتأهبون لاخضاعهم بمساعدة القناصل، ولم يترددوا في الايقاع بينهم وحاولوا جني المكاسب الشخصية من النزاعات.

إن اكبر العائلات نفوذاً في جبل نابلس لم تأت إلى هناك الا في النصف الثاني من القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر: آل طوقان وآل النمر جاءوا في سياق حملة عسكرية عثمانية وآل جرار وعبدالهادي والقاسم وريّان في سياق التغلغل البدوي في الجبل من بلاد شرق الأردن. وفي النصف الأول من القرن التاسع عشر كانت هذه العائلات قد عززت مركزها الاقتصادي والاجتماعي السياسي تعزيزاً حاسماً؛ واستفادت قبل كل شيء من التوزيع الجديد لاراضي التيمار المحلولة ومن نقل الالتزامات الموروثة[٦٠٨].

وفي ظل الحكم المصري صَعَدَ آل عبدالهادي فاصبحوا العائلة السائدة في جبل نابلس، وذلك بأن تحالفوا مع الدولة المحتلة وأيّدوا سياستها الادارية والاقتصادية وسياستها المتعلقة بالأقليات. وكان من السهل التنبؤ بأن الزعماء المحليين الذين نحُّوا أو أُقصوا في

---

(٦٠٥) HHSTA– PA XXXVIII, Kart 122 (Beirut, 18.10.1858).

(٦٠٦) قارن
MAE–CPC Jér., t.5 (Jerusalem 14.9 1855, 17 5.1856, 7.7 1856); MAE–CPC Jér., t.6, (Jerusalem, 20 7.1858).

(٦٠٧) هكذا قال جون بوين John Bowen في تقرير عن جبل نابلس مؤرخ في ٢/٤/١٨٥٦ وموجه إلى السفير البريطاني في القسطنطينية. وقد شخص هذا «النظام الإقطاعي غير المحدد» هكذا: «إن ادعاءات شتى خاصة بجباية الضرائب النقدية أو العينية من القرويين كثيراً ما توفر الذرائع للاضطرابات لأنصار حزبي طوقان وعبدالهادي اللذين يقسمان الجبال. وتقدم هذه المطالب احياناً بوصفها حقوقاً وراثية، بحكم أن شخصاً من الأشخاص كان نائب حاكم لعدد قليل من القرى»
PRO–F.O. 195, vol. 524

(٦٠٨) النمر ٢، ٢٢٣ و٢٦١؛ هوكستر Hoexter, 263

فترة الحكم المصري رفعوا رؤوسهم بعد عودة العثمانيين وحاولوا استرداد مواقعهم القديمة. وبدا بصورة عامة أن التغير السياسي في كثير من المناطق اتاح الفرصة لتسوية الحسابات القديمة وحسم المطالب بالقتال، وذلك لأن هيكل السلطة المحلي الذي نشأ في ظل المصريين في الجبل كله أصبح تحت التصرف الآن.

وبناء على ذلك فإن سنوات الأربعينات وأوائل الخمسينات تميّزت بالاحتدام المتكرر للصراعات والنزاعات المصحوبة بتحالفات متبدلة محدودة والتي حاول الحكام العثمانيون السيطرة عليها عن طريق العمليات التأديبية المتفرقة وعن طريق ابعاد عدد من الزعماء المنفردين، دون أن يغيروا بذلك النموذج الاساسي للمنافسات وأوضاع السلطة المحلية. وفي هذه الفترة لم تكن هناك سياسية عثمانية ثابتة بشأن فرض هياكل سياسية وادارية دائمة مهما كانت طبيعتها. وقد شجع الحكام بالأحرى عدم الاستقرار ايضاً، شأنهم شأن وجهاء القدس الذين يتوسطون في الخصومات، بمحاولتهم جني المكاسب المالية الشخصية من النزاعات. وأصبح عدم الاستقرار في الزعامة المحلية تجارة بالنسبة لهم. وكان على فلاحي الجبل أن يتحملوا التكاليف، وهم الذين لم يفقدوا في صراعات الزعماء كل ما ملكت أيديهم فحسب (بله حياتهم نفسها) وإنّما كان عليهم أيضاً أن يتدبروا أموال الرشوة للحكام في القدس والنفقات المالية للحروب المحلية، وأن يعانوا فوق ذلك من البدو الذين كانوا يُجلبون إلى الجبال كقوات مساعدة.

وإذا كان جبل نابلس قد حفل في الأربعينات والخمسينات أيضاً بالصراعات الموضعية، التي كانت تعتمد بعضها على بعض، فقد كانت هناك أيضاً خصومات أعلى درجةً منها. إن جاز التعبير، من أجل السيطرة على الجبل كله، أو من أجل تولي منصب الحاكم في نابلس بين آل طوقان وآل عبدالهادي. وقد أصاب فن في وصف الموقف العثماني حتى منتصف الخمسينات حيث قال:

كانت الحكومة التركية المرئية في منطقة نابلس في هذا الوقت مجرد فزّاعة لا تخيف أحداً. ولم تتجاوز قوتها ما كان ضرورياً لجمع الضرائب، واما بالنسبة للفئات المتنافسة، التي ألحقت الأذى البليغ بمصالح الفلاحين، فقد كانت تصعد وتهبط ككفتي الميزان، حسبما كان عاتق الميزان يميل إلى هذه الجهة أو تلك في داخل السراي بالقدس، بفعل الرشوة، أو حسب تأثر هذه الفئات نفسها بنتائج حروبها الدموية[٢٠٩].

(٢٠٩) Finn, Stirring Times, I, 409 f. حول المنازعات التي جرت حتى سنة ١٨٥٣، قارن أيضاً تقرير يعقوب الشلبي في (=Rogers, Notices).). وهناك قائمة بحكام نابلس في القرن التاسع عشر في الراميني، ص ١٨٠ وما بعدها.

واتسعت الصراعات بعد بداية حرب القرم، في نهاية سنة ١٨٥٣، وغدت «حرباً أهلية» حقيقية بين تحالفين أو أكثر من التحالفات الثابتة نوعاً ما، والتي حددت وجه الأحداث في جبل نابلس حتى ربيع سنة ١٨٥٩[٦١٠]. لقد كانت هناك من قبل قاعدة يحفّها الاجلال من قديم الزمان وهي انه كلما كان العثمانيون يضطرون إلى سحب جنودهم من فلسطين كانت الخصومات القديمة تشتعل أو تزداد احتداماً، و يظهر البدو على مسرح الأحداث. و بقيت هذه القاعدة سارية المفعول جزئياً حتى بداية الثمانينات، ولو أن زمن الحروب المحلية في الجبال انقضى نهائياً في بداية الستينات. وظلت تنطبق على الأقل على البدو الذين كانوا يحيطون بحافة الجبال، وكانوا يسيحون فيها كذلك في أوقات العواصف الخارجية أو الداخلية[٦١١].

ولو نظرنا من القدس إلى الحزبية في «الحرب الأهلية» في سنوات ١٨٥٣ إلى ١٨٥٩ في جبل نابلس، فاننا نجدها تكتسي حتى بصبغة الصراع بين اتجاهين سياسيين. كان آل طوقان، كما قال فن، «يعتبرون من جماعة الأتراك القديمة أو حزبهم»، «ميالون بالأحرى إلى النغمة المحافظة القديمة للسياسة المحلية». اما آل عبدالهادي فكانوا يعتبرون في المقابل «من مدرسة التقدم المصرية». «وهذا الحزب الأخير كان يدين أكثر بالليبرالية في الواقع العملي، أي بالدهاء في مسايرة تقدم القسطنطينية والسعي في الحصول على الشعبية لدى القناصل الأوروبيين»[٦١٢].

و يورد القنصل الفرنسي باريرِ Barrere تقديراً مشابهاً يستند من جهةٍ إلى ما أخبره به متصرف القدس السابق كامل باشا ومن جهة أخرى إلى ما علمه من وكيل القنصل الفرنسي في نابلس، محمد أمين القاسم؛ ونذكر بهذا الصدد أن آل القاسم كانوا من الدعائم الرئيسية لحزب آل عبدالهادي. فالبنسبة لـ بارير كان آل طوقان (ancien seigneurs feodaux السادة الاقطاعيين القدامى) الذين كانوا قد شكلوا في السابق جبهة ضد المصريين ووقفوا الأن ضد الباب العالي. اما آل عبدالهادي بالمقابل،

(٦١٠) النمر ١[١]، ٢٧١-٣٠٤ (الحرب الأهلية). حول تسليح الفلاحين في جبال فلسطين قارن:

Finn, **Stiring Times**, I, 339, II 197f., Bauer, **Volksleben**, 4f.

وحول الدور النشيط للنساء في القتال قارن.

SWP, **Special Papers**, 339–342; Finn, **Palestine Peasantry**, 24–31;

النمر ٢، ٣٣٤ وما بعدها.

(٦١١) بيد أنه كانت هناك أيضاً اسباب «طبيعية» تدفع البدو الى ترك المناطق التي نشأوا بها، ومن ذلك مثلا الجفاف في سنتي ١٨٦٣ و١٨٧٤. انظر العارف، كتاب القضاء، ص ٢١٨.

(٦١٢) Finn, **Stirlng Times**, I, 239; . وشبيهة بها صفحة ٤٠٩

آل «des hommes nouveaux ـــ الرجال المحدثون» كما سماهم، فقد كانوا الدعائم المخلصة للحكومة المركزية وكان حزبهم «Parti du Gouvernement حزب الحكومة»، وكان حزب طوقان «parti feodal ـــ الحزب الاقطاعي». هؤلاء الديربيات [Derebeys ـــ زعماء الوديان] القدامى كانوا يحلمون باعادة مواقع سيادتهم الإقطاعية من جديد[٦١٣]. وقال كامل باشا في تقرير عن احداث نيسان ١٨٥٦ في نابلس بعث به إلى القسطنطينية (انظر ادناه) وأعطى نسخةً منه إلى القنصل الفرنسي، إن البلاد يجب أن تتحرر من آل طوقان، والا فإن مرسوم الاصلاح الذي صدر في شباط ١٨٥٦ لن ينفذ أبداً[٦١٤].

وكانت هذه التقديرات من جهة صحيحة فعلاً من حيث أن آل عبدالهادي أيدوا سياسة الاصلاح المصرية، ولم يكن من الصعب عليهم الآن بالتأكيد أن يظهروا كأنصار لسياسة التنظيمات، إذا كانت هذه ستجعل الحاكم العثماني في صفهم[٦١٥]. وقد كانوا حريصين بالمثل على تنمية اتصالاتهم بالأوروبيين بالنظر إلى نشاطاتهم الاقتصادية (استثماراتهم في تصدير القمح إبان حرب القرم، كما أشرنا اليه أعلاه) وبالنظر بطبيعة الحال أيضاً إلى الفوائد التي كانوا يتطلعون إليها في مجال السياسة المحلية. و يظهر هذا على سبيل المثال من تصرفهم في أثناء احداث ١٨٥٦. ومما عاد عليهم بالنفع الأكيد كذلك أن عضواً من أعضاء عائلة القاسم المتحالفة معهم كان وكيلاً لقنصل فرنسا[٦١٦].

اما آل طوقان فقد اتهموا بالمقابل بأن لهم ضلعاً في دفع عجلة الاعتداءات التي جرت ضد الاوروبيين سنة ١٨٥٦. وقد تحدث فن عن زيارة قام بها في بداية الخمسينات

---

(٦١٣) MAE–CPC Jér., t.5 (Jerusalem 17.5.1856, 10.9.1856, 7.7.1856);

(٦١٤) ترجمة التقرير في MAE–CPC Jér., t.5 (Jerusalem 17.5.1856, 17.5.1856)

(٦١٥) في سنة ١٨٤٩ نرى محمد عبد الهادي قائمقاماً في غزة : Finn, Byeways, 167, 171

(٦١٦) MAE–CPC Jér., t.5 (Jerusalem 6.4.1856, 17.5.1856),
إن القنصل فن لم يكن يشكو دائماً من أن حاكم القدس كامل باشا كان أداة في يد القنصلية الفرسية فحسب (والفرنسيون لم يكونوا ينكرون نفوذهم) بل كان يشكو أيضاً من أن النفوذ الفرنسي امتد الآن الى نابلس بواسطة آل القاسم: «إن وكيل الفرنسيين الشاب، أمين محمود القاسم (هناك خطأ في الاسم) قد سمح له بتشغيل خمسة اشخاص متمتعين بالحماية في مكتبه، احدهم يوسف النحاس، السكرتير الرسمي لحاكم نابلس ـ وهكذا ارتبط الفرنسيون في ذلك البلد، كما في القدس، بالسلطة الحكومية»: PRO–F.O. 78, vol. 1217 (Jerusalem, 14.3.1856).
وفي ايلول ١٨٥٦ استطاع بارير أن يسلم كامل باشا «شهادة وشارة ضابط حائز على الوسام الامبراطوري لحوقة الشرف»: MAE–CPC Jér., t.5 (Jerusalem 1.9.1856, 17.9.1856) وفي الوقت نفسه ذكر ضابط بحرية فرنسي بارتياح أن كامل باشا كان واقعاً تماماً تحت نفوذ بارير:
MAE–CPC Jér., t.5 (Raport du Commandant Bonie relatif à son voyage sur les côtes de Syrie, à Chypre et á Rhodes. September et October 1856).

إلى شيخ من ذلك الفرع من آل جرار الذي كان سنداً رئيسياً لآل طوقان وكان مركزه في جبع فقال : [ذلك الشيخ العجوز المتعصب احمد جرار من جبع قد زجر عقب دخولي إلى بيته مباشرة قائلاً : «وهكذا يسلّم السلطان أرض الاسلام قطعة قطعة إلى النصارى»][٦١٧] .

ومن الجهة الأخرى فإن النظارات الاوروبية طبعاً وقبل كل شيء هي التي جعلت صورة هذين التحالفين تخرج إلى حيز الوجود بهذا الشكل . إن تشكيل الأحزاب في «الحرب الأهلية» لا يمكن تفسيره بالتناقض السياسي بين العائلتين القياديتين، مهما كانت درجة هذا التناقض من العمق أو السطحية، باكثر مما يمكن تفسيره بالتناقض بين قيس ويمن . فالأمر كان يتعلق بالدرجة الأولى بالمصالح المحلية و بعلاقات الولاء بين عشائر الزعماء المحليين . ولكن تصنيف القناصل الأوروبيين لآل طوقان وآل عبدالهادي يبدو مشكوكاً في صحته لأسباب أخرى كذلك . فإن آل طوقان بالذات الذين كانت تستند قوتهم في المقام الأول إلى مراكزهم الادارية في المدينة، اعتبروا ممثلين للحزب الاقطاعي، ـــ parti féodal ـــ، فيما ظهر آل عبدالهادي الذين كانت لديهم أراض واسعة ونفوذ كبير بين الفلاحين ـــ كما ذكر القنصل الفرنسي أيضاً، كدعائم للسلطة المركزية . وإنه من حقنا أن نشك على الأقل فيما إذا كان يجوز لنا أن نعزو أهمية سياسية حقيقية إلى بطاقات «ليبرالي وتقدمي» من جهة و محافظ» من جهة أخرى . وهذا ينطبق أيضاً على وصف «موال للمصريين» . صحيح أن القناصل تحدثوا في تقاريرهم أحياناً عن كراهية للاتراك وعن ميل للمصريين بين أهل فلسطين[٦١٨] . ومع ذلك فعندما قال فن إن عبدالهادي «ينظر اليهم حتى في هذا الوقت على أنهم أنصار للسياسة المصرية»[٦١٩] فمن حقنا أن نسأل من الذي اعتبرهم كذلك وما هو معنى ذلك في الحقيقة . لكن المصادر القنصلية لا تمدنا بأي معلومات في هذا الشأن .

وفي الحرب المحلية التي دارت رحاها في الخمسينات، من أجل السيطرة على مناطق منفردة ومن أجل السيطرة على الجبل باكمله سواء بسواء كان يقف تحت رايتي عبدالهادي وطوقان أو بعبارة أخرى قيس ويمن العشائر التالية وأتباعها[٦٢٠] .

---

(٦١٧) Finn, Stirring Times, I, 263

(٦١٨) قال سينكيفتش Sienkiewicz بتاريخ ١٨٦٨/١٢/٢٢ في تقرير له من القدس : «إن عواطفهم كلها مع مصر» (MAE, CPC jér., t. 10).

(٦١٩) Finn, Stirring Times, I, 239

(٦٢٠) النمر ١[١] ، ٢٧٤ وما بعدها، ٢٨١ - ٢٨٦ ؛ ٢ ، ٤١٥ - ٤٢٧ ؛ دروزة، ١٩٩ - ٢٠١، ٢٢٠، ٢٤٢ وما بعدها Hoexter 268. وانظر ايضاً Finn, Stirring Times, I, 244 . ويورد هذا بالتأكيد معطيات خاطئة عديدة Macalister/Masterman, 1906, 36; . ويصف ماعوز Ma'oz, Ottoman Reform, 114 f حزب عبد الهادي خطأ باليمنيين وحزب طوقان بالقيسيين .

عبدالهادي / قيس :

آل عبدالهادي (الشعراويتان)، قسم من آل جرار (شمال بلاد حارثة)، آل الجيوسي (بني صعب)، آل القاسم (شرقي بلاد جماعين)، منطقة جورة عمرا (بقيادة آل القاسم؟)، الإحفاة (شرقي وادي الشعير)، قسم من آل الحاج محمد (مشارق البيتاوي)، آل النمر من نابلس.

طوقان / يمن :

آل طوقان في نابلس، آل ريّان (غربي بلاد جماعين)، آل البرقاوي (غربي وادي الشعير)، قسم من آل جرار (جنوبي بلاد حارثة)، قسم من آل الحاج محمد (مشارق البيتاوي).

بالنسبة للتحالف الأول، الذي وصف فن تكوينه سنة ١٨٥٤ ايضاً، لاحظ هذا أن «راعي هذا الحزب هو دائماً، بلا جدال، الموجود من بني عبدالهادي في وقت ما»[٦٢١]، وإذا كان فن قد كتب مع ذلك أن هذا الحزب يعرف باسم النمر فان هذا يمكن تفسيره تماماً بأن أعداء بني طوقان ظلوا يعرفون عند مخبريه حتى ذلك الحين باسم بني النمر، منافسيهم القدامى في المدينة، حتى ولو أن التحالف المعادي (لبني طوقان) كانت قد سيطرت عليه عشائر أخرى منذ وقت طويل. بيد أن ما قاله فن هنا لا يؤيد بأي حال من الأحوال ما زعمه احسان النمر (وعارضه فيه دروزة) حول استمرار الدور القيادي لأسلافه في جبل نابلس، فما من مصدر آخر عدا كتاب النمر يسند لهذه العائلة أهمية كبيرة في أواسط القرن[٦٢٢]. وفي معظم الروايات المعاصرة لا يأتي لها مجرد ذكر بين العائلات ذات الشأن في المدينة[٦٢٣]. وهذا أمر له أهميته من حيث إنه ينبهنا إلى توخي الحذر لدى التعامل مع رواية

---

(٦٢١) Finn, **Stirring Times**, I, 242.

(٦٢٢) في كتاب النمر ج١ ط١، ص ٢٦٧ عُنون الفصل الخاص بالأربعينات والخمسينات بـ «عصر عبد الفتاح اغا» (النمر). ووصف هذا بأنه وسيط خير حاول اصلاح المتحاربين والمتخاصمين وبأنه كان فوق الحزبية ومرجعاً لجميع الشؤون (النمر ج١ ط ١، ٢٧٢ ـ ٢٧٤) وج٢، ص ٣٩٨). ولا يمكن التوفيق بين هذا وبين قيادتهم المزعومة للقيسيين (١[١]، ٢٨٤ و ١[٢]، ٣٦٢). بل ان النمر نفسه يقول (١[١]، ٢٨٦، ١[٢]، ٣٦٦) أن صفوف الحزبية في جبل نابلس «سميت في كل جهة خلاف الأخرى. ففي الشمال عرف الصفّان بصفي جرار وعبدالهادي وفي وادي الشعير والمغاريب عبد الهادي وطوقان وفي الجنوب عرفا بصفي قاسم وريان وفي الشرق عرفا بالقيس واليمن وفي الخارج عرفا بصفي طوقان والنمر كما يقول القنصل البريطاني فن». وهذه الأسماء اعتمدها النمر نفسه وكتب هو نفسه في الجزء الثاني (ص٤١٧ وما بعدها) أن الانقسامات «عرفت في كل جهة باسم، ففي الشمال جرار وعبدالهادي، وفي الجنوب القاسم وريان وفي وادي الشعير باسم سيف وخيف وفي المغاريب جيوسي وبرقاوي وفي المشاريق وجبل القدس القيس واليمن، ومن حيث العموم طوقان والنمر.» وهو يستشهد هنا أيضاً بفنّ.

(٦٢٣) قارن مثلا

Rogers, **Notices**, 13; Poujoulat, **La Verite**, 290; Rosen, "Ueber Nablus", 635; Sepp, II, 45

وانظر أيضاً Rustum **The Royal Archives**, 21.

النمر[٦٢٤].

ولا شيء يشير إلى أنّ التناقض بين محافظ ولبرالي وتقدمي، أو، بصورة بديلة، بين «اقطاعي» ومركزي، كان يمكن أن يلعب دوراً لدى كلا التحالفين. بل لم تكن هناك خطوط جغرافية أمامية واضحة: فليست النواحي وحدها، بل حتى القرى المنفردة كانت منقسمة على نفسها. وعلى كل حال فيمكن أن نؤكد أن أنصار آل طوقان كانوا مجتمعين حول نابلس بشكل أقوى من أنصار آل عبدالهادي، ولكن من الواضح أن آل عبدالهادي كانوا يتزعمون التحالف الأقوى. وفي البداية كان عدد القرى التي تقف وراءهم يَرْجَحَ على ضعفي عدد القرى التي كانت تقف وراء آل طوقان. و يقول النمر إن حزب القيسية كان يستطيع أن يجمع ٢٠٠٠٠ مسلح[٦٢٥].

بدأت «الحرب الأهلية» في صيف عام ١٨٥٣ بالتناحر حول حكم بلاد جماعين.

وفي سنة ١٨٥١ نفي الى طربزون الشيخ محمد الصادق ريان مع غيره من الزعماء المحليين (سليمان طوقان حاكم نابلس وكذلك عبدالله طوقان وابراهيم البرقاوي ومحمد حسين عبدالهادي و يوسف سليمان عبدالهادي[٦٢٦]. واصبح محمود عبدالهادي حاكماً (متسلماً) لنابلس، ووطد أخوه مركزه في جنين[٦٢٧]، وآلت السيطرة على بلاد جماعين كلها إلى قاسم الأحمد الذي كانت منطقته في الحقيقة هي القسم الشرقي منها. وفي قول القنصل البريطاني فن إنّ آل ريّان قاموا سنة ١٨٥٣ برشوة المجلس والباشا في القدس بمبلغ ٤٧٠٠٠ قرش[٦٢٨]

---

(٦٢٤) إن مؤلف النمر المكون من أربعة اجزاء هو مصدر هام بلا شك. ولما لم تكن هناك سوى منشورات قليلة للغاية من هذا النوع عن فلسطين في القرن التاسع عشر، فان رواية النمر كثيراً ما تؤخذ على علاتها.

(٦٢٥) النمر / ٢، ٤٢٦. تحدث فن، كما اشرنا اعلاه، عن ٣٠٠٠٠ رجل قادر على حمل السلاح في جبل نابلس: Finn, **Stirring Times, I, 238**

(٦٢٦) النمر ١ [(١)]، ٢٧٧، **Robinson, Biblical Researches**, III, 123

(٦٢٧) تحدث فن عن اقامته في جنين في صيف ١٨٥٣ فقال. ان عبد الهادي «كالعادة، وفي محاولة منه للفت انتباهنا جاء وثرثر حول التحسينات التي قام بها هناك وأرانا طواحينه وقنواته وبساتينه الخ». **Stirring Times**, I. 296، وانظر أيضاً II,9.

(٦٢٨) اننا نورد هنا وفيما يلي مبالغ الرشوة التي ذكرتها المصادر بتحفظ من حيث أن هذه الأرقام كانت لها في الحقيقة قيمة رمزية قبل كل شيء.

وقد لجأ القنصل الفرنسي بوتا Botta ذات مرة أيضاً الى هذه الوسيلة. ففي سنة ١٨٥٤ رجا باريس أن تمنحه إذناً متأخراً بدفع مسبق لبخشيش قيمته الف فرانك، كان قد حوله الى ديوان الحاكم بشأن اهداء أرض الى اللاتين في بيت جالا:

MAE–CPC Jér. t.4 (Jerusalem, 279. 1854)

لكي يستردوا أراضيهم (بلاد جماعين الغربية). وعين حاكم القدس أحد موظفيه الأتراك شيخاً على النصف الآخر بيد أنه ما لبث أن طرد. وذلك أن قاسم الأحمد ثار بمساعدة متسلم نابلس محمود عبدالهادي على منافسيه وأخضعهم. ووفقاً لتقارير القنصل البريطاني تمّ احراق سبع قرى. وفقد آل ريان وحدهم ١٧ قتيلاً و٤٠ جريحاً. وهنا تدخل حاكم القدس وعزل محمود عبدالهادي من وظيفته وكلف علي طوقان بالقيام بأعباء الادارة لفترة مؤقتة ريثما يصل حاكم تركي إلى نابلس. وترك آل قاسم الأحمد دير استيا وذكر أنهم لجأوا إلى آل النمر في نابلس. ودخل متسلم تركي إلى نابلس فعلاً، لكنه أصبح أضحوكة، كما قال فن في تقرير بعث به إلى القسطنطينية في بداية سنة ١٨٥٤. وتواصل من بعد التناحر بالحروب[٦٢٩].

وبدأت «الجولة» التالية بعد أن نجح محمد حسين عبدالهادي، وهو في زي درويش، في الافلات من منفاه في طربزون والعودة إلى مقر العائلة الأصلي[٦٣٠]. وحاول آل عبدالهادي، كما حاول آل طوقان أيضاً، دفع حاكم القدس عن طريق الاغراء المالي إلى تعيين واحد منهم محل المتسلم التركي. وفي تموز ١٨٥٤ عين يعقوب باشا بعدئذٍ على طوقان (الذي كان أخواه مصطفى وسليمان ما يزالان في المنفى)، لأنه، فيما زُعِمَ، عرض المبلغ الاكبر ٣٠٠٠ جنيه. وفي أعقاب ذلك ثار حزب آل عبدالهادي بقيادة محمد حسين عبدالهادي في عرابة ودعا بدو بني صخر أيضاً لنجدته. وبموافقة يعقوب باشا، كما هو واضح، تحالف آل طوقان من جانبهم مع العدوان وبني صقر، الذين كانوا على استعداد تام لنهب القرى، وليس بالضرورة قرى الحزب المعادي وحدها. وتكبّد حزب آل عبدالهادي خسائر مادية وبشرية كبيرة. واستطاع الحاكم أن يلقي القبض على اثنين من أعضاء عائلة عبدالهادي الموجودين في نابلس وثلاثة أعضاء من عائلة قاسم الأحمد (وأُلقي القبض على أحدهم في يافا) و«ينفيهم» إلى القدس. بيد أنه لم يستطع أن يأخذ إلا أعضاء ضعفاء من كلتا العشيرتين كرهائن، فلم تكن لديه القوة لأن يجرب حصن عرابة، حيث كانت ترسانة آل عبدالهادي[٦٣١]. واستمرت بذلك الحرب، ولم يعترف آل عبدالهادي بالهزيمة قط. ولم تكن استراتيجيتهم الآن ابعاد آل طوقان عن منصب حاكم نابلس، ليحلوا هم محلهم فيه، بل المطالبة بتعيين حاكم تركي سيقوم بعدئذ بشدّ أزر حزبهم لأنهم ظهروا

(٦٢٩) PRO–F O 78, vol 962 (Jerusalem, 29 8.1853, 12.9.1853); vol. 1032 (Jerusalem, 28 1.1854); Finn, Stirring Times, I,240 f.; النمر ١[(١)]، ٢٧٧ - ٢٧٩

(٦٣٠) انظر أيضاً Rogers, Notices, 37

(٦٣١) PRO–F.O. 78, vol 1032 (Jerusalem, 8 2., 7.7.,27 7 1854; Nablus 28,7,1854), Finn, Stirring Times, I, 454; II, 6,9.

كحزب الحكومة «parti du Gouvernement». ولهذا الغرض «تآمر»، كما كتب فن، يوسف سليمان عبدالهادي وعثمان قاسم الأحمد في نهاية ١٨٥٤ وبداية ١٨٥٥ على مدى نصف عام في القسطنطينية حتى صدرت من هناك توصية بتعيين حاكم تركي... وصحيح أن المتسلم، القائمقام التركي الجديد[٦٣٢] اوقفته قوة من قوات طوقان وهو في طريقه إلى نابلس، لكنها سمحت له بالمرور بعد أن وافق على عدم المساس بمركز آخر من مراكز آل طوقان[٦٣٣].

ولذلك فقد كان من الوهم الاعتقاد بأنه كان في وضع يمكنه من «إحلال السلام» في جبل نابلس. ولم يستطع أن يحقق توقعات حزب عبدالهادي بصورة من الصور. والواضح أن آل عبدالهادي أملوا بمساعدته انتزاع قسم من بلاد حارثة من آل جرار، كما ظن آل قاسم الأحمد أنّ في وسعهم بَسْط سلطانهم على بلاد جمّاعين كلها. ولماخابت توقعاتهم استمرت المشاحنات واستنجد الطرفان بالبدو من جديد. و يبدو أن هذا لم يقلق كامل باشا، حاكم القدس الجديد[٦٣٤]، بصورة جدية. فقد صرح للقناصل بأنه ليس لديه ما يفعله سوى أن ينتظر بهدوء «ودع الأطفال الأشقياء يؤذي بعضهم بعضاً». ولم يكن هناك أدنى خطر على الحكم التركي، كما أكد فن أيضاً. ففي فلسطين ليس هناك قضية عربية عامة ينادي بها ولا زعيم عربي كبير[٦٣٥].

وعندما بات من المفروض أن ينسحب آخر الجنود من نابلس في الأيام الأولى من سنة ١٨٥٦، وبدا أنه أصبح من المتعذر المحافظة على مركز القائمقام التركي في المدينة، أعلن كامل باشا أنّه اصبح يترتب عليه، شاء أم أبى، أن يعين من جديد أحد أفراد عائلة طوقان أو عبدالهادي حاكماً على نابلس. وقبل أن يتفاوض حول الثمن، وبينما كان القتال الدموي يحتدم في جبل نابلس[٦٣٦]، كان هناك في القدس في شهر كانون الثّاني ١٨٥٦ ممثلون عن الحزبين للاشتراك في هذه المفاوضات. وقد صدقت نبوءة فن في أن الباشا

---

(٦٣٢) وكما كان الأمر مع الكيانات الادارية، فقد استعملت المصادر كذلك اسماء بديلة للموظفين القائمين عليها

(٦٣٣) PRO—F.O. 78, vol. 1120 (Jerusalem 15.1.1855, 27 4.1855); Finn, **Stirring Times**, II, 168—173.

(٦٣٤) هناك قائمتان متباينتان تايناً كبيراً لحكام القدس في كل من عوض، متصرفية القدس، (رسالة جامعية)، ٣٤١، وفي العارف، المفصّل، ٣١٧ - ٣٢٨. وقائمة عوض لسنوات ١٨٤٠ - ١٩١٤ اكمل، ومع ذلك فان المرء لا يستطيع بالفعل أن يعتمد على كلتيهما.

(٦٣٥) PRO—F O. 78, vol. 1120 (Jerusalem, 25.6. 1855)

(٦٣٦) تحدث فن عن ٣٥ قتيلا و٣٩ جريحاً من كلا الجانبين في المعارك التي دارت عند طولكرم، بينما تحدث روجرز عن ٤٧ قتيلا. PRO—F.O. 78, vol. 1217 (Jerusalem 19.1 1856; Nablus, 13.3. 1856).

بتأييد من القنصل الفرنسي سيعين محمد عبدالهادي في وظيفة القائمقام. وبناء على ما تقوله الشائعات فقد استلم من هذا ٥٠٠ كيس (في كل منها ٥٠٠ قرش)، ومن يوسف الجرّار، الذي استقر به العيش في جنين، ١٥٠ كيساً، ومبلغاً كبيراً جداً من يوسف الجيوسي، و٥٠٠٠٠ قرش من قاسم الأحمد الذي وعده الباشا ببلاد جماعين كلها...

وفي بداية شباط ١٨٥٦ عقد كامل باشا ديواناً في نابلس تم فيه تثبيت آل عبدالهادي في السلطة على ملأ من الناس. أما زعماء الحزب المعارض، «الحزب الاقطاعي «Parti feodl»، الذين دعوا إلى الديوان ولكن تغيبوا بكل حكمة، فقد اعتبروا عصاة، وهم درويش طوقان ومحمد برقاوي وأبوخليل جرار ومحمد سليمان ريان. وأصبح صالح عبدالهادي حاكم حيفا الجديد[٦٣٧].

على أن الصراعات استمرت دون تراخ، وعقدت كذلك أحلاف متبدلة مع القبائل البدوية، كما كان الأمر من قبل. وفي الوقت نفسه قام الحزب الذي انتصر سياسياً بجمع أموال الرشوة من الفلاحين مرة أخرى... وبدا أن حملة النهب لم تطل بويلاتها قرى الحزب المناوىء وحدها. ففي الأعمال التي جرت في شويكة، بوجه خاص، ذكر أن ما بين ٧٠ و٨٠ شخصاً فارقوا الحياة. ومن بقي على قيد الحياة من أهل هذه القرية أنقذوا أنفسهم بالذهاب إلى دير الغصون... ولكن دير الغصون نهبت كذلك، وهدمها بناؤون جيء بهم من نابلس[٦٣٨]. (وبعد ذلك بثلاث سنوات حصل الشيء نفسه لعرابة، مركز آل عبدالهادي). أما آل قاسم الأحمد فقد جمعوا غراماتهم من ذلك الجزء من بلاد جماعين الذي كان في الواقع منطقة ريّان، وهو الجزء الذي كلفهم الاشراف عليه ثمناً باهظاً. وكان على كل قرية من القرى المنفردة في هذه المنطقة أن تتدبّر مبلغاً يتراوح بين ١٠٠٠ و٢٠٠٠ قرش.

وعلى هذا فربما كان حقاً ما ذكر من ان اربعة فلاحين قد جمعوا شجاعتهم وقالوا لكامل باشا في نابلس إن البلاد غدت منهوكة القوى من المطالب الاستبدادية الابتزازية للشيوخ المتنافسين، وإنهم ضاقوا ذرعاً بمحدثي النعمة الوطنيين و يريدون حاكماً تركياً. وقد كتب القنصل روجرز، الذي زار عرابة وصانور من جملة أماكن أخرى، تقريراً ذا معنى مشابه[٦٣٩]. وليس الفلاحون وحدهم بل حتى ابراهيم جرار من صانور قال له إن الناس

---

(٦٣٧) Rogers, La Vie Domestique, 243, 251, 280.

(٦٣٨) ارسل فن الى لندن في ١٨٥٦/٣/١٤ قائمة بأسماء ٤٢ رجلا وثلاث نساء وثلاثة أطفال فارقوا الحياة أثناء أعمال النهب، عندما كان باشا القدس مقيماً في نابلس، وكذلك أصيب ٣٥ رجلا آخر بجراح خطيرة.
(PRO–F.O. 78, vol. 1217)

(٦٣٩) انظر أيضاً Finn, Stirring Times, II, 168.

يريدون قائمقاماً تركياً ولكن في نابلس وليس في صانور[٦٤٠]. و يعني هذا انه في هذه المرحلة من مراحل النزاع كانت قلعة صانور، بناء على تقارير القنصل روجرز الواضحة، في ايدي ذلك القسم من آل جرار المتحالف مع آل طوقان برئاسة الشيخ ابراهيم[٦٤١]، حتى إن عدداً من آل طوقان لجأوا إلى القلعة، بينما كان يقود القسم المتحالف مع آل عبدالهادي من العشيرة يوسف جرار.

وفي ١٩ آذار ١٨٥٦ عاد كامل باشا إلى القدس، وقد ظن أنه ثبت دعائم «حزب الحكومة» في جبل نابلس، حيث أقام فيها قُرابة شهرين. و بعد أن تم انسحاب القوات النظامية عين أعضاء حزب عبدالهادي على رأس الباش بوزك. وأحضر علي طوقان معه كنوع من الرهينة إلى القدس. وهنا وضع الاضطراب الذي حدث في مدينة نابلس في ٤ نيسان ١٨٥٦ حداً لهذا «السلام» الهش مرة أخرى[٦٤٢].

إن أحداث نابلس ستتم مناقشتها أدناه. ولسوف نقتصر هنا على إثبات حقيقة واحدة: بينما اقتصر تفسير المجمات على المؤسسات الاوروبية وممثليها من الجانب الإنجليزي بادىء ذي بدء على أنّها مجرد رد فعل ضد سياسة التنظيمات وضد التغلغل الأوروبي المرتبط بها في جبل نابلس والقيت تبعة ذلك على عاتق «التعصب الاسلامي» الذي أضرمه علماء المدينة[٦٤٣] فإن الأحداث في رأي المتصرف كامل باشا والقنصلية الفرنسية كان لها بُعدٌ آخر أيضاً: ففي رأيهم أن آل طوقان قد انتهزوا الساعة المؤاتية لتشويه

---

(٦٤٠) روت ماري روجرز كيف أن مفرزة عسكرية أرسلها كامل باشا حالت بينها وبين دخول صانور لأن ابراهيم جرار منع ذلك بالقوة. وقال قائد المفرزة الى اخت القنصل ان كامل باشا عقد العزم على تدمير صانور وعين مبلغ ٣٠٠٠٠ قرش ثمناً لرأس ابراهيم جرار: Rogers, **La Vie Domestique**, 311–316

(٦٤١) ويبدو أن آل جرار في كل من جنين وصانور كانوا ينتمون حتى في سنة ١٨٥٤ الى حزب طوقان Finn, **Stirring Times**, II, 9.

(٦٤٢) لحول اعادة توطيد سلطة حزب آل عبدالهادي والأحداث المرتبطة بذلك في جبل نابلس خلال الأشهر الثلاثة الأولى من سنة ١٨٥٦ انظر التقارير المفصلة للقنصلين فن وروجرز في:
PRO–F O.78, vol. 1217 (Jerusalem, 7.1., 19.1 , 26 1 , 13 2 , 23.2., 3.3., 14 3 , 21.3 1856; Nablus, 27 2. 1 3., 9 3 , 13 3. 1856)

قارن أيضاً:
MAE–CPC Jér., t 5 (Jerusalem, 17.5.1856);

وكذلك:
Busch, 391–396 (نقلاً عن القنصل روزن)؛ والفصلين التاسع والعاشر من كتاب روجرز **La Vie Domestique**؛ النمر، ١ [١] ٢٨٨ وما بعدها.

(٦٤٣) انظر على سبيل المثال
PRO–F.O. 78, vol. 1217 (Jerusalem, 10.4 1856–Finn–, 11.4.1856–Lyde–, 14.4.1856– Rogers–); vol. 1221 (Jaffa, 8.4.1856-Kayat–).

سمعة حكم آل عبدالهادي ومن ثم لاسقاطهم[٦٤٤].

وإذا كان تقرير كامل باشا حول أحداث نابلس، الذي ذكرناه أعلاه، قد نقل إلى القسطنطينية بالشكل الذي أورده القنصل الفرنسي أم لا، فإنه يعكس بالتأكيد الموقف المتحيز للحاكم، الذي وصفه روجرز أيضاً بالتفصيل. حسب رواية كامل باشا اتخذ حزب آل طوقان من موت شحّاذ برصاصة من المبشر البريطاني لايد Lyde ذريعة لتحريض الغوغاء. ثم قام أحد أبناء سليمان طوقان، الذي كان ما يزال منفياً في طربزون، وكذلك درويش طوقان ومحمد البرقاوي وابو خليل جرار ومحمد سليمان ريان (أي زعماء حزب طوقان الذين أعلنهم هو عصاة) بتعبئة حلفائهم واستنجدوا بالبدو وقاموا بالهجوم على بعض القرى (قرى الحزب المعادي طبعاً). وخرج ضدهم ٢٠٠ باش بوزك تحت قيادة أحد اخوة حاكم نابلس محمود عبدالهادي وابن اخيه محمد حسين وكذلك محمود القاسم مع قوة كبيرة من الفلاحين (ذكر القنصل الفرنسي أن عددها بلغ ١٠٠٠ فلاح) وألحقوا بهم الهزيمة وقتل في المعركة عبدالرحمن جرار وآخرون. ثم انسحب «العصاة» بعد ذلك إلى صانور وطلبوا المساعدة من عقيل اغا الذي لبى طلبهم. وهرب محمد سليمان ريان إلى القدس طالباً الحماية في قبر النبي داود. وكانت النتيجة التي استخلصها كامل باشا أن الهدوء لن يعود إلى البلاد الا إذا أزيح رؤساء آل طوقان الذين أرادوا بقيادة علي طوقان أن يحكموا جبل نابلس كله، وكذلك زعماء آل جرار. بيد أن القوة العسكرية اللازمة لتنفيذ هذا الاجراء الضروري لم تكن متوافرة لديه[٦٤٥].

وأرسل القنصل الفرنسي بارير تقريراً بالمعنى نفسه إلى باريس. وقال في تقريره إن زميله البريطاني فن لم يكن في وسعه اتخاذ الموقف الصحيح ضد آل طوقان لانهم كانوا يؤيدون بناء الارسالية البروتستانتية في نابلس[٦٤٦].

---

(٦٤٤) ورد ما يشبه ذلك في فن
Stirring Times, II, 433f : «ومعنى هذا كله أن حزب طوقان المتعصب قد جرت اثارته كوسيلة لازعاج الحاكم الذي كان هو وعائلته دائماً من الحزب اللبرالي، سواء خلال الحكم المصري أو بعده. ان تعليق الجرس الانجليزي ورفع الأعلام استخدما كذريعة للحزب المعادي لآل عبد الهادي لخلق الاضطراب».

(٦٤٥) الترجمة في :
MAE/CPC Jér., t.5.

(٦٤٦) MAE–CPC Jér., t5 (Jaerusalem 17.5.,10.6., 7.7.1856). وكتب فن في (Stirring Times, I, 470) يقول إن قاضي نابلس وبعض أفراد عائلة طوقان زاروا الكنيسة الانجليزية في القدس سنة ١٨٥٤ «واعربوا عن سرورهم لعدم وجود تماثيل وصور». واتهم القنصلية الفرنسية بالانحياز في الصراعات التي كانت تدور في الجبال الفلسطينية (الى آل عبد الهادي في نابلس وآل اللحام في العرقوب والى عبدالرحمن عمرو في الخليل) لكنه ادعى لنفسه التزام الحياد المطلق. وكتب عن جبل نابلس يقول:
«والغريب أن آل عبد الهادي كانوا يعتبرون أنفسهم بشكل ما انصاراً لفرنسا. أما حجتهم فكانت كما يلي : ان
=

و يؤخذ من التقارير المفصلة للقنصلين فن وروجرز أنه جرت بالفعل اشتباكات دموية بين قوة تابعة لعقيل اغا وجنود آل عبدالهادي بقيادة محمد حسين. وفي ذلك الوقت كان أحد أفراد عائلة عبدالهادي (صالح حسين) متسلماً في حيفا، وقد ساعد هذا محمد حسين الآن ولذلك فإن المشير في بيروت عزله وعين اغا تركيا مكانه[٦٤٧]. وفضلاً عن ذلك فإن محمد حسين عبدالهادي (وهو الذي هرب في زي درويش من المنفى في طربزون والذي وصفه فن بأنه «الرجل الأخطر بكثير من أي رجل آخر في حزبه»)[٦٤٨]، قد هاجم، حتى قبل الاحداث التي وقعت في نابلس فيما هو واضح، قلعة آل جرار في جبع، ولكنه مني بالهزيمة و بخسائر فادحة.

وقد إنشبك تومسون في هذه الصراعات و وصف مشاهداته تحت تاريخ الأول من نيسان سنة ١٨٥٧ كمايلي:

البدو من الغور ومن جبل عجلون شرقي الأردن... جلبهم بيتا جرار وطوقان ليساعدوهم ضد عبدالهادي؛ وحدثت مناوشة في أثناء الليل عند جبع مع أشياع الأخيرين من عرابة. و يقول أهل جنين، الذين هم من حزب الجرار، إن جماعة عبدالهادي قد هزموا، لكن العمل الدموي ما زال مستمراً، والقرى الصغيرة تهجر الان. وإذا نظرت إلى المسالك المنحدرة من الجبال فسترى النساء والأطفال يحثثن الخطا إلى هناك وهن يحملن أمتعتهن المتنوّعة على الحمير والبغال والجمال. وهذا المكان (جنين) لا يتمتع بالأمن إلا لأن عقيل آغا، الذي يرفض أن يشارك في هذه الحرب، يعسكر في اسدريلون (مرج بن عامر)[٦٤٩] ....

= عشيرتنا أيدت قضية المصريين خلال احتلال ابراهيم باشا لسوريا. والفرنسيون أيدوا ابراهيم باشا وأباه محمد علي حاكم مصر؛ وبما أننا نتمي الى المصريين فنحن نتمي بذلك إلى الحزب الفرنسي. وليس آل عبد الهادي وحدهم بل ان جميع السكان الوطنيين في هذه البلاد نظروا للمسألة بهذا الشكل والفرنسيون قد اعترفوا بشكل ما بمطالبة آل عبدالهادي بنوع من الرعاية الودية. أما منافسوهم آل طوقان الذين كانوا على النقيض من هؤلاء موالين على الدوام للأتراك الذين أعادوهم للسلطة بعد أن عادت سوريا الى حكمهم، فقد كان ينظر اليهم كأتراك ولذلك فقد كانوا يستحقون، في رأي البعض على الأقل، التأييد الانجليزي... ومع أنني احجمت باستمرار عن تشجيع فكرة الانحياز من أساسها وكنت على علاقات تتسم باللطف مع كلتا العشيرتين على حد سواء... فان مواطني البلاد يرون من المسلّم به أننا نحن الانجليز يجب أن نولي آل طوقان اهتماماً خاصاً بوصفهم أتراكاً. **Stirring Times, II, 431, f.**؛ ودعا جون باوين John Bowen في تقريره، الذي سبقت الاشارة اليه والمؤرخ في ١٨٥٦/٤/٢، السفير البريطاني في القسطنطينية إلى السماح بعودة المنفيين من آل طوقان، لأنهم دعموا إنشاء مدرسة بروتستانتية في نابلس ولأن مصطفى طوقان ارسل ولده الى هذه المدرسة
(PRO–F.O. 195, vol. 524).

(٦٤٧) انظر أيضاً **Rogers, La Vie Domestique, 453.**

(٦٤٨) PRO–F.O. 78, vol. 1217 (Jerusalem, 2.5. 1856)

(٦٤٩) **Thomson, The Land and the Book, 494f.**

إن العمليات التي قام بها حزب عبدالهادي قد نفرت منهم ذلك الجزء من آل جرار الذي كان يقف إلى جانبهم حتى الآن. وانخرطت عشيرة الجرار من الآن فصاعداً في سلك واحد ووقفت متحدة إلى جانب آل طوقان. وكان هذا الأمر ذا أهمية كبرى بالنسبة للتطور التالي الذي أدّى إلى نزع سلطة آل عبدالهادي. وقد اقسم متسلم جنين، قاسم داود الجرار أمام روجرز بأنه إذا لم يسترد حزب الجرار ــ طوقان حقوقه «فسيقومون قومة واحدة أخيرة سوف تسجل في صحائف التاريخ في جميع أنحاء العالم». [٦٥٠] وقد بدا للمراقبين الخارجيين أن آل الجرار قد أصبحوا في السنتين التاليتين حتى الأعداء الرئيسيين لآل عبدالهادي، بمعنى أنهم حلوا محل آل طوقان كممثلين للحزب المعارض[٦٥١].

إن التطور المقبل للتناحرات في جبل نابلس قد قرره الان بصورة جوهرية إجراءان اتخذا في سنة ١٨٥٧ هما إحلال ثريا باشا محل كامل باشا في القدس من جهةٍ، ووضع حاكم نابلس تحت إمرة المشير في بيروت من جهة أخرى.

و يبدو أن كامل باشا كان على علم مسبق باستدعائه الوشيك، ولذلك فانه حاول في بداية ١٨٥٧ الحصول على مضابط لصالحه من المجالس في القدس ونابلس. لكنه اضطر إلى مغادرة القدس. وفي ٢ آيار ١٨٥٦ وصل ثريا باشا إلى هناك[٦٥٢]. ومن المفهوم أن فن لم يحزن على الحاكم المفارق لأنه فقد مؤهلات الحكم بعد أن غدا ألعوبة في يد القنصلية الفرنسية. ولكنه أنتقده ايضاً لأنه كان يجهل البلاد وسكانها وزعماءهم، كما أنه كان عاجزاً عن حفظ النظام. وهو لم يكن يريد القيام بأي عمل دون قوة عسكرية كبيرة. وكانت صيحته الدائمة هي: «ماذا في وسعي أن افعل. إن الناس كلهم متوحشون»[٦٥٣].

وتحدث فن عن ثريا باشا بعد استلامه الوظيفة ببضعة أشهر فقال أنه كان، على النقيض من كامل باشا، مع مبادىء الادارة الحديثة، ولو أنه كان ضد التقدم المتطرف في السرعة، ومع سياسة ثابتة للمركزية. وكان يُسَمّي نفسه تلميذ رشيد العظيم، سياسي التنظيمات والصدر الأعظم في القسطنطينية[٦٥٤]. وقد رفض أن يخالط الأفندية، وكان نادراً

---

(٦٥٠) PRO−F.O. 78, vol. 1217 (Haifa, 9.3.1856); . (لدى نسخ هذا التقرير لا بد أن تاريخه قد دوّن في القدس خطأ، لأن روجرز وضعه بعد اقامته في جبل نابلس. فهو لم يكتب بالفعل في ٩ آذار بل في ٩ نيسان).

(٦٥١) حول اعادة تشكيل التحالف قارن:
PRO−F O. 78, vol 1217 (Haifa, 9.3. [9.4 ?] 1856; Jerusalem, 28.4., 2.5.; 1856); HHSTA− PA XXXVIII, Kart. 122 (Beirut, 18.10. 1858); Poujoulat, **La Vérité**, 290.

(٦٥٢) PRO−F.O. 78, vol 1249 (Jerusalem, 31.1., 14.3. 6.5.1857); MAE−CPC Jér., t.5 (Jerusalem, 14.4.1857).

(٦٥٣) PRO−F.O. 78, vol 1249 (Jerusalem, 14.3. 1857)

(٦٥٤) كتب فن تقريره قبل أيام قليلة من وفاة رشيد باشا، الذي توفي في ١٨٥٨/١/٧. انظر دافيسون ـ Davison, 83.

ما يحضر اجتماعات مجلس القدس. صحيح انه كان يتلقى جرائد فرنسية، ولكنه لم يكن يحب الفرنسيين. وكان قبل كل شيء تركياً غيوراً. ونتيجة لموقفه هذا عادت اللغة التركية أكثر تداولاً كلغة رسمية[٦٥٥]. وكانت أوساط القنصلية الفرنسية من جهة أخرى تأسف لأن الحاكم الجديد كان محاطاً بأعداء سلفه دون سواهم. ولكن بارير لاحظ بارتياح ورضى أنّ ثريا باشا زاره وأكد له أنه سيرسي دعائم السلم في البلاد باخضاع أهم «الديريبيات» وسَجْنهم[٦٥٦].

بيد أن هذه الخطة لم يكن لها أن تنفذ تحت إشرافه إلا في جبل القدس وجبل الخليل. فان جبل نابلس قد فصل عن دائرة اختصاصه. ولكنه كان، قبل أن يتم ذلك وعقب وصوله إلى فلسطين بوقت قصير، قد أقام في جبل نابلس طوال أكثر من شهر و«رتب الأحوال» فيه وجمع الضرائب ووضع تقرير إلى الحكومة المركزية.

وفيما يتعلق بالأحوال السياسية فإن القنصل الفرنسي ظن بأن ثريا باشا سيعين أحد أفراد عائلة طوقان حاكماً لنابلس بوحي من القنصل الانجليزي[٦٥٧]، ولكنه في الحقيقة ثبّت محمود عبدالهادي في منصبه. وأعلن أن هذا التثبيت كان اجراءاً موقتاً ريثما يتسنى إرسال حاكم تركي إلى نابلس. وكان من دواعي أسف فن أنه لم يتخذ حتى الان اجراءات شديدة ويعاقب «العلماء» ومجلس نابلس على أحداث نيسان سنة ١٨٥٦، وهو مجلس جَعَلَه تصرُّفه مكشوفاً أمام العيون، «وبدا أنّه كان أكثر ملائمةً لأقاليم كانتون واليابان منه لفلسطين في عهد التنظيمات.»[٦٥٨]

ويبدو أن جزءاً من السر الكامن وراء إبقاء الوضع الراهن في جبل نابلس كما هو، هو أن ثريا لم يقم بجمع الضرائب فحسب، بل إنه قبض أيضاً مبلغاً ضخماً من آل عبدالهادي (تحدث القنصل البريطاني في يافا، خياط، عن ١٠٠٠ كيس)، وهو مبلغ جرى تحصيلة ثانية من الفلاحين[٦٥٩]...

---

(٦٥٥) PRO–F.O. 78, vol. 1383 (Jerusalem, 1.1. 1858)
قارن أيضاً: Rogers, La Vie Domestique, 495 f.

(٦٥٦) MAE–CPC Jér., t.5 (Jerusalem, 19.6.1857); t 6 (Jerusalem, 20.7.1858).

(٦٥٧) MAE, CPC, Jér. t.5 (Jerusalem, 21.7.1857)

(٦٥٨) PRO–F.O. 78, vol. 1295 (Jerusalem, 14.2.1857)

(٦٥٩) حول اقامة الحاكم في جبل نابلس انظر: PRO–F.O. 78, vol. 1294 (Jerusalem, 4.7. 1857, 22.7.1857); vol. 1296 (Jaffa 3.7 1857–) تقرير خياط.

وأبلغ الفلاحون روجرز انهم كثيراً ما كانوا يُبتلون بتحصيلات قسرية : «ونظراً لاستنزاف الأموال منهم تكراراً، وللحروب الأهلية فيما بينهم، التي كان يحرض عليها ذوو الأمر» فليس من الغريب أن يتعرض السكان ورخاؤهم للتناقص في هذه المنطقة. ولم يكن يسدّ رمقهم سوى ما يمتلكونه من مزارع الزيتون والبساتين. وكان يقال علناً إن كامل باشا قبض في السنة الفائتة ٢٥٠٠٠٠ قرش وإن ثريا باشا قبض في صيف ١٨٥٧ ٣٤٢٠٠٠ قرش. وكان ثريا باشا على علم مسبق في هذه الأثناء بإلحاق جبل نابلس ببيروت[٦٦٠] ...

أما أنّه كان من المألوف بالنسبة للحكام المحليين أن يبتزوا ثلاثة أضعاف القيمة القانونية للضرائب من الفلاحين، فهذا ما شكا منه ايضاً ثريا باشا في تقرير بعث به إلى الحكومة المركزية بشأن إقامته في جبل نابلس، وهو التقرير الذي عرضه على فن. ومن المشكوك فيه هنا أيضاً بطبيعة الحال أن التقرير أرسل إلى القسطنطينية بهذا الشكل. ولكن بما أن توصيات ثريا قد وضعت موضع التنفيذ بسرعة نسبية فنحن نوردها هنا، كما نقلها فن إلى السفارة في القسطنطينية[٦٦١].

أكد ثريا باشا بادىء ذي بدء أن سكان جبل نابلس يتبعون سبع عائلات رئيسية يتزعمها حوالي عشرين شخصاً، وأن هؤلاء ينقسمون بدورهم بين حزبي آل طوقان وآل عبدالهادي. وقد ذهب ضحية الاشتباكات التي حدثت بينهم في زمن المتصرف كامل باشا ما مجموعه ١٥٠٠ قتيل تقريباً[٦٦٢]. وارتكبت في أثناء ذلك فظائع مخيفة. وما إن وطئت قدماه أرض فلسطين في يافا حتى قدمت له عرائض من آل طوقان وجرار موجهةً ضد آل عبدالهادي[٦٦٣]. واستشار ثريا باشا على الاثر مجلسي نابلس والقدس، ولكن دون أن يثق بأعضائهما، ودون أن يحصل منهم على نصيحة معقولة. بيد أنهم عندما أخذوا على أنفراد أعربوا عن رغبتهم في أن يتولى حاكم تركي الحكم في نابلس (بطبيعة الحال!). وبناء على ذلك ركب بنفسه إلى نابلس. غير أنه لم يستطيع أن يفعل شيئاً على التو، سوى أن يثبت

---

(٦٦٠) PRO—F.O. 78, vol. 1294 (Haifa, 3.12.1857).

(٦٦١) PRO—F.O. 195 vol. 524, (Jerusalem, 12.8.1857)

(٦٦٢) قال فن إنه ربما قتل في سنتي ١٨٥٤ و ١٨٥٥ من ٣٠٠ الى ٤٠٠ شخص في الصراعات التي دارت في جبل نابلس: Stirring Times, II, 173. وقال جون بوين Bowen في تقريره المؤرخ في ١٨٥٦/٤/٢ الى السفير البريطاني في القسطنطينية إنه خلال الثمانية عشر شهراً الماضية «لا بد انه قتل ما لا يقل عن ٢٥٠ شخصاً فيما يسمونه هنا بالحروب». PRO—F.O. 195, vol. 524. وتحدث بوش Busch (نقلا عن القنصل روزن Rosen) عن ٧٠٠ قتيل في ربيع سنة ١٨٥٦ (ص ٣٩٦).

(٦٦٣) قدم علي طوقان اقتراحاً الى فن بأن يتولى تُركي الحكم في جبل نابلس: ISA—BCJ, J22/1 (9.4.1857).

محمود عبدالهادي في الوظيفة وأن يهدىء آل جرار بمنحهم وظيفه حاكم جنين وعلي طوقان بتعيينه حاكماً للرملة. ولكن لو أن علي طوقان تولى وظيفة حاكم نابلس لكان شراً كبيراً شأنه في ذلك شأن محمود عبدالهادي. ولو أنه عهد إلى أحد موظفيه هو بأن يتولى السلطة في نابلس فإن ذلك لم يكن ليسفر إلا عن انسحاب آل عبدالهادي إلى عرابة وإعلانهم العصيان. لكنّ الإبقاء على محمود عبدالهادي زمناً طويلاً في السلطة سيلحق الأذى بالحكومة العثمانية و يناقض مبادىء التنظيمات. والترتيب الحالي لا يمكن اعتباره إلاّ ترتيباً مؤقتاً لأن النزاعات الحزبية ستنشب سريعاً على أية حال مرة أخرى. ولا بد من نقل كتيبتين من الجنود النظاميين إلى نابلس لمدة سنة أو سنتين ثم حبس بعض الزعماء المحليين، ومن بينهم محمود حسين عبدالهادي أو لا بدّ من إطلاق يده هو في العمل إطلاقاً تاماً لاخضاع المنطقة.

وليس هناك من شك في أنّ التوصيات كانت في حكم المقررة من قبل، حتى ولو أن مسؤوليّة تنفيذها نيطت بعدئذٍ بخورشيد باشا في بيروت. ففي خريف ١٨٥٨ ارسلت قوات من دمشق إلى بيروت بعد أن تجددت الاشتباكات الدموية بين آل جرار وآل عبدالهادي، بمشاركة البدو كذلك. وأمر محمود عبدالهادي وقاسم داود الجرار بالتوجه إلى بيروت حيث القي القبض عليهما. وقام عبدالفتاح، ابن شقيق محمود عبدالهادي ومحمد حسين «ستراتيجي» العشيرة، بتنظيم المقاومة. وتحصّنا واتباعهما المسلحون و«خزْنة العائلة» في عرابة.

وفي نيسان ١٨٥٧ كانت هناك و يلات تدبر ضد آل عبدالهادي تجسّمت في قوة مقاتلة حشدت جنوبي عرابة: ٤٠٠ رجل من المشاة، و٢٠٠ من الفرسان و٨٠ من الرماة، ومدفعا ميدان وقوة من الفلاحين تابعة لحزب طوقان ــ جرار. وفي ١٧ نيسان اقتحمت عرابة. وسقط الافراد البارزون في عائلة عبدالهادي أو فرّوا أو وقعوا في الاسر. ونهبت البلدة وقوضت تحصيناتها، وهدمت بعض بيوتها بايدي بنائين امروا بالتوجه إلى عرابة خصيصاً لهذا الغرض. وتمّ إيواء الجنود في جزء من مبانيها[٦٦٤]. وذكر تقرير من دمشق أنه سقط زهاء ٢٠٠ قتيل وجريح من المحاصرين وزهاء ٣٠ من الجنود العثمانيين[٦٦٥].

ولكن يبدو أن هذا العمل العسكري لم يكن مخططاً له أن يجري على هذه الصورة. فآل عبدالهادي كانوا على استعداد للاستسلام بعد اول مناوشة، وتوصلوا إلى اتفاق بهذا

---

(٦٦٤) PRO-F.O. 78, vol. 1383 (Jerusalem, 14.9.29.9, 9.10.1858); vol.1454 (Jerusalem 14.4,26.4.1859); HHSTA-PA XXXVIII, Kart. 122 (Beirut, 18.10.1858); Poujoulat, La Vérité. 290f.; Busch, 398f.; Guérin, Description, V,218; Description, V,218;) ؛ الدباغ، بلادنا فلسطين ٢/٣، ٧٩ وما بعدها؛ الراميني، ٦٤ وما بعدها.

(٦٦٥) PP-1860, vol. LXIX, 630f. (Damascus, 27.4.1859).

المعنى مع قائد القوة العثماني. ولكن آل جرار لم يكونوا ليرضوا بذلك. لقد اقسموا على الانتقام لتدمير صانور على يد عبدالله باشا، وهو التدمير الذي جعلوا آل عبدالهادي شركاء في مسؤوليّته. لقد أرادوا أن يروا عرابة خرائب وأطلالاً. ولذلك ذكر أن أنصارهم هاجموا الحصن من تلقاء أنفسهم. وبهذه المؤامرة تسببوا في الاقتحام العام لعرابة. وإذ جرى الأمر على هذا النحو فان آل جرار مضوا بقوة مع نعي الموتى للسيطرة على جبل نابلس[٦٦٦]. وقد ألقي القبض فيما بعد على قاسم واحمد وابراهيم جرار بسبب اشتراكهم في المؤامرة، في حين قام شيخ من حزب آل عبدالهادي بعد بعض الوقت بمهاجمة جبع وغيرها من قرى الجرار انتقاماً لسقوط عرابة[٦٦٧].

إن الهجوم على عرابة كان آخر مواجهة عسكرية كبرى بين الادارة العثمانية والزعماء المحليين في جبل نابلس الذي بدأ فيه فصل تاريخي جديد. وكان المظهر الخارجي للتحول الحاسم يتجاوز الحامية العثمانية، التي رابطت في نابلس في المستقبل، وإيواء جنود الجيش النظامي في مختلف قرى الجبل. أما قوات السباهي القديمة فقد تم حلها نهائياً[٦٦٨]. وذكر فن بارتياح في تقرير بعث به إلى لندن أن الادارة العثمانية لم تتخذ اجراءاً قوياً كهذا الاجراء منذ طرد المصريين، ولم تكن في العقدين الماضين موطدة الأركان وقوية مثلما أصبحت بعد الهجوم على عرابة[٦٦٩]. وهذه سياسة جديرة بالتأييد. وقد لجأ ستة من أطفال صالح عبدالهادي، كانوا أصدقاء للأخوة روجرز، إلى نيابة القنصلية البريطانية في حيفا. ولما طلبت السلطات العثمانية تسليمهم أشار فن على القنصل روجرز بأن يستجيب للطلب وأن لا يقف بين الحكومة العثمانية ورعاياها. «ليس هذا هو الطريق إلى تعزيز النفوذ الإنجليزي في جهاتكم»[٦٧٠] وسيق الأطفال اخيراً إلى عكا.[٦٧١]

---

(٦٦٦) كتب ترسترام من قبل يقول إن شيوخ صانور «قد ضربت عليهم الآن الذلة والمسكنة»
(Tristram, The Land of Israel, 403.)
وقد ولول شيخ صانور لكوندر فيما بعد على الأتراك قائلا: «انهم يسلبونني ويفقرونني.. هل تحمل نسائي الحطب ويحضرن الماء؟ وهل يحرث أبنائي الأرض؟ [Conder, Tent Work, I, 99–105 ـ الكلام المقتبس من صفحة ١٠٤]

(٦٦٧) دروزة، ٢٣٤ وما بعدها؛ النمر ١[١]، ٢٧٤، ٢٩٥، ٣٠٤؛ ٢، ٤١٦.
ويتحدث عن الاستسلام أيضاً بوجولا (Poujoulat, Le Vérité, 291) لكنه لا يشير بشيء الى آل حرار، بل هو يتحدث عن نقض القائد العثماني لكلمته.

(٦٦٨) النمر، ٢، ٢١٢

(٦٦٩) PRO–F.O. 78, vol. 1454 (Jerusalem, 26.4.1859), 17.11.1859); vol. 1521 (Jerusalem, 4.1.1860).

(٦٧٠) ISA– BCJ, J22/14 (Jerusalem, 22., 25.4.1859).

(٦٧١) Rogers, La Vie Domestique, 500–508 . في هذه الصفحات تصف ماري روجرز هذه القصية التي تحرك العواطف وصفاً مفصلا ومثيراً.

وفي حين استطاع معظم أفراد عائلة عبدالهادي أن يعودوا وشيكاً إلى نابلس[٦٧٢] كان محمود عبدالهادي يتطلع في هذه الأثناء وهو في بيروت إلى أوقات أحسن. وقد كتب بوجولا عنه يقول:

«أرى في بيروت كل يوم في ساحة المدفع، محمود بك السيء الطالع، إنه رجل عجوز نبيل على وجهه ملامح رقيقة تعبر عن أعمق الحزن. و يتبعه دائماً جندي تركي، لا يجعله يفارق عينيه. هذا الذي عاش في نابلس أو في مقره بعرابة عيشة فخمة، وأسبغ على المسافرين الأوروبيين، وخاصة الفرنسيين، ضيافته السخية، مضطرٌ الآن أن يعيش من المال الضئيل الذي يرسله له أهله. وإذا بقي الأمر على ما هو عليه فستلي ذلك مصادرة أمواله، ويمنحه الباب العالي معاشاً تقاعدياً. إنه يرجو منذ سنتين صدور حكم يبيِّن إنْ كانت هناك أخطاء يُلام عليها، ولكن دون جواب. إن وصول الفرنسيين إلى بيروت قد زوّده بأمل جديد. وهو ينتظر أن يطاح برأس خورشيد باشا الذي يعدّهُ سبب شقائه كله، دون أن يفكر هذا التعس بأنّ السبب كامن في القسطنطينية نفسها».[٦٧٣]

ولكن الأمل في أن تغيِّر «الصلة بفرنسا». مصيره قد خاب، كما خاب أمل عقيل أغا.

قال النمر إنه بانتهاء «الحرب الأهلية» انتهى أيضا «عهد الاقطاع والفروسية». وبعد «الحكم الذاتي» جاء «الحكم الأجنبي»[٦٧٤]. وأصبح جبل نابلس يحكم في المستقبل من سراية الحكومة فقط (،كان الزعماء المحليون يجلسون للحكم في قصورهم الخاصة في المدن)[٦٧٥]. وحتى نهاية القرن التاسع عشر لم يعد هناك حاكم واحد من أهل البلاد. وكذلك فإن منصب القاضي أو نائب الشرع في نابلس لم يعد مقصوراً على الشخصيات المحلية، بل أصبحت الحكومة تؤثر إرسال موظفين من القسطنطينية لاشغاله[٦٧٦].

---

(٦٧٢) PRO–F.O. 78, vol. 1588 (Jerusalem, 1.3.1861, 23.3.1861).

(٦٧٣) Poujoulat, La Vérité, 291 f.

(٦٧٤) النمر ١[(1)]، ٢٦٩، ٣٠٣ وما بعدها.

(٦٧٥) النمر ٢، ١٨٢

(٦٧٦) انظر الراميني، ٣٣ وما بعدها، ٥٩، ٦٥، ١٨٠ ـ ١٨٣. وعلى عكس ما كانت عليه الحال في القدس حيث كان أفراد العائلات السائدة سياسياً هم أيضاً أصحاب الوظائف الاجتماعية الدينية أو القضائية، فقد كان هناك في نابلس فصل واضح بين الصفوة السياسية الادارية من الزعماء المحليين والصفوة الاجتماعية الدينية (نقباء الأشراف والمفتون ونواب الشرع).

قارن النمر، ٢، ١٤٩، ٥٢٩ وما بعدها؛ الراميني، ٣٢ ـ ٤٦.

الا أن معظم عشائر الزعماء المحليين وافندية المدن استطاعوا أن يبنوا مراكز سياسية ادارية واقتصادية جديدة وأن ينقذوا سلطتهم ونفوذهم في العهد الجديد. كان هذا شأن آل عبدالهادي وجرار وطوقان والنمر. اما آل ريان في مجدل يابا فقد قيل عنهم من قبل في أل SWP [مثلما قيل عن آل سمحان في راس كركر] بأن «الحكومة التركية هدّمتهم الآن»[٦٧٧]. وفي بداية عهد الانتداب أيضاً لم يكن آل ريان قد استردوا قواهم بعد، وكانوا يعدّون وآل القاسم من الفقراء. وكان الفلاحون كلما مروا بكراسيهم يتشفون بهم[٦٧٨].

جبل القدس

بينما كانت مشاحنات الزعماء المحليين في جبل نابلس تتجاوز الكفاح من اجل السيطرة على قرى ومناطق منفردة لتشمل السيطرة على نابلس أو منصب الحاكم فيها، فإن عاملاً كهذا لم يكن له دور في المنطقة الجبلية المحيطة بالقدس. فبوجود وجهاء المدينة والموظفين العثمانين توافر للقدس هيكل للسلطة خاص بها. وكان أبناء الفئة العليا المحلية يعلقون عادة أهمية على التأكيد بأن أسلافهم جاءوا إلى البلاد في زمن الفتح الاسلامي الأول أو مع صلاح الدين. وكانت مراكزهم تستند في الدرجة الأولى إلى تولي الوظائف الدينية وإلى الأوقاف الواسعة النطاق، وإلى عضوية الهيئات الادارية في القدس[٦٧٩].

إن «أشراف المدن»، ذوي الحسب والنّسب أو «الأرستقراطيين»، كما يسميهم الأوروبيون، وشيوخ المناطق المجاورة ظهروا في صورة المنازعات الريفية من حيث أن الوجهاء حاولوا أن يؤثروا عن طريق مجلس المدينة على قرارات الحكام لمصلحة شركائهم وتلقوا في مقابل ذلك هبات مالية، أي أن القضية بالنسبة لوجهاء القدس لم تكن قضية الحكم المباشر على الأراضي المحيطة، بل قضية رعاية. وقد قال فن إن أعضاء المجلس المسلمين كانوا كأنما اقتسموا جبل القدس فيما بينهم. وكانت كل عائلة من العائلات الوجيهة تربطها بمجموعة من القرى علاقات مماثلة لتلك التي كانت تربط الوليّ الروماني patronus بمواليه clientes. أي أن القرى أو المناطق كان لها في المجلس محامون يتقاضون أجورهم دائماً نقداً او عيناً بالمنتجات الزراعية، كلما كان عليهم أن يقوموا بأعمال،

(٦٧٧) SWP, Samaria, 379.

(٦٧٨) Jaussen, 138, 141

(٦٧٩) HHSTA–Archiv Jer., Fasz. 40 (Jerusalem, 28.4.1885); Wartensleben, 32f., Neumann, Die Heilige Stadt, 235; Finn, Stirring Times, I, 180f.; زيدان، «فلسطين»، ٣٤٦؛ العارف، النكبة ٢، ٤٩٠، الحاشية ٣؛ النمر ١(٢)، ١٦٧، الحاشية ٥؛ Khayat, 99, note 17; Furlonge, 6f; Baer, "The Dismemberment"; Baer, Jerusalems Families

وكانت تقدم لهم الهدايا في أيام الأعياد[٦٨٠] ...

واخيراً كان هنالك مصدر آخر للدخل (« منجم ذهب » كما قال فن) هو الرعاية التي كانت تسبغ على الطوائف أو المؤسسات غير الاسلامية. وقد لعب هذا العامل دوراً معيناً بالنسبة للقرى والأديرة المسيحية المجاورة[٦٨١]. وعلاقة الرعاية (الولاء) هذه كانت قائمة مثلاً بين آل الخالدي وطائفة الروم الأرثوذكس وبين آل الدجاني والأرمن[٦٨٢].

لقد لعب التحزب بين القيس واليمن في جبل القدس دوراً أقوى من الدور الذي لعبه في جبل نابلس. كان زعماء اليمنيين هم عائلة أبو غوش (بنو مالك) الذين شمل نفوذهم أيضاً مناطق بني حمار، والوادية بما فيها بيت لحم، وجزءاً من بني حسن، وكذلك ذلك الجزء من منطقة جبل القدس (بما في ذلك قسم من سكان رام الله والبيرة) الذي كان سكانه من « اليَمَنيين ». وكان يعد من القيسيين في شمال الجبال المحيطة بالقدس آل سمحان (بنو حارث) والبراغثة (بنو زيد) وكذلك قسم من سكان رام الله والبيرة، وفي الجنوب آل اللحام (العرقوب) وجزء من منطقة بني حسن، ومنه سكان بيت جالا. وكثيراً ما كان هؤلاء يتلقون المساعدة من شيوخ القيسية في شمال جبل الخليل[٦٨٣].

وكان النزاع الرئيسي في الخمسينات يتمثل في الخصومة الدائمة بين آل أبو غوش (بني مالك) وآل اللحام (العرقوب) حول السيطرة على منطقة بني حسن. بيد أنه كانت هناك منازعات أيضاً بين آل أبو غوش وبين آل سمحان (بني حارث). وكان شيخ أبو غوش هو المعمّر احمد عبدالرحمن... بيد أن القائد السياسي العسكري كان ابن أخيه مصطفى وهو « شخص ذو حضور طاغ »[٦٨٤]. وآل ابو غوش ليسوا عرباً من حيث الأصل.

---

(٦٨٠) إن دور المحامي والوسيط والحامي الذي قام به الوجهاء في أواخر العهد العثماني وصفه فيرلونج وصف زاهياً. انظر: (Furlonge, 7–9, 14f, 18)

(٦٨١) PRO–F.O. 78, vol. 962 (Jerusalem, 10.8.1853, 11.8.1853); vol. 1521 (Jerusalem, 19.6. 1860); قارن أيضاً:
Pierotti, **Customs and Traditions**, 104–112 ، وكذلك عوض، «فلسطين»، ٢٣١ ـ ٢٣٣

(٦٨٢) انظر Furlonge, 9f.
وقارن كذلك:
Neumann, **Die Heilige Stadt**, 231

(٦٨٣) قارن الجدول في Hoexter, 285–288

(٦٨٤) Finn, **Stirring Times**, I, 229, f.

فأسلافهم كانوا من الشركس الذين يقال إنهم جاءوا إلى البلاد مع السلطان سليم ونزلوا غربي القدس. وبعد أن بسط آل ابو غوش سلطتهم على قرية العنب[685] على طريق يافا ـ القدس أصبحوا في وضع جيّد يتيح لهم أن يفرضوا إتاوة (خاوة) مقابل حماية الحجاج الذين كانوا يصعدون إلى القدس.

وكان المسافرون الأوروبيون الأثرياء يعطونهم الهدايا[686] في حين كانت أديرة القدس تحصل على حق المرور الحرّ للحجاج الأقل يساراً بدفع الأموال لهم بانتظام. وقد كسدت هذه التجارة إبان الحكم المصري. وبعد عودة العثمانيين عين آل ابوغوش رسمياً حراساً على الطريق ابتداءً من سور القدس حتى الساحل. ويدّعي «فن» أنهم كانوا يحصلون لقاء ذلك على ٤٠٠٠٠ قرش سنوياً[687] وتعفى قراهم من الضرائب.

بيد أنه في سنة ١٨٤٣ اعتدى آل ابوغوش على آخوين من عائلة سمحان التي كانت على خصام معهم، وقتلوهما على هذه الطريق نفسها. وكان السمحانيان في ذلك الوقت رئيسين لمنطقة اللد والرملة. ولم يستطع حاكم القدس قبرصلي باشا أن ينتقم لهذه الجريمة الدموية الا في سنة ١٨٤٦، حينما نجح في مباغتة مصطفى أبوغوش ونفاه هو وغيره من الزعماء المحليين في جبلي القدس والخليل. وفي سنة ١٨٤٨ نُفي يوسف أبوغوش أيضاً وسجن في قلعة ودين Widin على نهر الدانوب، ويبدو أن هذه القلعة كانت مكاناً لسجن الزعماء المحليين العصاة. وفي حين توفي يوسف هناك استطاع مصطفى أن يعود من القسطنطينية إلى فلسطين سنة ١٨٥١، بعد أن دفعت عائلته الدية إلى آل سمحان[688]. وقد شكا القناصل الاوروبيون مراراً طوال عقد من السنين، وهم يهزون رؤوسهم استنكاراً وبلا تفهم من السماح بعودة مصطفى أبوغوش لأنهم كانوا يرون فيه المسؤول الرئيسي عن المشاحنات التي جرت في العقد التالي.

وقد امتلأت سنة ١٨٥٣ بالنزاعات التي لا نهاية لها على قرى منطقة بني حسن.

---

(٦٨٥) قرية ابو غوش الان ـ المترجم.

(٦٨٦) Chateaubriand. I, 327–331; "Lady Stanhope, le brigand Abougosh et M. de Lamartine" in TS, 1882/3%4, 129f.

(٦٨٧) Finn, **Stirring Times**, I, 232, f . وتحدث سنة ١٨٥٩ في تقرير ارسله الى لندن عن «راتب سنوي» قدره ٥٠٠٠٠ قرش:
PRO–F.O. 78, Vol. 1448 (Jerusalem 1859).

(٦٨٨) Robinson, **Biblical Researches**, III, 157; Poujoulat, **La Vérité**, 288f.; Finn, **Stirring Times**, I, 228–235; Sepp, I, 519, Finn, **Home in the Holy Land**, 305–311; Macalister/Masterman, 1906, 46 f.

حول المشاحنات بين آل سمحان وآل غوش قارن أيضاً قدورة، ٣٠ ـ ٣٣.

وأقحم فن، الذي كان يَعُدُّ نفسه بمثابة شريك في ادارة فلسطين[٦٨٩]، خاصة منذ بداية حرب القرم إلى أن استدعي بسبب تدخله الدائم في المشاجرات المحلية، أقحم نفسه كوسيط نشيط في هذه الصراعات. وفي ربيع سنة ١٨٥٣ عمل متصرف القدس مرتين على عقد هدنة بين آل أبو غوش، الذين تولوا قيادة اليمنيين،وآل اللحام الذين وقفوا تحت أعلام القيسيين. واستدعى بعدئذ كلا الزعيمين مصطفى أبو غوش وعثمان اللحام، الذي وصفه فن بانه «مجرد فلاح خشن ذي رأس يابس»[٦٩٠]، إلى القدس. وحضر أبو غوش بالفعل، ولكنه بقي طليقاً. وزعم أنه رشا الافندية «اليمنيين» بـ ١٧٠٠٠ قرش. إلا أن عثمان اللحام لم يستجب لـ«الدعوة» خوفاً من استدراجه إلى فخ. (وقد نفي كذلك سنة ١٨٤٦، ولكنه استطاع الهرب في قبرص).

وسارت بذلك الصراعات قدماً في صيف سنة ١٨٥٣ وخريفها (بمشاركة البدو). وكان مثار النزاع الرئيسي هو قرية عين كارم. وقد استدعت هذه الخصومة القنصل الفرنسي إلى الميدان، بسبب دير الفرانسيسكان القائم هناك وسكان البلدة من «اللاتين»، وانحاز القنصل، كما ادعى فن إلى صف آل اللحام. ولهذه الأسباب ارتأى أبو غوش بدوره «أن القنصل البريطاني سيتبنى بلا شك الجانب المضاد في أي قضية يدافع عنها القنصل الفرنسي ــ خصوصاً ؛أن الفرنسيين كانوا لاتين والانجليز بروتستنت. ولكنه أغفل الصعوبات التي تقف في الطريق[٦٩١]».

وفي بداية آب ١٨٥٣ امكن اخيراً بمساعدة القنصلين اقناع عثمان اللحام بالمجيء إلى القدس، وبعد أن اعطاه فن ضماناً مشدداً بسلامته. وتم التفاوض على عقد هدنة لمدة ثلاثة أشهر وذلك على أساس تبادل صغير في السكان، وعلى أن يعاد تخطيط المنطقة التي يسيطر عليها الحزبان، إن صح التعبير، و يتم التبادل بين أجزاء من السكان في القرى المختلفة مثل عين كارم والولجة.

ومع ذلك ففي بداية تشرين الأول ١٨٥٣ اشتعل الصراع من جديد حتى قبل انقضاء الهدنة، وظهر البدو أيضاً على المسرح مرة أخرى. وقد «احتل» أبو غوش وحلفاؤهم

(٦٨٩) بشأن فهم «فن» هذا لذاته قارن، بالاضافة الى كتب فن وزوجته، الجريدة الرسمية للقنصلية «Official Journal» التي اثبت فيها فن نشاطاته ومحادثاته مع الزعماء المحليين والأفندية: ISA–BCJ, J22/1. وقد استعملت اصل هذه الجريدة، التي نشرها أيضاً ا. بلومبرج A. Blumberg [انظر طبعات الوثائق].

(٦٩٠) Finn, Stirring Times, I, 235

(٦٩١) المصدر نفسه، ٣١٢.

في أثناء الاشباكات بيت لحم أيضاً مدة أسبوعين، وكان عددهم كما قال فن الف رجل، بينما تحصن حزب اللحام في بيت جالا التي تقع إزاءها. وإذ الح القناصل على متصرف القدس أن يفعل شيئاً لم يجد المتصرف من طريق لمعالجة الوضع سوى إرسال أربع سرايا من المشاة مع مدفعين إلى قرية الولجة التي كان يجري فيها القتال في ذلك الوقت وقصفها وتدميرها[٦٩٢]. وبذلك ساد الهدوء بعض الوقت جنوب القدس وغربها. غير أنّ آل أبوغوش اتجهوا بنشاطاتهم نحو الشّمال وتشاجروا مرة أخرى مع زعماء حزب القيسية هناك، آل سمحان. وفي شهر شباط ١٨٥٤ نشب القتال بينهم عند البيرة. ويبدو أن أفراد العشيرتين نفوا بعد ذلك من فلسطين؛ إذ إنّ فن كتب في الخريف يقول إن رئيس آل سمحان موجود في هذه اللحظة في القسطنطينية، بينما ذكر القنصل الفرنسي في ربيع ١٨٥٤ أن الباب العالي سمح لعائلة ابوغوش بالعودة ثانية، ودفع لها فوق ذلك ١٠٠٠ قرش شهرياً. ويرجع الفضل في هذه المساعدة إلى تدخل فئة من وجهاء القدس[٦٩٣].

وفي بداية ١٨٥٥ استؤنفت الحرب المحلية في العرقوب. وسبب ذلك أن محمد عطاالله في بيت نتيف، وهو ابن عم عثمان اللحام، قد نازع هذا السيطرة على العرقوب، ثم عمد، ليتمكن من حشد الأنصار والحصول على تأييد آل ابوغوش، إلى تبديل لوْنه أي إلى الانتقال إلى صفوف اليمنية. وجن جنون عثمان اللحّام المرم، فشكل قوة وقام يوم ٣ كانون الثّاني ١٨٥٥ بالهجوم على بيت نتيف. وفقدت القرية ٢١ قتيلاً. وقد شوّهت جثث القتلى تشويها فظيعاً وصفه فن باشمئزاز بناءً على رؤيته الشخصية.

وفي شباط ١٨٥٥ وقعت الضربة المضادة. فقد جاء آل أبوغوش لنجدة عطاالله واستولوا على بيت عطاب وسجنوا عثمان اللحام في بيته. وقد خذله «عزرائيل» / محمد عبدالنبي العَمْله الذي دعاه هو وجماعته لنجدته. ونجح فن بمساعدة مصطفى أبوغوش في التفاوض على هدنة مدتها شهران بين عطاالله واللحام في بيت عطاب[٦٩٤]. لكن هذه المدنة

---

(٦٩٢) حول الاشتباكات في سنة ١٨٥٣ قارن :

PRO—F O. 78, vol. 962 (Jerusalem, 19.7., 9.8., 10.8., 6.10 , 28.10., 18.11 1853); Dupuis, II, 28—32; Finn, **Stirring Times**, I, 266, 305—326, 370—390 f;

إن المعطيات الواردة في بيروتي (**Pleorotti, Customs and Traditions**, 273) حول عدد المقاتلين (٨٠٠٠-١٢٠٠٠ في جانب ابو غوش و٦٠٠٠ ـ ٩٠٠٠ في جانب اللحام) وكذلك حول الأضرار (تخريب ٢٠٠٠٠ غرسة عنب، و٩٠٠٠ ـ ١٠٠٠٠ شجرة زيتون و١٠٠٠ شجرة فواكه وخسارة ٣٠٠٠ رأس ماشية) تستند في الواقع إلى تقديرات خيالية اكثر من استنادها الى تعداد حقيقي.

(٦٩٣) MAE—CPC Jér , t.4. (Jerusalem, 30.3.1854), PRO—F.O. 78, vol. 1032 (Jerusalem, 27,2,24.11. 1854); قارن أيضاً :

Pierotti, **Customs and Traditions**, 271 f.

(٦٩٤) ترجمة الاتفاقية في : Finn, **Stirring Times**, II, 209f.

كانت تسري على العرقوب ليس الا، بينما استمرت الاشتباكات الموضعية في بني حسن، وبين عشيرتي احمد عيسى وعلى شيخة بوجه خاص[٦٩٥].

ويتضح من مثل اللحام وابوغوش كيف أن التحزب إلى قيس ويمن كان تركيبة اصطنعت للمساعدة. إن آل اللحام كانوا ذات مرة يمنيّين لكنهم أصبحوا في هذه المرحلة زعماء للقيسية. وها إن أحد شيوخ العشيرة أصبح يمنياً مرة أخرى سعياً منه لكسب النفوذ. كما أن آل أبوغوش قاموا بدور زعماء اليمنية، مع أنهم لم يكونوا من أصل عربي مطلقاً بل هم من أصل شركسي. والان يستشهد عثمان اللحام المغلوب على أمره في مخاطبته لأبو غوش الغالب بالأصل اليمني المشترك![٦٩٦] إن أسطورة الانتماء إلى مجموعة من الناس قد حافظ عليها الشيوخ كأداة لبسط السيطرة، واستُغل الفلاحون بذلك، ويبدو أنهم أظهروا على هذا الوجه استعداداً اكبر للقتال من أجل زعمائهم المحليين.

وفي العرقوب سادت الان سكينة نسبية دامت ثلاث سنوات. وقسمت المنطقة بتسامح من باشا القدس بين محمد عطاالله وعثمان اللحام. وقد أدت سياسة ثريا باشا في تدعيم الحكم العثماني خطوة خطوة في المناطق المحلية أدّت بعدئذٍ في سنة ١٨٥٨ / ١٨٥٩ إلى عصيان أخير قام به الشيوخ. وحسب ما يقوله فن عُزل اللحام في نهاية ١٨٥٧، وعين مكانه اغا تركي. وبناء على قول القنصل البروسي روزن عزل ثريا باشا زعيمي العرقوب كليهما وعين شيخا من اتباع عطاالله ناظراً. وكيفما كان الأمر فان تدخل الحاكم أدى إلى وقوف الجانبين في ربيع ١٨٥٨ موقف المواجهة القديم، بمشاركة البدو وحزب أبوغوش وتحت اعلام قيس ويمن. ولم يعد في وسع الباشا أن يفعل اكثر من تنظيم هدنة مؤقتة. وشكا من أن الجيش النظامي لا يمكن استخدامه دون موافقة دمشق وأن السلطات العسكرية تخرب خططه لاحلال السلام بانحيازها للقيسية. وهذه الخطط، كما أسر ثريا إلى القنصل الفرنسي، كانت تتوخى قبل كل شيء نفي الزعماء المحليين، رؤساء أبوغوش واللحام وعطا الله وسمحان والعزة[٦٩٧].

---

(٦٩٥) حول احداث ١٨٥٥ قارن :
PRO–F.O. 78, vol 1120 (Jerusalem, 15.1, 5.2.1855); ISA–DKJ, A.III.4. (Jerusalem, 15.3.1858); Finn, Stirring **Times**, II, 193–219.

(٦٩٦) قارن أيضاً : Hoexter, 289 f.

(٦٩٧) بشأن هذه الأحداث قارن :
PRO–F.O. 78, vol. 1383 (Jerusalem 1.1., 18.3., 13.4.1858); PRO–F.O. 195, vol. 604 (Jerusalem, 3.6.1858); MAE–CPC Jér., t6 (Jerusalem, 20.7.1858); ISA–DKJ, A.III.4. (Jerusalem, 15.3., 11.4 und 29.4.1858); HHSTA– Archiv Jer., Fasz. 40 (Jerusalem, 28.4.1858).

وفي خريف ١٨٥٩ على أية حال أعطي الضوء الأخضر. وإذ تشجع الباشا بالفعل من النجاح في عرابة فقد اخذ يُعد العدة لوضع يده على مناطق بني مالك و بني حسن والعرقوب من الوجهتين الادارية والعسكرية، أي لوضع الجنود والباش بوزك هناك. وتم ابعاد عثمان اللحام، الذي كان في هذه الأثناء قد ناهز التسعين، ومحمد عطاالله إلى قبرص، ورُحّل أفراد العائلة الآخرون إلى الرملة. وصحيح أنه لم تتخذ إجراءات عنيفة مماثلة ضد آل أبوغوش، إلا أن «اجنحتهم كانت قد قُصّت إلى حد بعيد» (greatly shorn of power) في بداية الستينات بتعبير فن[٦٩٨]. إن الحروب المحلية على الطراز القديم في جبل القدس قد انتهت. «وهكذا استراحت البلاد من ظلم الشيوخ ومشاكساتهم»: وبهذه الكلمات ختم راوية للأحداث من بيرزيت حديثه عن القتال الدموي أحياناً، الذي استشرى في البلاد نصف قرن من الزمان[٦٩٩].

وإذ أصبح في هذه الأثناء جدٌّ من أجداد عائلة ابوغوش تولى قيادة اليمنية زمن ابو نبوت (حاكم يافا ١٨٠٧ ــ ١٨١٨) ولياً من الاولياء عند السكان المحليين[٧٠٠] غدا آل أبو غوش وكرسيهم منذ الستينات من الأماكن الجديرة بالزيارة عند الحجاج والمسافرين الأوروبيين والأمريكيين. فعلى الطريق إلى القدس كان المسافرون يجعلون الأدلاّء يقصّون عليهم تاريخ أعمالهم المرعبة، ثمّ يستمعون بعدئذ إلى الترانيم وهي تدوي في كنيسة الصليبيين التي تملكتها فرنسا بقرية العنب. وكانت ترد في روايات الرّحّالة على الدوام وفي المكان ذاته الإشارة التي لا بد منها إلى آل أبوغوش. ولما لم تعد العين تقع على هذه الاشكال الجسورة فقد كانوا يصفون على الأقل «المساكن الحجرية الكئيبة لعائلة أبوغوش المرعبة». ثم ينتهي بهم المطاف إلى أقوال من مثل: «لم أر في حياتي دوراً فيها سيماء الشرّ مثل بيوتهم الكالحة»[٧٠١].

جبل الخليل

كان هيكل السلطة المحلية في جبل الخليل يختلف عن هيكل السلطة في جبل القدس وفي جبل نابلس على حد سواء. ففي المنطقة الجبلية الجنوبية كانت تسود بوضوح

(٦٩٨) PRO—F O. 78, vol. 1454 (Jerusalem, 27 6., 17.11. 1859); vol. 1588 (Near Jaffa, 12.4 1861).

(٦٩٩) Macalister/Mastermann, 1906, 50. ، تحدث برغوثي الى دروزة عن المقاومة السلبية للبراغثة ضد سياسة الاصلاح والمركزية العثمانية التي بدأت الآن. لكن هذه المقاومة لم تكن الا من قبيل المناوشات أثناء الانسحاب.

(٧٠٠) Conder, "The Muslim Mukams", 100; Chizik, 7.

(٧٠١) Warner, "From Jaffa to Jerusalem", 12.

عائلة واحدة هي آل عمرو، بينما كان يقف آل العزة وآل العملة، إن صحّ التعبير، في الصف الثاني. وقد تورط آل العملة أيضاً مراراً في المنازعات التي جرت في العرقوب. ولم تستطع العصبية الحزبية ما بين قيس ويمن أن تلعب دوراً في جبل الخليل لأنه كان باكثريته الساحقة «قيسياً». ولكن الأمر كان يتعلق هنا أيضاً، كما كانت الحال في جبل نابلس، ببسط النفوذ في البلدة المركزية، بالسيطرة على الخليل. لكن الخليل لم يكن لها في هذا الشأن المركز المرموق الذي كان لنابلس؛ إذ إنّ المدينة كانت بالأحرى ملحقاً للمنطقة الريفية المحيطة بها من حيث السلطة السياسية.

وفي المنازعات التي جرت في المنطقة الجبلية الجنوبية كانت هنالك جبهة خارجية واضحة وجبهة داخلية ثانوية. على الجبهة الخارجية كان يقف الزعماء المحليون والحكام العثمانيون بعضهم إزاء بعض. اما الجبهة الداخلية فقد نشأت جرّاء التنافس بين أخوين من عشيرة عمرو، وهو تنافس كان يغذيه العثمانيون بقوة و يستغلونه. وفي سنة ١٨٥٤ كان ترتيب الصفوف للجبهة الداخلية لكلا الجانبين يبدو بالشكل التالي.[٧٠٢]

حول رئيس آل عمرو، عبدالرحمن، كان يتجمع أخواه محمود وابراهيم وكذلك مصلح العزة، «عملاق بيت جبرين» وأخواه عبدالعزيز واسماعيل[٧٠٣]. وكان وراء غريمه سلامة عمرو في الجانب الآخر أربعة إخوة آخرون (احمد وحسين وعمر ومحمد) وكذلك ناجح العزة ومحمد عبدالنبي العملة (عزرائيل) وابن عمه نمر العملة. وكان هذا الحزب يتمتع بتأييد عثمان اللحام من العرقوب (وفقاً للقول المأثور: ساعدني بَسَاعدك!)؛ و بديهي أنه كان لكلا الجانبين حلفاء من البدو.

إن عبدالرحمن «هذا السيد الإقطاعي القديم «cet ancien seigneur fecodal»»[٧٠٤] نصب نفسه بنفسه سنة ١٨٤٠، بعد اضطرار المصريين إلى الانسحاب، حاكماً على الخليل و«حكم» بعدئذٍ جبل الخليل حتى حملة قبرصلي باشا العسكرية في سنة ١٨٤٦. وصحيح انه نفي في سنة ١٨٤٦ هو ومصلح العزة ومحمد عبدالنبي العملة (وكذلك الزعماء المحليون لجبل القدس)، إلا أنه استطاع أن يعود سنة ١٨٤٨؛ وفي بداية الخمسينات كان جميع الشيوخ في منطقة الخليل الجبلية قد عادوا اليها.

---

(٧٠٢) Finn, Stirring Times, I, 235. f; II, 42f.

(٧٠٣) قارن بشأنهم : Finn, Byeways, 176–183. (في سنة ١٨٤٩ رجا فلاحٌ عجوزٌ في المنطقة القنصل فن بأن يحاط السلطان علماً بشكل من الأشكال بمدى الاضطهاد والاستغلال الذي يتعرض له الفلاحون على أيدي مصلح العزة).

(٧٠٤) MAE – CPC Jér., t.5 (Jerusalem, 14.9.1855).

وفي بداية ١٨٥٢ وقع عبدالرحمن العمرو من جديد في أيدي السلطات العثمانية، ولكنه استطاع الهرب من القدس. وأعلن عزل المتسلم التركي في الخليل و بدأ في جمع «الضرائب» في المدينة. وتوجه اليهود الذين مسّهم ذلك بشكل خاص لهذا السبب إلى القنصلين الإنجليزي والنمساوي اللذين ذهبا كلاهما إلى الخليل لكي يتفقدا أحوال الذين يتمتعون بحمايتهما. وحبس المتسلم نفسه في داره، بينما كان عبدالرحمن يجلس للحكم في بيته في المدينة. وذكر أن حاشيته كانت تضم ٥٠٠ من المسلحين وكثيراً من الشيوخ من بينهم مصلح العزة. وصرح عبدالرحمن للقنصلين بأنه يترتب عليه أن يسترد الثلاثمائة الف قرش التي كان قد دفع الجزء الأعظم منها رشاوى إلى الذين ساعدوه، كما هو واضح، في الخلاص من السجن[٧٠٥]. وأضاف أنه إذا كان القنصل الإنجليزي يستطيع أن يدبّر له هذا المبلغ، فسيترك الخليل في سلام و ينسحب إلى قريته (دورة).

ولما عاد القنصلان إلى القدس ألحّا على المتصرف أن يرسل جنوداً نظاميين إلى الخليل، ولكن كان لا بد من الحصول على إذن بذلك من دمشق. ولم يظهر المتصرف على رأس قوة عسكرية حكومية في الخليل الا في شهر آب ١٨٥٢، ولكن دون أن يقبض على عبدالرحمن، فبقي هذا سيداً لجبل الخليل (وكان عبدالرحمن يحتفظ بسكرتير قبطي لإنجاز «معاملات الحكومة»)[٧٠٦].

واستمرت لعبة القط والفأر مع السلطات العثمانية. وذكر أن عبدالرحمن أبعد ثانية (إلى القسطنطينية) سنة ١٨٥٣، لكنه أفلت في بيروت وتحصن في دورة. وفي سنة ١٨٥٤ عينه المتصرف آنذاك يعقوب باشا، لقاء دفع مبلغ مناسب كما هو واضح، ناظراً على المنطقة المحيطة بالخليل، باستثناء المدينة نفسها[٧٠٧].

وفي سنة ١٨٥٥ بذل كامل باشا جهوداً اكثر جدية لاخضاع جبل الخليل. واراد قبل كل شيء أن يُري الحلفاء الاوروبيين انه يعرف كيف يوطد السلطة العثمانية، ولذلك دعا القنصليات إلى ارسال ممثلين عنها لحضور promenade militaire[٧٠٨] (نزهة عسكرية) في جبل الخليل. وكانت مناسبة ذلك المشاحنات بين فئتي آل عمرو. لقد خرق سلامة

---

(٧٠٥) قارن بهذا الشأن بالاضافة الى (Finn, **Stirring Times**, I, 252) ما جاء في PRO–F.O. 78, vol 962 (Jerusalem, 11.8.1853).

(٧٠٦) Finn, **Stirring Times**, I, 228, f236 f., 248–260; ISA–DKJ, A. III. 4. (Jerusalem, 19.8 1852).

(٧٠٧) PRO–F.O. 78, vol. 962 (Jerusalem, 16.3.1853); vol. 1032 (Jerusalem, 9 2., 27.7. 1854); Finn, **Stirring Times**, I, 264, 392, 452; II, 33–35.

(٧٠٨) نزهة عسكرية.

هدنة بين الجانبين، فأعلن عبدالرحمن لذلك التعبئة العامة، إذا صح التعبير، واحتل حلحول، وكذلك حاصر الخليل وعزلها عن العالم الخارجي. واستدعى هذا الوضع باشا القدس إلى الميدان، وفكر الباشا في الوقت نفسه في تحصيل الضرائب المتأخرة في المنطقة منذ سنوات.

وبمساعدة ٣٠٠ من جنود المشاة النظاميين وما توافر من الباش بوزك الخيالة وكذلك أربعة مدافع شق كامل باشا طريقه إلى الخليل في ٢٧ تموز ١٨٥٥، وكان يصحبه نائب القنصل الإنجليزي روجرز، وتراجمة القنصليات الفرنسية والبروسية والنمساوية. وعندما وصل كامل إلى الخليل استدعى أولاً شيوخ القرى المجاورة إلى معسكره. ورفض شيوخ ثلاث قرى، بما فيهم إدنا، الامتثال لأمره وأعلنوا انهم لن يسددوا الضرائب إلا عن طريق زعيمهم المحلي عبدالرحمن العمرو. وعلى الأثر أعلن الحاكم عبدالرحمن شخصاً غير مرغوب فيه (مغضوب الدولة) وعين أخاه سلامة ناظراً على المنطقة. وبعد أن ورَدَ الأمر من القسطنطينية بالقاء القبض على عبدالرحمن حياً أو ميتاً حُدِّد مبلغ ٢٥٠٠٠ قرش ثمناً لرأسه.

وبعد أن ترك كامل باشا جزءاً من المشاة ومدفعين كـ«قوة احتلال» في الخليل زحف الباشا مع ما بقي من القوة المسلحة وكذلك مع قوة من الفلاحين بقيادة سلامة العمرو ضد قرية إدنا، حيث اعتصم بعض الشيوخ العصاة وحيث كانت تقام حتى الاستحكامات. وصحبه روجرز والترجمان الفرنسي إلى هناك ايضاً. وبعد حصار دام بضعة أيام قصفت البلدة في ٤ آب ١٨٥٥ ثم تمّ اقتحامها ونهبها وتدميرها. وتحدث الممثل الفرنسي في تقريره عن ٢٢ قتيلاً وكثير من الجرحى و٧٠ معتقلاً، بينما لم يذكر روجرز في تقريره إلى فن سوى ٦٤ معتقلاً، بينهم اخو عبدالرحمن، ابراهيم[٧٠٩]. اما عبدالرحمن نفسه فتمكن من الفرار إلى البدو في الجانب الآخر من البحر الميت. وسيق المعتقلون إلى الخليل وجرى عرضهم هناك.

وبقي كامل باشا بعض الوقت في جبل الخليل وجمع الضرائب وتقبل آيات الولاء من الشيوخ، بمن فيهم مصلح العزّة من بيت جبرين[٧١٠]. واجمل فن الوضع بقوله: «إن حملة

(٧٠٩) وحسب عرض فن للحادث في (Finn, **Stirring Times**, II, 301–304) فان روجرز هو الفاتح الحقيقي لادنا، لأنه اكتشف المؤامرات المظلمة ومنع اعمال التخريب!

(٧١٠) حول هذه الحملة التي جرت سنة ١٨٥٥ قارن:

PRO-F.O. 78, vol 1120 (Jerusalem, 6.6.,6.8., 30.8.1855; Hebron, 4.8., 5.8.1855 – reports from Rogers to Finn); MAE-CPC Jér., t.5 (Jerusalem, 18.8.1855); ISA-DKJ, A.III. 4. (Jerusalem, 20.6.1859; Finn, Stirring Times, II, 286–291, 298–315.

الخليل هذه، التي أسفرت عن أخذ إدنا وعن تشرّد عبدالرحمن في الصحراء عززت سمعة كامل باشا، وصانت السّلْم في البلاد لمدة طويلة بعد ذلك»[٧١١].

وبالفعل سادت السكينة النسبيّة جبل الخليل طوال أربع سنوات بعدئذ. صحيح أن عبدالرحمن عمرو طلع حتى في تشرين الثاني ١٨٥٥ مع بدو التعامرة في بيت لحم وأجرى بوساطة ابنه يحيى اتصالات مع السلطات، الا أن مدينة الخليل بقيت تحت سيطرة الادارة العثمانية، وبقي مصلح العزّة وسلامة العمرو ناظري منطقتي الجبل[٧١٢].

إلا أن ثريا باشا عزل سلامة في أيار ١٨٥٩ لأسباب غير معروفة وعين عبدالرحمن بدلاً منه. وذكر القنصل الروسي في تقاريره أن أساس المصالحة كان رشوة كبيرة قدمت للمتصرف وأن عبدالرحمن سيقوم الآن بابتزاز قيمتها من سكان الجبل. ولهذا فلا عجب إذا كان سكان الريف يتلهفون على احتلال مصري متكرر تمتعوا في ظله بأمن اكبر على حياتهم وممتلكاتهم. وقد ادعى الزعماء المتمردون بحق أنهم لم يكونوا على خصام مع الباب العالي، بل مع باشوات القدس المتعاقبين.

وكما كان يتوقع لم يقبل سلامة العزل، واعترى جبل الخليل الاضطراب مجدداً. وشق ثريا باشا طريقه مع قوة قتالية إلى الخليل واخمد التمرد وأقتحم دورة وساق سلامة مغللاً بالأصفاد إلى القدس. ومع ذلك فما كان لعبد الرحمن أن يبتهج بهذا التطور، ولم يعد في وسعه أيضاً أن يتكىء على الأهالي بشأن نفقاته وهو بمنجاة من الضرر. وفي خريف ١٨٥٩ كان هو وسلامة في المنفى في القسطنطينية، بل إنّ ثريا باشا بذل جهوداً لنزع السلاح من فلاحي جبل الخليل[٧١٣]. وعندما ثارت القرى المحيطة بالخليل بعد ذلك بثلاث سنوات في خريف ١٨٧٢ ضد حملة التجنيد التي كانت تجري إذ ذاك كان الاخوان عمرو ما يزالان في المنفى. ولذلك فان الفلاحين انتخبوا أحد أبناء عبدالرحمن زعيماً لهم ليحميهم من شرور الخدمة العسكرية[٧١٤].

بيد أن عصر الزعماء المحليين، عصر «حكم الشيوخ»، قد ولى في جبل الخليل أيضاً. وما إن جاءت الستينات حتى كانت «تهدئة» منطقة الجبال الجنوبية قد تمت. لقد

(٧١١) Finn, Stirring Times, II, 313.

(٧١٢) PRO-F.O. 78, vol. 1120 (Terusalem, 26.11.1855); vol. 1383 (Jerusalem, 8.7.1858); Finn, Stirring times, II, 391f.

(٧١٣) ISA-DKJ, A. 111.4 (Jerusalem, 20.6.2859); PRO-F.O. 78, vol. 1454 (Jerusalem, 23.6.,27.6., 17.11.1859); Poujoulat, La Verite, 290 .

ووفقاً لـ HL, VIII (1864), 43 وعوض، «متصرفية القدس اواخر العهد العثماني»، كان المنفى هو جزيرة رودس.

(٧١٤) PRO-F.O. 78, vol. 1676 (Near Solomon's Pools, 9.10.1862; Jerusalem, 1.11.1862).

ظلت هناك نزاعات وصراعات محلية بين حامولتين في قرية أو بيْن قريتين استدعت تدخل متصرف القدس، إلا أنها كانت ذات طبيعة تختلف عن صراعات الزعماء المحليين وأحزابهم من أجل السيطرة على المنطقة الجبلية في الأربعينات والخمسينات. وهكذا فان خورشيد باشا، خليفة ثريا باشا، اضطرّ في صيف ١٨٦٣ إلى أن يبقى في جبل الخليل هو وجنوده بعض الوقت لوضع حد للنزاعات بين آل عيسى وآل دودين في دورة[٧١٥]. وفي سنة ١٨٨٢ اخمد رؤوف باشا بالقوة العسكرية نزاعاً دام عدة سنوات بين قريتيّ يطا والسموع قرب الخليل[٧١٦].

ونحن نسمع عن آل عمرو مرة أخرى أيضاً فيما يتعلق بالنزاعات بين بدو الترابيين والتياها في سنة ١٨٧٧. ولكن بينما كان من المألوف في السابق أن يجلب الزعماء المحليون في الجبل البدو إلى منطقة الجبل كقوات مساعدة، أصبح الأمر بالعكس: فان التياها جندوا حلفاء من الخليل والقرى المجاورة لها. وذكر أنه سقط من جانب التياها في معركة جرت في آذار ١٨٧٧ ١٠١ من القتلى، بينهم ٣٦ فلاحاً، و٣ من سكان الخليل، وسقط من الترابيين ١٢ قتيلاً. وكان بين القتلى في جانب التياها «أربعة رجال من بيت عمرو من بلدة دورة، البيت الذي كان قوياً ذات يوم، وما يزال له نفوذ حتى الآن[٧١٧]».

مهمات جديدة

إنّ وصف القنصل البريطاني لمركز آل عمرو بأنه «كان قوياً ذات يوم وما يزال له نفوذ حتى الآن» هو تصوير صائب لأوضاع معظم عائلات الشيوخ في منطقة الجبال الفلسطينية منذ أواسط الستينات. فقد نجح الكثيرون منهم في إنقاذ مراكزهم الاجتماعية السياسية في العهد الجديد، وذلك باندماجهم في هياكل التنظيمات الادارية واضطلاعهم بوظائف مهمّة في الهيئات الجديدة.

وعلى المستوى الأدنى حاولت الحكومة المركزية عن طريق وظيفة «المختار» ووظيفة «رئيس البلدية» اللتيْن استحدثهما قانون الولايات لسنة ١٨٦٤ وقانون إدارة الولايات لسنة ١٨٧٢ أن تحل هذين محل الشيوخ أو أنْ تُوْهِن مراكز عائلاتهم في الريف

---

(٧١٥) PRO-F.O. 78, vol. 1752 (Jerusalem, 7.7., 23 7 1863), HL, VII (1863), 44, 99;
قارن ايضاً: Tristram, The Land of Israel, 369–373

(٧١٦) HHSTA – PA XXXVIII, Kart. 242 (Jerusalem, 15.8, 23.8.1882); MAE-CPC Jér, t. 15 (Jerusalem, 23.8.1882).

(٧١٧) PRO—F.O. 78, vol. 2615 (Jerusalem, 15.3., 6.4. 1877), MAE/CPC Jér., t.13 (Jeruslaem, 15.3.1877).

إدارياً[٧١٨]. وكان من المفروض أن يعين مختار لكل حامولة أو لكل طائفة دينية، أو، بالأحرى، لكل مجموعة بأسرها من أهالي القرية. لكن تنفيذ هذا المشروع سار ببطء. ولم تكن عملية «إرساء حجر الأساس» الادارية على مستوى القرية قد تمت بعد في بداية القرن العشرين.

على الورق كان المختار هو أدنى موظف إداري عليه أن يساعد الجهات الأعلى منه في جميع الشؤون الادارية وأن يقوم بالمحافظة على الهدوء والنظام وجباية الضرائب. بيد أن جباية الضرائب عن طريق المختار لم تتحقق في العهد العثماني. بل إن نظام الالتزام صَمَد حتى الحرب العالمية الأولى، ولو أنه جرت تجارب عديدة لجباية الضرائب بصورة مباشرة. ولذلك فإن المخاتير لم يكونوا سوى ظلال للشيوخ القدامى. ولم يعد لهم خصوصاً أي صلاحيات قضائية، ولم يكن تحت تصرفهم أي وسيلة من وسائل الإلزام. ولذلك فإن نفوذ الشيوخ لم يقلّ إلا بصورة تدريجية حتى الحرب العالمية الأولى.

إن وظيفة المختار لم تكن جذابة مطلقاً بالنسبة لعائلات الزعماء المحليين السابقين في النواحي. واذا كان لهم أن يرسخوا نفوذهم من جديد فكان يترتب عليهم أن ينقلوا مراكز نشاطاتهم إلى المدن، وأن يثبتوا قدمهم في الهيئات السياسية الادارية الجديدة التي شكلت هناك: في الدرجة الأولى في مجالس الادارة، والمحاكم، وفي الدرجة الثانية المجالس البلدية ومحاكم التجارة. وعلى هذا فإن السلطة الاجتماعية السياسية في الجبال الفلسطينية انتقلت بسرعة كبيرة للغاية من كراسي الزعماء المحليين إلى مجالس المدن. وأصبحت القدس ونابلس قبل سواهما مراكز ادارية من الدرجة الأولى.

وقد أصبح الاتجاه إلى المدن ضرورياً كذلك لأن منح الالتزام كان في يد مجالس الإدارة. وكان على شيوخ الأرياف أن يتوجهوا إلى هناك الآن ليتزاحموا مع وجهاء المدن حول هذا المصدر الكبير من مصادر الربح. وفي الجبال الجنوبية على الأقل لم يظفروا من هذا إلا بالأقل، لأن وجهاء القدس كانوا قد شكلوا مجموعة مغلقة ذات أساس وطيد كان اختراقها من الصعوبة بمكان[٧١٩].

---

(٧١٨) قارن قبل كل شيء في هذا الشأن:

Baer, Fellah and Townsman, 109–145 («The Office and Funchions of the Mukhtars», and «the Economic and Secial Positions of the Mukhtars»).

(٧١٩) قارن ايضاً: Porath, «Social Aspects», 93–100.

وفيما يتعلق بنظام المجالس في سوريا قارن: Shamir, «The Modernization of Syria» 370–385.

وكان الوضع في نابلس مختلفاً. فقد جرى هنا تقسيم للوظائف بين عائلات الزعماء المحليين القديمة في نابلس وعائلات النخبة الاجتماعية الدينية التقليدية في المدينة، وعائلات الزعماء المحليين ذات الأصل القروي[٧٢٠].

ويمكن ايضاح ذلك بمثال من رؤساء المجلس البلدي الذي شكل في نابلس سنة ١٨٦٨: الشيخ محمد تفاحة (١٨٦٩ — ١٨٧٢)، حسن عبدالرحمن عبدالهادي (١٨٧٣ — ١٨٧٤)، الشيخ احمد حلمي (١٨٧٤ — ١٨٧٦)، عبدالفتاح النمر (١٨٧٦ — ١٨٧٨)، حسن عبدالرحمن عبدالهادي (١٨٧٩ — ١٨٨٥)، شريف طوقان (١٨٨٦ — ١٨٨٧)، عبداللطيف سعيد عبدالهادي (١٨٨٧ — ١٨٩٤)، بشير طوقان (١٨٩٤ — ١٨٩٦)، بدوي عاشور (١٨٩٦ — ١٨٩٧)، عبداللطيف سعيد عبدالهادي (١٨٩٧ — ١٩٠٠)[٧٢١].

وبقيت المجالس في القدس في أيدي الوجهاء القدامى المقيمين في المدينة وممثلي مختلف الطوائف غير الاسلامية. والعرض التالي لسيرة رئيس بلدية القدس يوسف الخالدي وأعماله من شأنه أن يزودنا بانطباع دقيق ومعمّق عن مرحلة التحول الحاسم في فلسطين التي نقوم بدراستها هنا.

---

(٧٢٠) قارن قوائم اسماء اعضاء هيئات التنظيمات المختلفة في جبل نابلس في: النمر، ج٣، ١٧-١٠، ٢٧-٣٢، ٥٣-٥٥.

(٧٢١) الراميني، ٤٩؛ قارن ايضاً النمر، ٣، ٢٥-٣٥. في ربيع عام ١٨٨١ تلقى الباب العالي خطابات ولاء من دمشق وبيروت وحماة ونابلس لدحض «الشائعات الكاذبة في الجرائد الاجنبية».
واعقب ذلك هطول مطر الأوسمة على وجهاء نابلس. وقد تسلم كل من الاشخاص التالية اسماؤهم نيشان المجيدية: الشيخ محمد تفاحة، الشيخ منير، سعيد عبدالهادي، حليم عبدالهادي، امين قاسم، عبدالقادر اغا النمر، عبدالكريم اغا النمر، مصطفى الجيوسي، عبدالقادر جرار، سليم طوقان، «وكلهم من اعيان نابلس واشرافها»: **حديقة الأخبار** في ٩-٢١/٤/١٨٨١ في: (تقارير قنصلية، بيروت ١٨٨٠-١٨٩٤ ،.HHSTA – Archiv Konst)

مُصْلِح فلسطيني، يوسف الخالدي[٧٢٢]

إن توجيه الأنظار الى شخصيات تاريخية منفردة وتحليل مركزها في المجتمع وأعمالها السياسية والادارية يحتاج أولا الى تعليل، وهذا التعليل يمكن أن يقدم من زاويتين:

حتى منتصف الستينيات من القرن التاسع عشر لم تكن القدس مركزاً سياسياً ولا مركزاً إدارياً ذا أهمية بارزة. فالمشاحنات الاجتماعية السياسية في فلسطين تركزت في مراكز السلطة المحلية في جبل الخليل وجبل القدس وجبل نابلس وفي الجليل الأدنى، ولم تصبح القدس مركزاً سياسياً ادارياً مهمًا، في أول الأمر وبالنسبة الى جنوب فلسطين وحده في الحقيقة، الا بعد ضرب مراكز السلطة الريفية هذه من الباب العالي، وفي إطار النظام الاداري الجذري الجديد للولايات منذ سنة ١٨٧٤، وذلك بعد أن باء تشكيل ولاية تضم فلسطين كلها بالفشل سنة ١٨٧٢. وبدلاً من ذلك حصلت متصرفية القدس سنة ١٨٧٤ على وضع متميز؛ ووضعت تحت إشراف الباب العالي بصورة مباشرة. ويوسف الخالدي يجسّد، اذا جاز التعبير، صعود القدس هذا في فترة التنظيمات التي تلت حرب القرم. لقد كان طيلة سنوات عديدة رئيساً لبلدية القدس التي سبق أن أسست في سنة ١٨٦٣ بموجب فرمان سلطاني خاص[٧٢٣]، كما مثل الخالدي متصرفية القدس سنة ١٨٧٧ / ١٨٧٨ في مجلس المبعوثان العثماني القصير العمر. ونحن إذ نتناول هنا نشأته ونشاطاته وأفكاره بالتفصيل فسوف يتسنى لنا الاطلاع على عملية التحول الاجتماعي السياسي في فلسطين في تلك الفترة الحاسمة.

أما الزاوية الثانية التي تبرر ذلك فهي حالة المصادر التي تفتقر الى عرض نموذجي. إننا لا نجد في كتب التراجم الخاصة بالشرق العربي عموماً وسوريا وفلسطين خصوصاً إلا معطيات نزيرة عن ممثلي النخبة الفكرية والاجتماعية الفلسطينية في القرن التاسع عشر. ونحن لا نعرف عن هؤلاء حتى الآن إلا شواهد خطية قليلة تتناول نشأتهم ومركزهم

---

(٧٢٢) ظهر نص اقدم من هذا لهذا الفصل سنة ١٩٨٠ في مجلة Der Islam ومن دواعي السرور أن هذه المقالة ترجمت إلى اللغة العربية، واستفاد منها مؤرخ فلسطيني في بحث وضعه عن يوسف الخالدي في سلسلة «اعلام من فلسطين في القرن التاسع عشر» المنشورة في «الفجر الأردني»، انظر مناع.

(٧٢٣) Gutmann, 45؛ عوض، متصرفية القدس، (رسالة جامعية)، ٤٣؛ خلف، ٢١٢؛ حول تطور البلديات انظر بشكل عام: Ortayli, 163 ff. وحول القدس انظر: Kark, «The Jerusalem Municipality».

الاجتماعي ومعتقداتهم السياسية. أما فيما يتعلق بيوسف الخالدي فان البحث عن مادة أصلية عنه بوصفه أبرز عضو من أعضاء الفئة العليا في القدس في زمانه من الناحية السياسية قد أسفر عن العثور على نصين يتعلقان بالسياسة والسيرة الذاتية كتبهما بقلمه، وذلك الى جانب الوثائق العديدة المحفوظة في الأرشيفات الأوروبية (ومن بينها ملفه الشخصي في الأكاديمية الشرقية السابقة في فينا). و يستند العرض التالي إلى هذه المصادر التي لم يُستفد منها حتى الآن.

يوسف الخالدي هو سليل إحدى عائلتي الأعيان المقدسيتين العريقتين اللتين كانتا تتنازعان الجاه والنفوذ في القرن التاسع عشر، وهما عائلة الخالدي وعائلة الحسيني. وكانت عائلة الحسيني هي العائلة الأكبر والأغنى بين هاتين العائلتين، الا أن عائلة الخالدي قد عوضت عن ذلك، في رأي القنصل الألماني، بمزيد من وحدة الصف والذكاء[٧٢٤]. وترسخ نفوذ آل الخالدي في المدينة مؤسسياً في مركز باشكاتب المحكمة ونائب الشرع، وهو المركز الذي تولته العائلة باستمرار طيلة القرنين الثامن عشر والتاسع عشر[٧٢٥]. وقد تولى أبو يوسف، محمد الخالدي، هذه الوظيفة طوال ستة عقود.

ولد يوسف أفندي سنة ١٨٤٢[٧٢٦]، وكان عمره حوالي ١٤ سنة عندما تُلي مرسوم الاصلاح العثماني لسنة ١٨٥٦ في القدس. ويجوز لنا أن نفترض أن فحوى هذا المرسوم قد نوقش على نحو مستفيض في بيت أبيه وأن قناعات يوسف اليافع الفلسفيّة والسياسية الآخذة في الاختمار قد تأثرت أيضاً بهذه المناقشات. وقد كتب في سيرته الذاتية بعد عقد ونصف من ذلك التاريخ يقول إنه عندما بلغ السابعة عشرة شرع في التفكير في أحوال الدنيا وكرامة الانسان، وأخذ يتأمل فيما ينبغي على كل إنسان أن يفعله حتى يمكن اعتباره انساناً حراً. وقد تولدت عنده في الوقت ذاته فكرة مؤداها أن الأوروبيين يحيطون بالشرق من جميع الجهات وأنهم يسلبون كنوزه الروحية كما يسلبون كنوزه المادية. ورأى أن سبب هذا الوضع هو تخلف الشرقيين في المعارف، أو تفوق الأوروبيين فيها. إن الشرق ينقصه الفلاسفة والأطباء والمعلمون والمؤرخون المؤهلون. لقد دُرِّستُ أشياء كثيرة جداً لا طائل تحتها ولم

---

(٧٢٤) ISA-DKJ, A.111.9 (Jerusalem, 11.10.1879); أنظر ايضاً: زيدان، «فلسطين»، ٣٤٦.

(٧٢٥) حول اصل العائلة انظر الأسد، ٢٥-٣٤؛ وحول دورها في القرن الثامن عشر انظر الحسيني، تراجم، ١٠٣-١٠٨؛ قارن ايضاً: Little / Turgay, 47, 67–69.

(٧٢٦) نحن نتبع في وصف نشأته هنا سيرته الذاتية «صورة مسوّدة»، الا إذا اشير إلى مصادر أخرى. وهناك نتف تتعلق بترجمة حياته في الزركلي، ١٩٧٩، ٨/٢٣٥؛ ومجاهد، رقم ٩٤٣؛ والعارف، المفصل، ٢٩٧؛ والمواري، رقم ١٥٦١؛ والدباغ، بلادنا فلسطين، ١٠/٢، ٣٥٩-٣٦٢. ولن نشير هنا إلى مواطن الخطأ والبعد عن الدقة في هذه السير القصيرة.

تثمر سوى الزهو والخيلاء، ولم تراع مصلحة البلد ذي الشأن.

وأراد أن يسلك هو طريقاً آخر ورجا والده في البداية أن يرسله الى مدرسة مصرية، ولما شرح له أبوه أن ذلك يحتاج إلى دعوة من مصر، رغب الى أبيه أن يسمح له بالذهاب الى اوروبا. ورفض الأب هذه الرغبة. وانطلق يوسف على الأثر هو وقريبه حسين، هارباً من البيت. وشق الاثنان طريقهما الى مالطة، حيث تم قبولهما في الكلية البروتستانتية هناك بوساطة من المطران غوبات Gobat المطران الانجليكاني في القدس. [وكانت مالطة قد اختيرت كقاعدة لتبشير الشرق قبل تأسيس أول المعاهد البروتستانتية في «الأرض المقدسة» بزمن طويل[٧٢٧]. وبعد سنتين نجح أخو يوسف، ياسين، في أن يبعده عن مالطة ويأتي به الى القسطنطينية، حيث دخل المعهد الطبي السلطاني (والمدرسة المقصودة هنا هي بالطبع مدرسة الأطباء العسكريين المذكورة في المصادر الأدبية[٧٢٨]). لكن يوسف لم يكن مسروراً بهذا المعهد على الاطلاق؛ إذ لم يستطع أن يوفر له ما كان يصبو إليه. ولم يحقق أمنياته ولم يجد فيه «الخلاص» المنشود. ولذلك بدله بعد سنة واحدة والتحق بالمدرسة الأميركية في بيبك Bebek، وهي كلية روبرت التي أسست سنة ١٨٦٣[٧٢٩]. وبقي طالباً في هذا المعهد مدة سنة ونصف، ثم استدعاه موت والده الى القدس.

إن التعطُّش للعلم والمبادرة الذاتية قد ساقا الأفندي المقدسي الشاب إلى رحلة تعليمية لافتة للنظر. وربما كان اتصاله بأنصار التنظيمات وحماسته لمعاهد التعليم الجديدة «المفيدة» المتعددة الأشكال، التي تعرّف عليها في القسطنطينية، أهم في الواقع بالنسبة له من تأثره بالنفوذ التبشيري الانجليزي والأمريكي والفرنسي (والأخير في المعهد الطبي). وأراد أن ينشيء معاهد مماثلة في القدس أيضاً، ففي سنة ١٢٨٣ (١٨٦٦ / ٦٧) بدأ في الاعداد لتأسيس مدرسة رُشدية (مدرسة حكومية متوسطة) في مدينة آبائه وأجداده. وقد شكا في سيرته الذاتية من أنه لم يجد أي تأييد في البداية لهذا المشروع، فسافر إلى دمشق ليحصل من هناك [من الوالي ونصير الاصلاح المعروف راشد باشا بالذات] على أمر إلى متصرف القدس بتأسيس مدرسة كهذه. ثُمّ جمع يوسف أفندي من المسلمين وكذلك من المسيحيين مبلغ ١٢٠٠٠ قرش، وبهذا المبلغ قام بترميم إحدى المدارس القديمة. وعندما فتحت المدرسة أبوابها سنة ١٢٨٤ (١٨٦٧/٦٨) أصيب بخيبة أمل مريرة. فقد كان يأمل

---

(٧٢٧) قارن حجّار، Hajjar, L'Europe ، في مواضع كثيرة، والطيباوي Tibawi في مواضع كثيرة (وخاصة ص٨٧).

(٧٢٨) قارن: Lewis, The Emergence, 84f; Davison, 27, 44, 277.

(٧٢٩) Lewis, The Emergence, 122; Davison, 245.

أن يعين معلماً أو مديراً لهذه المدرسة، ولكنهم أحضروا تركياً من القسطنطينية. إلا أنه عين بدلاً من ذلك رئيساً لبلدية القدس التي جرى تجديدها، وهي البلدية التي بقي على رأسها (حسب المعلومات التي أوردها هو) ما مجموعُه تسع سنوات بعد ذلك. ومن بين المهمّات التي كرّس لها نفسه أثناء عمله في هذه الوظيفة، أثنى الخالدي بشكل خاص على تحسين طرق المدينة ومدّ خط ماء من برك سليمان إلى القدس*، وتعبيد أول طريق للعربات من يافا إلى القدس، وهو الطريق الذي تمّ تشغيله بالتعاون بينه وبين متصرف القدس، بل إنه تم تشغيل خط للعربات بين المدينتين على هذا الطريق بعد إنهائه بثلاثة أشهر. ولسوء الحظ فإن المتصرف نُحيّ بعدئذ، وأراد خلفه كامل باشا أن يعمل كل شيء ابتداءً بشكل يختلف اختلافاً أساسياً عن سلفه. ونشب خلاف بينه وبين المتصرف الجديد بشأن تسيير العربات هذا. فطلب منه أن يبيع العربات ودواب الجرّ، لأن كامل باشا اعتبر المشروع بدائياً للغاية. وبعد خلافات حادة بهذا الشأن عزل من منصبه، ولم يعد إليه بعد ستة أشهر، قضاها في التجوال بسوريا، وعند تعيين متصرف جديد.

وفي بداية ١٨٧٤ استدعى وزير الخارجية راشد باشا، المصلح ووالي دمشق السابق، يوسف أفندي إلى القسطنطينية ليعمل في ديوان الترجمة التابع للباب العالي[٧٣٠]. وتجلت بذلك مرة أخرى صلة آل الخالدي الوثيقة بالمصلح العثماني. [كان ياسين أخو يوسف من الدعائم التي استند إليها راشد، ثم مدحت في سوريا، وكان الخالديون كلهم معروفين بأنهم من أنصار حزب الإصلاح.][٧٣١]

وعمل يوسف أفندي في ديوان الترجمة ستة أشهر، ثم أرسل قنصلا عثمانياً (شاهبندر) إلى بوتي (Poti) على الساحل الروسي للبحر الأسود، حيث لم يستطع أن يبقى مرة أخرى سوى ستة أشهر. فبعد أن فقد راشد باشا منصبه كوزير للخارجية، أخرج يوسف أفندي من وظيفته، وحلّ محله، كما شكا هو بمرارة، أغا أميّ.

ولما كان يوسف الخالدي على أرض روسيا بطبيعة الحال فقد أراد أن يعرف هذه البلاد معرفة أوثق، فسافر عن طريق اوديسّا وكييف وموسكو إلى بطرسبرج، ومن هناك

(*) لعل المقصود اصلاح القناة الموجودة، والتي كانت تسمّى قناة السبيل. [المترجم].

(٧٣٠) حول اهمية هذه المؤسسة انظر: Davison, 28–30, 188f.

(٧٣١) قارن الخالدي، المقدمة، ١.

بشأن سياسة راشد باشا الاصلاحية في سوريا (١٨٦٦-١٨٧١) قارن:

Schafkowski – Schicher, «The Hauran Conflicts», 172–175.

وحول سياسة مدحت باشا في سوريا (١٨٧٨-١٨٨٠) قارن:

Shamir, «The Modernization of Syria», Shamir, «Midhat Pasha»; Saliba.

وصل أخيراً في كانون الثّاني ١٨٧٥ إلى فينا حيث أصبح راشد باشا في هذه الأثناء سفيراً للدولة العثمانية. و بواسطته عرضت على يوسف أفندي وظيفة في الأكاديمية الشرقية، التي كانت تبحث في ذلك الوقت بالذات عن معيد مشارك ومحدّث للغة العربية، وعن آخر «للغة العامية العثمانية الدقيقة»[٧٣٢]. واضطلع يوسف بالمهمّتين مؤقتاً مقابل السكن المجاني والأكل وراتب شهري قدره ٩٠ فلورين. ولم يكن يريد أن يضطلع بالتزام نهائي وطويل الأمد، إلا بعد أن يقوم بتسوية بعض المسائل العائلية في بلده. ولهذا السبب سافر إلى القدس في شهر آب ١٨٧٥[٧٣٣]. وتأخرت عودته المأمولة إلى فينا بعض الوقت، ولكنه في صيف ١٨٧٦ أعلن استعداده لتسلّم الوظيفة مرة أخرى، مع أنه مارس في هذه الأثناء مجدداً منصبه السابق كـ «رئيس بلدية». (و بهذه المناسبة طلب زيادة راتبه في المستقبل الى ١٠٠ فلورين، وكانت إدارة الأكاديمية على استعداد للاستجابة). ومع ذلك فان مقر عمل يوسف أفندي التالي كان على أية حال القسطنطينية.

إن مجلس الادارة في القدس عينه في بداية ١٨٧٧ ممثلاً للمتصرفية في مجلس النواب (المبعوثان) العثماني، الذي دُعي إلى الانعقاد في القسطنطينية. وكان الباب العالي قد أصدر مرسوماً مؤقتاً خاصاً بالانتخابات ينصُّ على أن تتولى المجالس الادارية المحلية إرسال المبعوثين لأنه لم يكن قد صَدَرَ بعد قانون لتنظيم الانتخابات العامة[٧٣٤]. وبما أنَّ هذه الهيئات انبثقت عن انتخابات عامة فان إرسال المبعوثين على هذا الوجه كان يعدل في قيمته، كما قيل تلطيفاً للأمور، الانتخابات المباشرة. وفي الدورة الثانية والأخيرة لمجلس المبعوثان، كان الانتخاب يتم أيضاً «بصورة غير مباشرة»، أي في المجالس الادارية للمتصرفية (في القدس و يافا والخليل وغزة). و بقي يوسف أفندي، الذي رشح عمر أفندي عبدالسلام الحسيني نفسه ضده، نائباً. وحصل في القدس على ثمانية أصوات من أربعة عشر صوتاً، بما فيها صوت المتصرف[٧٣٥].

---

(٧٣٢) حول عمل يوسف أفندي في فينا انظر ملفه الشخصي في : HHSTA-AR, F8, Kart. 292.

(٧٣٣) انه لم يعزل ابداً من وظيفته كما زعم القنصل الألماني : AA. I.A.B 9. (Türkei) 108, Bd. 9 (Jerusalem, 25.1.1877). وبالعكس فقد كانوا يعلقون في فينا أملاً كبيراً على عودته.

(٧٣٤) Sublime Porte· **Instructions concernant le mode d'élection provisoire et pour un an des membres qui doivent composer l'Assemblée Nationale de l'Empire,** in: AA – I.A.B.q. (Tüi kei) 108, Bd 8, وايضاً في Aristarchi, V, 306–9

(٧٣٥) قارن بهذا الشأن تقارير القنصل الألماني من القدس من ١/٢٥ إلى ١٨٧٧/١١/٣٠ في : AA – I.A.B q. (Türkei) 108, Bd, 9,13. والوثيقة الثانية هي نسخة عملت فيها بعد وأرخت خطأً في، سنة ١٨٧٨. وفي سنة ١٨٧٧ كان الخالديون يتمتعون بالحظوة التامة لدى المتصرف؛ وبلغ الامر في الجهة المعاكسة حد إلقاء احد الحسينيين في السجن، ثم اطلق سراحه ثانية بعد وساطة القنصل البريطاني وغيره:
PRO-F.O 78, vol 2615 (Jerusalem, 14 4 1877).

وأثبت مبعوث القدس في القسطنطينية أنه دستوري ملتزم وعثماني مخلص، واتجهت حملاته الرئيسية كنائب[٧٣٦]، منذ الجلسة الأولى التي عقدها المجلس، ضد انتهاك السلطان للدستور الفتيّ. وكان على اقتناع واضح بأن مؤسسة كهذه لن يكون لها معنى إلا إذا احترمت جميع قراراتها احتراماً دقيقاً، ودون أي قيد. ونظراً للدور الشجاع الذي قام به وصف بأنه أحد قادة المعارضة في المجلس، بل إن السلطات اعتبرته واحداً من «أخطر» أربعة أعضاء في المجلس. وعندما حل السلطان المجلس في ١٤ شباط سنة ١٨٧٨ بعد أن لم يعد يطيق انتقاداته كان يوسف الخالدي من بين النواب العشرة الذين صدر الأمر بابعادهم فوراً من القسطنطينية. وفي ٤ آذار وصل إلى يافا[٧٣٧].

ولا بدّ أن نؤكد هنا أن انتقادات يوسف في المجلس كانت موجّهةً ضد التعسُّف الاداريّ والفساد وضد إجراءات السلطات المخالفة للدستور فحسب. إنما لم تكن بصورة ما انتقادات وجهها ممثل ولاية عربية ضد الحكم العثماني، فقد كان يَعُدُّ نفسه عثمانياً تماماً بالمعنى الذي ورد في القانون الصادر سنة ١٨٦٩ بشأن الجنسية العثمانية. ويظهر هذا بوضوح في رسالة طويلة بعث بها إلى المستشرق فارموند Wahrmund[٧٣٩] قبل شهر واحد من حل مجلس المبعوثان، وكتبها تحت الظل الكئيب للزحف الروسي الذي وصل إلى جوار القسطنطينية. وقال في رسالته هذه إن «وطني القدس الشريف» ولكن «الملة» التي كان ينتمي إليها هي العثمانية، و«بلادنا وديارنا ودولتنا» هي الدولة العثمانية. ووصف الدولة بأسرها بأنها «الوطن»[٧٤٠].

لقد كان يوسف أفندي يرى أن هذه الدولة، التي كانت سلامة أراضيها عزيزة على قلبه، مهددة من الخارج وعرضةً للتحدي من الداخل. واذ لم تتحقق الآمال التي عقدت بالدرجة الأولى على المساعدة الإنجليزية في أثناء الاشتباكات الحربية التي انتهت للتوّ فقد أصبح الأمر يقتضي، كما قال، قيام تحالف فوري مع انجلترا والنمسا، حتى يكون

---

(٧٣٦) حول نشاطه هناك انظر:
Devereux, 148, 156f., 166f , 182, 199, 209. 204, 241–243, 247f. 267.

(٧٣٧) ISA-DKJ, A. XXXIX. 4 (Jaffa, 1.4.1878).

(٧٣٨) نص القانون في Testa, VII, 426f.,
قارن ايضاً المصدر نفسه: ٥٣٢-٥٣٤ و٥٤٢-٥٤٥, وكذلك
Young, II. 223–229, Davison, 243, 262f.

(٧٣٩) وهو مطبوع في: Wahrmund, I. 180–183.

(٧٤٠) وعندما يتحدث ايضاً عن العلاقات الودية بين «القومين» في صدد الحديث عن قاموس عربي ألماني وضعه فارموند Wahrmund، فهو يعني بالطبع الشعبين العربي والألماني.

في المستطاع درء هجمة «البرابرة من الشمال». لكن الانهيار التام سيتهدد الدولة أيضاً إذا لم يوضع حد لعملية تفتيت «الملة» (الأمة) التي يُحرِّض عليها من الخارج، خاصة من روسيا في جميع أنحاء الدولة، وفي سوريا ومصر أيضاً.

إن التوطيد الناجح لأركان الدولة يتطلب قبل كل شيء إحياء ثقافياً، وايجاد فلسفة سياسية جديدة. لقد آن الأوان الآن لأن تترك الدولة قرون الجاهلية نهائياً وراء ظهرها وأن تصعد قدماً على عتبات العلم والحرية الشخصية، وهي أساس كل سعادة. وإنه لفرض عين على كل رجل دولة أن يَسعى إلى التفوق بامتلاك ناصية العلوم المفيدة وأن يطلع اطلاعاً وثيقاً على أحوال الدول الأخرى وأن تتملكه عن وطنية ووعي بالواجب الأفكار البسماركية[٧٤١]. عند ذلك نستأنف السير إلى الأمام.

وليست هناك إشارة تدل على أن يوسف أفندي تحول بصورة أساسية عن الاخلاص الذي عرف به حتى الآن للدولة بعد حل مجلس المبعوثان وابعاده من القسطنطينية. ولكن لفت نظره حقاً أن خمسة من عشرة من النواب المبعدين جاءوا من سوريا (واحد، هو نفسه، من القدس واثنان من بيروت واثنان من حلب[٧٤٢]). إلا أنَّه على أية حال شكا من الغدر الذي تعرضت له سياسة الاصلاح التي يؤيدها. وكان له هو وعائلته أن يقاسوا وشيكاً من آثار الاتجاه السياسي الجديد.

بعد عودته إلى القدس استأنف يوسف الخالدي في بداية الأمر عمله كرئيس للبلدية بل إن المتصرف رؤوف باشا أرسله في تشرين الأول ١٨٧٨ على رأس أربعين خيالا إلى الكرك، للعمل على إحلال النظام هناك[٧٤٣]. بيد أن سلطة آل الخالدي وآل الحسيني في المدينة كانت شوكة في عين المتصرف. وبناءً على التقارير المفصلة للقنصل الألماني فإن المتصرف رجا القسطنطينية، منذ وقت طويل بالفعل، أن تسمح له بوضع حدٍ لـ (حكم

---

(٧٤١) نجد مثالاً آخر على سمعة بسمارك في الشرق، كرجل دولة مستنير، في مذكرة، إن كانت صحيحة، بعث بها مدحت باشا إلى بسمارك في بداية ١٨٧٧، وطلب فيها تأييده ضد روسيا ـ (Denkschrift Midhaf Paschas an Fürst Bismarck) (مذكره مدحت باشا إلى الأمير بسمارك) ـ وفق النص الفرنسي الذي نشره البارون دركينك هولمزفيلد « C. Dircklnck – Holmsfeld » في هامبورج ١٨٧٧ ، وهو يردُ في : A.A. – I.A.B.q. (Türkei) 108, Bd 9

(٧٤٢) Devereux, 248. (الحاشية، ٢٥) وربما امدّت هذه الحقيقة حركة الاستقلال أو الحكم الذاتي التي قام بها الوجهاء السوريون سنة ١٨٧٧ / ٧٨، بحافز جديد، وهم الذين عقدوا مؤتمرهم في دمشق بالفعل بعد هذا الإبعاد، والذين كانوا على اتصال بنائب سابق واحد (حسين بيهُم) على الأقل. أنظر:
Steppat, «Eine Bewegung unter den Notabeln Syriens»

(٧٤٣) PRO-F.O. 78, vol. 2849 (Jerusalen, 28.10.1878); . وهذه، فيما زعم، هي المرة الأولى التي دخلت فيها قوة مقاتلة تركية إلى الكرك.

الارستقراط». وواتت الفرصة في خريف سنة ١٨٧٩[٧٤٤]، عند قيام النظام الجديد و«الانتخاب الجديد» لهيئات المحاكم والادارة المحلية. واذ فوض الباب العالي المتصرف تفويضاً مشدداً بأن يملأ مجالس القدس بالأعضاء الذين يشاؤهم هو وبالصورة التي تروقه أقدم على عزل جميع الخالديين وبعض الأعضاء ذوي النفوذ من عائلة الحسيني من وظائفهم، متهماً إياهم بعدم الولاء وإهمال الواجب والفساد، بل إنه أمر بتدقيق النظر في حقوقهم ببعض الأراضي.

ونسيت العائلتان عقب ذلك خلافاتهما ردحاً من الزمن. وبمبادرة من آل الحسيني اجتمعتا في ٩ تشرين الأول ١٨٧٩ من أجل عقد حلف بينهما بهدف صد هذا الهجوم الوجاهي على مواقعهما في المدينة. وتظلمت العائلتان في عدة برقيات إلى الباب العالي (في ٩ و١٠ و١١ تشرين الأول) من التصرف المخالف للقانون للمتصرف وطالبتا بعزله. واتبعتا ذلك بعريضة بذات المعنى، زُعم أنها حملت تواقيع ٨٠٠٠ من أنصارهما. وتظلمتا أخيراً لدى القناصل الأوروبيين أيضاً، أملا في تأييدهم.

وقامت القدس وقعدت واعطي لقرار المتصرف بُعدٌ سياسي يتجاوز المسائل الشخصية. وبناء على تقرير القنصل الفرنسي فان التواقيع جمعت بحجة أن تصرف رؤوف باشا يحمل بوضوح طابعاً معادياً للعرب. والعرب، وفي مقدمتهم العائلتان المتضررتان، أحفاد الرسول، باتوا يطردون من وظائفهم ليحل محلهم موظفون أتراك. وسوف يكمل هؤلاء بعدئذٍ خراب البلاد، هؤلاء الذين تسببوا في التضحيات المادية والبشرية الكبيرة التي طولبت فلسطين بتقديمها في أثناء الحرب ضد روسيا. وقال يوسف الخالدي في رسالته إلى فارموند إن من بين ١٠٠٠٠٠ قتيل سقطوا في الحرب كان هناك أكثر من ٥٠٠٠٠ من العرب، وفقدت فلسطين والبلقاء وحدها أكثر من ١٠٠٠٠ شخص.

ولا شك في أن حججاً كهذه لقيت آذاناً صاغية. وقال القناصل الأوروبيون مراراً وتكراراً، في تقاريرهم، كما يفعل القنصل الألماني الآن، إن الحكم التركي في فلسطين «لا هو بالمحترم ولا هو بالمحبوب». إن الأتراك اعتبروا غاصبين، وما زال الأهلون يترحّمون حتى الآن على الحكم المصري، الذي يتمثل في ذاكرتهم خطأ بأنه حكم عربي

(٧٤٤) إن وصف هذه الاحداث يستند إلى التقارير القنصلية التالية:

ISA-DKJ, A.III.9. (Jerusalem, 11.13., 25.10.1879); MAE-COC Jér., t. 14 (Jerusalem, 19.11.1879);

وقد ارسلت نسخة من كل منها إلى باريس والأخرى إلى السفارة في القسطنطينية؛

PRO-F.O 78, vol 2992 (Jerusalem, 26.11.1879).

وليس حكماً تركياً. غير أن غياب وحدة الصف، وكذلك الافتقار إلى شخصية قيادية من طراز الماروني يوسف كرم[٧٤٥]، حالا دون قيام حركة مقاومة تخلق صعوبات جدية أمام الحكم العثماني.

وفي واقع الأمر هدأت الأحوال في القدس بسرعة بعد أن تبين أن آل الخالدي قبل سواهم هم الذين كانوا مقصودين بالضرر. فآل الحسيني ظلوا بعد هذه التغييرات في الوظائف ممثلين في المجلس الاداري. وبقي طاهر الحسيني مفتياً بل إن عمر، المنافس السابق ليوسف الخالدي على منصب النيابة في مجلس المبعوثان، عُيّن خلفاً ليوسف أفندي في منصب رئيس البلدية. ووقّع الحسينيون الذين بقوا في الوظائف كذلك على عريضة ثقة نظمها رؤوف باشا رداً على عريضة الاتهام التي وجهها له الأفندية!

ومع أنه من المحتمل أن هذا التصرف المتحيز على هذا النحو لم يخطر ببال رؤوف باشا في الأصل[٧٤٦]. فان كذبة التغيير الفجائي قد تكشفت أخيراً عن كونها إجراء لمعاقبة آل الخالدي. وبما أن المتصرف كان يعمل بالاتفاق التام مع القسطنطينية فمن الجائز أن نفترض فعلاً بأنه عندما قام بتجريد آل الخالدي وحدهم من السلطة، وهم عائلة «زعيم المعارضة» في مجلس المبعوثان المنحل، كان حتى مدفوعاً إلى ذلك من القسطنطينية.

وفيما يتعلق بالقناصل فإن الممثلين الألماني والفرنسي على الأقل أيّدا المتصرف تمام التأييد، وصوّراه بأنه إداريٌ قدير ونشيط يكافح ضد محاباة «زمرة الأفندية» للأقارب. وقد أفهم الممثل الفرنسي مبعوثاً لآل الخالدي طلب منه التأييد بأن العائلة لا تستحق معاملة غير هذه[٧٤٧].

---

(٧٤٥) حول نشاطاته في تلك السنوات قارن: Steppat, «Eine Bewegung unter den Notabeln Syriens», 637–640.

(٧٤٦) Parath, «Social Aspects», 99....

(٧٤٧) إن ممثلي فرنسا في القدس لم يكونوا على اية حال يذكرون يوسف الخالدي بالخير. فحتى اثناء حرب ١٨٧٠ / ٧١ اتهم بموقفٍ موال للألمان ومعاد للفرنسين. وعندما فقد يوسف افندي منصب رئيس البلدية سنة ١٨٧٤ بصورة موقته (انظر اعلاه) ربط الفرنسيون هذا بموقفه المزعوم ضد الفرنسيين وضد اللاتين .(MAE-CPC Jér., t. 11 (Jerusalem, 7.8.1873

أما فيم تمثل هذا الموقف فغير معروف. وهناك على كل حال قرينة تتمثل في تقرير كريه للغاية نشرته مجلة Das Heilige Land، حول الدور الذي لعبه يوسف الخالدي بوصفه عضواً تنفيذياً في ادارة المتصرف كامل باشا في خلاف نشب بين السلطات وبين دير يتمتع بالحماية الفرنسية: HL, XIV (1870) 191–195 [تقرير في هذه المجلة بعنوان «البطولات المجيدة لصاحب السعادة باشا القدس»].

وغير معروف ايضاً كيف كان يظهر موقفه المزعوم الموالي للألمان. أننا لا نعرف سوى أن يوسف الخالدي قد انعم عليه بصليب الفارس لوسام فرانتس يوسف Ritterkreuz des Franz – Joseph – Ordens بمناسبة زيارة قيصر النمسا سنة ١٨٦٩ (HHSTA – Archiv Jer., n 16, Dossier Reise S.M. des Kaisers, 8. – 14.11 1869)، وسوى أنه ذكر أنهم اغفلوه لدى منح الاوسمة المعتاد بمناسبة زيارة ولي عهد بروسيا في السنة ذاتها. وقد منحه الجانب الألماني لاحقاً وبعد هذا التاريخ بخمس سنوات في شهر ايار ١٨٧٤، وسام التاج .Kronen – Orden من الدرجة الثانية، ولكن لم يَتَسنّ تسليمه اليه لأن يوسف افندي كان في هذه الاثناء في بولي Poti حيث عين قنصلاً =

ويبدو أن هذه الضربة قد أودت إلى حين بالتفوق السياسي الاداري الطويل لعائلة الخالدي في القدس. ومن بين ستة عشر رئيس بلدية تعاقبوا على القدس بين سنتي ١٨٧٧ و١٩١٤، كان هناك ستة من آل الحسيني وأربعة من آل العلمي واثنان من آل الداودي واثنان فقط من آل الخالدي[٧٤٨]، هما يوسف أفندي لغاية سنة ١٨٧٩ وأخوه ياسين في نهاية التسعينات، ولكن لوقت قصير بين فترتي تولية لأحد الحسينيين[٧٤٩].

إلا أن يوسف الخالدي بقي موظفاً عند العثمانيين. فنحن نصادفه سنة ١٨٨١ قائمقاماً في يافا[٧٥٠]، وفي نهاية الثمانينات حاكماً لمقاطعة كردية في ولاية بتليس[٧٥١]. وفي التسعينات قائمقاما في حاصبيا وفي جبل الدروز[٧٥٢]. بيد أنه لم يلعب خالدي آخر دوراً مهمًّا مرة أخرى كدور يوسف الخالدي على المسرح السياسي في فلسطين إلا عندما انتخب روحي الخالدي (١٨٦٤ ـ ١٩١٣)[٧٥٣] في البرلمان العثماني الجديد. وكان يوسف الخالدي حينذاك قد توفي (١٩٠٦). وآخر تصرف سياسي عرف عنه، وكان بمثابة نبوءة، هو رسالة كتبها إلى الحاخام الأكبر الفرنسي، وصديق هرتسل، زادوك كان Zadok Kahn في ربيع عام ١٨٩٩. وأعرب يوسف الخالدي في هذه الرسالة عن خوفه من أن تعرض الحركة الصهيونية التعايش السلمي بين المسلمين والمسيحيين واليهود للخطر وناشد الصهيونيين انطلاقاً من «الواجب المقدس الذي يمليه الضمير» و«بسم الله» أن يتركوا فلسطين في سلام[٧٥٤]. وقد حولت هذه الرسالة إلى هرتسل الذي أجابه عليها من فينا في ١٨٩٩/٣/١٩. وأكد هرتسل في رسالته الفائدة الكبرى التي ستعود على الدولة العثمانية عموماً وعلى «السكان غير اليهود في فلسطين» بشكل خاص من الهجرة اليهودية إلى فلسطين. وأعرب عن أمله في أن يتفهم السلطان ذلك. ثم أضاف قائلا بلهجة التهديد: «واذا لم يقبل ذلك فاننا سوف نبحث عما نبتغي، واعتقد أننا سنجده، في مكان آخر».

= أنظر.

ISA-DKJ, A.XXIV. 4 (Hannover, 28.9 1871, Pera, 7.5 1874, Jerusalem, 30.5.1874)

(٧٤٨) Gutmann, 53. قارن ايضاً الدباغ، بلادنا فلسطين ١٠/٢، ٢٠١.

(٧٤٩) Abu Manneh, «The Rise of the Sanjak of Jerusalem», 32 (الحاشية رقم ٤٧).

(٧٥٠) MAE-CPC Jér., t. 14 (Jerusalem, 17.11.1881); ISA–DKJ, A.XXXIX. 4. (Jaffa, 31.3.1881).

(٧٥١) الزركلي، ٨، ٢٣٥.

(٧٥٢) تلطفت بإعلامي ذلك لندا شاتكوفسكي ـ شلشر Linda Schatkowski – Schilcher (نقلاً عن الارشيف الانجليزي).

(٧٥٣) قارن حوله: الاسد، ٣٥ـ٤٦؛ الخالدي المقدمة ١ـ٥؛ مجاهد رقم ١٠٧١؛ العودات، ١٥٥ـ١٦٠؛ الحواري، رقم ٥٤٥؛ الدباغ، بلادنا فلسطين ١٠/٢، ٣٦٣ـ٣٦٩؛ محافظة، التيارات، ٣١٦.

(٧٥٤) انظر ماندل Mandel, 47–49. ويزعم خلف، ٢١٤، أن الخالدي كان اول عربي نبه في البرلمان العثماني إلى خطر الاغتصاب اليهودي. وقد خلط بين ذلك وبين الرسالة التي وجهها الخالدي إلى زادوك كان.

(٧٥٥) Herzl, 484–486.

لا شك في أن يوسف الخالدي كان هو وابن أخيه روحي الخالدي رأسيْن من أكبر الرؤوس الذين أنجبتهم القدس في القرن التاسع عشر علماً وألمعية واستنارة[٧٥٦]. إن ثقافته الأدبية واستاذيته في اللغة وقدراته العملية فيها قد نوّه بها بالاجماع كل ذوي النزاهة من معاصريه، والأبدع، إنه عمل في ديوان الترجمة التابع للباب العالي وفي أكاديمية فينا الشرقية. في فينا حقق الخالدي ديوان شعر*، وفي القسطنطينية أقام حلقة أو سوقاً أدبية. وكان من ثمرة عمله في ولاية بتليس أن ألّف قاموساً كردياً ـ عربياً**.

أما جوهر تفكيره ومعتقداته فلم يكن يحمل طابع عالم الدين المسلم بل الطابع الفلسفي الانساني. ومن الواضح أن تفلسف يوسف المستنير كان بعيداً عن النموذج الذي رسمه بعض الأوروبيين المعاصرين ـــ الذين كانوا يؤثرون الشكوى من «التعصب الاسلامي» المزعوم ـــ إلى حد لم يكن يبعث الارتياح في نفوسهم. فالقنصل الألماني بارون فون مونشتهاوزن Baron von Munchhausen، وهو أحد الممثلين المتعجرفين الذين ورد ذكرهم في lords of human kind[٧٥٧]، وصف يوسف أفندي بأنه «ثرثار سيء الصيت»[٧٥٨]، وشكا من «طرحه الخطابي المتواصل لمبادىء إنسانية نصف مفهومة»[٧٥٩]. أما الممثل الأمريكي في القسطنطينية فقد تحدث بالعكس قائلا إن يوسف أفندي هو «أفضل الخطباء وأقدر المناقشين في المجلس»[٧٦٠].

إن السؤال الأول بالنسبة ليوسف لم يكن: كيف يتسنى له أن يصبح مصلحاً ويبقى مسلماً صالحاً، أو ما يشبه ذلك، بل ما هو واجبه كانسان مثقف وحر ونزيه. إن أسوأ الذنوب هو الجهل، و يأتي بعد ذلك مباشرة تكديس المعارف التافهة التي لا طائل تحتها. وبلغ من تسامحه الديني أن بعض معاصريه تحدثوا حتى عن تغزّله بالديانة

---

(٧٥٦) انظر ايضاً سيرة حياة خليل الخالدي (١٨٦٦-١٩٤١) في الهواري، رقم ٤٧٧، وسيرة حياة راغب الخالدي (الذي ولد ١٨٦٦) في «الشخصيات»، ٤٠، ومحمد يوسف امين الخالدي (الذي ولد سنة ١٨٨١)، المصدر نفسه، ٤٤.

(*) ديوان لبيد بن ربيعة ـ طبع في فينا سنة ١٨٨١ ـ [المترجم]

(* *) «التحفة (أو الهدية) الحميدية في اللغة الكردية» طبع في استانبول سنة ١٣١٠هـ، بعنوان «الهدية» وفي سنة ١٩٠٣ بعنوان «التحفة». [المترجم].

(٧٥٧) تاليف كيربان (في ثبت المراجع) .Kieman . بيد أن على المرء أن يعترف للبارون فون مونشها وزن بلا حسد بنوع من الدهاء الدبلوماسي. فعندما خاطبه مدحت باشا والي دمشق، في رسالة مؤرخة في تشرين اول ١٨٧٩، باسم «المسيو شونها وزن»، رد عليه البارون فون مونشها وزن برسالة موجة إلى «رفعتلو دمشق باشا»!
(ISA-DKJ, A.XXII. 4)

(٧٥٨) ISA-DKJ, A. III.9. (Jerusalem, 11.10.1879).

(٧٥٩) AA-I.A.B.q., (Türkei) 108, Bd. 9 (Jerusalem, 25.1 1877).

(٧٦٠) Devereux, 267 (الحاشية، ٤٠).

المسيحية[٧٦١]، لكن هذا كان بعيداً عن الصواب، بلا شك. ويخطىء المرء إن هو صَوَّرَ يوسف الخالدي بأنه كان على وشك أن يتنصَّر. إن العقيدة الدينية لم تكن تعني عنده ببساطة خطّاً فاصلا داخل المجتمع الانساني، بأي شكل من الأشكال. وكان من رأي القنصل العام الأمريكي في القسطنطينية أن يوسف أفندي «كان لبرالياً كأحد الجمهوريين الفرنسيين تقريباً، سواء في السياسة أو في الدين»[٧٦٢]. وعندما كان نائباً سكن في دير للروم في العاصمة[٧٦٣]. ودعا أثناء مناقشة مجلس المبعوثان قضية تخفيض نفقات الدولة، إلى شطب رواتب أئمة المساجد لأنهم قادرون تماماً، كما قال، على تحصيل خبزهم بأيديهم[٧٦٤].

كان يوسف الخالدي بمثابة مصلح عثماني في الولاية. وسياسة التنظيمات ينبغي أن يكون لها في تصوره خمسة أهداف: (١) إنشاء نظام تعليمي يتخذ المؤسسات التعليمية الأوروبية مثالا له؛ (٢) القضاء على انعدام الفاعلية في الادارة وعلى التحكم الإداري؛ (٣) تحقيق التسامح الديني؛ (٤) ضمان الحقوق والحريات الدستورية؛ (٥) تحسين البنية التحتية. وبقي يوسف في محاولته تحقيق هذه الأهداف عثمانياً مخلصاً، وليس لدينا ما يشير إلى أن موقفه هذا قد تغير تغيراً أساسياً نوعاً ما بعد خيبة الأمل التي شهدتها نهاية السبعينات. إن الولاء للقسطنطينية لم يتزعزع بصورة جذرية لا في فلسطين ولا في غيرها إلا جرّاء سياسة التتريك بعد سنة ١٩٠٨[٧٦٥].

وعلى هذا فإن يوسف أفندي كان ممثلاً فلسطينياً لفترة التنظيمات، ولكنه لم يكن نموذجاً بشكل ما للنخبة الاجتماعية والفكرية في القدس ولا في فلسطين بالأحرى في وقته. لقد كان كفرد ممثلا غير عادي بمعنى الكلمة للفئة الاجتماعية التي نشأ منها. بيد أن نشأته وأعماله قد أظهرت أمرين بوضوح:

---

(٧٦١) وقعت عينا دوتي Doughty في فينا على «ساميَّيْن غربيين يلبسان قلنسوتين حمراوين (ربما المقصود طربوشين - المترجم) في الاماكن العامة». وعلم دوتي من المستشرق فون كريمر أن احدهما تاجر من البصرة والثاني يوسف الخالدي. وكتب عن الأخير يقول: «كان مسلماً متعلماً ومعلم مدرسة يتباهى بحسبه ونسبه، وقد اعتنق بعض الاحيان؟ [هناك خطأ ما هنا في الأصل] المسيحية في القدس - [بكلمات Doughty بالانجليزية:

[«who has some-turns (sic) made profession of Christianity».

وكان يعرف نتفاً من اللغات الاوروبية .Doughty, 448 .

(٧٦٢) Devereux, 267 (الحاشية ٤٠)

(٧٦٣) ربما سكن هناك مجاناً. ويروى العارف (المفصل، ٢٧٤) أنَّ والد يوسف، محمد علي الذي كان آنذاك نائباً للشرع في القدس، حال دون تنفيذ فرمان السلطان بقتل رهبان دير الروم، أثناء كفاح اليونان من أجل الاستقلال، بعد اتهام الرهبان بالتواطؤ مع الثوار. ولم ينس الروم لآل الخالدي هذا الصنيع ابداً. وما تزال صورة زيتية لمحمد على الخالدي معلقة في بهو الدير الكبير إلى يومنا هذا. قارن بهذا الشأن ايضاً: Spyridon, 66-73 .

(٧٦٤) Devereux, 204, 367 (الحاشية رقم ٤٠).

(٧٦٥) انظر ايضاً الحاشية ٧٢١، و«Shamir, «Midhar Pasha

إنها بينت من جهة أن سياسة الاصلاح والتجديد في الستينات والسبعينات من القرن التاسع عشر صادفت تربة خصبة لدى أفراد من الفئة الاسلامية العليا في فلسطين، مثل آل الخالدي. بل إن يوسف أفندي حاول تنفيذ هذه السياسة بحماسة أكبر من تلك التي أبداها بعض الإصلاحيين العثمانيين. ولو أنه قدّر لسياسة التنظيمات أن تستمر وتعمم لكان من الممكن أن تؤدي بذلك دوراً تقدمياً دامجاً بالنسبة لتماسك الدولة ووحدتها. لكن عبدالحميد لجأ بدلا من ذلك منذ سنة ١٨٧٨ إلى أعمال القمع والجامعة الاسلامية. واذا كان الحسينيون المحافظون قد أصبحت لهم اليد العليا في القدس بعد الخالديين فان ذلك كان يتفق تمام الاتفاق مع تبدل الاتجاه السياسي في القسطنطينية[٧٦٦]. ولكن دور يوسف أفندي يوثّق في الاطار الفلسطيني أمراً آخر كذلك ألا وهو صعود القدس، بل صعود النخبة في المدن الفلسطينية على الإطلاق، والسقوط المرافق له لمراكز القوة في الريف. ومنذ منتصف الستينات لم يعد شيوخ عرابة وصانور وقرية العنب ودورة في أنحاء الجبال الفلسطينية الشمالية والوسطى والجنوبية هم الذين يقررون الأحداث المحلية، و يستأثرون وحدهم باهتمام المراقبين الأوروبين. في السبعينات حل محلهم فيمن حل رئيس بلدية القدس ونائبها في البرلمان، العلاّمة الملتزم بأفكار التنظيمات، ورجل السياسة والادارة.

(٧٦٦) قارن Abu Mannah, «The Rise of the Sanjak of Jerusalem», 27f.

زيادة فعالية الإدارة العثمانية
الضرائب والجند

كانت الاصلاحات العثمانية تتحرك في فترة التنظيمات أيضاً، بالقدر الذي كانت تتسع فيه دائرتها على الإطلاق، على الأصعدة الادارية والمالية والعسكرية. فقد انبثقت عنها من جهة الظروف الاطارية التي أسهمت في فلسطين أيضاً في تحسين الأمن العام وتوسيع إمكانات الاتصالات والازدهار الاقتصادي، غير أنه لم تكن هناك بعدُ، من جهة أخرى، في الفترة التي ندرسها، سياسة حقيقية بشأن البنية التحتية أو الاقتصاد أو الشؤون الاجتماعية أو التعليم. إن إنشاء نظام للمدارس تابع للدولة لم يبدأ إلا في نهاية فترتنا هذه، أي أنه لم يبدأ إلا في ذلك الوقت في مدن أخرى غير القدس أيضاً ظهور مدارس حكومية متوسطة (رشدية) إلى جانب المدارس الدينية القديمة ومعاهد التعليم الأوروبية (التي كانت تعود بكثرتها الساحقة إلى أصل تبشيري). ونظراً للضائقة العسكرية التي كانت تعانيها الدولة بل للعوز الذي كان يتهدد كيانها والذي أدّى والمشكلات المالية المرتبطة به ارتباطاً وثيقاً، إلى إفلاس الدولة سنة ١٨٧٥[٧٦٧] فان اهتمام العثمانيين بالولايات السورية، ومن جملتها فلسطين، تركز في المقام الأول في زيادة الفعالية المالية والعسكرية للدولة، وفي تحسين نظامَي الضرائب والتجنيد. إن عبء الضرائب والفرائض والرسوم والغرامات، العادية منها وغير العادية، كان يزداد وطأة باستمرار، كما كان التجنيد يزداد فعالية وكثافةً. وهذا الاستنزاف للموارد المالية والبشرية لم يكن يقابله في نظر السكان، وبصورة موضوعية أيضاً، مقابل يتناسب معه. وكل ما كان يراه الناس هو أن ما يجنونه بكدّ أيديهم كان يختفي في جيوب الملتزمين أو محصلي الضرائب الجشعين وموظفي الولايات الفاسدين أو في خزينة الدولة في القسطنطينية التي كانت تشبه جرة بنات داناوس*. ولم يكن في وسع الناس أن يتبنوا الحروب التي كان يخوضها السلطان في أماكن نائية إلا إلى حد محدود. ففي أثناء حرب القرم تحدث فن مع فلاح عجوز، فقال له هذا وهو يريه ثيابه الرقيقة المهترئة: «انظر إلى فقري. إن هذا سببه الحكومة العثمانية التي أخذت كل أموالنا لكي تواصل حروبها، لا حروبنا، بينما هي لا تفعل شيئاً لحمايتنا من البدو المتوحشين!»[٧٦٨].

---

(٧٦٧) قارن: .Schölch, «Wirtschaftliche Durchdringung».

(★) ويسمين الدانايدن Danaiden. وداناوس Danaus في الاسطورة اليونانية كان أباً لخمسين بنتاً زوجهن رغماً عنهن لابناء اخيه الخمسين، فقتلن ازواجهن في ليلة الزفاف، ثم حكم عليهن بأن يغترفن الماء في العالم السفلي بجرار مثقوبة. [المترجم].

(٧٦٨) .Finn, Stirring Times, II, 24.

ولم يكن لسياسة الضرائب العثمانية في فلسطين، ومن ضمنها التلاعبات المالية والنقدية، أيُّ خصائص بارزة تميزها عن سياستها في أرجاء الدولة الأخرى، فلا داعي إذن للإفاضة في الحديث عنها هنا[٧٦٩]. ولا يتعلق الأمر فيما يلي إلا بتجميع المعطيات الاحصائية المتوافرة عن فلسطين (الجداول ٤٤ ــ ٤٩). ولا داعي لأن نعود فنؤكد أن هذه الأرقام على انفراد يجب أن تؤخذ بحذر، ولكنها تسمح بلا شك باستخلاص بعض النتائج العامة. وينبغي أن يكون واضحاً في هذا الصدد أن المعطيات المتعلقة بالايرادات لا تمثل إلا جزءاً من الأموال التي كان يتم ابتزازها فعلاً من الأهلين. فقد كتب بيرجهايم على سبيل المثال يقول: «استطيع أن أقول باطمئنان من المشاهدات الدقيقة التي قمت بها في عشر سنوات تقريباً من العمل بالزراعة في سهول شارون (سارونا) قرب الرملة إن المبالغ التي يجمعها العشَّار (الملتزم بجمع الأعشار) نادراً ما تعادل أو هي لا تعادل مطلقاً، أقل من ثلث المحصول بكامله. وذلك بدلاً من العشر القانوني، أي أنها تبلغ ٣٣٪ بدلاً من ١٠٪[٧٧٠]».

(٧٦٩) حول نظام الضرائب في الدولة العثمانية بصورة عامة قارن:

Engelhardt, II, 45–56; Young, V, passim; Schulman, 93–129; Shaw, «The Nineteenth–Century Ottoman Tax Reforms and Revenue System».

وفي سوريا بصورة عامة قارن:

PP–1872, vol. LVIII (Beirut, March 1872); PP–1875, vol. LXXV (Damascus, 31.12.1874); PP–1877, vol. LXXXI (Beirut, 11.7.1876); PP–1880, vol. LXXIV (Damascus, 19.3.1880); PP–1881, vol XC (Damascus, 14.3 1881);

كرد علي، ٥، ٨٨ - ١٠٠؛

Shamir, «The Modernization of Syria», 363–367.

وتنعكس صورة الممارسة الضريبيَّة اليومية في فلسطين في: ISA-DKJ، مجموعة الملفات: A.XXII (في كل منها ملف خاص لكل من الضرائب والرسوم والضرائب المختلفة)، A.XXIII 2, (الملتزمون ومحصلو الضرائب في لواء يافا) A.XXXVI., (تظلمات الضرائب من الرعايا الألمان وضدهم).

وانظر بالإضافة إلى ذلك:

Deutsches Handelsarchiv, 1883, II, 417 f; Bauer, Volksleben, 186–192; Auhagen, 32f;

العارف، المفصّل، ٣٣٠ - ٣٣٣.

(٧٧٠) Bergheim, 198

انظر ايضاً: Oliphant, The Land of Gilead, 320

وكذلك PP – 1877, vol. LXXXI (Beirut, 11.7.1876)

وحول استغلال الفلاحين الفلسطينيين من جانب ملتزمي الضرائب ومحصّليها قارن:

Thomson, The Land and the Book, 320f. 334; PRO–F.O. 195, vol. 272 (Haifa, 5.12.1862); HL, XVI (1872), 44–47; PRO–F.O. 195, vol. 1202 (Akka, 12.9.1878); Schick, «Landwirthschaftliche Verhältnisse», 98–100; Oliphant, The Land of Gilead, 319f.; «Klein, Mittheilungen 1881» 77f.; Smith, 222–230; Post, 106f.; Bergheim, 197–199; Dalman, 165–169.

الجدول ٤٤
الايرادات في لوائي عكا والبلقاء بالقروش
وفقاً لسالنامة الولاية للسنوات ١٢٨٣ ـ ١٣٠١هـ

السالنامة (أ)	اللواء	الاعشار	ضريبة الارض والمباني	ضريبة المواشي (جـ)	ضريبة الاعفاء من الجندية	ضرائب اخرى	المجمــوع
١٢٨٣	عكا	٥٤٥٦٧٧٢	١٩٠٦٥٣٣	٣٧١٣١٣	١٥٩١٥٠	٦٤٢٤١٠	٨٥٣٦١١٧٨
	البلقاء	٣٦٠٨٩١٧	١٧٣٨٤١٨	٥٤٩٨٣٢	٢٦٨٠٥	٥٥٣٥٢٩	٦٤٧٧٥٠١
١٢٨٨	عكا	٣٦٦٤٠٨١	١٦٨٦٣٠٦		١٥٨١١٤	٩٣٤٢٧٤	٦٤٤٢٧٧٥
	البلقاء	٣٦٣٧٢١٨	٢٤٥٦٦٧٢		٣٤٣١٣	٨٦٤١٠٠	٦٩٩٢٣٠٣
١٢٨٩	عكا						
	البلقاء	٣٦٣٧٢١٨	٢٤٥٦٦٧٢		٣٤٣١٣	٧٨٩٧٨٩	٦٩١٧٩٩٢
١٢٩٣(ب)	عكا	٥٤٥٦٧٧٢	١٩٠٧٥٣٣	٣٧١٣١٣	١٥٩١٥٠	٦٤٢٤١٠	٨٥٣٦١١٧٨
	البلقاء	٣٦٠٨٩١٧	١٧٣٨٤١٨	٥٤٩٨٣٢	٢٦٨٠٥	٥٥٣٥٢٩	٦٤٧٧٥٠١
١٢٩٤	عكا	٤٦١٢٩٣٨	٢٠٣٨٢٤٧	٤٥٦٨٧٧	١٥٩١٨٥	٥٤٧٦٤١	٧٨١٤٨٨٨
	البلقاء	٣٤٤٣٧٥١	١٨٠٧١١٥	٥٦٨٧٨٧	٥٠٨٠٥	٢٤٧١٧٦	٦١١٧٦٣٤
١٢٩٥	عكا	٦٥٥٧٠٤٦	١٧٨٢١٨٠	٤٧٦٣١٦	١٢٣١٣٠	٥٦٣٩٧٠	٩٥٠٢٦٤٢
	البلقاء	٣٦٦٥٨٦٥	١٧٧٤٨٨٥	٥٧٦٥٧٢	٥٠٨٠٥	١٥٥٤٠٠	٦٢٢٣٥٢٧
١٢٩٦	عكا	٩٩٩٤١٥٠	١٩٧٨٦٤٥	٤٦٥٧٩٩	١٧٩٥٢٠	٦٨٩٤٩٥	١٣٣٠٧٦٠٩
	البلقاء	٧٥٧٠٠٠٠	١٧٩٠٩٦٥	٥٠٣٧٩٧	٥١٩٦٣	١١٧١٥٠	١٠٠٣٣٨٧٥
١٢٩٧	عكا	٣٠٦٤٦٤٣	١٧٣٦٤٥٥	٣٩٨٧٩٤	١٨٠١٥٩	٤٧٢٩٩٠	٥٨٥٣٠٤١
	البلقاء	٣٧٢٣٩٧٥	٢٠٣٦٩٢٨	٧٤٣٢٦٣	٥٣٢٦٨	١٥٨٤٣٠	٦٧١٥٨٦٤
١٢٩٨	عكا	٣٨٠٢٠٠٠	١٨٣١٤٩٥	٤٢٤٣٧٤	١٧٦٩٠٨	١٩٢٦٠٠	٦٤٢٧٣٧٧
	البلقاء	٦٠٧٤٦١٧	٢١٥٥٢٧٥	٨٧٧١٢٥	٥٤٢٧٨	١٧٧٠٠٠	٩٣٣٨٢٩٥
١٢٩٩	عكا	٣٧٥٧٦١٧	١٨٢,١٢٨٧	٤٣٧٦٣٩	١٧٦١٥٦	٢٥٥٤٧٥	٦٤٤٨١٧٤
	البلقاء	٥١٠٠٧٩٨	٢١٤٠٢٥٧	٨٢٦٢٥٨	٥٤٢٧٨	٣٣٤١٤٥	٨٨٤٥٧٣٦
١٣٠٠	عكا	٤٨٧٧٨٥٩	١٦٩٦٧٩٦	٥٢٦٠٩٠	١٧٥٧٤٩	٢٧٨٨٧٨	٧٥٥٥٣٧٢
	البلقاء	٥٠٢٦٦٣١	٢٠٦٩٦٣٥	٩٠١٨١٣	٥٤٢٧٨	٢٣٠٠٠٠	٨٢٨٢٣٥٧
١٣٠١	عكا	٣٢٧٥٠٠٠	١٧٨٥٩٣٤	٥٦٢٨٧٧	١٧٥٧٢٥	١٢٤٩٢٥	٥٩٢٤٤٦١
	البلقاء	٤٤٠٩٢٧٣	٢٠٧٢٨٨٥	٩٤٢٩٢٦	٣٠٢٧٨	٦٠٠٠٠	٧٥١٥٣٦٢

(أ) المعطيات تتعلق كل مرة بالسنة المالية التي سبقت سنة السالنامة .

(ب) المعطيات لا تتطابق تماماً مع المعطيات الواردة في سالنامة سنة ١٢٨٣ !!

(جـ) الضرائب على الخرفان والغنم والماعز .

الجدول ٤٥
النفقات في لوائي عكا والبلقاء بالقروش
وفقاً لسالنامة الولاية للسنوات ١٢٨٨ ـ ١٣٠١هـ

السالنامة [أ]	اللواء	إدارة الداخلية	الادارة المالية	الادارة الشرعية	إدارة العدلية	شؤون التربية والتعليم	نفقات أخرى	المجموع
١٢٨٨	عكا	١٣٦٦١٨٧	٢٠٣٤٤٠	١٥٨٩٠٠			٨٤٥٥٦	١٨١٣٠٨٣
	البلقاء	١٦٣١٦١٤	٨٥٦٠٣	١١٢٨٠٠			٣٣٠٠٠	١٨٦٣٠١٧
١٢٨٩	عكا							
	البلقاء	٨٩٤٥٧٩	١٢٩٧٢٤	١٠٦٨٠٠				١١٣١١٠٣
١٢٩٧	عكا	٤٨٠٩١٤	٢٠٨٠٢٦	٦٦٤٠٢	٩٧٢٥٤	٢٢٨٦٠		٨٧٥٤٥٦
	البلقاء	٣٦٥٠٨٢	٢٠٧٨٥٦	٣٧٦٩٢	١٣٣٣٨	١٢٥٢٠		٦٣٦٤٨٨
١٢٩٨	عكا	٣٦٦٤٥٧	٢٤٢٢٠٧	٥٠٧٠٠	٨٦١٩٦	١٨٢٨٨		٧٦٣٨٤٨
	البلقاء	١٧٨٩٩٦	٢٤٥٣٤٧	٣٤٤٨٨	١٠٨٠٠	١٣٠٤٠		٤٨٢٦٧١
١٢٩٩	عكا	٣٧٧٤٦٨	١٧٠٤٨٨	٥٠٧٠٠	١٠٣٢١٢	٢٠٣٠٤	٤٣٣٦٦	٧٦٥٥٣٨
	البلقاء	١٧٦٥٤٨	١٦٩٨٨٠	٣٤٤٨٨	٩٧١١٦	١٣٠٤٠	٣٥٢٨	٤٩٤٦٠٠
١٣٠٠	عكا	٣٩٩٠٤٩	١٦٠٢٩٦	٥١٩٠٠	١٦٥١٨٠	٢٠٣٠٤	٣١٩٧٣	٨٢٨٧٠٢
	البلقاء	٢٠٩٩١٤	١٨٩٣٨٣	٤١٦٨٨	١٠٨٠٠٠	١٧٨٤٠	١٠٠٨	٥٦٧٨٣٣
١٣٠١	عكا	٤٢٨٩٧٢	١٥٨٨٣٥	٨٧٩٠٠	١٦٨٧٤٠	١٩٣٤٤	٣١٩٧٣	٨٩٥٧٥٤
	البلقاء	٢٢٧٩١٤	١٩٢٥٤٢	٥٩٦٨٨	١٠٩٩١٠	١٧٨٤٠	١٠٠٨	٦٠٨٩٠٢

(أ) المعطيات تتعلق كل مرة بالسنة المالية التي سبقت سنة السالنامة .

الجدول ٤٦
الايرادات والنفقات في لوائي عكا والبلقاء بالقروش
وفقاً لسالنامة الولاية للسنوات ١٢٨٣ - ١٣٠١هـ

السالنامة(أ)	عكا		البلقاء	
	الايرادات	النفقات	الايرادات	النفقات
١٢٨٣	٨٥٣٦١٧٨		٦٤٧٧٥٠١	
١٢٨٨	٦٤٤٢٧٧٥	١٨١٣٠٨٣	٦٩٩٢٣٠٣	١٨٦٣٠١٧
١٢٨٩			٦٩١٧٩٩٢	١١٣١١٠٣
١٢٩٣	٨٥٣٦١٧٨		٦٤٧٧٥٠١	
١٢٩٤	٧٨١٤٨٨٨		٦١١٧٦٣٤	
١٢٩٥	٩٥٠٢٦٤٢		٦٢٢٣٥٢٧	
١٢٩٦	١٣٣٠٧٦٠٩		١٠٠٣٣٨٧٥	
١٢٩٧	٥٨٥٣٠٤١	٨٧٥٤٥٦	٦٧١٥٨٦٤	٦٣٦٤٨٨
١٢٩٨	٦٤٢٧٣٧٧	٧٦٣٨٤٨	٩٣٣٨٢٩٥	٤٨٢٦٧١
١٢٩٩	٦٤٤٨١٧٤	٧٦٥٥٣٨	٨٤٨٥٧٣٦	٤٩٤٦٠٠
١٣٠٠	٧٥٥٥٣٧٢	٨٢٨٧٠٢	٢٨٢٣٥٧	٥٦٧٨٣٣
١٣٠١	٥٩٢٤٤٦١	٨٩٥٧٥٤	٧٥١٥٣٦٢	٦٠٨٩٠٢

(أ) المعطيات تتعلق كل مرة بالسنة المالية التي سبقت سنة السالنامة .

الجدول ٤٧
ميزانية سنجق / لواء / متصرفية القدس
١٨٤٠ ـ ١٨٨٢/ ٨٢ بالقروش

	الايرادات	النفقات
١٨٤٠[أ]	٤٩٨٥٠٦٧	٣٩٧٥٤٦٨
١٨٧٠/ ٧١[ب]	١٠٣١٦٧٧٤	٦٣٤٨٦٣٠
١٨٧٥/ ٧٦[جـ]	١٣٧٥٠٠٠٠	٢٣٢١٠٠٠
١٨٨٢/ ٨٣[د]	١١٨٦٧٧٦٥	

(أ) صبرى ١٠ ـ ١٣

(ب) سالنامة ولاية سورية لسنة ١٢٨٨

(جـ) PP−1877,vol. LXXXI (Beirut, 11.7.1876).

(د) Deutsches Handelsarchiv, 1883, II, 417 f.

الجدول ٤٨
ميزانية لواء القدس
وفقاً لسالنامة الولاية لسنة ١٢٨٨ (١٨٧١/ ٧٢) بالقروش

الايرادات		النفقات	
العشر	٣٦٢٧٥٠٠	إدارة الداخلية	٥١٢٦٣١٨
ضريبة الارض	٣٥٤٩١٥١	إدارة المالية	٦٥٤٩٦٤
ضريبة الاعفاء العسكري	١٤٢٥٦٤	الادارة الحقوقية	٢٠٩٦٨٠
متفرقات	٢٩٩٧٥٥٩	الاشغال العامة	١٩٩٢٦٨
		التجارة	١٤٤٩٠٨
		شؤون التربية والتعليم	١٣٤٩٢
المجموع	١٠٦١٣٧٧٤	المجموع	٦٣٤٨٦٣٠

الجدول ٤٩
ميزانية الألوية السورية
وفق سالنامة الولاية لسنة ١٢٨٨ (١٨٧١/ ٧٢) بالقروش

اللــــواء	الايرادات	النفقـــات
دمشق	١٧ ١٣٣ ٦٩١	١٥ ١٥٠ ٥٨٥
القدس	١٠ ٣١٦ ٧٧٤	٦ ٣٤٨ ٦٣٠
طرابلس	٩ ١٠٤ ٢٦٩	٢ ١٥٧ ٠٦٤
حماة	٧ ٧٩٤ ٤٦٩	٢ ١٩٣ ٥١٣
البلقاء	٦ ٩٩٢ ٣٠٣	١ ٨٦٣ ٠١٧
عكا	٦ ٤٤٢ ٧٧٥	١ ٨١٣ ٠٨٣
بيروت	٥ ٩٤٣ ٤٥١	٢ ٧٠٠ ١٢٢
حوران	٣ ٨١٤ ٢٠٤	٢ ٧٣٢ ٩٠٩
المجمـــوع	٦٧ ٥٤١ ٩٣٦	٣٤ ٩٥٨ ٩٢٣

إن المعلومات الأساسية التي يمكن استخلاصها من الجداول التي أمامنا هي أن القسط الأعظم من المبالغ التي كانت تنساب إلى صناديق الألوية الفلسطينية لم يكن يُنفق في البلاد بل كان يرسل إلى دمشق أو القسطنطينية، وأن الجزء الذي كان يبقى في فلسطين كان يتقلص على مر السنين. وقد نُقِلَ إلى القسطنطينية من الألوية السورية بمجموعها في السبعينات حوالي نصف الايرادات «فقط» لأن نفقات الولاية كانت تتضمن أيضاً نفقات الفيلق الخامس للجيش ونفقات الحج. وحتى هذا الجزء كان يعني استنزافاً للثروة. وشكا نائب القنصل البريطاني جيغو Jago في معرض تحليله للايرادات والنفقات في سوريا وفلسطين في السنة المالية ١٨٧٥ / ١٨٧٦ من «أن الانفاق، الذي لا تنظمه سوى مطالب القسطنطينية التي تزداد الحاحاً باضطراد، قد خفض أكثر بكثير مما تقتضيه الكفاءة في تصريف الأمور... فضلاً عن عدم تخصيص أي جُزءٍ من الايرادات لاغاثة السكان أو للأشغال العامة لتنمية البلاد»[٧٧١]. أما النسبة المئوية العليا المطلقة للنفقات فكانت تذهب إلى مراكز الادارة أو المراكز الاقتصادية في دمشق والقدس و بيروت وكذلك إلى حوران التي تسودها القلاقل.

(٧٧١) PP—1877, vol. LXXXI (Beirut, 11.7.1876).

واذا رأينـا أن حـصـة الأسـد من الضرائب كان يتم تحصيلها من الفلاحين (العشر وضـريبـة الأرض وضـريبـة المواشي)، وأن الانفاق في الأرياف بلغ من ناحية أخرى حدّه الأدنـى (في لواء عكا كان الانفاق في نهاية السبعينات وبداية الثمانينات يتراوح بين ١١٪ و١٥٪ مـن الايـرادات، وفي لـواء الـبلقاء بين ٥٪ و٩,٥٪)، وأن هذه النفقات، فضلاً عن ذلـك، كـانـت تـبتلعها كلها تقريباً الادارة المحلية، لا تضح لنا إلى أي مدى كانت المراكز الـقـائـمـة في المـدن بـأجهزتها العسكرية والادارية تعيش على حساب الأرياف الملحقة بها (كما كانت القسطنطينية تعيش على حساب الولايات).

وفي هـذه الفترة التي ندرسها تجاوزت النفقات العسكرية على الأخص الامكانات المـالـيـة للـدولة. أمّا أن السلطان كان يدافع في مسارح الحرب النائية عن مصالح الفلاحين أيـضاً، فهذا أمر كان فهمه يزداد صعوبة على الفلاحين الفلسطينيين كلما تعاظمت الأعباء المـالية وضغوط التجنيد العسكري التي كانوا يكلفون بها. وكان شيوخ الجبال قد تجادلوا مع ابـراهـيـم بـاشـا مـن قـبـل ومـنذ نيسان ١٨٣٤ حول مشكلة التجنيد. ونحن نجد في كتاب Annals of Palestine (حوليات فلسطين) العرض التالي للحديث الذي دار بهذا الشأن[٧٧٢].

[في الـيـوم الـرابـع مـن عيد الفصح، (أربعاء عيد الفصح)، الخامس والعشرين من نـيـسـان، دعـا ابـراهيم باشا إلى اجتماع للزعماء والوجهاء في منطقتي (السامرة واليهودية) وطـرح عـلـيهم الأسئلة التالية: «بما أن لنا نحن المسلمين أعداء آبديين في الأمم النصرانية، فـهـل مـن إلـضـروري أم لا أن يـكـون لـنـا جيش دائم كبير؟» فأجابوا: «نعم لا شك بأنه ضـروري». وواصـل الباشا كلامه: «فاذا كان الأمر كذلك فمن أين نجيء بالرجال لهذا الجيش، من النصارى أم من المسلمين؟».

أجابوا: «من المسلمين بالتأكيد».

قـال: لـقـد اجـبـتـم بـالـصـواب. ولذلك فمن الضروري بالنسبة لكم، إن كنتم مـسلمين حقاً وتريدون مصلحة الأمة، أن ترسلوا شبانكم من كل مدينة ومن كل قرية لكي يتعلموا منذ شبابهم فن القتال و يتدربوا عليه فيكونوا على استعداد إذا دعت الحاجة».

وسـاد الصمت الاجتماع وفكروا طويلا في الجواب: «أمركم على رؤوسنا، ولكن لا حـاجـة بـنـا لأن نـعـطي صبياننا وشبابنا للحرب. فعندما يدخل عدو ديننا بلادنا سنهب جميعاً للقتال شيباً وشباناً، ونريق دمنا طوعاً من اجل ديننا و وطننا».

---

(٧٧٢) Spyridon, 89f.

وأجاب الباشا : «وكيف تريدون أن تخوضوا الحرب وانتم لا تعرفون فنّ الحرب؟».

فأجابوا : «إن فن الحرب هذا، الذي عرفه آباؤنا الذين صمدوا في وجه العدو ودافعوا عن بلادهم حتى الآن، نعرفه نحن أيضاً، وكما فعلوا هم ذات مرة فنحن نأمل أن نفعل أيضاً في المستقبل.».

وأجاب الباشا : إن الحرب ليست مكاناً لقيطع من الرجال الذين لا نفع فيهم : انها تحتاج إلى البراعة الفنية والمهارة. هذا هو قراري. سيؤخذ شاب من بين كل خمسة من المسلمين و يدرّب على التكتيك المنتظم في الحرب. وهذا الأمر أريد تنفيذه دون تأخير، بدءاً من هنا في القدس».

وكانت فكرة الباشا باختصار هي أن يحصل على ٣٠٠٠ رجل من المناطق الثلاث، القدس و(اليهودية والسامرة) وعلى ٢٠٠ رجل بالنسبة ذاتها من مدينة القدس.

وقلق المسلمون جميعاً في هذه المناطق قلقاً شديداً، ولم يدروا ما يفعلون. وعندما اجتمعوا قرر بعضهم أن يثوروا قائلين : «انه لا فضل لنا أن نموت وسلاحنا بأيدينا من أن نقدم أطفالنا الأحياء للعبودية الدائمة، دون أن يكون لنا أمل مطلقاً في رؤيتهم ثانية»؟؟]

وإذْ كانت التجربة المصريّة ماثلة في الأذهان فقد بقيت فلسطين، بعد أن استردها العثمانيون، طوال عقد من السنين بمنجاة من حملات التجنيد العامة إلى حد كبير. وقد حاول فلاحو الجبال أن يتملصوا من التجنيد عن طريق القيام ببعض الأعمال المنفردة كالمقاومة الايجابية والمقاومة السلبية والالتجاء للبدو، وعن طريق التشويه الجسدي أيضاً في بعض الحالات المتطرفة. وروت المسز فن قصة شيخ من المالحة جاء بأخيه الأصغر في سنوات الأربعينات إلى مستشفى إنجليزي في القدس؛ وطلب أن يقوم طبيب بإزالة عقلة إبهامه، لكي يتسنى تخليصه من الخدمة العسكرية. ولما رفض الطبيب ذلك خلع أصبعه بنفسه. وعلقت المؤلفة على ذلك بقولها : وعلى ولع الفلاحين بالقتال عندما يقومون بالقتال على طريقتهم وعلى جبال بلادهم، فانهم يكرهون أن يؤخذوا بعيداً عن بلدهم. ليزجوا في الجيش النظامي، حيث يخضعون للتدريب و يرغمون على ارتداء الزي العسكري[٧٧٣]. بيد

---

(٧٧٣) SWP, Special Papers, 334

وأنظر ايضاً Finn, Stirring Times, II, 316;

Finn, Palestine Peasantry, 14–18; Hoffmann, «Einges über die Fellachen», 94–96.

أن القوة اللازمة للقيام بثورة جماعية كانت قد كسرت حين بدأت حملات التجنيد العثمانية المنتظمة في الستينات. وفي جبل الخليل دون سواه تجمع بعض الناس سنة ١٨٦٢ مرة أخرى حول واحدٍ من بيت عمرو لإبداء مقاومة منظمة ضد التجنيد[٧٧٤].

وعلى الورق كان على جميع الرجال المسلمين بين العشرين والأربعين، بموجب قوانين التنظيمات، أن يخدموا خمس سنوات على الأقل في الجيش النظامي. و بعد ذلك يلحقون سنتين بقوات الاحتياط وسبع سنوات بقوات الرديف وثماني سنوات بقوات المستحفظين. وكلّما كان المرء يؤخذ للتجنيد كان يستطيع أن يحصل على إعفاء لمدة سنة بدفع البدل. وفي سنة ١٨٤٥ حددت قيمة البدل النقدي للتجنيد بمائة وخمسين ليرة. ثم خفض البدل بعد ذلك عدة مرات. وفي السبعينات كان يطلب ٥٠ ليرة فقط. وترتب على غير المسلمين الذين يحتمل تجنيدهم أن يدفعوا ضريبة تبلغ من حيث الأساس ٥٠ ليرة نظير إعفائهم من الخدمة العسكرية. لكن هذا المبلغ لم يكن يفرض على كاهل الضحايا التعساء فرادى بالقرعة مثلا، بل إن الضريبة فرضت على الورق ابتداءً على جميع الرجال غير المسلمين بين ٢٠ و٤٠ سنة. ثم وسعت دائرة الملزمين بالدفع سنة ١٨٧٥ بموجب مرسوم بحيث أصبحت تشمل جميع الرجال الذين تتراوح أعمارهم بين ١٥ و٧٥ سنة. وكان توزيع المبلغ المطلوب يقع على عاتق رئيس الجماعة[٧٧٥]. وفي بداية السبعينات اعفي غير المسلمين من سكان القدس من دفع ضريبة الاعفاء العسكرية لأنهم كانوا يعيشون في «مدينة مقدسة» سوة بسكان مكة والمدينة. بيّد أنَّ الاعفاء الغي في سنة ١٨٧٥. وقد نابت الأديرة المعنية عن طوائف المسيحية بدفع الضرائب المطلوبة باعطاء الحكومة مبلغاً اجمالياً مقطوعاً[٧٧٦]. (يتناول الجدولان ٤٤ و٤٨ ضريبة الاعفاء العسكري لغير المسلمين فقط. أما المبالغ التي كان يحصلها ضابط التجنيد كبدل نقدي للتجنيد فكانت تذهب مباشرة إلى صندوق وزارة الحربية في القسطنطينية أو بصورة مباشرة أكثر إلى جيوب الضباط أنفسهم).

كان عدد المسلمين المجندين في سن القدرة على حمل السلاح يعتمد على الوضع السياسي العسكري. والقرعة هي التي كانت تقرر من سيجري استدعاؤه. وشكلت هذه العملية مصدراً ثميناً للدخل لأعضاء اللجان المكلفة بذلك. و يبدو أن أول حملة تجنيد

---

(٧٧٤) أنظر اعلاه ص ٢٧٦ .

(٧٧٥) قارن : «Die Askarie oder Soldatensteuer» (ضريبة العساكر)

فيما يلي :

HL, XXX (1886), 199–201; Young, V, 275–277; Shaw, «The Nineteenth–Century Otoman Tax Reforms», 430–432.

(٧٧٦) PRO-F.O. 78, vol. 2401 (Jerusalem, 16.7.1875); Die Warte, 26.8.1875; HL, XXX (1886), 200.

نظامية كبيرة بعد حرب القرم جرت في فلسطين سنة ١٨٦٢. وذكر أن أكثر من ألف رجل جندوا في هذه الحملة، من بينهم ٣٤ في القدس وضواحيها[٧٧٧]. وكتمت هذه الحملة أنفاس البلاد طوال بضعة أشهر. وبدت شروط التجنيد للاوروبيين شروطاً خفيفة للغاية، لأنه لم يكن يستدعى إلى الخدمة إلا القليلون ممن بلغت أعمارهم ٢٠ ـــ ٢٥ سنة، لأن الأبناء الوحيدين أو المعيلين الوحيدين للعائلات اعفوا من الخدمة ولأنه كان في وسع المرء أن يشتري الاعفاء بـ١٠٠٠٠ قرش. لكنَّ الأهلين كانوا ينظرون إلى هذا نظرة أخرى. فمن جهة كانت حملات التجنيد تنفذ باعتباطية متناهية، ومن جهةٍ أخرى كان الناس ينطلقون من فكرة أنَّ من يساق إلى الجندية لا يعود، كقاعدة، إلى وطنه. ولذلك فان الفلاحين كانوا يهربون جماعات شرقاً وجنوباً إلى البدو، وسجلت حالات عديدة من تشويه الذات (قطع الابهام الأيمن واعماء عين واحدة). واستنفد آخر قرش لرشوة الموظفين. وقد حاول اولئك الذين داهمهم القدر أن يفروا من الثكنات أو سيراً على الأقدام إلى الموانيء[٧٧٨].

وفي يافا ذكر أن أمير اللواء الذي مكث في المدينة في حزيران ١٨٦٢ لتجنيد المجنّدين اعطي مبلغ ٣٠٠٠٠٠ قرش جمعها وجهاء المدينة من المسلمين. ولهذا فانه عندما استدعي ٥٥ رجلاً لسحب القرعة أخذ واحد فقط التذكرة السوداء المخيفة، بينما سحب الآخرون جميعاً تذاكر بيضاء، أي أنهم سَلِموا من التجنيد. لكن الناس استبد بهم القلق خشية أن «ينسى» أمير اللواء أنه تسلم رشوة كبيرة إلى هذا الحد، وأن يعيد عملية التلاعب ثانية[٧٧٩].

وفي بشالق عكا ذكر أنه جند في الأصل ٣٢٤ رجلاً. وحسب التحريات التي قام بها القنصل البريطاني في حيفا ساندويد Sandwith جنّد ٢٦٢ رجلاً، بينما اشترى الآخرون إعفاءهم مقابل دفع ١٠٠٠٠ قرش لكل واحد منهم (انظر الجدول ٥٠). ولكن إضافة إلى ال ١،٠٣٠،٠٠٠ قرش التي جرى جمعها نقداً في الحَمْلة ينبغي أن يؤخذ في الحساب أن ٤٠٠٠٠٠ قرش على الأقل قدمت كرشاوى ـــ وهذا في مجموعه مبلغ شديد

---

(٧٧٧) HHSTA-PA XII, Kart 77 (Jerusalem, 6.3.1862) . أرقام فِن كانت: ١٠٩٠ و٣٣.
PRO-F.O. 78, vol. 1676 (Jerusalem, 1.11.1862).
بالنسبة للتجنيد في سوريا في بداية الخمسينات انظر: Ma'oz, Ottoman Reform, 81–86

(٧٧٨) PRO-F O 78, vol 1676 (Near Solomo's Pools, 9 10.1862; Jerusalem, 1 11.1862), Furrer, 121, 137.

(٧٧٩) PRO-F O 78, vol. 1692 (Jaffa, 11 6 1862)
حول عملية سحب القرعة قارن:
Baldensperger, «The Immovable East», PEFQS 1906, 17f.;
النمر، ٣، ٨ وما بعدها؛ الراميني، ٩٢ وما بعدها.

الجدول ٥٠
نتيجة التجنيد في بشالق عكا في تموز ١٨٦٢

المنطقة	عدد المجندين	عدد الذين دفعوا بدل تجنيد قدره ١٠٠٠٠ قرش	المجموع
عكا	١٥	١	١٦
ساحل عكا	٢١	٧	٢٨
الجبل	٢٢	٧	٢٩
الشاغور	٢٩	١١	٤٠
صفد	٢١	١٣	٣٤
طبريا	٣٨	٢	٤٠
الناصرة	٤١	٣٢	٧٣
شفا عمرو	١٢	١٥	٢٧
حيفا	٦٣	١٥	٧٨
المجمـوع	٢٦٢	١٠٣	٣٦٥

المصدر : PRO-F.O. 195, vol. 727 (Haifa, 5.12.1862).

الوطأة على سكان الأرياف[٧٨٠]

وأثـارت حملة التجنيد التي جرت في صيف سنة ١٨٦٣ وخريفها كذلك قلاقل كبيرة في فلسطين. وكان جبل الخليل مرة أخرى هو ذلك الجزء من البلاد الذي بلغ فيه الرفض أشد درجات الصلابة[٧٨١]. وقد أجرى ساندو يذ بحوثاً مطولة مرة أخرى حول حملة التجنيد ١٨٦٤/٦٥ في بشالق عكا. وذكر أن واحداً من عشرة من الذكور في «سن التجنيد» استدعي للخدمة. ففي منطقة الناصرة كان على ٨٥٧ رجلاً أن يسحبوا القرعة ولكن لم يفعل ذلك منهم سوى ١٣٣ شخصاً. ومن هؤلاء ٥٦ شخصاً امسكوا في أيديهم قُرعة قضت عليهم بالخدمة العسكرية وتقدم بالفعل ثلاثة منهم فقط، أما الباقون فاشتروا حريتهم بمبلغ ١٠٠٠٠ قرش لكل شخص. (و يرينا الجدول ٥١ مدى المفارقة في التجنيد بين المواقع المختلفة بالاستناد إلى هذا النظام).

---

(٧٨٠) PRO-F.O. 195, vol. 727 (Haifa, 5 12.1862).

(٧٨١) HL, VII (1863), 100f., PRO-F.O. 78, vol. 1752 (Jerusalem, 16.9., 29.9., 28.10.1863)

الجدول ٥١
نتيجة التجنيد في منطقة الناصرة
من تشرين أول ١٨٦٤ إلى شباط ١٨٦٥

المكان	عدد الذين كان عليهم أن يسحبوا القرعة	عدد الذين سحبوا القرعة	عدد المجندين المطلوب تقديمهم	عدد الذين سحبوا قرعة قضت عليهم بالخدمة العسكرية
الناصرة	١٠٩	٥	١٠	٢
صفورية	١٣٠	٥٠	١٣	٢٣
الرينة	٢٠	٦	٢	٣
مشهد	٢٠	٩	٢	٣
كفر كنا	٢٥	٧	٢ر٥	٣
طرعان	٣٧	٨	٣ر٧٥	٣
البعنه	١٧	٤	١ر٧٥	١
عزير	١٤	٠	١ر٥	٠
رمانة	٣	٠	١/٣	٠٠
كوكب	١٠	٠٠	١	٠
كفر منده	١٧	٣	١ر٧٥	٢
عين ماهل	١٠	٢	١	١
دبورية	٣٥	١	٣ر٥	١
اكسال	٣٥	٠	٣ر٥	٠
يافا	٢٦	١٠	٢ر٦٦	٤
مجيدل	٣٧	١٢	٣ر٧٥	٦
معلول	٢٠	٩	٢	٢
عيلوط	٢٢	٧	٢ر٢٥	٢
المجموع	٥٨٧	١٣٣	٥٨	٥٦

المصدر : PRO–F.O. 87, vol. 1872 (Haifa, 21.2.1865).

وأعرب ساندو يذ عن أسفه لأنه لم يعد بوسعه أن يحصل على معطيات مفصلة كهذه لمنطقة حيفا لأن السلطات ساورتها الشكوك. وقد أدرى التجنيد هناك إلى النتيجة التالية : طلب ٨٧ مجنداً من ٢٦ قرية. ومن هؤلاء تقدم ٣١ شخصاً و١٦ دفعوا البدل، و٤٠ هربوا. وفي منطقة عكا كان هنالك ٢٠٠ مجند، لكن ١٥٠ من هؤلاء اشتروا اعفاءهم.

ووصف القنصل «الانتخاب التمهيدي» في منطقة حيفا كما يلي :

إن جميع الشبان الذين أُلقي القبض عليهم في القرى تم إرسالهم ابتداءً إلى سجن حيفا . و بوساطة ثلاثة من وجهاء نابلس الذين «تعاونوا» مع الطبيب العسكري ومأموري التجنيد أمكن لأقارب المقبوض عليهم بدفع بخشيش يتراوح بين ١٠٠٠ و٣٠٠٠ قرش ، أن يطلقوا سراح هؤلاء قبل اجراء القرعة ، وذلك بأن أعلن الطبيب العسكري عدم لياقتهم للخدمة . وترتب على كثير من الفلاحين أن يستدينوا من التجار المحليين ليتمكنوا من دفع البخشيش . وقام التجار المحليون حسب البحوث التي أجراها بتسليف ما مجموعه ١٥٠٠٠٠ قرش لدفع الرشاوى[٧٨٢] .

لكن حملات التجنيد في الستينات وأوائل السبعينات ، التي كانت تمثل في الوقت نفسه حملات لجمع الضرائب تقوم بها وزارة الحربية ، لم تكن سوى مقدمة لما حدث لأهل فلسطين في النصف الثاني من السبعينات جرّاء الحرب في البلقان أو ضدّ روسيا . فبناءً على ما ذكره القنصل البريطاني في دمشق تم تجنيد ١١٥,٠٠٠ رجل في الولايات السورية في سنة ١٨٧٧/٧٨[٧٨٣] . وتحدث القنصل مور في القدس عن ١٢٠٠٠ شخص اشتركوا في الحرب من لواء القدس وحده و لم يعد منهم في صيف ١٨٧٩ أكثر من الربع[٧٨٤] . ووفقاً لما قاله يوسف الخالدي فان فلسطين والبلقاء فقدتا أكثر من ١٠٠٠٠ قتيل في الحرب[٧٨٥] . وكانت هذه مقاييس كبيرة لم يعرف لها تاريخ البلاد مثيلا . وبما أن غير المسلمين لم يتأثروا بذلك ، ولما كانت الفئة الوسطى والعليا تدفع بَدَلات الخدمة العسكرية فان عبء الحرب كان يقع بصورة خاصة على كاهل الفقراء من سكان الأرياف المسلمين قبل سواهم . وتصف لنا تقارير كثيرة حالة البؤس واليأس التي كانوا يعانونها . وفي بعض القرى كان أكثر من نصف الرجال القادرين على العمل في الحرب .

ومنذ ربيع ١٨٧٦ حتى كانون الثّاني ١٨٧٨ توالت دفعات نقل الجنود من فلسطين ، إما بواسطة السفن الحربية التركية أو بواسطة السفن البخارية المنتظمة والمستأجرة

---

(٧٨٢) PRO-F O 78, vol 1872 (Haifa, 21.2 1865).

(٧٨٣) «The Modernisation of Syria», 379
وقد تحدث اوليفانت (Oliphant, The Land of Gilead, 321) عن ١٥٠٠٠٠ رجل من سوريا وفلسطين .

(٧٨٤) PRO-F O. 78, vol 2992, (Jerusalem, 30.7.1879). وذكر مراد ، القنصل الألماني في يافا ، في تقاريره ربع السنوية من صيف ١٨٧٦ إلى بداية ١٨٧٨ أن ما مجموعه اكثر من ١٠٠٠٠ جندي نظامي ورديف ومستحفظ قد نقلوا من يافا .
أنظر المصادر في الحاشية رقم ٧٨٧ .

(٧٨٥) أنظر اعلاه ص ٢٨٧ .

التابعة لشركة لويد Lloyd النّمساوية. واكتظت الثغور بالجنود. ولم يكن منظر الجنود يثير البهجة في النفس:

[يقوم فرسان القرى باحضار الناس المعنيين من قراهم ويربطونهم بعضهم ببعض بالحبال. وانطلاقاً من هنا (القدس) يربطون كذلك الواحد بالآخر في صفوف وبعضهم يربطون من اليدين بحيث يشد الابهامان وراء الظهر بقوة وبواسطة خيط رفيع. وإلى جانب الصف الواحد يقف خيّال يُربط إلى حصانه بحبل الرجل الأول في الصّف، ويُلف الحبل عادة حول رقبة هذا الرجل[٨٧٦].]

كان يتم ابتداء تجنيد الفصائل العادية. وحتى منذ صيف ١٨٧٦ بوشر بنقل الرديف ورجعوا آخر الأمر إلى المستحفظين. وفي البداية كان على المرء أن يخلص نفسه بدفع الخمسين ليرة القانونية إضافةً إلى البخشيش). ولكن ما لبثت البلاد أن استنزفت دماؤها بحيث أمكن انقاص البدل إلى أربعين أو ثلاثين ليرة فقط. وفي نهاية ١٨٧٦ وردت الدفعة الأولى من الجرحى المعادين إلى يافا. هذا في حين أن كل سفينة بخارية تقريباً وصلت في ربيع وصيف سنة ١٨٧٨ من اوروبا وعلى ظهرها جرحى الحرب، كانت تحمّل مرة أخرى بالمجندين النظاميين (أي بفصائل السنة الجديدة) المتوجهين إلى اليمن[٧٨٧].

وكان مجندو سنة ١٨٧٩ / ١٨٨٠ يرسلون بعدئذ من جديد إلى الروملي وثيساليا. وفيما يتعلق بعمليات التجنيد التي جرت في بداية سنة ١٨٨١ أخذنا نسمع بـ«أعمال شطط» ضد موظفي التجنيد وبروح المقاومة التي ولدتها تجارب الجنود في أثناء الحرب ضد الروس[٧٨٨].

---

(٧٨٦) Die Warte, 22 6.1876

(٧٨٧) بشأن التجنيد خلال الاعوام من ١٨٧٦ إلى ١٨٧٨ قارن.
PRO-F.O. 78, vol. 2494 (Jerusalem, 21.7.1876), vol. 2615 (Jerusalem, 15.3., 26.5., 9 6., 21.6. und 24.8.1877); PRO-F.O. 195, vol 1153 (AKKa, 7.6.1877); MAE-CPC Jér., t. 13 (Jerusalem, 18.1., 21.6.1877), ISA-DKJ, A.XXXIX 3 (Jaffa, 30.9. 1876, 31.3., 30.6., 1 10., 31.12.1877); A.XXXIX.4. (Jaffa, 1.4., 1.7., 1.10.1878); HHSTA – PA XII, Dart, 113 (Jerusalem, 11 8.1876), Kart. 120 (Jerusalem, 20.6.1877); **Die Warte**, 22.6., 28.9., 28.12.1876; 18.1., 8.2 22.2 , 22.3., 12 4., 17.5., 28.6., 20 12.1877; 17.1., 21.3.1878; HL., XXI (1877), 92f.; HL., XXII (1878), 53f.; NNM, 21 (1877), 101–103; NNM, 22 (1878). 25f.; Brugger, 83f.; SWP, **Special Papers**, 355.

(٧٨٨) PRO-F O. 78, vol. 3131 (Jerusalem, 21,7 1880), HHSTA – Archiv Konst., Konsulats-berichte, Beirut 1880–1894 (Beirut, 7 12.1880), ISA-DKJ, A.III.9 (Jerusalem, 16.2. und 1.3 1881, Haifa, 16.2.1881).

صحيح أن فلسطين لم تكن مسرح حرب بيْدَ أن البلاد اشتركت بين سنتي ١٨٧٦ و ١٨٧٨ في حروب كبيرة وذلك للمرة الأولى منذ الثورة ضد المصريين (١٨٣٤) أو إبعادهم. إلا أن الأهالي ما كان لهم أن يفرحوا بقدرة العثمانيين على تجنيد الجنود بالجملة بأكثر من فرحهم بالزيادة في فعالية جهاز الضرائب. هل كانت تلك الحروب التي سِيق فيها الجنود من فلسطين إلى الموت في البلقان وضد روسيا هي حقاً حروبهم؟ وهل كانوا يرون في روسيا عدواً كان يتهددهم هم بالخطر؟ لا ريب في أنه كانت تطرح أسئلة كثيرة مليئة بالشك. وهناك دلائل كثيرة تشير إلى أن الفلسطينيين الذين كانوا يجندون قسراً لم يكونوا يعودون إلى بلادهم، إلى حد يكثر أو يقل، وهم وطنيون عثمانيون غيورون، هذا إذا رأوا وطنهم مرة أخرى على الإطلاق. ومن الطبيعي أن الناس كانوا يرغبون في انتصار السلطان على «البرابرة» (يوسف الخالدي) من الشمال، ولكن أن تتورط فلسطين إلى هذا الحد في الحرب، فهذه كارثة أثارت على الأقل سخطاً قصير الأمد على الحكم العثماني.

ومن المؤسف أنه ليست لدينا سوى مصادر قليلة تقول لنا شيئاً عن تطور الوعي السياسي في فلسطين في الفترة ما بين ١٨٥٦ و١٨٨٢. ومع هذا فسنحاول في الفصل الأخير أن نتلمس ردود الفعل الفلسطينية على الأزمات الشرقية في ذلك الوقت.

ردود الفعل الفلسطينية على الأزمات الشرقية

يا للأزمان، يا للأعراف!

O TEMPORA, O MORES!

عند بزوغ فجر يوم ٢٧ أيلول ١٨٥٥ أعلنت احدى وعشرون طلقة مدفع لمدينة القدس التي كانت تستيقظ من نومها سقوط سواستابول وأعلنت بذلك انتصار السلطان على خصمه الألد روسيا. إلا أن هذا الانتصار لم يتم احرازه الا بمساعدة الدول الأوروبية، وفي طليعتها فرنسا وانجلترا. ولذلك فان كامل باشا متصرف القدس كان على استعداد لأن يحتفل به أيضاً بالاشتراك مع ممثلي اوروبا. ورفع القنصل الإنجليزي والنمساوي والاسباني اعلامهم الوطنية «وهكذا عرضت الراية البريطانية The Union Jack رسمياً في القدس، وهي أول علم بريطاني منذ أن رفع السير سيدني سمث عَلَمه سنة ١٧٨٨»[٧٨٩]. بل إن العلم الفرنسي المثلث الألوان قد جرى رفعه بحضور المتصرف وكبار الموظفين ووجهاء المدينة باطلاق احدى وعشرين طلقة تحية «وذلك، كما اعلن، تعويضاً عن الاهانة التي لحقت به في المدينة سنة ١٨٤٣، عندما قام جماعة من عوام المسلمين الساخطين على محاولة رفع أي علم مسيحي في المدينة المقدسة بانزال العلم وتمزيقه وجرّه في الطين»[٧٩٠].

وبعد الظهر احتفل احتفالاً بهيجاً بترنيم تسبيحة الشكر (Te Deum) في كنيسة القيامة واشترك في الاحتفال القنصل الفرنسي والمتصرف العثماني والقائد العسكري في المدينة جنباً إلى جنب. واحتفل بالنّصر في القدس طوال ثلاثة أيام بلياليها باضاءة الأنوار، وبالألعاب النارية وصلوات الشكر ودوي المدافع والمواكب العسكرية. «ووسط هذه المناظر المثيرة من يملك ألا يسأل: أهذه هي القدس؟ إنها يمكن أن تكون أي مدينة في الدنيا، ولكن هل هي وهل يمكن أن تكون، القدس؟»[٧٩١].

وبعد أن صحب كامل باشا القنصل الفرنسي في الاستماع إلى تسبيحة الشكر،

---

(٧٨٩) Finn, Stirring Times, II,362.

(٧٩٠) المصدر نفسه، ٣٦٤.

(٧٩١) المصدر نفسه، ٣٦٧.

انظر ايضاً:

MAE-CPC Jér., t.5 (Jerusalem, 6 10.1855); Reminiscenses of Mrs, Finn, 142–147; Die Warte, 8.11., 15.11., 1855, 20.12.1855.

أبلغ الممثل البريطاني بأنه يرغب أيضاً في الاشتراك في صلاة احتفالية تقام في كنيسة المسيح (Christ Church). وحدث ذلك في عيد الغطاس في ١٨٥٦/١/٦. وقرعت الأجراس ورفرف العلم البريطاني ووقف المتصرف أثناء تسبيحة الشكر، إلى جانب القنصل البريطاني، وفي يده كتاب الصلاة الانجليكاني في ترجمة تركية[٧٩٢]. يا للأزمان ويا للأعراف!.

وفي النصف الأول من نيسان كانت هناك مناسبات كثيرة أخرى للاحتفال. فقد اطلقت المدافع من القلعة ايذاناً بميلاد ولي عهد فرنسا، وذهب كامل باشا برفقة القنصل الفرنسي من جديد إلى تسبيحة الشكر في كنيسة القيامة. وفي السابع من نيسان احتفل باعلان خطي هُمايون من على منصة دار الحاكم بحضور القناصل ووجهاء المدينة. وفي ١٤ نيسان أعلن نبأ عقد الصلح، واحتفل بهذه المناسبة باقامة عرض عسكري حافل بالمعنى في منطقة الميدان. واعقب ذلك العديد من عروض المسرح العسكري ودوي المدافع، وإضاءة الأنوار[٧٩٣].

ومنذ أيلول ١٨٥٥ توالت المناظر والعروض في القدس، وفرح القناصل «المتحالفون» بالالتفات الرسمي إليهم كما لم يفرحوا من قبل. واستطاعوا أن يرفعوا اعلامهم و يقرعوا أجراسهم و ينشدوا ترانيمهم الكنسية و يُظْهروا أزياءهم على هواهم. وفي سنة ١٨٥٥ سمح للزوار الأوروبين بأن يدخلوا الحرم الشريف (وهو المنطقة المقدسة التي تقع فيها قبة الصخرة والمسجد الأقصى)، وهي حقيقة قدّرها المعاصرون وأفاضوا في تقديرها كحدث مثير[٧٩٤]. وبدا أن عهداً جديداً قد هلّ. واستناداً إلى التحالف في الحرب أصبحت النشاطات القنصلية والتبشيرية تبدو بعد الآن بلا حدود. وأراد القائمون بأعمال القناصل وكبار رجال الدين في مُدُن فلسطين الأخرى أن يظفروا مثلهم مثل غيرهم بشعاع من بريق العهد الجديد. وهكذا فعلوا أيضاً في نابلس. ولكن هنا وقع حادث مثير[٧٩٥].

---

(٧٩٢) PRO—F O 178, vol. 12178 (Jerusalem, 7.1.1856; Finn, Stirring Times, II, 406, Reminiscenses of Mrs. Finn, 150f.

(٧٩٣) Reminiscenses of Mrs. Finn, 152—154; Rogers, La Vie Domestique, 375—377, 381—388; MAE-CPC Jer., t.5 (Jerusalem, 6.4 1856).

(٧٩٤) PRO-F.O 78, 1294 (Jerusalem, 8.5 1857), Reminiscenses of Mrs. Finn, 128—132; Finn, Stirring Times, II, 233—257; Mayer, 236—243.

(٧٩٥) حول احداث نيسان ١٨٥٦ في نابلس قارن:
PRO-F O. 78, vol. 1217 (Jerusalem 10.4. 856) : تقرير القنصل فن، القدس ١٨٥٦/٤/١١ ـ تقرير المبشر لايد، القدس ١٩٥٦/٤/١٤ ـ تقرير التحقيق لنائب القنصل روجرز.
PRO-F.O 78, vol. 1221 (Jaffa, 8.4.1856) تقرير القنصل خياط).
MAE-CPC Jér., t. 5 (Jerusalem, 17.5.1856) ـ ترجمة تقرير كامل باشا).

فعندما تلقى المطران البروتستانتي جوبات نبأ إعلان خطي همايون في القسطنطينية، لم يجد شيئاً يفعله أفضل من أن يضع جرساً صغيراً في حزمة و يرسله إلى نابلس على عجل لنصبه على المدرسة البروتستانتية هناك بموافقة الحاكم المحلي. و بعد هذا التاريخ ببضعة أيام، وفي ٢ نيسان ١٨٥٦، زيّن وكيل القنصل الفرنسي الشاب محمد أمين القاسم داره بأعلام صغيرة احتفاءً بمولد ولي عهد فرنسا. ولم يشأ وكيل القنصل البريطاني، وهو من البروتستنت المحليين و يدعى عودة عزام، أن يقصّر عن غيره في ذلك، فعلق أعلاماً بريطانية صغيرة على داره.

و بعد ذلك بيومين، (يوم الجمعة في ٤ نيسان) ركب مبشر بريطاني بدوره إلى نابلس وهو يحمل بندقية محشوة بالرصاص. ولدى محاولته صدّ شحاذ ملحاح عنه انطلقت رصاصة فأصابت الرجل إصابةً مميتةً. ونحن نورد هنا ما حدث بعد ذلك نقلا عن تقرير نائب القنصل البريطاني روجرز الذي أرسله فن إلى نابلس في اليوم السادس من نيسان. وقد تكون هذه الوثيقة متحيزةً ومبالغاً فيها أيضاً، ومع ذلك فلديها ميزة القرب من مواقع الأحداث بل إنها أحسنت إذ ترفعت عن الحكايات التي كتبت فيما بعد ومن بعيد عن «نابلس المتعصبة»، وهو وصف أصبح بمثابة «لازمة» جديدة في «أدب فلسطين»، وحدد صورة أهل هذه المدينة عند المسافرين الأوروبيين. وكل من كان يصل إلى نابلس في السنوات التالية وفي يده دليل سياحي اوروبي كان يحسُّ للوهلة الأولى بدش بارد يتساقط على ظهره.

وفقاً لتقرير روجرز ذهب المبشر التعيس مع أقارب القتيل إلى مقر الحاكم محمود عبدالهادي الذي سوى المسألة شخصياً، ودون أن يقوم المبشر بدفع الدية، كما هو

---

xx Rogers, La Vie Domestique, 377–380, Finn Stirring Times, II, 424–431

قارن أيضاً: Die Warte, 8., 15.5.1856

ولم تقتصر المجلة الناطقة بلسان الهيكليين، في سياق دعايتها الشنيعة، على الحديث عن قتل خمسة من المسيحيين، بل تحدثت ايضاً عن «سوء المعاملة الفظيع» الذي تعرض له النساء والأطفال، بينما شدّد القنصل فن على أن شيئاً من هذا لم يحصل». منصور، ٨٨ وما بعدها.

Tibawi, British Interests, 115f., Ma'oz, Ottoman Reform, 226f.

(وفي كتاب ماعوز هذا الشيء الكثير من عدم الدقة، واخذ المؤلف كذلك أقوال المؤلفين البريطانيين على علاتها حين زعموا بأن مسلحي نابلس «موصومون بروحهم المحافظة البعيدة عن التسامح»).

Carmel, Christen als Pioniere, 97–100.

(نسخة رسالة موجهة من المطران جوبات إلى السفير البريطاني في القسطنطينية، مؤرخة في ١٨٥٦/١١/٨ بشأن الاحداث). الراميني، ص١٦٣ وما بعدها

واضح[٧٩٦]. وذكر أن «العلماء» لم يرتاحوا لهذا الحل، وتسببوا في الهرج والمرج. وزعم أنهم منعوا الدفن إلى أن تدفع الدية، وأغلقوا الجوامع (في يوم جمعة!). وسار على الأثر جمهور من المتظاهرين أمام مقر الحاكم وطالبوا بتسليم المبشر، وهو ما رفضه محمود عبدالهادي بطبيعة الحال. ولكن السوقة بحثوا الآن عن أهداف أخرى. لقد نهبوا وهدموا دور وكيلي القنصلين الفرنسي والبريطاني والمدرسة البروتستانتية ودار المبشر البروتستانتي الإنجليزي، وكنيسة الروم ودار شماس الروم. أما دار وكيل القنصل البروسي فقد حماها من النهب سكان الحي المسلمون. ولكن أسوأ ما حدث هو أن والد وكيل القنصل البروسي (سعيد قعوار، وهو من البروتستانت المحليين) الذي كان حاضراً في بيت عودة عزام قتل هناك.

ومهما يكن من أمر الأشخاص أو مجموعات الأشخاص (سواء كانوا «العلماء» أو، كما أشير سابقاً، آل طوقان) الذين حملوا مسؤولية هذا الاندلاع للعنف والهمجية، فالمهم قبل كل شيء هو أهداف «الغضب الشعبي»: المباني القنصلية والتبشيرية. ربما لم يكن يعرف اولئك الذين ساروا في نابلس وهم يهدمون و ينهبون، المحتوى الدقيق لخطي همايون وآثاره المحتملة، مع أن المرسوم تلي في نابلس من قبل. ولكنهم فطنوا إلى أن الأوروبيين كانوا يسعون إلى تغيير نظامهم التقليدي. لقد دلّتهم أجراس المبشرين وأعلام وكلاء القناصل على الطريق وهم يبحثون عن شيء يعبرون من خلاله تعبيراً عنيفاً عن القلق الذي كان يساورهم. إن ما زرعه الأوروبيون كرموز لادعاءاتهم السياسية والدينية رأى فيه هؤلاء بحقّ رموزاً للأخطار التي تتهددهم من الخارج. ولذا فإن المراقبين المعاصرين كانوا لى حق لا ريب فيه عندما قوّموا أحداث نابلس بأنها رد فعل من المسلمين على حقيقة أنّ القناصل والمسيحيين المحليين الذين كانوا تحت جناحهم قد أمعنوا في تجاوز حدودهم، بعد إعلان مرسوم الاصلاح[٧٩٧]. إن الأحداث ينبغي ادراجها بين أمثلة موقف الاحتجاج العام ضد الآثار السياسية الداخلية للتحالفات السياسية الخارجية للدول العثمانية.

ولكن عندما وقف الناس على حقيقة ما حدث ساد نابلس على الفور شعور عارم بالذنب. فالبضائع المنهوبة جرت إعادتها سراً، وتوسلت السلطات ووجهاء المدينة إلى وكيل القنصل الفرنسي أن يعيد نصب العلم المثلث الألوان. وقرر القنصل الفرنسي بارير في

---

(٧٩٦) قارن بهذا الشأن:

Albengo, 1-11, SWP, Special Papers, 342-345; Finn, Palestine Peasantry, 32-36.

(٧٩٧) حول التعليمات القائمة على التمييز في الملابس والسلوك بالنسبة للمسيحيين في نابلس في النصف الأول من القرن التاسع عشر قارن الراميني، ١٦٠ وما بعدها.

هذه الأثناء أنه طالما بقي المذنبون دون عقاب فان «مدينة نابلس لا تستحق شرف رفع علم فرنسا على وكالة قنصليتنا فيها»[٧٩٨].

أي أن نابلس كان عليها أن تتخلى مدة طويلة عن التشرّف برؤية العلم المثلث الألوان. ولكن الحساب الكبير مع «المذنبين»، من أية جهة جاءوا، لم يأت. وهذه الحقيقة كانت تمثل بالنسبة للقنصل فن بداية لكل الشرور التي وقعت حتى نهاية فترة عمله في فلسطين. فطوال شهور بل سنوات ضمّن تقاريره المرة تلو الأخرى القول الثابت المكرور: إن جناة نابلس لا بد أن يؤخذوا بذنبهم[٧٩٩]. وبالنسبة للسلطات العثمانية بدا أن النزاع، مع الممثلين الانجليز على الأقل، قد انتهى بعد قيامها سنة ١٨٥٨ بدفع دية قدرها ١٠٠٠٠ قرش إلى أهل الشحاذ القتيل، وبدفع ٥٥٠٠٠ قرش إلى القنصل العام البريطاني في بيروت بمثابة تعويضات يصرفها في المستقبل، وتقوم هي باستردادها من أهل نابلس «المعنيّين»، وبعد الموافقة على إجراء احتفال رسمي برفع العلم البريطاني في نابلس وبعد الوعد بايقاع عقوبة شديدة بالفاعلين في وقت تال[٨٠٠]. وربما تم التوصل إلى تسوية مماثلة مع فرنسا وبروسيا، بيد أننا لا نعرف شيئاً عن هذه التسوية.

وغزة أيضاً التي كانت مدينة إسلامية كذلك بأكثريتها الساحقة والتي بوركت مؤخراً بوجود «هيئة قنصلية» فيها، اكتسبت في سنتي ١٨٥٦ و١٨٥٨ سمعة البقعة «الملوثة بالتعصب» بشكل خاص. وفي سنة ١٨٥٦ كان في المدينة وكلاء قناصل لكل من النمسا وانجلترا وبلاد فارس وبروسيا. ودأب «ممثل بروسيا» التاجر الرومي الأرثوذكسي والملاك يعقوب ابراهيم مدبك منذ خريف ١٨٥٥ على إطلاق وابل من الشكاوى على القنصلية في القدس ضد السلطات في مدينته. وفي تشرين الأوّل ١٨٥٦ شكا بشكل خاص من أن وكلاء القناصل والأشخاص المتمتعين بحمايتهم كان عليهم أن يمتثلوا إلى طلبات الضرائب الصادرة عن القائمقام التي ليس لها ما يبررها[٨٠١].

---

(٧٩٨) MAE-CPC Jér, t.5 (Jerusalem, 17.5.1856).

(٧٩٩) في حزيران ١٨٥٦ بعث إلى السفارة في القسطنطينية بقائمة باسماء الفاعلين في اللغتين الانجليزيه والعربية، وهم ثلاثة عشر من العلماء، (بينهم المفتي) الذين اجتمعوا في بيت شخص يدعى الشيخ صلاح ـ ومن هذا الاجتماع انبثق الاضطراب، وخمسة من «المشبوهين» بينهم عبدالفتاح اغا النمر وابنه واخوه الذين بيصوا صحائفهم فيما بعد على اية حال بتقديم الحماية للمبشر، و١٢ فاعلاً قاموا بهدم دار وكيل القنصل الانجليزي، وقتلوا قعوار هناك: PRO-F O. 195, vol 524 (Jerusalem, 6.6.1865).

(٨٠٠) Testa, VI, 49f. (مذكرة القنصل العام مور إلى خورشيد باشا، بتاريخ ١٧/٤/١٨٥٨ والجواب عليها)؛ Rogers, La Vie Domestique, 380؛ الدباغ، بلادنا فلسطين ٢/١، ١٨٠.

(٨٠١) قارن عشرة تقارير في: ISA-DKJ, A. VIII. 4.

وكتب فن تقارير مليئة بالاثارة حول اعتداءات مزعومة على المسيحيين[٨٠٢] بشكل عام، وحول مضايقات ضد وكلاء القناصل بشكل خاص. وتلقى متصرف القدس استدعاءً من غزة قال فيه مرسلوه إن المدينة ليست بحاجة إلى وكلاء للدول الأجنبية. وعلى الأثر طالب فن بحزم بمعاقبة القائمقام والمفتي وكذلك خليل الشوّا من أهل غزة[٨٠٣]. ولكن يبدو أن هذا الطلب لم يكن له أثر.

على أن الأمر اقتضى في صيف ١٨٥٨ اتخاذ اجراء حكومي أكبر بالفعل وذلك عندما قام جماعة من المسلمين المتحمسين بتحطيم بوابة دير الروم الأرثوذكس (احتجاجاً على تغييرات في بناية الدير، وعلى أعمال دهان في الكنيسة، استناداً إلى أحكام قانونية قديمة). وبادر متصرف القدس بالركوب إلى غزة وأحضر معه إلى مقرّه حسب العدد الذي أورده (القنصل الفرنسي) تسعة من علماء المدينة ووجهائها، الذين قبض عليهم، وأخذهم معه ليحتفظ بهم في القدس فترة من الوقت عقاباً لهم.

واقترح القنصل النمساوي في تقرير إلى القسطنطينية إرسال سفينة حربية إلى المياه الفلسطينية باعتبار أن ذلك سيكون أمراً مفيداً، في جو الاضطراب والهياج الذي كان سائداً في أوساط المسلمين[٨٠٤].

قد يكون التقويم القنصلي المعاصر لهذه الأحداث انطوى على مبالغات أيضاً، بيد أن هذه الأحداث كانت أعراضاً للاضطراب العام في فلسطين الذي نشأ عن التغلغل الأوروبي القسري. ونحن نعلم (من مؤلفات ديفسون وماعوز وغيرها) أنّ مرسوم الاصلاح لسنة ١٨٥٦ اصطدم من جهة بمقاومة المسلمين باعتباره تدخلاً عدائياً خطيراً مفروضاً من اوروبا في الحياة الاجتماعية المتوارثة، لأنه خلق وضعاً مميزاً للمتمتعين بحماية القناصل الذين كان يزداد تدخلهم على الدوام، كما نعلم أن المرسوم لم يستهو بدوره غير المسلمين تماماً كذلك، فقد شكا رؤساؤهم الروحيون من تشذيب السلطات المطلقة التي كانوا يتمتعون بها من قبل (وخصوصاً فيما يتعلق بحق العلمانيين في المشاركة في «إدارة الشؤون الدنيوية» للطوائف الدينية المختلفة)، كما أن دافعي الضرائب العاديين من غير المسلمين

---

(٨٠٢) لم يكن في غزة في ذلك الوقت حي خاص بالنصارى قارن رافق، غزة، ٣٨ وما بعدها.

(٨٠٣) PRO-F.O. 78, vol. 1217 (Jerusalem, 1.9 1856); vol. 1218 (Jerusalem, 7., 10 11.1856), PRO-F O 195, vol. 524 (Gaza, 8.2.1856); ISA-BCJ,J22/1 (22 8.1856)

(٨٠٤) قارن

PRO-F.O 78, vol. 1383 (Jerusalem, 20.7 , 22.7., 19.8,1858), MAE-CPC Jér., t.6 (Jerusalem, 3.8.1858); HHSTA-PAXII, Kart, 64 (Jerusalem, 22.7.1858).

خافوا من التجنيد ابتداءً، ثم تظلموا فيما بعد عندما اتضح أن المسؤولين لم يخطر ببالهم مطلقاً أن الضريبة الجديدة الخاصة بالاعفاء من الجندية كانت أشد وأنكى من ضريبة الجزية القديمة[٨٠٥]. ولهذا السبب فان أحكام المرسوم لم يتم تنفيذها في فلسطين أيضاً الا ببطء شديد.

إن القنصل فن هو الذي سجل بدقة، قبل سائر الناس، كل أمثلة الجفاء الجديد بين المسيحيين والمسلمين من جهة، وكذلك بين السكان المسلمين والسلطة العثمانية من جهة أخرى. وقد أظهر المسلمون موقف التحدي إزاء «تركيا»، واتهموها بأنه «تم تبنّيها الآن في أسرة الأمم الأوروبية» [بموجب معاهدة الصلح بباريس سنة ١٨٥٦][٨٠٦]. وتحدث نائب القنصل روجرز في تقرير له في حزيران ١٨٥٨ عن مجادلة كلامية بينه وبين قاضي الناصرة الذي أطلق تهديدات ضد البروتستانت المحليين في كفر كنا لأن هؤلاء سمحوا لمسلم بقراءة الكتاب المقدس. وأشار القاضي إلى أن الرِّدة جزاؤها الموت. وذكر روجرز في معرض الحجاج أن مرسوم ١٨٥٦ يمنح الناس حرية الاعتقاد، فردَّ القاضي على ذلك بقوله إنه لا طاعة للسلطان الا إذا اتفقت أوامره وأحكام الشريعة[٨٠٧]. بل إن جَمالاً عادياً صرح، كما ذكر فن، لرجل يتمتع بالحماية الانكليزية و يعيش قرب القدس بأنه لا يمكن اعتبار البلاد تابعة للسلطان التركي بعد الآن لأنه أقدم على تنازلات غير شرعية للنصارى[٨٠٨].

وحتى ثريا باشا سبح في هذا التيار، بصورة ما. فقد أسرّ إلى ترجمان فن بأنه يَعُدُّ مهمته العمل على تحجيم النفوذ الأوروبي — «لأن الأوروبيين مسيحيون، والأوروبيون ينبغي كبحهم، ان استقلال الامبراطورية التركية يتوقف على استقلال الاسلام[٨٠٩]».

و يدور الآن كلام كثير عن الاستقلال. بيد أن الوطنيين من أهل البلاد لهم تصوراتهم الخاصة بهذا الشأن؛ «فهو لا يعني استقلال السلطة العثمانية المركزية في العمل في مواجهة الأوروبيين والقوى الأخرى، بل يعني استقلال السكان الوطنيين عن السيطرة التركية عليهم، فالأتراك ينظر لهم الآن كأوروبيين — «كأحد أعضاء أسرة الأمم

(٨٠٥) في سنة ١٨٥٦ جرت محاولة لتحصيل ٥٠٠٠ قرش عن كل فرد من المسيحيين واليهود مقابل الإعفاء من الجندية. انظر ISA-BCJ, J22/15 (AKKa, 7 8 1856); MAE-CPC Jér., t 5 (Rapport du Commandant Bonne, خريف ١٨٥٦)

(٨٠٦) PRO-F.O 78, vol 1294 (Jerusalem, 22 7.1857).

(٨٠٧) PRO-F.O. 78, vol 1383 (Haifa, 18 6.1858), vgl dazu auch Die Warte, 19.5.1859

(٨٠٨) PRO-F.O 78, vol 1383 (Jerusalem, 8.7.1858)

(٨٠٩) PRO-F O 78, vol. 1381 (Jerusalem, 8.11.1858).

الأوروبية»[٨١٠].

واتُّهم العثمانيون بناء على هذا بأنهم إذ أقدموا على التعاون مع الدول الأوروبية فهم يشاركونها مسؤوليّة ازدياد النفوذ الأوروبي في الولايات. وأصبح المسيحيون من أهل البلاد يلمسون في الجو الاستياء من هذا التطور. فقد عقدوا أمالا أكبر مما ينبغي على فترة التنظيمات الجديدة وتجاوزوا حدود الجرأة، على الأقل أولئك الذين كانوا يتمتعون منهم بالحماية الأوروبية، فلما اصطموا بعدئذ بالحواجز شكوا من أن أحوالهم منذ سنة ١٨٥٦ قد ساءت عن ذي قبل[٨١١]. وأوجز فن كلامه قائلا بأن الاصلاحات لم يستفد منها في الواقع سوى الرعايا المسيحيين والتجار بكل فئاتهم في الثغور[٨١٢]. إن النشاطات القنصلية والتبشيرية والمحاولات التي جرت لتنفيذ مرسوم سنة ١٨٥٦ «وفقاً للروح الأوروبية»، عن طريق الضغط الدائم على السلطات، قد أدت في أماكن كثيرة إلى التوترات والمشاحنات قبل أي شيء آخر.

(٨١٠) PRO-F.O. 78, vol 1384 (Jerusalem, 13.9.1858).

(٨١١) PRO-F O. 78, vol. 1383 (Jerusalem, 8.11 1858).

(٨١٢) PRO-F O. 78, vol 1454 (Jerusalem, 1.1.1859).

صدمة سنة ١٨٦٠

عندما وصلت في حزيران ١٨٦٠ أنباء الاشتباكات في لبنان ووصلت في تموز أنباء حمام الدم في دمشق سجّلها الأوروبيون والمسيحيون المحليون في فلسطين في بداية الأمر باعتبارها مذبحة واحدة كبرى للمسيحيين. فما بدأ صغيراً في نابلس بدا كأنه وصل الآن إلى ذروته بصورة مفزعة في دمشق. وقد سبق أن رأينا أنّ جوّ الذعر ساد بين سكان الجليل المسيحيين قبل سواهم وأنّ عقيل آغا كلف هناك بدور «حامي المسيحيين». ومع ذلك فانه لم تطر شرارة من نار دمشق لا إلى الجليل ولا إلى أي مكان آخر في فلسطين.

صحيح أنه سرت شائعات جامحة لم يكن الأوروبيون آخر من روّجها في العالم، وصحيح أن الناس * توقعوا أسوأ الأشياء من السلطات العثمانية ومن الفئة العليا المحلية[٨١٣]. لكن هذه المخاوف، كما أدرك فن أيضاً، لم يكن لها أساس على الإطلاق. إن وجهاء القدس، مثلاً كانت مصلحتهم المادية في الحجّاج والمؤسسات المسيحية أكبر من أن تسمح لهم باثارة القلاقل. وفضلاً عن ذلك فقد كانوا يخشون من أن الفلاحين، إذا أوقعوا بالمسيحيين، سينقلبون أخيراً ضدهم...[٨١٤]. بيد أن سكان الأرياف استبد بهم القلق لأن فلسطين غمرها طوفان المسيحيين الأوروبيين من كل الأصناف[٨١٥].

ولما وصل إلى القدس نبأ محكمة الجنايات التي أقامها فؤاد باشا في دمشق جاء فن مرة أخرى بقوله الثابت المكرور، واقترح على القنصل العام البريطاني في بيروت أن يقوم فؤاد بالتلويح بعصا التأديب أيضاً ضد أولئك الذين ارتكبوا الجرائم في نابلس وغزة سنة ١٨٥٦[٨١٦]. لكن هذه بقيت أمنية مجردة من التقوى.

وبدا أن أحداث لبنان ودمشق كان لها في جميع الولايات السورية أثر «الدش» البارد بصورة ما، فان جوّ العصبية والهياج في سنوات (١٨٥٣ — ١٨٦٠)، التي جرى في أثنائها أيضاً تجريد معظم الزعماء المحليين من السلطة، قد أخذ في الانفراج. وفي وقتٍ ساد

(★) المقصود الاوروبيون ـ المترجم.

(٨١٣) قارن:

Reminiscences of Mrs. Finn, 218–223, HHSTA – Archiv Jaffa Fasz. I (Jaffa, 23 7 1860).

(٨١٤) كما جاء على لسان القنصل البريطاني فنّ في:

PRO-F.O. 78, vol 1521 (Jerusalem, 31.7 1860)

(٨١٥) المصدر نفسه، (Jerusalem, 14 8.1860).

(٨١٦) المصدر نفسه، (Jerusalem, 12.9 1860).

فيه الازدهار الاقتصادي انبرت السلطات العثمانية لتنفيذ الاصلاحات الادارية. وبدا أن المجتمع الفلسطيني تقبل سيْر الأمور، بما في ذلك التغلغل الأوروبي المتزايد. لقد اتسعت دائرة الطمأنينة بل الشعور بأن المرء يعيش في عصر العمران و«التقدم».

لكن صدمة ١٨٦٠ استقرت كما كانت الحال من قبل في أوْصال الأوروبيين في البلاد وأتباعهم المحليين الذين يدينون لهم بالحماية. ولذلك فانه عندما أخذ الايمان بـ«التقدم» يتزعزع في منتصف السبعينات نظراً للخراب المالي الذي لحق بالدولة العثمانية والتهديد الذي عصف بكيانها، وبدأت فترة جديدة طويلة من الأزمات، فان ذكرى سنة ١٨٦٠ أسهمت إسهاماً كبيراً في تردّي الجوّ في البلاد. وتركت الثورات والحروب في البلقان ١٨٧٥ / ٧٦ والحرب الروسية التركية سنة ١٨٧٧/٧٨ والاحتلال البريطاني لمصر صدى قوياً في فلسطين.

وحتى في بداية ١٨٧٦ ذكر القنصل مور في تقرير من القدس أن الفئة العليا من المسلمين يستحوذ عليها القلق العميق بسبب الوضع في البلقان، وبسبب الضغط الأوروبي المتزايد على الباب العالي بصورة عامة[٨١٧]. وقد أدّت أحداث مثل قتل القنصلين الفرنسي والألماني في سالونيك في شهر أيار ١٨٧٦، وكذلك ذكرى أحداث ١٨٦٠ التي كان يجري احياؤها بنشاط، إلى انتشار الذعر بين مسيحيي القدس في الثاني من حزيران ١٨٧٦. فقد ذكر أن الخرطوش (الفشك) أعطي إلى جنود البوليس. وعقب ذلك انتشرت فجأة شائعة مفادها أن مذبحة تدبر ضد المسيحيين بعد صلاة الجمعة. فقفل المسيحيون بيوتهم ودكاكينهم على عجل ولجأوا إلى الأديرة. وحدا ذلك بوجهاء المدينة المسلمين إلى تسليم مذكرة إلى المتصرف انكروا فيها بشدة وجود أي عداء ضد سكان المدينة المسيحيين[٨١٨]. ووردت أنباء من عكا وحيفا و يافا عن انتشار الخوف والقلق بين المسيحيين[٨١٩]. وفي حيفا لم يُخفِ السكان المحليون بشكل خاص كراهيتهم للمستعمرين الألمان. وجاء في نبأ ورد إلى القنصلية في القدس أنه ساد هناك «نوع من حالة الحرب» في شهر تموز ١٨٧٦[٨٢٠].

وفي ربيع ١٨٧٧ بلغ الهياج ذروةً جديدة. ففي اللد اشترك السكان المسلمون في الحرب الروسية التركية بأن حطموا شبابيك كنيسة مارجرجس (الخضر) والقوا بداخلها

(٨١٧) PRO-F.O. 78, vol. 2494 (Jerusalem, 17.2.1876)

(٨١٨) PRO-F.O. 78, vol. 2494 (Jerusalem, 4, 10. und 30.6.1876), MAE-CPC Jér, t. 13 (Jerusalem, 7.6.1876); ISA-DKJ, A.III.8 (Jerusalem, 5.6.1876), HHSTA – Archiv Jer, Fasz. 57 (Jerusalem, 5.6.1876); HL, XX (1876), 85–87

(٨١٩) PRO-F.O. 195, vol. 1113 (AKKa, 20.6., 26.10.1876); ISA-DKJ, A.III.8. (Jaffa, 9.6. und 30.12.1876).

(٨٢٠) ISA-DKJ, A.III.8. (Jerusalem, 22.7.1876)

القاذورات. وفي سوق الرملة ألقى شيخ خطبة شعبية ضد «الكفار». وفي عكا استتبع نداء إلى الجهاد ضد الكفار تهديدات وشتائم ضد السكان المسيحيين. وفي هذا الوضع وجه القنصل الألماني في القدس رسالةً إلى المتصرف طالبه فيها بأن يتدخل بشدة؛ إذ إنّ الأمر يتعلق في خاتمة المطاف بحرب سياسية لا بحرب دينية عامة. وكان من دواعي ارتياح الأوروبيين أن عدداً كبيراً من الأشخاص قد زجّ بهم في السجن في اللد[٨٢١].

وهناك في ملفات القنصليات بطبيعة الحال تقارير مفصلة عديدة عن هذه الأحداث التي نذكرها هنا باختصار. وقد تجمعت في الملفات مواد بشكل خاص نتيجة لحادث وقع في حيفا في نهاية حزيران ١٨٨٠. فقد اعتدى المسلمون على موكب عرس مسيحي. وسقط جرحى من بينهم عدد من وجهاء المدينة المسيحيين. وصاح وكيل القنصل البريطاني (الألماني الجنسية، دكتور شميدت) على الفور: «مذبحة مسيحيين». وحددت هوية المدبرين المزعومين بأنهم الوجهاء المسلمون ومن بينهم التاجران سعيد الخطيب وخليل المغربي. واضطرت السلطات تحت الضغط الأوروبي إلى التدخل بشدة. فاعتقلت «ثلاث دزينات» من الأشخاص وساقتهم إلى سجن عكا. وصدرت ضد ٤٥ شخصاً عقوبات بالحبس تصل إلى ٢٤ شهراً. إلا أن المدعي العام في هذه القضية كان مسيحياً (سليم مَلْكي)، ولذلك فان الأحكام التي صدرت «ضد المسلمين بمفردهم» قد أثارت شعوراً بالاستياء. وكان لا بد من إعادة النظر فيها. وتمت تبرئة عدد من المحكومين، ومن بينهم الوجهاء بالطبع، عند استئناف قرار الادانة[٨٢٢].

وفي حادث آخر في الرملة في بداية تشرين الثاني ١٨٨١ هاجم جمهور من المسلمين دير الفرانسيسكان، لأن الرهبان أنشأوا بوابةً جديدة بعد الحصول على إذن من السلطات. ولم يحتمل الناس هذه التغييرات في مبنى الدير. وبناءً على تدخل القنصلية الفرنسية عمدت السلطات هنا أيضاً إلى «اتخاذ إجراءات شديدة». وهكذا حكم على رئيس البلدية

---

(٨٢١) PRO-F O 78, vol. 2615 (Jerusalem, 4 und 18.5.1877), PRO F.O 195, vol. 1155 (AKKa, 15 4 , 19 4., 7 6.1877); MAE-CPC Jér., t 13 (Jerusalem, 10.5.1877), ISA DKJ, A.III (Jerusalem, 5.5 1877, Jaffa, 4, 9 5.1877), Die Warte 7.6.1877.

قارن ايضاً:

HHSTA – PA XXXVIII, Kart. 216 (Beirut, 14.5.1877) und HL, XXI (1877), 94f.

(٨٢٢) PRO-F.O. 195, vol. 1306. (عشرة تقارير من شميدت في حيفا ومن دكسون لي بيروت ومن قائد السفينة الحربية البريطانية «بيترن ـ Bittern» بتاريخ ٢٨/٦/١٨٨٠ إلى ٩/٩/١٨٨٠).

(ملف حول الحادث):

AA – I.A.B.q. (Türkei) HHSTA – PA XXXVIII, Kart, 232 (Beirut, 3 7, 18.7., 1.8.1880; Haifa, 28.6., 11.7.1880), Die Warte, 12.8.1880.

وخطيب مسجد البلدة بالحبس شهراً لكل منهما . وقال الممثل الفرنسي متباهياً إن هذه ربما كانت هي المرة الأولى التي يُرْسل فيها خطيب في فلسطين إلى السجن[٨٢٣] .

ماذا تعني الآن هذه الأحداث والأحداث المماثلة؟ ينبغي التأكيد أولا بأن نداءات الانذار التي أطلقها الأوروبيون والمسيحيون المحليون («مذبحة» ، «اضطهاد» ، «بُغض المسيحيين») لم تكن تتفق والحقائق بشكل من الأشكال. لقد دأب القناصل على تعليل عدم وقوع حوادث خطيرة بوجود السفن الحربية الأوروبية ، التي أخذت تظهر بازدياد في المياه الفلسطينية . فهل في وسعنا بعد كل ما جرى أن نجد تفسير هذه الأحداث (بعد عقدين من صدور مرسوم الاصلاح لسنة ١٨٥٦) في «التعصب الاسلامي» الذي جهد الأوروبيون بكل قواهم لكبح جماحه؟

إن تفسيراً كهذا يتناقض تناقضاً صارخاً مع النظرات المتعمقة التي توصل إليها القناصل الأوروبيون، عندما أرسلوا بعض الرسائل التي انطوت على القليل من الانفعال، كما يتناقض مع المعلومات التي توصل إليها الباحثون في شؤون فلسطين ، الذين اشتغلوا بدراسة «الحياة الشعبية في بلد الكتاب المقدس» (باور Bauer) في ذلك الوقت . وهكذا كتب فن في تقريره لسنة ١٨٥٦ رَغمَ أحداث نابلس قائلاً إنه على الرغم من المظاهر التي تشير إلى عكس ذلك فان هناك بلاداً قليلة في العالم يُمارس فيها هذا القدر الكبير من التسامح الديني العملي ، كما يمارس في فلسطين[٨٢٤] . و يُبرز كثير من المراقبين الاتجاه إلى التوفيق بين المعتقدات الدينية المتعارضة (Synkretismus)[٨٢٥] عند سكان الأرض المقدسة ، وهو الاتجاه الذي يتجلّى قبل كل شيء في الممارسة الدينية اليومية لكل من المسيحيين والمسلمين . ولهذه الأسباب فإن ممثل النمسا شكا من هبوط مستوى الحياة الدينية في البلاد سواء عند المسلمين أو عند المسيحيين . (فالمسلمون كانوا يسمحون لأطفالهم بالتعميد في كنائس الروم ليكون لهم نصيب في بركة إله المسيحيين أيضاً* . والقساوسة اليونانيون كانوا يهدئون ضمائرهم عند قيامهم بـ«تعميد» كهذا بقولهم انهم ما غطسوا في الماء سوى الأيدي والأقدام . والمسيحيون كانوا من جهتهم يزورون المساجد ، في الأرياف على الأقل و دون أن يحسوا بوخز في الضمير)[٨٢٦] .

وقد نشرت دراسات كثيرة بشكل خاص حول «ديانة الفلاحين» في فلسطين ،

---

(٨٢٣) MAE-CPC Jér., t.14 (Jerusalem, 3.11., 17.11 , 1.12.1881)

(٨٢٤) PRO-F.O 78, vol. 1294 (Jerusalem, 1 1 1857).

(٨٢٥) مثل باور: Bauer, Volksleben, 224f.

(*) لم نسمع بهذا من قبل ، وهو على الارجح ، من تخرصات القناصل . [المترجم]

(٨٢٦) HHSTA – Archiv Jer , Fasz. 43 (Jerusalem, 3 10.1861)

وحول أشكال الاعتقادات بالخرافات وحول تقديس الأولياء، وحول العبادات المحلية و«الآلهة المحلية»[٨٢٧]. وكانت النتائج التي توصل اليها الأوروبيون مراراً هي «أن الفلاحين هم عملياً وثنيون»[٨٢٨]، و«هم مسلمون بالاسم فقط»[٨٢٩] «إن ما يُدعى بالمسلم نجده يتعبد في المزارات المكرسة للذكريات اليهودية أو السامرية أو المسيحية أو الوثنية في أحيان كثيرة... ومن العبادة في هذه المزارات يتألف دين الفلاحين. وفي حين أنهم مسلمون من حيث العقيدة فهم كثيراً ما يقضون حياتهم دون أن يدخلوا المسجد(×)، وهم يعلقون أهمية على عطف مقام القرية وحمايته أكثر من الله نفسه، أو من محمد، نبيّه»[٨٣٠]×. (في خارطة ال SWP أشّرَ على حوالي ٣٠٠ مقام، واحصى موزيل Musil في غزة وضواحيها فقط ما يزيد عن ثمانين من هذه المقدسات)[٨٣١].

ومعنى هذا أن هؤلاء كانوا ينظرون إلى المقامات المحلية والإجلال المحلي «للأولياء» باعتبارها جوهر التدين عند الفلاحين، وتعبيراً عن عالم من الايمان والتصور مصطبغ بالمحلية وبعيداً عن السداد بل و«بعيداً عن الاسلام»، عند سكان الأرياف الفلسطينيين بوجه خاص[٨٣٢]. ورغم هذا كله فقد كان يُنشَّط عند الحاجة ودون تردد الحكم المتحيز حول «المسلمين المتعصبين» الذين يُحسّون على الدوام بالرغبة في ذبح المسيحيين.

ولكن على المرء أن يلاحظ أن الأحداث التي بالغ الأوروبيون في تضخيمها إنما وقع معظمها في المدن حيث كان مذهب السنة المتمركز في مؤسسات يقوم على دعائم ثابتة.

---

(٨٢٧) قارن: Baldensperger, «Religion of the Fellahin»;
وله ايضاً: «Folklore Palestinien»,
وكذلك:
Bauer, Volksleben, 219–232, Canaan, Mohommedan Saints; Clermont – Ganneau, La Palestine Inconnue, 50–55, Conder, Tent Work, II, 218–235; Leer, 16–29; Jaussen, (الفصل السادس)

(٨٢٨) Lees, 20.

(٨٢٩) Finn, A Third Year, 222

(٨٣٠) Conder in. PEFQS, 1877, 89f.
وانظر ايضاً: SWP, Special Papers, 258–275, 315–330.

(*) رغم بطلان كثير من هذه الادعاءات والتخرصات التي ردّدها الكتاب الاوروبيون في القرن التاسع عشر والتحامل الواضح فيها فقد نقلناها بنصها الذي اورده المؤلف في معرض تفنيده لها، بقصد الاطلاع عليها ومعرفة ما جاء فيها [المترجم]

(٨٣١) Musil, II/1, 199 . وحول جبل نابلس انظر النمر، ٤، ١٦٤-١٨٠.

(٨٣٢) وينبغي أن تدرج في هذا السياق كذلك نشاطات «الدراويش». حول الصوفيين و«الاولياء» في فلسطين في هذه الفترة التي نعالجها: قارن:
"Baldensperger, Orders of Holy Men"; Bliss, Kap 5; van Ess, de Jong; Pierotti in. TS, 1875/6/7/8. 269–271, Saintine, 174–176, "A Zikr Cerremony", in PEFQS 1882, 160–163, Finn, Stirring Times, I, 208, Thomson, The Land and the Book, 299f, Die Warte, 17.5.1877; Oliphant, Haifa, 141f.

بيد أن التقليد الديني الطويل الأمد القائم على المبدأ الديني «عش ودع غيرك يَعش» لم يتزعزع في المدن الفلسطينية أيضاً بشكل من الأشكال. وقد كان التعايش الاجتماعي الديني في بلد صغير تتجه إليه أنظار اتباع ثلاثة أديان عالمية ضرورة من ضرورات الحياة أيضاً. وانطبق هذا على القدس بشكل خاص. وقد سبق أن تحدثنا عن التسامح الديني الأصيل عند رئيس بلديتها لوقت ما يوسف الخالدي. وعُدَّ من علامات «التقدم» في القدس أيضاً «تأسيس محفل ماسوني اشترك فيه مسلمون»[٨٣٣]. غير أن التعايش مع غير المسلمين قرر بالفعل المصير الذي آل إليه «أفندي» بارز آخر. وهذا الشخص هو نقيب الاشراف عبدالمطلب العلمي بالذات ودون سائر الناس. فقد جعل بطريرك اللاتين يلقنه دروس الدين سراً، وجرى تعميده بعد ذلك في روما (١٨٧٠). وهناك نوع من الأسطورة المقدسة نشرتها صحيفة La Terre Sainte روت أنه دخل في الخدمة العسكرية للبابا بيوس التاسع، ليسقط من بعد في اسبانيا كـ«جندي من جنود عيسى المسيح»[٨٣٤]. وإذا كان مناخ القدس قد أدى في هذه الحالة إلى مغامرة شخصية فان التقليد الذي اتبع بسخاء كبير سنة ١٨٦١، والذي تمَّ بمقتضاه تسليم مفتاح المدينة لوقت قصير إلى سكان المدينة اليهود عند موت السلطان[٨٣٥] كان فيه اشارة إلى احترام مشاعر اليهود تجاه القدس.

و يتبين من هذا أن الناس في فلسطين، وخاصة في المدن، قد عاشوا مع سواهم بعمق الأزمات السياسية والعسكرية للدولة العثمانية. لقد أدت التوترات السياسية والانفعالات في الأجواء مرات عديدة إلى احداث غير سارة، بدت أشبه ما تكون بالعداوة الدينية. ولكنه كان واضحاً نوعاً ما من حيث الأساس لمعظم الأوروبيين أيضاً الذين رووا هذه الأحداث أن المسألة كانت تتعلق بأشكال غير متمايزة وغير مدروسة للتعبير عن الشعور بالتهديد الاجتماعي والسياسي من الخارج. وكانت الأرضية التي يقوم عليها ذلك هي الوصاية السياسية الأوروبية والتدخل العسكري الأوروبي في الشرق الأدنى، وحماية «رؤوس الجسر» المحليين لأوروبا ومحاباتهم... بيد أنه إذا كان الأوروبيون والمتمتعون بحمايتهم قد ظلوا يخشون أسوأ العواقب من جانب المسلمين في النصف الثاني من السبعينات وبداية الثمانينات، فان هذا لم يكن يعبر عن الحقيقة الاجتماعية الدينية في فلسطين، بل عن صدمة ١٨٦٠.

---

(٨٣٣) Wolff, Sieben Artikel, 108. حول الماسونين في فلسطين انظر مورس Morris، في مواضع كثيرة، وخاصة صفحة ٢١٢، ٣٨٦، ٤١٦ وما بعدها؛ زيدان، تاريخ الماسونية، ص ٢٠٠ وما بعدها.

(٨٣٤) TS 1875/6/7/8, 84 («Un Fils de Pacha Converti au Catholicisme et Mort Glorieusement»), MAE-CPC Jér, t.9 (Jerusalem, 28.3 1867), t 10 (Jerusalem, 2.2., 24.3.1870).

(٨٣٥) Finn, Stirring Times, I, 117f. وصف بيروتي للاحتفال في سنة ١٨٦١ تجده في:
TS 1875/6/7/8, 307; Pierotti, Customs and Traditions, 75–77

التعاطف مع عرابي

سبق أن رأينا أنه في العقود التي هي موضوع دراستنا كانت هناك جوقة متعددة الأصوات تطالب بـ«امتلاك» فلسطين واستعمارها واحتلالها من جانب الدول الأوروبية. وفي موازاة ذلك كانت تتخلل أدب فلسطين كله «اللازمة» التي تقول: إن السكان لم يكونوا يحنون إلى شيء أكثر من حنينهم إلى وضع حد لحكم العثمانيين الفاسد والعاجز والظالم. وكان يُبْرَز في هذا السياق مرات عديدة التأكيد بأنَّ سكان البلاد يعدُّون أنفسهم والعرب الآخرين شيئاً واحداً أكثر بكثير مما كانوا يفعلون الشيء ذاته بالنسبة «للأتراك». فقد أكد القنصل الفرنسي سنة ١٨٦٨: «أن عواطفهم كلها مع مصر[٨٣٦]». وفيما يتصل «بنزع سلطة» آل الخالدي سنة ١٨٧٩ وصف القنصل الألماني (كما ذكرنا من قبل) كم كان الناس يترحمون على الحكم المصري[٨٤٧]. بيد أن هذه لم تكد تكون سوى أمزجة مؤقتة ليس لها قوة الشهادة السياسية، لم تكن أكثر من إعلان الاستياء من طابع الحكم العثماني وآثاره.

وهذا الاستياء كان يجد له متنفساً أيضاً في التنهُّدات من مثل: «آه لو أن الأوروبيين يحكموننا!» لكن المعاصرين من الانجليز هم في الدرجة الأولى الذين أصروا على إساءة تفسير تنهدات كهذه واعتبروها أمنية جادة في حكم اوروبي إنجليزي[٨٣٨]، خصوصاً وأنهم أنكروا على أهالي فلسطين كل شعور وطني[٨٣٩]، بيد أن قولاً كهذا لم يكن ليصدق إلا إلى المدى الذي كان يفهم فيه المؤلفون الأوروبيون بهذا الوصف الوعي الوطني والقومية وفقاً للتصوُّرات الأوروبية. واذا كان الأمر يحتاج على الاطلاق إلى تجربة، إلى اختبار «الحنين» المزعوم «إلى الحكم المسيحي / الأوروبي» فقد جعل الاحتلال البريطاني لمصر هذا الاختبار في حيِّز الامكان. أين كان عرب فلسطين الذين هللوا للإنجليز؟

---

(٨٣٦) MAC-CPC Jér., t. 10 (Jerusalem, 22.12.1868).

(٨٣٧) ISA-DKJ, A.III. 9 (Jerusalem, 13.10.1879). حول «الذكر الطيب» لابراهيم باشا في القصص الشعبية في بيرزيت انظر Schmidt / Kahle, 16—28

(٨٣٨) Finn, **Stirring Times**, I, 249, II, 179f.; Conder, **Tent Work**, I, 97f., II, 332; Conder, **"The Present Condition"**, 13; Conder, **Heth and Moab**, 374; Warren, **Underground Jerusalem**, 451; Oliphant, **The Land of Gilead**, 337; **Die Warte**, 23 10.1879.

(٨٣٩) Finn, **Stirring Times**, II, 177f.; Finn, **Home in the Holy Land**, 173—175; Lees, 38f.; SWP, **Special Papers**, 332f.; Finn, **Palestine Peasantry**, 11f. und 68.

إن جميع التقارير[٨٤٠] تتحدث بالإجماع عن التعاطف الكبير الذي تابع فيه أهل فلسطين تطلعات المصريين بل عن الآمال الكبيرة التي عقدوها عليها. واذا كانوا قد تصرفوا أيضاً بهدوء وتعقل بشكل عام، فانهم وقفوا بالفعل وبكل قلوبهم إلى جانب عرابي، بطل الشعب المصري، الذي تمتع بعطف كبير في فلسطين أيضاً. لقد أظهر مسلمو البلاد احساساً متزايداً بالذات، بل ان الحركة القومية العربية كان لها نفوذ حتى على سكان الريف. وأكد القنصل مور Moore ذلك بقوله: «من المؤكد تماماً أن المسلمين من أهل البلاد كانوا يتعاطفون مع عرابي تعاطفاً عميقاً، سواء بوصفه مسلماً يقاتل الكفار أو بوصفه، بصورة أخص، بطل الأمة العربية الاسلامية، الذي جعلوا من نجاحه الأساس الذي تقوم عليه احتمالات تمس مستقبل أمتهم، فيما يتجاوز مجرد صد الغزو عن مصر[٨٤١]. وتحدث ميكلا سيفتش Miklasiewicz بلغته الخاصة من صفد فقال إن المسلمين نظراً للأحداث في مصر «ترددوا في حالة من الخبث والتوحش بحيث أن المرء لم يعد يستطيع لا أن يتعامل معهم ولا أن يسمعهم يتحدثون بكلمة طيبة». وقد أظهروا موقفاً عدائياً تجاه الإنجليز والفرنسيين، «ومن جهة أخرى فانهم يُؤلهون مجرد اسم عرابي باشا و ينظمون أهازيج النصر المختلفة في مدحه»[٨٤٢].

ووقعت في غزة و يافا واللد حوادث صغيرة وتنابذٌ في الكلام مع المسيحيين المحليين لأسباب لم يكن آخرها وجود عدد من اللاجئين من مصر. ومع ذلك فان السلطات العثمانية سعت بكل قواها إلى حصر الهياج وعدم تعكير صفو السكينة في البلاد. ونبّه متصرف القدس على الناس في عيد الأضحى بقبة الصخرة بأن لا يعطوا الأوروبيين ذريعة للتدخل، وذكّر في هذا الصدد بأحداث ١٨٦٠ في سوريا.

إن الذهول الذي أصاب أهل فلسطين جرّاء هزيمة عرابي في ١٣ أيلول ١٨٨٢ ودخول القوات البريطانية إلى القاهرة، قابله ارتياح من جانب القنصل البريطاني في القدس:

---

(٨٤٠) قارن:
AA – Ägypten 3, adh.8, Bd. I (Jerusalem, 4 und 24.7.1882), Bd. 2 (Jaffa, 14 8 1882, Jerusalem, 25 8., 6 9.1882); Bd. 3 (Jerusalem, 19,9 1882); PRO-F.O. 195, vol. 1412 (Jerusalem, 29 7., 23.9 1882), ISA-BCJ, J22/22 (Gaza, 24,9 1882), MAE-CPC Jér., t. 15 (Jerusalem, 27.7., 30.7., 2.8., 6.9., 20.9.1882), HHSTA – PA XXXVIII, Kart. 242 (Jerusalem, 23.7 1882); Die Warte, 20.7., 31.8.1882); NNM 26 (1882), 138f.

(٨٤١) PRO-F.O 195, vol. 1412 (Jerusaelm, 23.9.1882).

(٨٤٢) HHSTA – PA XXXVIII, Kart 241 (Safod, 14.8.1882). حول الجو في الناصرة انظر منصور، ١٠٠ وما بعدها.

[من الواضح أن نجاحاتنا السريعة والمتألقة قد أثرت كثيراً في عقول الناس بحيث أن أفكارهم ومشاعرهم، رغم قصر المدة، أخذت تعود بسرعة إلى مجاريها القديمة المعتادة. ولكنه نشأ عن ذلك انطباع حيٌّ واحد يحتمل أن يكتب له البقاء، كما يكتب له النفع. - ألا وهو تقدير للقوة والموارد المادية والعلمية التي تمتلكها دولة اوروبية عظمى باتوا يشعرون الآن أنه من غير الحكمة أن يكافحوا ضدها؛ هذا إلى أن حملتنا الظافرة ستذكر بلا شك في جانبها العقابي كرادع قوي ضدّ انفجارات التعصب تلك التي ترتب علينا أن نستهجنها بصورة دورية، وبذلك نؤدي خدمة لا تقدر إلى السكان المسيحيين في جميع البلدان الإسلامية[٨٤٣].]

وها إن التفسير القصير النظر للكفاح ضد التعصب الاسلامي ومن أجل حماية المسيحيين الشرقيين قد حجب مرة أخرى جميع النظرات المتعمقة للأمور.

لم يكن كفاح عرابي ضد الإنجليز يعني بالنسبة لأهالي فلسطين سوى فصل قصير من توقعات خابت بسرعة، وهي توقعات ما كان لها أن تأخذ على أية حال شكلا ملموساً مبالغاً فيه. وكان أعلى ما بلغه الوعي هو الاعجاب بمحاولة تأكيد الذات ضد اوروبا التوسعية التي هاجمت الدولة العثمانية بقوة متزايدة منذ منتصف الستينات.

وقد تبين فيما بعد أن دخول البريطانيين إلى القاهرة كان بداية لتطور أدى إلى دخولهم إلى القدس في سنة ١٩١٧. وفيما بين هذين التاريخين وقع الاستعمار اليهودي أو الصهيوني المكثف لفلسطين، الذي أصبح تحدياً مباشراً لعرب فلسطين على نحو يتجاوز التطور الذي يحدث خارج حدود البلاد.

وحتى البدايات الأولى للاستيطان اليهودي حملت في ذاتها جرثومة النزاع المقبل. ففي سنة ١٨٧٠ أسس شارل نيتير (Charles Netter) من رجال التحالف الاسرائيلي العام Alliance Israelite Universelle مدرسة مقوه اسرائيل Mikweh Israel الزراعية جنوبي يافا[٨٤٤]. وقد حصل على أرض للمدرسة بموجب فرمان من السلطان، وكان يفلح هذه الأرض حتى ذلك الحين فلاحو قرية يازور. «ومع أن الأرض ملك للحكومة، فقد اعتاد الفلاحون بسبب استعمالهم القديم للأرض أن ينظروا إليها كأنها أرضهم بالفعل، وكانوا يأبَوْن أن يحتلها أي شخص آخر.» ولذلك أصبح الفلاحون أعداء ألدّاء لمزرعة المدرسة[٨٤٥].

---

(٨٤٣) PRO-F O. 195, vol. 1412 (Jerusalem, 10 10 1882)

(٨٤٤) قارن بهذا الشأن: Chouraqui, 357–363, 451–456, 464f

(٨٤٥) SWP, Samaria, 256f.

وفي أواخر صيف ١٨٧٠ زار والي دمشق مدينة يافا ومر برفقة نيتر و«الميكلي» هوفمان وإرنست هاردج Hardegg بقرية يازور أيضاً :

[وعندما دخل بين مزرعة نيتر والمدينة ارتمى عليه نساء ورجال عرب وتوسلوا له، وهم يمسكون برسن بغلته وسرواله، لعله يساعدهم في نيل حقهم، فاليهود يأخذون أرضهم منهم. وأشاروا في هذه الأثناء إلى نيتر، وهم يصرخون : «اليهود، اليهود». وكان نيتر يركب إلى جانب الوالي. ورجا الباشا، الذي كان يركب في الجانب الآخر. إيرنست أن يعطيه سوطه وطاردهم من هناك بنفسه. وتسلّم الوالي بالمناسبة استدعاء قدمه له أحد الشيوخ[٨٤٦].]

أما أن الاحتلال البريطاني لمصر وبداية الهجرة اليهودية الأولى (عالية الأولى) في سنة ١٨٨٢، قد وضعا تحويلات من وجهة مزدوجة على طريق تطور فلسطين المقبل، فهذا لم يظهر الا بعد هذا التاريخ بوقت طويل.

---

(٨٤٦) Die Warte, 29 9 1870.

النظرة الختامية

وضع بول غوغان لوصيته الفنية ، وهي نقش جداري ضخم أنشأه في تاهيتي سنة ١٨٩٧ ، عنواناً هو: «من أين نأتي ، ومن نحن ، وإلى أين نحن ذاهبون؟». هذه الأسئلة الأساسية التي طرحها الرسّام يمكن أن نعدّها أيضاً مرشداً للتأمل لدى كتابة التاريخ . في بادىء الأمر يطبقها المرء على مجتمعه هو. لكنها قد تعبّر بشكل مشابه عن اهتمامنا بالمجتمعات غير الأوروبية ، حين لا يكون هذا الاهتمام موجهاً بصورة مجردة نحو الافتتان بالأشياء القديمة العهد أو الأشياء الغريبة .

بيد أن اهتمامنا بفلسطين في القرن التاسع عشر ليس ذا طبيعة عامة حسب ، فقد حددته بشكل غير اعتباطي التجربة التاريخية والمعاصرة للنزاع حول فلسطين ، الذي مضى عليه الآن أكثر من مائة عام (منذ ١٨٨٢) . ما هي الخصائص التي تميز بها المجتمع العربي الفلسطيني قبل هجرة اليهود الأوروبيين؟ وفي أي مرحلة من مراحل التطور كان يمرُّ هذا المجتمع إذّاك؟ وهل في وسعنا أن نضع أيدينا على عناصر التراث التاريخي التي تثقل كاهله الآن أو توحّد شمله؟ هل نستطيع رغم كل الكوارث التي نزلت بالمجتمع الفلسطيني في القرن العشرين ، أن نتبين خطوط استمرار أو جزراً من الاصالة الاجتماعية الثقافية على الأقل؟ أم أن التصدعات كانت عميقة الغور بحيث أن التاريخ أصبح الآن عاجزاً عن أن يُزود فلسطينيي هذه الأيام بهوية خاصة بهم؟ إن الدراسات التي يضمها هذا المجلّد هي بمثابة المادة الخام التي تمكننا هي ودراسات كثيرة أخرى تحمل طابعاً مماثلا من التأمل في الاسئلة المطروحة .

وبين يدي هذه الخلفية العامة كان هناك اهتمام خاص يحدّد طبيعة الدراسات الماثلة أمامنا : السؤال عن الآثار الملموسة للتغلغل الأوروبي وسياسة المركزية والاصلاح العثمانية في مرحلة محددة من مراحل التطور التاريخي للشرق الأدنى ، وفي هذا الصدد قررت المادة المتوافرة في المصادر المتاحة لنا الجوانب المنفردة التي يمكن معالجتها . أما المؤرخون الذين لديهم أسئلة أخرى ، والذين يستطيعون استخراج مصادر أخرى (الذين يتاح لهم مثلا الوصول إلى الأرشيفات التركية التي منعت عني) ، فسوف يكملون هذه الدراسات ويصححونها .

هل هناك نتيجة رئيسية بارزة للعيان لهذا التأليف؟ لقد حددنا في المدخل معالم الطريق الذي سلكه تاريخ فلسطين ضمن إطار التطور العام للدولة العثمانية في القرن

التاسع عشر. وأود أن أتمسّك بالترتيب والتقسيم الذي وضعته، وأتمسك بذلك أيضاً بتارخيْ ١٨٥٦ و١٨٨٢. ولكن أرقام هذه السنين لا تشير بطبيعة الحال إلى انعطاف مفاجىء. فلم تكن هناك بالتأكيد أحداث ثورية. ومع ذلك فقد تم في هذه المرحلة المخبأة على هذا النحو تحول حاسم فاصل. واذا نحن وضعنا تاريخ فلسطين منذ بداية القرن التاسع عشر حتى الاحتلال البريطاني سنة ١٩١٧ نصب عيوننا فسيظهر لنا أن سنوات الستينات كانت بمثابة المِفْصَل في تطور البلاد الاجتماعي السياسي. إن هذه السنوات قسمت القرن الأخير من قرون الحكم العثماني في فلسطين إلى نصفين. فبالمقارنة بمرحلة التحول الحاسم التي درسناها هنا فان الحكم المصري الذي دام عشر سنوات، من ١٨٣١ إلى ١٨٤٠، ومحاولات الاصلاح العثمانية التي تلمست طريقها في فترة التنظيمات الأولى، ومغامرة الاستيطان السابقة للصهيونية، ثم الصهيونية ابتداء من ١٨٨٢، أسفرت عن تحولات أقل حسماً. ان العاملين الحاسمين في النظام الاداري السياسي الجديد وفي تحول الهيكل الاجتماعي الاقتصادي لفلسطين في الستينات والسبعينات كانا انبثاق سياسة المركزية والاصلاح العثمانية من جهة، والتغلغل الأوروبي وما رافقه من دمج متزايد في الاقتصاد العالمي من جهة أخرى.

ولنجمل الآن النتائج الديموغرافية والاقتصادية والاجتماعية السياسية التي توصلنا ليها: حوالي سنة ١٨٥٠ كان يسكن في فلسطين زهاء ٣٥٠٠٠٠ نسمة. وكان حوالي ثلثي السكان يعيشون في ٦٥٧ قرية، وحوالي الثلث في ١٣ مدينة، أو بلدة. وكان ٨٥٪ من السكان من المسلمين. وشكل المسيحيون ١١٪ وتركزوا في مدن القدس وبيت لحم ويافا واللد والرملة وحيفا وعكا والناصرة، وكذلك في قرى المنطقة الجبلية المحيطة في القدس وفي الجليل الأدنى والأعلى. وكان أقل من ٤٪ من سكان البلاد من اليهود الذين عاشوا كلهم تقريباً في القدس والخليل وصفد وطبريا. وبقي العدد الكلي للسكان ثابتاً إلى حد بعيد حتى منتصف الستينات ولكن كانت هناك هجرة داخلية على نطاق محدود، وأسفرت هذه الهجرة عن خسائر في السكان في المنطقة المجاورة لغزة وفي المنطقة الجبلية المحيطة بالخليل، بينما كانت هناك مكاسب سكانية في المنطقة المجاورة ليافا وفي الجبال المحيطة بالقدس وفي بعض المدن. وعكست هذه الحقائق الديموغرافية الوضع العام في البلاد. وشهدت الخمسينات والستينات التشنجّات الأخيرة لنظام الحكم المحلي الذي حلّت محله الهياكل الادارية الجديدة التي فرضت في نطاق التنظيمات. واتسمت تلك السنوات بالنزاعات الداخلية والمواجهات العسكرية بين الزعماء المحليين والسلطات العثمانية، وبتبختر البدو أنفسهم في المنطقة الجبلية وبافقار الفلاحين بسبب الغرامات الدائمة التي كان يفرضها

شيوخهم. وفيها نهاية هذه المرحلة، في سنتي ١٨٦٥ ــ ١٨٦٦، اصيبت فلسطين بخسائر مهمّة في السكان جرّاء وباء الكوليرا.

إلا أنه بدأ بعد ذلك نمو سريع في السكان وعلى الأخص في السبعينات. وفي عقد ونصف من السنين، وحتى بداية الثمانينات، نما عدد سكان فلسطين بنسبة الثلث فبلغ حوالي ٤٧٠٠٠٠ نسمة. وكان النمو متماثلا تقريباً في المدن والأرياف. ويبدو أن النمو بلغ أشده في شمال فلسطين. وأصبح السكان اليهود يشكلون الآن ٥٪ من مجموع السكان. وهذا التصاعد في السكان ينبغي أن ينظر إليه بطبيعة الحال في سياق التطور العام للبلاد. ومن العوامل المنفردة التي أدت اليه ضمان أمْن متزايد لمعيشة الفلاحين، والازدهار الاقتصادي العام، والهجرة التي حَفّز اليها تطور فلسطين الاقتصادي، وتحسن الظروف الصحية الطبية. ومنذ منتصف الستينات ساد البلاد جوٌّ من التفتح، وازداد الشعور بالأمن، كما ازداد وعي الناس بأنهم يعيشون في عصر من العمران و«التقدم». ولحسن الحظ فان هذا التطور لم ينقطع حقاً إلا لفترة قصيرة في نهاية السبعينات مرة جرّاء الشقاء العام الذي جلبته رداءة الموسم الزراعي، ومرة أخرى جرّاء حروب ١٨٧٦ ــ ١٨٧٨ في البلقان، وهي الحروب التي شهدت فلسطين في أثنائها تجنيداً بالجملة وكلفت سكانها آلاف الضحايا.

والمعلم البارز لتطور فلسطين الاقتصادي في الفترة التي درسناها كان دمجها المتزايد في السوق العالمية، الذي بدأ مع بداية حرب القرم، وما ارتبط بذلك من تصاعد في الانتاج الزراعي وتوجيهه نحو التصدير. وكانت منتجات فلسطين تباع في الاقليم نفسه (مصر ولبنان وسوريا الوسطى وآسيا الصغرى)، وفي اوروبا بصورة متزايدة. وكانت منتجات التصدير الرئيسية هي القمح والشعير والذرة والسمسم والبرتقال وزيت الزيتون والصابون، وأحياناً القطن في فترة رواج القطن جرّاء الحرب الأهلية الأميركية. وتجاوباً مع زيادة السكان تسارع تطور الانتاج الزراعي في النصف الثاني من الستينات وفي السبعينات، وتم ذلك في الدرجة الأولى عن طريق توسيع رقعة الأراضي المفتلحة. وهكذا انشئت في هذا الوقت مزارع جديدة واسعة لأشجار الزيتون. وتضاعفت مساحة البساتين في يافا (بيارات البرتقال وبساتين الخضروات) أربع مرات من ١٨٥٠ إلى ١٨٨٠، ونمت المساحة المزروعة بالحبوب في جنوب فلسطين، وعلى الأخص في منطقتي غزة ويافا، في السبعينات من ١٥٠,٠٠٠ فدان إلى ٢٠٠,٠٠٠. وفي شمال البلاد حدث توسع بمساحات كبيرة في مرج ابن عامر وفي الغور.

ووفقاً لذلك ازدادت أرقام الانتاج والتصدير. وقدر المردود السنوي لمحصول البرتقال حول يافا مثلا بـ ٢٠ ميلون حبة سنة ١٨٨٠. وازدادت الصادرات من ميناء يافا في

سنوات ١٨٧٣ ــ ١٨٨٢ بالمقارنة مع سنوات ١٨٥٧ ــ ١٨٦٣، بالنسب التالية : القمح خمسة أضعاف، والسمسم وزيت الزيتون مرة ونصف، والصابون ضعفين والبرتقال ثلاثة أضعاف ونصف. وتوافق التوسع في زراعة الزيتون وتضاعف تصدير الصابون من يافا مع تضاعف معامل الصابون في نابلس من ١٥ في سنة ١٨٦٠ إلى ٣٠ في سنة ١٨٨٢. وتضاعفت قيمة مجموع البضائع المصدرة من يافا في فترة المقارنة ذاتها (١٨٧٣ ــ ١٨٨٢ بالمقارنة مع ١٨٥٧ ــ ١٨٦٣).

ولم تشهد الأعمال اليدوية والحرف تطوراً صاعداً على هذا الوجه الا في مجالات منفردة. ولم يكد يحدث أي تغيير في النموذج التقليدي للتخصص الحرفي. ونشير هنا إلى النسيج وصناعة الفخار وصناعة الحرير في غزة، وانتاج الأواني الزجاجية وقِرَب الماء وكذلك تصنيع العنب في الخليل، وانتاج الأدوات الخاصة بالتعبد وأعمال البناء في بيت لحم، وانتاج الصابون وتصنيع القطن في نابلس، وأعمال البناء وانتاج الأدوات الزراعية في الناصرة. وشهدت أعمال البناء طفرة واضحة، خصوصاً بسبب ازدهار العمران في مدن القدس وبيت لحم والناصرة ويافا وحيفا، وشهد مثل هذه الطفرة انتاج الصابون وصنع أدوات التعبُّد (للحجاج وللتصدير) وانتاج الأدوات الزراعية (بسبب توسع الانتاج الزراعي).

صحيح أن هذا التطور في الستينات والسبعينات ــ الطفرة في الانتاج الزراعي وفي التجارة وفي مجالات منفردة للأعمال اليدوية أيضاً ــ لم ينشأ بفضل سياسة اقتصادية عثمانية هادفة، لكن الادارة العثمانية أوجدت الظروف الاطارية له في سياق سياسة التنظيمات، بمعنى أنها وضعت حداً للتناحر والاقتتال في المنطقة الجبلية، وأبعدت البدو عن السهول وأرست أسساً قانونية إدارية جديدة. وأما العاملان الآخران المتصلان بالموضوع فكانا الطلب المتزايد على الانتاج الفلسطيني في الأسواق الخارجية ونشاطات الأوروبيين في البلاد، وهي النشاطات التي أدت إلى نهوض اقتصاديات البناء وزيادة الحاجة إلى الاستيراد. ونستطيع أن نتبين مدى سرعة استجابة الناس في فلسطين لظروف السوق، أي للطلب الخارجي، ومرونتهم في هذا الشأن في رواج الحبوب في حرب القرم وكذلك في رواج القطن في أثناء الحرب الأهلية الأمريكية. وقد أسهمت فلسطين بما كان لديها من فائض زراعي في تموين البلدان المجاورة، كما أسهمت بفائض التصدير إلى اوروبا في تعادل الميزان التجاري لسوريا كلها.

إن ربحية الانتاج الزراعي الموجه للتصدير وامكانية توسيع الرقعة الزراعية المفتلحة قد استتبعتا تقويماً جديداً للملكية الفردية للأراضي سواء من جانب الحكومة العثمانية

المركزية أو من جانب الفئة العليا المحلية. وقد ضمنت ظروف إطارية قانونية جديدة بصورة تدريجية سلطة التصرف الاقتصادي الفردي الخاص في الأرض. ونشأت فئة من ملاكي الأراضي الكبار كانت تتألف من أفراد عائلات الشيوخ في المنطقة الجبلية ومن وجهاء المدن من جهة، ومن أفراد فئة التجار ورجال المال المتزايدة، خصوصاً في المدن الساحلية بما فيها بيروت، من الجهة الأخرى. وهذه الفئة كانت تتألف بشكل خاص من أفراد الطوائف المحلية غير الاسلامية ومن الأوروبيين أو الأشخاص المتمتعين بحمايتهم. أي أنها انتفعت مرتين وثلاث مرات من الازدهار الاقتصادي في البلاد: عن طريق الاتجار بالمنتجات الزراعية، وعن طريق تمويل التجارة وعن طريق أعمال الإقراض الأخرى، وكذلك عن طريق استثمار رأس المال في ملكية الأرض وفي الانتاج الزراعي.

ومعنى هذا أن التطور الديموغرافي قد عكس التحوُّل الحاسم في التطور الاقتصادي لفلسطين في الستينات والسبعينات. وجرى هذا بدوره في إطار الظروف السياسية الادارية المتغيرة: وفي النصف الثاني من القرن الثامن عشر وفي أوائل القرن التاسع عشر كان هناك في فلسطين ثلاث مناطق إدارية سياسية: شمال البلاد، الجليل الأدنى والأعلى، كان يقع تحت الاشراف الفعّال نسبياً لوالي صيدا أو عكا. وفي المدينتين الساحليتين المهمتين بالنسبة للتجارة والمواصلات، عكا وحيفا، وكذلك في القدس فرضت الادارة العثمانية وجودها الاداري. الا أنّ المنطقة الجبلية الوسطى كانت تخضع للشيوخ المحليين، لعائلات الزعماء المحليين. وبعد فترة الحكم المصري العارضة شهدت فلسطين الشمالية نوعاً من الفراغ الذي لم تستطع الإدارة العثمانية المؤسسة حديثاً أن تملأه الا بصورة ناقصة. وفي المنطقة الجبلية الوسطى أمكن اعادة تشكيل نظام الحكم المحلي بصورة تامة بعد انسحاب المصريين. ولم تسفر سياسة الاصلاح العثمانية في فترة التنظيمات الأولى من حيث الجوهر إلا عن تغييرات في مؤسسات المدن السورية الكبرى. وعلى هذا فقد ظل الهيكل الاجتماعي السياسي، النموذج السياسي الاداري، قائماً في منطقة الجبال الفلسطينية الوسطى حتى نهاية الخمسينات: كان الزعماء المحليون، رؤساء العائلات السائدة، يسيطرون من كراسيهم، من مقارهم الأصلية، على مناطقهم. وكانوا يفرضون على الفلاحين إتاوات بحكم العرف والعادة وغرامات غير منتظمة وضرائب رسمية، و يسلمون هذه الأخيرة، أو جزءاً منها على الأقل، الى الحكام العثمانيين المختصين في أثناء حملات جمع الضرائب التي كانوا ينظمونها. واشتبك الزعماء في نزاعات مستمرة بعضهم مع بعض على الموارد البشرية والمادية في المناطق، أي على الضرائب العينيّة والنقدية التي يدفعها الفلاحون من جهةٍ ومن أجل كسب الاتباع من الحمائل والقرى أو المناطق المنفردة من جهة أخرى. وهذه

العلاقات القائمة على جمع الإتاوات والأنصار بين الفلاحين والزعماء المحليين كانت ما تزال ذات فاعلية في الخمسينات أيضاً.

وفي أثناء حرب القرم وعلى أثر سحب جميع الجنود العثمانيين تقريباً من فلسطين أدّت إرادة تأكيد الذات لدى الزعماء المحليين إلى العصيان مرة أخرى إلى أن أرغمهم الحكام العثمانيون في القدس وبيروت ودمشق على الجثو على ركبهم بصورة نهائية في نهاية الخمسينات وبداية الستينات في سلسلة من حملات الإخضاع. وكان أحد أهم أهداف السياسة العثمانية في سوريا كلها بعد حرب القرم وخصوصاً بعد سنة ١٨٦٠ كسر شوكة الزعماء المحلين حتى يتسنى تنفيذ خطة الاصلاح لفترة التنظيمات الثانية الموضوعة والموجهة من المركز. وكان يبدو أن المركزية الادارية هي شرط لذلك. وهذه السياسة لم تكن تتبع من أجل ذاتها بالطبع، إذ إنّ مدار الأمر كان بالأحرى هو زيادة الفعالية المالية والعسكرية للولايات السورية. أي من أجل زيادة فعالية جمع الضرائب وحملات التجنيد، وهو هدف أصبح أشد إلحاحاً باستمرار نظراً للضائقة المالية والعسكرية الحادة التي كان يعاني منها كيان الدولة في السبعينات.

كان هنالك أربعة أنواع مختلفة لهياكل الحكم المحلي في فلسطين: في الجليل الأدنى كان زعيم بدوي هو عقيل آغا أهم عامل من عوامل السلطة من سنة ١٨٤٧ حتى ١٨٦٤. كانت وظيفته الرسمية هي قائد قوات الباش بوزك. ومنذ سنة ١٨٥٢ حاولت السلطات العثمانية تجريده من السلطة، وهو ما لم تنجح فيه نهائياً إلا في سنة ١٨٦٤. وفي جبل نابلس كانت هناك حرب محلية منتظمة بين حزبين كبيرين حزب عبدالهادي من جانب وحزب طوقان من جانب آخر. وكان سبب الحرب هو الرغبة في السيطرة على مناطق منفردة والسيطرة على الجبل كله على حد سواء، وخصوصاً على منصب حاكم قضاء نابلس. وانتهى حكم الشيوخ هنا باقتحام القوات العثمانية المقر الأصلي لآل عبدالهادي في عرّابة، في نيسان ١٨٥٩. وفي جبل القدس كان هيكل السلطة مختلفاً من حيث أن التّناحر بين الزعماء المحليين وعلى رأسهم آل أبو غوش وآل اللحام كان يدور حول السيطرة على قرى المنطقة الجبلية فقط. أما القدس نفسها فقد كان لها بمن فيها من عائلات قديمة مستقرة وموظفين عثمانيين هيكل سلطة خاص بها. إلا أن وجهاء القدس كانت تربطهم بقرى الجبل أو بالزعماء الريفيين المحليين علاقات رعاية. وكان الوضع في جبل الخليل مختلفاً بدوره. فهنا كان التنافس بين فئتين من عشيرة العمرو، مع اتباع كل منها، جوهر الخصومات، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن مدينة الخليل لم يكن لها إلا دور ثانوي. بل إن المدينة كانت من ناحية السلطة السياسية بمثابة ملحق لضواحيها الريفية. وكما

حدث في جبل نابلس فقد أمسكت الادارة العثمانية بزمام الأمور العسكرية والادارية في المنطقة الجبلية المحيطة بالقدس والخليل كذلك عام ١٨٥٩. وكان من العلائم الظاهرة لذلك الحاميات العسكرية في المدن وإنزال الجنود في القرى المنفردة. و بذلك انتهى عهد الزعامة المحلية بصورة قاطعة.

ولكن معظم عائلات الزعماء المحليين استطاعت سريعاً أن تنشىء مراكز سياسية إدارية واقتصادية جديدة وأن تنقذ سلطتها ونفوذها في العهد الجديد. إلا أنها اضطرت بهذا الشأن إلى نقل مركز نشاطها إلى المدن بصورة كاملة وأن تجد لها موطىء قدم في الهيئات الادارية التي انشئت هناك وهي مجالس الادارة، والبلديات والمحاكم المختلفة. وعلى هذا فان السلطة الاجتماعية السياسية في الجبال الفلسطينية انتقلت بسرعة فائقة من كراسي الزعماء المحليين إلى مجالس المدن. وأصبحت القدس ونابلس في المقام الأول مراكز إدارية من الدرجة الأولى. وقد أصبح الاتجاه إلى المدن ضرورياً أيضاً لأن منح الالتزام وضع في أيدي مجالس الادارة. وكان على شيوخ الأرياف أن يتزاحموا هناك الآن مع وجهاء المدن على هذا المصدر الكبير من مصادر الكسب. أي أن التبدل في الاتجاه لم يقم على أساس إداري سياسي بحت، بل على أساس المنطق الاقتصادي أيضاً. إن الاقتتال المحلي من أجل النفوذ والسلطة والموارد الاقتصادية في الجبال كان قد أصبح بالياً في الستينات والسبعينات. وانتقلت مراكز الانتاج الزراعي إلى السهول. وانفتحت أفضل الإمكانات الاقتصادية في مراكز المدن. و بذلك كان للتحول بشكل معين بعدٌ جغرافي أيضاً.

ولا شيء يوضح بجلاء التحول الحاسم الذي جرى في فلسطين أكثر من أن خليفة القائد البدوي عقيل آغا في الزعامة المحلية في الجليل الأدنى كان منذ سنة ١٨٦٩ المصرفي وصاحب المشروعات البيروتي سرسق. وتبعاً لذلك أصبح مصطفى أبوغوش في جبل القدس ــ وهو الزعيم المحلي المسيطر في الأربعينات والخمسينات ــ شخصيةً تاريخية اسطورية كما أصبح كرسيُّه مركزجذب للسياح، في حين أن يوسف الخالدي كان العقلية السياسية الشامخة الجديدة منذ الستينات، وهو الذي كان رئيساً لبلدية القدس وعضواً في مجلس المبعوثان عن اللواء سنة ١٨٧٧ / ١٨٧٨. و ينتسب الخالدي إلى احدى عائلتي الوجهاء السائدتين في المدينة، وكان عالماً وادارياً ملتزماً بسياسة التنظيمات. ولدى مقارنة دور عقيل آغا من جانب ونقولا سرسق من جانب آخر، ودور مصطفى أبوغوش و يوسف الخالدي من جانب آخر يتجلى لنا بوضوح وعلى نحو مباشر مدى التحول الاجتماعي الاقتصادي والسياسي الاداري في فلسطين في الستينات والسبعينات من القرن التاسع عشر، بتمامه وكماله.

وكان من نتائج سياسة المركزية العثمانية والتغلغل الاوروبي أيضاً أن فلسطين أخذت بالتدريج في أذهان المعاصرين شكل كيان سياسي اداري. وإلى هذا الحد فان تعيين حدود فلسطين الانتداب بعد الحرب العالمية الأولى لم يكن عملاً اعتباطياً. وقد أسهم الأوروبيون في اتخاذ فلسطين هذا الشكل من حيث إنهم عاملوا «الأرض المقدسة» في سياستهم وفي نشاطاتهم كوحدة تاريخية جغرافية. وفي الحق أن محاولات العثمانيين المتكررة لضم ألوية فلسطين الثلاثة في ولاية واحدة (١٨٣٠، ١٨٤٠، ١٨٧٢) وكذلك إقامة متصرفية القدس المرتبطة رأساً بالباب العالي (١٨٧٤) كانت من الأهمية بمكان في هذا الشأن. و يعني هذا أن فلسطين أصبحت كياناً ادارياً واضحاً حتى في القرن التاسع عشر.

أما فيما يتعلق بالعلاقة بين الطوائف الدينية وتغيرها المحتمل في نطاق عمليةالتحول العامة فان هذا الجانب من جوانب التحول الحاسم كان أقل أهمية بالنسبة لفلسطين منه بالنسبة إلى لبنان وسوريا مثلا. لقد قيل بحق بالنسبة للولايات السورية للدولة العثمانية عامةً إن الميزان الداخلي للعلاقات بين الطوائف العرقية والدينية أو بين الأكثرية العربية السنيّة والأقليات المختلفة، خصوصاً منذ بداية الثلاثينات، قد أخلّ به عاملان: أحدهما السياسة المصرية التي وَضَعت بشكل تظاهري محسوب سياسياً أعضاء الطوائف الدينية المختلفة على قدم المساواة، وهي السياسة التي لمست الأكثرية المسلمة في آثارها العملية تمييزاً للمسيحيين؛ وثانيهما السياسة الأوروبية الخاصة بما يدعى بـ«حماية» المسيحيين واليهود، وهم أعضاء الأقليات الدينية الذين أُظهروا بمظهر حلفاء للأوروبيين، و«رؤوس جسر» للتغلغل الأوروبي.

و يلمس المرء الآثار الأشد عمقاً لهذين العاملين في لبنان ودمشق. و بقيت هذه الآثار في فلسطين ضمن حدود، مع أن التغلغل الديني الثقافي كان هنا بالذات، و بشكل خاص، أشد كثافة، وكانت المنافسات على «حماية» الأقليات على أشدّها. ومع ذلك فانه نظراً لما كان لهذه المصالح الدينية الثقافية في فلسطين من تقاليد طويلة الأمد، ولأن الناس كانوا على وعي تام بأن بلادهم قد اجتذبت الآن الاهتمام الخاص لأتباع الديانات العالمية الثلاث، فان الهجمة الأوروبية منذ نهاية الثلاثينات لم يكن لها في بداية الأمر آثار متطرفة في خطورتها على العلاقات بين الطوائف الدينية.

وقد خابت آمال الأوروبيين مراراً وتكراراً في مساعيهم التي لم تهدأ لاكتشاف الأقليات «التي هي في حاجة إلى الحماية» أو (كما في حالة البروتستنت) لخلق هذه الأقليات أولاً عن طريق التبشير؛ إذ لم يجدوا الاستقطاب الاجتماعي القائم على أساس

الـديـن، والتعصب الاسلامي الذي افترضوه. وعندئذ شكوا من الاتجاه للتوفيق بين الأديان أو مـن «وثـنـيـة السكان عملياً» ثم سخروا (كما فعل القنصل الألماني) من ليبرالية رئيس بلـدية القدس ومبعوثها إلى مجلس المبعوثان يوسف الخالدي ومن تسامحه الديني. وكذلك في الاشـتـجـار والاقـتـتال في المنطقة الجبلية المحيطة بالقدس ذات السكان المسلمين المسيحيين المختـلـطين، لم تقف الحمائل والقرى بصفتها الدينية بعضها ضد بعض أبداً؛ إذ إنّ ثنائية قـيـس ويمـن الـتـي أكـل الـدهـر عـليها وشرب هي التي استخدمت بالأحرى أداة لتشكيل الأحـزاب، وهـي الأداة الـتـي عـلـت فـوق الـطوائف الدينية، وهذا أيضاً نظر اليه القنصل الـفـرنسي مـثـلا بـضـيـق وتأفف؛ إذْ لاحظ في حديثه عن كاثوليك بيت جالا، وفي معرض الإتـهام، بأن الانتماء الحزبي عندهم أهم من الانتماء الديني. وفي الجليل الأعلى تمّ أمام خلفية الفعالية الضئيلة للادارة العثمانية التقرب إلى قائد الجند غير النظاميين البدوي عقيل آغا باعتباره «حامياً» للمسيحيين واليهود. ونتيجة للحسابات السياسية ذهب عقيل آغا إلى أنّ الأقـلـيـات في فـلسطين الشمالية، في حاجة إلى حمايته، مع أنه لم يكن هناك ما يشير إلى هذه الحاجة، ولم يكن هناك ما يشير إلى ذلك أيضاً حتى إبّان أزمة ١٨٦٠.

وكـان مـن أثـر أحـداث سـنـة ١٨٦٠ في جبـل لـبنان ودمشق أن الأ وروبيين في «الأرض المـقـدسـة» وضعوا على عيونهم من الآن فصاعداً نظارات غير مرئية، كانوا يتبينون من خلالها في مشاجرة تحدث في حيفا سنة ١٨٨٠ مثلاً ـــ وفي مغالاة عجيبة ـــ بداية لمذبحة محـتـمـلـة لـلـمـسيحيين فيدعون لهذا السبب إلى ارسال سفن حربية اوروبية. ومع ذلك فان الـعـلاقـة بين الـطـوائف الدينية لم تختل اختلالاً قوياً، رغم الأحداث المؤسفة في الشمال، ورغـم لجـوء الأ وروبـيين في الـبـلاد إلى اقـامـة الحـدود الـطـائـفـية. وكان قيام الجمعيات الاسـلامـيـة المـسـيـحية بوصفها أجهزة تمثيل سياسية للفلسطينيين بعد الحرب العالمية الأولى تـعـبـيـراً أيـضـاً عـن هـذه الحـقيقة. ولكن اليشوف القديمة (جماعة اليهود القديمة) كانت قد اسـتـثـنـيـت مـن ذلـك حـيـنـئـذٍ إلى حـد مـا، بـمـعـنـى أنـهـا أصـبـحـت ضحية المواجهة مع الحركةالصهيونية، مع الادعاءات السياسية لليهود الأ وروبيين المهاجرين.

صـحـيـح أن فـلـسـطين لـم تـشهد في الفترة التي نعالجها تطوراً سريعاً كذلك الذي حـدث في مصر المجـاورة في عـهـد الخـديوي اسماعيل (١٨٦٣ ـــ ١٨٧٩)، ولكنها لم تبق أيضـاً الفناء الخلفي للدولة العثمانية، كما حاول البعض إيهامنا به مراراً؛ إذ إنّ الستينات كـانت بالأحرى بمثابة المِفْصَل في تطور البلاد في القرن التاسع عشر، كانت مرحلة تحولات ادارية سياسية واجتماعية اقتصادية عميقة الجذور. وكان هناك عاملان خارجيان بعثا على هـذا الـتـطـور هـمـا الـسياسة العثمانية والتغلغل الأ وروبي، ومع ذلك، وعلى الرغم من هذا

التغلغل الذي حدث قسْراً، وعلى الرغم من المصالح والنشاطات الأوروبية المتنوعة، فان فلسطين لم تصبح شبه مستعمرة، وهي لم تغدُ أيضاً وبالفعل، بالنظر إلى الهياكل الاجتماعية الاقتصادية القائمة فيها، بمثابة «طرف من أطراف تشد إلى مركز رئيس». وكان الأثر البارز في ذلك يعود إلى أن قوة الجاذبية الاقتصادية للبلاد كانت ضئيلة. مع أن المنافسات السياسية بين الدول الأوروبية كانت كبيرة حقاً. إن التحول الاجتماعي في فلسطين انطوى ضمناً على قدر معين من «التأوُرُب» في نطاق سياسة الإصلاح العثمانية، إلاّ أن هذا أدى في كل الأحوال ومنذ البداية إلى تفكيك هيكل البلاد الاقتصادي. ومع ذلك بدأت في الستينات مرحلة جديدة في تطور المجتمع الفلسطيني.

ما معنى التطور؟ لم تعد بنا من حاجة إلى أن نؤكد أن التطور لا يعني «التحديث» وفق النماذج الأوروبية، حتى ولو أن المصلح الوطني للقرن التاسع عشر فهم هذا على أنه «تطور». كما أن فكرة التطور بمعنى الزيادة المضطردة في الانتاج أصبحت هشّة. اننا نجهد بالأحرى لأن نسلط نظرنا أكثر على حاجات الناس في بيئتهم الطبيعية وفي سياق حياتهم الاجتماعية الثقافية. هل لبِّيتْ بالأحرى حاجات المجتمع الفلسطيني جرّاء هذا التحول الحاسم، هل تحسنت «نوعية الحياة»؟ ان دراستنا، التي دارت حول التطورات الاقتصادية والديموغرافية القابلة للقياس احصائياً وحول التغيرات السياسية الادارية المتمثلة في مؤسسات، لا تمدنا الا بمعلومات نزرة في هذا الشأن. الا أن المرء يستطيع أن يوضح بالأمثلة الفردية أن التطور الاقتصادي والاجتماعي السياسي، وإن كان يعني تغييراً بالفعل، فهو لم يكن يعني بالضرورة تحسناً أساسياً: لقد أصبحت الخصومات والصراعات المحلية في نهاية فترتنا جزءاً من الماضي؛ والحياة في البلاد أصبحت أكثر أمناً، ولكن الخدمة العسكرية «المرتّبة»، وفي المقام الأول التجنيد بالجملة للحرب الروسية العثمانية ١٨٧٧ / ١٨٧٨، قد جلبت لسكان فلسطين بؤساً اكبر مما جلبته الحرب المحلية التي دارت في الخمسينات في جبل نابلس — إن فائض المنتجات الذي كان يدبّره الفلاحون بالكد لم يعد يبتزه زعماؤهم المحليون كثيراً أو قليلا بصورة اعتباطية، ولكن هل تركت الخزينة العطشى، والملتزمون في المدن وملاكو الأراضي الكبار، لهم بعدئذ ما هو أكثر نسبياً للقيام بأودهم؟ — ان إمكانات التعليم الجديدة في المدارس العثمانية والأوروبية والمؤسسات الجديدة الفخمة، قد جلبت معها إمكانات أكبر للتفتح الثقافي والسياسي؛ لكنها ظلت في البداية مقصورة على مجموعات صغيرة من الناس، وكثيراً ما كانت محاولات التفتح المنفردة تنتهي فجأة. وهكذا فاذا تحدث المرء عن الستينات والسبعينات بوصفهما عقدي التحول الحاسم، فليس عليه أن يفعل ذلك لا من قبيل استعادة «الأيام الغابرة الطيبة» بالأسف والحسرة ولا من قبيل الحماسة للتقدم والاستعمار المستديم إلى الأبد التي نادى بها سادة النوع الانساني lords of human kind في القرن التاسع عشر.

وفي مصر المجاورة انتهى بغتةً الشعور بنشوة «التقدم» الذي ساد في الستينات والسبعينات جرّاء الخراب المالي والاحتلال البريطاني. واذْ لم يشهد المجتمع الفلسطيني عملية مشابهة من التغير السريع والكثيف كتلك التي حدثت في المجتمع المصري، فما كان له أن يشهد كذلك صحوة فجائية مشابهة. بيد أنّ المواجهة مع أوروبا في القرن العشرين قد ازدادت بعدئذٍ فجرّت عليه كارثة أفدح بما لا يقارن.

إن الوقت الذي جرت فيه مرحلة التحول في فلسطين يجب إيضاحه في ضوء العوامل التي أحدثت التحول. لقد كانت نشاطات الأوروبيين المتصاعدة في «الأرض المقدسة» منذ الخمسينات تتوافق ووتيرة التغلغل الأوروبي في الشرق الأدنى برمته. والقسطنطينية بوصفها «عاملاً خارجياً» كانت هي نفسها في تحول حاسم. إن الاصلاحات والنظام الاداري الجديد للدولة لم تتحقق بتردد وبطء في الأربعينات والخمسينات الا لأن الوزراء والحكام العثمانيين أنفسهم كانوا يجتازون عملية اعادة تفكير واعادة توجّه. ولم يحاول هؤلاء الا في مرحلة أكثر تقدماً من مراحل سياسة التنظيمات أن يعطوا زيادة الفعالية المالية والعسكرية في فلسطين أيضاً شكلا أشد تأثيراً. لقد أخذ المرء يلمس نبض حياة فلسطين الاقتصادية الآن في المقام الأول في السهول والمدن الساحلية، بينما كان يلمس نبض الحياة السياسية في أهم المراكز الادارية في المدن. أما المنطقة الجبلية التي كانت حتى الآن مسرحاً للأحداث، والتي اعتبرها مسجلو الوقائع التاريخية جديرة بالروايات الموروثة، فقد دخلت، إن جاز التعبير، في الصف الثاني.

وإذا ما استعرضنا في أثناء سفرنا عبر البلاد اليوم آثار الزمن السابق على الستينات من القرن التاسع عشر فاننا لا نعثر الا على القليل مما يبرز أمام العيون. ان صيانة الأحياء التاريخية في المدن وقصور أعيان المدن وكراسي الزعماء المحليين هي في أسوأ حالاتها. وفي اسرائيل في حدود ١٩٤٩ اختفت تماماً على أية حال معظم المواقع العربية السابقة واختفت معها القلاع ومقار العائلات التي أشرنا اليها في مؤلفنا هذا (ومن بينها إجزم ومجدل يابا وبيت عطاب وبيت نتيف وبيت جبرين)[٨٤٧]. واذا كانت آثار الماضي المرئية لمجتمع من المجتمعات قد دمّرت أو عندما لا يعود في وسع مجتمع أن يكترث للحفاظ على آثاره فان هذا مؤشر على الكوارث التي لا بدّ أن تكون قد نزلت به. إن الاهتمام المتزايد الذي يبديه الفلسطينيون اليوم بتاريخهم الخاص في الضفة الغربية وفي اسرائيل ووجود مبادرات مختلفة عندهم للحفاظ على التراث التاريخي والثقافي هو علامة على إرادة تأكيد الذات التي لا تكسر. إن نشاطات كهذه يمكن أن تقوم باسهام مهم في تحديد المواقع وفي المحافظة على الهوية الذاتية.

---

(٨٤٧) انظر عبد الفتاح: Abdulfattah, p 109–116

المصادر والأدبيات

مصادر غير منشورة٭

Public Record Office, London
F.O. 78= Foreign Offoce. Series 78 (1853–1883).
F.O. 195= Foreign Offoce. Series 195 (1856–1882)

Archives of The Palestine Exploration Fund, London
Granqvist Papers, 52A: Baldensperger-Tagebuch 1948–1875.

Archives du Ministère des Affaires Etrangères, Paris
CPC Jér. =Correspondance Politique des Consuls: Turquie-Jérusalem, tome 4–15 (1853–1883).
CCC Jaffa = Correspondance Consulaire et Commerciale: Jaffa (un volume sans numero) (1877–1897).
CCC Jér = Correspondance Consulaire et Commerciale: Jérusalem, tome 2–4 (1842–1885).
MD = Mémoires et Documents, Turquie.

(يستعان في قراءتها بـ

B.G. Spiridonakis, *Empire Ottomon, Inventaire des Memoires et Documents aux Archives du Ministère des Affaires Étrangères de France,* Thessaloniki, 1973).

Chambre de commerce, Marseille
Dossier Jaffa, An XII – 1880.

Haus., Hof und Staatsarchiv, Wien
PA XII = Politisches Archiv, XII. Turkei (Konstantinopel), Kartons 56–141 (Berichte 1856–1882);

(يستعان في قراءته جزئياً بكشاف (Index) الارشيف السياسي للسنوات المعنيّة).

PA XXXVIII – Politisches Archiv, XXXVIII (Konsulate); (Beirut und Jersalem, 1856 – 1883).

Archıv Jaffa = Archiv der k.u.k österreichisch – ungarischen Konsularagentie in Jaffa, Faszikel 1–7 (1853–1883).

ويتضمن الجزء (Faszikel) ١ـ٤ وثائق من القنصليتين السردينية أو الايطالية، ويتضمن الجزءان ٥ و٦ وثائق من يافا والقدس.

Archiv Jer., n. =

أرشيف قنصلية القدس. رقم ١٦-١٨، ملفات جارية وتالية (١٨٥٠-١٨٩٤).

Archiv Jer., Fasz =

ارشيف قنصلية القدس، ملفات سياسية وادارية. الجزء ٣٨-٦٢: مراسلات ١٨٥٦-١٨٨٢؛ الجزء ١٣٧ - ملفات اقتصادية

Archiv Konst., Konsulatsberichte = Internuntiatur-Archiv Konstantinopl, III. Konsulats berichte und Weisungen, Ältere Serie 1961–1880, Jüngere Serie Beirut 1889–1894 und Jerusalem 1881–1896.

Rr = Administrative Registratur des Ministeriums des Äussern.

Politischer Archiv des Auswärtigen Amtes, Bonn

I.A.B.q. (Türkei) 108 = Schriftwechsel mit der Gesandtschaft zu Constantinopel sowie mit anderen Missionen und fremden Kabinetten über die inneren Zustände un Verhältnisseder der Türkei, 16 Bände (1874)–1878).

I.A.B.q. (Türkei) 126 = Schutz der Christen in Palästina (1877/78).

I.A.B.q. (Türkei) 140 = Streitigkeiten zwischen Christen und Muhamedanern in Haifa (1880).

Konst., GEN. 76.K.18.d. = Botschaftsakten Konstantinopel: Die Württember gische Kolonie Hoffmannianer in Palästina (Tempelgemeinden in Jaffa, Haifa und Jerusalem 1868–1880.

Ägypten 3, adh. 8 = Rückwirkung der ägyptischen Wirren auf die muhamedanische Bevölkerung von Tripolis, Palästina und Syrien. 3 Bände (1882).

Israel State Archives, Jerusalem

DKJ = Akten des deutschen Konsulats Jerusalem.

BCJ = Archives of the British Consulate in Jerusalem.

Nufüs-Register: Bd. 77 (1296) und Bd. 360 (1292).

المكتبة الخالدية، القدس.

صورة مصورة وجدت باوراق المرحوم الشيخ على الليثي بخط سعادة يوسف باشا الخالدي يلخص فيها حديث نشأته الاولى منذ ولادته في سنة ١٢٥٨ إلى سنة ١٢٩٢.

متحف روكفلر - القدس.

حسن بن عبداللطيف الحسيني: تراجم اهل القدس في القرن الثاني عشر (مخطوط).

المنشورات الرسمية
وطبعات الوثائق المحررة

Annuaire Diplomatique de l'Empire Ottoman. Première Annéc 1289, Constantinople 1872.

Aristarchi, Grégoire (Hrsg.): *Législation Ottomane,* 7 volumes, Constantinople 1873–1888.

Blumberg. Arnold (Hrsg.): *A View from Jerusalem,* 1849–1858. *The Consular Diary of James and Elizabeth Anne Finn,* Cranbury / London / Toronto 1980.

Chambre de Commerce de Marseille: *Compte-Rendu des Travaux pendant l'Année 1880,* Marseille 1881.

Deutsches Handelsarchiv, 1883, Zweiter Theil, Berlin 1883.

Eliav, Mordechai (editor): *Die Juden Palästinas in der Deutschen Politik, Dokumente aus dem Archiv des deutsehen Konsulats in Jerusalem, 1842–1914,* Tel-Aviv 1973.

Fisher, Stanley (editor) : *Ottoman Land laws,* London 1919.

Hurewitz, J.C. (editor) : *Diplomacy in the Near and Middle East,* vol. 1, New York 1972 (Reprint).

Hyamson, Albert M. (editor): *The British Consulate In Jerusalem In relation to the Jews of Palestine* 1838–1914, 2 volumes, London 1939–1941.

Ingrams, Doreen (editor) : *Palestine Papers* 1917–1922, London 1972.

Kraelitz-Greifenhorst, Friedrich von (editor): *Die Verfassungsgesetze des Osmanischen Reiches,* Wien 1919.

Little, Donald P. und A. Üner Turgay: "Documents from the Ottoman Period in the Khalidi Library in Jerusalem", in : *WI,* 20 (1980).

Mantran, R und J. Sauvaget: *Réglements Fiscaux Ottomans, Les Provinces Syriennes,* Beyrouth 1951.

Massignon, L.: "Documents sur certains waqfs des Lieux Saints de l'Islam, principalement sur le waqf Tamimi à Hébron et sur le waqf tlemćenien Abu Madyan á Jérusalem", in: *Revue des Etudes Islamiques,* Anneé 1951.

Noradounghian, Gabriel: *Recueil d'Actes Internationaux de l'Empire Ottomah,* 4 vols, Paris 1897–1903.

Parliamentary Papers: Accounts and Papers, Commercial Reports, London 1857–1883.

Rapport Adressé a S.A. le Premier Ministre par S. Exc. le Ministre des Travaux Publics sur les Travaux Publics à Exécuter dans la Turquie d'Asie, Constantinople 1880.

"Situation Economique de la Palestine", in: *Bulletin Consulaire Francais,* XII (1886).

Testa, I.de (publisher): *Recueil des Traités de la Porte Ottomane avec les Puissances Étrangères.* 11 vols., Paris 1864–1911.

Young. George (editor) : *Corps de Droit Ottoman,* 7 vols. Oxford 1905–1906.

- الخازن، فيليب وفريد محرران : مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن

سوريا ولبنان من سنة ١٨٤٠ إلى سنة ١٩١٠، ٣ مجلدات، جونية ١٩١٠-١٩١١.

- سالنامة دولة علية، ١٠ (١٢٧٢) - ٣٩ (١٣٠١) - نسخة كاملة منها في مكتبة الدولة ببرلين.
- سالنامة ولاية سورية، ١٢٨٣، ١٢٨٥، ١٢٨٦، ١٢٨٨، ١٢٨٩، ١٢٩١، ١٢٩٣، ١٢٩٤، ١٢٩٥، ١٢٩٦، ١٢٩٧، ١٢٩٨، ١٢٩٩، ١٣٠٠، ١٣٠١/١٣٠٤.
(جمعت من مكتبة الجامعة الأمريكية ببيروت والمكتبة الوطنية في استانبول، ومكتبة التاريخ التركي في انقرة).

البيليوغرافيا

Khalidi, Walid und Jill Khadduri (editors) : *Palestine and the Arab-Israeli Confict. An Annotated Bibliography*, Beirut 1974.

Röhricht, Reinhold: *Bibliotheca Geographica Palaestinae Chronologisches Verzeichnis der von 333 bis 1878 verfassten Literatur über das Heilige Land mit dem Versuch einer Kartographie.*

Thomsen, Peter: *Die Palästina-Literatur*, Bd.A (1878–1894), Berlin 1960; Bd. 1 (1895–1904). Leipzig [2]1911; Bd. 2 (1905–1909), Leipzig 1911; Bd. 3 (1910–1914), Leipzig 1916; Bd. 4 (1915–1924), Leipzig 1927; Bd. 5 (1925–1934), Leipzig 1938; Bd. 6 (1935–1939), Berlin 1956; Bd. 7 (1940–1945), Berlin 1972.

Tobler, Titus: *Bibliographia Geographica Palaestinae. Kritische Übersicht gedruckter und ungedruckter Beschreibungen der Reisen ins Heilige Land*, Amsterdam 1964 ('1867).

- [طبعة جديدة مزيدة ومنقحة وفيها مقدمة بقلم دافيد أميران David H. Amiran، القدس ١٩٦٣].

- غيث حسين (ناشر): البيليوغرافيا الفلسطينية في الوطن، ١٩٦٧-١٩٨٠، القدس ١٩٨١، ١٩٨١-١٩٨٢، القدس ١٩٨٣.

المرجعية

[فرغت من المخطوط في خريف ١٩٨٣ . وبذلك فان العناوين المنشورة بعد سنة ١٩٨٣ لم يتضمنها هذا الفرس].

أ . في اللغة العربية

- أبو شعبان، حلمي، تاريخ عزة، نقد وتحليل، القدس، ١٩٤٣ .
- الاسد، ناصر الدين: محمد روحي الخالدي، رائد البحث التاريخي الحديث في فلسطين، القاهرة، ١٩٧٠ .
- البحري، جميل: تاريخ حيفا، حيفا، ١٩٢٢ .
- بدران، نبيل أيوب:
  التعليم والتحديث في المجتمع الفلسطيني، بيروت، ١٩٦٩ .
  الريف الفلسطيني قبل الحرب العالمية الأولى في: «**شؤون فلسطينية**، ٧ (١٩٧٢).
- البرغوثي، عمر الصالح، وخليل طوطح: تاريخ فلسطين، القدس، ١٩٢٣ .
- جات، ج، Gatt حول الصناعة في غزة ـ «ترجمة» في : **صامد الاقتصادي**، رقم ٢٦ (١٩٨١).
- جامعة دمشق (ناشر): المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام ١٥١٦-١٩٣٩، مجلدان، دمشق، ١٩٧٩ .
- حجازي، عرفات: مدينة الخليل والصهيونية، عمان، ١٩٧١ .
- الحسيني، محمد يونس: التطور الاجتماعي والاقتصادي في فلسطين العربية، يافا، ١٩٤٦ .
- حصر اللثام عن نكبة الشام، القاهرة ، ١٩٨٥ .
- الحكيم، يوسف: سوريا والعهد العثماني: بيروت، ١٩٦٦ .
- حماد، خيري: «فلسطين منذ زيارة مونتفيوري ١٨٤٩ حتى حركة التحرير الفلسطينية ١٩٦٥» في: **الطليعة**، ايار، ١٩٦٥ .
- الحنبلي، مجير الدين: كتاب الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل، مجلدان، القاهرة، ١٢٨٣هـ.
- خارطة فلسطين، في: «المقتطف»، ٣٢ (١٨٧٨).

- الخالدي، احمد سامح:
رجال الحكم والادارة في فلسطين من عهد الخلفاء الراشدين إلى القرن الرابع عشر الهجري، القدس، بلا تاريخ.
اهل العلم والحكم في ريف فلسطين، عمان، ١٩٦٨.
- الخالدي، روحي، المقدمة في المسألة الشرقية، القدس، بلا تاريخ.
- خلف، علي سعيد: شيء من تاريخنا، القدس ١٩٧٩.
- الدباغ، مصطفى مراد:
بلادنا فلسطين، ١١ مجلداً، بيروت ١٩٦٥-١٩٧٦.
القبائل العربية وسلائلها في بلادنا فلسطين، بيروت ١٩٧٩.
- الدبس، يوسف، تاريخ سورية، ٨ مجلدات، بيروت، ١٩٠٥.
- الدجاني، حسن صدقي: تفصيل ظلامة فلسطين، القدس، ١٩٣٦.
- دروزة، محمد عزت: العرب والعروبة من القرن الثالث حتى القرن الرابع عشر الهجري، مجلدان، دمشق ١٩٦٠.
- رافق، عبدالكريم:
العرب والعثمانيون، ١٥١٦-١٩١٦ دمشق، ١٩٧٤.
غزة دراسة عمرانية واجتماعية واقتصادية من خلال الوثائق الشرعية ١٢٧٣-١٢٧٧ / ١٨٥٧-١٨٦١، دمشق وعمان، ١٩٨٠.
- الراميني، اكرم: نابلس في القرن التاسع عشر، عمان، ١٩٧٩.
- رفيق محمد، ومحمد بهجت: ولاية بيروت، الجزء الأول: القسم الجنوبي، بيروت، ١٣٣٥هـ.
- الزركلي، خير الدين: الاعلام، ٨ مجلدات، بيروت ١٩٧٩. (الطبعة الرابعة).
- زيدان، جورجي: تاريخ الماسونية العام منذ نشأتها إلى هذا اليوم، القاهرة، ١٨٨٩.
- زيدان، جورجي: «فلسطين وآثارها» في: **الهلال** ٢٢ (١٩١٣-١٩١٤).
- سركيس، خليل، كتاب تاريخ أورشليم أي القدس الشريف، بيروت، ١٨٧٤.
- سكيك، ابراهيم خليل، غزة عبر التاريخ العثماني، غزة، ١٩٨٠.
- سليمان، محمد:
«ملكية الارض الفلسطينية في العهد التركي»، في: **«صامد الاقتصادي»**، ٣١ (١٩٨١).
«قانون التنظيمات العثماني وتملك اليهود من ارض فلسطين»، في **«صامد الاقتصادي»** ٣٣ (١٩٨١).

- شتيبات، فرتز: «تغلغل المفاهيم السياسية الاجتماعية الزمنية في القرن التاسع عشر - اسهام في دارسة الوعي السياسي في بلاد الشام» في: جامعة دمشق (ناشر)، المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام، مجلدان، دمشق ١٩٧٩.
- الشخصية الفلسطينية حتى عام ١٩٤٥، القدس، ١٩٧٩، (الطبعة الثانية).
- شقير، نعوم: تاريخ سيناء، القاهرة ١٩١٦.
- شولش، الكزاندر: النمو الاقتصادي في فلسطين في: جامعة دمشق (ناشر)، المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام، المجلد ١، دمشق، ١٩٧٩.
- صبري، بهجت حسين: لواء القدس ١٨٤٠/١٨٧٣، مخطوط، عمان، ١٩٨٠.
- صلاح، حنا (ناشر): فلسطين وتجديد حياتها، نيويورك، ١٩١٩.
- طوطح، خليل وحبيب خوري: جغرافية فلسطين، القدس، ١٩٢٣.
- العابدي، محمود:
قدسنا، القاهرة، ١٩٧٢.
صفد في التاريخ، عمان، ١٩٧٧.
- العارف، عارف:
تاريخ القدس، القاهرة، بلا تاريخ.
كتاب القضاء بين البدو، القدس، ١٩٣٣.
تاريخ بئر السبع وقبائلها، القدس، ١٩٣٤.
تاريخ غزة، القدس، ١٩٤٣.
النكبة، مجلد ٢، صيدا وبيروت، ١٩٥٧.
المفصل في تاريخ القدس، القدس، ١٩٦١.
- عارف، عبدالله: مدينة نابلس، جامعة دمشق، ١٩٦٣-١٩٦٤.
- العامري، عنان: التطور الزراعي والصناعي الفلسطيني ١٩٠٠-١٩٧٠، بيروت ١٩٧٤، (طبعة ثانية القدس، ١٩٨١).
- العامري، محمد اديب: القدس العربية، عمان، ١٩٧١.
- العقاد، احمد خليل: الصحافة العربية في فلسطين، ١٨٧٦-١٩٤٨، دمشق، ١٩٦٦.
- العودات، يعقوب: من اعلام الفكر والأدب في فلسطين، عمان ١٩٧٦.
- عوض، عبدالعزيز محمد:
الادارة العثمانية في ولاية سوريا (١٨٦٤-١٩١٤) القاهرة ١٩٦٩.
متصرفية القدس في العهد العثماني ١٩٧٤-١٩١٤، رسالة جامعية، جامعة عين شمس، القاهرة، ١٩٧٠.

متصرفية القدس اواخر العهد العثماني، «شؤون فلسطينية»، مجلد ٤، (١٩٧١).
الحركة العربيةفي متصرفية القدس، مجلة الشرق الاوسط، ١، ١٩٧٤.
فلسطين في اواخر العهد العثماني، ملامح اجتماعية واقتصادية في: (تقدير وعرفان للاستاذ الدكتور احمد عزت عبدالكريم، القاهرة ١٩٧٦).
- غرايبة، عبدالكريم: سوريا في القرن التاسع عشر ١٨٤٠-١٨٧٦، القاهرة ١٩٦١-١٩٦٢.
- قاسمية، خيرية:
«قضية الحدود بين فلسطين ومصر ١٨٤٠-١٩١٧» في: جامعة دمشق (ناشر)، المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام، مجلد ٢، دمشق ١٩٧٩.
«نشأة صندوق استكشاف فلسطين ١٨٦٥-١٩١٥» في: **شؤون فلسطينية**، ١٠٤ (١٩٨٠).
- قدورة، يوسف: تاريخ مدينة رام الله، نيويورك ١٩٥٤.-
- كحالة، عمر رضا: معجم قبائل العرب، القديمة والحديثة، ٣ مجلدات، بيروت ١٩٦٨.
- كرد علي، محمد: كتاب خطط الشام، المجلدان ٥ و ٦، دمشق ١٩٢٧-١٩٢٨.
- الكردي، فايز: عكا بين الماضي والحاضر، عكا، ١٩٧٢.
- الكرملي، ماري يوسف: «حيفا: ماضيها ومستقبلها»، في: المشرق، ٧ (١٩٠٤).
- مجاهد، زكي محمد: الاعلام الشرقية في المائة الرابعة عشرة الهجرية، ٤ مجلدات، القاهرة، ١٩٤٩-١٩٦٣.
- محافظة، علي:
«التيارات السياسية في فلسطين في عصر النهضة (١٨٥٠-١٩٢٥)» في: جامعة دمشق (ناشر)، المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بدلا الشام، المجلد ٢٢ (١٩٧٩).
العلاقات الألمانية الفلسطينية، ١٨٤١-١٩٤٥، بيروت ١٩٨١.
- مخول، ناجي حبيب: عكا وقراها من اقدم الأزمنة إلى الوقت الحاضر، حزءان، عكا، ١٩٧٩.
- مرمرجي أ. س: «نظرة في تاريخ يافا» في: المشرق، ٢٦ (١٩٢٨).
- مطر، الياس ديب: كتاب العقود الدرية في تاريخ المملكة السورية، بيروت، ١٨٧٤.
- معمّر، توفيق: ظاهر العمر، الناصرة، ١٩٧٩.
- مناع، عادل: «يوسف ضياء الدين الخالدي»، في: الفجر الادبي، ٣٥/٣٦ (١٩٨٣).
- منصور، اسعد: تاريخ الناصرة، القاهرة، ١٩٢٤.

- موسى، صابر: «نظام ملكية الاراضي في فلسطين في اواخر العهد العثماني»، في: شؤون فلسطينية، ٩٥ (١٩٧٩).
- النمر، احسان:
تاريخ جبل نابلس والبلقاء، الجزء الاول، دمشق ١٩٣٨ و١٩٧٥، الجزء الثاني، نابلس ١٩٦١، الجزء الثالث، بلا تاريخ، الجزء الرابع، نابلس، ١٩٧٥.
«نشوء وتطور الطبقة العاملة الفلسطينية»: من ١-٣، في: «صامد الاقتصادي»، ٢٦-٢٨ (١٩٨١).
- الهواري، عرفان سعيد ابو حمد: اعلام من ارض السلام، حيفا، ١٩٧٩.
ينى، جورجي: كتاب تاريخ سوريا، بيروت، ١٨٨١.

ب - في اللغات الأجنبية

"A Zikr Ceremony", In: *PEFQS* 1882.
Abdulfattah, Kamal:, "The Geographical Distribution of the Palestinians on Both Sides of the 1949 Armistice Line", in: Alexander Schölch (editor), *Palestinians over the Green Line*, London 1983.
Abir, Mordechai. "Local Leadership and Early Reforms in Palestine, 1880–1834", in: Ma'oz (editor), *Studies on Palestine.*
Abu Jaber, Kamel S.: "The Millet System in the Nineteenth-Century Ottoman Empire", in: *The Muslim World,* LVII (1967).
Abu-Manneh, Butrus: *Some Aspects of Ottoman Rule in Syria in the Second Half of the Nineteenth Century: Reforms, Islam, and Caliphate.* D – Phil. Thesis, Oxford 1971.
"The Rise of the Sanjak of Jerusalem in the Late 19th Century", in: Gabriel Ben-Dor (editor), *The Palestinians and the Middle East Conflct,* Ramat Gan 1978.
Albengo (Trad.): *Lois et coutumes suivies dans le Pachalik de Jérusalem. Traduites de l'arabe et annotées par Albengo, ancien interprète au service de la France en Afrique, habitant la Palestine depuis 1845,* Paris 1860.
Allen, William: *The Dead See, A New Route to India,* 2 vols. London 1855
d'Alonzo, Alphonse: *La Russie en Palestine,* Paris 1901.
Amin, Samir: *La nation arabe,* Paris 1976.
Amiran, D.H.K.: "The Pattern of Settlement in Palestine", In: *Israel Exploration Journal,* 3 (1953).
Anderlind, Leo: "Ackerbau und Thierzucht in Syrien, insbesondere in Palästina", in: *ZDPV, IX* (1886).
–: "Die Fruchtbäume in Syrien, insbesondere Palästina", in *ZDPV,* XI (1888).

Anderson, M.S.: *The Eastern Question 1774–1923,* London 1972
Anderson, Perry: *Passages from Antiquity to Feudalism,* London 1974.
– : *Lineages of the Absolutist State,* London 1974.
Antonius, George: *The Arab Awakening,* New York [3]1965 ([1]1938).
Aronsfeld, C.C.: "The Historical Boundaries of Palestine", in: *Jewish Frontier,* 45/3 (1978).
Arslanian, Dicran: *Eine historisch-nationalökonomische Studie über das System des ländichen Grundeigentumes im Osmanischen Reiche,* Phil. Diss, Leipzig o.J.
Auhagen, Hubert: *Beiträge zur Kenntnis der Landesnatur und der Landwrtschaft Syriens.* Berlin 1907.
Aumann, Moshe: *Grundbesitz in Palästina 1880–1948.* Jerusalem [3]1977.
Austin, C.E.: *Undeveloped Resources of Turkey in Asia, with Notes on the Railway to India,* London 1978.
Avitsur, Shmuel: "The Influence of Western Technology on the Economy of Palestine during the Nineteenth Century", in: Ma'oz (editor), *Studies on Palestine.*
Avi-Yonah, M.: "Territorial Boundaries in North-Western Galilee", in: *JPOS,* 14 (1934)
Azoury, Negib: *Le réveil de la nation arabe dans l'Asie turque,* Paris 1905.

Baedeker, K. (publisher): *Jerusalem and its Surroundings,* Jerusalem 1973 (Reprint, London 1876).
Baer, Gabriel: "The Evoution of Private Landownership in Egypt and the Fertile Crescent", in: Charles Issawi (editor), *The Economic History of the Middle East 1800–1914,* Chicago 1966.
–: "The Impact of Economic Change Change on Traditional Society in Nineteenth Century Palestine", in: Ma'oz (editor), *Studies on Palestine.*
–: "The Dismemberment of Awqaf in Early 19th Century Jerusalem", in: *AAS,* 13 (1979).
–: *Jerusalem's Families of Notables and the Waqf in the Early 19th Century,* Manuscript, Haifa 1979.
–: *Fellah and Townsman in the Middle East,* London 1982.
Bailey, Clinton: "The Negev in the Nineteenth Century : Reconstructing History from Bedouin Oral Traditions", in: *AAS,* 14/1 (1980).
Baldensperger, Philip: "Religion of the Fellahin of Palestine", in : *PEFQS* 1893.
–: "Orders of Holy Men in Palestine", in: *PEFQS* 1894.
–: "The Immovable East", in : *PEFQS* 1903–1909.
–. "Folklore Palestinien", in: *Revue de l'Histoire des Religions,* 85 (1922).
Ballod, Carl: *Palästina als jüdisches Ansiedlungsgebiet,* Berlin 1918.
Bamberg, Felix: *Geschichte der orientalischen Angelegenheit im Zeitraume des Pariser und des Berliner Friedens,* Berlin 1892.
Barbir, Karl K.: *Ottoman Rule in Damascus, 1708–1758,* Princeton 1980.
Barclay, J.T.: *The City of the Great King or Jerusalem as it was, as it is, and as it is to be,* Philadelphis 1857.

Bardin, Pierre : *Algériens et Tunisiens dans l'Empire Ottoman de 1848 à 1914,* Paris 1979.
el-Barghuthi, Omar Effendi: "Judicial Courts among the Bedouin of Palestine", in: *JPOS* , 2 (1922).
el-Barguthy, Omar es-Saleh: "Traces of the feudal System in Palestine", in: *JPOS*,9 (1929).
al-Barguthi, Omar Bey Salih: "Local Self-Government – Past and Present", in: *The Annals of the American Academy of Political and Social Science,* 146 (1932).
Barron, J.B.: *Mohammedan Wakfs in Palesine,* Jerusalem 1922.
Bauer, Leonhard : *Volksleben im Lande der Bibel,* Leipzig [2]1903.
–: *Das Palästinische Arabisch,* Leipzig 1970 (Reprint).
Belgiojoso, La Princesse de: *Asie Mineure et Syrie,* Paris [2]1861.
Ben-Arieh, Yehoshua: "The Population of the Large Towns in Palestine During the First Eighty Years of the Nineteenth Century, According to Western Sources", in Ma'oz (editor). *Studies on Palestine.*
–: "The Growth of Jerusalem in the Nineteenth Century", in: *Annals of the Association of American Geographers,* 65/2 (1975).
–: "Patterns of Christian Activity and Dispersion in Nineteenth-Centurry Jerusalem", in: *Journal of Historical Geography,* 2/1 (1976).
–: *The Rediscovery of the Holy Land in the Nineteenth Century,* Jerusalem 1979.
Bergheim, Samuel : "Land Tenure in Palesine", in: *PEFQS* 1894.
Besant, Walter (editor): *The Literary Remains of the Late Charles F. Tyrwhitt Drake,* London 1877.
Besant, Walter und E. H. Palmer: *Jerusalem, the City of Herod and Saladin,* London 1871.
"Bevölkerungsliste von Jerusalem", in; *NNM* 30 (1886).
Bliss, Frederick Jones : *The Religions of Modern Syria and Palesine,* New York 1912.
Bloch, Marc: *Feudal Society,* 2 vols., London 1965.
Boegehold, Johannes: *Jerusalem und die Heiligen Stätten,* Berlin 1867.
–: *Die Zukunft Israels und des Heiligen Landes,* Berlin 1876.
Boehmer, Julius: "Von Dan bis Berseba", in: *Zeitschrift für die Alttestamentliche Wissenschaft,* 29 (1909).
Bömches, Friedrich: *Bericht über die wichtigsten Hafenplätze der Levante in Kommerzieller und maritimer Beziehung,* Leipzig 1882.
Bonne, Alfred: *Palästina – Land und Wirtschaft,* Leipzig 1932.
Bovet, Félix· *Voyage en Terre Sainte,* Paris 1864.
Breycha-Vauthier, Arthur: *Österreich in der Levante,*Wien 1972.
Brugger, Hans: *Die deutschen Siedlungen in Palästina,* Bern 1908.
Brunner, O., "Feudalismus, feudal", in: *Geschichtliche Grundbegriffe,* Bd. 2, Stuttgart 1975.
Buheiry Marwan R.· "The Agricultural Exports of Southern Palestine, 1885–1914", in: *JPS,* 40 (1981).
Bunel, Louis: *Jérusalem, la cote de Syrie et Constantinople en 1853,* Paris 1854.
Burton, Isabel : *The Inner Life of Syria, Palestine, and the Holy Land,* London 1879.

Burton, Richard F.: "the Proposed Jordan Canal", in: *The Academy*, XXIV (1883).
Busch, Moritz: *Eine Wallfahrt nach Jerusalem, Bilder ohne Heiligenscheine*, Leipzig [3]1881.

Cahen, Claude: "Überlegungen zum Gebrauch des Wortes, Feudalismus", in: Ludolf Kuchenbuch und Bernd Michael (editors), *Feudalismus – Materialien zur Theorie und Geschichte*. Frankfurt / Main 1977.
Canaan. T.: "Vom arabisch-Palästinischen Familienleben", in: *Studia Orientalia*, XXV / 2 (1960).
–: *Mohammedan Saints and Sanctuaries in Palestine*, Jerusalem o.J, (Reprint).
Carmel, Alex : *Die Siedlungen der württembergischen Templer in Palästina 1968–1918*, Stuttgart 1973.'
–: *Geschichte Haifas in der türkischen Zeit 1516–1918*, Wiesbaden 1975.
–: "Die deutsche Palästina-Politik 1871–1914", in: *Jahrbuch des Instituts für Deutsche Geschichte*, Tel-Aviv, IV (1975).
–: *Christen als Pioniere im Heiligen Land*, Basel 1981.
Caskel, Werner: *Die Bedeutung der Beduinen für die Geschichte der Araber*, Köln und Opladen 1953.
C.E.R.M. (publisher): *Sur le féodalisme*, Paris 1974.
Chaplin, Thomas: "Das Klima von Jerusalem", in: *ZDPV*, XIV (1891).
Chateaubriand, Le Vicomte de: *Itinéraire de Paris à Jérusalem*, 2 vols., Paris 1863.
Chelhod, Joseph: *Le Droit dans la Société Bédouine*, Paris 1971.
Chesney, Francis Rawdon: *Narrative of the Euphrates Expedition Carried on by Order of the British Government during the Years 1836, and 1837*, London 1868.
Chevallier, Dominique : *La Société du Mont Liban à l'Epoque de la Révolution Industrielle en Europe*, Paris 1971.
Chizik, 1.: "The Political Parties in Palestine", Reprinted from the *Journal of the Royal Central Asian Society*, XXI (1934).
Chouraqui, André: *L'Alliance Israélite Universelle et la renaissance Juive contemporaine (1860–1960)*. Paris 1965.
Circular of a Project for the Erection of Palestine into an Independent state, in: St. Antony's College, Private Papers Collection, DS 125.
Clayton, G.D.: *Britain and the Eastern Question: Missolonghi to Gallipoli*, London 1971.
Clermont-Ganneau, Ch.: *La Palestine inconnue*, Paris 1876.
–: "De Jérusalem à Bir el-Ma'in. Fragment du Journal d'une Excursion faite en Juin 1874", Extrait du *Bulletin de la Société de Géographie* (Mai 1877).
Cohen, Amnon: *Palestine in the 18th Century*, 1973.
Cohen, Amnon und Bernard Lewis: *Population and Revenue in the Towns of Palestine in the Sixteenth Century*, Princeton 1978.
"Commerce de la Syrie", in: *Revue de l'Orient*, 15 (1854).
Conder, Claude Reignier: "The Moslem Mukams", in: *PEFQS* 1877.
–: *Tent Work in Palestine*, 2 vols. London 1878.
–: "The Present Condition of Palestine", in: *PEFQS* 1879.

–: *Heth and Moab. Explorations in Syria in 1881 and 1882*, London 1883.
–: *The Survey of Eastern Palestine*, vol., The 'Adwân Country, London 1889.
–: *Palestine*, London [2]1891.
Cook's Tourists' Handbook for Palestine and Syria, London 1876.
Corey, Muriel W.: *From Rabbi to Bishop. The Biography of the Right Reverend Michael Solomon Alexander. Bishop in Jerusalem*, London n.d.
Cuinet, Vital: *Syrie, Liban et Palestine, Géographie Administrative, Statistique, Descriptive et Raisonnée*, Paris 1896–1901.

Dalman, Gustaf: *Arbeit und Sitte in Palästina*, 7 Bde., Gütersloh 1928–1941.
Damas, R.P. de: *Voyages en Orient. Jérusalem*, Paris 1866.
–: *Voyages en Orient. Sinai et judée*, Paris 1866.
–: *En Orient. Voyages en Galilée*, Paris 1867.
Damas et le Liban, London 1861.
Davison, Roderic H.: *Reform in the Ottoman Empire 1856–1876*, New York [2]1973.
Delpuget, David: *Les Juifs d'Alexandrie, de Jaffa et de Jérusalem en 1865*, Bordeaux 1866.
"Der Ackerbau in Palästina", in: *HL*, XVI (1872).
"Der Palästina-Kanal", in: *NNM* 28 (1884).
Devereux, Robert: *The First Ottoman Constitutional Period*, Baltimore 1963.
Deville, Louis: *Une Semaine Sainte a Jérusalem*, Paris 1863.
Dhéralde, Léon: *Voyage en Orient. Jérusalem et la Palestine*, Limoges und Paris 1881.
Die Anwesenheit Sr. Konigl. Hoheit des Kronprinzen von PreuBen in Palästina, von einem Süddeutschen, Berlin 1870.
"Die Eisenbahn nach Jerusalem", in: *HL*, IX (1865).
Die KarawanenstraBe von Aegypten nach Syrien, Prag 1879.
Dimidow, Paul: *Wo hinaus? Mahnwort an die westeuropäischen Juden*, Charlottenburg 1891.
Dixon, William Hepworth: *The Holy Land*, 2 vols. London 1865.
Dobb, M.: *Entwicking des Kapitalismus – Vom Spätfeudalismus bis zur Gegenwart*, Köln 1972.
Dom, Alexander: *Die nationale Ausstellung zu Constantinopel 1863*, Leipzig 1864.
Doughty, Charles M.: *Travels in Arabia Deserta*, 2 vols., London 1936.
Dowling, Theodore Edward. *Gaza – A City of Many Battles*, London 1913.
Driou, Alfred: *Jérusalem et la Terre Sainte*, Limoges n.d.
Dudin, Hasan: *Asabiyya – Ein Beitrag sur Politischen Symbolik, Dissertation*, FU Berlin o.J.
Dunant, Henry: Société Internationale Universelle pour la Rénovation de l'Orient. Exemplaire Unique. Épreuve Confidentiel, 1866 (Bibliotheque Nationale in Paris).
Dupuis. Hanmer L.: *The Holy Places: a Narrative of Two Years' Residence in Jerusalem and Palestine*, 2 vols. London 1856.
Duvignau, Pierre: *Une Vie au Service de l'Eglise. S.B. Mgr. Joseph Valerga, Patriarche Latin de Jérusalem 1813–1872*, Jerusalem 1972.

Ebers, Georg und Hermann Guthe: *Palästina in Bild und Wort*, 2 Bde., Stuttgart und Leipzig O.J. [1882].
Eckenstein, Lina: *A History of Sinai*, London 1921.
Eichmann, F.: *Die Reformen des Osmanischen Reiches*, Berlin 1858.
Eisenmann, Robert H.: *Islamic Law in Palestine and Israel*, Leiden 1978.
Elath, Eliahu: "A British Project for the Construction of a Railway between Jaffa and Jerusalem in the Nineteenth Century", in: Ma'oz (editor), *Studies on Palestine*.
Eigner, Wilhelm : *Jerusalem und seine Umgebung*, Leipzig o.J. [1873].
Eliav, Mordechai: "German Interests and the Jewish Community in Nineteenth-Century Palestine", in: Ma'oz (editor), *Studies on Palestine*.
Engelhardt, Ed.: *La Turquie et le Tanzimat*, 2 vols., Paris 1882.
Erder, Leila: "The Measurement of Preindustrial Population Changes: The Ottoman Empire from the 15th to the 17th Century", in *MES*, 11/3 (1975).
Ess, Josef van: "Libanesische Miszellen, 6: Die Yashrutiya", in: *WI*, XVI (1975).

Farley, J. Lewis: *Two Years in Syria*, London 1858.
Fawaz, Leila Tarazi: *Merchants and Migrants in Nineteenth Century Beirut*, Cambridge 1983.
Finn, E.A. : *Home in the Holy Land*, London 1866.
–: *A Third Year in Jerusalem*, London 1866.
–: "Incidents of Life in Summer Encampments near Jerusalem" in: *Ina a Good Cause*, London 1885.
–: *Palestine Peasantry. Notes on their Clans, Warfare, Religion, and Laws*, London 1923.
–: *Reminiscenses of Mrs. Finn*, London n.d. [1929].
Finn, James: *Byeways in Palestine*, London 1868.
–: *Stirring Times, or Records from Jerusalem Consular Chronicles of 1853 to 1856*, 2 vols., London 1878.
Firestone, Ya'akov: *Faddan and Musha': Land, Population and the Burden of Impositions in the Lowlands of Palestine in Late Ottoman Times*, manuscript Princeton 1974.
–: "Crop–Sharing Economics in Mandatory Palestine", in. *MES*, 11/1 (1975) und 11/2 (1975).
–: "Production and Trade in an Islamic Context: Sharika Contracts in the Transitional Economy of Northern Samaria, 1853–1943", in: *IJMES*, 6/2 (1975)., 6/3 (1975).
Fischer, Hans: "Wirtschaftsgeographie von Syrien", in: *ZDPV*, XLII (1919).
Fores, Alexander: *Nationalismus und Sozialismus im arabischen Osten. Kommunistische Partei und arabische Nationalbewegung in Palästina 1919–1948*, Münster 1980.
Fraas, Oscar: "Der Schwefel im Jordanthal", in: *ZDPV*, II (1879).
Frankl, Ludw. Aug.: *Nach Jerusalem!* 1. und 2. Theil, Leipzig 1858.

Frischwasser-Ra'anan. H.F.: *The Frontiers of A Nation. A re-examination of the which created the Palestine Mandate and determined its territorial shape*, London 1955.
Furlonge, Geoffrey: *Palestine is my Country. The Story of Musa Alami*, London 1969.
Furrer, Konrad: *Wanderungen durch das Heilige Land*, Zürich [2]1891.

Garnier, E.: *Jérusalem et la Judée. Description de la Palestine ou Terre Sainte*, Tours [7]1890.
Gatt, G.,: *Beschreibung über Jerusalem und seine Umgebung*, Waldsee 1877.
–: "Verschiedene nachrichten aus Gaza", in: *HL.*, XXIV (1880).
–: "Bemerkungen über Gaza und seine Umgebung", in: *ZDPV*, VII (1884).
–. "Verzeichnis der bewohnten Ortschaften der Kaimakamiye, Gaza", in : *ZDPV*, VII (1884).
–: "Industrielles aus Gaza", in: *ZDPV*, VIII (1885).
–: "Kauf und Verkauf von Immobilien in der Türkei", in: *HL;* XXX (1886).
–: "Ein Besuch bei Abu Suweirih", in: *ZDPV*, X (1887).
–: "Legende zum Plane von Gaza", in: *ZDPV*, XI (1888).
–: "Der Getreidemarkt von Gaza", in: *HL*, XXXVII (1893).
Gaudry, Albert: *Recherches Scientifiques en Orient Entreprises par les Ordres du Gouvernment pendant les Années 1953–1854, et Publiées sous les Auspices du Ministère de l'Agriculture, du Commerce et des Travaux Publics*. Partie Agricole, Paris 1855.
Gerber, Haim: "The Population of Syria and Palestine in the Nineteenth Century", in: *AAS*, 13 (1979).
–: "Modernization in Nineteenth-Century Palestine – The Role of Foreign Trade", in: *MES*, 18/3 (1982).
Gilbar, Gad: *The Growing Economic Involvement of Palestine with the West 1865–1914*, Manuscript, Haifa 1979.
Gottheil, Fred M.: *Money and Product Flows in Mid – 19th Century Palestine: The Physiocratic Model Applied*, Manuscript, Haifa 1979.
–: "The Population of Palestine, circa 1875". In : *MES*, 15/3 (1979).
Granott, A.: *The Land System in Palestine*, London 1952.
Grant, Christina Phelps: *The Syrian Desert*, London 1937.
Graul, K.: *Reise nach Ostindien über Palästina und Egypten von Juli 1949 bis April 1853.* Erster Theil: Palästina, Leipzig 1854.
Greaves, R.W.: "The Jerusalem Bishopric, 1841", in: *English Historical Review*, LXIV (1949).
Guarmani, Carlo: *Gl'Italiani in Terra Santa*, Bologna 1872.
Guérin, Victor: *Description Géographique, Historique et Archéologique de la Pales tine, 7 vols.*, Amsterdam 1969 (Reprint).
–: *Jérusalem, Son Histoire, sa Description, ses Etablissements Religieux*, Paris 1889.

Guthe, Hermann: *Palästina*, Bielefeld und Leipzig 1908.
–: "Das Ende des friedlichen Kreuzzuges und die Zukunft des heiligen Landes", in: *Die Christliche Welt*, 32 (1918).
Gutmann, Edwin Emanuel: *The Development of Local Government in Palestine*, Ph. D. Thesis, Columbia University, 1958.

Haddad, E.N.: "Political Parties in Syria and Palestine (Qaisî and Yemenî)", in: *JPOS*, , 1 (1920–21).
Haefeli, Leo (Trad.): *Die Beduinen von Beerseba – Ihre Rechtsverhältnisse, Sitten und Gebräuche*, Luzern 1938.
Hajjar, Joseph: *L'Europe et les Destinées du Proche-Orient (1815–1848)*, n.pl. 1970.
–: *Le Vatican – La France et le Catholicisme Oriental (1878–1914)*, Paris 1979.
Hammer, Karl: *Weltmission und Kolonialismus*, München 1978.
Hanauer, J.E.: "Notes on the History of Modern Colonisation in Palestine", in: *PEFQS* 1900.
Handbook for Travellers in Syria and Palestine, London 1858, 1868 und 1875.
Hanselmann, Siegfried: *Deutsche Evangelische Palästinamission*, Erlangen 1971.
Hardy, Gaston Le: *Histoire de Nazareth et de ses Sanctuaires*, Paris 1905.
Harik, Iliya F.: *Politics and Change in A Traditional Society: Lebanon, 1711–1845*, Princeton 1968.
Hartmann, M., Die Ortschaftenliste des Liwa Jerusalem in dem türkischen Staatskalender für Syrien auf das Jahr 1288 der Flucht (1871), in: *ZDPV*, VI (1883).
–: "Das Bahnnetz Mittelsyriens" in: *ZDPV*, XVII (1894).
Hartmann, Richard: "Zur Siedlungskunde des westjordanischen Gebirgslandes", in: *Geographische Zeitschrift*, 16 (1910).
Havemann, Axel: *Rurale Bewegungen im Libanongebirge des 19 Jahrhunderts*, Berlin 1983.
Hellwald, Fr. v. und L.C.Beck: *Die heutige Türkei*, 2 Bde., Leipzig 1878–1879.
Henderson, Philip: *The Life of Laurence Oliphant. Traveller, Diplomat and Mystic*, London 1956.
Hergt, C.: *Palästina*, Weimar 1865.
Hertzberg, Hans Wilhelm: *Jerusalem – Geschichte einer Gemeinde*, Kassel 1965.
Herzl, Theodor: *Gesammelte zionistische Werke*, Bd. 5, Tel Aviv 1935.
Hill, S.S.: *Travels in Egypt and Syria*, London 1866.
Hintze, Otto: "Wesen und Verbreitung des Feudalismus", in: Ders., *Feudalismus – Kapitalismus*, Göttingen 1970.
Hoare, E.: *Rome, Turkey, and Jerusalem*, London [2]1876.
–: *Palestine and Russia*, London 1877.
Höcker, Wilma: *Der Gesandte Bunsen als Vermittler zwischen Deutschland und England*, Göttingen 1951.
Hoexter, Miriam: "The Role of the Qays and Yaman Factions in Local Political Divisions", in: *AAS*, 9 (1973).
Hoffmann, Christoph: *Nachricht über die Anfänge der Ansiedlung des Tempels im Heiligen Lande*, Marbach 1870.

Hoffmann, C.: "Einiges über die Fellachen in Palàstina", in: *NNM,* 23 (1879).
Hofman Yitzhak: "The Administration of Syria and Palestine under Egyptian Rule (1831–1840)", in: Ma'oz (editor), *Studies on Palesine.*
Hollstein, W.: *Kein Frieden um Israel. Zur Sozialgeschichte des Palästina-Konflikts,* Frankfurt Main 1972.
Hopkins, I,W,J,: "The Four Quarters of Jerusalem", in: *Palesfine Exploration Quarterly,* 103 (1971).
Hopwood, Derek: *The Russian Presence in Syria and Palestine 1843–1914,* Oxford 1969.
Hörmann, Albert von: "Tüken und Araber – Die Türken in Palästina", in: *HI,* XI (1867).
–: "Die Beduinen", in: *HL,* XIV (1970).
Hornung, A.: "Alt–und Neu–Palästina oder: Die projectirte Ueberschwemmung des Ghor" in: *HL,* XIII (1869).
Hourani, Albert: "The Fertile Crescent in the Eighteenth Century", in Hourani, *A Vision of History,* Beirut 1961.
–: "Ottoman Reform and the Politics of Notables", in: W,R, Polk und R.L. Chambers (editors); *Beginnings of Modernization in the Middle East,* Chicago 1968.
–: *The Ottoman Background of the Modern Middle East,* London 1970.
Hütteroth, Wolf-Dieter und Kamal Abdulfattah: *Historical Geography of Palestine, Transjordan and Southern Syria in the Late 16th Century,* Erlangen 1977.
Hyamson, Albert M.: *British Projects for the Restoration of the Jews,* Leeds 1917.

Imberger, Karl: *Die deutschen landwirtschaftlichen Kolonien in Palästina,* Öhringen 1938.
Irabi, Abdulkader: *Sozialgeschichte Palästinas,* Basel 1978.
Iseminger, Gordon L: "The Old Trukısh Hands: The British Levantine Consuls, 1856–1876", in: *The Middle East Journal,* 22 (1968).
Israel Pocket Library : *Immigration and Settlement,* Jerusalem 1973.
Issawi, Charles (editor): *The Economic History of the Middle East 1800–1914,* Chicago 1966.

"Jaffa im Monate December", in: *HL,* XXIII (1879).
Jaffa – Jérusalem. Notice, Paris 1875.
Jaussen, J.-A.: *Naplouse et Son District,* Paris 1927.
Jessup, Henry Harris: *Figty-Three Years in Syria,* 2 vols., New York 1910.
Jong, F de: *Islamic Mysticism in Palestine. Observations and Notes concerning Mystical Brotherhoods in Modern times,* manuscript, Amman 1980.
Jullien, R.P.: "Une Visite à Chéfa 'Amer", in: *Les Missions Catholiques,* 21 (1889).
Justus, Siegfried: *Ueber die Bedeutsamkeit der Heiligen Stättenfrage und ihren EinfluB auf das Friedenssystem zur Gewähr einer bessern Zukunft,* Berlin 1853.

Kalla, Mohammad Sa'id: *The Role of Foreign Trade in the Economic Development of Syria, 1831–1914,* Ph. D. Thesis, The American University, Washington 1969.

Kaltner, Johann Alois: *Raphael, der biblische Führer In's Heilige Land Eine umfassende Beschreibung der ersten deuischen Pilgerfahrt nach Jerusalem und Palästina*, Schaffhausen [2]1860.

Karal, Enver Ziya: *Osmanli Tarihi*, vol. V, Ankara [3]1970; vol. VI, Ankara [2]1976; vol. VII, Ankara [2]1977.

Karasapan, Celâl Tevfik: *Filistin ve Sark-ul-Ürdün*, 2 vols., Istanbul 1942.

Kark, Ruth: "The Jerusalem Municipality at the End of Ottoman Rule", In: *AAS*, 14 (1980).

–: "The Traditional Middle Eastern City – The Cases of Jerusalem and Jaffa During the Nineteenth Century", In: *ZDPV*, 97 (1981).

Kark, Ruth und Shimon Landman: "The Establishment of Muslim Neighbourhoods in Jerusalem outside the Old City, during the Late Ottoman Period", In: *Palestine Exploration Quarterly*, 112 (1980).

Karkar, Yaqub N.: *Railway Development In the Ottoman Empire 1856–1914*, New York 1972.

Karmon, Yehuda: "The Settlement of the Northern Huleh Valley since 1838", in: *Israel Exploration Journal*, 3 (1953).

–: "Changes In the Urban Geography of Hebron During the Nineteenth Century", in Ma'oz (editor), *Studies on Palestine*.

Karpat, Kemal H.,: "Ottoman Population Records and the Census of 1881/82 – 1893", In: *IJMES*, 9/2 (1978).

–: *The Status of the Muslim under European Rule: The Eviction of the Cerkes from the Caucasia and the Balkans and their Settlement in Syria*, manuscript, Amman 1980.

Katouzian, Homa: "Die "arid-isolierte" Gesellschaft: Ein Modell der Langzeitentwicklung von Wirtschaft und Gesellschaft im Iran", In: *Peripherie*, 3 (1980).

Kayyali, A.W.: *Palestine – A Modern History*, London n.d.

Kazziha, Walid: *The Social History of Southern Syria (Trans-Jordan) In the 19th and Early 20th Century*, Beirut 1972.

Khader, Bichara: *Histoire de la Palestine*, 2 vols., Tunis und Algier 1976–1977.

Khalidi, Radhid Ismail : *British Policy towards Syria and Palestine 1906–1914*, London 1980.

Khalidi, Tarif: "Palestinian Historiography: 1900–1948", In: *JPS* , 39 (1981).

Khayat, habeeb Albert: *Waqfs In Palestine and Israel – From the Ottoman Reforms to the Present*, Ph. D. Thesis, The American University, Washington 1962.

Kiernan, V.G.: *The Lords of Human Kind: European Attitudes towards the Outside World In the Imperial Age*, Harmondsworth [2]1972.

Kishtainy, Khalid: *Palestine In Perspective*, Beirut 1971.

Klat, Paul J.: "Musha Holdings and Land Fragmentation In Syria", in: *Middle East Economic Papers*, Beirut 1957.

–: "The Origins of Landownership In Syria", in: *Middle East Economic Papers*, Beirut 1958.

Klein, F.A.: "Mittheilungen über Leben, Sitten und Gebräuche der Fellachen in Palästina", in: *ZDPV*, III (1880), IV (1881), VI (1883).

Kobler, Franz: *The Vision Was There. A History of The British Movement for the Restoration of the Jews to Palestine*, London 1956.
Kuchenbuch, Ludolf und Bernd Michael (Hrsg.) : *Feudalismus – Materialien zur Theorie und Geschichte*, Frankfurt / Main 1977.

Lamond, John: *Modern Palestine or the Need of a New Crusade*, Edinburgh und London 1896.
Lamy, Étienne : *La France du Levant*, Paris 1900.
Landes, David S.: "Palestine before the Zionists", in: *Commentary*, 61/2 (1976).
Layish, Aharon. "The Muslim Waqf in Israel", in: *AAS*, 2 (1966).
Lees, G, Robinson: *Village Life in Palestine*, London 1897.
Levine, Samuel H.: *Changing Concepts of Palestine in American Literature to 1867*, Ph. D.thesis, New York University 1953.
Lewis, Bernard: *The Emergence of Modern Turkey*, Oxford [2]1968.
–: Ottoman Land Tenure and Taxation in Syria, in: *Islamica*, 50 (1979).
–: "Palestine: On the History and Geography of a Name", in: *International History Review*, 11/1 (1980).
Lewis, Norman N.: "The Frontier of Settlement in Syria, 1800–1950", in: *International Affairs*, XXXI (1955).
Lewysohn, Salomon: *Klange aus dem Morgenlande*, Posen 1859.
Liebetrut, Friedrich: *Reise nach dem Morgenlande, insonderheit nach Jerusalem und dem Heiligen Lande*, 2 Bde., Hamburg 1854.
Livingstone, W.P.: *A Galilee Doctor*, London n.d.
Loehnis, H.: *Die wichtigsten Ergebnisse einer Informationsreise in die Levante an Bord des Dampfers, Lucifer"*, Leipzig 1882.
– (Hrsg.): *Beiträge zur Kenntnis der Levante*, Leipzig 1882.
Loewe, L. (editor): *Diaries of Sir Moses and Lady Montefiore*, vol. 2, London 1890.
London, B.: "Eisenbahnverbindung des Mittelmeeres mit Damascus", in; *ÖMO*, 1 (1875).
Lorenzen, F.N.: *Jerusalem. Beschreibung meiner Reise nach dem Heiligen Lande im Jahre 1858*, Kiel 1859.
Lortet, Dr.: *La Syrie d'aujourd'hui, voyages dans la Phénicie, le Liban et la Judée 1875–1880*, Paris 1884.
Ludwig, H.: *Bethlehem besucht im Sommer 1864*, Bern 1865.
Luncz, A.M. (Hrsg.)· *Jerusalem Jahrbuch zur Beförderung einer wissenschaftlich genauen Kenntniss des jetzigen und des alten Palästinas*, 1 (1881). Wien 1882.
Lutfiyya, Abdulla M.: *Baytin – A Jordanian Village*, The Hague 1966.
Lynch, W.F.: *Narrative of the United States' Expedition to the River Jordan and the Dead Sea*. Philadelphia 1858.

Macalister, R. A. S. und E. W. G. Masterman: "Occasional Papers on the Modern Inhabitants of Palestine", in: *PEFQS* 1904, 1905 und 1906.
MacGregor, John: *The Rob Roy on the Jordan*, London [8]1904.

MacKay, Cameron: "The North Boundary of Palestine", In: *The Journal of Theological Studies,* XXXV (1934).
Mandel, Neville J : *The Arabs and Zionism before World War I,* Berkeley 1976.
Mansell, A. L.: "Coast Survey of Palestine", in: *The Naulical Magazine and Naval Chronicle for 1862.*
–: "A Surveying Trip Through the Holy Land", In: *The Nautical Magazine and Naval Chronicle for 1863.*
Ma'oz, Moshe: *Ottoman Reform in Syria and Palestine 1849–1861,* Oxford 1968.
– (editor): *Studies on Palestine during the Ottoman Period,* Jerusalem 1975.
Margalith, Israël: *Le Baron Edmond de Rothschild et la Colonisation Juive en Palestine 1882–1899,* Paris 1957.
Margalit, Hanna: "Some Aspects of the Cultural Landscape of Palestine during the First Half of the Nineteenth Century", In: *Israel Exploration Journal,* 13 (1963).
Martin, William Young: *The East: Being a Narrative of Personal Impressions of a Tour in Egypt, Palestine, und Syria,* London 1876.
Mauss et Sauvaire: "De Karak à Chaubak", in: *Bulletin de la Sociéré de Géographie,* 5. Série, XIV (1867).
Mayer, Philipp: *Erinnerungen ous Jerusalem und Palästina,* München 1858.
McCarthy, Justin: "The Population of Ottoman Syria and Iraq, 1878–1914", in: *AAS,* 15/1 (1981).
Merrill, Selah: *East of the Jordan,* London 1881.
Meyer, Martin A.: *History of the City of Gaza from the Earliest Times to the Present Day,* New York 1907.
Miller, Ellen Clare: *Eastern Sketches: Notes of Scenery, Schools, and Tent Life in Syria and Palestine,* Edinburgh 1871.
Mills, John: *Three Months' Residence at Nablus, and an Account of the Modern Samaritans,* London 1864.
Minerbi, Sergio: *L'Italie et la Palestine 1914–1920,* Paris 1970.
Montefiore : *Translation of a Letter Addressed by Sir Moses Montefiore... to the Jewish Congregations in the Holy Land, on the Promotion of Agriculture and Other Industrial Pursuits in that Country, and of the Replies Received Thereto,* London 1874.
–: *An Open Lette Addressed to Sir Moses Montefiore... Together with a Narrative of a Forty Day's Sojourn in the Holy Land...,* London 1875.
Morand, Abbé: *La Terre des Patriarches ou le Sud de la Palestine,* 2 vols., Lyon 1882–1883.
Morris, Robert: *Freemasonry in the Holy Land,* New York [5]1873.
Muhsam, H. V.: *Beduin of the Negev,* Jerusalem 1966.
Mülinen, E. Graf von: "Beiträge zur Kenntnis des türkischen Grundbuchwesens", in: *ZDPV,* XXIII (1900).
–: "Beiträge zur Kenntnis des Karmels", In: *ZDPV,* XXX (1907), XXXI (1908).
Müller, Klaus-Peter: *Unterentwicklung durch "Rentenkapitalismus"? Geschichte, Analyse und Kritik eines sozialgeographischen Begriffs und seiner Rezeption,* Kassel 1983.
Musil, Alois: *Arabia Petraea,* 3 Bde., Wien 1907–1908.

Neale, F.A. *Eight Years in Syria, Palestine, and Asia Minor, from 1842 to 1850*, 2 vols., London [2]1852.
Neil, James: *Palestine Re-Peopled; or Scattered Israel's Gathering*, London [3]1877.
–: *Palestine Explored*, London 1882.
–: "Land Tenure in Ancient Times, as Preserved by the Present Village Communities in Palestine", in: *Journal of the Transactions of the Victoria Institute*, 24 (1890).
Neumann, Bernhard: *Die Heilige Stadt und deren Bewohner*, Hamburg 1877.
Neumann, W.A.: "Der friedliche Kreuzzug nach Palästina" in: *ÖMO*, 3 (1877).
–: "Palästinas zukünftige Eisenbahnen", in: *ÖMO*, 10 (1884).
Nieuwenhuijze, C. A. O. van: *Sociology of the Middle East*, Leiden 1971.

Oliphant, Laurence: *The Land of Gilead with Excursion in the Lebanon*, Edinburgh and London 1880.
–. *Haifa or Life in the Holy Land 1882 – 1885*, Jerusalem 1976 (Reprint).
Oppenheim, Max Freiherr von: *Die Beduinen*, Bd. 1, Leipzig 1939; Bd. 2, Leipzig 1943; Bd. 3/1. Wiesbaden 1952; Bd. 3/2, Wiesbaden 1952.
Ortayh, Ilber: *Tanzimattan Sonra Mahalli Idareler (1840–1878)*, Ankara 1974.
Osborn, Henry S.: *Palestine, Past and Present*, Philadelphia 1859.
Owen, Roger: *The Middle East in the World Economy 1800–1914*, London 1981.

Padel, Wilhelm: "Das Grundeigenthum in der Türkei nach der neueren Gesetzgebung", in: *Mittheilungen des Seminars für Orientalische Sprachen zu Berlin*, Zweite Abtheilung, Westasiatische Studien, 3 (1900) und 4 (1901).
Padel, W. und L. Steeg: *De la Législation Foncière Ottomanè*, Paris 1904.
Palästina als Ziel und Boden Germanischer Auswanderung und Kolonisation, mit Rücksicht auf eine germanische Kolonisation des Orients im Allgemeinen, Pest, Wien, Leipzig 1868.
Palmer, P.: "Das jetzige Bethlehem", in: *ZDPV*, XVII (1894).
Past and Present State of Palestine, Dublin 1866.
Patai, Raphael: *Golden River to Golden Road. Society, Culture, and Change in the Middle East*, Philadelphia [3]1969.
Paulus, Christoph: "Die Tempelcolonien in Palästina", in: *ZDPV*, VI (1883).
Pech, E.: *Manuel des Sociétés Anonymes Fonctionnant en Turquie*, Constantinople [5]1911.
Personal Recollections of Turkish Misrule and Corruption in Syria, London 1877.
Petermann, H.: *Reisen im Orient*, 2 Bde., Leipzig [2]1865.
Pfeiffer, Ida: *Reise einer Wienerin in das Heilige Land*, Stuttgart 1969.
Pierotti, Ermete: *Jerusalem Explored*, vol. 1, Cambridge 1864.
–: *Customs and Traditions of Palestine Illustrating the Manners of the Ancient Hebrews*, Cambridge 1864.
–: *La Bible et la Palestine au XIXe Siècle*, Paris 1882.
Poliak, A. N.: *Feudalism in Egypt, Syria, Palestine, and the Lebanon, 1250–1900*, London 1939.

Polk, William R : *The Opening of South Lebanon, 1788–1840*, Cambridge 1963.
Polk, William R. and Richard L. Chambers: *Beginnings of Modernization in the Middle East*, Chicago 1968.
Porath, Yehoshua: "Social Aspects of the Emergence of the Palestinian Arab National Movement", in: Menahem Milson (editor), *Society and Political Structure in the Arab World*, New York 1973.
–: *The Emergence of the Palestinian-Arab National Movement 1918–1929*, London 1974.
Porter, J. L.: *The Giant Cities of Bashan; and Syria's Holy Places*, London 1866.
Post, George E.: "Essays on the Sects and Nationalities of Syria and Palestine, Land Tenure, Agriculture, Physical, Mental, and Moral Characteristics", in: *PEFQS* 1891.
Poujoulat, Baptistin: *La Vérité sur la Syrie et l'Expédition Française*, Paris 1861.
Poujoulat, M.: *Histoire de Jérusalem*, 2 vols., Paris 1841–1842.
–: *La France et la Russie à Constantinople – La Question des Lieux Saints*, Paris 1853.

Rafeq, Abdul-Karim: "The Local Forces in Syria in the Seventeenth, and Eighteenth Centuries", in: V. J. Parry and M. E. Yapp (editors), *War, Technology and Society in the Middle East*, London 1975.
–: "Changes in the Relationship between the Ottoman Central Administration and the Syrian Provinces from the Sixteenth to the Eighteenth Eighteenth Centuries", in: Thomas Naff and Roger Owen (editors), *Studies in Eighteenth Century Islamic History*, Carbondale 1977.
Rambles in the Deserts of Syria and among the Turkomans and Bedaweens, London 1864.
Rampendahl, R.: "Ueber die Beduinen Palästinas", in: *Deutsche Rundschau für Geographie und Statistik*, 5 (1883).
Raumer, Karl von: *Palästina*, Leipzig [3]1850.
Reilly, James: "The Peasantry of Late Ottoman Palestine", in: *JPS*, 40 (1981).
Ritter, Carl: *Der Jordan und die Beschiffung des Todten Meeres*, Berlin 1850.
–: *Ein Blick auf Palästina und seine christliche Bevölkerung*, Berlin 1852.
Robinson, Edward: *Biblical Researches in Palestine and the Adjacent Regions*, 3 vols., Jerusalem 1970 (Reprint).
Robinson, Thomas: *Wanderings in Scripture Lands*, London 1872.
Rodinson, Maxime: Islam und Kapitalismus, Frankfurt/Main 1971.
Rogers, E. T.: *Notices of the Modern Samaritans, Illustrated by Incidents in the Life of Jacob Esh Shelaby.* Gathered from Him, and Translated by Mr. E. T. Rogers, London 1855.
Roges, Mary Eliza: *La Vie Domestique en Palestine*, Paris 1865.
Roi, J. F. A. de le: *Die evangelische Christenheit und die Juden unter dem Gesichtspunkte der Mission geschichtlich betrachtet*, 3 Bde., Karlsruhe / Leipzig / Berlin 1884–1892.
Rosen, G.: "Ueber das Thal und die nächste Umgebung Hebrons", in: *ZDMG*, 12 (1858).

–: "Ueber Nâblus und Umgegend", In: *ZDMG*, 14 (1860).
–: *Geschichte der Türkei von dem Siege der Reform im Jahre 1826 bis zum Pariser Tractat vom Jahre 1856*, 2 Bde., Leipzig 1866–1867.
Rosenberg, Adolphus: "The Condition of Palestine", In: *Fraser's Magazine*, N.S. XII (1875).
–: "The Regeneration of Palestine", In: *The Gentleman's Magazine*, N.S. XVI (1876).
Roth, Erwin: *Preussens Gloria im Heiligen Land*, München 1973.
Rouillet, Antony: *La Palestine au Point de Vue International*, Paris 1869.
Rückert, K. Th.: *Reise durch Palästina und über den Libanon*, Mainz 1881.
Ruppin, A.: *Syrien als Wirtschaftsgebiet*, Berlin 1917.
Rustum, Asad Jibrail: "New Light on the Peasants' Revolt in Palestine April-Sep tember, 1834", In: *JPOS*, 10 (1934).

Saint-Aignan, Laurent de: *La Palestine et le Plan Divin*, Orléans 1887.
Saintine, P. Gérardy: *Trois Ans en Judée*, Paris 1860.
Saliba, Najib E.: "The Achievements of Midhat Pasha as Governor of the Province of Syria, 1878–1880", In. *IJMES*, 9/3 (1978).
Salvador, J.: *Paris, Jérusalem ou la Question Religieuse au XIX[e] Siècle*, 2 vols., Paris 1860
Sandreczki, S.: "Die Namen der Plätze, Strassen, Gassen u.s.w. des Jetzigen Jerusalem", In: *ZDPV*, VI (1883).
Saulcy, F. de: "Note sur le Projet de Jonction de la Méditerranée et de la Mer Rouge", In: *L'Athenaeum Francais*, 1 (1852).
–: *Voyage en Terre Sainte*, 2 vols., Paris 1865.
Saulcy, L.F. Caignart de: *Carnets de Voyage en Orient (1845–1869)*, Paris 1955.
Sax, Carl Ritter von: *Geschichte des Machtverfalls der Türkei bis Ende des 19, Jahrhunderts und die Phasen der "orientalischen Frage" bis auf die Gegenwart*, Wien ²1913.
Schatkowski-Schilcher, Linda: "Ein Modellfall indirekter wirtschaftlicher Durchdringung· Das Beispiel Syrien", In: *Geschichte und Gesellschaft*, 1 (1975).
–: *The Decline of Syrian Localism: The Damascene Notables 1785–1870*, D. Phil. Thesis, Oxford 1978.
–: "The Hauran Conflicts of the 1860s: A Chapter in the Rural History of Modem Syria", in: *IJMES*, 13/2 (1981).
Schick, C.: "Studien über Strassen – und Eisenbahn-Anlagen zwischen Jaffa und Jerusalem", In: *A. Petermann's Mittheilungen aus Justus Perthes' geographischer Anstalt*, 1867.
–: "Tagebuch einer Reise von Jerusalem nach Galiläa und zurück", In: *NNM*, 20 (1876).
–: "Die Wasscrversorgung der Stadt Jerusalem", In: *ZDPV*, 1 (1878).
–: "Landwirthschaftliche Verhältnisse In Palästina, In: *ÖMO*, 5 (1879).
–: "Fortschritte der Civilisation In Palästina In den letzten 25 Jahren", In: *ÖMO*, 6 (1880).
–: "Landesproducte Palästinas mit Rücksicht auf Colonisation", in: *ÖMO*, 6 (1880).

–: "Studien über Colonisirung des Heiligen Landes", in: *ÖMO*, 7 (1881).
–: "Zur Colonisations-Frage in Palästina", in: *ÖMO*, 8 (1882).
–: "Der gegenwärtige Stand der Colonisationsversuche in Palästina", in: *ÖMO*, 9 (1883).
–: "Der Jordan-Canal", in: *ÖMO*, 9 (1883).
–: "Artuf und seine Umgebung", in: *ZDPV*, X (1887).
–: "Die Baugeschichte der Stadt Jerusalem", Teil VII, in: *ZDPV*, XVII (1894).
–: "Zur Einwohnerzahl des Bezirks Jerusalem", in: *ZDPV*, XIX (1896).
Schick, C. und I. Benzinger: *Namensliste und Erläuterungen zu Baurath Dr. C. Schick's Karte der weiteren Umgebung von Jerusalem*, o.O., o.J.
Schlicht, Alfred: *Frankreich und die syrischen Christen 1799–1861*, Berlin 1981.
Schmeidler, W.F. Carl: *Geschichte des Osmanischen Reiches im letzten Jahrzehnt*, Leipzig 1875.
Schmidt, Hans und Paul Kahle: *Volkserzählungen aus Palästina gesammelt bei den Bauern von Bir-Zet*, Göttingen 1918.
Schmidt-Clausen, Kurt: *Vorwegenommene Einheit. Die Gründung des Bistums Jerusalem im Jahre 1841*, Berlin 1965.
Schölch, Alexander: "wirtschaftliche Durchdringung und politische Kontrolle durch die europäischen Mächte im Osmanischen Reich (Konstantinopel, Kairo, Tunis)", in: *Geschichte und Gesellschaft*, 1 (1975).
–: "Araber und Juden in Palästina. Die demographische Problematik eines hundertjährigen Konfikts", in: *Journal für Geschichte*, 1/4 (1979).
–: *Was there A Feudal System in Ottoman Lebanon and Palestine?* - manuscript, Haifa 1979.
–: "Ein palästinischer Repräsentant der Tanzimat-Periode: Yúsuf Diya'addin al-Khalidi (1842–1906)", in: *Der Islam*, 57/2 (1980).
–: "Die europäische Expansion und die Transformation Ägyptens 1760–1922", in: Jan-Heeren Grevemeyer (Hrsg.), *Traditionale Gesellschaften und europäischer Kolonialismus*, Frankfurt / Main 1981.
–: "Europa und Palästina 1838–1917", in: Helmut Mejcher und Alexander Schölch (Hrsg.), *Die Paläsina-Frage 1917–1948. Historische Ursprünge und internationale Dimensionen eines Nationenkonflikts*, Paderborn 1981.
–: "The Economic Development of Palestine, 1856–1882", in: *JPS*, 39 (1981).
–: "Zum Problem eines aussereuropäischen Feudalismus: Bauern, Lokalherren und Händler im Libanon und in Palästina in osmanischer Zeit", in: *Peripherie*, 5/6 (1981).
–: "European Penetration and the Economic Development of Palestine, 1856–82", in: Roger Owen (editor), *Studies in the Economic and Social History of Palestine in the Nineteenth and Twentieth Centuries*, London 1982.
–: "The Decline of Local Power in Palestine after 1856: The Case of 'Aqil Agá, in: *WI*, XXIII/XXIV (1984).
–: "The Demographic Develoment of Palestine, 1850–1882", in: IJMES, 17 (1985).
Schroeder, P.: "Verzeichnis der in Syrien und Mesopotamien erscheinenden Zeitungen", in: *ZDPV*, XII (1889).
Schulman, Leon: *Zur türkischen Agrarfrage, Palästina und die Fellachen-Wirtschaft*, Weimar 1916.

Schultz, Ernst Gustav: *Jerusalem, Eine Vorlesung*, Berlin 1845.
Schumacher, G : "Das Eisenbahnprojekt von Acca nach dem Jordanthal", in: *NNM*, 27 (1883)
–: "Population List of the Livâ of 'Akka", in: *PEFQS*, 1887.
–: "Der arabische Pflug", in: *ZDPV*, XII (1889).
–: "Das jetzige Nazareth", in: *ZDPV*, XIII (1890).
–: "Von Tiberias zum Hule-See", in: *ZDPV*, XIII (1890).
–: *The Jaulân*, Jerusalem 1976 (Reprint).
Schwarz, G.: "Jafa und Umgebung", in: *ZDPV*, III (1880).
Schweiger-Lerchen eld, A.v.: "Die" Euphratthat-Bahn "und kein Ende", in: *ÖMO* , 9 (1883).
Schwöbel, Valentin: "Die Verkehrswege und Ansiedlungen Galiläas in ihrer Abhängigkeit von den natürlichen Bedingungen", in: *ZDPV*, XXVII (1904).
–: *Die Landesnatur Palästinas*, 2 Teile, Leipzig, 1914.
Seibt, Hans: *Moderne Kolonisation in Palastina*, 2 Teile,. Stuttgart 1933.
Sepp, Dr.: *Jerusalem und das Heilige Land*, 2 Bde., Schaffhausen 1863.
Shamir, Shimon: "The Modernization of Syria: Problems and Solutions in the Early Period of Abdülhamid", in: W.R. Polk und R.L. Chambers (editors), *Beginnings of Modernization in the Middle East*, Chicago 1968.
–: "Belligerency in a Disintegrating Society: Factional Warfare in Ottoman Syria on the Eve of the Period of Modernization", in: *Abr Nahrain*, XII (1972).
–: "Midhat Pasha and the Anti-Turkish Agitation in Syria", in: *MES*, 10/2 (1974).
Sharif, Regina: "Christians for Zion, 1600–1919", in: JPS, 19/20.(1976).
Sharon, Moshe: "The Political Role of the Bedouins in Palestine in the Sixteenth and Seventeenth Centuries", in: Ma'oz (editor), *Studies on Palestine*.
Shaw, S.J.: "The Nineteenth-Century Ottoman Tax Reforms and Revenue System", in: *IJMES*, 6/4 (1975).
–: "The Ottoman Census System and Population, 1831–1914", in: *IJMES*, 9/3 (1978).
Shaw, Stanford J. und Ezel Kural Shaw: *History of the Ottoman Empire and Modern Turkey*, vol. 2, Cambridge 1977.
Sidebotham, Herbert· *England and Palestine. Essays towards the Restoration of the Jewish State*, London 1918.
Sinno, Abdel-Raouf· *Deutsche Interessen in Syrien und Palästina 1841–1898*, Berlin 1982.
Slousch, Nahum: "La Colonie des Maghrabim en Palestine", in: *Archives Marocaines*, 2 (1904–1905).
Smith, George Adam: *The Historical Geography of the Holy Land*, New York 1966.
Smith, Hasketh: "the Experiences of a Multazim", in: *Blackwood's Edinburgh Magazine*, 147 (1890).
Socin, A.: "Alphabetisches Verzeichniss von Ortschaften des Paschalik Jerusalem", in: *ZDPV*, II (1879).
–: "Bericht über neue Erscheinumgen auf dem Gebiete der Palästinaliteratur 1883", in: *ZDPV*, VII (1884).
–: "Ein Ritt durch Palästina im Jahre 1869", in: *ZDPV*, 60 (1937).

Solignac, Armand de: *Les Français en Palestine,* Limoges, n.d. [1875].
Spyridon, S. N.: "Annals of Palestine, 1821–1841", in: *JPOS,* 18 (1938).
Stangen, Carl: *Palästina und Syrien,* Berlin 1877.
Stanley, Arthur P.: *Sinai and Palestine in Connection with their History,* London ²1856.
Stavrou, Theofanis George: "Russian Interest in the Levant 1843–1848", in: *Middle East Journal,* XVII (1963).
–: *Russian Interests in Palestine 1882–1914,* Thessaloniki 1963.
Steppat, Fritz: "Eine Bewegung unter den Notabeln Syriens 1877–78", in: *ZDMG,* Supplementa 1,2 (1969).
–: "Ein "Contrat Social" in einer palästinischen Stadt 1854", in: *WI,* XV (1974).
–: *The Penetration of Secular Socio-Political Concepts in the 19th Century. A Contribution to the Study of Political Consciousness in Bilad al-Sham,* manuscript, Damaskus 1978.
Stolz, Alban: *Besuch beim Sem, Cham und Japhet, oder Reise in das Heilige Land,* Freiburg i. Br. ⁸1905.
Sweezy, P. u.a.: *Der Übergang vom Feudalismus zum Kapitalismus,* Frankfurt/ Main 1978.
Sykes, Christopher: *Kreuzwege nach Israel,* München 1967.

Tamari, Salim: "Factionalism and Class Formation in Recent Palestinian History", in: Roger Owen (editor), *Studies in the Economic and Social History of Palestine in the Nineteenth and Twentieth Centuries,* London 1982.
"The Belka Arabs, by a Palestine Explorer", in: *Blackwood's Edinburgh Magazine,* CXXXIV (1883).
The Cities of Palestine, London 1856.
The Final Exodus; or, the Restoration to Palestine of the Lost Tribes, the Result of the Present Crisis; with a Description of the Battle of Armageddon, and the Downfall of Russia, as Deduced Wholly from Prophecy, London 1854.
The Jerusalem Almanack 1868, Jerusalem n.d.
The Survey of Western Palestine, Special Papers, London 1881.
The Survey of Western Palestine, six vols., Jerusalem 1970 (Reprint of volumes Galilee, Samaria,Judaea, Jerusalem and General Index, London 1881–1888).
"The Syrian Route to the East", in: *Blackwood's Edinburgh Magazine,* LXXXII (1857).
Thomson, William M.: *Southern Palestine and Jerusalem,* London 1881.
–: *The Land and the Book,* London 1894.
Tibawi, A. L.: *British Interests in Palestine, 1800–1901. A Study of Religious and Education Enterprise,* London 1961.
–: *A Modern History of Syria Including Lebanon and Palestine,* London 1969.
Tischendorf, Constantin; *Aus dem Heiligen Lande,* Leipzig 1862.
Tobler, Titus: *Bethlehem in Palästina,* St. Gallen und Bern 1849.
–: *Denkblätter aus Jerusalem,* St. Gallen und Konstanz 1853.
–: *Titus Toblers Dritte Wanderung nach Palästina im Jahre 1857,* Gotha 1859.
–; *Nazareth in Palästina,* Berlin 1868.

Tolkowsky. S.: *The Gateway of Palestine, A History of Jaffa*, London 1924.
Touma, Toufic: *Paysans et Institutions Féodales chez les Druses et les Maronites du Liban du XVII^e Siècle à 1914*, vol. 1, Beyrouth 1971.
Trietsch, Davis: *Palaestina Handbuch*, Berlin 1910.
Tristram, H.B.: *The Land of Moab*, London 1873.
–: *Pathways of Palestine*, 2 vols., London 1881–2.
–: *The Land of Israel*, London [4]1882.

Über das privateigentum des Sultans in der Jordan-Ebene", in: *NNM*, 37 (1893).

Vaux, Ludovic de: *La Palestine*, Paris 1883.
Velde, C.W.M. van de: *Reise durch Syrien und Palästina in den Jahren 1851 und 1852*, 2 Bde , Leipzig 1855–1856.
Veretė, Mayir· "Why Was a British Consulate Established in Jerusalem?", in: *English Historical Review*, LXXXV (1970).
–: "The Restoration of the Jews in English Protestant Thought 1790–1840", in: *MES*, 8/1 (1972).
–: "A Plan for the Internationalization of Jerusalem, 1840–1841", in: *AAS*, 12/1 (1978).
Verney, Noël und George Dambmann: *Les Puissances Étrangères dans le Levant en Syrie et en Palestine*, Paris und Lyon 1900.
Vidal, Emile: "La Palestine", in: *L'Explorateur*, 1 (1875).
Vogüé, Eugène-Melchior de: *Syrie, Palestine, Mont Athos*, Paris 1876.

Wahrmund, Adolf· *Lesebuch in Neu-Arabischer Sprache*, 2 Teile, Giessen [2]1880.
Walker, B · *The Future of Palestine as a Problem of International Policy and in Connection with the Requirements of Christianity and the Expectation of the Jews*, London 1881.
Wallace, Alexander: *The Desert and the Holy Land*, Edinburgh 1868.
Warner, Charles Dudley: "From Jaffa to Jerusalem", in: *The Atlantic Monthly*, (1876).
Warren, Charles: *The Land of Promise; or, Turkey's Guarantee*, London 1875,
–: *Underground Jerusalem*, London 1876.
Wartensleben, A. Gr.: *Jerusalem – Gegenwartiges und Vergangenes*, Berlin 1868.
Watson, C. M.: *Palestine Exploration Fund. Fifty Years' Work in the Holy Land. A Record and A Summary 1865–1915*, London 1915.
Weulersse, Jacques: *Paysans de Syrie et du Proche-Orient*, Paris 1946.
Wild, Stefan: "Zum Selbstverständnis palästinensisch-arabischer Nationalitt", in: Mejher und A. Schölch (editors), *Die Palästina-Frage 1917–1948*, Paderborn 1981.
Wilton, Edward: *The Negeb, or "South Country" of Scripture*, London and Cambridge 1863.
Wirth, Eugen: "Die Rolle tscherkessischer" Wehrbauern "bei der Wiederbesiedlung von Steppe und Ödland im Osmanischen Reich", in: *Bustan*, 4 (1963), Heft 1.

Wolff, Philipp: *Sieben Artikel über Jerusalem aus den Jahren 1859 bis 1869*, Stuttgart 1869.
–: *Flugblatter aus Jerusalem vom November und Dezember 1869*, Stuttgart 1870.
–: *Jerusalem – Nach eigener Anschauung und den neuesten Forschungen*, Leipzig [3]1872.
–· "Zur neueren Geschichte Jerusalems. Von 1843–1884", in: *ZDPY*, VIII (1885).
Wortabet, Gregory M.: *Syria, and the Syrians; or, Turkèy in the Dependencies*, vol.2, London 1856.
Wright, Wm.: "Syrian Colonization", in: *The Contemporary Review*, 43 (1883).
Wunder, Heide (Hrsg.): *Feudalismus*, München 1974.

Yerasimos, Stefanos: *Azgelismislık sürecinde Türkiye*, 2 vols., Istanbul 1974–1975.

Zamir, Meir: "Population Statistics of the Ottoman Empire in 1914 and 1919", in: *MES*, 17/1 (1981).
Zeine, Zeine N.: *The Emergence of Arab Nationalism*, Beirut 1966.
Zenner, Walter P.: "Aqilli Agha: The Strongman in the Ethnic Relations of the Ottoman Galilee", in: *Comparative Studies in Society and History*, 14 (1972).
Zimpel, F.: *Strassen-Verbindung des Mittelländischen mit dem Todten Meere Und Damascus über Jerusalem*, Frankfurt a.M. 1865.
–: *Mahnruf an die ganze Christenheit und nicht minder die Juden zur Befreiung von Jerusalem*, Frankfurt a.M. 1865.
Zschokke, H.: "Palästina auf der Weltausstellung in Wien 1873", in: *HL*, XVIII (1874).
Zwiedinek von Südenhorst, Julius: *Syrien und Seine Bedeutung für den Welthandel*, Wien 1873.

المجلات

(اسماء المجلات التي لم ترد مقالاتها، أو لم ترد مقالاتها كاملة، تحت اسماء المؤلفين او عناوين المقالات).

– Das Heilige Land

– Neueste Nachrichten aus dem Morgenlande

– Oesterreichische Monatsschrift fur den Orient

– Palestine Exploration Fund Quarterly Statement

– La Terre Sainte

– Die Warte

[مجلة الهيكليين (Templer)، وكان اسمها حتى سنة ١٨٧٧ : Süddeutsche Warte ثم اصبح : Die Warte des Tempels . وقد استشهد بالمجلة من مجموعة مقالاتها التي وردت في : Alex Carmel, Palästina–Chronik 1853–1883, Ulm (1978).]

الخرائط

الخارطة ١ :

مناطق الجبال الوسطى الفلسطينية في الربع الثالث من القرن التاسع عشر عن:
C.W.N. van de Velde: Map of the Holy Land (1:315000), Gotha, 1858; C.R. Conder/ H H. Kitchener: Map of Westèrn Palestine (1: 168 960) London, 1881).

الخارطة ٢ :

ولاية سورية في سنة ١٨٨٠ (عن سالنامة ولاية سورية لسنة ١٢٩٨).

الخارطة ٣:

الألوية الادارية في سوريا وفلسطين عشية الحرب العالمية الأولى (مأخوذة من :
Bericht über Palästina, erstattet durch die britische Königliche Palästina–Kommission unter dem Vorsitz von Earl Peel, Berlin 1937).

الخارطة ٤ :

مناطق الجليل الطبيعية [مأخوذة من : ZDPV, XXVII (1904)]

الخارطة ٥ :

خريطة المواصلات البحرية والبرية في سوريا (عن:
Julius Zwiedinek von Südenhorst: Syrien und seine Bedeutung für den Welthandel, Wien, 1873).

الخارطة ٦:

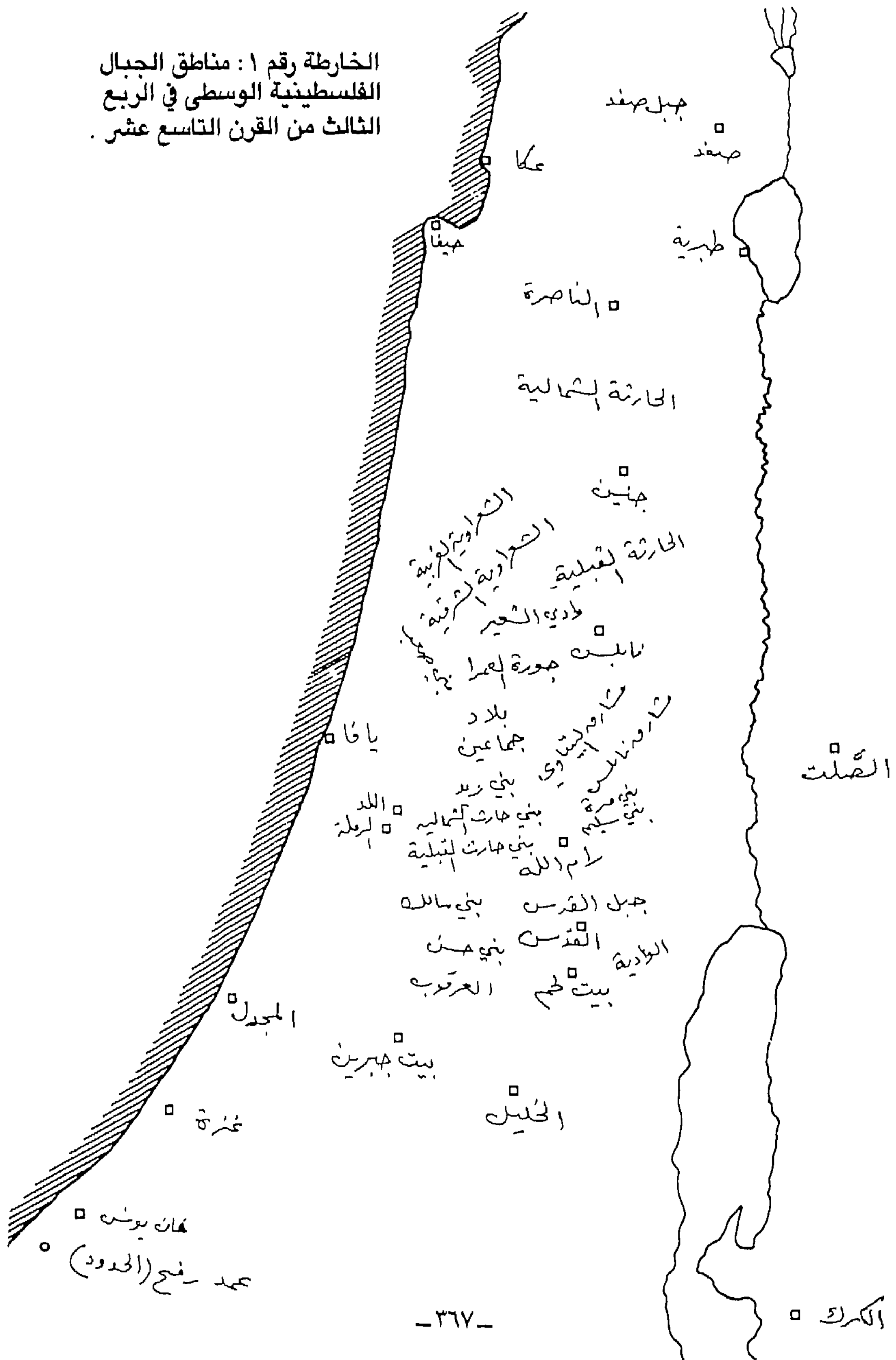
خطوط البحر الابيض والبحر الأسود الشركة لويد النمساورية (عن
Information for Passengers by the Austro – Hungarian Lloyd's Steam Navigation Company Trieste, 1874)

الخارطة ٧:

خطوط البحر الابيض والبحر الاسود لشركه مسيجيري مارتيم (عن:
Paquebots – Poste Français, Campagnie des Messageries Maritimes: Livret d'Itinéraires et Tarifs des Lignes de la Méditerranée et de la Mer Noire, 1874).

الخارطة ٨:

الخارطة التلغرافية لسوريا (عن:
Julius Zwiedinek von Südenhorst: Syrien und seine Bedeutung für den Welthandel, Wien 1873).



الخارطة رقم ١ : مناطق الجبال الفلسطينية الوسطى في الربع الثالث من القرن التاسع عشر .

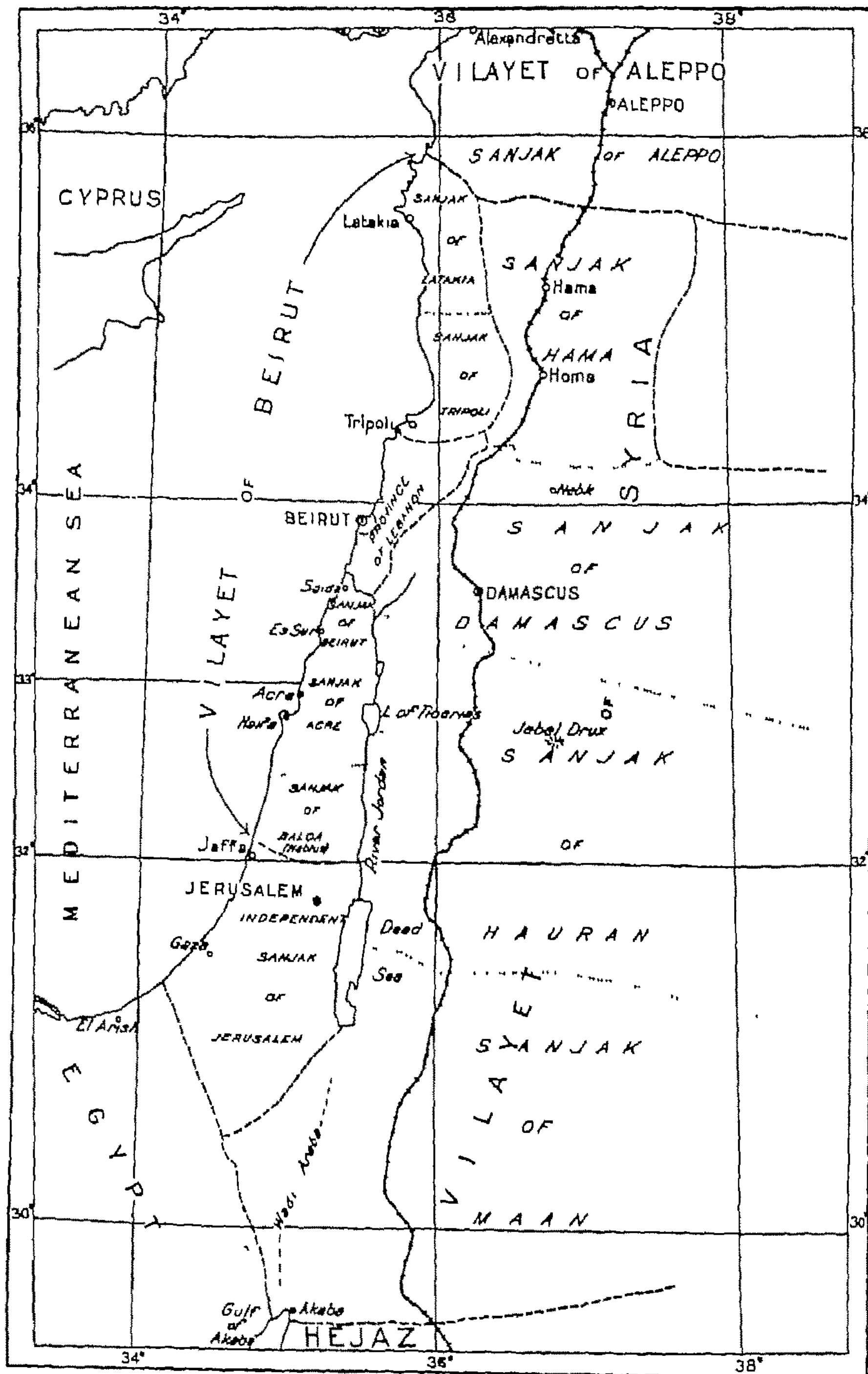
الخارطة ٢ : ولاية سوريا سنة ١٨٨٠.

حدود الولاية -.-.-.

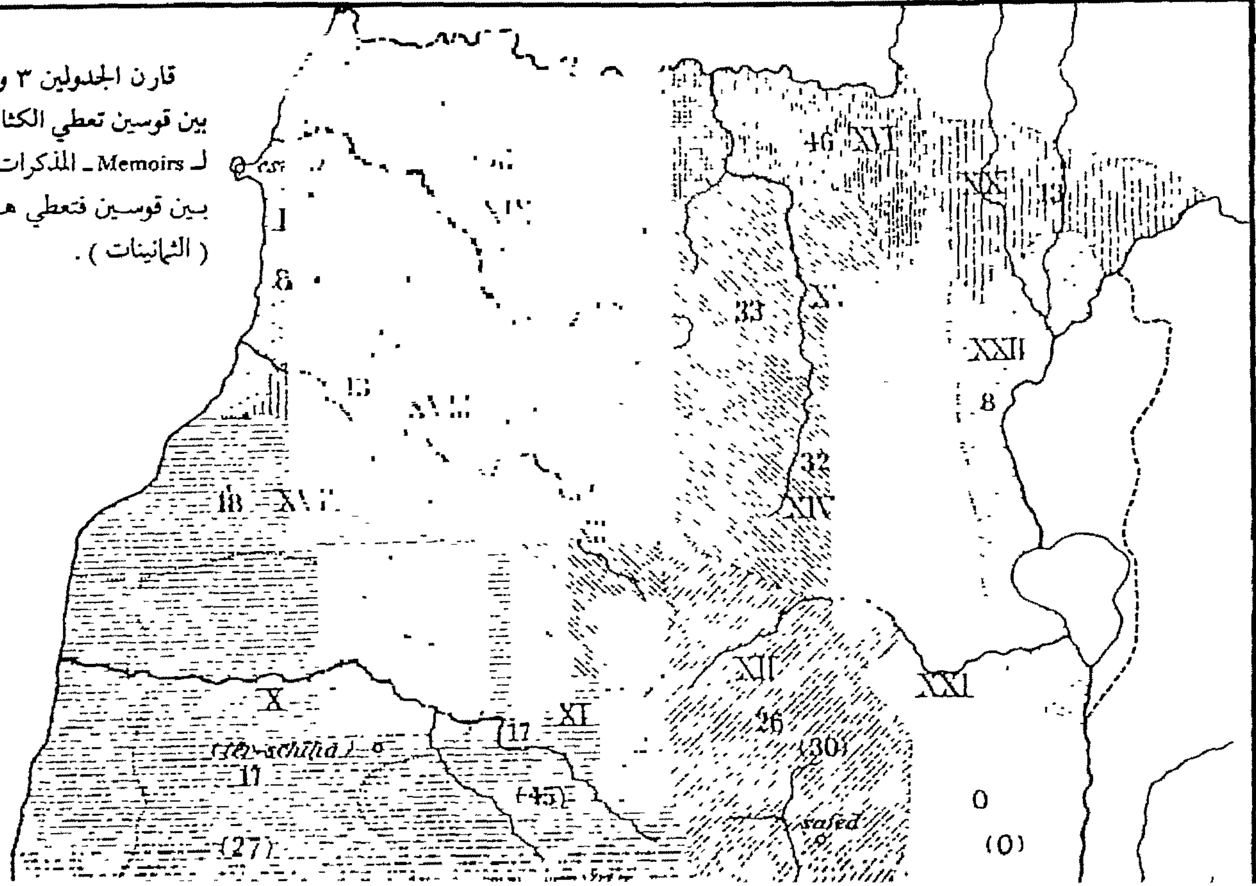
حدود السناجق ....

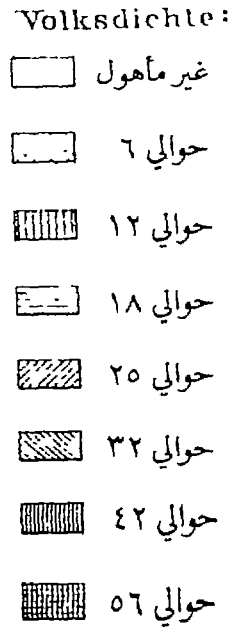
[جبل لبنان وسنجق القدس كان لهما وضع خاص مختلف]

الخارطة ٣ : المناطق الادارية في سوريا وفلسطين عشية الحرب العالمية الأولى.



الخارطة ٤ : الأصقاع الطبيعية في الجليل.



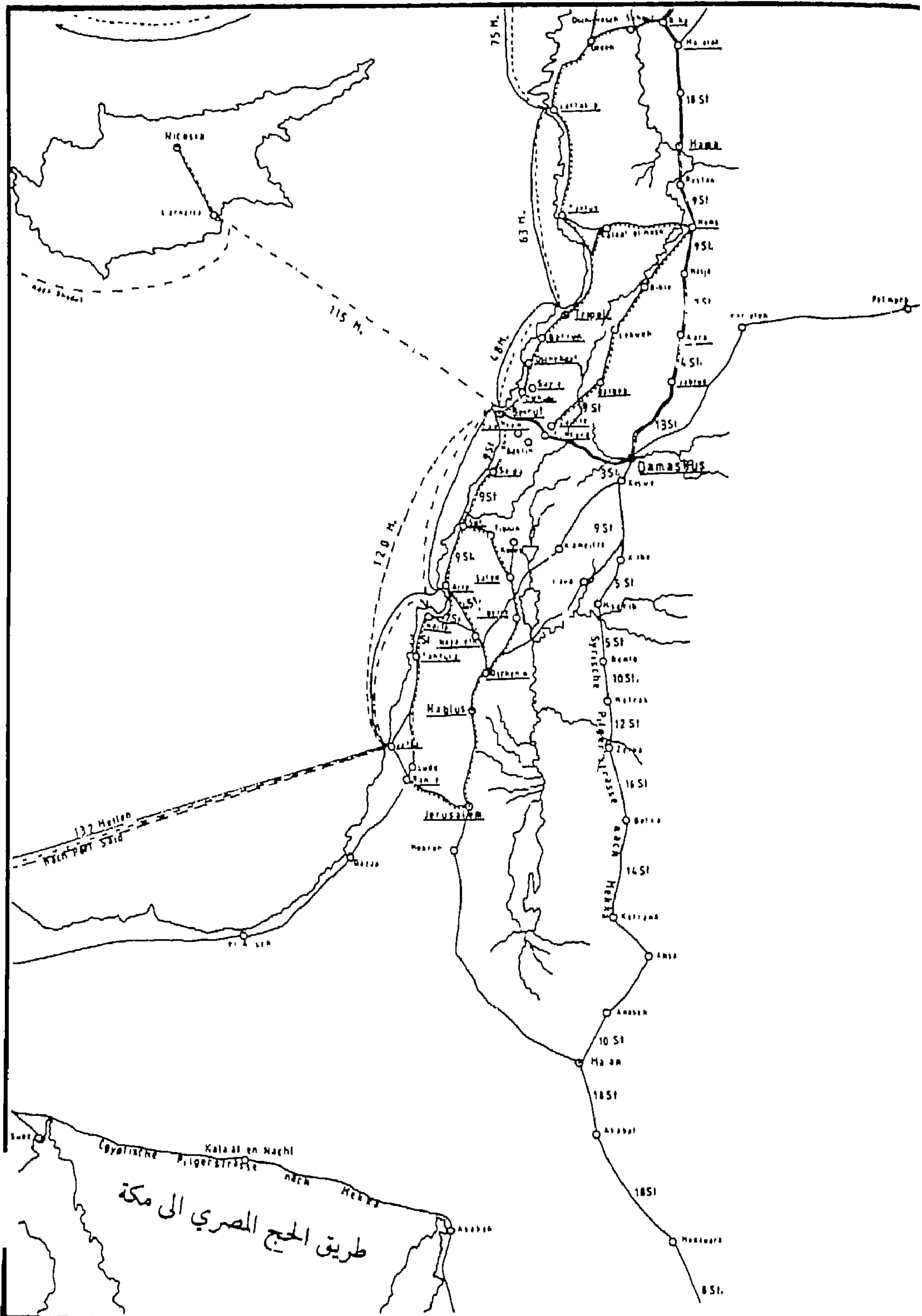

Volksdichte:
غير مأهول
حوالي ٦
حوالي ١٢
حوالي ١٨
حوالي ٢٥
حوالي ٣٢
حوالي ٤٢
حوالي ٥٦
haifa
tabarije
VIII
VI
18
(29)
en-nâsira
V
(27)
20 (37)
XXIII
III
5
(10)
IV
XXIV
(8)

الخارطة ٥ : خارطة المواصلات

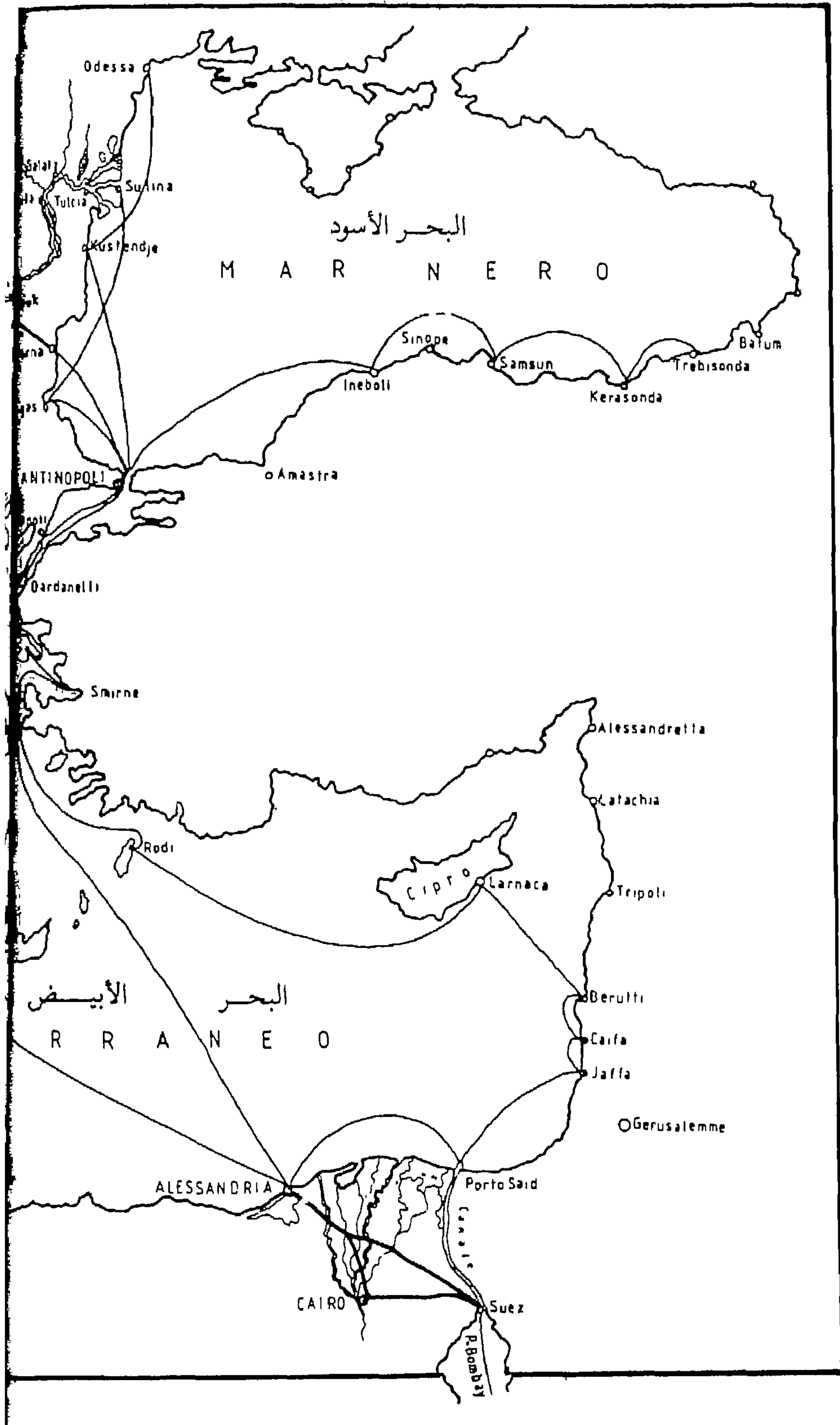


السفن البخارية الروسية ←——
السفن البخارية الفرنسية ← - -
السفن البخارية النمساوية ← - - -
البريد التتاري (التركي) ——
خدمة توزيع البريد (تركية) ——
الطريق من بيروت الى دمشق ——
محطات البريد ○——

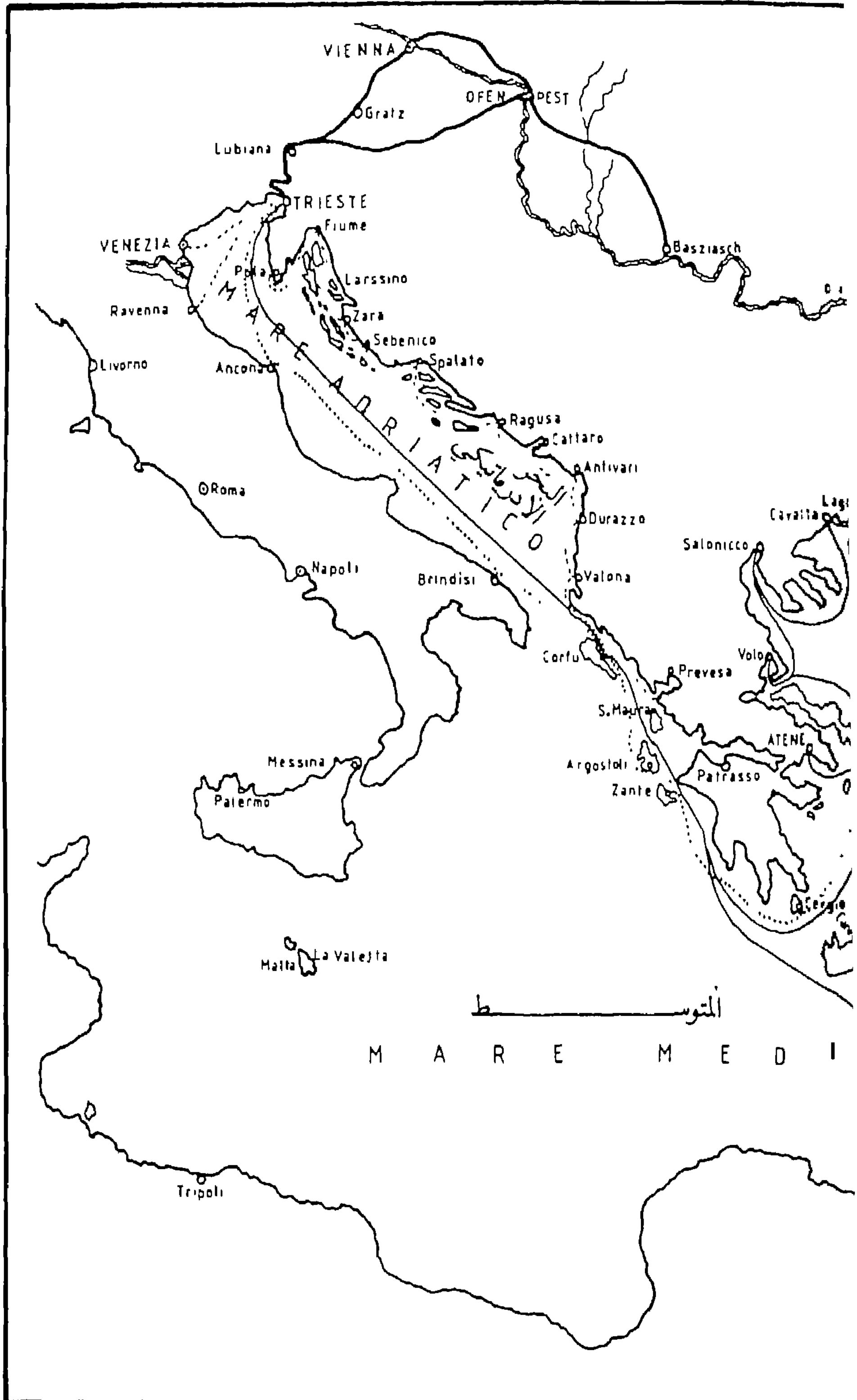
بحرية والبرية في سوريا



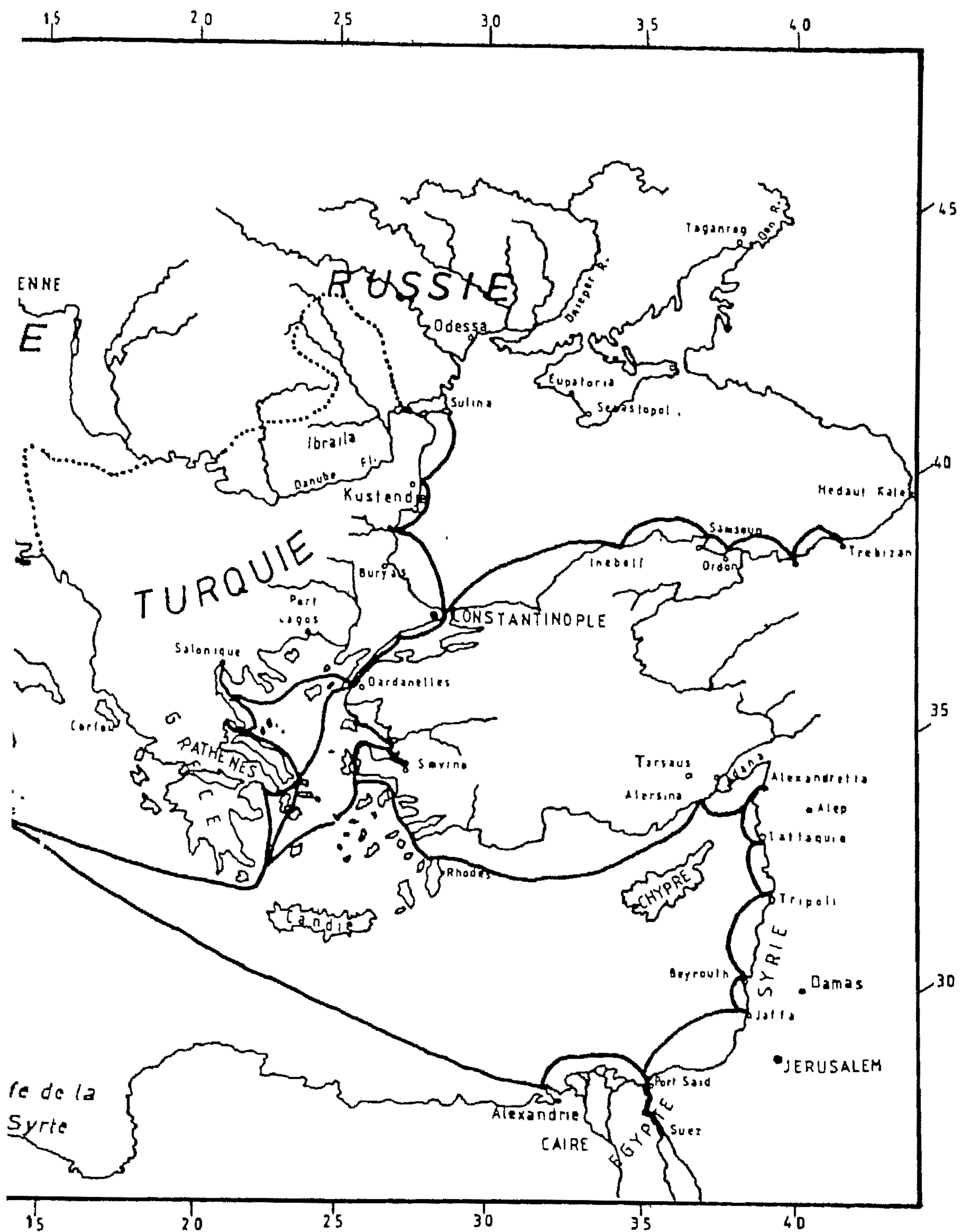
الخارطة ٦ : خطوط شركة لويدا النمساوية



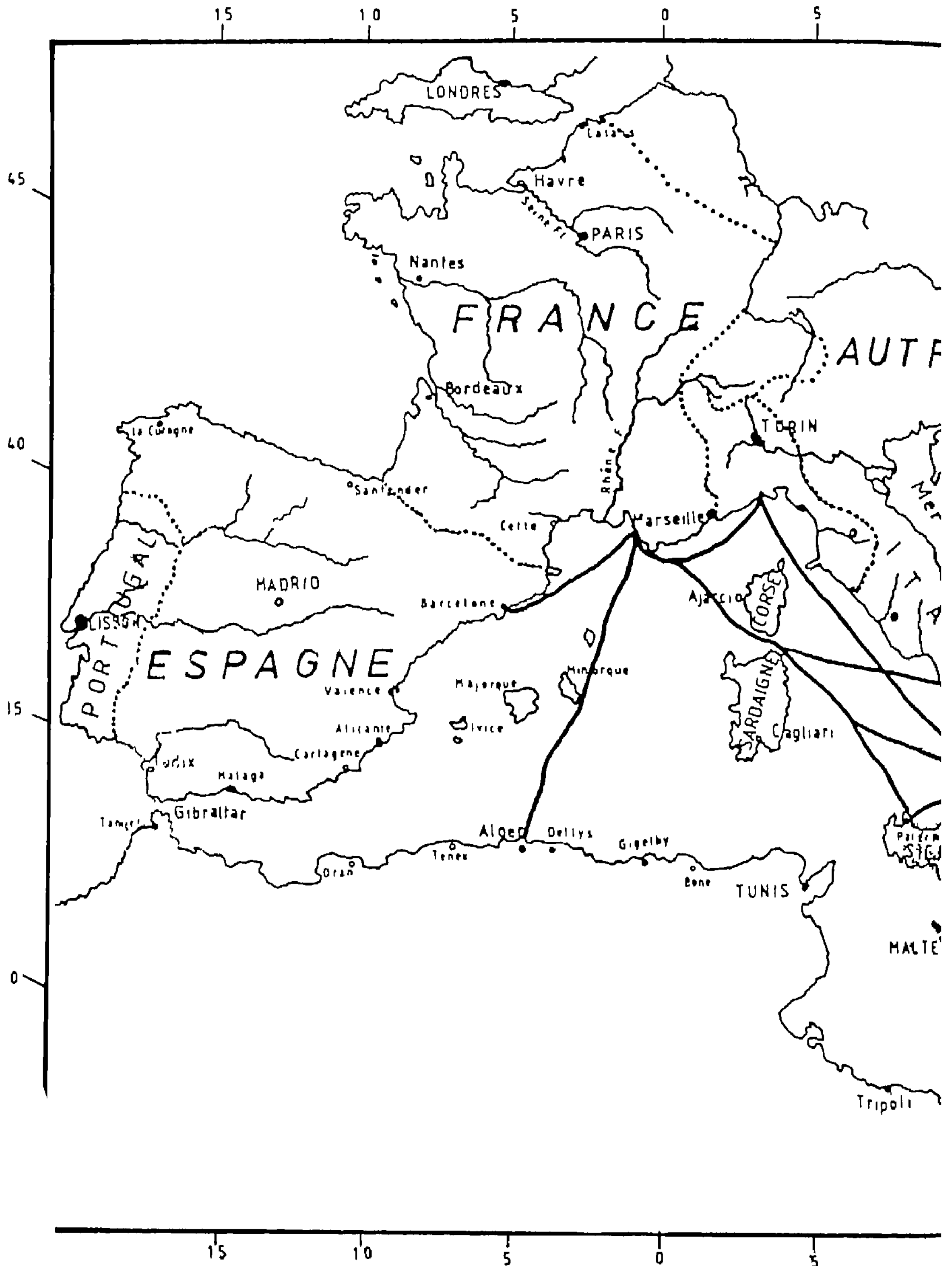
في البحر المتوسط والبحر الأسود .



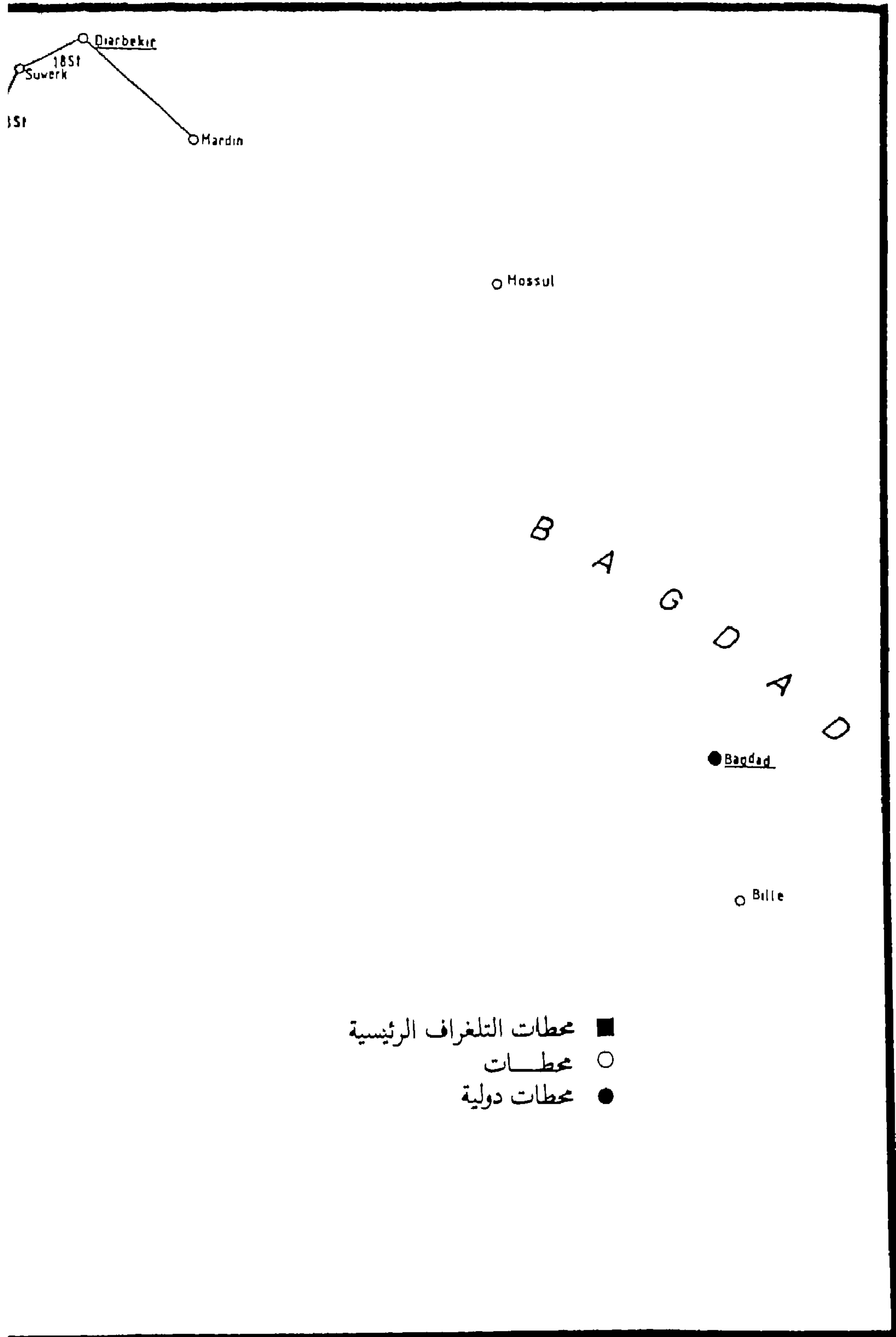
الخارطة ٧ : خطوط البحر المتوسط



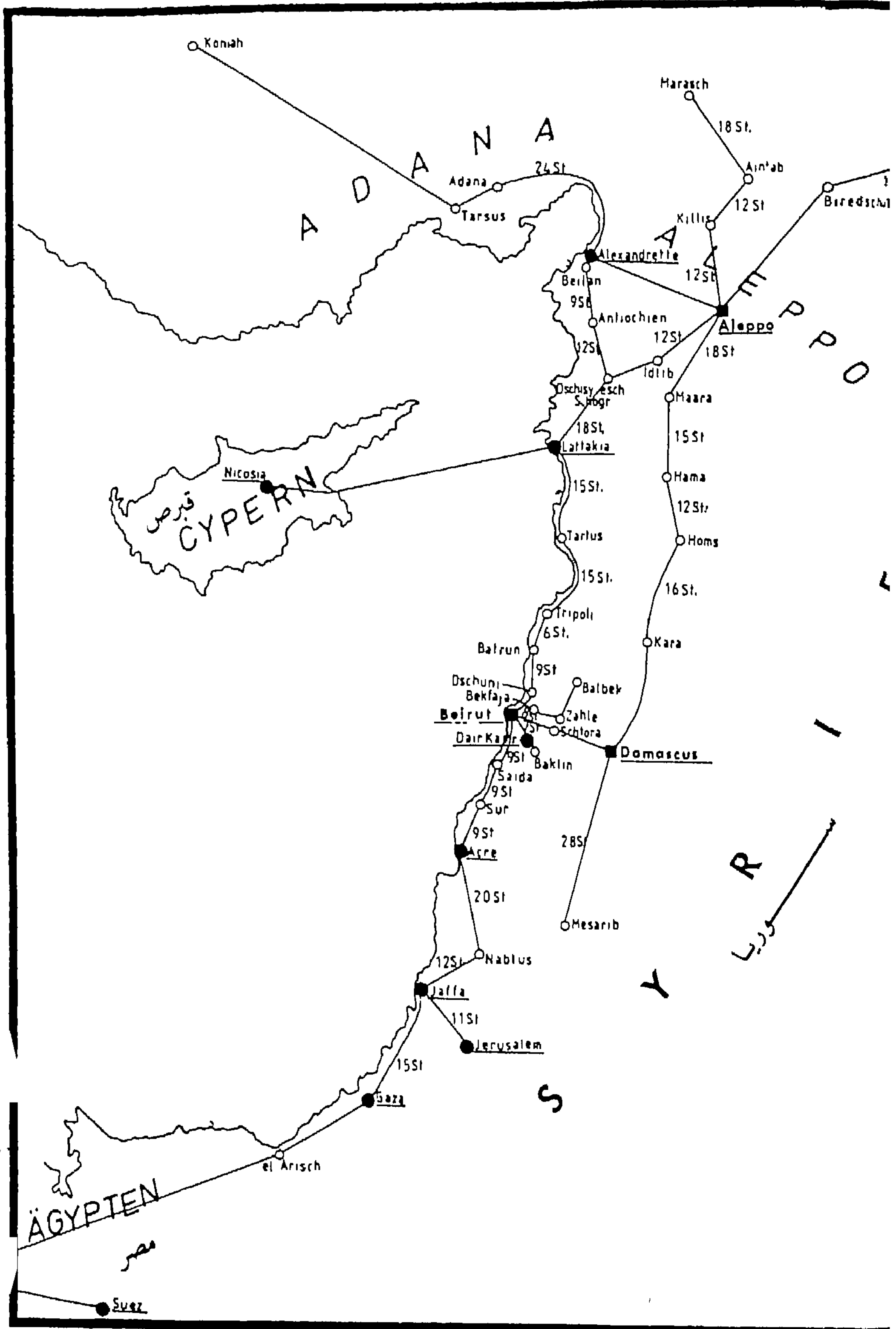
البحر الأسود لشركة مسجيري ماريتيم .



الخارطة ٨ : خارط



نلغراف في سوريا .



الكشّافات

كشاف أسماء الأشخاص
كشاف العائلات والعشائر
كشاف الأماكن والمواقع
كشاف الطوائف
الجـــداول

كشاف أسماء الأشخاص

- أ -

- ب -

- ت -

ـ ث ـ

ـ جـ ـ

ـ ح ـ

ـ خ ـ

ـ د ـ

- ر -

- ز -

- س -

- ط -

- ظ -

- ع -

- غ -

- ف -

- ل -

- م -

كشاف العائلات والعشائر

ـ آ ـ

كشاف الأماكن والمواقع

ـ آ ـ

ـ أ ـ

- ب -

- ت -

- ح -

- خ -

- د -

- ش -

- ص -

- ط -

- ع -

ـ غ ـ

ـ ف ـ

- ق -

- ك -

- ل -

- م -

- ن -

كشاف الطوائف

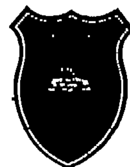
الجداول

رقم الايداع لدى المكتبة الوطنية
(١٩٨٨/١٢/٧١٠)

مطبعة الجامعة الأردنية
عمان ـ الأردن

University of Jordan Publications
Deanship of Academic Research

3/93



ALEXANDER SCHÖLCH

PALÄSTINA IM UMBRUCH 1856-1882

UNTERSUCHUNGEN ZUR WIRTSCHAFTLICHEN UND SOZIO-POLITISCHEN ENTWICKLUNG

ÜBERSETZT VON
K. J. ASALI



FRANZ STEINER VERLAG WIESBADEN GMBH
STUTTGART 1986

Amman-Jordan
1414 AH/1993